تاريخ النبي أحمد

صلى الله عليه وآله وسلم

آية الله العلامة الجليل

السيد حسن لواساني

قدس سره

الجزء الثاني

الحواشي من ابن المؤلف

د. س. أحمد لواساني

منشورات لواسان

بيروت

شبكة الفكر
alfeker.net

تاريخ النبي أحمد

صلى الله عليه وآله وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ النبي أحمد

صلى الله عليه وآله وسلم

آية الله العلامة الجليل

السيد حسن لواساني

قدس سره

الجزء الثاني

الحواشي من ابن المؤلف

د. س. أحمد لواساني

منشورات لواسان للثقافة الملتزمة

بيروت

جميع حقوق

الطبع والنشر والترجمة والاقتباس والتصوير

محفوظة

● الطبعة الأولى صيدا، لبنان ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م

● الطبعة الثانية بيروت، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

للمراجعات:

منشورات لواسان: بيروت - هاتف: ٠١/٦٨١٨٦٦ - ٠١/٨٤٥٧٧٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله على نواله وجميع آلائه، والصلاة والسلام على أكرم بريته وأشرف أنبيائه، وعلى آله المعصومين المصطَفَيْنَ من جميع أوليائه وأصفيائه، واللعنُ الدائم الأبدي على أعدائهم ومنكريهم إلى يوم لقائه.

وبعد، فهذا هو الجزء الثاني من تاريخ نبينا الأعظم محمد (ص) في غزواته وسراياه بعد هجرته، وفي مكارمه وخصائصه وشمائله، ونَسَبه وزوجاته وذريته، ومراسلاته لِملوك الأرض، وسائر ما يتعلق به إلى حين وفاته ودفنه، صلى الله على روحه الأقدس، وجسده المقدس، وعلى كل من يعز عليه من أهل بيته وخلفائه.

وقد كانت للنبي (ص) غزوات وسرايا (أو: بُعوث، جمع بَعْث)، ويُقصَد عادةً بكلمة «الغزوات» المعارك التي خرج فيها بنفسه الشريفة مع جنود المسلمين، و «السرايا» ـ أو البعوث ـ المعارك التي بعث فيها جنوداً للقاء الكفار من غير حضوره معهم (وإن كنا نجد في كتب السيرة ومصادر التاريخ وصف معارك عديدة وُصِفت بكلمة «غزوة» مع أن الرسول (ص) لم يشترك فيها) وقد كانت غزواته (ص) ستاً وعشرين غزوة، وسراياه ستاً وثلاثين سرية سيأتي ذكرها في طي الكتاب شيئاً فشيئاً، إن شاء الله تعالى.

أما الغزوات فلم تقع الحرب بينه وبين الكفار إلا في تسعٍ منها، هي

غزوات: «بَدْر الكبرى، وأُحُد، والخَنْدَق، وبني قُرَيْظَة، وبني المُصْطَلِق، وبني لِحْيان، وخَيْبَر، وفتح مكة، وحُنَيْن»؛ وأما سائر غزواته التي رجع عنها من غير حرب، فهي غزوات: «بَدر الأولى، والسَويق، وذي أَمَر، وبَحْران، وبني سُليم، وبني الأسد، وبني النَضِير، وذات الرِقاع، ودَوْمَة الجندل، وبني قَرَد[1]، والحُدَيبيَّة، والطائف، والأَبْواء، والعشيرة، وبني قُيْنُقاع، وبَدْر الآخِرة، وتَبوك» التي كانت آخر غزواته (ص).

---

١ ـ كذا جاءت ـ أيضاً ـ في تاريخ الطبري وفي الكامل لابن الأثير، ولكنها في سيرة ابن هشام «القَرَدة» مع تاء مربوطة، وهي اسم ماء من مياه نجد.

بدايةً.. غزوات وسرايا صغيرة

وكان مبدأ غزواته (ص) أن جمعاً من المشركين أغاروا[1] على سَرْح[2] المدينة يَقْدُمُهُم «كُرْز[3] الفِهري»، ونادى مناديهم: «يا سوء صباحاه!»؛ فسمع النبي (ص) النداء، وركب جواده ليخرج بنفسه في طلب العدو، فلحقه أصحابه يقدُمهم «أبو قتادة» على خيولهم، وكان علي(ع) حامل لوائه، وجاءه «بنو مدلج» في سبع مئة يقودهم «مسعود بن دخيلة»، يسألونه الموادعة بأن يكونوا على الحياد من الحرب، لا معه (ص) ولا عليه، كراهةً من حربه مع قومهم من أتباع كُرْز، وكراهةً من حرب قومهم مع النبي (ص) وهم يقولون: «إنا حَصِرَت صدورنا أن نشهد أنك رسول الله، وكرهنا حربك وحرب قومنا لقلتنا فيهم وما بيننا وبينهم من العهد، فجئنا لِنُوادِعَك، فلسنا معك ولا مع قومنا عليك»؛ فأجابهم النبي (ص) إلى ذلك ووادَعَهُم، وأهدَى لهم أحمالاً من التمر، وإليهم الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾[4] ورجع القوم إلى منازلهم.

---

١ ـ حدثت هذه الغزوة الأولى في شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة.

٢ ـ السَرْح: الماشية، الحيوانات الخارجة ترعى.

٣ ـ جاء اسمه في تاريخ الطبري: كُرْزين (ط. دار المعارف، ج ٢، ص ٤٠٧).

٤ ـ القرآن الكريم، الجزء ٥، السورة ٤ النساء، الآية: ٩٠.

وجاءه من بني سُلَيم «هلال بن عويم» أيضاً يسأله السلم والتجنب والحياد، ويواثقه عن قومه على أن لا يكونوا معه ولا عليه، فأجابهم النبي (ص) إلى ذلك كغيرهم، ونهى الله المسلمين عن التعرض لهم.

ثم خرج (ص) بمن معه في طلب كُرْز وأتباعه، إلى أن بلغوا ناحية من «وادي البَدْر» تسمى «وادي سفوان» بين مكة والمدينة، وهي إلى المدينة أقرب منها إلى مكة ـ و «بَدْر» اسم بئر كانت هناك سُميت باسم مَن حفرها ـ وهرب كرز وأصحابه ولم يدركهم النبي (ص) والمسلمون، ولم تقع حرب ولم يلق كيداً، فرجع (ص) بأصحابه إلى المدينة، وسميت الغزوة: «بَدْرَ الأولى».

ثم أغار «بنو ضَمرة» وجمع من قريش على نواحي المدينة، فخرج إليهم النبي (ص) أيضاً بمن معه في شهر صفر من السنة الثانية، فهربوا ولم يدركهم المسلمون، ولم يلقَوا كيداً ولا حرباً، فرجع بهم إلى المدينة بعد أن بلغوا «الأَبْواء»، وسميت الغزوة بها، أي: غزوة الأبواء.

ثم بعث عبيدة بن الحارث في ستين راكباً من المهاجرين ليس معهم أحد من الأنصار، وعقد لهم لواءً كان أول لواء عقده (ص)، فخرجوا في طلب القوم، حتى التقوا معهم على ماء يقال له «أحيا» ـ وكان قائد المشركين «أبا سفيان» ـ فهربوا ورجع المسلمون سالمين. وبعث (ص) سعدَ بن أبي وقاص في ثمانية رهط في طلب القوم، فلم يجدوهم ورجعوا من غير حرب. ثم غزا بمن معه في شهر ربيع الآخر في طلب القوم حتى بلغ «بواط» فلم يجدهم، ورجع من غير حرب.

ثم خرج ثانياً في الشهر نفسه في طلب جمع آخر من المشركين الذين أغاروا على نواحي المدينة، إلى أن نزل بأصحابه وادي «العشيرة» من بطن «يَنْبُع» ـ وكان خليفته على المدينة زيد بن حارثة ـ ولم يجد العدو في الوادي، وأقام به أياماً وسميت الغزوة باسم الوادي، أي «العشيرة»، ولم يلق كيداً ولا حرباً، ورجع بمن معه إلى المدينة.

ثم بعث في أواخر رجب عبدَ الله بن جحش في أصحابه يرصدون قريشاً، ولم يأمرهم بقتال احتراماً للشهر الحرام، فخرج القوم إلى أن نزلوا وادي «النخلة» وسميت الغزوة باسمه أيضاً، أي «النخلة»؛ وبينما هم في الوادي، إذ مرّ بهم أربعة أنفار من المشركين معهم تجارة أَدَم وزبيب قَدِموا بها من الطائف، فقبض المسلمون عليهم، واختلفوا بينهم في قتل أولئك الأربعة احتراماً للشهر الحرام، مع خوفهم إن تركوهم أن يدخلوا مكة ويجمعوا المشركين على المسلمين، إلى أن أجمعوا على قتلهم، وقتلوا أحدهم ـ وكان اسمه: عمرو بن الحَضْرَمي ـ فكان أول قتيل من المشركين بأيدي المسلمين، وهرب واحد منهم وهو المغيرة بن عبدالله، واستأمنوا اثنين منهم، وأصاب المسلمون فَيْأَهُمْ[5] وكان أول فَيْءٍ أصابوه، وساقوا العِيرَ وأحمالَها إلى النبي (ص)، فقال (ص): «والله ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام»؛ وأخذ العير وفدى الأسيرين، وكان ذلك قبل وقعة بدر الكبرى بشهرين، على رأس سبعة عشر شهراً من هجرته (ص). وبلغ قريشاً قتل ابن الحضرمي، فأقبل وفد منهم إلى المدينة وأتوا النبي (ص) يسألونه ـ منتقدين ـ عن القتال في الشهر الحرام، ويلومون المسلمين على استحلالهم ذلك، فنزل الوحي في الرد عليهم بأن القتال في الشهر الحرام وإن كان كبيراً لا يجوز الإقدام عليه، ولكن الصدّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وإخراج أهله منه والكفر بالله أكبر وأعظم وزراً، وفتنةُ ابن الحضرمي وكفره أكبر من قتله، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[6].

وبعث (ص) إلى إحدى قرى اليهود، سرية بإمرة أسامة بن زيد، وكان

---

٥ ـ الفَيْءُ: الغنيمة دون حرب ومعارك.

٦ ـ ج ٢، س ٢ البقرة: ٢١٧.

في القرية رجل اسمه «مرْداس بن نهِيك» لما أحس بخيل المسلمين، انصرف بأهله وماله إلى الجبل ونادى برفيع صوته: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»؛ ولكن أسامة حين انتهى إليه طعنه برمحه وقتله وقد طمع في ماله، وقدَّر أنه إنما يتظاهر بالإسلام خوفاً ونفاقاً؛ فلما علم النبي (ص) بما فعل أسامة، ساءه ذلك كثيراً واغتاظ، ولما رجع أسامة إليه عاتبه عتاباً شديداً، وجعل يلومه على قتل مسلم، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[7]؛ فحلف أسامة أن لا يقاتل من يشهد الشهادتين، ولذلك تخلّف بعدئذٍ عن نصرة أمير المؤمنين علي(ع) في بعض حروبه[8].

وبعث (ص) سرية إلى جمع من المشركين، فأَسَرَت منهم «ثمامة بن أثال»، وقد كان النبي (ص) دعا ربه أن يمكنه من ثمامة، ولما جيء به إلى النبي (ص)، خيَّره بين أمور ثلاثة وقال: «إني مُخَيِّرك واحدة من ثلاث: اقتلك»؛ قال: «إذاً تقتل عظيماً»؛ قال (ص): «أو أفاديك»؛ قال: «إذاً تجدني غالياً»؛ قال (ص): «أو أمنُّ عليك»، قال: «إذاً تجدني شاكراً»؛ قال (ص): «فإني قد مَنَنْتُ عليك»؛ قال: «فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وقد والله علمتُ أنك رسول الله

---

٧ ـ ج ٥، س ٤ النساء: ٩٤.

٨ ـ ثمة رواية عن حالة أخرى كحالة أسامة وقتله مَن أعلن إسلامه، جاء فيها أن النبي (ص) بعث «محلم بن خثامة» في سرية إلى لقاء قوم من المشركين، فلقي «عامرَ بن الأضبط» وكان بينهما حُرمةٌ وذِمة، فسلم عامر عليه وحياه بتحية الإسلام، فلم يصدقه ابن خثامة في دعوى الإسلام وقتَلَه، ولما بلغ النبي (ص) خبره، غضب عليه غضباً شديداً. وجاء في الرواية أيضاً أن ابن خثامة أتى إلى النبيَ (ص) معتذراً وطلب منه أن يستغفر له، وكان غضب النبي (ص) شديداً إلى درجة أنه رفض طلبه، فانصرف باكياً (بل قيل إنه هلك بعد سبعة أيام، ولما دفنوه لفظته الأرض، فطرحوه بين صدفي الجبل وألقوا عليه الحجارة).

حين رأيتك، وما كنتُ لأشهَدَ بها وأنا في الوِثاق».

وبعث (صلعم) حمزةَ بن عبد المطلب في ثلاثين راكباً، فلقوا أبا جهل في مئة وثلاثين راكباً، وحجز بين الفريقين عَدِيُّ بن عَمْرو، فرجعا ولم يقع بينهما قتال.

وكان من عادة النبي (ص) عند بعث السرايا أن يدعوهم وأميرهم، ويوصيه وإياهم بتقوى الله، وأن يجيروا من جاء من الكفار ليسمع كلام الله، فإن تبعهم فهو أخوهم في الدين، وإن أبى فليُبَلّغوه مَأمَنَهُ ويستعينوا بالله عليه. وكان ينهاهم عن الغدر والغِل[9] والمُثْلَة[10]، وعن قتل الشيخ الفاني والصبيان والنساء والمُتَبَتِّل في شاهق[11]، وينهاهم عن قطع الشجرة المثمرة إلا عند الاضطرار إلى ذلك، وعن إحراق الزرع، وعن عقر البهائم مما يؤكل لحمه إلا عند الحاجة والضرورة إلى أكله، إلى غير ذلك من مواعظه الشافية. ثم يقول (ص) لهم: «وإذا لقيتم عدواً للمسلمين، فادعوهم إلى إحدى ثلاث: ادعوهم أولاً إلى الإسلام ثم إلى الهجرة بعد الإسلام، فإن فعلوا فاقبلوا منهم وكُفُّوا عنهم، وإن أَبَوا أن يهاجروا واختاروا ديارهم، فإنهم عندئذٍ بمزلة أعراب المؤمنين، يجري عليهم ما يجري على أولئك، وليس لهم في الفَيْء والقسمة شيء إلا أن يهاجروا؛ فإن أبوا هاتين، فادعوهم إلى الجزية صاغرين، وإن أبوا ذلك فاستعينوا الله عليهم وجاهدوهم في الله حق جهاده».

وكان من تعاليمه وأوامره (صلعم) لهم أنهم إذا حاصروا حصناً، أن

---

٩ ـ الغِل (بكسر الغين): الحِقد ـ والغُل (بضم الغين): الرباط أو الطوق أو القيد (من حديد أو جلد)، تُقَيَّد به اليدان أو العنق.

١٠ ـ المُثْلَة: العقوبة والتنكيل، والمثلةُ بالقتيل: جَدْعُهُ وتقطيع أوصاله وأعضائه.

١١ ـ المُتَبَتِّل: المنقطع عن الدنيا زُهداً، متبتل في شاهق: تارك للدنيا والمجتمع يعيش بعيداً في جبل شاهق، أي عال بعيد عن الناس.

يُنْزِلوا المحاصَرين على حكم المسلمين فيهم وعلى ذمم المسلمين، لا على حكم الله فيهم، فلعلهم لا يصيبون حكم الله، ولا على ذمة الله ورسوله، لأن خفر ذممهم أيسر من خفر ذمة الله ورسوله.. إلى غير ذلك من وصاياه (صلعم) لهم.

ثم كانت بعد تلك الغزوات والسرايا الصغيرة، غزوة بدر الكبرى.

غَزْوَة بَدْر الكبرى

وقعت غزوة «بَدْر» الكبرى في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، وذلك بعد أن خرجت عِيرٌ[1] لقريش من أربعين راكباً يَقْدُمُهم أبو سفيان في تجارة إلى الشام، وفي العير أموالهم وخزائنهم وبضائع كثيرة[2] لقرشيين وقرشيات من أهل مكة؛ وأخبر الله تعالى نبيه (ص) بذلك وأمره بالخروج إلى القافلة، ووعده إحدى الطائفتين: إما العير، وإما قريش؛ وإلى ذلك الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾[3]، فندب (ص) أصحابه يأمرهم بالخروج إلى العير ليأخذوها، وأخبرهم بوعد الله تعالى له إحدى الطائفتين، فثَقُلَ ذلك على بعضهم وخفَّ على آخرين، لأنهم لم يظنوا أنه (ص) يلقى كيداً وحرباً.

ثم خرج (ص) بهم وهم سبعة وسبعون من المهاجرين، ومئتان وستة وثلاثون من الأنصار (أي أن مجموعهم كان على عدد أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر: ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً)، ولم يكن لهم من الإبل إلا سبعون بعيراً فقط، ومن الخيل إلا فَرَسان هما للمقداد بن أسود ومرثد بن أبي مرثد، ومن السيوف إلا ثمانية، ومن الدروع إلا ستة.

---

١ ـ عير: قافلة.

٢ ـ وصل مجموع حمل تلك الخزائن والبضائع في بعض الروايات إلى حمل ألف بعير.

٣ ـ القرآن الكريم، الجزء ٩، السورة ٨ الأنفال: ٧.

وبلغ أبا سفيان خبر خروج النبي (ص) بأصحابه بقصد العير، ففزع فزعاً شديداً، فلما وصل إلى الشام، استأجر «ضمضم بن عمرو الغِفاري» بعشرة دنانير، وأعطاه ناقة شابة طويلة القوائم تسمى «القَلوص»، على أن يمضي إلى مكة بأسرع ما يكون، ويخبر قريشاً «أن محمداً والصَبَأة[٤] من أهل يثرب قد خرجوا يتعرضون للعير، فلتُدرِكْ قريش عيرَها»، وأوصاه أن يثقب ناقته عند قدومه مكة، وأن يشقها ويقطع أذنها كي يسيل الدم منها، وأن يشق ثوبه مِن قُبُل ودُبُر، ويولي وجهه إلى ذنب الناقة؛ فأسرع ضمضم في الخروج يجد السير حتى قَدِم مكة، وعمل ما أمره به أبو سفيان.

وكانت «عاتكة بنت عبد المطلب» ـ عمة النبي (ص) ـ قد رأت في منامها في مكة قبل قدوم الرجل بثلاث ليال، أن رجلاً قد أقبل على بعير له إلى أن قدم مكة، فجعل ينادي: «يا آل غالب، يا آل عَدِي، يا آل فِهْر، اغدوا إلى مَصارِعِكم صُبحَ ثالثة»[٥]، ثم وافى الراكب بجَمَله على [جبل] «أبي قبيس»، وأخذ حجراً ودهدهه من الجبل، فلم تبق دار من دور قريش، إلا أصابتها قطعة منه، ورأت أن وادي مكة قد سال من أسفلها دماً؛ فانتبهت ذعرة خائفة، وأخبرت أخاها العباس برؤياها، وحكى العباس ذلك لعتبة بن ربيعة، فقال عتبة: «هذه مصيبة تحدث في قريش»؛ وفشت الرؤيا في قريش، وجعل أبو جهل يكذّبها بقوله: «ما رأت عاتكة هذه الرؤيا،

---

٤ ـ الصَبَأَةَ (بفتح الصاد والباء وبعدها همزة مفتوحة، على وزن قَتَلَة وفَجَرَة) أو الصُبَاة (بضم الصاد وفتح الباء بعدها أَلِف حرف علة، على وزن هُداة وقُضاة): جمع صابىء، اسم الفاعل من «صَبَأ»، أي انحرفَ (عن الصواب) أو مالَ (إلى الضلالة والخطأ). والصباة هو اللقب الذي كان يطلقه مشركو مكة والجاهلية من عبدة الأصنام، على الذين مالوا إلى رسالة محمد (ص) واعتنقوا الإسلام؛ ومن هذا الفعل أيضاً اشتق اسم «الصابئة» أو «الصابئين» اتباع النبي يحيى بن زكريا(ع) أو اتباع النبي نوح(ع)، أو اتباع عبادة النجوم في مدينة «حران» [بشرقي جنوبي تركيا اليوم] المذكورين ٣ مرات في القرآن الكريم.

٥ ـ أي تهيأوا للموت بعد ثلاثة أيام، صباحاً.

وإنما هي نبية ثانية في بني عبد المطلب»؛ ثم قال: «واللاتِ والعُزَّى، لَنَنْتَظِرَنَّ ثلاثة أيام، فإن كان ما رأت حقاً، فهو كما رأت، وإلا فَلَنَكْتُبَنَّ كتاباً بيننا أنه: ما من أهل بيت من العرب رجالاً ونساءً أكذب من بني هاشم.

ولما انقضى يومهم ذلك، قال أبو جهل: «هذا يوم قد مضى!»؛ وهكذا في اليوم الثاني، قال في آخره: «هذان يومان قد مضيا»؛ ولما أصبحوا في اليوم الثالث، فاجأهم «ضمضم» ينادي في الوادي برفيع صوته ـ بعد أن فعل ما أمره به أبو سفيان مِن شَقِ ثيابه وقَطْعِ أذن الناقة ـ وهو يقول: «يا آلَ غالَب، يا آل عدي،.. اللطيمة اللطيمَةَ[٦]، العِيرَ العِير، أدْرِكوا ـ وما أراكم تُدْرِكون ـ أن محمداً والصَبَأة من أهل يثرب قد خرجوا يتعرضون لعيركم التي فيها خزائنكم!»؛ فوقعت الصيحة، وضجت مكة بأهلها، وتَصارخَ الناس من كل جانب يقولون: «يا معشر قريش، والله ما أصابتكم مصيبة أعظم من أن يطمع محمد في التعرض لعيركم التي فيها خزائنكم وأموالكم، ويفرق بينكم وبين متجركم، وإنه لَمِنَ الذل والصَغار! فوالله ما قرشيٌّ ولا قرشية إلا وله في هذه العير نشٌّ[٧] فصاعداً، فاخرجوا»؛ فماجت القبائل، واستعدوا للخروج إلى حرب رسول الله (ص)، وحملوا ووقروا لتجهيز الجيوش، ولم يبق أحد من عظمائهم إلا وقد أخرج مالاً، وبذل شيئاً لتجهيز الحرب، وقد بذل صفوان بن أمية خمس مئة دينار، ومثله سهيل بن عمرو، وأخذوا يتهددون مَن لا يخرج معهم بهدم داره.

ولما اجتمعوا وتهيأوا للخروج، ذكروا ما بينهم وبين «بني بكر» من الحرب والعداوة، فقد كان بينهم وبين بني بكر عداوات وسوابق قتلٍ

---

٦ ـ اللطيمة: الإبل التي تحمل الطيب أو البز، أي أغلى أنواع البضاعة.

٧ ـ نَشَّ (يَنِشُ) المسكَ أو الطيبَ: دقَّه أو خَلَطه، فالنَش: الطيب المدقوق ـ والنَشُ أيضاً: النصف من كل شيء؛ والأرجح هنا في معنى «لكل منكم نش فصاعداً» أن لكل منكم ما يعادل نصف حِمل على الأقل من المسك المدقوق الغالي.

وثارات، فخافوا منهم ـ إذا هم خرجوا لحرب محمد (ص) وحماية عِيرهم ـ على مَن يخلفونهم في مكة من عائلاتهم وأموالهم، حتى كاد ذلك أن يثبطهم عن الخروج، بل وأشرفوا على أن يتفرقوا.

حينئذٍ جاءهم إبليس في جند من شياطينه، وقد تصور لهم بصورة «سُراقَة بن مالك بن جُعْشُم المُدْلِجي» ـ وكان من أشراف «كنانة» ـ فجعل يقول لقريش: «قد عرفتم شرفي ومكاني في قومي، أنا لكم جارٌ[8] مِن أن يأتِيكم شيء تكرهونه! ادفعوا إليَّ رايَتَكم، ولا تفزعوا ولا تخافوا من الخروج إلى حرب محمد!»، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾[9]؛ ولم يزل يحرضهم ويشجعهم على حرب النبي (ص)، إلى أن خرجوا في تسع مئة وخمسين مقاتلاً، إضافةً إلى العبيد والجواري اللواتي خرجن يتغنَّينَ لهم بالدفوف في كل منهل، وينحرون الجزر، وقد قادوا معهم مئة فرس وسبع مئة بعير في خيلائهم وفرسانهم مدرَّعين ـ وفيهم قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ[10] ٱلنَّاسِ﴾[11] ـ يقدمهم إبليس ومعه الراية، إلى أن انتهوا إلى «الجحفة»، فرأى أحدهم ـ واسمه: جهيم بن الصلت ـ في منامه رجلاً قد أقبل على فرس له وهو يقود بعيراً خلفه، إلى أن وقف عليه ورفع صوته يقول: «قُتِلَ عُتْبَة بن رَبيعة، وشَيْبَة، وزَمَعة، وأُمَيَّة، وأبو البَخْتَرِيّ، وأبو الحكم، ونَوْفَل، وفلان وفلان...» إلى أن سَمَّى رجالاً من أشراف قريش، ثم قال: «وأُسِرَ سهيل بن عمرو، وفرّ الحارث بن هشام»؛ وسمع قائلاً يقول: «والله إني لأظنهم الذين

---

٨ ـ أي أنا لكم مُجير، وحامٍ ومتعهد بمنع أن يأتيكم شيء تكرهونه.

٩ ـ ج ١٠/ س ٨ الأنفال: ٤٨.

١٠ ـ البَطَر: شدة الزهو بوفور النعمة أو العزة ـ الرئاء: إظهار الجميل لنيل الإعجاب، وكتمان القبيح وإضماره وستره.

١١ ـ ج ١٠/ س ٨ الأنفال: ٤٧.

يخرجون إلى مصارعهم!»؛ فانتبه من نومه فَزِعاً مرعوباً، وحكى ذلك لأصحابه؛ وفَشَتْ رؤياه في القوم، فقال أبو جهل: «وهذا نبي آخر من بني عبد مناف، وستعلمون غداً مَن المقتول: نحن أو محمد وأصحابه».

ثم ساروا وفيهم فئة من قريش كانوا قد أسلموا بمكة لم يتمكنوا من الهجرة، فخرجوا إلى وقعة بدر مع سائر المشركين ليلحقوا بالنبي (ص)؛ ولكن لما نزلوا بدراً ورأوا كثرة المشركين وقلة المسلمين بينهم، خافوا وارتدوا إلى الكفر وهم يقولون عن المسلمين «غرَّ هؤلاء دينُهم»، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾[12].

وكان في جموع المشركين رجال من بني هاشم وغيرهم قد أُخرِجوا كرهاً، ونهى النبي (ص) المسلمين عن قتلهم إذا ظفروا بهم، فيهم عباس ابن عبد المطلب عم النبي (ص)، والوليدُ بن هشام الذي كان يكفّ الناس بمكة عن رسول الله (ص)، وقد لبس سلاحه ذات يوم في الذبّ عنه، وقام بنقض الصحيفة القاطعة التي مرّ ذكرها، وكان لا يبلغ النبيَ (ص) عنه شيءٌ يكرهه، فشكره النبي (ص) ونهى عن قتله يوم بدر. ومنهم حكيم بن حزام الذي حَدَّث بعدُ فقال: «إني رأيت عداساً جالساً في الثنية البيضاء في مرورنا عليها إلى بدر وهو يبكي، إذ مرّ عليه في جملة الناس عتبة وشيبة ابنا ربيعة؛ فوثب إليهما وأخذ بركابهما يقول لهما: بأبي أنتما وأمي، إنه لرسول الله، وما تساقان إلا إلى مَصارعكما؛ ومرّ عليه العاص بن منبه بعد مرور عتبة وشيبة عليه، فوقف عليه العاص يسأله عن بكائه، قال: يبكيني سيداي وسيدا أهل الوادي ـ يعني عتبة وشيبة ـ يخرجان إلى مَصارعهما ويقاتِلان رسول الله؛ فقال العاص: وإن محمداً لرسول الله؟ فازداد عداس في البكاء واقشعر جلده وانتفض انتفاضة وقال: إي والله! إنه لرسول الله

---

١٢ ـ ج ١٠/ س ٨ الأنفال: ٤٩.

إلى الناس كافة؛ فأسلم العاص ومضى في المشركين حتى قُتِل معهم على شك وارتياب»؛ ورجع عداس ولم يشهد بدراً، وهُزِم حكيم مع مَن هُزِموا يوم بدر. ثم لما سار المشركون ووصلوا إلى وادي بدر، نزلوا بالعدوة اليمانية القصوى على موضع مرتفع صلب كالجبل، ينتظرون قدوم النبي (ص) بأصحابه.

وأما ما كان من أمر النبي (ص)، فإنه خرج في ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً، إلى أن كان بقرب بدر على بُعد ليلة منها، فبعث رجلين من أصحابه يتجسسان خبر العير، فأتَيا ماء بدر وأناخا راحلتيهما واستعذبا من الماء، فسمعا جارية تقول لأخرى: «إن عير قريش نزلت أمس موضع كذا وكذا، وتنزل غداً هاهنا»؛ فرجعا إلى النبي (ص) وأخبراه بذلك. ثم أقبل أبو سفيان بالعير بعد رجوعهما إلى أن نزل بها بدراً، ثم تقدم وحده إلى بئر كانت هناك، فرأى رجلاً يقال له «كسب الجهني»، فسأله عن النبي (ص)، وجعل يتهدده إن كتَمَ مِن خَبَره شيئاً يَعْلَمُه، فقال: «والله ما لي علم بمحمد وأصحابه، إلا أني رأيت اليوم راكبَينِ أقبلا وأناخا في هذا المكان راحلتيهما ولا أدري من هما». فأقبل أبو سفيان إلى المكان، فرأى فيه أبعار الإبل، فجعل يفتها ووجد فيها النوى، فقال: «هذه علائف يثرب، هؤلاء والله عيون محمد»؛ فرجع مسرعاً إلى العير، وسار بهم نحو ساحل البحر على غير الطريق المعهود يجدّون في السير، إلى أن مروا وأفلتوا، فنزل الوحي على النبي (ص) يخبره أن العير قد أفلتت، وأن قريشاً قد أقبلت في عُدَّتها وعَدَدها لتمنع[١٣] وتحمي عيرها، ثم أمره بالقتال ووعده النصر.

فأحب النبي (ص) أن يختبر مدى استعداد الأنصار لمساندته ونصرته ـ وهم أكثر أصحابه ـ لأنهم كانوا وعدوه أن ينصروه في داره في بلدهم

---

١٣ ـ تَمْنَع: تحمي، تدافع عن.

فقط، لذا كان يتخوفُ أن يَتَخَلَّوا عن نصرته إلا إذا دهمه العدوّ في المدينة، وأن يخذلوه خارجَ البلد، فإنهم ـ كما أشرنا سابقاً ـ كانوا قد قالوا له: «إنا بُرَءاءُ من ذمتك حتى تصل إلى دارنا، ثم أنت حينئذٍ في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا»؛ فجمعهم النبي (ص) وأخبرهم بما أُوحِيَ إليه من أن العير قد جازت وأفلتت، وأن قريشاً قد أقبلت بجموعها تمنع عيرها، وأن الله أمره بمحاربتهم؛ ففزع أصحابه من خبره ذلك، وخاف كثير منهم خوفاً شديداً وجزعوا جزعاً عظيماً، وسكتوا بأجمعهم ولم يردّوا عليه شيئاً، إلى أن قال (ص): «أشيروا عليَّ»؛ فقام أبو بكر وقال: «يا رسول الله، إنها قريش وخيلاؤها، ما آمَنَتْ منذ كفَرَتْ ولا ذَلَّت منذ عَزَّت، ونحن لم نخرج على هيئة الحرب»[١٤]؛ فقال له النبي (ص): «اجلس»؛ فجلس. وأعاد النبي قوله: «أشيروا عليّ»؛ فقام عمر وقال مثل مقالة أبي بكر، فقال النبي (ص) له أيضاً: «اجلس»، ثم أعاد النبي (ص) مرة ثانية قوله: «أشيروا علي»، فقام المقداد بن الأسود[١٥] يقول: «يا رسول الله، إنها قريش وخيلاؤها، وقد آمنا بك وصدقناك؛ وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله، ولو أمرتنا أن نخوض جَمْرَ الغضا وشوك الهراس لخضنا معك، ولا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى(ع) ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[١٦]، ولكنا نقول: امض لإمر ربك فإنا معك مقاتلون»؛ فاستبشر النبي (ص) وفرح بكلامه وجزّاه خيراً.

ثم أعاد (ص) أيضاً قوله: «أشيروا عليّ أيها الناس»؛ يريد بذلك جواب الأنصار، فقام سعد بن معاذ يقول: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله

---

١٤ ـ يقصد أن خروجهم إنما كان لمصادرة العير وأموالها، لا لقتال قريش المسلحة وجماعتها الكثيرة، وفي بعض الروايات أن النبي (ص) لم يرتح إلى هذا القول.

١٥ ـ جاء اسمه في مصادر أخرى: المقداد بن عمرو.

١٦ ـ القرآن الكريم، ج ٦، س ٥ المائدة: ٢٤.

كأنك أرَدْتَنا؟»؛ قال (ص): «نعم»؛ قال: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إنا قد آمَنَّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئتَ به حق من عند الله، فَمُرْنا بما شئتَ، وخذ من أموالنا ما شئت، واترك منها ما شئت، والذي أخذتَ منه أحبُّ إلينا من الذي تركتَ؛ والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضنا معك، ولعل الله يريك ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله»؛ فازداد النبي (ص) بكلامه فرحاً وسروراً، ثم قال سعد ثانياً بعدئذٍ: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، والله ما خضتُ هذا الطريق قط، وما لي به علم، وقد خلَّفْنا بالمدينة قوماً لسنا نحن بأشدّ جهاداً لك منهم، ولو علموا أنها الحرب لما تخلفوا، ولكن نُعِدُّ لك الرواحل ونَلقَى عدوّنا، فإنا صُبُرٌ عند اللقاء أَنجادٌ في الحرب، وإنا لنرجو أن يقرّ الله عينَكَ بنا، فإن يك ما تُحبُ فهو ذاك، وإن يك غير ذلك قعدتَ على رواحلك فلحقتَ بقومنا». قال (ص): «أَوْ يُحدِث اللهُ غيرَ ذلك! كأني بمصرع أبي جهل وعتبة وشيبة ومنبه ونَبيه.. وفلان وفلان، فإن الله قد وَعَدني إحدى الطائفتين، ولن يخلف الله الميعاد!» وفي ذلك كانت الآية الكريمة ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[17].

ثم أمر (ص) أصحابه بالرحيل، إلى أن نزل عشاء على ماءِ «بَدْر» في العُدْوَة[18] الشامية ببطن الوادي، في موضع منخفض كثير الرمل ـ كما قال تعالى ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾[19] ـ وكان ذلك في أواسط شهر رمضان، ولم يبلغ المسلمون الموضع إلا بمشقة شديدة مُشاةً حُفاةً عُراةً لشدة فقرهم، فقد كان كل ثلاثة منهم يتعاقبون في الركوب على بعير واحد، وحدث أن أعيا بعيرُ بعضهم وبَرَكَ في الطريق، فمرّ

---

١٧ ـ ج ٩، س ٨ الأنفال: ٥ ـ ٨.

١٨ ـ العُدوة: الضفة.

١٩ ـ ج ١٠، س ٨ الأنفال: ٤٢.

عليهم النبي (ص) وشكوا إليه ذلك، فدعا بماء، فلما جاؤوه به، تمضمض منه وتوضأ به، ثم أمرهم بصب الماء في فم البعير وعلى رأسه وعنقه وسَنامه وبين كتفيه وعجزه وذَنَبه، ففعلوا ذلك، وإذا البعير يستوي قائماً، ثم جعل ينفر في السير بأصحابه حتى لا تستطيعُ القوافل أن تلحقه؛ ودعا النبي (ص) لأصحابه عندما رأى مشاقهم بقوله (ص): «اللهم إنهم حفاةٌ مشاة فاَحملهم، وعراة فاَكْسُهُم، وجياع فأشبِعْهُم، وعالة فأَغْنِهِم مِن فضلك»؛ فلم يرجع أحد منهم من غزوة بدر إلا وله بعير أو بعيران مِن ما غنموا من المشركين، عدا الثياب والأزواد والأموال، ببركة دعائه (ص)؛ كما أنه (ص) دعا على جماعة من قريش بقوله (ص): «اللهم لا تجعل أبا جهل. . وفلاناً وفلاناً يُفلِتون»؛ فقُتِل كلُّ أولئك في الغزوة (على ما سيأتي شرحه إن شاء الله)، ودعا (ص) لجماعة مستضعَفين من المؤمنين وسأل ربه نجاتهم، فيهم سلمة بن هشام وصاحبه عياش. . فنجوا بدعائه (ص) وسلموا.

ثم إنه (ص) لما نزل العدوة الشامية عِشاءً، كما ذكرنا، ونزل المسلمون معه، بلغهم وَصْفُ كثرة قريش وعدّتهم وعددهم، ونزولهم في المحل المرتفع المطل على محل المسلمين، وصلابة مواضع أقدامهم، بعكس مواضع أقدام المسلمين لكثرة ما بها من الرمل بحيث لا يثبت فيها قدم، فغلب على المسلمين الخوف وفزعوا من ذلك فزعاً شديداً، بل وجعل بعضهم يبكون ويستغيثون ويتضرعون، إلى أن غلب عليهم النعاس أخيراً وناموا، فأمطر الله عليهم في ليلتهم مطراً رذاذاً ضعيفاً حتى لبَّدَ الأرض وثبتت أقدامهم عليها، وأمطر على المشركين في ليلتهم مطراً كثيراً متدفقاً كأفواه القِرَب حتى زلت أقدامهم عن الصخر والأرض الصلبة التي كانوا نزلوا فيها، فصارت الأمطار رحمة للمسلمين ونقمة على المشركين، بل وتطهر بها بعض المسلمين من جنابة لحقتهم، وإلى كل ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾[٢٠].

ولكن المسلمين ظلوا مذعورين خائفين، إلى أن قام النبي (ص) واستقبل القبلة يدعو لهم بقوله (ص): «اللهم أنجزْ لي ما وعدتني! اللهم إن تَهلَكْ هذه العصابة، لا تُعْبَدُ في الأرض»؛ ولم يزل يهتف ويدعو ويناجي رَبَّه والعرق يسيل على خده رافعاً يديه نحو السماء حتى سقط رداؤه عن منكبه، إلى أن استجاب الله تعالى دعاءه، وأوحى إليه أنه سيُنزل عليه (ص) ألفاً من الملائكة لنصرته.

فلما انصرف (ص) من دعائه، توجه إلى أصحابه وأخبرهم بذلك قائلاً: «هذا جبرائيل قد أتاكم في ألف من الملائكة»؛ وفي ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[٢١]، وما أن قال (ص) لهم ذلك حتى ظهرت في السماء سحابة سوداء فيها برق لامع، ثم وقعت عليهم حتى سمعوا قعقعة السلاح من الجوّ، وسمعوا قائلاً يقول: «أَقْدِمْ حَيْزوم، أقدمْ حيزوم» فهدأ ما بالقوم.

وألقى الله الرعب بتلك السحابة وأصواتها في قلوب المشركين حتى غلب عليهم الخوف، وأقبلوا يتحارسون بالليل ويخافون البيات، مع أنهم كانوا في أحسن عُدَّة وعَدَد وخيل وسلاح. وحدث أن بعثوا عبيدهم إلى البئر ليحملوا لهم من الماء، فأحاط بهم المسلمون وقبضوا عليهم وسألوهم: «من أنتم؟» قالوا: «نحن عبيد قريش»؛ فسألوهم عن أبي سفيان وعِيره، فقالوا: «لا علم لنا بالعير»؛ فأقبلوا يضربونهم؛ وكان النبي (ص) مشتغلاً بالصلاة، فلما انفتل من صلاته أتوا بالعبيد إليه، فسألهم عن عدد قريش المجتمعين للحرب، فقالوا: «لا علم لنا

---

٢٠ ـ ج ٩، س ٨ الأنفال: ١١.

٢١ ـ ج ٩، س ٨ الأنفال: ٩.

بعددهم»؛ قال (ص): «كم ينحرون في كل يوم من جَزُور؟»؛ قالوا: «تسعة إلى عشرة»؛ فقال (ص): «إن القوم تسع مئة إلى ألف رجل»؛ ثم سألهم عن مَن في القوم من بني هاشم، فقالوا: «العباس بن عبد المطلب ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب» ـ وكان المطعمون لقريش في تلك الغزوة اثني عشر رجلاً يتناوبون في ذلك، ينحرون كل يوم للعسكر عشرة جُزُر، منهم العباس وأبو جهل وعتبة وشيبة ـ ثم أمر النبي (ص) بحبس العبيد، وبلغ ذلك قريشاً فازدادوا فزعاً وخوفاً.

وحدث في تلك الأثناء أن أتاهم رسول أبي سفيان يقول لهم: إن الله قد نَجّى عيركم، فارجعوا ودعوا محمداً والعرب، وادفعوه بالراح ما اندفع، وإن لم ترجعوا فردوا القِيان (يعني الجواري المغنيات)، فندم القوم على مسيرهم، وهموا بالتفرق والرجوع إلى منازلهم، حتى أظهر عتبة أن مسيرهم بَغي وعدوان، وما أفلح قوم بَغَوا قط.

ثم أتاهم رسول من النبي (ص) يقول لهم: «يا معشر قريش، ما شيء أبغض إليَّ من أن أبدأ بكم، فخلوني والعرب، فإن أكُ صادقاً، فأنتم أعلى بي عيناً، وإن أك كاذباً، كفتكم ذؤبان العرب أمري، فارجعوا»؛ فقال عتبة: «والله ما أَفلحَ قومٌ قَطُّ رَدُّوا هذا!»؛ ثم ركب جملاً أحمر له، وأخذ يجول في العسكر ينهاهم عن القتال ويقول برفيع صوته: «يا معشر قريش، اجتمعوا واسمعوا، يُمْنٌ مع رَحب فرحبٌ مع يُمْن، يا معشر قريش أطيعوني اليوم واعصوني الدهر، ارجعوا إلى مكة واشربوا الخمور وعانقوا الحور، فإن محمداً له إلٌّ وذِمْة، وهو ابن عمكم، فارجعوا ولا تردوا رأيي، وإنما تطالبون محمداً بالعير التي أخذها، فأنا متحمل ما أخذ محمد منها بنخلة، ومتحمل دم ابن الحضرمي وهو حليفي وعليَّ عقله، وما على أحد منا خلاف إلا ابن الحنظلية» (يعني أبا جهل)؛ ورآه النبي (ص) يجول على جمله، فقال (ص): «إن يكن عند أحد خير، فعند صاحب الجمل الأحمر؛ إنْ يُطيعوه يَرشُدُوا».

ثم بعث عُتبةُ أبا البَخْتَرِيّ إلى أبي جهل يخبره برأيه وخَبَره، ولما انتهى أبو البختري إلى أبي جهل قال له: «إن أبا الوليد بعثني إليك برسالة»؛ فغضب أبو جهل وقال: «أما وجد عتبة رسولاً غيرك؟»؛ فقال أبو البختري: «أما واللهِ لو أن غيره أرسلني إليك ما جئت، ولكن أبا الوليد سيد العشيرة»؛ فازداد غيظاً وغضباً وقال: «أتقول سيد العشيرة؟»، قال: «أنا أقول، وقريشٌ كلُها تقول»؛ ثم بلَّغه رأي عتبة في الرجوع إلى مكة، وأنه قد تحمل دم ابن الحضرمي وما أصابه النبي (ص) من العير بنخلة، فقال أبو جهل: «إن عتبة أطول الناس لساناً وأبلَغهم في الكلام، وأنه يتعصب لمحمد فإن ابنه مع محمد، وهو من بني عبد مناف ولا يريد أن يُخذل بين الناس؛ لا واللات والعزى، لا نرجع حتى نقحم عليهم بيثرب، أو نأخذهم أسارى فندخلهم مكة، وتتسامع العرب بذلك، ولا يكون بيننا وبين متجرنا أحد نكرهه، ولئن رجعَتْ قريش بقول عتبة، لَيكونن سيد قريش آخر الدهر»؛ فانصرف رسول عتبة إليه يخبره بكلام أبي جهل، ثم لحقه أبو جهل على فرس له حتى انتهى إلى عتبة وقال له: «يا عتبة، نظرتَ إلى سيوف بني عبد المطلب وجبنت عن القتال، وانتفخ سحرك وتأمر الناس بالرجوع، وقد رأينا ثأرنا بأعيننا»؛ فغضب عتبة ونزل من على جمله وحمل عليه، فقطع قوائم فرسه، ثم أخذ بشعره يجره إليه، وهمّ أن يقضي عليه وهو يقول له: «يا مُصَفِّراً آستَه[٢٢]، أمِثلي يجبن؟ ألا ستعلم قريش اليوم أينا ألأم وأجبن، وأينا المفسد لقومه، لا يمشي إلى الموت عياناً إلا أنا وأنت»؛ وأنشأ يقول:

هــذا جـنــاي وخـيــاري فـيــه ... وكـــلُّ جـــانٍ يَـــدُهُ بِـــفـــيـــهِ

فاجتمع عليه الناس حتى خلَّصوا أبا جهل من يده وهم يقولون: «الله

---

٢٢ ـ مُصفِّر: متطيب، داهن بدنه بالطيب والعطور ـ مصفر استه: مطيب كل جسمه حتى مؤخرته، أي جبان، لأن العرب لم يكونوا يتطيبون في الحرب، فالتطيب علامة الجبن وعدم الاستعداد للحرب.

الله يا أبا الوليد، لا تَفُتَّ في أعضاد الناس، تَنْهَى عن شيء تكون أوله»؛ وتفرق القوم وقد ظهر على جميعهم أثر الخوف.

وبعث النبي (ص) عماراً وابن مسعود يجولان في عسكرهم ويأتيانه بأخبارهم، فجعلا يجولان فيهم ولا يريان منهم إلا خائفاً ذَعِراً، إذا سمعَ صهيلَ فرسٍ وثبَ راكباً على راحلته مسرعاً من خوفه وخشيته، وقائلهم يقول منادياً بينهم:

لا يَـتـركُ الـجـوعُ لـنـا مَـبـيـتـاً   لا بــد أن نَــمــوتَ أو نُــمــيــتــا

ولم يكن قوله ذلك إلا من الخوف ولم يكونوا إلا شباعاً.

كان رئيس القوم يومئذٍ عتبة نفسه، وكان له ابن مع النبي (ص) في جملة المسلمين يقال له «أبو حذيفة»، فجعل عتبة ينظر إلى ولَدَيهِ الآخرَينِ «الوليد» و «شيبة» ويُهيِّئُهما للحرب، وقلل الله المسلمين يومئذٍ بأعين المشركين ليتجرأوا على قتالهم، وكذا قلل الله المشركين بأعين المسلمين لذلك، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.[٢٣] ولما رأى المشركون قلة المسلمين جعلوا يستهزئون بهم، فمنهم من يقول: «إن أصحاب محمد سبعون فقط»؛ ومنهم من يقول: «إنهم يقربون من مئة»؛ وقال أبو جهل: «إنْ هم إلا أكلة رأس! لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد»؛ فقال عتبة بن ربيعة: «أترى لهم كميناً ومدداً؟»؛ فبعثوا عَمْرو ابن وَهْب[٢٤] ـ وكان فارساً شجاعاً ـ فجال بفرسه وطاف على عسكر المسلمين، إلى أن صعد من الوادي إلى أعاليه، ثم رجع إلى قريش يقول:

---

٢٣ ـ ج ١٠، س ٨، الأنفال: ٤٤.

٢٤ ـ جاء اسم هذا الفارس في سيرة ابن هشام وفي تاريخ الطبري «عُمَيْر بن وهب الجُمَحي»، وفي «الكامل» لابن الأثير ـ كالأصل عندنا ـ «عمرو بن وهب الجمحي».

«ما لهم من كمين ولا مَدَد، ولكنْ نَواضِح[٢٥] يثرب قد حملت الموت الناقع! أما تَرَونهم خُرْساً لا يتكلمون، ويَتَلَمَّظون تَلَمُّظ الأفاعي[٢٦]؟ ما لهم ملجأ إِلا سيوفهم، وما أراهم يُوَلُّون حتى يُقْتَلوا، ولا يُقتَلُون حتى يَقتُلُوا بعددهم، فأرتَأُوا رأيَكم»؛ فغضب أبو جهل من كلامه وقال له: «كَذَبْتَ وجَبُنْتَ، وانتفخ سَحْرُك[٢٧] حين نظرت إلى سيوف أهل يثرب!».

أما المسلمون الذين كانوا خائفين ذَعِرين ـ كما أسلفنا ـ فقد ازدادوا خوفاً، إلى درجة أن امتنعوا عن الذهاب إلى البئر مع حاجتهم إلى الماء، حتى قام النبي (ص) منادياً فيهم: «من يستقي لنا من الماء؟»؛ فلم يجبه منهم أحد غير أمير المؤمنين علي(ع)، فإنه قام بنفسه وحده، واحتضن قِربة ومضى بها إلى بئر مظلمة بعيدة القعر كانت هناك، ولما انتهى إليها انحدر فيها وملأ القربة وصعد بها، ولكنه لم ينته إلى شفير البئر حتى هبت ريح شديدة فألقت القربة عن كتفه وأهرقتها، فعاد علي(ع) إلى القليب حتى ملأ القربة ثانياً، وصعد بها فهبت ريح أخرى ألقت القربة وأهرقت ماءها، فانحدر(ع) ثالثاً وملأها وصعد بها فأصابته ريح ثالثة وأهرقت القربة كالأولى والثانية، إلى أن ملأها في الرابعة وأتى بها إلى النبي (ص) وأخبره بالخبر، فقال له النبي (ص): «أما الريح الأولى فكانت جبرائيل في ألف من الملائكة، والثانية ميكائيل في ألف، والثالثة إسرافيل في ألف، ولم يأتوك إلا ليسلموا عليك ويحفظوك»؛ وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾[٢٨].

ثم لما استعد المشركون للقتال وعدَّلوا صفوفهم، وكان ذلك نهار الجمعة السابع عشر من شهر رمضان، كثَّر الله المسلمين في أعين

---

٢٥ ـ النواضح: الإبل.
٢٦ ـ تلمَّظ: مسح شفتيه بلسانه ـ تلمظت الأفعى: أخرجت لسانها.
٢٧ ـ السَحْر (بفتح السين): الرئة، انتفخ سحره: بمعنى خاف وجَبُن.
٢٨ ـ ج ٤، س ٣ آل عمران: ١٢٤.

المشركين، ليزدادوا خوفاً ورعباً - وإلى ذلك الإشارة بقوله سبحانه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾[29] فجعل أبو جهل يدعو ويقول: «اللهم إن محمداً أقطعُنا للرحم، وقد أتانا بما لا نعرف، فانصرنا عليه وأحِنْهُ[30] الغداة؛ اللهم ربَّنا دينُنا القديمُ ودينُ محمد الحديثُ، فأي الدينَينِ كان أحبَّ إليك وأرضى عندك، فانصر أهله اليوم»؛ فنزل على النبي (ص) إجابة لدعاء أبي جهل قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[31].

وقام رسول الله (ص) بدوره فعدّل صفوف المسلمين، ثم خطب فيهم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال (ص): «أما بعد، فإني أحُثُكم على ما حثَّكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، فإن الله عَظُمَ شأنُه يأمر بالحق ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده، به يذكرون وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزلٍ مِن منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه، وإن الصبر في مواطن اليَأس مما يفرِّجُ الله به الهم وينجي به من الغم، وبه تدركون النجاة في الآخرة، فيكم نبيُّ الله يحذِّركم ويأمركم، فاستَحْيُوا اليوم أن يَطَّلع اللهُ على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإنه تعالى يقول: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[32]، أنظروا في الذي أمركم به من كتابه وأراكم من آياته، وما أعزكم به بعد الذلة، فاستكينوا له يَرضَ ربكم عنكم، وابلوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبون به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم ألجأنا ظهورَنا، وبه

---

٢٩ - ج ٣، س ٤ آل عمران: ١٣ - يَرَوْنَهُم مِثْلَيْهِم: يرونهم ضِعفَيْهم، يرون عددهم مرتين من عددهم هم.

٣٠ - أحِنْهُ: أمِتْهُ، أهلِكْه، أبْلِغْهُ حَيْنَه؛ الحَين: المنيَّة، الموت.

٣١ - ج ٢٩، س ٧٠ المعارج: ١.

٣٢ - ج ٢٤، س ٤٠ غافر: ١٠.

اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير، ويغفر الله لي وللمسلمين»؛ ثم قال (ص): «اللهم إنك أنزلتَ عليَّ الكتاب، وأمرتني بالقتال ووعدتني إحدى الطائفتين، وإنك لا تخلف الميعاد؛ اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها تُحادُّكَ وتُكذِّب رسولَك، اللهم نَصْرَك الذي وعدتَني، اللهم أحِنْهُم الغداة».

ثم تقدمت عساكر المشركين، وأمامهم الراية بيد إبليس (وهم يرونه سراقة بن مالك بن جُعْشُم) قد جاء بشياطينه، يهوّل بهم على المسلمين ويفزعهم بجنوده، ونظر إليه النبي (ص) وقال لأصحابه: «غُضُّوا أبصاركم، وعُضُّوا على النواجذ[٣٣]، ولا تَسُلُّوا سيفاً حتى آذَنَ لكم»؛ ونظر إبليس فرأى جبرائيل والملائكة قد هبطوا لنصرة النبي (ص)، فتراجع ورمى باللواء وهمَّ بالهزيمة، فرآه نُبَيْهُ بن الحجاج وعرف ما همّ به، فأخذ بمجامع ثوبه يقول له: «ويلك يا سراقة، تَفُتُّ في أعضاد الناس؟!»؛ فوكزه إبليس في صدره وقال ما أخبرالله سبحانه عنه بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[٣٤]؛ وتشبث به الحارث بن هشام ليمنعه، فضرب إبليس صدره، فسقط الحارث وهُزِمَ إبليس نحو البحر. وقد روي أنه حمل عليه جبرائيل (ع) فهرب منه وهو يقول: «يا جبرائيل هل بدا لكم (أي هل حدث شيء جديد جعلكم تبدلون رأيكم) في ما أعطيتمونا؟»؛ ثم غاص في البحر وهو يقول: «ربِّ أَنْجِزْ لي ما وعدتَني من البقاء إلى يوم الدين»؛ ورآه شيخ صياد كان يومئذٍ على ساحل البحر، وسمعه وهو يصرخ منادياً برفيع صوته: «يا ويلاه يا ويلاه! يا حرباه يا حرباه!»؛ حتى ملأ الوادي بصياحه، فتقدم الشيخ إليه ـ وهو يراه سراقة بن مالك بن جُعْشُم ـ يقول له: «مالَكَ فداك أبي وأمي؟»؛ فلم يرد عليه

---

٣٣ ـ النواجذ: الأضراس. والعضُّ على النواجذ يراد منه الصبر الشديد والتحمل.

٣٤ ـ ج ١٠، س ٨ الأنفال: ٤٨.

شيئاً واقتحم البحر، فقال الشيخ: «جُنَّ والله سراقة».

ثم انتشر في عساكر المشركين خبر هزيمة سراقة حامل لوائهم، فازدادوا بذلك خوفاً؛ عندئذٍ أقبل عليهم أبو جهل ينادي فيهم: «لا يَغُرَّنَّكُم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على ميعاد من محمد وأصحابه، وسيعلم إذا رجعنا[٣٥] ما نصنع»؛ هذا كله وسراقة في مكة لم يعلم بشيء من ذلك كله، حتى إنه لما رجع بعض المشركين من بدر إلى مكة وهم يلومون سراقة، ويقولون إنه أهزم الناس، وأنه هو الذي فتّ أعضاد قريش، أتى إليهم يقول: «والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني نبأ هزيمتكم»؛ فجعلوا كلما قالوا له: إنك أتيتنا يوم كذا وعملت كذا، حلف لهم أنه لم يعلم بشيء من ذلك، ولم يأتهم ولم يعمل معهم شيئاً، وشهد له بذلك مَن كان معه بمكة، حتى صدّقه القوم، وعلموا أن ذلك لم يكن إلا إبليس قد تصوّر بصورته.

ولما تقابل الفريقان والتقى العسكران، تناول النبي (ص) من أمير المؤمنين (ع) ـ بأمر من الله سبحانه ـ كفاً من حصباء وتراب، ورمى به في وجوه المشركين وعلى ميمنتهم وميسرتهم وبين أظهرهم، وهو يقول (ص): «شاهَت الوجوه!»؛ فلم يبق يومئذٍ من عساكر قريش أحد إلا ودخل في عينيه أو فمه أو منخريه شيء من ذلك، وصار ذلك سبباً لهزيمتهم بإذن الله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[٣٦].

ثم ابتدأت الحرب، بدأها المشركون:

خرج من صفوفهم، في أوائل من خرجوا، «عُتْبَة بن ربيعة» ـ وكان فارساً ضخم الجثة عظيم الهامة، حتى أنهم لم يجدوا له بيضة[٣٧] تسع

---

٣٥ ـ في الأصل: «إذا رجعنا إلى قديد» (؟؟).

٣٦ ـ ج ٩، س ٨ الأنفال: ١٧.

٣٧ ـ بيضة: خوذة من حديد، هي لباس الرأس في الحرب حمايةً له من ضربات السيوف وسواها.

رأسه، فاعتجر[38] بعمامتين ـ وخرج معه على جانبيه ابنُه «الوليد بن عتبة»، وأخوه هو «شيبة بن ربيعة»، وتقدم ثلاثتهم على جيادهم وقد جردوا سيوفهم حتى وقفوا بين العسكرين، فأخذ عتبة ينادي برفيع صوته: «يا محمد، أَخْرِجِ إلينا أكفاءنا من قريش»؛ فبرز إليهم ثلاثة من الأنصار، هم «عَوْذ»[39] و «مُعَوَّذ» ابنا الحارث وزَوجِه عفراء، وثالث (قيل إنه الشاعر عبدالله بن رواحة)، فسألهم عتبة عن أنسابهم، فقالوا: «نحن بنو عفراء، أنصار الله وأنصار رسوله»؛ فقال: «ارجعوا، لسنا إياكم نريد، إنما نريد الأكفاء من بني قومنا قريش»؛ فسمعه النبي (ص)، فبعث إلى الثلاثة أن: «ارجعوا»، وكان (ص) كره أن يبتدىء في الحرب بالأنصار، فلما رجعوا إلى مواقفهم، توجه النبي (ص) إلى «عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب» ـ وله من العمر يومئذٍ سبعون سنة ـ وقال له: «قم يا عبيدة»؛ فبادرَ مسرعاً إلى القيام بين يديه بالسيف، ثم توجه النبي (ص) إلى عمه حمزة (ع) وقال له: «قم يا عم»؛ فقام مسرعاً بسيفه بين يديه، ثم توجه (صلعم) إلى ابن عمه أمير المؤمنين علي (ع) ـ وهو يومئذٍ أصغرهم سناً ـ وقال له: «قم يا علي»؛ فاستوى على قدميه بأسرع ما يكون مصلتاً سيفه، فقال (ص) لهم: «اذهبوا فاطلبوا حقكم الذي جعله الله لكم، فقد جاءت قريش بِخُيلائها وفخرها تريد أن تطفىء نور الله ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾[40]»؛ ثم قال (ص): «يا عُبَيدة، عليك بعُتْبة»؛ وقال (ص) لحمزة: «عليك بشيبة»؛ وقال لعلي (ع): «عليكَ بالوليد بن عتبة»؛ فلما انصرفوا وتقابلوا معهم وكان عليهم البَيْض فلم يُعْرَفوا، قال لهم عتبة: «انتسبوا نعرفْكم، فإن كنتم أكفاءنا قاتلناكم»؛ فأجابه عبيدة وهو يومئذٍ أكبر المسلمين سناً ـ وكان

---

٣٨ ـ اعْتَجَرَ: لفَّ حول رأسه عمامة.

٣٩ ـ في بعض المصادر أن اسم هذا الأخ «عوف»، وفي مصادر أخرى أن الثلاثة كانوا أخوة، وأن أسماءهم كانت: عود ومعوذ وعوف.

٤٠ ـ القرآن الكريم، ج ١٠، س ٩ الأنفال ٣٢.

قريب السن من أبي طالب (ع) ـ فقال: «أنا عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب»؛ فقال عتبة: «كُفْوٌ كريم»؛ وقال حمزة (ع): «أنا حمزة بن عبد المطلب، أسد الله وأسد رسوله، أنا صاحب الحلفاء»؛ فقال عتبة: «سنرى صولتك اليوم، يا أسد الله وأسد رسوله وقد لقيتَ أسد المطيبين»؛ ثم سأل علياً عن نسبه، فقال (ع): «أنا عبد الله وأخو رسوله علي بن أبي طالب»؛ فتوجه عتبة إلى ابنه يقول له: «يا وليد دونك الغلام»؛ وكان الوليد هذا خالاً لمعاوية بن أبي سفيان، وكان يومئذٍ قد تنور وتخلق وتزين بخاتم من الذهب، وكان شجاعاً فاتكاً طويل القامة أطول من أمير المؤمنين (ع) بنحوِ من ذراع، فجرد سيفه وشد على علي (ع)، فلم يمهله أمير المؤمنين حتى بادَره بالسيف على كتفه ونزل السيف إلى تحت إِبْطه، وأنشأ يقول:

تَبّاً وتَعْساً لك ياآبْنَ عُتْبة أسقيك من كأس المنايا شربة
ولا أبالي بعد ذاك غَبَّة[41]

فانقطعت ذراعه، وكانت لِعِظَمِها وغِلَظِها تستر وجهه عند رفعها، فصاح صيحة أسمعت العسكرين، ثم أخذ يمينه المقطوعة بيساره، وضرب بها هامة أمير المؤمنين ضربة كاد أن يقضي بها عليه، حتى قال (ع) عند إصابة اليد المقطوعة رأسَه: «ظننتُ أن السماء وقعت على الأرض»؛ ثم ذهب مُوَلّياً نحو أبيه، فلحقه أمير المؤمنين (ع) وشد عليه حتى ضرب فخذه بالسيف، فسقط على الأرض، وأنشأ علي (ع) يقول:

أنا آبنُ ذي الحَوْضَينِ عبدِ المُطَّلِب وهاشِمِ المُطْعِمِ في العامِ السَغِب[42]
أوفي بميثاقي وأحمي عن حَسَب[43]

وقد قال علي (ع) فيه بعدئذٍ: «لما ضربتُهُ وصرعته وسلبته ونظرت إلى

---

٤١ ـ غَبة: نتيجة، نهاية، ما يحدث بعد ذلك.

٤٢ ـ السَغِب: الشديد الجوع.

٤٣ ـ الحَسَب: شرف النسب والأصل، ومفخرة السلالة والآباء.

وميض خاتمه في شماله، رأيت به درعاً من خَلوق[٤٤]، فعلمتُ أنه قريب عهد بالعرس».

وأما ما كان من أمر حمزة (ع) وعبيدة، فإنهما تبارزا وتكادما[٤٥] وتضاربا طويلاً دون أن يتمكن أحدهما من الآخر، أو يغلب أيٌّ منهما خصمه. وحدث أثناء تعاركهما، وبينما كان أمير المؤمنين علي (ع) على رأس خصمه الوليد يسلبه والعسكران ينظرون إليهما، أن نادى رجل من الأنصار: «يا علي، أما ترى الكلبَ قد بَهَرَ[٤٦] عمك؟»؛ فأقبل يشدّ على عُتبة، وأقبل عتبة يشد عليه وقد رأى في حداثة سنة فرصة يغتنمها، وأعرض مولياً عن حمزة، فلحقه حمزة من ورائه، وبادره بضربة بالسيف على حبل عاتقه، وضربه في الوقت نفسه أمير المؤمنين (ع) أيضاً فسقط، وأجهز عليه علي (ع). في هذه الأثناء كان ابنه (المسلم) أبو حذيفة بن عتبة واقفاً بجانب رسول الله (ص)، فلما رأى ما فُعِلَ بأبيه وأخيه، ارْبَدَّ وجهُهُ وتغيَّر لونُه وأخذ يتنفس حسرة، فتوجه إليه النبي (ص) يقول له: «صبراً يا أبا حذيفة».

وأما عبيدة، فإنه لما بارَزَ خصمه شيبة والتقيا، أخذا يتضاربان، حتى ضرب كلٌّ منهما الآخر، وأسرع السيف في كليهما وسقطا جميعاً على الأرض، فسارع حمزة إليهما فَشدّ على شيبة ليجهز عليه، فجذبه شيبة إليه واعتنقه، فلم يتمكن حمزة من ضربه، عند ذلك لحقهما أمير المؤمنين (ع) وقال لحمزة: «طأطىء رأسك يا عم»، فأدخل حمزة رأسه في صدر شيبة، فضربَ علي (ع) بالسيف على رأس شَيْبَة حتى طير نصفه، وأنهض عمه حمزة فأجهزا عليه وقتلاه. ثم احتملا عبيدة، وقد سال مخ رجله[٤٧] على

---

٤٤ ـ الخَلوق نوع من الطيب المخلوط، يكثر فيه الزعفران.

٤٥ ـ تكادما: تعاضّا، جعل كل منهما يعض الآخر.

٤٦ ـ بَهَرَ: غَلب.

٤٧ ـ جاء في مصادر أخرى، أن رِجْل عبيدة كانت قد قُطِعَت بضربة عُتبة. أما مُخ الرِجْل، فهو النِقع، أو المادة اللزجة التي ضمن العظم.

أقدامهما، إلى أن أتيا به إلى النبي (ص) ابن عمه، فاستعبر النبي (ص) باكياً، فقال عبيدة: «يا رسول الله، ألستُ شهيداً؟»؛ قال (ص): «بلى، أنت أول شهيد من أهل بيتي»؛ فقال عبيدة: «لو كان أبو طالب حياً، لعلم أني أولى منه بهذا البيت الذي قاله في قصيدته:

ونُسْلِمُهُ حتى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ ونَذْهَلَ عن أبنائنا والحَلائِلِ»[48]

فقال (ص): «أما ترى ابنه كالليث العادي بين يدي الله ورسوله، وابنه الآخر[49] في جهاد الله بأرض الحبشة؟!»؛ ثم ظهر الانقباض فجأة في وجه رسول الله (ص)، فقال عبيدة: «أسخطت عليَّ يا رسول الله في هذه الحالة؟»؛ قال (ص): «لا، ما سخطت عليك، ولكن ذكرتُ عمي[50] فانقبضت لذلك». وجعل النبي (ص) يقول: «إن عتبة والوليد وشيبة، كواسطة القلادة في الكفار؛ وأن علياً وحمزة وعبيدة، كواسطة القلادة في المؤمنين».

وبلغ هنداً أُمَّ معاوية بن أبي سفيان قَتْل أبيها وأخيها وعمها بسيف أمير المؤمنين (ع)، فقامت قيامتها وأخذت تندبهم ليلها ونهارها وتقول:

---

٤٨ ـ تقدم هذا البيت من الشعر (في الفصل الذي عنوانه: مبعثه (ص) بالنبوة، ونزول الوحي عليه بتبليغ الرسالة) في حديث الحمية العاطفية الغاضبة التي أصابت أبا طالب عم النبي (ص) حين طلبت منه قريش أن يُسْلِمَها محمداً مقابل منافع وإغراءات له، فطردهم وقال أبياتاً حارة في الانتصار لابن أخيه والاستعداد للموت دونه ودون تسليمه لهم، منها:

ولما رأيتُ القومَ لا وُدَّ فيهمُ وقد قَطَعوا كلَّ العُرَى والوسائلِ
كذبتُمْ وبيتِ الله يُبْزَى محمدٌ ولما نطاعِنْ دونَهُ ونقاتلِ
ونُسلِمُهُ حى نُصَرَّعَ حولَهُ ونُذْهَلَ عن أبنائنا والحلائِلِ

٤٩ ـ ابن أبي طالب(ع) الذي شبَّهَهُ الرسول (ص) بالليث، يقصد النبي (ص) به علياً(ع) الابن الأصغر لأبي طالب، أما الابن الآخر المجاهد لله مغترباً في أرض الحبشة، فهو جعفر بن أبي طالب(ع).

٥٠ ـ العم الذي انقبض الرسول (ص) حين ذكره، لفرط حبه له، هو أبو طالب(ع).

أبي وعمي وشقيقُ بِكْرِي[٥١] أخي الذي كان كضَوْءِ البَدْرِ
بِهِمْ كَسَرْتَ يا عليُّ ظَهري

وأنشدَتْ تقول:

أيا عينُ جودي بدمعٍ سَرِبْ على خير خِنْدِفَ لم يَنْقِلِبْ[٥٢]
تداعَى له رهطُهُ غُدْوَةً بنو هاشمٍ وبنو المُطَّلِبْ[٥٣]
يُذيقونَهُ حَدَّ أسيافِهِمْ يُعَرُّونَهُ بعد ما قد شُخِبْ[٥٤]

وهؤلاء هم الذين كان يندبهم يزيد بن معاوية بعد قتله للحسين

---

٥١ ـ ولعلها أن تكون أيضاً: وشقيقي البِكرِ.

٥٢ ـ دمع سَرِب: دمع سيال، كثير التسرب والانهمار ـ خير خِنْدِف: أفضل بني خندف ـ وخِنْدِف (بكسر الخاء والدال وتسكين النون): جَدَّة قريش، اسمها ليلى بنت حُلوان بن عمران، خرجت تسرع في إثر أولادها الثلاثة حين نفرت إبل أبيهم إلياس بن مضر، فقال لها زوجها: «أين تُخَنْدفين؟»؛ فقالت: «ما زلتُ أخندف في إثركم»؛ فكان لقب «خِندِف»، وعُرف أبناء إلياس بن مضر بلقب «أبناء خِندِف». والخَنْدَفة: نوع من التبختر في المشي. ويذكر المسعودي أن «مُضَر» ترجع إلى حَيَّينِ هما: خندف وقيس. يقول الفرزدق:

إذا اجتمع الحيان قيسٌ وخِندِفٌ فثم معدّ هامها وعديدها

ويقول جرير أيضاً:

إذا أخذت قيس عليك وخندف بأقطارها لم تدر من حيث تسرح

(راجع: القاموس المحيط: خندف؛ والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١/ ٣٩٧ و٣٩٨؛ وفرهنگ سياح: خندف؛ . . .) ـ وقولها: خير خندف لم ينقلب، يحتمل أن يكون أيضاً: لم ينغلب.

٥٣ ـ تداعى له رهطه: نادَى بعضهم بعضاً وتجمعوا عليه ـ رهطه: جماعته، خاصته، أقاربه. . . لأن بني هاشم وفرعهم بنو المطلب هم أيضاً من قريش ومن قبيلة القتيل في الأصل.

٥٤ ـ في الأصل من الطبعة الأولى: شحب (بالحاء المهملة بدون نقطة) أي تغيَّر لونه وبهت، ونرجح ما أثبتناه (بالخاء المعجمَة بنقطة فوقها) أي سال دمه دافقاً بعد جرحه.

السبط (ع)، وكان يتمنى شهودهم في مجلسه عند إحضار رأس الإمام الشهيد (ع) له في طشت بين يديه، وجعل ينشد أبياتاً طاعناً بالنبي (ص) وآله، شامتاً بهم بقوله:

لَيتَ أشياخي بِبَدْرٍ شهدوا   جَزَعَ الخَزْرَجِ مِن وَقْعِ الأسَل[55]
لأهَلُّوا واستَهَلُّوا فَرَحاً   ثم قالوا: يا يزيد لا تُشَل[56]
لَستُ مِن خِندِفَ إنْ لم أنتقِمْ   مِن بني أحمدَ ما كان فعل[57]
لَعِبَتْ هاشمُ بالمُلْكِ فلا   خَبَرٌ جاءَ ولا وَحْيٌ نَزَل[58]

ثم إنه بعد قتل هؤلاء الثلاثة برز إلى أمير المؤمنين (ع) حنظلة بن أبي سفيان، فضربه أمير المؤمنين (ع) ضربة سالت منها عيناه وخر على الأرض قتيلاً، فازداد المشركون خوفاً. عندئذٍ أقبل عليهم أبو جهل يسكّن روعهم ويحرضهم على القتال وهو يقول: «لا يَهُولَنَّكُم مقتل عتبة وشيبة والوليد،

---

٥٥ ـ ليت أشياخي [= كبار قومي، الذين كانوا] بـ [معركة] بدر، [... ليتهم] شهدوا [ورأوا وشاهدوا.. اليومَ] جَزَعَ [بني قبيلة] الخَزْرَج [الذين كانوا هم والأوس يوم بدر «الأنصار» لمحمد، وقتلوا أشياخي وأذلوهم..] ليت أشياخي أولئك شهدوا جَزَع [هؤلاء اليوم، أي خوفهم] من وَقْع الأسَل [: من أثر الرماح، رماحنا عليهم].

٥٦ ـ لأهلُّوا: أي لصرخوا إعجاباً ـ استهلوا: تلالأت وجوههم سروراً وفرحاً ـ لا تُشَل، دعاء، بمعنى: لا أصابك الشلل.

٥٧ ـ لستُ من بني خِندُف.. من قريش أبناء خندف.. أو لا أستحق أن أكون من بني خندف، إن لم أنتقم من بني أحمد، [أي النبي محمد (ص)]، وأعاقِب على ما كان فعل جدهم.

٥٨ ـ لعبت [بنو] هاشم بالمُلْك.. وهذا القول منه يدل على أن بني أمية ـ أبناء عم بني هاشم ـ ما فهموا من دعوة النبي (ص) ومن الإسلام ودولة التوحيد، إلا أنها صراع على المُلْك والسلطة، وتنافس بين العائلتين على السيادة والحكم، وأن الأمويين لم يؤمنوا بأخبار غيبية ولا بوحي إلهي.

فإنهم عجلوا وبَطِروا حين قاتلوا، وأيم الله لا نرجع اليوم حتى نقرَن[٥٩] محمداً وأصحابه في الحبال. . .، لا تَعْجَلوا ولا تبطَروا كما عجلوا وبطِروا، عليكم بأهل يثرب فأجزروهم جزراً[٦٠]، وعليكم بقريش فخذوهم أخذاً، حتى نُدخِلهم مكة، فنعرِّفهم ضلالتهم التي كانوا عليها، لمفارقتهم دينكم وتَخَلّيهم عما كان يعبد آباؤهم».

عند ذلك جال الناس من كل جانب ومكان، وتبارز الفريقان، وقامت الحرب فيهم على قدم وساق، واختلط بعضهم ببعض كأنهم ذئاب، وامتلأ الوادي بالصراخ ورنَّة السيوف وقعقعة السلاح، ونزل ثلاثة آلاف من الملائكة بصورة البشر لنصرة المسلمين ـ وكانوا قد تصوروا كلهم بصورة أمير المؤمنين ليكون أهيب في نفوس الأعداء ـ فلم يُرَ يومئذٍ جريحٌ أو أسير أو قتيل إلا وهو ينادي: «جرحني. . وأسرني. . وقتلني علي بن أبي طالب»، والنبي (ص) يصدقهم[٦١]؛ وكانت الملائكة النازلون يومئذٍ مُسَوَّمين، أي مرسلين متعممين بعمائم بيض أو صفر قد أرسلوا أذنابها بين أكتافهم، وقد ركبوا خيولاً بُلْقاً[٦٢]، وإلى ذلك الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[٦٣] ـ وفي قراءةٍ (وأنتم ضعفاء) فإنهم بوجود رسول الله (ص) معهم وفيهم لم يكونوا أذلاء ـ وجعل نَوْفَلُ بن خُوَيْلِد الأَسَدي من المشركين ينادي فيهم بصوت له زَجَل[٦٤] ـ وقد رفع عقيرته[٦٥]: «يا معشر قريش، إن هذا اليومَ يومُ العُلَى والرفعة»؛ فسمعه النبي

---

٥٩ ـ نقرن: نربط، نقيد.
٦٠ ـ أجزروهم: إذبحوهم، أبيحوهم للذبح.
٦١ ـ يصدقهم: يؤيد أقوالهم.
٦٢ ـ بُلْق: في لونها سواد وبياض (جمع بلقاء التي هي مؤنث: أبلق).
٦٣ ـ ج ٤، س ٣ آل عمران ١٢٣.
٦٤ ـ زَجَل: صوت راعد.
٦٥ ـ رفع صوته؛ والعقيرة صوت المغني أو القارىء أو الباكي.

(ص) فقال: «اللهم اكفني نوفلَ بن العدوية»؛ ولما قُتِل أصحابه، غَلبَ عليه الرعبُ، فجعل يصيح بالأنصار: «ما حاجتكم إلى دمائنا؟ أما تَرَونَ مَن تقتلون؟ أما لكم في اللين من حاجة؟!»؛ فقبض عليه جبار بن صخر وأسره، وحين جعل يسوقه لَقِيا أمير المؤمنين (ع)، فقال نوفل: «تاللهِ ما رأيتُ اليومَ رجلاً أسرعَ منه!»؛ فضربه أمير المؤمنين (ع) حتى أثبت السيف في جحفته[٦٦] ثم نزعه، وضرب به ساقيه فقطعهما، ثم أجهز عليه وقتله، فكبَّر النبي (ص) لِقتله وقال: «الحمد لله الذي أجاب دعوتي فيه!».

وبرز من عسكر المشركين طُعمةُ بن عَدِيّ، وكان فارساً شجاعاً، فلقي من المسلمين سعدَ بن خَيْثَمَة، فقتله، ثم رأى أميرَ المؤمنين فناداه: «هَلُمَّ يا ابن أبي طالب إلى البراز»؛ فتقدم إليه فضرب علياً بسيفه، فاتقى علي (ع) ضربته بدَرَقَتِه[٦٧]، وبادره بضربة على عاتقه وهو دارع، فقَطَّ[٦٨] السيفُ دِرعَه وارتعش، وبينما هما كذلك إذ رأى علي (ع) بريقَ سيف من ورائه، فخَفَضَ حالاً رأسه، فوقع السيف على رأس طعمة وأطنَّ بيضته[٦٩]، وسمع عليٌّ (ع) صوتَ الضارب من ورائه يقول: «خُذْها وأنا ابنُ عبد المطلب»؛ فالتفت إليه فإذا هو عمه حمزة.

وجعل النبي يحرض المسلمين على القتال بقوله (ص): «والذي نفسي بيده، لا يقاتلهم اليوم ذو حَمْلة[٧٠] فيُقتَلُ صابراً مُحتَسِباً مُقبِلاً غير مُدْبِر، إلا أدخله الله الجنة،! كل امرىء بما أصاب!»؛ وكان عمر بن حمام ـ وهو من أصحابه ـ بيده تُمَيْرات يأكلها، فسمع كلام النبي (ص) فقال: «بخ بخ،

---

٦٦ ـ الجَحْفَة: الحوض، أدنى الجسد فوق الركبتين.

٦٧ ـ الدَرْق: الصَلْب من كل شيء، فالدَرَقة: المِجَنّ، التُرس.

٦٨ ـ قَطَّ دِرعَه: قطع درعه بالعَرض.

٦٩ ـ البَيْضة: خوذة الحديد التي تُلبَس في الحرب لحماية الرأس ـ أطَنَّها: قطعها وشقَّها بطورٍ أسمَعَ طنينها وانشقاقها.

٧٠ ـ ذو حملة: مُهاجِم.

أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يَقتُلَني هؤلاء؟»؛ فرمى بالتميرات، وأخذ يجاهد حتى قُتِل (رض). وقال عوف بن الحارث: «يا رسول الله، ما يُرضي[٧١] الرب؟»؛ قال (ص): «غَمْسُ العبدِ يَدَه في دمِ العدو»؛ فنزع درعه وأخذ سيفه، وبادر نحو القوم يقاتل حتى قُتِل. وانكسر يومئذٍ سيف سلمة بن سهل وسيف عكاشة، فشَكَوَا إلى النبي (ص) ذلك، فأعطى (ص) عكاشة عوداً، وأعطى سلمة قضيباً من عُرْجون[٧٢] كان معه، وأمرهما بالجهاد بهما، فصار كل منهما بإذن الله سيفاً قاطعاً طويلاً جيداً، وأخذا يقاتلان بهما؛ ولم يزل السيفان عندهما مدة حياتيهما.

وبرز أيضاً من عسكر المشركين عبدالله بن المنذر وقد ألبسه قومُهُ لأْمةَ[٧٣] أبي جهل، فصمد إليه أمير المؤمنين (ع) وقتله وهو يقول: «أنا ابن عبد المطلب»؛ ثم ألبسوها أبا قيس، فصمد له حمزة (ع) وهو يراه أبا جهل، فضربه ضربة كان فيها قتله وهو يقول: «خذها وأنا ابن عبد المطلب»؛ ثم ألبسوها حرملة بن عمرو وخرج مبارزاً، فصمد له أيضاً علي (ع) وقتله؛ وبرز عاصم بن أبي عوف من عسكر قريش ينادي: «يا معشر قريش، عليكم بالقاطع، مفرق الجماعة، الآتي بما لا يعرف، وهو محمد، لا نَجَوْتُ إن نجا»؛ واعترضه أبو دجانة فقتله؛ فاعترض رجلٌ من المشركين اسمه معبد، وضرب أبا دجانة ضربة أبركته، فنهض وأقبل عليه يتضاربان، ولم يغلب أحدهما صاحبه، إلى أن وقع معبد في حفيرة لم يرها، فبادره أبو دجانة بضربة، ثم ذبحه وأخذ سلبه.

وخرج من عساكر المسلمين شابان اسماهما معاذ بن عمرو ومعاذ بن عفرا يتفقدان أبا جهل ليقتلاه، بعد أن بلغهما أنه يسب رسول الله (ص)

---

٧١ ـ في الأصل: «ما يُضحِك...».

٧٢ ـ العُرجون: العِذْق (أي الغصن الأم) في النخل الذي بعد أن تُقطَع عنه الشماريخ (أي الأغصان الفرعية الدقيقة) يَيْبَس ويَعْوَجّ.

٧٣ ـ اللأمَة: الدِرْع، الثوب من حديد الذي يلبسه المحارب لوقاية جسمه.

وأن قريشاً تقول: «إن أبا الحكم لا يُخلَص إليه»؛ أي لا يصل أحدٌ إليه، فكمنا له حتى رأياه، فصمد إليه أحدهما وضربه ضربة قطعت رجله من الساق، فبادر عكرمة بن أبي جهل وضرب ضارب أبيه ضربة قطع بها يده من العاتق[٧٤]، ووقع أبو جهل يتشحط بدمه، إلى أن انتهى إليه عبدالله بن مسعود ورآه كذلك، فقال له: «الحمد لله الذي أخزاك!»؛ فرفع أبو جهل رأسه وقال: «إنما أخزى الله عبدَ بن أم عبد! لِمَن الدِين ويلك؟»؛ قال: «لله ولرسوله»؛ ثم وضع رجله على عنقه يريد قتله، فقال له أبو جهل: «ارتقَيْتَ مُرْتقًى صعباً يا رُوَيْعِيَ الغنم! أما إنه ليس شيءٌ أشدَّ عليّ من قتلك إياي في هذا اليوم! ألا تَوَلّى قتلي رجلٌ من المُطَّلِبيِّين أو رجل من الأحلاف؟»؛ ولم يزل يتوسل بابن مسعود ـ وكان أَدْنَى أصحاب النبي حَسَباً ـ أن يُولِي قتلَه أحداً من أهل الشرف والحسب، وهو يأبى عليه ذلك، إلى أن يئس من إجابته، فجعل يتوسل به ويسأله أن لا يقطع رأسه إلا من صدره وتحت تَرْقُوَته[٧٥]، ليكون ارفع من رأس غيره إذا رُفِع على الرماح، فلم يجبه ابن مسعود، وفعل عكس مسؤوله، فوضع السيف على فمه أو جبهته، حتى قلَعَ بيضة رأسه[٧٦] وأتى بها إلى النبي (ص)، فسجد لله شكراً وهو يقول: «اللهم إنك أنجزتَ لي ما وعدتني، فتمم عليَّ نِعمتك».

عند ذلك لحق المشركينَ الوَهَن واعتراهم الذل، وازدادوا رهبة ورعباً، وظهرت إمارات النصر للمسلمين والفشل لقريش، وقد قُتل منهم سبعون تولى أمير المؤمنين علي (ع) وحده قتل نصفهم، وشارك سائرَ المسلمين والملائكةَ في قتل النصف الآخر، وكان الفتح على يده، وكفى الله المؤمنين القتال به وبشركائه من الملائكة ومن خاصةِ الرسول (ص)، وكان

---

٧٤ ـ العاتق: ما بين المنكب (أي رأس الكتف) والعنق.

٧٥ ـ التَرْقُوَة: أسفل الحلق حيث يلتقي بالصدر.

٧٦ ـ بيضة الرأس: أعلى الجمجمة.

يُسمع يومئذٍ بين السماء والأرض صوت كوقع الحَصَى في الطاس وقائل يقول: «أَقْدِمْ حَيْزوم» (وهو اسم لفرس جبرائيل كما ذكرنا)، وسمعت قريش في الجو أصوات الرجال والسلاح، وغشيتهم سحابة فرأى بعضهم رجالاً بِيضاً على خيلٍ بُلْق مُعْلَمِين[٧٧] يلحقون من السماء بأصحاب رسول الله، فانخلعت أفئدتهم، وكادت قلوبهم أن تذوب رعباً، ومات بعضهم من ذلك في مكانه، وأسلم بعض منهم، وكم رأوا يداً مقطوعة، وضربة جائفة[٧٨] لم يَدْمَ كَلْمُها[٧٩]. وأتى أبو بردة إلى النبي (ص) بثلاثة رؤوس وضعها بين يديه وهو يقول: «إني قتلتُ اثنين منها، وأما الثالث فإني رأيت رجلاً طويلاً أبيض ضَرَبَهُ فتَدَهْدَهَ[٨٠] أمامه، فأخذت رأسه»؛ فأخبره النبي (ص) أن ذاك مَلَك من الملائكة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾[٨١]، وكان بعض المسلمين يسير بسيفه إلى المشرك فيُفاجأ بسقوط رأس المشرك قبل وصول السيف إليه.

وبالجملة، لما اشتدت الحرب بين الفريقين، واختلط الرجال بالرجال حتى لم يُرَ إلا وميض السيوف وتساقط الأيدي والرؤوس، أسفرت الوقعة عند زوال الشمس ظهراً عن سبعين قتيلاً ـ كما أسلفنا ـ وسبعين أسيراً من المشركين، ولم يُقتَل من المسلمين إلا أحد عشر رجلاً، أربعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار، أحدهم سعد بن خيثمة الأَوْسى الذي كان من النقباء. وكان في الأسارى من قريش وأهالي مكة أبو العاص بن الربيع صهر رسول الله على ابنته زينب، والعباسُ بن عبد المطلب عم النبي (ص)، ونَوْفَل وعَقيل ابنا أبي طالب عم النبي، وأخوا أمير المؤمنين علي (ع).

---

٧٧ ـ مُعْلَمين: عليهم علائم، علامات (من خطوط أو ألوان أو سواها).

٧٨ ـ ضربة جائفة: . . . قاتلة، صارعة، مهولة.

٧٩ ـ الكَلْم: الجُرْح ـ دَمِيَ: تَدَمَّى، تلطخ بالدم ـ لم يَدْمَ: لم يظهر الدم منه أو عليه.

٨٠ ـ تدَهْدَهَ: تدحرج.

٨١ ـ ج ٩، س ٨ الأنفال ١٧.

فلما انتهت المعركة وانجلت عن هزيمة المشركين وأهل مكة وفرارهم، تفرق المسلمون ثلاث فرق: فرقة في طلب العدو وأَسْرِهم، وفرقة أغاروا على الغنائم ونَهْبها، وفرقة ثالثة كانوا على خيمة النبي (ص) يحافظون عليه. ثم قرنوا الأسارى بالحبال يسوقونهم على أقدامهم، وكان العباس رجلاً جسيماً، وقد أسره مع عقيل بن أبي طالب رجلٌ يقال له أبو بشر الأنصاري؛ ولما أتى بهما إلى النبي (ص) قال له: «كيف أسرت العباس يا أبا بشر؟»؛ قال: «يا رسول الله، قد أعانني عليه رجل لم أرَهُ قبلَ ذلك ولا بعدَه، وهيئته كذا وكذا..»؛ فأخبره (ص) أن ذلك ملك كريم. وقال آخر: «يا رسول الله، إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشراك»[82]؛ قال (ص): «ذلك ضرب الملائكة»؛ وكان يرى ضرب المقامع[83] على رؤوس المشركين والتهاب النار في جراحاتهم بأيدي رجال بيض غير معروفين في المهاجرين ولا في الأنصار، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[84].

وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، فلما وصلت إلى مكة أخبار المعركة، وبلغته أوصاف مصاب أصحابها وهزيمة قريش، ظهرت عليه آثار الخِزي والذُل، فسأل أبا سفيان عند رجوعه من الغزوة ووصوله إلى مكة واجتماع الناس عليه يسألونه عن شرح الغزوة، فقال: «والله لا شيءَ إلا أن لقيناهُم فمَنَحْناهُم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا، وأَيْمُ اللهِ ما لُمْتُ الناس! لقينا رجالاً بِيضاً على خَيلٍ بُلْقٍ بين السماء والأرض لا يقوم لها شيء»؛ فسمعه أبو رافع مولى العباس بن عبد المطلب ـ وكان قد أسلم متكتماً إيمانه ـ فقال: «تلك الملائكة»؛ فغضب أبو لهب من كلامه غضباً

---

٨٢ ـ الشِراك: رِباط النَعل أو الحذاء، ويُسَمّى أيضاً: السَيْر.

٨٣ ـ المقامع: جمع مِقْمَعَة، وهي خشبة أو حديدة يُضْرَبُ بها للعقاب أو للتأديب.

٨٤ ـ ج ١٠، س ٨ الأنفال ٥٠.

شديداً، وضربه على وجهه ضربة مؤلمة، ثم احتمله وجلد به الأرض، وجلس عليه وهمَّ أن يقتله؛ وكان الغلام رجلاً ضعيفاً، وكانت أم الفضل زوجة العباس جالسة ـ وهي أيضاً كانت مسلمة متكتمة بإسلامها ـ فلما رأت فعل أبي لهب بمولاها ومولى بعلها، غضبت أشد الغضب، وعمدت إلى عمود هناك، فتناولته وضربت به أبا لهب فَلَقَتْ بها رأسه وشجَّته شجة منكرة وهي تقول له: «أتستضعفه يا أرذل الأنام إذ غاب عنه سيده؟»؛ فقام الفاسق وولى ذليلاً. ولم يعش أبو لهب بعد ذلك إلا سبع ليال، فقد رماه الله بالعَدَسَةِ[85] وهلك بها. وقد تركه أبناه ثلاثَ ليال لم يدفناه خِلالَها اتقاءً من قرحة العدسة وسرايتها، فإن قريشاً كانت تتقي العدسة كما يتقي الناس الطاعون، إلى أن أَنْتَنَ جسد أَبي لهب، فعتب بعض الناس عليهما يلومونهما على ترك جثة أبيهما، فقالا: «أنا نخشى هذه القرحة»؛ إلى أن انطلقوا إليه وصبوا عليه الماء بدلاً مِن غسله مِن غير مسه، ثم احتملوه إلى جدار بأعلى مكة فرمَوْهُ هناك، وقذفوا عليه الحجارة حتى واروه.

ثم إن رسول الله (ص) بعد زوال الشمس ظهراً، وبعد هزيمة المشركين واغتنام المسلمين غنائمهم، أمر بعض أصحابه باستلام الغنائم وجمعها وحملها، وأقام ببدر حتى صلى العصر فيه، وأمر بقَليب[86] فحُفِر، وأُلْقِيَ قَتلَى قريش فيه، ما عدا أمية بن خلف[87]، لأنه كان مسمناً انتفخ من يومه وتزايل لحمه، فأقرُّوه في موضعه وألقوا عليه من التراب والحجارة ما غيَّبَه.

ثم وقف النبي (ص) على القليب يناديهم رجلاً رجلاً، إلى أن قال (ص): «هل وجدتُمْ ما وَعَدَ ربُّكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني

---

٨٥ ـ عَدَسة: بَثْرة أو دُمَّلة تُشبه حبة العَدَس، وهي قاتلة كالطاعون وتنتقل بالعدوى.

٨٦ ـ قَليب: بئر.

٨٧ ـ أمية بن خَلَف هذا، هو الذي كان يعذّب بلالاً الحبشي (مؤذن الرسول) في مكة قبل الهجرة، وكذا والديه (اللذين كانا أول شهيدين في الإسلام)، وقد قتله بلال ـ وساعده آخرون ـ حين رآه يوم بدر، وقتل معه ابنه أيضاً.

ربي حقاً! بئس القومُ كنتم لنبيكم، كذَّبتُموني وصدَّقني الناس، وأُخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس»؛ فقال له بعض أصحابه: «يا رسول الله، أتنادي قوماً قد ماتوا؟»؛ فقال (ص): «ما أنتم بأسْمَعَ منهم لما أقول، ولقد علموا أنَّ ما وعَدَهم ربُّهم حق، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني».

وأنشأ علي (ع) يقول:

أَلَـمْ تَـرَ أن الله أَبْـلَـى رسـولَـهُ ... بَلاءَ عزيز ذي اْقتدارٍ وذي فَضْلِ [88]
بـمـا أنـزلَ الـكـفـارَ دارَ مَـذَلَّـةٍ ... ولاقَوا هَواناً من إسارٍ ومِن قَتلِ [89]
فأَمْسى رسولُ الله قد عزَّ نَصْرُهُ ... وكـان أمـيـنُ الله أُرسـلَ بـالـعَـدلِ
فـجـاء بـفُـرقـانٍ مـنَ الله مُـنـزَلٍ ... مُـبَـيَّـنَـةٍ آيـاتُـهُ لِـذَوي الـعـقـلِ
فـآمـنَ أقـوامٌ كـرامٌ وأيـقـنـوا ... وأمْسَوْا بحمدِ اللهِ مُجْتَمِعي الشَملِ
وأنـكـرَ أقـوَامٌ فـزاغَـتْ قـلـوبُـهُـمْ ... فزادَهُمُ الرحمانُ خَبْلاً على خَبْلِ [90]
وأمْـكَـنَ مـنـهـم يـومَ بـدرٍ رسـولَـهُ ... وقوماً عِضاباً فِعْلُهُمْ أحسنُ الفِعلِ [91]
بـأيـديـهِـمُ بـيـضٌ خِـفـافٌ قَـوَاطِـعٌ ... وقد حارَثوها بالجلاءِ وبالصَقلِ [92]
فكم تركوا مِن ناشىءٍ ذي حَمِيَّةٍ ... صريعاً ومِن ذي نَجْدَةٍ مِنهُمُ كَهْلِ
وتَبكي عيونُ النائحاتِ عليهِمُ ... تجودُ بإرسالِ الرِشاش وبالوَبْلِ [93]
نـوائح تَـبـكي عُـتـبَـةَ الـغَـيِّ وآبـنَـهُ ... وشَيْبَةَ تَنعاهُ وتَنْعَى أبا جهلِ [94]

---

٨٨ ـ أبْلاه: امتحنه.

٨٩ ـ الإسار: التقييد.

٩٠ ـ الخَبْل: الفساد، و.. الضرر، و.. الجنون...

٩١ ـ العَضْب: السيف القاطع. الرجال العِضاب:... الصارمو القول والكلام.

٩٢ ـ بِيض: سيوف ـ حارَثوها: صقلوها، نعَّموها، صيَّروها حادة جداً.

٩٣ ـ الرِشاش: الماء القليل ـ الوَبْل والوابِل: المطر الشديد.

٩٤ ـ الغيّ: الضلالة ـ يعدد الأمير(ع) هنا أسماء بعض البارزين من المشركين الذين قتِلوا في المعركة (وقد تقدم في الصفحات السابقة أسماء بعضهم) ومنهم هنا: =

وذا الذَحْل تَنْعَى وأبْنَ جَذْعانَ فيهِمُ مُسَلَّبَةً حَرَّى مُبَيِّنَةَ الثُكْلِ[٩٥]
ثَوَى منهُمُ في بئرِ بدرٍ عِصابَةٌ ذَوُو نَجَداتٍ في الحُزُونِ وفي السَهلِ[٩٦]
دعا الغَيُّ منهُمْ مَن دعا فأجابَهُ ولِلْغَي أسبابٌ مُقَطَّعةُ الوَصْلِ
فأضْحَوْا لَدَى دارِ الجحيمِ بِمَعْزِلِ عنِ البَغْي والعُدْوانِ في أشغلِ الشُغلِ[٩٧]

ثم إن النبي (ص) لما فرغ من صلاة العصر، جعل يبتسم، فسألوه عن ذلك فقال (ص): «مرَّ بي ميكائيل فتبسم لي وهو يقول: إني كنت في طلب القوم؛ وأتاني جبرائيل يقول: يا محمد، إن ربي بعثني إليك وأمرني أن لا أفارقك حتى ترضَى، فهل رضيت؟ قلت: نعم».

ثم انصرف النبي (ص) بمن معه من المسلمين ـ وكان في بعضهم جراحات يسيرة ـ وهم يسوقون الأسارى من المشركين على أقدامهم موثقين بالحبال، إلى أن نزلوا بالأُثَيْل ـ وهو (منزل) وهو على بعد ستة أميال من بدر ـ وباتوا هناك، بعد أن أمر النبي (ص) بعضهم بحراسة المسلمين وغنائمهم خلال الليل. وحدث أن العباس جعل يئن في وثاقه إلى درجة أن منَعَ أنينُهُ النبيَ (ص) عن الرقاد رقةً لعمه وعطفاً عليه، فأطلقوه من الوثاق. ولما كان آخر الليل، ارتحل النبي (ص) نحو المدينة بمن معه، وكان قد سبقه زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة وصالح شقران (مولى رسول الله) ومعهم الأسارى إلى المدينة، يبشرون أهلها بالفتح وقدوم رسول الله (ص)، فخرج الناس حتى لقوا النبي (ص) بالروحاء

= عتبة بن ربيعة (جد معاوية والد أمه هند) وأخوه شيبة بن ربيعة، وابن عتبة، الوليد (خال هند) وأبو جهل، وذو الذحل، وابن جذعان...

٩٥ ـ (النائحات على هؤلاء)، مُسَلَّبات، وهي مرتديات السِلاب، أي ثياب الحزن والمآتم.

٩٦ ـ الحُزون: المرتَفَعات ـ ذوو نجدات في الحزون وفي السهل، أي في كل مكان، لا فرق فيه بين صعب وسهل.

٩٧ ـ أشغَل الشُغل: أكثرُ شغلٍ يشغلهم، ويملأ عليهم فكرهم ووقتهم وهمومهم.

يُهنِّئونَهُ إلى أن أدخلوه المدينة، فلما دخلها أمر (ص) بقتل عُقْبَة بن أبي مُعَيط والنضر بن الحارث فقط من الأسارى.

ثم استشار النبي (ص) الأنصارَ وسائر الصحابة في بقية الأسارى، بين قتلهم وأخذ الفداء منهم وإطلاق سبيلهم، فقال أبو بكر (رض): «يا رسول الله، إنهم أهلُك وقومك، استَأْنِ[98] بهم واَسْتَبْقِهِم وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار»؛ وقال عمر بن الخطاب (رض): «يا رسول الله، إنهم كذَّبوكَ وأَخرَجوك، فقدِّمْهم واضربْ أعناقهم، ومَكِّن علياً من [أخيه] عقيل فيضرب عنقه، ومَكِّنّا من سائرهم نضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر»؛ وتقاولَ الناس في ذلك واختلفوا اختلافاً شديداً، فمنهم من يقول: «القولُ ما قال به أبو بكر يا رسول الله، إنهم قومُك وعشيرتك، ولعل الله أن يستنقذهم بك من النار»؛ ومنهم من يقول: «القولُ ما قال به عمر»؛ ثم تقدم [الشاعر] عبدالله بن رواحة برأي مغاير للسابقين وقال: «يا رسول الله، أنتَ بوادٍ كثير الحطب، فأجمع حطباً والهب فيه ناراً وألْقِهِم فيها»؛ ولكن النبي (ص) لم يقبل بقتل القوم، بل وقال للمسلمين: «استوصوا بالأسارى خيراً!»، كما أنه (ص) كره حتى أخذ الفداء منهم، ولكن إلحاح القوم عليه وكذا حاجة المسلمين إلى المال ليكون مدداً للدعوة وسنداً للصمود أمام محاربيهم، أدَّيا إلى قبوله، وأخبرهم أنه يُقْتَل منهم في العام القابل بعدد من يُؤخذ منهم الفداء، وجعل الفداء على كل من الأسارى على قدر طاقته وغناه، فمنهم مَن أخذ منه الفداءَ أربعة آلاف، ومنهم مَن أخذ منه الفداءَ ثلاثة آلاف، إلى ألفين، ثم إلى ألف، حتى انتهى الأمر إلى جمع منهم فقراء لا مال لهم، فمنَّ عليهم النبي (ص) وأطلقهم من غير فداء.

وجيء بالعباس عمه بين يديه، فقال له النبي (ص): «إفْدِ نفسَكَ وابْنَ

---

٩٨ ـ استَأْنِ بهم: أَمْهِلْهُم، أَنْظِرْهُم، أَجِّلْهُم.

أخيك» يعني عقيلاً ـ وكان العباس ثرياً كثير المال ـ فقال: « يا رسول الله، قد كنتُ أسلمت، ولكن القوم استكرهوني»، فقال (ص): «الله أعلم بإسلامك، فإن يكن ما تذكر حقاً، فالله يجزيك عليه، وأما ظاهرُ أمرك فقد كنت علينا؛ يا عباس، إنكم خاصمتم اللهَ فخاصمكم، فَأْفْدِ نفسَك وٱبْنَي أخيك نوفلا وعقيلا»؛ فقال العباس: «يا رسول الله، ما أُخِذَ مني أحسبه من فدائي» (وقد كان أُخِذَ منه في الغنيمة أربعون أُوقِيَّة من الذهب)؛ فقال (ص): «إنما ذلك شيء أعطانا الله تعالى منك»؛ قال: «فليس لي مال غيره»؛ فقال (ص): «بلى! أين الذهبُ الذي سلَّمْتَه إلى أم الفضل (يعني زوجته) وقلتَ لها: إن حَدَثَ بي حدثٌ فهو لكِ ولأولادي الثلاثة، اقسموه بينكم»؛ فقال العباس: «من أخبرك بهذا؟»؛ قال (ص): «أخبرني به الله»؛ فقال: «والله ما اطَّلع على هذا أحد إلا الله تعالى، وأنا أشهد أنك رسول الله! ولكن يا رسول الله، أتتركني أن أسأل الناس بكفي؟»؛ فنزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾[99]. وقد كانت عاقبة أمر العباس كما أخبر سبحانه، فقد صار له مال كثير، ومَلَكَ عشرين مملوكاً أدناهم يضرب بعشرين ألف درهم، وكان بعدما حَسُنَ إسلامُهُ يشكر رحمة ربه على ما وهب له بدلاً عن ما أُخِذَ منه، ويرجو المغفرة بوعده تعالى في ذيل الآية. ثم إن الأسارى بعد إطلاق سبيلهم وقبول الفداء منهم، رجعوا بأجمعهم إلى مكة مشركين، ما عدا العباس وٱبنَيْ أخيه نوفلاً وعقيلاً فإنهم استمروا على إسلامهم.

وكان رسول الله (ص) حين هاجر قد خلَّف بعده في مكة ثلاث بنات له من زوجته خديجة (ع)، هن: زينب ورُقَيَّة وأم كلثوم، وكنَّ أسلمن مع أمهن (ع) قبل الهجرة حين بُعِثَ النبي (ص) بالرسالة، وقد

---

٩٩ ـ ج ١٠، س ٨ الأنفال ٧٠.

تزوج زينبَ قبل الهجرة ابنُ خالتها أبو العاص بن الربيع ـ الذي كان من خديجة (ع) بمنزلة ولدها ـ، وتزوج رقيةَ ابنُ عم أبيها عتبة بن أبي لَهَب، وتزوج أمَّ كلثوم أخوه عُتَيْبة بن أبي لهب؛ ولكن الأزواج الثلاثة لم يُسْلِم أحد منهم، وبَقيَت الزوجات المسلمات الثلاث تحت الأزواج المشركين الثلاثة في مكة، دون أن يتمكن النبي (ص) من التفريق بينهم (بالإسلام والكفر)، لأنه (ص) كان مغلوباً على أمره غير متمكن من تنفيذِ أمرٍ وإجراءِ أحكامِ حلالٍ وحرام؛ بل جعلت قريش في مكة تُلحُّ على الأزواج الثلاثة بطلاقهن ليؤذوا النبي (ص)، وكانوا يقولون لهم: «إنكم قد فرّغتم محمداً من هَمِّه، أخذتم عنه بناته وأخرجتموهن من عياله [أي من همّ إعالتهن والنفقة عليهن ورعايتهن]، ردُّوا عليه بناته وأشغلوه بهن». وقد استجاب ابنا أبي لهب لرغبة قريش ـ وفيهم أبوه ـ فطلق عتبة رقية ولم يكن قد دخل بها، إلى أن قَدِمت المدينة فتزوجها عثمان بن عفان وتوفيت عنده دون أن يُنجب منها، وطلق أخوه عتيبة أختها أم كلثوم أيضاً، فتزوجها عثمان بعد وفاة أختها رقية، ولذا لُقِّب بلقب «ذي النورَين». أما زوج زينب، أبو العاص بن الربيع ـ الذي كان من الرجال المعدودين مالاً وتجارة وأمانة ـ فقد رفض طلاقها، فعرضوا عليه أن يزوّجوه مَن يشاء من نساء قريش، ولكنه ازداد رفضاً وهو يقول: «لا والله، لا أفارقُ صاحبتي، وما أُحِب أن لي بها امرأة من قريش»، لذا كان النبي (ص) إذا ذكره أثنى عليه في مصاهرته.

وقد أقام أبو العاص على شركه في مكة ست سنين وزينب تحته وهي مسلمة، إلى أن سار مع المشركين إلى بدر وأُخِذَ أسيراً. فلما ٱستقر الرأي على قبول الفداء من المشركين، وأَخَذ أهل مكة يبعثون الفداء لأساراهم، بعثت زينب في جملتهم فداءً عن بعلها، وكان الفداء قلادةً لأمها خديجة(ع) وهبتها لها ليلة زفافها، فلما رأى النبي (ص) قلادة ابنته أخذته رقة شديدة، وسأل أصحابه أن يُطْلقوا لها أسيرها بلا فداء ويردوا عليها الفداء الذي أرسلته، فقالوا: «نعم يا رسول الله، نفديك بأنفسنا وأموالنا»؛

وأجابوه إلى ذلك، وكذا أطلقوا أيضاً جمعاً من فقراءِ الأسارى بغير فداء، بسبب فقرهم[١٠٠].

ثم لما أُطْلِق أبو العاص، أخذ عليه النبي (ص) عهداً أن يحمل زوجته زينب إلى المدينة بعد قدومه إلى مكة، فلما وصل إلى مكة أمرها باللحوق بأبيها، فتجهزت لذلك، ثم خرجت نهاراً من مكة في هودج على بعير لكنانة بن الربيع، أخي بعلها، وخرج معها كنانة وقد تسلح بسلاحه يقود بعيرها؛ وعلمت قريش بخروجها للحاق بأبيها، فجعلوا يتحدثون بذلك، رجالهم ونساؤهم، ويتلاومون بينهم مشفقين من خروجها، إلى أن خرجوا في طلبها مسرعين في السير حتى أدركوها في «ذي طُوَى»[١٠١]. وكان أول مَن أدركها هَبَّار بن الأسود ونافع الفهري، وروّعها هبار بالرمح في هودجها، وكانت حاملاً، ففزعت، ورأت الدم في ساعتها لشدة الفزع، إلى أن أرجعوها إلى مكة، فلما وصلت إلى مكة طرحت ما في بطنها[١٠٢].

ثم إن زينب بعد رجوعها إلى مكة، أقامت فيها أياماً إلى أن هدأت

---

١٠٠ ـ قال النقيب أبو جعفر يحيى البصري لصاحبه وتلميذه ابن أَبي الحديد الشافعي المعتزلي عند قراءة الحديث عليه: «أترى أن الشيخين لم يَشهدا هذا المشهد؟ أما كان يقتضي التكرمُ والإحسانُ أن يُطيبا قلبَ فاطمة بفَدَك، ويستوهباه من المسلمين؟ وإن فَرَضْنا أن الخبر الذي رواه الخليفة الأول عن النبي (ص) كان حقاً، وأن الفدك صار حقاً من حقوق المسلمين، أي لم يكن لفاطمة فيه حق أصلاً، أترى أن منزلة فاطمة وهي سيدة نساء العالمين تقصر عند أبيها عن منزلة أختها زينب؟ فكما استوهب النبيُ (ص) المسلمين فداءَ أبي العاص، أترى لو أن الشيخين قالا للمسلمين: هذه بنت نبيكم قد حضرت تطلبُ نخلات، أفتطيبون عنها نفساً؟ أكانوا بخلوا بها عليها؟ أوأنهم امتنعوا عن إجابة الخليفتين؟؟».

١٠١ ـ ذو طُوَى (مع الألف المقصورة): موضع بأسفل مكة.

١٠٢ ـ وقد قال النقيب المذكور أبو جعفر يحيى البصري لبعض أصحابه عند قراءة الحديث: «ظاهر الحال من هذا، أنه لو كان النبي (ص) موجوداً يوم الهجوم على بيت فاطمة لِأخذ البيعة، لأباح دم مَن روَّعها حتى ألقت جنينها».

أصوات قريش، فحملها كنانة[١٠٣] ثانية وخرج بها ليلاً؛ وكان النبي (ص) بعث زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار ليلتقيا زينب في الطريق، فكانا ينتظران في المكان الذي أمر به النبي (ص)[١٠٤]، إلى أن أقبل بها كنانة وسلّمها إليهما، فقَدِما بها إلى أبيها رسول الله، وبقيت عنده بعيدة عن بعلها أبي العاص، لأن الإسلام يفرّق بين المسلمة والمشرك.

ثم حدث بعد أمدٍ من إطلاق سراح أبي العاص وعودته من الأسر إلى مكة، أن خرج في تجارة إلى الشام بأموال له ولقريش أبضعوا بها معه، لأنه كان رجلاً مأموناً، ولما فرغ من تجارته وانصرف راجعاً من الشام إلى مكة، لقيته سرية النبي (ص)، فأصابوا ما معه ونهبوا أمواله، وهرب هو من بينهم بنفسه إلى أن قَدِم في جَوف الليلِ المدينة، ودخل منزل زوجته زينب مستجيراً بها يسألها التوسل بالنبي (ص) في رَدّ ما أصابه المسلمون من أمواله، فأجارته زينب وأجابته إلى ذلك. ولما أصبح الصباح وخرج النبي إلى المسجد، ثم كبَّر في صلاة الصبح وكبر الناس خلفه، صرخت زينب من صُفَّة النساء: «أيها الناس، إني قد أَجَرْتُ أبا العاص بن الربيع»؛ فلما انصرف النبي (ص) عن صلاته، أقبل على أصحابه يقول: «أيها الناس، هل سمعتم ما سمعْتُ؟»؛ قالوا: «نعم»؛ قال (ص): «أما والذي نفْسُ محمدٍ بيده، ما علمتُ بشيء مما كان حتى سمعتُ ما سمعتم، وأنه يجير على الناس أدناهم!»[١٠٥]؛ ثم انصرف حتى دخل على ابنته زينب وقال لها: «أي بُنَيَّة، أكرِمي مَثْواه وأَحسِني قِراه[١٠٦]، ولا يَصِلَنَّ إليكِ فإنكِ لا تَحِلّين

---

١٠٣ ـ في الأصل حَمَلَها ثانية «حموها كنانة»، وكذا في متون قديمة أخرى، لأن كلمة «الحم» تُطلَق على والد الزوج أو الزوجة، وكذا على أقارب الحم.

١٠٤ ـ في بعض المراجع (مثل سيرة ابن هشام) أن ذلك الموقع كان ببطن ياجَج (أو يأجج) على ثمانية أميال من مكة.

١٠٥ ـ حتى أدنى الناس، يجيره الناس ويقبلون حمايته (لأن الحمية والشهامة والنبالة تحملهم على ذلك).

١٠٦ ـ القِرَى: الضيافة.

له»؛ ثم بعث إلى السرية يقول لهم: «إن هذا الرجل مِنا بحيث علمتم، وقد أَصَبْتُم له مالاً، فإن تُحسِنوا وتَرُدُّوا عليه الذي له، فإنا نحب ذلك، وأن أَبَيْتم فهو فَيْءُ[107] الله الذي أفاءَهُ عليكم وأنتم أحق به»؛ قالوا: «يا رسول الله، بل نَرُدُّه عليه»؛ فردوا عليه متاعه وجميع ما أصابوه منه حتى القِرْبَةَ الخَلَق[108]، وعُود عُرْوَة الجُوالِق[109]، ولم يفقد شيئاً من ماله.

ثم إن أبا العاص احتملها وانصرف راجعاً إلى مكة، إلى أن قَدِمها وأدّى إلى كل ذي مال مالَه ودفع إلى كل ذي حق (من أصحاب البضائع والتجارة) حقه، حتى لم يبق عنده من أموالهم شيء، فجمعهم ونادى فيهم: «يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟»؛ قالوا: «لا! فجزاك الله خيراً! لقد وجدناك وفياً كريماً!»؛ فقال: «اعلموا أني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله! والله ما منعني عن الإسلام عنده إلا تَخَوُّفُ أن تظنوا أني أردت أن آكل أموالكم وأذهب بها، والآن إذ سلَّمها الله لكم وأداها إليكم، فإني أُشهِدُكم أني قد أسْلَمتُ واتبعتُ دين محمد!».

ثم خرج مسرعاً نحو المدينة، إلى أن قَدِمَها ودخل على النبي مُسْلماً، وأقام عنده وحَسُن إسلامه، ورد النبي (ص) ابنته زينب عليه زوجةً له. وكذا «هَبَّار» المروِّعُ لزينب، فإنه قدم المدينة متكتماً حتى دخل على النبي (ص) وأسلم وأقر بالشهادتين، فقبل النبي (ص) إسلامه وعفا عنه.

---

١٠٧ ـ الفَيء: الغنيمة، ويُطلَق الوصف خاصة على ما غُنِم بدون معركة، كما لو هرب المقاتلون وتركوا متاعهم وأسلحتهم.

١٠٨ ـ القِرْبة: وعاء (اللبن أو الماء) ـ الخَلَق: الرَثّ، البالي (وهو مذكر ومؤنث). وجمعه خُلقان.

١٠٩ ـ الجوالِق (بضم الجيم وبكسرها): العِدْل، الكيس (من صوف أو شعر) ـ العروة: الرباط، ما يوثَق ويُربَط به الكيس أو العِدل ـ عود العروة: خشبة عقفاء تُدخَل في عروتي الكيس.

ثم إنه انتشر في الأقطار خبر غزوة بدر وغَلَبَة النبي (ص) والمسلمين على خصومهم من المشركين، إلى أن وصل الخبر إلى النجاشي ملك الحبشة، وكان جعفر وأصحابه يومئذٍ ما زالوا مقيمين في مُلْكه، فبعث إليهم ليحضروا عنده، ففزعوا من ذلك حتى اصفرت ألوانهم من الخوف. فلما دخلوا عليه رأوه جالساً على التراب وعليه خُلْقانُ الثياب، فحياه جعفر بتحية الملوك، فقال الملك في جوابه: «الحمد لله الذي نصر محمداً وأقرَّ عيني به! ألاَ أبشركم؟!»؛ قال: «بلى أيها الملك»؛ فقال: «لقد جاءني الساعةَ من نحو أرضكم عينٌ[١١٠] من عيوني هناك، يخبرني أن الله قد نصر نَبِيَّهُ محمداً وأهلك عدوه.. وقُتِل فلان وفلان، وأُسِر فلان وفلان، التَقوا بواد يقال له: بَدْر، كأني أنظر إليه». قال جعفر: «ما لي أَراك أيها الملك الصالح جالساً على التراب وعليك هذه الخُلقان؟»؛ فقال: «يا جعفر، إنا نجد في ما أُنزِل على عيسى ـ صلى الله عليه ـ أن مِن حق الله على عباده أن يُحدِثوا لله تواضعاً عندما تحدث لهم منه نعمة، ولما أحدث الله نعمةً بنبيِّه محمد، أحدثتُ لله هذا التواضع شكراً له، فإنه ليس يَعدِل الشكرَ لله شيءٌ مثلُ التواضع، وأحببت أن أشكر الله بما ترى»؛ فخرج جعفر وأصحابه من عنده فرحين مستبشرين.

وبلغ النبيَّ (ص) خبرُ ذلك، فأخبر به أصحابه وقال لهم: «إن الصدقة تزيد صاحبها كَثرةً، فتصدقوا يرحمْكم الله! وإن التواضع يزيد صاحبه رِفعةً، فتواضعوا يرفعْكم الله! وإن العفو يزيد صاحبه عزا، فاعفوا يعزكم الله!».

ولم يزل النبي (ص) يثني على النجاشي ويظهر حبه له، إلى أن نزل عليه (ص) جبرائيل (ع) بنعي النجاشي، فبكى النبي (ص) عليه بكاءَ حزين، وقال لأصحابه: «إن أخاكم أصحمة قد مات»؛ وخرج بهم إلى «البقيع»، وخفض الله له كل مرتفعَ حتى رأى جنازة النجاشي في الحبشة، فوقف

---

١١٠ ـ عَين: مُخبر، جاسوس.

بأصحابه في البقيع، وصلى على جنازته وكبَّر عليه سبعاً.

ولما وصل خبر غزوة بدر إلى مكة، قامت فيها قيامة قريش على قتلاهم ومَن أُسِر منهم، وأخذ المشركون يتحدثون بذلك في محافلهم. وكان في جملة الأسارى بأيدي المسلمين فتى اسمه وَهْب[١١١] بن عُمَير بن وَهْب، وكان أبوه عمير جالساً ذات يوم في الحِجْر مع صاحب له اسمه صفوان بن أمية يذكران قتلى بدرٍ وأصحابَ القَليب ومُصابَهم، ويقول كل منهما لصاحبه: «والله ليس في العيش بَعدهم مِن خَير!»؛ إلى أن قال عمير، وكان شيطاناً من شياطين قريش: «أمَا واللهِ لولا دَيْنٌ عليَّ ليس له عندي قضاء، وعِيالٌ أخشى عليهم الضيعة بعدي، لَركبتُ إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قِبَلَهم عِلَّة وهي أنَّ ٱبني أسيرٌ في أيديهم»؛ قال صاحبه: «فعَلَيَّ دَينُك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أُواسيهم ما بقوا»، قال عمير: «فاكتم عليَّ شأني وشأنك»؛ واتفقا على ذلك.

ثم انطلق عمير من مكة بعد أن شحذ سيفه الذي كان معه وسمَّه، إلى أن قَدِمَ المدينة ودخل على النبي (ص) وهو بين جمع من أصحابه، فوقف عليهم وقال: «أَنعِموا صباحاً»؛ فقال (ص) له: «قد أكرمنا الله بتحيةٍ خيرٍ من تحيتك يا عمير: السلام، تحية أهل الجنة؛ ما جاء بك يا عمير؟»؛ قال: «جئتُ لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسِنوا فيه» ـ يعني ابنه ـ قال: «فما بال السيف في عنقك؟»؛ قال: «قبحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئاً؟»؛ قال (ص): «أَصْدِقْني بالذي جئتَ له»؛ قال: «ما جئتُ ألا لذلك»؛ قال (ص): «بَلَى، قعدتَ أنت وصفوانُ في الحِجْر، وذكرتما أصحاب القَليب من قريش، وقلت أنت كذا، وتحمَّل لك صفوان بدَيْنك

---

١١١ ـ جاء هذا الاسم في الطبعة الأولى «وهيب» (مع ياء) والمذكور في مصادر السيرة هو كما أوردناه، أي «وهب» (بدون ياء). راجع مثلاً السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣١٦)، والطبقات الكبرى لابن سعد، (٤/١٩٩)، وأُسد الغابة لابن الأثير (٥/٩٧).

وعِيالك على أن تقتلني، واللهُ حائل بيني وبينك!»؛ فدهش عمير من كلامه (ص) وحار من إخباره بالغيب، واستبصر وقال: «أشهد أنك رسول الله! قد كنا نكذِّبُك، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله لقد علمتُ أنه ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني إلى الإسلام وساقني هذا المساق!»؛ وبقي عمير على إسلامه وحَسُن إيمانه، وأمر النبي (ص) أصحابه أن يُفَقِّهوه في دينه ويُعلِّموه القرآن ويطلقوا له أسيره.

ثم قال عمير: «يا رسول الله، إني كنت جاهداً في إطفاء نور الله، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله، وإني أحب أن تأذن لي فأَقْدِمَ مكة، وأدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، لعل الله أن يهديهم، وإلا آذيتُهُم في دينهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم»؛ فأذن له النبي (ص)، فخرج الرجل نحو مكة.

وكان صاحبه صفوان بمكة يترقب رجوعه، ويسأل الركبان عنه، ولم يزل يبشر قريشاً بأمرٍ خرج عمير لأجله ـ يعني قتل النبي (ص) ـ ويقول لهم: «ابشروا بوقعةٍ تأتيكم قريباً تنسيكم وقعة بدر»؛ إلى أن قدم راكب من المدينة، ولقيه صفوان يسأله عن عمير، وأخبره الراكب بإسلام عمير، فغضب صفوان غضباً شديداً، وحلف أن لا يكلمه أبداً ولا ينفعه بشيء. ثم قدم عمير وأقام بمكة يدعو أهلها إلى الإسلام ويؤذي مَن خالفه، حتى أسلم على يده أناس كثيرون، ولم يزل صفوان يحرض الناس على قتل النبي (ص) وإعمال حيلة في ذلك، إلى أن كانت غزوة «أُحُد» في السنة التالية، أي السنة الثالثة للهجرة النبوية، وخرج فيها مع من خرج من المشركين إلى حرب النبي (ص)، على ما سيأتي مِن شرحها إن شاء الله تعالى.

ثم إن المسلمين بعد انصرافهم من غزوة بدر، اختلفوا في توزيع الغنائم وأسلاب القتلى وكيفية قسمتها بينهم، وساءت في ذلك أخلاقهم، وجرى بين بعضهم في ذلك كلام، فقد أراد المحاربون أن يمنعوا الأسلاب

عن المحافظين على خيمة النبي (ص) الذين لم يشتركوا في الحرب وأن لا يعطوهم شيئاً من الغنائم، وكذا أراد الفرسان أن يأخذوا منها أكثر مما يُعطَى للضعفاء المشاة، وتنازعوا في ذلك، إلى أن أخذوا يتحاكمون إلى النبي (ص) ويسألونه في مقاديرها، ولما كثر اختلافهم في ذلك جعلها الله سبحانه كلها للنبي (ص) خاصة، رفعاً لنزاعهم واختلافهم، وأنزل قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[112]، فأخذها النبي وقسمها جميعها بينهم بالسوية ولم يأخذ منها حتى الخُمس ـ إلى أن نزل بعدئذٍ قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[113] الخ. فصار النبي (ص) يأخذ الخمس من الغنائم بعد غزوة بدر ـ وٱفتُقِد يومئذٍ من الغنائم قطيفة[114]، واتهم البعضُ النبيَّ (ص) بأخذها، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ﴾[115]، ثم تبيَّن أن رجلاً منهم قد غلَّها واحتفرها، فبعث النبي إلى الموضع فحفروه وأخرجوها منه، وجعلها في جملة الغنائم الموزعة. وكان النبي (ص) في يوم بدر يقول في أبي جهل إنه أعتَى على الله من فرعون، لأن فرعون لما أيقن بالهلاك وحَّد الله، وأبو جهل لما أيقن بالهلاك، دعا بصَنَمَي اللات والعُزَّى.

❁ ❁ ❁

---

١١٢ ـ ج ٩، س ٨ الأنفال: ١ ـ والأنفال هي: الغنائم.

١١٣ ـ ج ١٠، س ٨ الأنفال: ٤١.

١١٤ ـ قطيفة: دثار، غطاء من مخمل.

١١٥ ـ ج ٤، س ٣ آل عمران ١٦١ ـ ويَغُلّ: يخون الأمانة.

غزوات وسرايا بين «بَدْر» و «أُحُد»

غزوات «بني سُلَيم» و «بني قَيْنُقاع» و «السَويق» و«ذي أَمَر»

بعد غزوة «بدر الكبرى» التي انتهت أواخر شهر رمضان أو في شوال، من السنة الثانية بعد الهجرة، ازداد كيد المشركين وكثرت الأخبار عن حملات لهم على المدينة لقتل النبي (ص) والإطاحة بالمسلمين، فكان رد الفعل من الرسول (ص) والمسلمين غزوات وسرايا متعددة، كانت أولها غزوة بني سُلَيم.

غزوة «بني سُلَيم»

وكانت هذه الغزوة بعد سبع ليال فقط من غزوة «بدر الكبرى»، على اثر إخبارٍ بأن بني سُليم قد همُّوا أن يكبسوا المدينة، فخرج النبي (ص) على رأس جمع من المؤمنين، إلى أن بلغ ماءً من مياههم يقال له «الكُدْر» (ولذا سُميت أيضاً: غزوة الكدر)، وأقام هناك ثلاث ليالٍ دون أن يجد أحداً منهم، فلم يلقَ (ص) كيداً ولم تقع حرب، فرجع إلى المدينة.

غزوة بني قَيْنُقاع

ثم كانت في منتصف شهر شوال من السنة الثانية غزوة بني قَيْنُقاع، وهم طائفة من اليهود، كان اجتمع معهم النبي (ص) في سوق من أسواقهم يقال له «النبط» وأخذ يدعوهم إلى الإسلام، وقال (ص) لهم: «احذروا من

الله مثلَ ما نزل بقريش من قوارع[1] الله وأسلِموا، فإنكم قد عرفتم نَعْتي وصفتي في كتابكم، وقد علمتم ما نزل بقريش وهم أكثر منكم عَدداً وسلاحاً وكرُاعاً»[2]؛ فغضب القوم وقالوا: «يا محمد، لا يَغُرَّنَكَ أنك لقيتَ قومك فأَصبتَ منهم! إنك تحسب حربنا مثلَ حرب قومك، وإنا والله لو حاربناك لَعلمتَ أنا خِلافَهم، ولو قد لقِيتَنا لَلَقيتَ رجالاً!»؛ إلى أن طال الكلام بينهم وبينه (ص)، وكادت المناجزة تقع، فنزل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[3]؛ وكانت العاقبة أن حاصرهم النبي (ص) بأصحابه في حصونهم خمس عشرة ليلة، إلى أن نزلوا على حكمه (ص) واحتل المسلمون حصونهم، وغنمَ النبي (ص) وأصحابه ما فيها، ثم أخرج (ص) خُمْسَ تلك الغنائم وأعطاها لمستحقيها، وكان ذلك أول خُمس خَمَّسَهُ في الإسلام.

وقبل أن يُنزل النبي (ص) حكمه في بني قينقاع بعد استسلامهم ونزولهم على حكمه، تقدم إليه أحد أصحابه واسمه عبدالله بن أُبَيّ ـ وكان في الأصل يهودياً قد أسلم ـ فاستشفع فيهم وقد أخذته العاطفة لأقربائه، وسانده في ذلك أناس من «الخزرج» الذين كانوا حلفاء بني قينقاع، وألحوا إلحاحاً كبيراً على النبي (ص) حتى عفا منهم ووهبهم لهم، فنزل في ابن أُبيّ ومن ساندوه من الخزرج قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[4].

---

١ ـ القوارع: المصائب، الدواهي، ولعل الأرجح ما كان منها يمنع النوم، واحدتها القارعة، وقد جاءت في القرآن الكريم في بداية السورة (١٠١ في الجزء ٣٠) التي تحمل اسمها [سورة القارعة]، وصفاً ليوم القيامة.

٢ ـ الكراع: الخيل (والأنعام).

٣ ـ ج ٣، س ٣ آل عمران: ١٢.

٤ ـ ج ٦، س ٥ المائدة: ٥١.

وقد نزل ببني قينقاع بعد هزيمتهم الذلُّ والصغار، فهاجروا إلى «أذْرِعات»[5] من أرض الشام، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى هلكوا.

غزوة السَويق

ثم كانت في شهر ذي الحجة ـ آخر شهور السنة الثانية ـ «غزوة السَويق»، وكان سببها أن أبا سفيان[6] كان بعد حرب «بدر» قد نذر أن لا يمسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة[7] حتى يغزو النبي (ص)، فخرج في مئتي[8] راكب من قريش ليُبِرَّ قَسَمه وتوجه بهم نحو المدينة، وكان ذلك في ذي الحجة، حتى إذا كان على بريد[9] من المدينة، أتى إلى يهود بني النضير ليلاً حتى وقف منهم على باب دار «حُيَيِّ بن أَخْطَب»، فدق عليه الباب، فأبى حييّ أن يفتح له، فانصرف إلى «سلاَّم بن مِشْكَم» وهو يومئذٍ سيد القوم حتى دخل عليه يُسارُّهُ[10]، ثم انصرف آخر ليلته إلى أصحابه وبعث منهم رجالاً إلى المدينة للغزو؛ فلما دخلوها وجدوا في محلة «العُرَيض» منها رجلين من المسلمين فقتلوهما. وانتشر الخبر وصرخ الناس بذلك، فهرب القوم إلى أصحابهم، وخرج النبي (ص) بمن معه في طلبهم، فلم يجدوا لهم أثراً إلا

---

٥ ـ أذْرِعات: هي «درعا» الحالية جنوبي سوريا، وقرب الحدود الأردنية الشمالية اليوم.

٦ ـ هو أبو سفيان بن حرب، المعروف أنه أبو معاوية مؤسس الدولة الأموية، وقد كان من أشد الأعداء للنبي (ص) والمسلمين قبل الفتح؛ وقد ورد اسمه في الطبعة الأولى خطأً «أبو سفين» وفقاً للخط القديم، أو نتيجة خطأ مطبعي.

٧ ـ كان الغسل من الجنابة معمولاً به في الجاهلية، باقياً من دين إبراهيم(ع).

٨ ـ جاء الرقم في الطبعة الأولى «مئة» راكب، وقد أثبتنا هنا الرقم «مئتين» لأنه هو المذكور في مراجع السيرة، مثل رواية ابن إسحاق في سيرة ابن هشام، وتاريخ الطبري، والكامل لابن الأثير. . .

٩ ـ بَرِيد: مسافة محددة قديماً كان يقطعها ناقل الرسالة، أو المسافر، لعلها تعادل مسيرة نصف يوم، ويُقدِّر بعض المعاصرين أنها تعادل ١٢ ميلاً بمقاييس اليوم.

١٠ ـ سارَّهُ: كلَّمه بسرِّية، . . سراً.

أشياء من أزوادهم[11] قد طرحوها يتخففون منها طلباً للنجاة بأنفسهم، فأخذها المسلمون ـ وكان فيها السَويق[12] بكثرة فسُمِيّت الغزوة به ـ ولم يَلقَوا فيها كيداً ورجعوا عنها من غير حرب. وأقام النبي (ص) في المدينة بقية ذي الحجة من السنة الثانية ومحرَّماً من السنة الثالثة؛ ثم كانت بعدها غزوة ذي أَمَر.

غَزْوَة ذي أَمَر

وكان سببها أن جمعاً من بني غَطَفان تجمعوا في شهر صفر ـ من السنة الثالثة ـ وعليهم رجل يقال له «دعثور بن الحارث»، وهَمُّوا أن يصيبوا من أطراف المدينة، فبلغ النبيَّ (ص) ذلك، فخرج (ص) في أربع مئة وخمسين فارساً وراجلاً في طلبهم، فهربوا إلى رؤوس الجبال. ونزل النبي (ص) بعسكره وادياً يقال له «ذو أَمَرَّ»، فأصابه (ص) وعسكره هناك مطرٌ كثير حتى ابتل ثوبه. وحدث أنه (ص) احتاج لقضاء الحاجة، فخرج من بين العسكر وبَعُد عنهم على عادته في ذلك، إلى أن صار الوادي بينه وبين أصحابه. وبعد قضاء حاجته، نزع ثيابه ونشرها على شجرة هناك لتجف من بَلَل المطر، ثم اضطجع تحتها منتظراً. وكانت الأعراب فوق الجبال ينظرون إليه ويرون كل ذلك منه، فأقبلوا على سيدهم دعثور ـ وكان أشجَعَهُم ـ يقولون له: «إن محمداً قد أَمْكَنَك من نفسه، إذ إنه انفرد من أصحابه بحيث لو استغاث بهم لا يغاث، فقم حتى تقتله»؛ فقام دعثور وأخذ من سيوفه سيفاً صارماً، ثم أقبل نحو النبي (ص) مسرعاً حتى شَهَر السيف على رأسه، فانتبه النبي (ص) من نومه ونظر إليه، فقال دعثور: «يا محمد، مَن يمنعك[13] مني اليوم؟»؛ قال (ص): «الله يمنعني»؛ فارتعد

---

١١ ـ الأزواد: جمع زاد (الطعام).

١٢ ـ السَويق: الدقيق الناعم من الحنطة أو الشعير أو البرغل.

١٣ ـ يمنعك: يحميك.

الرجل حتى وقع السيف من يده ـ وقد روي في سبب ذلك أن جبرائيل (ع) دفعه في صدره وسقط على الأرض ـ فتناول النبي (ص) سيفه ثم قام على رأسه وقال له: «مَن يمنعك مني اليوم؟»؛ قال: «لا أحد يمنعني؛ وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله! وإني والله لا أُكثِر عليكَ جمعاً[١٤] أبداً»؛ فردّ النبي (ص) عليه سيفه، فقام وهو يقول للنبي (ص): «واللهِ لأَنتَ خيرٌ مني!»؛ وقام منصرفاً نحو قومه.

ولما قدم عليهم، أخذوا يلومونه على فعله ويقولون له: «أين ما كنتَ تقول وقد أمكنك من نفسه والسيف في يدك؟»؛ قال: «قد كان والله ذلك، ولكني لَمّا أن هممتُ به، رأيت رجلاً طويلاً أبيض دفع في صدري حتى وقعت على ظهري، وعرفتُ أنه مَلَك، وشهدت أن محمداً رسول الله؛ والله لا أُكثِرُ عليه!»؛ ثم أخذ يدعو قومه إلى الإسلام، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾[١٥] الخ. ثم رجع النبي (ص) بأصحابه إلى المدينة من غير حرب.

❁ ❁ ❁

أربع سرايا
سَرِيَّة «القَرْدَة» وسرية «عُمَيْر» وسرية «ابن مسلمة» وسرية «ابن عتيك»

ثم كانت للرسول (ص) بعد غزوة ذي أَمَر أربع سرايا، أولاها سرية القَرْدَة.

---

١٤ ـ لا أكثر عليك جمعاً: لا أساعد عليك، لا أعمل على زيادة عدد أعدائك.

١٥ ـ القرآن الكريم، الجزء ٦، السورة ٥ المائدة: ١١.

سَرِيَّة القَرْدة

حدثت هذه السرية في شهر ربيع الأوّل[16] من السنة الثالثة، وقد كان من أمرها أن عِيراً من قريش خرجوا تجاراً من مكة إلى الشام، وسلكوا إليها طريق العراق دون الطريق العادي خوفاً من عساكر المسلمين. وكان في العير أبو سفيان ومعه فضة كثيرة. وكانوا قد استأجروا رجلاً من بني بكر بن وائل يدلهم على الطريق اسمه فرات بن حيان، فبعث النبي زيد بن حارثة في سرية، فأصابوا العير على ماء من مياه نجد يقال له القَرْدة (سُميت الغزوة به) ونهبوا أموالهم؛ وهربت العير بأنفسهم ولم يؤسر منهم إلا رجلان أحدهما الدليل فرات، ورجع زيد وأصحابه بالأسيرين والأموال إلى النبي (ص). وقد أسلم فرات فأُطلِق من القتل.

سرية عُمَيْر بنِ عَدِيّ

ثم كانت بعد حوالي ثلاثة أشهر، أي في شهر رمضان، سرية عُمَيْر بن عدي إلى اليهودية عصماء بنت مروان التي كانت تعيب المسلمين، وتؤذي النبي (ص) بأقوالها، وتنشد الأشعار في هجوه وذمه، فانطلق إليها عمير إلى أن دخل عليها في بيتها، فوضع سيفه في صدرها يشد عليه حتى أنفذه من ظهرها. ولما أصبح الصباح حضر صلاة الصبح بالمدينة مع النبي (ص). ولما فرغ النبي (ص) من صلاته، توجه إليه عمير فأخبره بقتله عصماء، فقال النبي (ص): «لا ينتطح فيها عَنْزان»؛ وصارت الكلمة مثلاً؛ وهي كناية عن أن الأمر أقل قيمة وقدراً مِن أن يختلف فيه اثنان.

سرية محمد بن مَسْلَمة

وفي السنة الثالثة أيضاً كانت سرية محمد بن مَسْلَمة[17] لقتل كعب بن

---

١٦ ـ في بعض المصادر أن هذه السرية وقعت في شهر جمادى الآخرة.

١٧ ـ يقول الواقدي (كما ينقل عنه الطبري) أن سرية محمد بن مسلمة هذه كانت في شهر ربيع الأول، أي قبل سرية عُمَير بن عدي.

الأشرف اليهودي الذي كان من بني طَيء وكانت أمه من بني النضير، فإن كعباً هذا كبُر عليه بعد غزوة بدر قَتْلُ مَن قُتِل فيها من قريش، فسار من المدينة إلى مكة ليثير أهلها، وأخذ يحرض قبائل المشركين على حرب النبي (ص) وهو يبكي على القتلى، ولم يَألُ جهداً في إيذاء المسلمين رجالهم ونسائهم بكل ما أمكنه.

فلما رجع إلى المدينة، جعل يشبّب[١٨] بنساء المسلمين وأعراضهم حتى آذاهم وآلمهم، فنادى النبي (ص) ذات يوم في أصحابه: «مَنْ لي بابن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله»؛ فقام محمد بن مَسْلَمَة وقال: «يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟»؛ فأذن له، فانطلق ابن مَسْلَمة واجتمع مع سِلْكان بن سلامة بن وقش أبي نائلة، والحارث بن أوس (وكان أخا كعب في الرضاعة)، وأبي عيسى بن جُبَير (أو جَبْر)، وعبَّاد بن بِشر بن وقش، واتفقوا على قتل ابن الأشرف.

ثم مضوا إلى حصن اليهود، فتقدم ابن مسلمة وحده إلى دار الرجل، حتى دخل عليه وأخذ يحادثه، إلى أن قال له: «يا أبن الأشرف، إني قد جئتك لحاجة فاكتمها علي»؛ قال: «نعم»؛ قال ابن مسلمة: «إن قدوم هذا الرجل ـ يعني النبي (ص) ـ كان بلاءً علينا، فقد عادَتْنا العرب، وقطعَت عنا السُبُل حتى ضاع العيال، وجُهِدَت الأنفس»؛ قال كعب: «نعم، قد كنتُ أخبرتك بهذا»؛ فقال سِلكان (أو قيس) ـ وكان قد لحق صاحبه ـ: «أريد أن تبيعنا طعاماً ونرهنك على شيء، أتُحسِن في ذلك؟»؛ قال: «نعم، ارهنوني نساءكم»؛ قال: «كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب!»؛ قال: «فارهنوني أبناءكم»؛ قال: كيف نرهنك أبناءنا فتسبنا العرب، يقولون إن فلاناً رهن ابنه بوَسْق[١٩] أو وسقين، وهذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأَمة»

---

١٨ ـ شبَّب: تغزل، قال شعر غزل متطاول مؤذٍ.

١٩ ـ الوَسْق: حِمل البعير، ما يعادل ستين طاعاً.

ـ يعني السلاح ـ، وأراد بكلامه ذلك أن لا يُنكِرَ السلاحَ إذا أتوه به، فأجابه كعب إلى ذلك.

وانصرف قيس وابن مسلمة إلى أصحابهما يخبرانهم بذلك، واتفقت كلمتهم على أن يفاجئوه ليلاً في داره، فأتوه في جوف الليل، وكان عدو الله قريبَ عهدٍ بعرس، فهتف به أبو نائلة، فوثب قائماً لينزل إليه، فاعترضته زوجته تقول: «أين تخرج هذه الساعة؟ أني أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم»؛ فدفعها وقال: «إنما هو أخي محمد بن مسلمة، ورضيعي أبو نائلة؛ إن الكريم إذا دُعِي إلى طعنة بالليل أجاب»؛ ثم نزل إلى القوم، وأخذوا يتحادثون معه، إلى أن ساروا به إلى شِعْبٍ[٢٠] هناك يسمى «شِعب العجوز»، فقال له سلكان: «ما رأيت ريحاً أطيب منك، أتأذن لي أن أشم رأسك؟»؛ فأذن له، فقام سِلكان وأخذ يشم ويتنحى عنه وهو يمدح رائحة طيبِهِ، حتى فعل ذلك مرات إلى أن استمكن منه، فأخذ برأسه ونادى بأصحابه أن «اضربوا عدو الله»، فتكاثرت عليه أسيافهم، ولكنها لم تغن شيئاً، وصاح عدو الله صيحة لم يبق حولهم حصن إلا وسمعه أصحابه وأوقدوا فوقه النار، وحمل عليه ابن مسلمة وقتله؛ وأصاب الحارثَ بنَ أوس بعضُ أسيافهم بجرح، فاحتملوه وانصرفوا به راجعين إلى النبي (ص) يبشرونه بقتل كعب؛ وبصق النبي (ص) على جرح الحارث فبرىء منه في ساعته. وأصبح اليهود بعد هذه السرية ومقتل كعب يخافون على أنفسهم، وأباح النبي (ص) دماء جمع منهم، فوثب محيصة بن مسعود على أحد تجارهم وقتله.

سرية ابن عَتيك

وحدث بعد سرية محمد بن مسلمة وقَتْل كعب بن الأشرف، أن تذاكرَ رجال من الخزرج في من يعادي النبي (ص) كابن الأشرف الذي كان

---

٢٠ ـ شِعب: طريق في الجبل، أو طريق بين جبلين، . . أو مُرتَفَعين.

مصرعه على أيدي الأوس، فأحبوا أن يقتلوا شخصاً مثله كي لا تأخذ الأوسُ الفخرَ بذلك عند رسول الله، حتى ذكروا «ابن أبي الحقيق» ـ وكان صاحباً لابن الأشرف يظاهره ويسانده على النبي (ص) ـ فأتت رجال منهم إلى النبي (ص) يستأذنونه في قتل الأعداء الذين يحاربون الإسلام بضراوة ويأتمرون بالمسلمين والرسول (ص)، فأذن لهم، وأمَّر عليهم عبدالله بن عتيك. فخرجوا نحو «خَيْبَر» إلى أن دخلوا ليلاً دار سلام بن أبي الحقيق، ولم يتركوا باباً في الدار إلا أغلقوه، فاعترضتهم زوجته تقول: «مَن أنتم؟»؛ قالوا: «مِن العرب، نلتمس الميرة»[21] فمكنتهم من الدخول عليه، وكان عدو الله في مكان مرتفع، فدخلوا عليه وأغلقوا باب العلية، وأحست زوجته بشر فصاحت، وامتنع القوم عن قتلها لنهي النبي (ص) عن قتل النساء والصبيان، فبدروا إلى الرجل على فراشه، وضربوه بأسيافهم حتى قضوا عليه؛ وخرجوا من الدار، وطلبتهم اليهود في كل وجه فلم يجدوهم.

❁ ❁ ❁

ثم كانت له (صلعم) بعد السرايا المتقدمة غزوتان هما غزوة «ذي القَصة» وغزوة «بَحران»:

غزوة ذي القَصَّة

أما الأولى، غزوة ذي القَصَّة (بفتح القاف)، فكانت في السنة الثالثة[22] أيضاً، وكان سببها أن جمعاً من بني سعد وبني محارب تجمعوا ليصيبوا من المدينة، وبلغ الخبرُ النبي (ص)، فسار إليهم في أربع مئة وخمسين رجلاً، إلى أن بلغ وادياً يقال له ذو القَصَّة، ولقي فيه رجلاً من «تغلبة»؛ فدعاه إلى

---

٢١ ـ نلتمس الميرة: نريد أن نشتري مؤونة الطعام.

٢٢ ـ في بعض المصادر أن غزوة ذي القصة هذه، كانت في شهر محرم من السنة الثالثة، أي قبل غزوة ذي أَمَر والسرايا الأربع السالفة.

الإسلام، فأجاب الرجل وأسلم، ثم أَخبرهم أن المشركين هربوا إلى رؤوس الجبال، فانصرف النبي (ص) بأصحابه نحو المدينة، ولم يقع كيد.

غزوة بَحْران

ثم كانت في شهر جمادى الأولى من السنة الثالثة نفسها غزوة «بَحْران»، وكان سببها أن قوماً من بني سُلَيم تجمعوا ببحران من «الفُرُع»[٢٣] ليصيبوا من المدينة، فسار النبي (ص) في ثلاث مئة رجل إلى أن بلغ بحران، ولكن القوم كانوا ـ حين علموا بخروج المسلمين إليهم ـ قد هربوا، فلم يجدهم النبي (ص) ولم يلق كيداً، وانصرف القوم راجعين.

---

٢٣ ـ الفُرُع (بضم الفاء والراء): قرية من ناحية المدينة.

غزوة أُحُـــــد

في شهر شوال من السنة الثالثة، أي بعد غزوة «بَدْر» بسنة، حدثت غزوة «أُحُد» التي وُصِفَت بالطامة الكبرى والمصيبة العُظمى، فقد كانت نكسة للمسلمين بعد تفوقهم وانتصارهم في أولها، وقُتِلَ منهم أعداد كبيرة.

وكان سبب هذه الغزوة أن قريشاً، بعد ما أصيبت به في غزوة بدر مِن قَتْل سبعين من أكابرهم، وسَبْي سبعين آخرين منهم، كانت نفوسها تغلي غضباً وحقداً على النبي (ص) والمسلمين، ورغبة في الانتقام منهم، وكان من أبرز رجالها في هذا الأمر «أبو سفيان» الذي لم يتوقف عن تحريض قريش، وبقي يدور بين رجالاتها ينادي فيهم: «يا معشر قريش، لا تَدَعوا نساءكم يبكين على قتلاكم، فإن الدمعة إذا خرجت من العين أذهَبَت الحُزن والحرقة والعداوة لمحمد، ويشمت بنا هو وأصحابه».

ولم يزل يبعث إلى قبائل العرب يستحثهم ويستنصر بهم على حرب رسول الله (ص)، حتى جمع الجموع وعسكَرَ العساكر، وخرج بهم في العام التالي في ثلاثة آلاف فارس وألفَي راجل من الأحباش وغيرهم، وأخرجوا معهم النساء يُذَكِّرْنَهُمْ بقتلاهم ويَحْثُثْنَهُم على الحرب، وفيهن زوجة أبي سفيان هند بنت عُتبة (أم معاوية)، وعَمْرَة بنت عَلْقَمَة الحارثية، وكان فيهم سبع مئة دارع، وثلاثة آلاف بعير، وقادوا مئتي فرس، وبرزوا في أحسن عدَّة وسلاح.

وكان العباس عم النبي (ص) يومئذ بمكة، فكتب كتاباً إلى النبي (ص)

يذكر فيه «ان قريشاً قد أجمعت المسير إليك، فما كنتَ صانعاً إذا حلُّوا بك فاصنعه»؛ وختم الكتاب واستأجر رجلاً من «بني غِفَار» لذلك، وشرط عليه أن يسير ثلاثاً إلى النبي (ص) ويوصل إليه الكتاب. ولما وصل الكتاب إلى النبي (ص)، جمع أصحابه وأخبرهم بذلك قائلاً: «إن قريشاً قد تجمعت تريد المدينة، يتقدمهم أبو سفيان وخالد بن الوليد»؛ ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وقال (ص) في ما قال: «أيها الناس، أني رأيت في منامي كأني في دِرْعٍ حصينة، ورأيت كأن سيفي انفصم من غمد ظُبَتِه[1]، ورأيت بَقَراً يُذبَح، ورأيت كأني مُرْدِفٌ[2] كبْشاً[3]»؛ فسأله الناس عن تأويلها، فقال (ص): «أما الدرع الحصينة فأَوَّلتُها المدينة، فأَمكُثُ إذاً فيها ولا أغادرها لقتالهم خارجها، وأما انفصام سيفي فمقتلُ رجل من أهل بيتي ومصيبةٌ في نفسي، وأما ذبح البقر فقتل في أصحابي، وأما أني مُردِفٌ الكبش، فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله تعالى.

ثم جعل (ص) يستشير أصحابه في الخروج من المدينة لتلقي القوم أو الإقامة فيها، وكان من رأيه (ص) الإقامة، فأخذ (ص) يقول: «اشيروا علي»، وهو يحثهم على الجهاد، إلى أن قام عبدالله بن أُبَيّ ـ وكان منافقاً يثبط الناس عن الحرب والخروج إلى القوم ـ وقال: «يا رسول الله، لا تخرج من المدينة حتى نقاتل في أَزِقَّتها، فيقاتل الرجلُ الضعيفُ والمرأةُ والعبد والأَمَة على أفواه السِكَك[4] وعلى السطوح، فما أرادَنا قومٌ قَطُّ فظفروا بنا ونحن في حصوننا ودُورنا، وما خرجنا إلى أعدائنا قط إلا كان الظَفَر لهم علينا، وقد كنا نقاتل في الجاهلية في هذه المدينة، ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصي ـ أي الحصون ـ ونجعل معهم

١ ـ ظُبَة السيف أو السِنان: حَدّه.
٢ ـ مُرْدِفٌ: مُتبِعٌ لي، أقود، أَجُرُّ.
٣ ـ الكَبْش: الحَمَل (من الضأن أو المعز).
٤ ـ السِكَك، جمع سِكَّة: الطريق المستوي، أو: الزقاق الواسع.

الحجارة؛ يا رسول الله، إن مدينتا عذراءُ ما فُضَّت علينا قط»؛ ووافق على رأيه الأكابر من المهاجرين والأنصار. ثم قام فُتيان أحداث من أصحابه لم يشهدوا بدراً، يشيرون عليه بالخروج إلى العدو رغبة في الشهادة، ووافقهم على رأيهم جمع من أهل الكبر والسن، وفيهم حمزة عم النبي (ص) وسعد ابن عبادة والنعمان بن مالك وسعد بن معاذ، وأمثالهم من أكابر الأوْس والخَزْرَج، وهم يقولون: «يا رسول الله، إنا نخشى أن يظن عدوُنا أنا كرهنا الخروج إليهم جبناً عن لقائهم، ويكون ذلك جرأة منهم علينا»؛ وقال حمزة (ع): «والذي أنزل عليك الكتاب، لا أَطْعَمُ[٥] طعاماً حتى أجالِدهم بسيفي خارج المدينة»؛ وقام خيثمة بن سعد وقال: «يا رسول الله، إن قريشاً مكثت حَوْلاً تجمع الجموع وتستجلب العرب في بواديها، وقد قادوا الخيل لينزلوا بساحتنا فيحصرونا في بيوتنا وصياصينا، ثم يرجعوا وافِرين لم يُجرَحوا، فيُجَرِّئُهُم ذلك علينا حتى يشنوا الغارات ويضعوا الأرصاد والعيون علينا، وعسى الله أن يُظفرنا بهم ـ فتلك عادة الله عندنا ـ أو تكون الأخرى، فهي الشهادة؛ ولقد أخطأتْني وقعة بدر وقد كنت عليها حريصاً، وقد بلغ من حرصي أن ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه ورُزِق الشهادة، وقد رأيته البارحة في المنام في أحسن صورة، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول لي: إلحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً؛ وإني يا رسول الله قد واللهِ أصبحتُ مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبر سني ودق عظمي وأحببت لقاء ربي، فادع الله أن يرزقني الشهادة»؛ فأجابه النبي (ص) ودعا له، واستُشهد خيثمة في أُحُد.

وقام سعد بن معاذ وجماعة من الأوس يقولون: «يا رسول الله، ما طمع فينا أحد من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام، فكيف يطمعون فينا وأنت فينا؟ لا، حتى نخرج إليهم فنقاتلهم، فمَن قُتل منا كان شهيداً، ومن نجا منا كان قد جاهد في سبيل الله».

---

٥ ـ أَطْعَمُ: آكُل، أو أذوق.

وقامت حينئذٍ جماعة أخرى من الخزرج وغيرهم، يسألون النبي (ص) الخروج من المدينة للحرب وتلقي العدو، ولم يزالوا يتتابعون في الإلحاح عليه بذلك إلى أن قال (ص): «إني أخاف عليكم الهزيمة»؛ فأبوا ذلك، وجعلوا يُلِحُّون عليه في الخروج حتى عدَّلوه عن رأيه وعزم على الخروج للقاء المشركين خارج المدينة.

وفي الخامس من شهر شوال، وكان يوم خميس، وصلت جيوش قريش إلى جبل «أُحُد» قرب المدينة، فبات أكابر الأوس والخزرج على وجوههم ليلة الجمعة في المسجد بباب النبي (ص) وعليهم السلاح يحرسونه، وحرَسَ بقية الناس المدينةَ تلك الليلة خوفاً من تبييت المشركين.

وفي اليوم التالي، قام النبي (ص) فصلَّى بالناس الجمعة ووعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبرهم أن النصر لهم ما صبروا، ثم صلى بهم العصر، وبدأوا يستعدون للخروج إلى ملاقاة المشركين.

فلما عزموا على الخروج من المدينة للقاء قريش والمشركين بظاهرها، لبس النبي (ص) السلاح، وخرج مع نفر من أصحابه يبتغون موضعاً للقتال، وتخلف ابن أُبَيّ المنافق وقومه وأصحابه ـ وكانوا يومئذٍ ثُلُث المسلمين ـ ولم يزل يمنع الناس ويثبطهم عن متابعة النبي (ص) في الخروج وهو ينادي فيهم: «والله ما ندري على ما نقتل أنفسنا!»؛ حتى تبعه جماعة من الخزرج، وهمت «بنو حارثة» و «بنو سلمة» بعد خروجهم أن يرجعوا من بعض الطريق، ثم عصمهم الله عز وجل عن مخالفة النبي (ص) وخرجوا معه، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[6].

ولما استقر النبي (ص) بمن معه في أماكنهم من «أُحُد»، عَدَّ أصحابَه فإذا هم سبع مئة، فسوّى صفوفهم وضرب عسكره مما يلي طريق العراق،

---

٦ ـ القرآن الكريم، الجزء ٤، السورة ٣ آل عمران: ١٢٢.

وخطب فيهم خطبة بليغة غراء، إلى أن قال (ص) في ما قال:

«أيها الناس، أُوصيكم بما أوصاني به الله تعالى في كتابه، من العمل بطاعته والتناهي عن محارمه، إنكم اليوم بمنزلةِ أَجْرٍ وذُخْرٍ لمن ذَكَرَ الذي عليه، ثم وطَّنَ نفسه على الصبر واليقين والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كريه، قليل مَن يصبر عليه، إلا مَن عزم له على رشده. إن الله مع مَن أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي أَمركم به، فإني حريص على رُشْدكم. إن الاختلاف والتنازع والتثبط كلها مِن العجز والضعف، ومما لا يحبه الله، ولا يعطي عليه النصر والظفر. أيها الناس، لقد قُذِفَ في قلبي أن مَن كان على حرام، فرغب عنه[7] ابتغاءَ ما عند الله، غفر له ذنبه، ومن صلى عليَّ صلى الله وملائكتُهُ عليه عشرا، ومن أحسنَ ـ مِن مُسلم أو كافر ـ وقع أجره على الله في عاجل دنياه وفي آجل آخرته، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فعليه بصلاة الجمعة يومَ الجمعة، إلا صبياً أو امرأة أو مريضاً أو عبداً مملوكاً، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غني حميد! ما أَعلمُ مِن عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه؛ وإنه قد نَفَثَ الروحُ الأمين في رَوْعي، أنه لن تموت نفسٌ حتى تستوفيَ أقصى رزقها، لا يُنقَصُ منه شيء وإن أَبطأ عنها، فاتقوا الله ربكم وأَجْمِلوا[8] في طلب الرزق، ولا يَحْمِلَنَّكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربكم، فإنه لن يقدر أحد على ما عنده إلا بطاعته، وقد بيَّن لكم الحلال والحرام!.. وما مِن مَلِكٍ إلا وله حِمَى، أَلا وإن حِمَى الله مَحارِمُه[9]، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد، إذا

---

٧ ـ رغب عنه: تخلَّى عنه، زَهَد فيه؛ (عكس رغب فيه).

٨ ـ أجمِلوا: لا تُبالغوا.

٩ ـ الحِمَى: ما يُحمَى ويدافَع عنه وما هو ضمن الحدود الواجبة صيانتها واحترامها ـ ومَحارم الله: ما أوجَبَ اللهُ احترامَه وعدمَ تجاوزه.

اشتكى الرأسُ تَداعَى سائر الجَسَد. . والسلام عليكم».

ثم تقدمت قوى الفريقين، كل منها نحو الأخرى، فأقبل المشركون على الخيل واصطفوا للحرب، وقام النبي (ص) فعبًّأ أصحابه وهيأ عساكره للقتال، وجعل على راية المهاجرين ابن عمه علياً (ع)، وعلى راية الأنصار سعدَ بن عبادة ـ وكان هو (ص) بنفسه في راية الأنصار ـ وكان في «أُحُد» شِعبٌ[10] تخوَّفَ النبي (ص) من أن يأتي منه كمين للمشركين، قائلاً لهم: «اتقوا الله واصبروا! إن رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة، فلا تبرحوا هذا المكان؛ وإن رأيتموهم قد هَزَمونا حتى أدخلونا المدينة يخطفنا الطير، فلا تبرحوا، والزموا مراكزكم حتى أرسل إليكم ولو قُتِلنا عن آخرنا، فإنما نُؤتَى من موضعكم هذا». وقد لاحظ أبو سفيان من بعيد وعاينَ الرماة المسلمين عند باب الشعب، فجعل خالدَ بن الوليد في مئتي فارس كميناً بإزاء المسلمين، وقال له: «إذا رأيتمُونا قد آختلطنا بهم، فاخرجوا عليهم من هذا الشِعب حتى تكونوا وراءهم».

وكان أكبر لواء للمشركين يومئذٍ مع «طلحة بن أبي طلحة» ـ الذي كان يدعى: كبش الكتيبة ـ وكان مُعجباً بنفسه وشجاعته، يُنشد في قوته وسطوته أشعاراً يُظهر فيها أنه الغالب المنصور، وكانت بقية ألويتهم مع بني عبد الدار من قريش. فلما تواجهت الألوية وظهرت بوادرالمعركة، أقبل أبو سفيان على ألويته قائلاً لهم: «يا أصحاب الألوية، إنكم تعلمون أنما يُؤتَى القوم من قِبَل ألويتهم، وإنما أُتيتُم يومَ بدرٍ من قبل ألويتكم، فإن كنتم قد ضَعُفتم عنها، فادفعوها إلينا نَكفِكُموها»؛ فغضب طلحة من كلامه وقال: «ألنا تقول هذا؟! والله لأُورِدَنَّها اليوم حَياضَ الموت!».

ثم بادر طلحة إلى ساحة القتال مبارزاً ـ وكان أولَ من بارز ـ ووقف بين الصفين ينادي: «يا أصحاب محمد، إنكم تزعمون أن الله يُعَجِّلُنَا

---

١٠ ـ الشِعْب: المَمَرّ بين جبلين، أو المعبر بين مُرتَفَعَين.

بسيوفكم إلى النار، ويُعجلكم بسيوفنا إلى الجنة، فمن شاءِ أن يَلحق بجنته فليبرز إليّ»؛ فقام أمير المؤمنين علي (ع) وبرز إليه حتى تصافَّا، فسأله علي (ع): «مَن أنت؟»؛ قال: «أنا طلحة بن أبي طلحة كبش الكتيبة»؛ فأنشد علي (ع) جواباً على رجزٍ منه:

يا طَلْحَ إن كنتُمْ كما تقولُ — لكم خيولٌ ولنا فصولُ
فَاثْبُتْ فَتَنظُرْ أَيُّنا المقتولُ — وأيُّنا أَوْلَى بما تقولُ
فقد أتاك الأسد الصَؤُولُ — بصارمٍ ليس به فُلولُ[11]
ينصره الناصر والرسول[12]

فقال طلحة: «مَن أنت يا غلام؟»؛ قال: «أنا علي بن أبي طالب؛ هل لك في مبارزتي؟ والله لا أفارقك اليوم حتى أعجلك بسيفي إلى النار»؛ فقال طلحة: «قد علمتُ يا قَضِمُ[13] أنه لا يجسُرُ عليَّ أحدٌ غيرك!»؛ وكان أمير المؤمنين (ع) يعرُف في مكة بالقَضِم، لأنه كان يقضم آذان الصبيان الذين يتعرضون لأذى النبي (ص) ويقذفونه بالحجارة والتراب، فكان علي (ع) يقضم آذانهم وآنافهم ووجوههم ويدفعهم عن النبي (ص)، وترجع الصبية إلى أهاليهم باكية تقول: قَضَمنا علي قَضَمنا علي.

ثم تقاربا وحمل كل منهما على صاحبه، واختلف بينهما ضربتان، فشد طلحةُ على عليٍ (ع) وضربه بسيفه، فاتقى أمير المؤمنين (ع) ضربته بالمِجَنَّة[14]، ثم بادره بضربة على مقدم رأسه، فمضى سيفه في رأس طلحة[15] حتى فلق هامته، وانتهى إلى ذقنه وبدرت عيناه، فصاح صيحة لم

---

١١ ـ الصَؤُول (مِن صال يصول): القاهر، الكثير الصَوْلات.
١٢ ـ الناصر: الله سبحانه وتعالى.
١٣ ـ القَضِم: مَن يقضِم (يكسر، ينتش) بأسنانه.
١٤ ـ في متن الطبعة الأولى: «بالجحفة»، والأرجح أنها كما ذكرنا «المجنة» أي صفيحة الحديد التي يستعملها المقاتل ليتقي بها ضربات سيف العدو؛ التِرس.
١٥ ـ في بعض المصادر أن ضربة الأمير(ع) كانت على رِجل طلحة فقطعها.

يُسمَع مثلها قط، وسقط على الأرض ووقعت رايته؛ فذهب علي (ع) ليُجهز عليه، فانكشفت عورته فنادى: «أنشدك الله يا ابن عم، والرحم»؛ فانصرف علي (ع) عنه وتركه، علماً منه (ع) أن عدو الله لا يعيش بعد الضربة؛ وفرح النبي (ص) والمسلمون بقتله فرحاً شديداً، فكبَّرَ وكبروا جميعاً لهلاكه، وقال (ص) ـ معبراً رؤياه ـ: «هذا كبش الكتيبة».

وكان لطلحة أربعة أخوة، فتقدم أولهم «أبو سعيد» وحمل الراية وبرز للقتال، فبادره أمير المؤمنين (ع) بضربة كان فيها حتفه، وسقط على الأرض برايته. ثم تقدم ثانيهم «عثمان بن أبي طلحة» فحمل الراية مبارزاً، فلم يمهله علي (ع) حتى ألحقَهُ بأخَوَيهِ وسقط على الأرض برايته. ثم تقدم ثالثهم «مساقع بن أبي طلحة» فحمل الراية وحمل على أمير المؤمنين، فبادره الأمير (ع) بضربة ألحقته بأخوته وسقطت الراية؛ فتقدم رابعهم «الحارث» وحمل الراية مهاجماً أمير المؤمنين (ع)، فسبقه الأمير عليه السلام بضربة أراحه بها من الحياة في ساعته، وألحقته بإخوته.

تقدم بعدئذٍ غرير بن عثمان وحمل الراية، فلم يكن إلا قليل حتى خطفه أمير المؤمنين (ع) بسيفه وألحقه بالخمسة السابقين، وسقطت الراية. فتقدم عبدالله بن جميلة وحملها مبارزاً، فقتله أيضاً أمير المؤمنين (ع) بساعته وسقطت الراية، فاحتملها أرْطاَةُ بن شُرَحْبيل وخرج مبارزاً، فاستقبله أمير المؤمنين (ع) وألحقه مسرعاً بأصحابه، وسقطت الراية، فاحتملها مولى لهم ـ كان من أشد الناس ـ اسمه «صواب الحبشي» وقد ازْبَدَّ شِدقاهُ واحمرت عيناه بقتل مَواليه، وبرز إلى المعركة كأنه قبة وهو يقول: «والله لا أقتل بساداتي إلا محمداً»، واختلف مع أمير المؤمنين (ع) بضربتين، إلى أن بادره علي (ع) بضربةٍ قطع بها يمينه وسقطت بها الراية على الأرض، فاحتملها صواب بشماله، فثنَّاه أمير المؤمنين (ع) بضربة أخرى قطعت شماله وسقطت بها الراية على الأرض، فاحتضنها الرجل إلى صدره بكلتا يديه المقطوعتين وهو ينادي: «يا بني عبد الدار، هل أعذرتُ في ما بيني

وبينكم؟»؛ فضربه أمير المؤمنين (ع) ضربة ثالثة قضَتْ عليه[16]، فصار مجموع أصحاب ألوية المشركين تسعة، قُتِلوا كلهم بسيف أمير المؤمنين (ع)[17].

وكان الفريقان، من المسلمين والمشركين، ينظرون إلى علي (ع) وبطولته في المعركة مندهشين؛ وكان السرور والضحك واضحين على وجوه المسلمين الحافّين برسول الله (ص) وهو جالس تحت الراية وعليه دِرْعان ومِغْفَرةٌ وبَيْضة[18]، أما المشركون فكانت هند (زوجة أبي سفيان وأم معاوية) تغني في صفوفهم ـ لتشجعهم وتَحُثَّهم ـ بقولها:

نـــحـــنُ بـــنـــاتُ طـــارِقْ نَـمـشـي عـلـى الـنَـمـارق[19]
والـمِـسـكُ فـي الـمَـفـارِق[20] والـدُرُّ فـي الـمَـخـانِـق
إن تُـقـبِـلـوا نُـعـانِـق أو تُـدْبِـروا نُـفـارِق
فِـراقَ غـيـرِ وامِـق[21]

ولما سقطت الراية بعد قتل حَمَلتها التسعة، لم يتجرأ أحد على حملها، فتقدمت عَمْرة بنت عَلْقَمَة ونصبتها في الأرض، فبرز من صفوف

---

١٦ ـ في بعض الروايات أن الأمير(ع) ضربه على وسطه ضربة قدَّه بها نصفين، وأن نصفه الأعلى سقط على الأرض، وبقيت عجزه ورجلاه وفخذاه قائمة.

١٧ ـ كذا في المصادر الغالبة، وتقول مصادر أخرى أن بعضاً من هؤلاء الأخوة أصحاب اللواء، قُتل بيد حمزة(ع) عم النبي، وأبي دُجانة سِماك بن خَرَشَة.

١٨ ـ الدِرع: قميص حديدي يرتديه المقاتل وقاية له من سلاح العدو ـ المِغفرة: زَرَد للحماية يضعه المحارب تحت قلنسوته (قبعته) ـ البيضة: الخوذة الحديدية التي يغطي بها المحارب رأسه حماية له من ضربات الأعداء.

١٩ ـ النَمارق: الوسادات الصغيرة.

٢٠ ـ المَفارق: الخطوط والمنفرجات وسط شعر الرأس حين يُسَرَّح (يُمَشَّط) ـ الدُرُّ في المخانق: عقود الدُرَر والمجوهرات في الأعناق.

٢١ ـ وامِق: مُحِب.

المشركين الحَكَم بن الأخنس، فضربه أمير المؤمنين (ع) على فخذه ضربةً قطع بها رِجله وهلك منها؛ عند ذلك جال المسلمون في المعركة، وأقبل من صف المشركين أُمَيَّةُ بن أبي حذيفة دارعاً وهو يقول: «يوم بيوم بدر»، فاعترضه رجل من المسلمين، واختلفا بضربات إلى أن قتله أَمية، فصمد له أمير المؤمنين (ع). ولما التقيا ضرب كل منهما الآخر بسيفه، ولم يقع سيفاهما إلا في المغفرة والدرقة، ولم ينتجا شيئاً، إلى أن بادره أمير المؤمنين (ع) بضربة تحت إبطه قطعته، وقُتل أمية.

عندئذٍ حملت الأنصار على سائر المشركين، وفيهم ألفانِ من الأحباش كان قد استأجرهم أبو سفيان لحرب النبي (ص)، ومعهم عَبِيدُ قريش وفي مقدمتهم عبدٌ لِعَمْرِو بن الصَيفي يقال له «أبو عامر»، وحميت الوطأة واشتدت الحرب بين الفريقين، وقاتل المسلمون قتالاً شديداً، وأخذ رسول الله (ص) سيفه ونادى في أصحابه: «من يأخذ هذا السيف بحقه ويضرب به العبيد؟»»؛ فقام عمر (رض) يقول: «أنا يا رسول الله»؛ فأعرض عنه النبي (ص)، وأَعاد كلامه، فقام (ابن عمته) الزُبَير يقول كمقالته، واعرض النبي (ص) عنه، وقام عثمان (رض) يقول كصاحبيه، فأعرض عنه مثلهما، إلى أن قام «أبو دجانة» وقال: «أنا يا رسول الله آخذه بحقه»، فناوله النبي (ص) السيف. فلما تناوله أبو دجانة اعتمَّ بعمامة حمراء، وجعل يمشي بين الصفين متبختراً في مشيته وهو يقول:

أَنـا الـذي عـاهَـدَني خـلـيـلـي ونـحـن بـالـسَـفْـحِ لَـدَى الـنَـخـيـلِ
أن لا أُقـيـمَ الـدهـرَ فـي الـكَـيُّـول أَحْـمـي بـسـيـف الله والـرسـول[٢٢]

---

٢٢ ـ الكَيُّول (كذا: بتشديد الياء المثناة المضمومة؟): الصف الأخير من صفوف الجيش في الحرب؛ وقد رُوي أيضاً: «الكُبول» (بالباء الموحدة): القيود ـ أحمي: جاءت في المتن (من الطبعة الأولى): أَهْمي، فرجَّحنا ما أوردناه (أي: أحمي، من الحماية) لأنَّ اهمي (أي: أسيلُ، أو: انتشر) لا تنسجم مع موضوع الموقف من الفخر؛ ولعلها خطأ مطبعي، وقد جاءت في رواية أخرى: «نضرب».

فقال النبي (ص) إنها لَمِشيةٌ يبُغِضُها اللهُ تعالى إلا في هذا الموضع!».

ثم حمل أبو دجانة على المشركين حملةً لم يَر فيها أحد من الفريقين مقاتلاً أفضل منه بعد أمير المؤمنين علي (ع)، وحمل النبي (ص) وأصحابه على المشركين حملة رجل واحد ولحقهم من المدينة بعد خروجهم منها عدة أنفار:

منهم حَبْرٌ من أحبار اليهود يقال له «مُخَيْريق»، فإنه نادي في قومه بعد خروج النبي (ص) إلى أحد: «يا معشر اليهود، واللهِ إنكم لَتعلمون أن محمداً نبي، وأن نصره حق عليكم»؛ ثم بادرَ بنفسه إلى اللحوق بالنبي (ص)، وكان ذلك يوم السبت، فاعترضه قومه يقولون له: «ويحك اليوم يوم السبت»؛ فقال: «لا سبت!»؛ وأخذ سلاحه ونادى في قومه: «إن أنا أُصِبْتُ فأموالي لمحمد يضعها حيث أراه الله»؛ ثم لحق بالنبي (ص) وأصحابه وقُتِل في المعركة، وكان النبي (ص) يقول: «مخيريق خير اليهود».

ومنهم «عَمْرُو بن الجَموح»، وكان أعرج وله أربعة بنين كانوا خرجوا مع النبي (ص) وتخلف عمرو أبوهم لِعَرَجه، ولكنه بعد خروج النبي (ص) بمن معه، ندم عمرو على تخلفه، وعزم على اللحوق بهم؛ فهَمَّ قومه أن يمنعوه ويعدلوا برأيه، فاجتمعوا عنده يقولون له: «أنت رجل أعْرَج، ولا حَرَج عليك، وقد ذهب بنوك مع النبي»؛ فقال: «بخ بخ، أبنائي يذهبون إلى الجنة وأنا أجلس عندكم؟!»؛ ثم نهض مولياً عنهم نحو المعركة وأخذ دَرَقته[٢٣] وهو يقول: «اللهم لا تردني إلى أهلي!»؛ إلى أن لحق بالنبي (ص)، وحكى له ما همَّ به قومه من منعه، ثم قال: «والله إني لأرجو أن أطأ بعَرْجتي هذه في الجنة!»؛ فقال له النبي (ص): «أما أنت فقد عذرك الله، ولا جهاد عليك»؛ وهمّ بنوه أن يمنعوه عن الجهاد، فأبى إلا القتال،

---

٢٣ ـ الدَرَقة: ترس من جلود.

عندئذٍ نهى النبيُ (ص) بنيه عن منعه وقال: «لعل الله يرزقه الشهادة»؛ فخرج الرجل إلى القتال إلى أن قُتل شهيداً. وكانت زوجته هند ـ عمة جابر بن عبد الله الأنصاري ـ قد حضرت غزوة أُحُد، فلما انقضت الوقعة وقُتل مَن قُتل مِن المسملين، وفيهم بعلها وأخوها عبد الله أبو جابر وابنها خلاد، أتت هند ببعير حملت عليه الجثث الثلاث نحو المدينة، ولم تمش خطوات حتى برك البعير، فَزَجَرَتْه ودفعته للمشي وأكثرت من زجره، ولكنه لم يتحرك عن موضعه، إلى أن وجهته راجعاً نحو أحد، فسار وأسرع في المشي، ثم أرجعته نحو المدينة، فبرك ثانياً ولم يَزُل عن مكانه، فوجهته ثانياً نحو أحد، فأسرع أيضاً في المشي، وهكذا إلى أن يئست من مضيه إلى المدينة، ورجعت به نحو أحد؛ وشكت ذلك إلى النبي (ص)، فقال (ص): «إن الجمل لمَأمور! هل قال عمروٌ شيئاً عند خروجه من المدينة؟»؛ قالت: «نعم، أنه حينئذٍ استقبل القبلة دَعا بقوله: اللهم لا تردني إلى أهلى وارزقني الشهادة»؛ فقال (ص): «فلذلك الجملُ لا يمضي، إن منكم يا معشر الأنصار، مَن لو أَقسم على الله لأبرَّه، ومنهم عمرو»؛ ثم بشرها النبي (ص) عن أخيها عبد الله قائلاً: «يا هذه، ما زالت الملائكة مُظِلَّةً على أخيك مِن لَدُن قُتِل إلى الساعة، ينظرون أين يدفن. يا هند إن بَعْلك وابنك وأخاك قد ترافقوا جميعاً في الجنة، وإن الملائكة لَتُظِل عليهم بأجنحتها إلى أن يدفنوا»؛ قالت: «يا رسول الله، فادع الله لي عسى أن يجعلني معهم». ثم أمر النبي (ص) أن يُدفَن بعلها وأخوها في قبر واحد، لكونهما متحابين في الدنيا وفي الجنة ـ وكانت قريش قد مَثَّلَت بهما وقطعت أعضاءهما بحيث لم يكن يُعرَف كل منهما عن الآخر ـ فدفنا في قبر واحد. وجاء في بعض كتب التاريخ أنه في عهد معاوية بن أبي سفيان حُفرت بأمر منه قبور كثيرين من شهداء أحد، فرأوا جثثهم ـ بعد ست وأربعين سنة من شهادتهم ـ طرية لم يتغير منها شيء، بل وتفوح منها رائحة المسك، ووجدوا عبدَ الله وعَمْراً في قبر واحد، فحولوهما إلى مكان آخر بسبب قناة تمر على قبرهما. ورأى جابر يومئذٍ جثة أبيه وهمَّ أن يطيبها

بمسك، فمنعه أصحابه؛ وقد رأوا يد عبد الله على جرح في وجهه أصابه يوم شهادته، فأماطوها عن المكان فانبعث الدم منه، إلى أن ردت عليه اليد، فسكن الدم.

ومنهم وَهْب المُزني وابن أخيه الحارث، فإنهما دخلا المدينة بعد خروج النبي (ص) إلى أحد ومعهما أغنام لهما، فسألا عن النبي (ص) وعلما بخروجه إلى الغزوة، فلحقاه مسرعَينِ عند التهاب نار الحرب بين الفريقين، واشتداد القتال وهجوم فرقة من المشركين على النبي (ص)، فقال النبي (ص) لأصحابه: «من لهذه الفرقة؟»؛ فتقدم وَهْب مجيباً بقوله: «أنا يا رسول الله»؛ ولم يزل يرميهم بسهامه حتى انصرفوا. ثم هجمت على النبي (ص) من الجانب الآخر فرقة أخرى منهم، فنادى النبي (ص): «مَن لهذه الكتيبة؟»؛ فأجابه وهب ثانياً بقوله: «أنا يا رسول الله»؛ ولم يزل يضرب فيهم بسيفه حتى وَلّوا راجعين. ثم طلعت كتيبة ثالثة على النبي (ص) فنادى: «من يقوم لهؤلاء؟»؛ فأجابه وهب ثالثاً يقول: «أنا يا رسول الله»؛ فقال (ص): «قم وابشر بالجنة»؛ فتوجه نحو القوم مسروراً وهو يقول: «والله لا أقيل ولا أستقيل»؛ وجعل يجالدهم بسيفه، حتى خرج من أقصى الكتيبة وهم محدقون به يضربونه بأسيافهم ورماحهم، والنبي (ص) ينظر إليه ويدعو له بقوله: «اللهم ارحمه». ولم يزل يكر فيهم بسيفه إلى أن سقط على الأرض شهيداً، ووُجدت به عشرون طعنة بالرماح، وقد مُثِّل به أقبح تمثيل. فوقف النبي (ص) عليه عند دفنه يقول له: «رضي الله عنك فإني عنك راض»؛ ثم وضعه في لحده، ومد عليه بُرْدة بلغت نصف ساقيه، وستر بقية ساقيه بالحَرْمَل[٢٤]. وقام من بعده ابن أخيه فقاتل كقتاله، إلى أن استشهد مثله.

ثم اشتد القتال بين الفريقين، فقُتِل جماعة كثيرة من رؤساء قريش

---

٢٤ ـ الحَرْمَل: نوع من النبات.

وأبطالهم، وهَزَمَ المسلمون بقاياهم هزيمة قبيحة، ووقعوا في سوادهم[٢٥] يغنمون أموالهم، وهربت مع المشركين هند أم معاوية، ثم جعلت تدور على المنهزمين تدفع لهم ميلاً ومكحلة قائلة لهم: «إنما أنتم نساء فاكتحلوا»؛ وكانت جَعلت لرجل يقال له: «وحشي» جُعْلاً[٢٦] على أن يَقتل أحد الثلاثة: إما رسول الله، وإما أمير المؤمنين (ع)، وإما حمزة (ع)؛ فقال وحشي: «أما محمد، فلا حيلة لي فيه، لأن أصحابه يطوفون به. وأما علي، فإنه أحذر من الذئب. وأما حمزة، فإني أطمع فيه لأنه إذا غضب لم يبصر بين يديه». ولما وقعت الهزيمة في المشركين، يئست هند من نيل مرامها، وجعلت تصرخ وتنوح مع سائر نسائها يَدعَينَ بالويل والثبور بعد ما كُنَّ يغنين ويضربن بالدفوف.

ولما اشتغل المسلمون باغتنام الأموال، انحط خالد بن الوليد في مِئتَي فارس على موضع الكمين من الجبل، فاستقبلهم عبد الله بن جبير وأصحابه الخمسون يرمونهم بالسهام حتى أرجعوهم إلى محالهم. ثم توجهوا إلى الوادي فرأوا أصحابهم من المسلمين ينتهبون سواد المشركين ويغنمون أموالهم، فقالوا لعبد الله أميرهم: «ما يقيمنا ههنا وقد غنم أصحابنا ونحن نبقى بلا غنيمة؟»؛ وهموا بالنزول وإخلاءِ مَحالِّهم، فجعل عبد الله ينهاهم عن ذلك وينادي فيهم ويعظهم بقوله: «اتقوا الله، فإن رسول الله قد تقدم إلينا أن لا نبرح محالنا»؛ فلم يعبأوا بكلامه، وجعلوا ينسلّون رجل بعد رجل وهم يقولون: «إن رسول الله أمرك بهذا وهو لا يدري أن الأمر يبلغ إلى ما ترى»؛ إلى أن نزلوا وأخلوا مراكزهم (التي كانت هي الحماية ومراكز الحراسة لمؤخرة جنود المسلمين)، ثم وَلَّوا أدبارهم ما عدا اثني عشر رجلاً منهم، فعرف خالد بن الوليد ذلك، فرجع على حَرَس الشِعب

---

٢٥ ـ في سوادهم: في جَمعهم، وسط ساحتهم وكثافتهم.

٢٦ ـ الجُعْل: الثمن. المكافأة، بَدَل الشرط.

بخيله ورَجِلِه، ولحقه عكرمة بن أبي جهل بالخيل، وحملوا على ابن جبير وأصحابه الاثني عشر، حتى قتلوا أصحابه عن آخرهم، وبقي عبد الله وحده يرميهم بسهامه حتى نفدت نِباله، فأخذ يطعنهم بالرُمح حتى انكسر، فجعل يدافعهم بسيفه حتى انكسر جفنه[٢٧]، فتكاثروا عليه حتى قتلوه.

ثم نزلوا من موضع الكمين وأحاطوا برسول الله (ص) ومَن معه مِن ورائهم، وقتلوا من المسلمين مقتلة عظيمة وهزموهم أقبح هزيمة، وقامت الصرخات، وامتلأ الوادي بالعجيج وزعقات الرجال، وانتقضت صفوف المسلمين يضرب بعضُهم بعضاً وهم لا يشعرون، وغلب عليهم الدهش كأنهم سكارى، وغارت العيون في الأحداق، وامتلأت القلوب من الرعب، وشبَّتْ نار الحرب والتهب سعيرها بأسوأ حالٍ، ولم يَسأل حميمٌ حميماً، وهرب جل المسلمين إلى رؤوس الجبال، ولم يُقِمْ مع النبي (ص) إلا أفرادٌ قلائل أحاطوا به؛ وحَدَث أن اقترب خالد بن الوليد في خِفٍّ[٢٨] من أصحابه نحو النبي (ص) فرآه، فنادى في أصحابه: «دونكم هذا الطليق الذي تطلبونه، فشأنُكم به»؛ فحمل القوم عليه حملة رجل واحد، وباشر النبي (ص) القتال بنفسه وبيده السيف، فرماه «مغيرة بن العاص» بحجر أصاب يده الشريفة وسقط السيف من يده، فنادى في قومه: «قتلتُهُ واللاتِ والعُزَّى»، وكان أمير المؤمنين علي (ع) يكرُّ فيهم يميناً وشمالاً، فسمع كلام مغيرة، فقال عليه السلام: «كذب لعنه الله!»؛ ثم رمى مغيرةُ النبيَ (ص) بحجر آخر أصاب جبهته الشريفة وسقط على الأرض، فتكاثر عليه وعلى المسلمين أصحاب خالد ضرباً بالسيوف وطعناً بالرماح ورمياً بالنبال ورضخاً بالحجارة، والمسلمون يدافعون عن النبي (ص)، حتى قُتِل منهم سبعون شهيداً وفيهم «مُصْعَب» حامل لواء رسول الله على «الخَزْرج»،

---

٢٧ ـ جَفْن السيف: غِمْده؛ وربما تكون هنا «جفن العين»، أي اللحمة التي تغطي العين (حين النوم أو حين الإغماض).

٢٨ ـ خِفّ: جماعة قليلة.

فحمل الراية بعد سقوطها «سعد بن عبادة» ـ وكان لواءُ «الأَوْس» مع أُسَيْد ابن حضير، ولواء المهاجرين مع رجل من بني «عبد الدار» ـ ولم يزل خالد وأصحابه يقصدون النبي (ص) ذاته، إلى أن رَمَى ابنُ قُمَيْئَة النبيَ بقذافة أَصابت كفه، ورماه عبد الله بن شهاب بقُلاعَة[٢٩] أصابت مرفقه، وضربه عُتْبة بن أبي وقاص ـ أخو «سعد» ـ على وجهه ضربة شَجَّ بها رأسه الشريف وأصاب شفته ورَباعِيَّته[٣٠] السُفلَى، وعلاه ابن قميئة بالسيف ولكن لم يعمل سيفه شيئاً، إلا أنه أثقَلَ الضربة بثقل السيف وهو يقول: «خُذْها مني فأنا ابن قميئة»؛ فقال النبي (ص): «أَذَلَّكَ الله وأَقْمَأَكَ!»[٣١]؛ فسال الدم من جبهته المباركة حتى اخضلت لحيته الشريفة، ثم رماه أيضاً بحجر كسر به أنفه المبارك، فوقع على ركبتيه في حفرة أمامه وتوارى بذلك عن أعين القوم، فنادى ابن قميئة: «لقد قتلت محمداً»؛ ونُهِبَ فرسُ النبي (ص)، ونال القوم منه ما نالوا، ولكنه (ص) لم يَزُل عن موقفه ولا قدر شبر.

وكانت تثب إليه طائفة من أصحابه مرة وتتفرق عنه أخرى، والمشركون ينادون بشعارهم: «يا لَلْعُزَّى! يا لَهُبَل!»، وتصور إبليس بصورة «جعال بن سراقة» ـ وكان من أصحاب رسول الله يقاتل مع المسلمين أشد القتال بجنب صاحبيه أبي بُرْدة وخَوَّات ـ وأخذ إبليس ينادي في الجموع: «ألا إن محمداً قد قُتِل»؛ فلما سمع بقية المسلمين النداء وهم يرونه جعال، انخلعت قلوبهم وتحيروا في أمرهم، وأخذوا ينهزمون يميناً وشمالاً وقد طارت أفئدتهم وغارت في أحداقهم عيونهم، وتمنى جماعة من المنافقين اللحوق بابن أُبَيّ وأصحابه المتخلفين ليأخذ لهم أماناً من أبي سفيان، وقال أناس منهم: «إن كان محمد قد قُتل، فالحقوا بدينكم الأول»؛ وارتد

---

٢٩ ـ القُلاعة: الحجر يُقتَلع من الأرض ليُرمَى به.

٣٠ ـ الرَباعِيَّة: السِنُّ التي بين الثَنِيَّةِ والناب (الثَنايا: الأسنان الوسطى في الفم، ثَنِيَّتان فوق، وثنيتان تحت).

٣١ ـ أقمأك: أَذَلَّكَ وَخزاكَ.

بعضهم عن الدين وقال: «لو كان نبياً لما قُتل». وجعل: «أنَس بن النضر» ـ عم أنس ابن مالك ـ: «ينادي: «يا قوم، إن كان محمد قد قُتل، فإن ربَّ محمد لم يقتل؛ وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه»؛ ثم قال: «اللهم أني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأُ إليك مما جاء به هؤلاء!»؛ وشد بسيفه في المشركين يقاتلهم إلى أن سقط على الأرض شهيداً.

ولما رأى أميرُ المؤمنين علي (ع) وهو يضرب بسيفه في المشركين هزيمةَ المسلمين عن رسول الله (ص)، لحقه من الجزع عليه ما لم يلحقه قَط، ولم يملك نفسه عن البكاء على النبي (ص)، ورجع يطلبه فلم يره، فقال: «ما كان رسول الله لِيَفِرَّ، وما رأيتُه في القتلى، وأظنه رُفع من بيننا إلى السماء!»؛ ثم كَسر جفن سيفه وهو يقول: «لأقاتِلَن به عنه حتى أُقتَل!»؛ وحمل بنفسه وحيداً على القوم الذين كانوا قد أحاطوا بالنبي (ص)، فتفرقوا من بين يديه وأفرجوا له، فإذا هو برسول الله (ص) وقد وقع مغشياً عليه، والناسُ في الهزيمة على رؤوس الجبال، ومنهم من دخل المدينة، وقد ركب بعضهم بعضاً لا يلوون على أحد ولا يسألون عن النبي (ص)، ـ كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾[٣٢] ـ ولم يثبت مع رسول الله (ص) إلا أبو دجانة سِماك بن خَرَشَة وسهل بن حنيف، وقد قاما على رأسه يَذُبّان المشركين عنه من جانبيه بسيفيهما، فحمل أمير المؤمنين (ص) منفرداً على جموع المشركين حتى كشفهم عن النبي (ص)، ثم عاد المشركون يحملون على النبي (ص) من ناحية أخرى، فكرَّ عليهم أمير المؤمنين (ع) وهم فرقة خُشَناء فيهم عِكرمَة بن أبي جهل، فدخل علي (ع) بينهم يضرب فيهم بالسيف يميناً وشمالاً، إلى أن كشفهم وقد اشتملوا عليه وتكاثروا يضربونه بسيوفهم، ثم كر فيهم ثانياً وثالثاً، وهكذا حتى أَرجعهم إلى مَحالّهم وهزمهم عن آخرهم، ورجع هو (ع) إلى

---

٣٢ ـ ج ٤، س ٣ آل عمران: ١٥٣.

النبي (ص) وقد أصابه في رأسه وبدنه سبعون جراحة، ففتح النبي (ص) عينيه ونظر إليه، فقال: «يا علي ما فعل الناس؟»؛ قال (ع): «نقضوا العهد وولوا الدُبُر»؛ فغضب (ص) غضباً شديداً حتى انحدر العرق من جبينه كاللؤلؤ ـ وكان ذلك علامة شدة غضبه ـ وقال (ص): «يا علي، الحَقْ ببني أبيك مع مَن انهزم عن رسول الله»؛ فقال (ع): «لا واللهِ يا رسول الله! إن لي بكَ أُسْوَة! لا أسأل عنك الخَبر مِن وراء»؛ ثم نظر النبي (ص) فإذا هو بأبي دجانة، فقال (ص): «يا أبا دجانة، ذهب الناس وأنت في حِلٍ من بيعتك، فارجع والحق بقومك»؛ قال: «يا رسول الله، ما على هذا بايعناك وبايعنا الله، ولا على هذا خرجنا؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٣٣] يا رسولَ الله، لا تُحدِّث نساءُ الأنصار في الخدور[٣٤] أني أسلمتُك ورغبت بنفسي عن نفسك، لا خيرَ في العيش بعَدك يا رسول الله!»؛ فكرر النبي (ص) عليه يقول: «أما عليٌّ فهو أنا وأنا هو، وأنت في حلٍ من بيعتي فانصرفْ»؛ فجلس أبو دجانة بين يديه يبكي وهو يقول: «لا والله لا جعلتُ نفسي في حل من بيعتي، وإني قد بايعتُكَ فإلى مَن أنصرفُ يا رسول الله؟ إلى زوجة تموت، أو ولد يموت، أو دارٍ تخرب، أو مال يفنَى، أو أجل قد اقترب؟»؛ فرق له النبي (ص) وسكت عنه. وأخذ أمير المؤمنين (ع) بيَدَي النبي (ص) كلتيهما حتى أقامه، فجعل (ص) يمسح الدماء عن جبهته، ويتناول بيده الدماء التي تسيل من فمه ويرمي بها في الهواء، ولم يكن يرجع شيء من تلك الدماء المرسلة في الهواء نحو السماء، كما أنه (ص) لم يكن يترك شيئاً من دماء جبهته وفمه وباقي جروحه على الأرض، حذراً من نزول العذاب بسببها على قومه وهو يقول: «اللهم ٱهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون! إن الله ٱشتد غضبه على اليهود أن قالوا عُزَيْرٌ ٱبن الله، واشتد غضبه على النصارى أن قالوا المسيحُ بن

---

٣٣ ـ ج ٦، س ٤٨ الفتح: ١٠.

٣٤ ـ في مجالسهن المستورة.

الله، وإن الله اشتد غضبه على مَن أراق دمي وآذاني في عترتي».

ثم انتهى (ص) إلى صخرة هناك ليستتر بها من سهام المشركين، فكثرت عليه عند ذلك كتائبهم من كل جانب، فقال لعلي (ع): «اكفني هؤلاء»؛ فجعل أمير المؤمنين يحمل على ميمنتهم ويكشفهم عن النبي (ص)، فتحمل الميسرة عليه فيكر عليهم أمير المؤمنين (ع) ويدافعهم، وكان لا يبارز فيهم فارساً ولا راجلاً إلا وقدَّه نصفين.

وبرز أبو دجانة إلى القتال من جانب آخر، حتى أُثخِنَ بالجراح وسقط على الأرض، فانقض عليه أمير المؤمنين (ع)، واحتمله وهو مثخن لا حراك به، حتى أتى به إلى النبي (ص) ووضعه بين يديه وقد بقي فيه رمق، فقال: «يا رسول الله، أَوَفَيتُ ببيعتي؟»؛ قال (ص): «نعم». ورجع علي (ع) إلى الكتائب يفرقهم عن النبي (ص) إلى أن تقطع سيفه ثلاث قطع، فتناولها وأتى بها إلى النبي (ص) وطرحها بين يديه يشكو إليه قائلاً: «يا رسول الله انقطع سيفي ولا سيف لي، وإن الرجل لَيقاتل بسلاحه»؛ فنظر النبي (ص) إلى ما حوله، فإذا هو بجريدة نخل عتيقة يابسة مطروحة هناك، فتناولها وهزها، فانقلبت سيفاً صارماً فقلده إياه ـ وقد قيل: إنه هو سيفه المشهور بذي الفقار ـ فصار أمير المؤمنين (ع) يحارب به أحسن من كل سيف.

وعند ذلك قصدت النبيَّ (ص) كتيبةٌ أخرى تقارب خمسين فارساً فيهم أربعة من بني سفيان بن عوف، فاستقبلهم أمير المؤمنين (ع) بسيفه، يكر فيهم يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً، حتى قَتَل عشرة من شجعانهم فيهم الأربعة من بني سفيان، وتراجع الباقون مدبرين.

ولم يزل علي (ع) كذلك وقد أُثخِنَ بجراحات كثيرة تسيل منها الدماء حتى وهنت ذراعه؛ وعلم النبي (ص) بذلك فيه، فرفع رأسه إلى السماء يدعو ربه متضرعاً إليه بقوله (ص): «اللهم إن محمداً عبدك ورسولك، وقد جعلت لكل نبي وزيراً من أهله لِتشُدَّ به عَضُدَه وتُشرِكَه في أمره، وجعلتَ

لي وزيراً من أهلي علي بن أبي طالب أخي، فنِعمَ الأخُ ونعم الوزير! اللهم إنك وعدتني أن تمدني بأربعة آلاف من الملائكة مردفين، اللهم وَعْدَك وعدك، إنك لا تخلف الميعاد! وعدتَني أن تُظهِر دِينك على الدِينِ كله ولو كره المشركون»؛ فلم يُتِمَّ دعاءَهُ حتى أحسَّ بِدويٍّ من السماء، فنظر فإذا جبرائيل قد هبط في أربعة آلاف من الملائكة مردفين وهم ينادون «لا فتى إلا علي، لا سيف إلا ذو الفقار» ـ قاصدين مدحه وتعظيمه بوصف «فتى»، كما مدح الله تعالى خليله إبراهيم (ع) بقوله تعالى: ﴿فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾[35] وكما وصف أهل الكهف بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾[36] ـ ثم حفوا بالنبي (ص) يسلمون عليه، وقال له جبرائيل (ع): «يا رسول الله، بالذي أكرمكَ بالهدى، لقد عجِبَتِ الملائكة المقربون لمواساة هذا الرجل لك بنفسه»؛ قال (ص): «وما يمنعه أن يواسيني بنفسه وهو مني وأنا منه؟»؛ قال جبرائيل: «وأنا منكما وأنا منكما». وسمع علي (ع) دوي الملائكة وقائلاً يقول: «أَقْدِمْ حيزوم»؛ فسألَ النبيَّ (ص) عن ذلك فقال (ص): «هذا جبرائيل يخاطب فرسه واسمه حيزوم، ومعه ميكائيل وإسرافيل والملائكة».

عند ذلك تنشَّطَ أمير المؤمنين (ع) للحرب، فحمل بنفسه على صفوف المشركين يفرقهم يميناً وشمالاً، وعيناه تتوقدان ناراً كالأسد الغضوب، وأعانته الملائكة بطورٍ أنه كلما همَّ بضرب أحد، سقط الرجل قبل وصول ضربته إليه ووقع ميتاً، فعلم أن الملائكة تسبقه إلى ذلك.

حدَّث بعد ذلك عمر بن الخطاب (رض) يصف الوضع ووقائع المعركة في ذلك اليوم فقال: «بينما كنا وقوفاً عند النبي (ص)، وكنا قد بايعناه على الثبات، وأَن مَن فرَّ منا فهو ضالّ، ومن قُتِل منا فهو شهيدٌ والنبيُّ

---

٣٥ ـ ج ١٧، س ٢١ الأنبياء: ٦٠.

٣٦ ـ ج ١٥، س ١٨ الكهف: ١٣.

زعيمه[٣٧]، إذ حمل علينا من صفوف المشركين مئة صنديد[٣٨]، تحت كل صنديد مئة رجل أو يزيدون، فازعجونا عن مستقرنا، فعند ذلك رأيت الهِزَبْر[٣٩]، القُثَمَ[٤٠] بن القُثَم، الضارب بالبُهَم[٤١]، الشديد على من طغى وبغى بالسيفين، عَلِياً يتقدم كالليث، وحمل عليهم حملة خلع بها الأفئدة وملأ القلوب رعباً، حتى مزقهم تمزيقاً، وفرق جمعهم تفريقاً؛ ثم حمل علينا ونحن في الهزيمة، وبيده الصفيحة[٤٢] يقطر منها الموت، ورمى بكفِ من الحَصَى في وجوهنا وهو يقول: شاهَتِ الوجوه، وقُطَّت وبُطَّت ولُطَّت (أي قُطِعَت وشُقَّت وسُتِرت بالطين ونحوه)، إلى أين تفرون؟ إلى النار؟ بايَعْتُم ثم نكثْتُم، فوالله لَأنتم أوْلَى بالقتل ممن أَقتُل؛ ونظرت إلى عينيه كالقدحين المملوءَين من الدم، وما ظننت إلا ويأتي علينا، فبادرت أنا إليه وقلت: يا أبا الحسن، الله الله، فإن العرب تفرُّ وتكر، وإن الكرَة تنفي الفرة؛ فولى بوجهه، فوالله ما يخرج رعب ذلك اليوم مني، ولا تسكن روعة فؤادي منه إلى أن أموت».

ثم لما أغار أمير المؤمنين (ع) في صفوف المشركين، أقبلت إلى النبي (ص) امرأة من بني مازن تسمى «نسيبة بنت كعب» ـ شهدت أُحُداً مع المسلمين تسقي جَرْحاهم وتداوي جِراحاتهم ـ وكان معها زوجها «غُزَيَّة»، وابنان لهما أحدهما منه يسمى «عمارة بن غزية»، وثانيهما من زوج قبله يسمى «عبد الله بن زيد»، فوقفت بجنب رسول الله (ص) تذب عنه بالسيف

---

٣٧ ـ زعيمه: كفيله.

٣٨ ـ الصِنديد: السيد الشجاع.

٣٩ ـ الهِزَبْر (بكسر الهاء وفتح الزاي وتسكين الباء): الصلب، القوي جداً، الشديد ـ الهِزْبَر (بكسر الهاء وتسكين الزاي وفتح الباء): الأسد.

٤٠ ـ القُثَم: السَّخِي، الكريم، المعطاء.

٤١ ـ البُهَم: الأحجار الكبيرة، الصخور.

٤٢ ـ الصفيحة: السيف.

والقوس، وتقيه بصدرها ويديها؛ وهمّ ابنها عمارة أن يفر مع المنهزمين، فاعترضته وحملت عليه تقول: «يا بني، إلى أين تفر عن الله وعن رسوله؟»؛ حتى أرجعته، وحمل عليه رجل من المشركين فقتله، فأخذت سيف ابنها وحملت على الرجل، وضربت به على فخذه وقتلته، فقال النبي (ص): «بارك الله عليكِ يا نسيبة!»؛ ثم رأى النبي (ص) حينئذٍ رجلاً من المهاجرين في الهزيمة وترسه خلفه فناداه: «يا صاحب الترس، إلقِ ترسك ومر إلى النار»؛ فرمى بترسه، فنادى النبي (ص): «يا نسيبة خذي الترس»؛ فأخذت الترس وجعلت تقاتل المشركين. وحدث أثناء المعركة أن سمعت صوت ابن قميئة ينادي: «دُلُّوني على محمد، لا نَجَوْتُ إن نجا!»؛ فأقبلت إليه وضربته ضربات لم تؤثر فيه شيئاً، لأنه كان عليه درعان، وضربها عدو الله على عاتقها ضرباً منكراً جَرَحها به جرحاً أجوف له غور؛ وكان ابنها عبد الله بن زيد في المعركة يرمي أحد المشركين بالحجارة حتى قتله بها، والنبي (ص) ينظر إليه مبتسماً، ثم ناداه: «أُمَّكَ أمَّك، اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيت! لَمَقامُ أمك خير من مَقام فلان وفلان، ومقام زوجها خير من مقامهم، ومقامك خير من مقامهم!»؛ فقالت نسيبة: «ادعُ الله لنا يا رسول الله أن نرافقك في الجنة»؛ فقال (ص): «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة»؛ قالت: «إذاً فما أبالي ما أصابني في الدنيا»؛ وكان قد أصابها ثلاثة عشر جرحاً بين طعنة برمح وضربة بسيف.

وقد سلط الله على ابن قميئة بدعاء النبي (ص) التصاقه بشجرة عند مروره بها، فأخذت من لحمه حتى هلك. ودعا النبي (ص) على مغيرة صاحب الأحجار أن يحيره الله، فتحير بين الصفوف كالمجانين حتى لحقه عمار وقتله.

وكان «حَنْظَلَة بن عامر» رجلاً من الخزرج تزوج في الليلة التي كان في صبيحتها غزوة أُحد، وتخلف عن الخروج مع النبي (ص)، وأقام عند

زوجته بإذن من رسول الله (ص)، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾[٤٣]؛ ولما أصبح هَمَّ أن يلحق بالنبي (ص) فأشهدت عليه زوجته عند خروجه أربعة من الأنصار أنه دخل بها، وقالت: «إني رأيت الليلة في منامي أن السماء قد انفرجت، وصعد إليها حنظلةُ ثم انضمت، فعلمت أنها الشهادة، وكرهتُ أن لا أُشهِد عليه»؛ وخرج الرجل في ساعته إلى الغزوة، ولحق بالنبي (ص) حين وَحْدَتِه واشتغل بالقتال وهو جُنُب، إلى أن رأى أبا سفيان يجول على فرس له بين العسكرين مفتخراً بالغلبة على النبي (ص)، ويدعو لصنمه هُبَل بعلو الشأن والرفعة بقوله: «أُعْلُ هُبَل، اعل هبل»؛ فحمل عليه حنظلة وضرب بالسيف ركبة فرسه فاكتسع، وسقط أبو سفيان على الأرض، فحمل عليه حنظلة، فولى هارباً ينادي برفيع صوته: «يا معشر قريش، أنا أبو سفيان وهذا حنظلة يريد قتلي»؛ وتبعه حنظلة يعدو في طلبه إلى أن اعترضه رجل من المشركين وطعنه برمح، فمشى حنظلة في طعنته يتبع الطاعن حتى قتله، ثم سقط هو شهيداً على الأرض؛ وقد قال النبي (ص): «إني رأيت الملائكة تغسله بين السماء والأرض بماء السحاب في صحائف من ذهب»؛ ولذلك سموه «غسيل الملائكة».

وقد أسلم أثناء المعركة رجل من المشركين اسمه «عَمْرُو بن قيس»، وأخذ سيفه وترسه وأقبل على المشركين كالليث العادي يضربهم بالسيف وهو يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، ولم يزل يقاتلهم إلى أن وقع صريعاً على الأرض بين القتلى، فمرَّ به رجل من الأنصار وسأله: «يا عمرو، أأنت على دينك الأول؟»؛ قال: «لا والله»؛ وشهد الشهادتين ومات، فسئل النبي (ص): «هل هو شهيد؟»؛ قال (ص): «اي والله شهيد! وما رَجلٌ لم يصلِ لله ركعةً ودخل الجنةَ غيرُه».

---

٤٣ ـ ج ١٨، س ٢٤ النور: ٦٢.

ثم إن أبا سفيان صعد بجموعه على رؤوس الجبال وهم يظنون أن النبي (ص) قد قُتِل، ولم يبق أحد من المسلمين يحارب ويحذرونه إلا أمير المؤمنين عليّ(ع)، وكان يجول بسيفه في صفوفهم وهم ينادون على رؤوس الجبال بقولهم: «أُعْلُ هُبَل، أعلُ هبل»، فأجابهم أمير المؤمنين (ع) بأمر النبي (ص) يقول: «الله أعلَى وأَجَلّ»؛ فقال أبو سفيان: «يا علي، إنه أنعم علينا»؛ يعني صنمه، فقال (ع): «بل الله أنعم علينا»؛ فقال أبو سفيان: «يوماً بيوم، إن الأيام دُوَل[44] وإن الحرب سِجال»؛ قال (ع): «لا سَواء! قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار»؛ قال: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم»؛ قال (ع): «الله مولانا ولا مولى لكم»؛ فقال أبو سفيان: «يا علي أسألك باللات والعُزى، هل قُتِل محمد؟» قال (ع): «لعنك الله ولعن اللات والعزى معك، واللهِ ما قُتِل وإنه يسمع كلامك»؛ قال: «أنت أصدق، لعن الله ابن قميئة، زعم أنه قَتَل محمداً».

عندئذٍ رفع النبي (ص) البيضة عن رأسه، وجعل ينادي المنهزمين من أصحابه: «أيها الناس، أنا محمد، أنا رسول الله، لم أَمُتْ ولم أُقْتَل، إليَّ إليَّ عبادَ الله، إن الله قد وعدني النصر فإلى أين الفرار؟»؛ وكان المنهزمون يسمعون نداءه ويتابعون هَرَبهم لا يَلْوونَ على شيء، ـ وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[45] ـ وظلَّ النبي (ص) يناديهم دون أن يستجيبوا أو يعرفوه، إلى أن سمعه وعرفه «كعب بن مالك» ـ وكان أول من عرفه ـ فجعل ينادي برفيع صوته: «يا معاشر المسلمين، هذا رسول الله!»؛ إلى أن انحاز ورجع إليه ثلاثون نفراً من أصحابه، فيهم أبوبكر، وعبد الرحمان بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة، والزبير، وسعد بن معاذ، وقَتادة بن النعمان، فأحاطوا به (ص) يَذُبُّون عنه.

---

٤٤ ـ أي تتبدل وتتغير، يوم سيء ويوم حَسَن.

٤٥ ـ ج ٤، س ٣ آل عمران: ١٥٣.

وأُصيبت عين قَتادَة بن النعمان حتى وقعت على وجنته، فشكا ذلك إلى النبي (ص) بقوله: «يا رسول الله، إن تحتي امرأة شابة جميلة أحبها وتحبني، وأنا أخشى أن تُقَذِّرَ[٤٦] مكان عيني»؛ فتناول النبي (ص) عينه الساقطة ووضعها في محلها، فصار يبصر بها أحسن من الأخرى، ولم تؤلمه بشيء بقية عمره إلى أن صار شيخاً كبيراً.

وأقبل نحو النبي (ص) من جمع المشركين أُبَيّ بن خَلَف ـ وكان في مكة يهدد النبي (ص) بالقتل، والنبي يجيبه بقوله: بل أنا أقتلكَ إن شاء الله ـ ولما دنا من النبي (ص) وهو يقول: «لا نجوتُ إن نجوتَ»، همَّ بعض الصحابة أن يعطف عليه، فقال (ص): «دَعُوه»؛ ثم تناول حربة من بعض أصحابه وطعنه في عنقه طعنة خدشه بها، فتَدَهْدَهَ[٤٧] عن فرسه وهو يخورُ خُوَار[٤٨] الثور يقول: «قتلني محمد»؛ فلحقه أصحابه واحتملوه يقولون له: «ليس عليك بأس»؛ قال: «بلى، لو كانت هذه الطعنة بربيعة ومضر، لَقتلَتْهُم عن آخرهم، أَمَا قال لي: أَقتلك؟ ولو بصق عليَّ بعد قوله ذلك لقتلني به»؛ ولم يلبث إلا يوماً واحداً حتى هلك.

وأثناء كل ذلك كان أمير المؤمنين علي (ع) يجول في صفوف المشركين يفرقهم بسيفه يميناً وشمالاً، واْختُصَّ في هذه الغزوة أيضاً ـ كغزوة بدر ـ بحسن البلاء وشدة الصبر وثبات القدم، دون الكثيرين غيره من الصحابة الذين زلّت أقدامهم وأفردوا نبيهم وفَرُّوا منهزمين بأنفسهم، وكان له (ع) من العناء والأسوة بالنبي ما لم يكن لغيره، وقتل الله بسيفه رؤوس أهل الشرك والضلال، إلى أن وقعت به الهزيمةُ في صفوف المشركين أقبح هزيمة، وهدأت الوقعة، وفرَّج الله به الكرب عن نبيه،

---

٤٦ ـ تُقَذِّر مكانَ عيني: ترى مكان العين بعد سقوطها قَذِراً، . . كريهاً، . . مقرفاً.

٤٧ ـ تَدَهْدَهَ: تدحرج، هَوَى،

٤٨ ـ الخُوار: صوت البقر، خار الثور: صاح.

وأنجز به الوعد له بالنصر، وبدأ المسلمون يعودون شيئاً فشيئاً إلى النبي (ص) ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[49] بعلي (ع)، فنادى عندئذٍ بفضله رضوانُ خازن الجنان، وخطب بمواساته للنبي (ص) جبرائيلُ في الملأ الأعلَى، وأبان النبي (ص) من خصائصه ما كان مستوراً على أهل النُهَى؛ وأقبل المسلمون على جعال بن سراقة يريدون قتله لِما سمعوا من ندائه بقتل النبي (ص)، فشهد له خوات وأبو بردة أنه كان بجنبهما يقاتل عند صياح الصائح، وأن المنادي كان غيره.

ثم لما هدأت الفتنة، وانطفأت النائرة بهزيمة المشركين واجتماع المسلمين، وسكن القتال، أخذ النبي يتفقد بعض أصحابه، ويسأل عن مَن لم يره موجوداً؛ فقال (ص): «مَن له علمٌ بسعد بن الربيع؟»؛ فقام رجل من الصحابة وقال: «أنا أطلبه يا رسول الله»؛ فأشار النبي (ص) إلى موضع هناك أمر الرجلَ أن يطلبه فيه، فمضى الرجل إلى الموضع يطلب سعداً، وإذ وجده رآه صريعاً بين القتلى، فناداه ولم يسمع منه جواباً، إلى أن قال: «يا سعد، إن رسول الله قد سأل عنك»؛ فرفع سعد رأسه وانتعش كالفرخ وقال: «إن رسول الله لَحيّ؟»؛ قال: «اي والله إنه لَحيّ، وقد أخبَرَنا أنه رأى حولك اثني عشر رمحاً»؛ فقال: «الحمد لله! صدق رسول الله! لقد طُعِنتُ اثنتي عشرة طعنة دخلت كلها جوفي؛ أَبلِغْ قومي الأنصار السلام، وقل لهم: ما لكم عند الله عذر أن تَشُوكَ رسولَ الله شوكةٌ وفيكم عينٌ تَطرُف»؛ ثم تنفس فخرج منه دم كثير كالجَزور[50] ـ وكان قد احتقن في جوفه ـ ومات في ساعته. ولما رجع الرجل إلى النبي (ص) وأخبره بالخبر، قال (ص): «رحم الله سعداً، نَصَرَنا حياً وأوصى بنا ميتاً».

ثم سأل (ص) عن عمه «حمزة» (ع)، لأنه لم يره مع المسلمين حوله،

---

٤٩ ـ القرآن الكريم، ج ٢١، س ٣٣ الأحزاب: ٢٥.

٥٠ ـ الجَزُور: الحيوان المذبوح.

ولكن قَدَر حمزة (ع) كان أن لا يلاقيه النبي (ص) أو يخاطبه بعدئذٍ. فقد كان من قصته (ع) أنه لما حمي الوطيس واشتد القتال بين الفريقين، هجم حمزة (ع) كالليث الغضوب على صفوف المشركين، فلم يزل يقتل منهم الفرسان والشجعان، إلى أن كمن له العبد الحبشي «وحشي» ـ الذي أسلفنا أن هنداً (زوجة أبي سفيان وأم معاوية) أغرته بقتل حمزة (ع) ـ وكان حمزة (ع) قد أُعلِمَ[٥١] بريشٍ نعامةٍ في صدره، ورآه العبد فعرفه بعلامة الريش، وقبل أن يتوجه إلى حمزة (ع) بأي ضربة، بَدَرَهُ حمزة (ع) بالسيف، ولكن ضربته أخطأت الرجل فهرب من بين يديه. ولم يزل العبد وحشي يراقبه إلى أن داسَ حمزة على جُرُف هارٍ[٥٢] ووقع فيه، فلحقه وحشي وهز حربته ثم رماه بها في خاصرته، ونفذت الرمية فيه حتى خرجت من مثانته وسقط شهيداً؛ وشُغِل عنه وعن قاتله المسلمون بهزيمتهم.

وعرفت هند أم معاوية بمقتل حمزة (ع)، فأتت إليه وشقت بطنه، وقطعت كبده ومذاكيره، وجدعت أنفه وأذنيه، ومَثَّلَت[٥٣] به أقبح تمثيل، ثم أخذت الكبد بطرف أسنانها تلوكه لتبلعه غيظاً منها عليه، ولكن قطع الأكباد صارت في فيها بقدرة الله عظاماً كعظم الركبة، فلم تتمكن من أكلها حتى لفظتها ورمت بها، وأبى الله أن يدخل جزء من بدن حمزة في جوفها ويدخل معها نار جهنم، وأمر تعالى مَلَكاً من الملائكة ـ على ما روي عن أهل البيت (ع) ـ برد الكبد إلى موضعه، وبسبب ذلك اشتهر معاوية وذريته بأبناء «آكلة الأكباد». (وقد كانت هند هذه مشتهرة في مكة بذات عَلَم، فإنها كانت على عادة العواهر قد نصبت علماً على سطح دارها ليعرفها أهل الفحشاء ويقصدوها لذلك). ولما لم تتمكن يوم أُحُد من ابتلاع كبد

---

٥١ ـ أُعلِمَ: كان يُعرف بعلامة.

٥٢ ـ جُرُف: القِسم الذي جرفه أو أزاله الماء من حاشية النهر باندفاعه ـ هارٍ: ضعيف، رَخْو، هَشّ.

٥٣ ـ مَثَّلت الوجه أو الجسد: شوَّهته وقطعته وغيرت صورته ومعالمه.

حمزة (ع)، قطعت يديه ورجليه، وأخذتها وسائر ما قطعته من أعضائه فعلقتها على رأسها وبدنها كالزينة لها، فمنها ما جعلته قرطين في أذنيها، ومنها ما علقته على عنقها كالقلادة، ومنها ما جعلته سوارين في يديها أو خلخالين في رجليها، وهو (ع) زينة فرسان بني هاشم، وسيد الشهداء، وأسد الله وأسد رسوله.

ثم لما افتقده النبي (ص) عند الهدوء بقوله (ص): «مَن له علم بعمي حمزة؟»؛ قام الحارث بن صمة وقال: «أنا أعرف موضعه يا رسول الله»؛ ثم أقبل نحو الموضع، حتى إذا وقف على جثته ورأى ما فُعِل به من المثلة القبيحة، جلس في موضعه ولم يرجع بالخبر إلى النبي (ص) كراهةَ تبليغه بالفجيعة. ولما طال الانتظار بالنبي (ص)، أمر علياً أمير المؤمنين (ع) بقوله (ص): «يا علي، اطلب عمك»؛ فأقبل أمير المؤمنين (ع) يتفقده، إلى أن وقف على جثته ورأى تلك المُثْلَةَ المنكرة به، فجلس بجانب الحارث يبكي، وكره أن يرجع بالخبر إلى النبي. ولما رأى النبي إبطاءَهما في الرجوع، قام (ص) بنفسه في من معه إلى أن وقف على جنازة عمه، ورأى ما فُعِل به، فبكى عليه بكاء شديداً وهو يقول: «والله ما وقفتُ موقفاً قط أغيظَ من هذا! لئن أمكنني الله من قريش، لأُمَثِّلَنَّ بسبعين رجلاً منهم»؛ فنزل عليه (ص) قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾[54] ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[55] فقال (ص): «بل أصبِرُ!»؛ ومن ذلك اليوم نَهَى (ص) عن المُثْلَة ولو بالكلب العقور.

ثم ألقى على جثة عمه بردة كانت عليه، وكانت قصيرة على قامة حمزة (ع)، فمدها على رأسه ودعا له بإِذْخِر[56] وهو حشيش مخصوص،

---

٥٤ ـ ج ١٤، س ١٦ النحل: ١٢٦.

٥٥ ـ ج ١٤، س ١٦ النحل: ١٢٧.

٥٦ ـ إذْخِر: نبات حشيشي طيب الرائحة.

وستر به رجليه وهو يقول: «لولا حزن نساء بني عبد المطلب، لتَركتُه للعقبان والسباع، حتى يحشر يوم القيامة من بطون السباع والطير»؛ ثم صلى عليه بأصحابه، وكبَّر عليه سبعين تكبيرة، وأمر (ص) بدفنه في ثيابه ودمائه من غير تغسيل ولا تكفين.

ورأى النبي (ص) رجلاً من أصحابه قد فَوَّقَ[٥٧] سهماً ليرمي به رجلاً من المشركين، فانتهى النبي (ص) إليه ووضع يده فوق سهم الرجل، ثم أمره بالرمي فرمى، وهرب المشرك من سهمه يميل عن السهم يمنة ويسرة، وصار السهم يتبعه حيثما مال، حتى أصاب رأسه وسقط ميتاً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾[٥٨].

وذُكِر للنبي (ص) أن أحد أصحابه ـ واسمه قزمان ـ قد قُتِل، وجعل الناس يمدحونه بحسن معونته لإخوانه، وشدة اجتهاده في القتال، فأخبرهم النبي (ص) أنه من أهل النار، وانكشف لهم بعد ذلك أنه قتل نفسه، وأنه كان يقول: «والله ما قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت»؛ وأن ذلك كان سر إخبار النبي (ص) عنه بذلك.

وقد كان من أخبار معركة «أُحُد» أيضاً أن واحداً فقط من المشركين وقع أسيراً في أيدي المسلمين، اسمه عمرو بن عبد الله الشاعر الجمحي، وكان عمرو هذا قد امتنع أولاً عن الاستجابة لطلب صاحبه صفوان بن أمية (الذي أسلفنا أنه بعد معركة بدر كان يحرض الناس على النبي وعلى قتال المسلمين)؛ أما سبب تمنع عمرو. . الجمحي هذا عن محاربة النبي (ص)، فهو أنه كان قد أُسِر يوم «بدر» أيضاً، فتوسل حينها إلى النبي (ص) بأنَّ له خمس بنات ليس لهن شيء، وبعد إعطائه النبيَّ (ص) موثقاً بأن لا يقاتله

---

٥٧ ـ فوَّقَ السهم: وضع فُوقَةَ السهم (أي مَشَقَّ رأسه) في الوتر ليرمي به.

٥٨ ـ ج ٩، س ٨ الأنفال: ١٧.

بعدُ ولا يُكثر عليه أبداً، منَّ النبي (ص) وتصدق عليه فأعتقه من غير أن يأخذ أي فداء، ولم يمنّ على غيره من الأسارى مثله، ولذلك أبى الخروج مع صفوان إلى غزوة أُحُد. ولكن صفوان ألح عليه وضمن له أن يعطيه مالاً كثيراً، وأن يجعل بناته مع بناته هو، ولم يزل به حتى أجابه عمرو إلى ذلك، بل وأخذ يحرض العرب هو أيضاً على قتال النبي (ص) وخرج معهم. فلما انتهت الغزوة في أُحُد، أُسِر عمرو ثانية دون سواه؛ ولما أُحضِر بين يدي النبي (ص)، جعل أيضاً يتوسل إليه أن يمنّ عليه ويطلقه لأجل بناته، فقال (ص): «أين ما أعطيتَني من العهد والميثاق؟ لا والله لا تمسح عارضَيْكَ بمكة تقول: سَخِرْتُ بمحمد مرتين! إن المؤمن لا يُلْدَغُ من جُحرٍ مرتين!»؛ وأمر (ص) بقتله.

هذا ما كان في أرض أُحُد من أمر الغزوة، وأما ما كان في المدينة نفسها، فإن إبليس صرخ فيها صرخة أسمع بها كافة أهل المدينة «أن محمداً قد قُتِل»، فزلزلت بأهلها، وارتفع الصراخ في جوانبها وأصقاعها، ولم تبق هاشمية ولا قرشيةً إلا وقد وضعت يدها على رأسها تصرخ وتنوح، وولولت نساء المهاجرين والأنصار باكيات صارخات، وكادت فاطمة (ع) بنت رسول الله (ص) أن تزهق نفسها شفقةً على أبيها، فلم تملك نفسها من أن خرجت ماشية نحو أرض أحد، ومعها «صَفِيَّة» عمة رسول الله (ص) ـ وكان قد بلغها خبر شهادة أخيها حمزة (ع) ـ فلما رآهما النبي (ص) وفاطمة (ع) تعدو على قدميها، أمر علياً أمير المؤمنين (ع) ـ أو الزبير، ابن صفية ـ بحبس صفية كي لا ترى جثة أخيها حمزة بتلك الحالة المنكرة، وأن يُطلَق سبيل فاطمة (ع). فلما أقبلت فاطمة على أبيها، ورأت ما أصيب به من شج وجهه وقد أُدْمِيَ فمه، اشتد بكائها وصريخها، وأخذت تمسح الدم عن وجه أبيها (ص) وهي تقول: «اشتد غضب الله على مَن أدمَى وجه رسول الله!»؛ ثم جعلت تغسل وجهه الشريف، وعلي (ع) يأتيها بالماء في ترسه، وأخذت حصيراً فأحرقته وحشت به جرحه. وكان سالم مولى أبي حذيفة يشاركها في ذلك وهو يقول: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو

يدعوهم إلى الله؟»؛ ثم تقدم إليها أمير المؤمنين وقد خُضِبَت يده بالدم إلى كتفه، وناولها سيفه ذا الفقار وهو يقولُ لها: «خذي هذا السيف فقد صَدَقَني اليوم»؛ فتناولته فاطمة (ع) لتغسله من الدم، وجعل أمير المؤمنين (ع) يخاطبها بقوله:

أفاطمَ هاكِ السيفَ غيرَ ذَميمِ ... فلستُ بِرِعْديدٍ ولا بِلَئيمِ [٥٩]

لَعَمري لقد أعذرتُ في نَصر أحمدٍ ... ومرضاةِ ربٍ بالعباد رحيمِ [٦٠]

أريد ثوابَ الله لا شيءَ غيرَهُ ... ورِضوانَهُ في جنةٍ ونعيم

وكنتُ آمرءاً أسْمُو إذا الحربُ شَمَّرت ... أقامت على ساقٍ بغير مُليم [٦١]

أَمَمْتُ آبنَ عبدِ الدار حتى ضربتُهُ ... بِذي رَوْنَقٍ يَفري العِظام صميمِ [٦٢]

فغادَرْتُهُ بالقاعِ فآرْفَضَّ جَمْعُهُ ... عَبادِيدَ مِن ذي قانِطٍ وكليمِ [٦٣]

وسيفي بكفي كالشهابِ أَهُزُّهُ ... أجُزُّ به من عانقٍ وصميمِ [٦٤]

فما زلتُ حتى فضَّ ربي جُمُوعَهُمْ ... وآشفَيْتُ منهم صدرَ كلِ حَليمِ

وقال لها النبي (ص): «خذيه يا فاطمة، أدَّى بعلُك ما عليه، وقد قتل الله صناديد قريش بيده»؛ ثم سمع النبي (ص) عمرَو بنَ العاص والوليدَ بن عُقبة وهما في حائط يشربان الخمر ويغنيان شماتةً بالنبي (ص) في قتل عمه حمزة بقولهما:

---

٥٩ ـ غير ذميم: غير مذموم، ممدوح، مُحسِنٌ عمله ـ رعديد: شديد الجُبن ـ لئيم: دَنيء.

٦٠ ـ أعذَرْتُ: أدَّيتُ ما أُعْذَرُ عليه، فعلت المقدار الذي أُعذَر عليه وبه.

٦١ ـ شمَّرت الحرب: احتدمت ـ أقامت على ساقٍ...: اكتملت، تابعت معركتها.. دون نقص أو تهاون تلام عليه.

٦٢ ـ ذو رَوْنق: ذو بهاء وإشراق؛ يقصد السيف.

٦٣ ـ عباديد: فِرَق وجماعات ـ ذو قانط: يائس، مُخبَط ـ كليم، مكلوم: مجروح، جريح.

٦٤ ـ أَجُزُّ: أقطع، أقص ـ العانق: ما كان من العنق، أعلى البدن ـ الصميم: العظم الذي يقوم به العضو.

كَـمْ مِـن حَـوارِيٍّ تَـلـوحُ عِـظـامُـهُ   دَرْءاً لِـحـربِ أن تَـجُـرَّ فـيُـقْـبَـرا

فدعا النبي (ص) عليهما بقوله: «اللهم ٱلعنهما وأركسهما في الفتنة ركساً، ودُعَّهما إلى النار دعّا!»؛ وأنشأ علي (ع) في جوابهما أشعاراً منها قوله (ع):

فـإن تَـشْـمِـتْ بـحـمـزَةَ حيـن وَلَّـى   مـع الـشُـهَـداءِ مُـحْـتَـسِـبـاً شـهـيـدا
فـإنـا قـد قَـتـلْـنـا يـومَ بـدرٍ   أبـا جَـهْـلٍ وعُـتْـبَـةَ والـولـيـدا
وقَـتَّـلْـنـا سَـراةَ الـنـاسِ طُـراً   وغَـنَّـمْـنـا الـولايـدَ والـعـبـيـدا[65]
وشـيـبـةَ قـد قـتـلـنـا يـومَ ذاكُـمْ   عـلـى أثـوابـه عَـلَـقـا حـسـيـدا[66]
فَـبُـوِّيءَ مِـن جـهـنَّـمَ شـرَّ دارٍ   عليها، لم يَجِدْ عنها مَحيدا[67]
ومـا سِـيَّـانِ مَـن هـو فـي جـحـيـم   يـكـونُ شَـرابُـهُ فـيـهـا صَـديـدا[68]
ومَـن هـو فـي الـجِـنـانِ يُـدَرُّ فـيـهـا   عـلـيـه الـرزقُ مُـغْـتَـبِـطـاً حَـمـيـدا

إلى غير ذلك مما نسب إليه (ع) من الأشعار.

ثم إن النبي (ص) بعد اجتماع المنهزمين من أصحابه ولومه لهم على الفرار، أمر (ص) بجمع الشهداء من أصحابه ودفنِ جُثَثِهِم، وكان قد بلغ عددهم سبعين، منهم أربعة من المهاجرين فيهم عمه حمزة (ع)، واغتم المسلمون لما أصابهم، واعترضوا على النبي (ص) في ذلك مع ما كان قد وعدهم النصر، فنزل قوله تعالى مجيباً لهم: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾[69] يعني في غزوة بدر حيث قَتَلوا من المشركين سبعين وأسروا منهم سبعين ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾[69] حين خالفتم في بدر

---

٦٥ ـ غنَّمنا الولايد والعبيد: زدنا غنائم أولادنا وعبيدنا مما اكتسبناه وربحناه في الحرب منكم.

٦٦ ـ العَلَق: الدم.

٦٧ ـ بَوَّأَهُ: أحلَّه، أنزله في مكان، أعطاه مكاناً ـ بُوِّيءَ: جُعِلَ في...

٦٨ ـ الصديد: القَيح (= العَمَل) المختلط بالدم.

٦٩ ـ ج ٤، س ٣ آل عمران: ١٦٥.

رأي النبي (ص) حتى ألزمتموه بإطلاق الأسارى وقبول الفداء منهم طمعاً في المال، وقبلتم الشرط على أنفسكم أن يُقتَلَ منكم بعدَدِهم.

وبعد أن دَفَن المسلمون قتلاهم، كل اثنين منهم بأمر النبي في قبر واحد، إلا حمزة (ع) فإنهم دفنوه وحده في قبره، نظر النبي إلى جراحات أمير المؤمنين (ع)، فطلب شيئاً من الماء، فلما أُتيَ به مصَّه بفمه، ثم رشه على جراحاته، فبرئت من حينها حتى لم يبق لها أثر قَطّ.

ثم همَّ النبي (ص) بالرجوع بأصحابه إلى المدينة، وكان أبو سفيان قد انصرف أيضاً بمن معه من المشركين إلى مكة بعد أن نادى عند ارتحاله برفيع صوته في المسلمين يقول: «موعدنا وموعدكم في العام القابل»، وأمر النبي علياً بإجابته إلى ذلك. ثم ارتحل النبي بمن معه نحو المدينة، وبين يديه أمير المؤمنين علي (ع) وقد حمل رايته؛ فلما أشرف بالراية على المدينة، سمع رجلين يخبران الناس بقتل النبي، وأن علياً رجع وحده بالراية، فنادى علي (ع) في الناس برفيع صوته: «أيها الناس، هذا محمد رسول الله لم يمت ولم يقتل»، نادى بذلك ليمنع انهيار نفوسهم ويحميهم من الإحباط واليأس، ويقويهم ويرفع معنوياتهم بمعرفتهم الحقيقة وسلامة الرسول (ص)، وبخاصة بعدما بلغهم ما بلغهم من مأساة أُحُد ومقتل رجالاتهم.

ثم دخل النبي المدينة، فاستقبلته نساء الأنصار مخدشات الوجوه ناشرات الشعور، قد جززن النواصي ومزقن الجيوب، شفقةً على النبي (ص) عند سماعهن صوت إبليس بقتله، فجزاهن النبي خيراً، وأمرهن بالتستر والرجوع إلى منازلهن وهو يقول: «إن الله عز وجل وعدني أن يُظهِرَ دينه على الأديان كلها»؛ واستقبله الرجال المتخلفون عنه يتوبون إليه ويلوذون به، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[٧٠].

---

٧٠ ـ ج ٤، س ٣ آل عمران: ١٤٤.

وبعد ثلاثة أيام من دخول النبي (ص) المدينة، علم أن معاوية بن المغيرة دخل المدينة ـ ومعاوية هذا هو جد الخليفة الأموي (بعد يزيد بن معاوية وولده معاوية الثاني) عبد الملك بن مروان لأمه، وكان قد شارك في المُثْلة بحمزة (ع) وجدع أنفه، وقيل إنه كان أخاً لعثمان بن عفان من الرضاعة ـ فأَباح النبي (ص) دمه وأمر بطلبه، فدخل عندئذٍ على عثمان مستجيراً به فأجازه، بعد أن قال له: «أهلكتَني وأهلكتَ نفسك»؛ وأجابه معاوية قائلاً: «إنك أقربهم مني رحماً وجئتك لتُجيرني»؛ فأخفاه عثمان في ناحية من داره، وخرج إلى النبي يطلب له الأمان منه. وكانت الصحابة قد تفرقوا في طلبه، إلى أن قال بعضهم إنه لا يعدو دار عثمان، فدخلوا داره يطلبون معاوية فيها، فأشارت زوجة عثمان ـ وهي يومئذٍ أم كلثوم بنت رسول الله (ص) ـ إلى موضع اختفائه فيه، فاستخرجوه من تحت خماره[71]، وانطلقوا به إلى النبي (ص)، وإذا عثمان عنده يتوسل إليه بكل جد وإلحاح وأَيْمانٍ غليظة كثيرة يطلب منه الأمان لمعاوية، وأن يهبه له، إلى أن اَسْتَحْيَى النبي (ص) وأَجَّله ثلاثة أيام، وأقسم أن لو وجده بعد الثلاثة يمشي في أرض المدينة وما حولها، ليَقتُلَنَّه، (وقيل إنه (ص) لعن مَن يُؤويه ومَن يزوِّده ومن يشايعه أو يطعمه ويسقيه). فرجع معاوية إلى دار عثمان وأقام ثلاثاً عنده في إجارته ثم اشترى له عثمان بعيراً وجهزه له، وهيأ له زاداً وأخرجه في ظلمة الليل من المدينة، فخرج إلى نواحيها وأقام بها ولم يرتحل، وكان قَصْده أن يعرف أخبار النبي (ص) ويخبر بها قريشاً. ولما أصبح النبي (ص) في اليوم الرابع، قال (ص) لأصحابه: «إن معاوية أصبح قريباً لم يَبعُد، فاطلبوه»؛ فتفرق الناس في كل ناحية في طلبه، إلى أن أدركه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر بالحِمَى من بعض نواحي المدينة، فضربه زيد بالسيف ورماه عمار بالسهم إلى أن قتلاه، (وقيل إنهما قطعا رأسه وأتيا به إلى النبي)، فرآه عثمان وغضب من ذلك غضباً شديداً؛ ثم

71 ـ خِماره: مخبئه، مكان استتاره.

رجع إلى بيته وقد ظن أن زوجته أخبرت النبي (ص) بقصة بقاء معاوية في الأيام الثلاثة عنده، فلم يزل ينتقم منها بالضرب الموجع حتى أدمى بدنها بجراحات كثيرة أدت إلى وفاتها بعد ثلاثة أيام، وبكى عليها النبي (ص) بكاءً شديداً.

❁ ❁ ❁

بين «أُحُد» و «الخَنْدَق»

جرت بعد معركة «أُحُد» وقبل وقعة «الخندق» ـ التي تسمى أيضاً وقعة «الأحزاب»، والتي كانت من الوقائع المهمة في تاريخ المسلمين قبل الفتح ـ عدة وقائع بين غزوات وسرايا، لقي فيها المسلمون كثيراً من العنَت والضَيْم، ولكنهم أظهروا تمسكاً بإسلامهم وإيمانهم وموالاة نبيهم (ص).

غزوة حمراء الأسد:

أول تلك الغزوات بعد أُحُد كانت غزوة «حمراء الأسد» التي وقعت بعد أُحُد بثمانية أيام فقط، وقد كان من أمرها أن أبا سفيان ومن معه من المشركين، حين رجعوا من غزوة أُحُد، ـ وكانوا قد بلغوا منزلاً في طريق مكة يقال له «الروحاء» ـ، ندموا على انصرافهم، وأخذوا يلومون أنفسهم ويقول بعضهم لبعض: «لا محمداً قتلتم، ولا الجواري أسرتم، قتلتموهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد المنهزم المتفرق، تركتموهم وانصرفتم راجعين»؛ إلى أن قالوا: «فارجعوا وأستأصِلوهم، فإنا قد أصبنا جُلَّ أصحابهم وقادتهم وأشرافهم ورجعنا قبل أن نستأصلهم»؛ ولم يزالوا يتكلمون في ذلك إلى أن اتفقت كلمتهم على الرجوع إلى المدينة ليغِيروا على أهلها. ونزل الوحي على رسول الله يخبره بذلك، ويأمره أن يخرج ثانياً من المدينة بمن معه من الجرحى من أصحابه، ليلتقي جموع أبي سفيان إرهاباً لهم، وأن لا يخرج معه إلا مَن كان به جراحة من غزوة أحد، ونزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟

تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾[2]، فأذَّنَ مؤذنُ النبي (ص)، فاجتمع الناس، فندبهم للخروج في طلب العدو بعدما أخبرهم بما أوحي إليه من قصد المشركين للرجوع، وبلَّغهم أمرَ الله له أن يخرج في أثرهم ليرهبهم، ويُعرّفهم أنه خرج في طلبهم فيظنوا به قوة، وأن ما أصابه لم يوهِنْه عن عدوه. ثم أمر المنادي أن ينادي في أصحابه: «ألاَ لا يَخرُجَنَّ معنا إلاَ مَن حضر بالأمس غزوة أحد، إلا مَن كانت به جراحة فليُقِم»؛ فانتدب عصابة منهم ليعالجوا ما بهم من القروح والجروح، وأقبلوا يضمدون جراحاتهم مستعدين للخروج. ثم نادى النبي (ص) فيهم: «أي رجل يأتينا بخبر القوم؟»؛ (يعني أبا سفيان ومن معه)، فلم يجبه إلا أمير المؤمنين علي (ع)، فقام وقال: «أنا يا رسول الله آتيكم بخبرهم»؛ فقال له النبي (ص): «اذهب يا أبا الحسن فانظر، فإن كانوا ركبوا الخيلَ وقادوا الإبلَ إلى جانبهم فإنهم يريدون المدينة، واللهِ لئن أرادوا المدينة لأُنازِلَنَّ الله فيهم؛ وإن كانوا ركبوا الإبل وجنَّبوا الخيل، فإنهم يريدون مكة»؛ فخرج أمير المؤمنين (ع) وحده، ثم خرج النبي (ص) كسائر قومه من خُزاعة، لأنهم بأجمعهم ـ مسلمهم وكافرهم ـ كانوا موضع سر النبي (ص) بتهامة، وعيناً له على العدو عند حاجته (ص) إلى ذلك. وكانت صَفْقَتُهم معه أن لا يخفوا عنه شيئاً، فأقبل إليه (ص) الرجل يقول: «والله يا محمد لقد عز علينا مصابك في قومك وأصحابك، ولَوَدِدنا أنَّ الله أعفاك عن قتالهم». ثم إن معبداً لما عرف قصد النبي (ص)، وأن خروجه لم يكن إلا لإرهاب المشركين، خرج من عند النبي (ص) ليلاقي أبا سفيان وصحبه ويُجْبِنُهُم عن قتال النبي (ص)، فانطلق حتى انتهى إلى القوم في «الروحاء». ولما أشرفَ عليهم، استقبله رؤساء القوم، كأبي سُفيان، وعِكرِمة بن أبي جهل، والحارث، وعمرو بن العاص،

---

١ ـ ج ٥، س ٤ النساء: ١٠٤.
٢ ـ ج ٥، س ٤ النساء: ١٤٠.

وخالد بن الوليد، وأمثالهم ممن كان يحرضون المشركين على الرجوع إلى المدينة وإغارتها، فأقبلوا على معبد يسألونه عما وراءه، فقال: «إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمعٍ لم أرَ مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، ويلتهبون غيظاً، ويحكون أسنانهم غضباً عليكم، وقد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على صنيعتهم، وفيهم مِن الحنق عليكم ما لم أر مثله قط»؛ فقال أبو سفيان: «ويلك يا معبد ما تقول؟»؛ قال: «والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصِيَ الخيل»؛ قال أبو سفيان: «فوالله لقد أجمعنا الكَرَّة عليهم لنستأصلهم»؛ قال: «إني لأنهاك عن ذلك، فواللهِ لقد حملني ما رأيتُ على أن قلتُ فيه أبياتاً من الشعر»؛ فسأله أبو سفيان عن ذلك، فأنشأ يقول:

كادتْ تُهَزُّ مِن الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ[3]
تَـرْوَى بـأُسْـدٍ كِـرام لا تَـنـابِـلَـةٍ ... عـنـد الـلـقـاء ولا خُرْقٍ مَـعـاذيـلِ[4]
فظلتُ أعْدُو أظنُّ الأرض مائلةً ... لَـمّـا سَـمَـوا برئيسٍ غير مخذول
وقلتُ وَي لِابنِ تَربٍ مِن لِقائِهِمُ ... إذا تَغَطْمَطَتِ البَطْحا لَنَا بِخُيولِ[5]
إِنـي نـذيرٌ لِإهـلِ الـسَـيـر ضـاحـيـةً ... لِـكـلِ ذي إرْبَـةٍ مـنـهُـمْ ومـعـقـولِ[6]

---

٣ ـ تُهَزّ: تسارع وتركض مهتاجة ـ الجُرْد: الخيل دون رجالة فوقها ـ أبابيل: جماعات وفرق متتابعة.

٤ ـ تنابلة: كسالى، بُلَداء ـ خُرْق: (جمع أخرق: أحمق) ـ معاذيل: يُعذَلون، يُلامون.

٥ ـ وَيْ: صوت تعجُب، أو عبارة زَجْر ـ تَرب (بفتح التاء وضمها): التراب، فابن الترب: الإنسان ابن التراب، أو (هُنا): مَن قد يُقتَل ويعود تراباً ـ تَغَطْمَطَ: غمر وثار وهاج وغطّى.

٦ ـ إنني أنذر وأخبر بالخطر مَن يسيرون ضُحىً ـ أنذِرُ كل ذي إربة، أي كل ذي هدف خاص منهم وكل مَن له غَرَض أو نية عمل ـ و (نذير) كل صاحب قول (منهم) أو عملٍ معقول (مقبول عقلاً).

مِن جيشٍ أحمدَ لا وَخْشٌ لَنابلةٍ وليس يوصف ما أثبتُّ بالقيل[7]

ولم يزل يجبنهم بكلماته وأشعاره، ويخوفهم من رسول الله (ص) وجيشه، إلى أن ثبطهم عن عزمهم، وملأ قلوبهم الرعب، وثنى أبو سفيان ومن معه أَزِمّةَ خيولهم للعودة نحو مكة يقولون: «هذا النَّكَد والبَغْي، قد ظَفِرنا بالقوم وبَغَينا! والله ما أفلح قومٌ بَغَوا قط». ثم همّ القوم بالانصراف، ولم يروا بداً من الرجوع إلى مكة، فارتحلوا من منزلهم راجعين.

والتقوا في الطريق بركب من بني عبد قيس، فتقدم إليهم أبو سفيان يسألهم عن مقصدهم، قالوا: «نريد المدينة للطعام والتجارة»؛ قال: «فهل أنتم مبلّغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه، واحمّل لكم إِبِلَكم هذه غداً زبيباً إذا وافيتمونا بعكاظ؟»؛ قالوا: «نعم»؛ قال: «إذا جئتموه فأخبروه أنّا قد أجمعنا الكرَّة إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم»؛ فأجابه الركب إلى ذلك وانصرفوا عنه حتى إذا انتهوا إلى حمراء الأسد، أقبلوا على النبي(ص) وأصحابه يسألونهم: «أين تريدون؟»؛ قالوا: «قريشاً»؛ قالوا: «ارجعوا، فإن قريشاً قد اجتمعت إليهم حلفاؤهم ومَن كان تخلف عنهم، وما نظن إلا وأوائل خيلهم تطلع عليكم الساعة»؛ فرد النبي (ص) وأصحابه عليهم يقولون: «لا نبالي ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[8]، فنزل جبرائيل على النبي (ص) يقول: «ارجع يا محمد، فإن الله قد أرعَبَ قريشاً ومَرُّوا لا يَلوُون على شي»؛ فرجع النبي (ص) بمن معه إلى المدينة بعافية من السوء والقتال، وبنعمة من الله وفضل منه تعالى بالأجر والمثوبة والتجارة الرابحة، ونزل فيهم قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ، ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ

---

٧ ـ الوَخْش: رمي السلاح تخففاً منه للهرب ـ النابلة: حاملو النِبال ـ وليس يوصَف. . . : القول لا يفي بوصفهم.

٨ ـ القرآن الكريم، ج ٤، س ٣ آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٤.

ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ، فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[8]. وتبع عليٌ (ع) جيوشَ المشركين بأمر من رسول الله (ص)، ولما لحقهم مُصْلِتاً سيفه ازدادوا خوفاً ورعباً، وتوجه إليه أبو سفيان وقال: «يا علي ما تريد منا؟ ها نحن ذاهبون إلى مكة، فانصرِف إلى صاحبك»؛ فانصرف علي (ع) راجعاً.

وجدَّ القوم في السير خوفاً من لحاقِ عسكر النبي بهم، وكان جبرائيل يَتبعُهم ويُسمِعهم وقع حوافر الخيل وهم يقولون: «هو ذا عسكر محمد»، ويُسرعون في العَدْو والهزيمة إلى أن دخلوا مكة، وأقبل أهلها يَعذُلونهم ويلومون أبا سفيان على جبنه وهزيمته؛ ثم قَدِمَ الرعاةُ والحطابون وأخبروهم أنهم رأوا فارساً على فرس أشقر يتبع أبا سفيان وصحبه.

ثم إن النبي (ص) بعد دخوله المدينة، مر على دُور جماعة من أصحابه الذين استُشهِدوا في أُحُد، فسمع نَوح النواحي يبكين على قتلاهن، فترقرقت عيناه بالدموع، وأقبل يبكي على عمه حمزة وهو يقول: «ولكن حمزةَ لا بَواكيَ له اليوم»؛ فسمع أصحابه كلامه، فأمروا نساءهم أن لا تبكي امرأة على حميمها إلى أن تأتي فاطمة (ع) وتشاركها في البكاء على حمزة قبل أن يبكين على قتلاهن، فجرت العادة بذلك بعدئذٍ، وسمع النبي (ص) ذات يوم الواعية[9] على حمزة، فترحم على النساء النواحي وشكرهن؛ وكان بعض نساء الأنصار تأتي إليه تنظر في وجهه (ص) وتقول له: «كل مصيبة جَلَلٌ بعدك».

---

٨ ـ القرآن الكريم، ج ٤، س ٣ آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٤.

٩ ـ الواعية: الصراخ.

واقعتا «الرجيع» و«بئر معونة»

ثم كانت بعد غزوة «حمراء الأسد» واقعتا «الرَجيع» و «بئر مَعُونة» اللتان غدر فيهما جمعان من المشركين بالنبي (ص) والمسلمين، وقد حَدَثتا بعد غزوة أُحُد بأربعة أشهر.

الرجيع

أما الأولى الرجيع، أي حادثة الرجيع، فكان من قصتها أن جمعاً من بني «عَضَل» و «القارة»[١٠] جاؤوا إلى المدينة وقدموا على النبي (ص) فقالوا له: «إن فينا إسلاماً، فابعث لنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن»؛ فبعث معهم ستة من أصحابه (وقيل: عشرة) لِيُعلِّموهم شرائع الإسلام، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت (وقيل مرثد بن أبي مرثد الغنوي)، فلما وصلوا إلى ماءٍ لبني «هُذَيل» بناحية من الحجاز يقال له «الرَجيع»، غدروا بالمسلمين وقتلوا ثلاثة منهم، هم مرثد وعاصم ـ المذكوران ـ وخالد بن البكير، واستسلم إليهم الثلاثة الباقون بعد أن عاهدهم المشركون على أن لا يؤذوهم قائلين لهم إنهم إنما أرادوا أن يساوموا بهم على إصابة شيءٍ من أهل مكة، ولكنهم قَتلوا بعداً واحداً منهم، وباعوا الاثنينِ الآخرَيْنِ إلى قريش بأسيرينِ من هذيل كانا بمكة.

وقد أرادت هذيل أن تبيع رأس عاصم لامرأة تدعى سلافة بنت سعد ابن شُهَيد الأنصارية، كان عاصم قد أصاب ابنَيْها يوم أُحُد، فنذرت قائلة: «لَئِن قَدرتُ على رأس عاصم، لأشربن الخمر في قَحْفِهِ» (أي عظم جمجمته) الذي فوق دماغه؛ ولكن الدَبْر (الزنابير والنحل) حالت بينهم وبينه، فقالوا: «دعوه حتى يُمسي، فتذهب الدَبر ليلاً عنه فنأخذه»؛ فبعث الله ماءَ الوادي، فاحتمل عاصماً وذهب به، وكان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لا يَمَسَّهُ مشركٌ ولا يَمَسَّ هو مُشركاً، تَنَجُساً، فحقق الله تعالى له عهده ذاك، ومنعه وحماه من المشركين حتى بعد وفاته.

---

١٠ ـ جاء اسماهما في الطبعة الأولى: العضل والديش ـ أو الدبش.

وقد قيلت أشعار كثيرة في هذه الواقعة، وفي ذم هُذَيل وغدرهم برسول الله وأصحابه (مرثد وعاصم وخُبَيْب بن عدي. . .)، منها هذه الأبيات، من جملة عدة قصائد لحسان بن ثابت:

لَعَمري لقد شانَتْ هُذَيْلَ بنَ مُدْرِكٍ ... أحاديثُ كانت في خُبَيْبٍ وعاصِمِ [١١]
هُمُ غَدَروا يومَ الرَّجيعِ وأسلَمَتْ ... أمانتهُمْ ذا عِفةٍ ومَكارمِ [١٢]
رسولَ رسولَ الله غدراً ولَمْ تَكُنْ ... هُذَيْلُ تَوَقَّى مُنكَراتِ المَحارمِ [١٣]
فسوف يَرَونَ النصر يوماً عليهِمُ ... بقتلِ الذي تحميه دون الحرائمِ [١٤]
أبابيلُ دَبْرٍ شُمَّسٍ دونَ لَحمِهِ ... حَمَتْ لحمَ شَهَّادٍ عِظامَ الملاحِمِ [١٥]

بئر معونة

أما الحادثة الثانية، حادثة «بئر معونة»، فقصتها أن سيد «بني عامر بن صعصعة»، أبا بَراء عامر بن مالك بن جعفر ـ الذي كان يُلقَّب «مُلاعِب الأسنة» ـ قَدِم على النبي (ص) في المدينة، وأهدى له هدية، فردَّها الرسول (ص) وقال: «يا أبا براء، لا أقبل هدية مشرك، فأَسلِم إن أردتَ أن أقبل هديتَك»، وعرض عليه ما وعد الله به المؤمنين من الثواب، فلم يستجب، ولكنه لم يكن بعيداً عن الدعوة الإسلامية، وقال للنبي (ص): «يا

---

١١ ـ شانَتْ: ألحقَت الشَين والعار بسُمعة أبناء «هُذَيل بن مدرك» الأحاديث التي كانت في شأن خبيب وعاصم.

١٢ ـ أمانتُهم (الناقصة، غير الأمينة) أَسلَمَتْ (وأحالت إلى الموت) عاصِماً رسولَ رسول الله ذا العفة والمكارم.

١٣ ـ تَوَقَّى: تتوقى ـ ليست هذيل تتوقى (ليست مِن مَن يتوقون ويتجنبون) المحرمات المنكرة.

١٤ ـ سوف يرون النصر عليهم بسبب قتلهم الذي تحميه من الحرائم أبابيلَ الدَبر [كما في أول البيت الذي بعده]: أي جماعات الزنابير.

١٥ ـ أبابيل: جماعات ـ الدَبْر: الزنابير والنحل ـ شُمَّس: صعب إخضاعها وترويضها ـ شَهَّادٍ عظيم الملاحم: مَن يشهد ويحضر الملاحم (المعارك) العظيمة.

محمد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فَدَعَوهم إلى دينك، رجوتُ أن يستجيبوا لك»؛ فقال الرسول (ص): «إني أخشَى عليهم أهل نجد»؛ فقال أبو براء: «أنا جار لهم»؛ أي أنا أجيرهم، وأتكفل بحمايتهم.

فبعث النبيُ (ص) المنذرَ بن عمرو في سبعين ـ وقيل: أربعين ـ رجلاً، فساروا حتى نزلوا أرض «بئر معونة»، وأرسل المنذرُ بن عمرو من هناك «حَرام بن مِلحان» بكتاب النبي (ص) إلى «عامر بن الطفيل»، فلما أتاه حرام، لم ينظر عامر في كتاب النبي (ص)، بل عدا على حرام فقتله، فلما طعنه صرخ حرام قائلاً: «فُزْتُ وربِ الكعبة»؛ واستصرخ عامرُ بن الطفيل «بني عامر بن صعصعة» ليهجموا على المسلمين ويقتلوهم، فلم يجيبوه، رعايةً منهم للعهد الذي قطعه سيدهم أبو براء للنبي، ولخَفْرِهِ وإجارته المسلمين، فاستصرخ ابن الطفيل عندئذ «بني سُليم» فأجابوه، وخرجوا فأحاطوا بالمسلمين فقاتلوهم وقتلوهم، إلا واحداً هو «كعب بن زيد الأنصاري» الذي كان مطروحاً بين القتلى، وبه رَمَق، وقد عوفي بعد ذلك وعاش (إلى أن قُتِل بعدئذٍ يوم الخندق). كذلك لم يُقتَل في تلك المعركة اثنان آخران من المسلمين لم يكونا موجودَينِ عند قتل أصحابهما لأنهما كانا قد ذهبا لسرح الدواب، فلما رجعا إليهم ونظرا إلى ما أصابهم، حمَلَ أحدُهما على القوم (وكان من الأنصار) وقاتل حتى قُتِل، وأخذوا الآخر (وكان من المهاجرين واسمه عمرو بن أمية) أسيراً؛ فلما عرف عامر بن الطفيل أنه من مضر، أطلقه بعد أن جز ناصيته، فرجع الرجل إلى المدينة، وأخبر النبي (ص) بخبر القوم، فغضب (ص) واستاء كثيراً، وجعل يقول: «هذا عمل أبي براء، وقد كنت لهذا كارهاً»؛ وأنزل الله على نبيه (ص) في أولئك الشهداء ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[16]. وقيل إن المشركين أسروا يومئذٍ ثلاثة من المسلمين، وفعلوا بهم

١٦ ـ ج٤، س٣، آل عمران: ١٦٩.

من الأذى والاسترقاق والبيع ثم القتل والصلب شيئاً كثيراً يطول المقام بذكر شرحه.

وقد أنشد حسان بن ثابت وكعب بن مالك بعد تلك الواقعة أشعاراً في ذَم عمل عامر بن الطفيل، وفي إثارة حمية بني عامر بن صعصعة (قوم أبي براء) عليه، منها قول حسان:

بني أمِ البنينَ ألَمْ يَرُعْكُمْ وأنتم من ذوائب أهلِ نَجْدِ[17]
تَهَكُّمُ عامرٍ بأبي بَراءِ ليخفره، وما خطأ كعَمْدِ

وقول كعب من جملة أبيات له:

أعامِرَ عامِرَ السَوْءات قِدْماً فلا بالعقل فُزتَ ولا الثَناءِ
أأخفرتَ النبيَّ وكنتَ قِدماً إلى السَوْءات تجري بالعراءِ

ولما بلغ ربيعة بن أبي براء بعدئذٍ، ما فعل عامرُ بن الطفيل من غَدره بالمسلمين وإخلاله بخفارة أبيه «ملاعب الأسنة» لهم، وكذا ما قاله حسان وكعب من أشعار في أبيه وخفارته، حمل على ابن الطفيل فطعنه طعنة خرَّ بها عن فرسه.

غزوة بني النضير:

ثم كانت بعد حادثة «بئر معونة» غزوة «بني النضير»، وهم بطن من اليهود بقرية يقال لها «زهرة» قريباً من «الفُرُع» بناحية المدينة؛ وكانوا ورئيسهم كعب بن الأشرف قد عاهدوا النبي (ص) عند هجرته إلى المدينة، أن يكونوا لا له ولا عليه. ولما كانت غزوة بدر وصار النصر والغلبة فيها للمسلمين، ازداد اليهود يقيناً بنبوة محمد (ص)، وتذاكروا بينهم في ذلك،

---

١٧ ـ يَرُعْكم (مجزومة مِن يَروعكم): يُثيركم، يهيجكم، يخيفكم ـ ذوائب، جمع ذؤابة: ربطة الشَعر المضفور بأعلى الرأس؛ ذؤابة الشيء: أعلاه؛ ذؤابة القوم: المُقدَّم فيهم، أعلاهم.

إلى أن وقعت غزوة أُحُد وأصيب المسلمون؛ فارتاب أولئك اليهود في نبوته (ص) ونقضوا عهده، واتفق رئيسهم كعب بن الأشرف مع أبي سفيان على حرب النبي، ثم رجع من مكة إلى أصحابه بالمدينة وهمَّ بالغدر بالنبي (ص) بشرح طويل، ولكنه لم يتمكن من ذلك، بل وبعث النبيُّ أخاه من الرضاعة محمد بن مسلمة فقتله (كما مر شرح ذلك عند ذكر سرية محمد بن مسلمة).

ثم هم قومه بإلقاء صخرة على رأس النبي (ص) عندما كان جالساً بفِناء بعض دورهم، ونهاهم عن ذلك رجل منهم اسمه «سلام بن مشكم» خوفاً من نزول الوحي عليه في ذلك، فلم يعبأوا بكلامه؛ ونزل الوحي على النبي (ص) يخبره بما همَّ به القوم، فقام (ص) وانصرف إلى المدينة.

وأحس القوم بالشر حتى قال لهم أعلَمُهم «عبدالله بن صوريا» ان: «ربه أطلعه على ما أردتموه من الغدر، ولا يأتيكم والله أول ما يأتيكم إلا أمر محمد يأمركم بالجلاء، فأطيعوني في خصلة لا خير في غيرها، وهي أن تُسْلموا فتأمنوا على دياركم وأموالكم، وإلا فإنه يأتيكم ويقول لكم: اخرجوا من دياركم»؛ قالوا: «إن هذه أحب إلينا»؛ فقال: «أَمَا إن الأُولَى خير لكم من ذلك، ولولا أني أفضحكم لأسلمت»؛ فلم يعبأوا به ولم يقبلوا نصيحته. وكان المقاتل فيهم يعادل ألف نسمة، وكانوا أحسن حالاً وأغنى مالاً من البطنينِ اليهوديين الآخَرَينِ القريبَيْنِ منهم «بني قريظة» و «بني قينقاع». وكان بين بني قريظة وهم سبع مئة مقاتل، وبين بني النضير اختلاف قديم، رغم ما كان بينهما من القرابة، لأنهما كليهما كانا من ذراري هارون (ع)، ولكنهما تصالحا يومئذٍ واتفقا على نقض عهد رسول الله (ص).

ثم إن النبي لما سَلِمَ من الغدر ورجع إلى المدينة، نادى مناديه في أصحابه بالسير إلى «بني النضير» وحربهم، وتبادر المسلمون إلى ذلك،

فخرج (ص) بهم حتى نزلوا بمكان قريب من اليهود، فتحصن القوم في حصونهم، وحاصرهم المسلمون وقطعوا من نخلاتهم ستاً وأحرقوها، فكبر ذلك عليهم لأن ثمن النخلة عندهم كان ثمن مملوك وأحبَّ إليهم من مملوك، فجزعوا من ذلك، وجعلوا ينادون: «يا محمد، قد كنت تنهانا عن الفحشاء، فما بالك تقطع النخيل وتحرقها؟ إن كانت هي لك فخذها، وإن كانت لنا فلا تقطعها»؛ فأمر النبي (ص) محمد بن مسلمة أن ينطلق إليهم، ويعرّفهم أن الله عز وجل قد أخبره بما همُّوا من الغدر به، وأن يقول لهم: «إما أن تخرجوا من بَلَدنا ولا تُساكِنونا وقد هَمَمْتُم بما هممتم به، وإما أن تستعدوا للحرب، وقد أجَّلتكم عشرا»، فلما بلَّغهم ابنُ مسلمة أمر النبي (ص) بالجلاء، قالوا: «إلى أين نخرج؟»؛ فقيل لهم بأمر النبي: «اخرجوا إلى أرض المحشر»؛ وهي أرض الشام، لأن منها ـ يُقال ـ يكون المحشر يوم القيامة؛ فجعل القوم أثناء مدة الأجل يتشاورون في أمرهم، إلى أن أجمعت آراؤهم على الجلاء، وبعثوا إلى النبي (ص) يقولون: «يا محمد، نخرج من بلادك، واعطنا أموالنا»؛ قال (ص): «لا، ولكن تخرجون ولكم دماؤكم، وما حملت الأبلُ من أموالكم إلا السلاح»؛ فلم يقبلوا ذلك، ومكثوا أياماً يتفكرون بينهم في أمرهم.

وكان في المسلمين منافق اسمه «عبدالله بن أُبَيّ» كان يهودياً تظاهر بالإسلام، وكانت أمه من بني النضير، فأرسل إليهم أن «لا تخرجوا من دياركم، وإني آتي محمداً فأكلّمه فيكم، أو أدخل معكم الحصن، وإن معي ألفين من قومي وغيرهم، يدخلون حصونكم فيموتون عن آخرهم في نصرتكم، ويُمِدكم بنو قريظة وحلفاؤهم من غطفان، فأقيموا ونابذِوا محمداً الحرب، وإني أنصركم أنا وقومي وحلفائي، إن خرجتم خرجنا معكم، وإن قاتلتم قاتلنا معكم»؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا

يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[18]؛ فاغتر القوم بأكاذيبه، وطمعوا في الغلبة على المسلمين، فقاموا يصلحون حصونهم ويستعدون للقتال، إلى أن بعثوا إلى النبي (ص) يقولون: «إنا لا نخرج، فاصنع ما أنت صانع».

فقام (ص) عندئذٍ وكبَّر وكبَّر أصحابُه، وانطلق بهم نحو الحصون، وكان بين يديه أمير المؤمنين علي (ع) حاملاً رايته، إلى أن دخل مسجد «قبا» فصلى بهم، ثم سار بهم نحو القوم إلى أن بلغ الحصن. وكان القوم حينئذٍ ينظرون إليه خائفين فَزِعين منه، فضُربت قُبَّتُه في مكان مرتفع؛ واستعد القوم لرمي السهام والحجارة. ولما أقبل الليل رمى قبةَ النبي (ص) رجلٌ منهم يقال له «عزورا» بسهم أصاب القبة، فأمر (ص) بتحويلها إلى سفح الجبل، وأحاط به المهاجرون والأنصار.

ولما اختلط الظلام، فقد الناس علياً (ع)، وأخذوا يسألون النبي عنه وهو (ص) يقول: «أراه في بعض ما يصلح شؤونكم»؛ ثم ظهر أمير المؤمنين علي (ع)، وإذا هو يحمل رأس عزورا بيده، ثم طرحه بين يدي النبي (ص). وسأله النبي عن قصته، فقال (ع): «إني رأيت هذا الخبيث جريئاً شجاعاً، وكمنت له إلى أن اختلط ظلام الليل، فرأيته قد خرج من الحصن في تسعة من اليهود مُصلتاً سيفه يطلب المناجزة، فشددت عليه إلى أن قتلته، وأفلت أصحابه ولم يبعدوا، فابعث معي نفراً فإني أرجو أن أظفر بهم»؛ فبعث النبي معه عشرة من أصحابه، فبادروا مسرعين ليلحقوا بالقوم حتى أدركوهم قبل أن يلتجئوا إلى الحصن، حتى قتلوهم عن آخرهم، وجاؤوا برؤوسهم إلى النبي (ص)، فطرحت بأمره في بعض آبار هناك لبني «حُطَمة». عند ذلك ملئت بنو النضير رعباً وخوفاً، واعتزل عنهم بنو قريظة، وغدر بهم ابن أُبيّ ولم يدخل معهم، وقد أخبر الله سبحانه بذلك قبل وقوعه بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾[18] وجعلوا يرمون النبي

---

١٨ ـ ج ٢٨، س ٥٩ الحشر، الآيتان: ١١ و ١٢.

وأصحابه بالنبال والأحجار من وراء الجدران، من غير أن يخرجوا من حصونهم فزعاً من المسلمين.

ثم ازدادوا خزياً وخذلاناً باختلاف كلمتهم في ما بينهم، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[19]؛ إلى أن أحاط المسلمون بحصونهم يهدمونها من خارجها ليهاجموهم، وهم يتراجعون من حصن إلى داخل حصن، وكلما أخْلَوا حصناً هدموه وخرَّبوا من داخله ما استحسنوا منه كي لا ينتفع به المسلمون، أو لكي يكون موضع الخراب مهرباً لهم إذا اضطروا إليه، وقد أشار الله سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[20]؛ إلى أن ضاق عليهم الأمر بعد حصارهم إحدى وعشرين ليلة، فبعثوا إلى النبي (ص) يقولون: «يا محمد، نخرج من بلادك، ولنا ما حَمَلَت الإبلُ كما قلت لنا أولاً»؛ فقال (ص): «لا، ولكن تخرجون ولا يحمل أحد منكم شيئاً، فمن وجدنا معه شيئاً من ذلك قتلناه»؛ ووعدهم أن يحقن لهم دماءهم إذا خرجوا، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء.

فحملوا النساء والصبيان على الأباعر، وخرجوا أذلاء صاغرين بعد اغترارهم بقول ابن أُبَيّ وبعددهم، وضرب الله لهم مثلاً حال المشركين في غزوة بدر، وخزيهم بعد غرورهم بعدتهم وعددهم، وذلك بقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[21]؛ ثم ضرب تعالى الشيطان وإغواءَه الإنسان مثلاً لابن أبيّ وأصحابه المنافقين في تغريرهم لبني النضير وخذلانهم لهم، وذلك بقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ

---

١٩ ـ ٢٨، س ٥٩ الحشر: ١٤.
٢٠ ـ ج ٢٨، س ٥٩ الحشر: ٢.
٢١ ـ ج ٢٨، س ٥٩ الحشر: ١٥.

﴿قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾[22]. وأنشد حسان بن ثابت يومئذٍ في مدح أمير المؤمنين علي (ع) عند قتله «عرورا» وأصحابه التسعة من اليهود قوله:

لله أيّ كريهةٍ أبليتَها ... ببني نَضيرٍ والنفوسُ تَطلَّعُ[23]
أرْدَى رئيسَهُمُ وآبَ بتسعةٍ ... طَوراً يَشُلُّهُمُ وطوراً يَدفعُ[24]

ثم سارت اليهود بأجمعهم إلى «أذرِعات» و «أريحا» من أرض الشام[25]، ما عدا آل «أبي الحقيق» وآل «حي بن أخطب»، فإنهما لحقا بأرض «الحيرة» و «خَيْبَر»، وصارت أرض الشام يومئذٍ أرض أول حشر لليهود، ويكون حشرهم الثاني منها أيضاً[26]، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾[27] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا﴾[28] أي بالقتل والأسر.

وغنم النبي (ص) أموالهم، وفيها من السلاح خمسون درعاً وخمسون بيضة وثلاث مئة وأربعون سيفاً، ثم قال للأنصار من أهل المدينة: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دياركم وأموالكم على أن تشاركوهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يُقسَم لكم شيء من

---

٢٢ ـ ج ٢٨، س ٥٩ الحشر: ١٦.
٢٣ ـ تَطلَّع: تَتطلَّع.
٢٤ ـ آبَ: رجعَ ـ يَشُلُّهم: يقطعهم، . . أو: يفرقهم ويبعثرهم ـ يَدفعهم: يُبعدهم، يردهم (قبل مقتلهم).
٢٥ ـ بلاد الشام تعني البلاد التي في شمالي الجزيرة العربية.
٢٦ ـ هذا القول الذي ينقله المؤلف (قدس سره) عن مراجع بين يديه، يوحي بأن لليهود جلاءً آخر (ثانياً) عن بلاد الشام.
٢٧ ـ ج ٢٨، س ٥٩ الحشر: ٢.
٢٨ ـ ج ٢٨، س ٥٩ الحشر: ٣.

الغنيمة»؛ فقالوا: «بل نَقسم لهم من أموالنا، ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها»؛ فنزل قوله تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾[29]. ثم حاز (ص) ما لنفسه من الغنيمة على حسب القسمة بين المهاجرين خاصة، وجعله صدقة، وقد كانت في يده مدة حياته، ثم من بعده كانت لأمير المؤمنين علي (ع)، ومن بعده لِوُلْدِ فاطمة (ع).

غزوة ذات الرقاع:

ثم كانت في شهر جمادى الأولى، بعد غزوة بني النضير بشهرين، غزوة «ذات الرقاع» ـ وتسمى بغزوة «عسفان» أو «بني لحيان» أو «غطفان» ـ وكان من قصتها أنه لما رجع النبي (ص) من غزوة بني النضير، وأقام في المدينة شهري ربيع الأول وربيع الثاني، بلغه أن حيين من العرب، هما «أنمار» و«ثعلبة»، قد جمعوا الجموع ليغيروا على المدينة مع حَيَّي «بني لحيان» و «غطفان»، لذا سميت الغزوة باسمهما، فخرج النبي (ص) من المدينة في سبع مئة من أصحابه يسرعون في السير، إلى أن بلغوا منازل بني لحيان بين «اثج» و «عسفان» بقرب جبلٍ كان ذا بقاع وألوان من حمرة وسواد وبياض ـ وبسبب ذلك كان يسمى «ذا الرقاع»، وبه أيضاً سميت الغزوة ـ وبلغ بني لحيان خبر هجوم النبي (ص) بأصحابه عليهم، فهربت رجالهم إلى رؤوس الجبال، وتركوا نساءهم في منازلهم. فلما انتهى النبي (ص) بأصحابه إلى منازلهم، لم يجدوا فيها سوى النساء والأموال، فغنم المسلمون أموالهم، وأصاب أحدهم جارية وضيئة منهن.

ثم أقام النبي (ص) هناك حتى صلى بأصحابه فريضة الظهر تامة، وبما أنهم كانوا في واد منخفض لا يرون فيه المشركين على رؤوس الجبال وكانوا يشعرون أنهم في أمان منهم، وضعوا سلاحهم حال الصلاة. وكان

---

٢٩ ـ ج ٢٨، س ٥٩ الحشر: ٩.

المشركون يرونهم، فلما فرغ القوم من فريضة الظهر، تحسر المشركون على غفلتهم عن الهجوم على النبي (ص) وأصحابه حين وضعهم السلاح واشتغالهم بالصلاة، حتى قال خالد بن الوليد متأسفاً على ما فاته: «لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة لكنا أصبناهم، فإنهم لا يقطعون الصلاة»؛ إلى أن قال: «ولكن ستجيء لهم الآن صلاة أخرى (يعني صلاة العصر)، وهي أَحب إليهم من ضياء أبصارهم، فإذا دخلوا فيها، حملنا عليهم حملة رجل واحد». ولما هموا بذلك وأحس المسلمون به، غلب عليهم الخوف، وأنزل الله تعالى على نبيه (ص) الآيات القرآنية التي يأمره فيها بالقصر في الصلاة عند الخوف، وبعدم وضع السلاح عنهم حال الصلاة، وأن ينقسم المسلمون طائفتين، أي جماعتين، فطائفة منهم تأتم بالنبي (ص) بركعة واحدة متسلحين متحذرين من العدو، ويكملون الركعة الثانية منفردين، مع قيام الطائفة الثانية منهم بجوارهم متسلحين تجاه العدو يحافظون على المصلين ويحرسونهم، حتى إذا أكملوا صلاتهم منفردين في ركعة منها، والنبي (ص) مستمر قائماً ينتظر الطائفة الثانية، انتقل أولئك المصلين إلى موضع المحافظين، وانتقل المحافظون إلى خلف النبي (ص) يأتمون به في الركعة الثانية على ما هم عليه، من غير وضعهم السلاح عن أبدانهم، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾[٣٠]، فصلى النبي (ص) بهم صلاة العصر كذلك قصراً، بسبَب الحَذَرِ والخوف، وبذلك سلموا ويئس المشركون حينئذٍ من التمكن منهم، وكانت تلك أول صلاة صلاها المسلمون قصراً.

---

٣٠ ـ ج ٥، س ٤ النساء: ١٠٢.

وخرج النبي (ص) يومئذٍ لحاجته، وكان قد وضع سلاحه، إلى أن بعد عن أصحابه كثيراً على عادته بحيث لا يرونه حتى صار الوادي بينه وبينهم. ولما جلس لحاجته هناك، أخذت السماء تمطر، ثم اشتد المطر إلى درجة أن امتلأ الوادي من السيل حتى حال بينه وبينهم قبل أن يفرغ من حاجته، وانقطع (ص) حينئذٍ عن أصحابه، فانتقل بعد قضاء وطره إلى شجرة هناك واستظل بها.

ولمحه المشركون من على رؤوس الجبال، فقالوا لقائدهم ـ واسمه «غورث» ـ وكان رجلاً جريئاً شجاعاً: «يا غورث، هذا محمد قد انقطع من أصحابه»؛ فقام مبادراً وجرد سيفه، وانحدر من الجبل وهو يقول: «قتلَني اللهُ إن لم اقتلْهُ»؛ ولم يشعر النبي به إلا وهو قائم على رأسه بالسيف يقول: «يا محمد، مَن يَعصِمُكَ مني اليوم؟»؛ فتوجه إليه النبي (ص) وقال في جوابه: «الله يعصمني منك»؛ فلم يتم كلامه حتى انكب الرجل على وجهه وخرَّ على الأرض، وسقط السيف من يده، فتناوله النبي (ص) وقام على رأسه وقال: «يا غورث، مَن يمنعك مني الآن؟»؛ قال: «لا أحد»؛ فقال (ص): «أتشهد أن لا إله إلا الله، وإني عبد الله ورسوله؟»؛ قال: «لا، ولكني أعاهدك أن لا أُقاتلك أَبداً، ولا أُعِينُ عليك أحداً، وأنه لا يُنجيني منك إلا جودُك وكرمك»؛ فتركه النبي (ص)، وناوله سيفه وانصرف عنه؛ فاستوى الرجل قائماً يقول: «واللهِ لأَنتُ يا محمدُ خيرٌ مني وأكرم!»؛ وقال النبي (ص): «إني أحق بذلك...». وانصرف الرجل إلى أصحابه وسألوه عن ذلك، فقال: «إن الله مَنَعَه مني، وإني أهْوَيْتُ عليه بالسيف لأضربه، فما أدري مَن زلَّخني[٣١] بين كتفي، حتى خررت لوجهي وسقط سيفي، وسبقني إليه محمد».

ثم إنه لم يلبث السيل أن انقطع وسكن الوادي، ورجع النبي (ص) إلى

---

٣١ ـ زَلَّخ: مَلَّس، زحلق، مسَّ.

أصحابه، فرآهم قائمين على شفير الوادي ينتظرونه بعد أن استبطأوا رجوعه، فأخبرهم بخبر غورث، وقرأ عليهم قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾[٣٢] وقيل إنه أسلم يومئذٍ خالد بن الوليد.

ثم إن النبي انصرف في مئتي راكب متوجهاً نحو مكة تخويفاً لأهلها، إلى أن نزل موضعاً يقال له «عسفان»، وبعث عيناً أمامه على الأعداء فارسين حتى بلغا «كراع الغميم»، وهو منزل أقرب إلى مكة منه إلى المدينة، وأقام النبي بمن معه في عسفان إلى أن جَنَّهُم الليل، وطلب من أصحابه مَن يحرسهم ليلَتهم على فم الشِعب الذي هم فيه، وانتدب لذلك رجلين من المهاجرين والانصار قاما بفم الشِعب. ولما كان في بعض الليل، اضطجع المهاجري ونام، وقام الأنصاري مشتغلاً بالصلاة؛ وكان زوج المرأة التي أصابها بعض المسلمين في غزوة ذات الرقاع أقسم يميناً أن لا ينتهي حتى يُهَريق دماً من المسلمين، ولذلك لم يزل يتبع أثر النبي (ص) والمسلمين حتى نزلوا عسفان؛ فلما غسق الليل، تقدم المشرك إلى فم الشِعب ليغتال أحداً منهم، فرأى الأنصاريَّ قائماً يصلي، فرماه بسهم أثبته فيه، فانتزعه الأنصاري من بدنه من غير قطع لصلاته، بل ظل مشتغلاً بها لم يقطعها، إلى أن رماه المشرك ثانياً، وانتزعه الأنصاري أيضاً من بدنه من غير قطع لصلاته التي ظل ثابتاً عليها، حتى رماه ثالثاً، فقطع قراءته، وركع وسجد وأكمل صلاته، ثم أيقظ صاحبه وأعلمه بالأمر، فقال: «سبحان الله! ألا أيقظتني أول ما رماك؟!»؛ قال: «كنت في سورة أقرأها، ولم أحب أن اقطعها، فلما تتابع الرمي عليَّ ركعتُ ثم اعلمتك؛ وأيم الله لولا خوفي من أُضِيع ثغراً أمرني رسولُ الله بحفظه، لقَطعَ نَفَسي قبل أن أقطعها». واختفى المشرك وهرب منهما.

---

٣٢ ـ ج ٥، س ٤ النساء: ١٠٢.

وتفرقت سائر جموعهم بعد ما ملئوا رعباً وخوفاً، وانصرف النبي راجعاً بأصحابه نحو المدينة دون أن يلقى كيداً، ولم تقع حرب إلى ما بعد غزوة أُحُد بسنة.

غزوة بدر الصغرى:

ثم حدثت بعد غزوة «ذات الرقاع» غزوةُ «بدر الصغرى»، وبدر الصغرى اسم لموقع كان فيه ماء لبني كنانة، كان يُقام لهم فيه سوق في الجاهلية يستمر ثمانية أيام.

أما سبب تسمية الغزوة باسم ذلك المكان، فهو أن أبا سفيان واعَدَ المسلمين وهددهم بالانتقام منهم ومحاربتهم فيه؛ ذلك لأن المشركين لما رجعوا من معركة أُحُد الكبرى مخذولين، وقد قُتِل منهم ـ كما قُتِل من المسلمين ـ كثيرون، نادى أبو سفيان في المسلمين يقول: «موعدنا وموعدكم بدر الصغرى» لأنها كانت ملتَقًى سنوياً للتجار والقبائل، منذراً ومُواعداً النبي (ص) وأصحابه بأن يلتقي بهم للقتال في العام التالي بذلك الموسم، فأجابه النبي (ص) إلى ذلك بقوله: «ذلك بيننا وبينك».

ولما كان العام التالي، خرج أبو سفيان على الميعاد في عساكره من مشركي مكة، إلى أن نزل موضعاً يقال له «مجنة»، فألقى الله في قلبه الرعب، وبدا له أن يرجع إلى مكة؛ ولكنه خاف العار على نفسه لعدم الحضور في موعد بدر، فلقي «نعيم بن مسعود» راجعاً من مكة نحو المدينة، وكان قد قَدِمَها معتمراً، فاجتمع به و أخبره بميعاده مع النبي (ص)، وقال: «إني واعدته وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر الصغرى، وإن هذا العام عام جدب، ولا يصلح لنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لي أن لا أخرج إليها؛ ولكني أكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا، فيزيدهم ولك جرأة؛ فالْحَقْ بالمدينة وَثَبِّطهم عن الخروج، ولك

عندي عشرة من الإبل أضعها على يدي سُهَيل بن عَمْرو»؛ فأجابه نعيم إلى ذلك.

ومضى نعيم بن مسعود منصرفاً حتى قدم المدينة، فوجد الناس يتجهزون لميعاد أبي سفيان، فاعترضهم في ذلك يثبطهم ويخوفهم عن الخروج، وجعل يقول لهم: «بئس الرأي رأيتم، أتَوْكُم في دياركم وقَراركم، ولم يفلت منكم إلا ثريد[٣٣]، واليوم تريدون أن تخرجوا إليهم وقد جمعوا لكم عند الموسم؟ فوالله لا يفلت منكم أحد!». ولم يزل يكرر على أصحاب النبي (ص) أمثال تلك الكلمات حتى فزع الكثيرون وكرهوا الخروج إلى الميعاد. وبلغ النبي ذلك، فغضب (ص) وجعل يقول: «والذي نفسي بيده، لأَخْرُجَنَّ ولو وحدي».

ثم هم (ص) بالخروج ومعه أمير المؤمنين (ع)، وتبعهما جماعة من المسلمين، وتخلف الباقون ممن غلب عليهم الخوف أو امتلأت قلوبهم بالنفاق، وخرج (ص) بشرذمة قليلة من أصحابه وهو يقول: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، إلى أن وافوا الميعاد في البدر الصغرى، ولكنهم لم يجدوا فيها أحداً من المشركين، فأقاموا هناك أياماً ينتظرون أبا سفيان وأصحابه، إلى أن يئسوا منهم، وحل موسم السوق. وكانت لهم تجارات فباعوها، وأصابوا الدرهم درهمين، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة سالمين غانمين من غير حرب ولا مكروه.

فلما أشرفوا على المدينة، خرج رجالها ونساؤها يستقبلون النبي (ص) وهم يبكون نادمين على تخلفهم عنه، وأخذوا يتضرعون ويتوسلون إليه معترفين بذنوبهم وتقصيرهم، ويسألونه العفو عنهم والتوبة عليهم؛ فلم يكلمهم، حتى قَدِمَ البلد وتوجه نحو المسجد بمن معه، وتبعه الناس بأجمعهم إلى أن دخله واجتمعوا حوله يتوبون إليه، فجعل ينظر إليهم إلى

---

٣٣ ـ الثريد: الجريح، أو المشقوق الشفتين.

أن قال لهم: «أيها الناس، إنكم رغبتم بأنفسكم عني، ووازرني «عليٌّ» وواساني، فمن أطاعه فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني وفارقني في الدنيا والآخرة». وجعل حذيفة بن اليمان يقول: «ليس ينبغي لأحدٍ يعقل أن يشك في ذلك، فإن مَن لم يشرك بالله، أفضل ممن أشرك به؛ ومن لم ينهزم عن رسول الله، أفضل ممن هُزِم عنه؛ وإن السابق إلى الإيمان بالله ورسوله، أفضلُ، وهو علي بن أبي طالب».

وأما ما كان من أمر أبي سفيان، فإنه رجع إلى مكة بمن معه وقد مُلِئوا رعباً، وأخذ الناسُ يلومونهم على انصرافهم وعدم حضورهم الموعد، وجعل أهل مكة يسخرون منهم ويستهزئون بهم ويسمونهم «جيش السَويق»، ويقولون لهم: «إنما خرجتم تشربون السويق»[٣٤]، وزادهم ذلك خزياً ونكالاً.

ثم كانت بعدها الغزوة الكبرى، بل الواقعة العظمى في حروب المسلمين مع المشركين، نعني غزوة «الأحزاب»، المعروفة أيضاً باسم معركة «الخندق».

---

٣٤ ـ السَويق: (تقدم أنه) الدقيق الناعم من الحنطة أو الشعير أو البرغل؛ وقولهم هنا «تشربون السويق» يوحي أن حبوب السويق كانت تُخلَط بالماء، وتُصبح شراباً مرطباً أو مغذياً مرغوباً.

غزوة الأحزاب

ـ أو: الخندق ـ

وهي من الغزوات الكبيرة والمهمة، وقد وقعت في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة. وكان من قصتها أن «بني النضير» اليهود بعد وقعتهم التي غَدروا فيها بالنبي (ص) والمسلمين، ثم انهزموا أذلاء وجلوا إلى «أذرعات» ببلاد الشام، ذهب فريق منهم إلى «خَيْبَر» وهو موقع حصين لليهود، وتوجَّه رئيس بني النضير «حُيَيّ بن أخطب» في جماعة من قومه اليهود نحو مكة، فلما دخلوها قَدِموا على أبي سفيان ـ لعلمهم بشدة عداوته لرسول الله (ص) ومُسارَعَته إلى قتاله ـ وذكروا له ما نالهم من النبي (ص) ورهطه، وجعلوا يشكونهم إلى أبي سفيان ويسألونه المعونة لهم على قتال النبي (ص)، فتلقاهم ببشرى وسرور، وأجابهم إلى ذلك بقوله: «أنا لكم حيث تحبون، فأخرُجوا إلى قريش وأدعوهم إلى حربه، وأضمَنوا لهم النصرة، والثبات معهم حتى تستأصلوا محمداً». فقام القوم وخرجوا من عنده يطوفون على وجوه قريش وجموعهم يقولون «إن محمداً قد وَتَرَكم ووَتَرَنا[1]، وأجلانا من ديارنا، وأخرَجَ أموالنا من المدينة، وكذلك أجلى بني عمنا ـ قَيْنُقاع ـ فسيروا في الأرض، وأجمعوا حلفاءهم وغيرهم حتى نسير إليهم، وإنه قد بقي من قومي بيثرب سبع مئة مقاتل هم بنو قريظة، وهم على قَدْر ميلين من المدينة، وبينهم وبين محمد عهد وميثاق، وأنا أحملهم

---

١ ـ وتَرَكم: أصابكم بظلم؛ أو.. قتل منكم مَن أوجب الوَتْر، أي الانتقام.

على نقض عهده ليكونوا معنا، فتأتون أنتم محمداً من فوق، وهم يأتونه من أسفل؛ وأيدينا مع أيديكم، ونحن معكم حتى نستأصله»؛ فلم يزل هكذا يدور في مَن معه على قبائل العرب، يحرضهم على الاجتماع لحرب النبي (ص) ويدعوهم إلى قتاله، وهم يلبون دعوته، حتى اجتمع منهم عشرة آلاف مقاتل من «قريش» و«كنانة»، وانضم إليهم «الأقرع بن حابس» في قومه وعشيرته، وتبعهم «عباس بن مرداس» في «بني سُلَيم»، ثم انضم إليهم بنو «غطفان» و «قيس» ـ وهما بطنان عظيمان من العرب ـ وذلك بعد مضي اليهود إليهم وكفالتهم لهم المعونة والنصرة.

ونشطت قريش بكثرة جموعهم ودعوة اليهود لهم إلى حرب النبي (ص)، وقالوا لهم: «يا معشر اليهود، أنتم أهل الكتاب الأول والعِلم السابق، وقد عرفتم الدِينَ الذي جاء به محمد وعرفتم ما نحن عليه، فهل دينُنا خيرٌ من دينه؟ أم هو أولى بالحق منا؟»؛ قالوا: «بل دينكم خيرٌ من دينه، وإنكم أَوْلَى بالحق منهم»؛ وإلى ذلك الإشارة بقوله سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[٢].

وقام أبو سفيان في الجموع يحرضهم على قتال النبي (ص)، ويقول في بعض كلامه: «قد مكَّنكم الله من عدوكم»! يعني النبي (ص) «وهذه اليهود تقاتله معكم، ولن تنفك عنكم حتى يُؤْتَى على جمعه، أو نستأصله ومن اتبعه».

عند ذلك قويت عزائم القبائل على الخروج إلى الحرب، والإغارة على المدينة، فخرجت قريش يقودها أبو سفيان، وخرجت غطفان وبنو فزارة يقودهم عُيَيْنَة بن حصن، وخرجت بنو مرة يقودها الحارث بن عوف، وخرجت بنو أشجع يقودها وَبرة بن طريف، وخرجت بنو أسد حلفاء أشجع

---

٢ ـ القرآن الكريم، الجزء ٥، السورة ٤ النساء: ٥١.

يقودهم مسعر بن جبلة الأسدي، وخرجت طائفة أخرى من بني أسد يقودهم طليحة وهم حلفاء غطفان، وخرجت بنو سُلَيم يقودهم أبو الأعور السُلَمي، وخرجت بنو كنانة، وبنو هلال، وأهل تهامة، وغيرهم من سائر القبائل والبطون في قوادهم وأحابيشهم وحلفائهم، ومَن تابعهم من أهل نجد وأمثالهم، حتى تكاملوا آلافاً مؤلفة، وملأوا الصحاري والبراري بجيوشهم وأحزابهم؛ وأخذوا يجدون في السير نحو المدينة إلى أن نزلوا بموضع يقال له «الزغابة» على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة.

ونزل الوحي على النبي (ص) بخبر القوم وأماكن نزولهم، فأخبر النبي أصحابه بتحزب الأعراب عليه ومجيئهم من فوق، وغدر اليهود من بني قريظة ونقضهم عهده وأنه يخاف ويحتمل مجيئهم من أسفل، وأنه سيُصيب المسلمين جهد شديد، ولكن العاقبة تكون له (ص) على الكفار.

وكان المقاتلون من المسلمين يومئذٍ سبع مئة، فجمعهم النبي (ص) واستشارهم في أمر دفاع المشركين، فأشاروا عليه (ص) جميعاً بالمقام بالمدينة، وبدفاع القوم بعد مجيئهم على أنقابها[3]، وكان سلمان الفارسي (ع) يومئذٍ في جملتهم، وكان رجلاً يقوياً، وكان مشهد الأحزاب يومئذٍ أول مشهد شهده مع رسول الله (ص) وهو يومئذٍ حُرٌّ، فقام وقال: «يا رسول الله، إن القليل لا يُقاوِمُ الكثيرَ في المطاولة»؛ قال (ص): «فما نصنع؟»؛ قال (ع): «يا رسول الله، تحفر خندقاً حول المدينة، يكون بينك وبينهم حجاباً، فيمكنك منهم المطاولة، ولا يمكنهم أن يأتونا من كل وجه؛ فإنا معاشرَ العجم كنا في بلاد فارس إذا دَهَمَتْنا دهماء من عدونا، نحفر الخنادق، فتكون الحرب من مواضع محددة معروفة».

ونزل الوحي على النبي (ص) عند ذلك بتصويب رأي سلمان، فأمر أصحابه (ص) حينئذٍ بالخروج إلى خارج المدينة، وحفر الخندق حولها من

---

٣ ـ الأنقاب: الطُرُق الجبلية.

ناحية «أُحُد» إلى «راتج»، وجعل على كل عشرين أو ثلاثين خطوة قوماً من المهاجرين والأنصار يحفرونها، فحمل الناس المَساحِيَ والمَعاولَ، وخرجوا إلى خارج البلد يَقْدِمُهُم النبي (ص) وقد حمل بنفسه مِعولاً، إلى أن انتهوا إلى محل الحفر، فبدأ النبي (ص) بنفسه بالحفر مع المهاجرين، مُجِدّاً في ذلك، حتى عيَّ وعرقَ جبينُه وهو يقول:

لا عَيشَ إلا عيشُ ٱلاخِرَة رَبِّ ٱنْصُرِ الأنصارَ والمُهاجِرَة

وكان أمير المؤمنين علي (ع) بجانبه ينقل التراب من الحفرة، ورأى الناس اجتهادهما في الحفر، فأخذوا يجتهدون في ذلك، ما عدا بعض الأغنياء الأثرياءِ المنافقين منهم، فإنهم كانوا يتأنفون من ذلك. ومرَّ ثالث القوم على عمار بن ياسر وهو مشتغل بالحفر وقد ارتفع الغبار فوقه، فوضع الرجل كُمَّه على أنفه حفظاً من الغبار، فأنشأ عمار يقول مغضباً:

لا يَسْتَوي مَن يَعْمُرُ المَساجدا يَظَلُّ فيها راكعاً وساجدا
يدأب فيها قائماً وقاعداً ومَن يَكُرُّ هكذا مُعانداً
ومَن يُرَى عن الغُبار حائدا

فالتفت الرجل إليه يقول: «يابن السوداء، إياي تعني؟»؛ وامتلأ غيظاً وغضباً، ثم انصرف إلى النبي (ص) يقول له: «لم نَدخلْ معك في الإسلام لِتُسَبَّ أعراضنا»؛ فقال له النبي: «قد أَقَلْتُكَ[4] إسلامَك فاذهب»؛ فولى الرجل معرضاً وازداد غضباً؛ ونزل فيه قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[5].

وكان «خَوَّاتُ بن جُبَير» (أخو عبدالله المقتول بفم الشِعب في غزوة أُحُد) قد حضر حفر الخندق صائماً، وكان شيخاً ضعيفاً وقد صام من غير

---

٤ ـ أَقَلْتُكَ: أعفَيْتُكَ، أطلقتك من تَعَهُّدك.

٥ ـ ج ٢٦، س ٤٩ الحجرات: ١٧.

أكل في الليل (لا فطور ولا سحور)، واتصل صيامه ذلك اليوم بصيام اليوم السابق، لأن الحكم في صدر الإسلام كان حرمة الأكل على من نام في الليل قبل الإفطار؛ وقد كان غلب النوم على «خوّات» في ليلته قبل إفطاره، فلما انتبه لم يأكل شيئاً إلى اليوم التالي الذي حضر فيه لحفر الخندق؛ وبينا هو كذلك إذ أُغمِيَ عليه، فرآه النبي (ص) ورقَّ له، فنزلت آية حِلِّيَّة الوِقاع[6] والأكل والشرب في ليلة الصيام إلى حين طلوع الفجر، وانتسخ بها حكم حرمة الوقاع في ليالي الصيام، بعدما كان محرماً أيضاً في أول الإسلام؛ وقد كان بعض الشبان يخالفونه سراً، فجاءت حِلِّيَّتُهما بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[7].

ثم كان اليوم الثاني من الحفر، فبادر المهاجرون والأنصار إلى الحفر وكَفَوا رسول الله مؤونته، ومضى هو (ص) إلى مسجد الفتح. وبينما كان الناس يحفرون، إذ عرض لهم جبل لم تخرقه ولم تحفر فيه المعاول، فقد كانت صخرة صماء شقَّت عليهم وكَسرَت معاولهم وحديدهم، ولم يحتك منها كثير ولا قليل، حتى هموا أن يعدلوا عنها؛ فبعثوا جابراً إلى النبي (ص) يخبره بذلك، ولما انتهى إليه (ص)، وجده في المسجد ملقى على ظهره، وقد جعل رداء تحت رأسه، وشدَّ على بطنه حجراً من شدة جوعه، فأخبره جابر عن الصخرة، فقام (ص) مسرعاً نحو القوم حتى انتهى إليهم، ووقف على الصخرة ودعا بماء، فلما أُتِي به توضأ به وشرب وتمضمض منه، ثم صبه على الحجر، ثم تناول بعدئذٍ مِعولاً وضرب به الصخر، فبرقت منها برقة، وانكسر ثلث من الصخرة، فكبر النبي (ص) وقال: «أُعطِيتُ مفاتيحَ الشام؛ واللهِ إني لأبصر قصورَها الحمراءَ الساعة!»؛ ثم قال (ص): «بسم الله»، وضرب ضربة أخرى على الصخرة، ففلق ثُلُثاً آخر

---

٦ ـ الوِقاع: مقاربة الأزواج.

٧ ـ ج ٢، س ٢ البقرة: ١٨٧.

منها، وبرقت من ضربته برقة، فكبر ثانياً وقال (ص): «أعطيتُ مفاتيح فارس؛ واللهِ إني لأُبصر قصرَ المدائنِ الأبيضَ» (يعني قصر كسرى في نواحي بغداد)؛ ثم ضرب ضربةً ثالثة فلق بها بقية الصخرة، حتى صارت كَثِيبَ[8] رمل وقُبَّة مجموعة من التراب، تنهال كما ينهال الرمل، وبرقت من ضربته (ص) برقةٌ ثالثة، فكبر (ص) ثالثاً وقال: «أعطِيتُ مفاتيح اليمن؛ والله إني لأُبصرُ مدينةَ صَنْعاءَ مكاني هذا! أَمَا إنه سيَفتحُ عليكم هذه المواطن، وقد أخبرني جبرائيل إن أمتي ظاهرة عليها، فأَبْشِروا».

ففرح المؤمنون بكلامه، واستبشروا وهم يقولون: «الحمد لله! وَعْدَ صدقٍ وَعَدَنا النصرَ بعد الحصر». وأخذ المنافقون بينهم يسخرون منه ويستهزئون بوعده يقولون: «يَعِدُنا محمد أن يفتح مدائنَ كسرى وقيصر، ونحن لا نَأمنُ أن نذهب إِلى الخلاء! أَلاَ تَعْجَبون منه يُمَنِّيكم ويَعِدُكم الباطل، ويزعم أنه يُبصر من يثرب قصورَ الحِيرة ومدائن كسرى، وأنها تُفتَح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الخوف، ولا تستطيعون أن تَبرزوا، هذا والله الغُرور!»؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[9] ونزل يومئذٍ قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[10].

ثم اشتغل المسلمون بنقل تراب الصخرة وفيهم سلمان (ع)، وكان رجلاً قوياً فاق الكل في الجِدّ ونَقْلِ التراب، حتى غبطه الناس وتخاصموا فيه، فقال المهاجرون: «سلمان منا»؛ وقالت الأنصار مثل ذلك، وعرف النبي (ص) ذلك فنادى فيهم: «سلمان منا أهلَ البيت»؛ وتقدم جابر إلى

---

٨ ـ كَثِيب: تَلّ.
٩ ـ ج ٢١، س ٣٣ الأحزاب: ١٢.
١٠ ـ ج ٣، س ٣ آل عمران: ٢٦.

النبي (ص) يخبره أن التراب حول الخندق صار تلا عالياً، فقال (ص): «لا تفزع يا جابر، فسوف ترى عجباً من التراب». قال جابر: «لما أقبل الليل، سمعت عند التل جلبة وضجة، وقائلاً يقول:

إِنْتَسِفوا التُرابَ والصَعيدا   واستَوْدِعُوهُ بَلَداً بعيدا
وعاوِنوا محمدَ الرشيدا   قد جعل الله له عميدا
أخاه وٱبنَ عمِّهِ الصِنْديدا[11]

ولما أصبحنا لم نجد للتل أثراً، ولا من التراب المجتمع حول الخندق شيئاً»؛ ثم أقبل جابر إلى النبي (ص) يخبره بذلك، وإذ وجده قد ربط حجر المجاعة على بطنه من شدة الجوع، قال له: «يا رسول الله، هل لك في الغِذاء؟»؛ قال (ص): «ما عندك يا جابر؟»؛ قال: «عَناقٌ[12] وصاعٌ[13] من شعير»؛ فقال (ص): «تقدَّمْ وأصلِحْ ما عندك». فٱنصرف جابر إلى أهله وذبح عنزة كانت له، وأمر زوجته بطبخه وبخبز ما عندها من الشعير. ولما فرغ من ذلك، رجع إلى النبي (ص) يقول: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد فرغنا فاحضر مع مَن أحببت»؛ فاستوى النبي (ص) قائماً على شفير الخندق ينادي في جموع أصحابه وهم سبع مئة: «يا معشر المهاجرين والأنصار، أجيبوا جابراً»؛ فبُهتَ جابر من ذلك، وغلب عليه الحياء والخجل وهو يقول في نفسه: «جاء بالخلق على صاع شعيرٍ وعَناق!»؛ وبادر مسرعاً إلى زوجته يقول لها: «قد افتُضِحتُ والله! أتاكِ رسول الله بما لا قِبَل لكِ به؛ لقد جاءك بالخلق»؛ فقالت: «هل أعلمته بما عندنا؟»؛ قال: «نعم»؛ فأخذت تهوّن عليه ذلك وتقول: «هو أعلم بما أتى»؛ حتى كشفت عنه ما به من الهم.

---

١١ ـ الصِنديد: القوي الشجاع، السيد ذو السلطان.
١٢ ـ العَناق: الأنثى الصغيرة من الماعز التي لم تستكمل السنة.
١٣ ـ الصاع: المكيال، الوعاء الذي يُكال به ـ صاع شعير: كمية شعير تملأ مقدار حجم صاع.

ولما دخل رسول الله (ص) الدار، أمر بالانطاع[14] فبسطت على الشوارع[15]، وأمر (ص) بالجفان[16] وقصاع الخشب فجُمِعت، ثم سأل جابراً عن ما عنده من الطعام، ولما أعلمه بما عنده، تقدم النبي (ص) نحو القِدْر ينظر فيه، ثم أمر بتغطية السَدانة[17] والبُرْمة[18] والتَنور[19]، ثم قال (ص) للمرأة: «اغرُفي من القِدر وأَبْقي[20]، وأَخْرجي من التنور وأَبقي»؛ ودعا بصحيفة وثرد وغرف فيها، ثم قال (ص) لجابر: «أَدْخِل عَلَيَّ عَشَرة عشرة»؛ وجعل جابر يُدخِل على النبي من القوم عشرة، فيأكلون حتى ينهلوا ويخرجوا شباعاً، دون أن يُرَى في القصعة إلا آثار أصابعهم من غير نقص شيء مِن ما فيها، وكان (ص) نادى حين العشرة الأولى: «يا جابر علي بالذراع»؛ فأتى به وأكلوه، ثم نادى ثانياً للعشرة الثانية: «يا جابر عليَّ بالذراع»؛ فأتى جابر بالثاني منه، ثم نادى النبي (ص) ثالثاً يأمره بأن يأتي بالذراع، فمضى جابر إلى القِدر وإذا فيه ذراع ثالث، فأتى به وأكله القوم؛ عند ذلك سأل جابر النبي (ص) وهو متعجب مندهش: «يا رسول الله، كم للشاة من الذراع؟»؛ قال (ص): «ذراعان»؛ قال: «والذي بعثك بالحق نبياً لقد أتيتك بثلاثة»؛ قال (ص): «أما لو سكتَّ يا جابرُ لأكلَ الناسُ كلهم من الذراع». ولم يزل يأتي جابر بعشرة عشرة يأكلون ويخرجون، حتى شبعوا كلهم. وقال جابر بعدئذٍ: «لقد بقي والله لنا من ذلك الطعام ما عشنا به أياماً، لم نزل نأكل ونهدي منه إلى قومنا أجمع، حتى شبع منه ثلاثة آلاف جائع».

---

١٤ ـ الانطاع، جمع نَطَع ونَطْع: بساط من جلد.

١٥ ـ الشوارع: الطرق المسلوكة.

١٦ ـ الجفان، جمع جَفنة: القصعة الكبيرة.

١٧ ـ السَدانة: الشحم.

١٨ ـ البُرمة: القِدر من الحجر يوضع فيه الطعام.

١٩ ـ التنور: القِدر الذي يوضع فيه الخبز.

٢٠ ـ أي اغرفي منه لا كلَّ ما فيه، بل أبقي فيه قسماً.

ثم رجع الناس إلى حفر الخندق والنبي (ص) ينقل معهم التراب حتى وارَى الترابُ بياضَ بطنه وهو يقول برفيع صوته:

لا هُمَّ لـولا أنـتَ مـا ٱهْـتَـدَيْـنـا ... ولا تَـصَـدَّقْـنـا ولا صَـلَّـيْـنـا

فَـأَنْـزِلَـنْ سَـكِـيـنـةً عـلـيـنـا ... وثَـبِّـتِ الأَقـدامَ إن لَـقِـيـنـا

إنـا لَـقَـوْمٌ إنْ بُـغـي عـلـيـنـا ... وإن أرادوا فـتـنـة أَبَـيْـنـا[٢١]

إلى أن فرغوا من الحفر قبل قدوم الأحزاب بثلاثة أيام؛ وقد جعل النبي (ص) للخندق ثمانية أبواب، وأوقف على كل باب رجلين من المهاجرين والأنصار يحفظانه.

ثم تَتابعَ وصول جنود قريش والقبائل، وجعلوا ينزلون إلى جانب «أُحُد» تجاه المدينة. ولما تكاملوا أخاف المسلمين وأهالهم أمرُهم، وارتاعوا من كثرتهم وجموعهم، وبلغ الخوف والفزع بأصحابه (ع) إلى أن طارت عقولهم، وانخلعت قلوبهم حتى بلغت إلى حناجرهم، وعدلت الأبصار عن مقرها دهشاً وحيرة، لدرجة أن أيقن المنافقون بعودة الجاهلية، واستئصال النبي واستيلاء المشركين وغلبتهم عليه. وهمت طائفة منهم ـ كابن أُبَيّ ورهطه، وبني سالم ومن وافقهم ـ على الفرار، وأخذوا يُجَبِّنون المؤمنين، ويحرضونهم على الهرب والرجوع إلى المدينة بقولهم: «لا مقام لكم هنا للقتال، فارجعوا إلى منازلكم»؛ إلى أن تقدم فريق منهم إلى النبي (ص) يستأذونه في الرجوع، بدعوى أن بيوتهم في المدينة عَوْرة مكشوفة خالية من الرجال، وأنها ليست بحصينة، ولا يأمنون على أهاليهم من السرقة ومن العدو، وإلى كل ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي من فوق الوادي من قبل المشرق، وهم «غطفان» و «بنو نضير» ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي من قبل المغرب من ناحية مكة، وهم قريش

---

٢١ ـ جاء نص هذا البيت في مصدر آخر:

إن الأُلَـى لـقـد بَـغَـوا عَـلَـيـنـا ... وإذ أرادوا فـتـنـةً أَبَـيْـنـا

يقدمهم أبو سفيان ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا، هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا، وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[22]، وتمنى قوم منهم أن يهربوا ويستجيروا بالأعراب[23]، وجعلوا يقولون: «إن الذي وعدنا به محمد من النصر كله باطل»؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ﴾[24][25].

وبقي المسلمون على حالهم في فزع شديد بجانب الخندق مما يلي المدينة، وحاصر المشركون الخندق بما حواه من المدينة وأهلها، وأصاب الناس في المدينة جهد شديد ومجاعة بانسداد الطرق عليهم، وانقطاع التجار وحَمَلَة الأطعمة عنهم، حتى أن فاطمة (ع) أقبلت ذات يوم من المدينة إلى أبيها رسول الله (ص) إلى الخندق بكسرة خبز دفعتها إليه وقالت: «إنها من قرص خبزتُه للحسن والحسين»؛ فتناولها النبي (ص) وأكلها وهو يقول: «أما إنه أول طُعامٍ دخلَ فم أبيك منذ ثلاث».

وكان (ص) قد أمر أصحابه أن يحرسوا المدينة ليلاً، فكان أمير المؤمنين (ع) يحرس العسكر كلهم في الليل، يطوف عليهم، ويجوز الخندق وحده إلى جانب المشركين حيث يراهم كي لا يتحرك أحد منهم ولا يهجموا على الخندق؛ وكان يقوم الليل كله بالصلاة محافظاً على الخندق وما حواه إلى الصباح، وإذا أصبح رجع إلى مركزه ومسجده الذي

---

٢٢ ـ ج ٢١، س ٣٣ الأحزاب: ١٠ ـ ١٣.

٢٣ ـ الأعراب: أهل البادية، البدو، النازلون والمتنقلون في الأرياف والصحارى خارج المدن.

٢٤ ـ بادون: موجودن في البادية.

٢٥ ـ ج ٢١، س ٣٣ الأحزاب: ٢٠.

كان يصلي فيه خارجَ الخندق، وهو معروف إلى العصر الحاضر، ولا يبعد عن مسجد الفتح بأكثر من رمية سهم.

وأقام المسلمون كذلك أياماً وليالي، إلى أن بلغهم خبرُ أن بني قريظة ـ وهم بطن من اليهود أشداء ـ قد نقضوا عهد النبي ومزقوا كتابه في ذلك العهد، وأنهم اتفقوا مع المشركين على حربه. وكان رئيسهم يومئذٍ «كعب بن أَسَيد»، الذي كان قد عاهد رسول الله (ص) أن لا يتعرض له ولأصحابه بسوء، كما تعهد النبي (ص) كذلك أن لا يتعرض له ولرهطه بسوء، وكتب رئيس اليهود «كعب» على ذلك كتاباً بينه وبين النبي (ص) أن لا يكونوا له ولا عليه، وإن خالفوا ذلك حلَّ للنبي دماؤهم وأموالُهم وأعراضُهم؛ فلما بلغ المسلمين خبر نقضهم للعهد، ازدادوا خوفاً وخشية، وغارت العيون في الأحداق، وطارت العقول وخفقت القلوب، وأيقن أكثرهم بالهلاك والدمار وهم يقولون: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[٢٦]، ولم يثبت على الإيمان واليقين إلا أفراد قليلون منهم، لم تزدهم تلك الحوادث والضيق والحصار إلا إيماناً بوعد النبي (ص) بذلك في مبتدأ أمره، وتسليماً له، ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا﴾[٢٧].

وكان السبب في نقض بني قريظة للعهد، أنه لما اجتمعت قريش والأحزاب وأحاطوا بالمدينة، مضى حُيَيّ بن أخطب رئيس اليهود من بني النضير الذين أجلاهم النبي (ص) نحو الشام، والتحق حيي هذا بالمشركين، ثم أقبل معهم من مكة لمحاربة النبي (ص) والمسلمين، فأقبل أولاً نحو حصن بني قريظة في جوف الليل يدق الباب عليهم، فسمع كعب ذلك وقال لزوجته: «هذا أخوك قد شَأَمَ[٢٨] قومه، وجاء الآن يَشأَمُنا ويُهلكنا

٢٦ ـ ج ٢١، س ٣٣ الأحزاب: ١٢.
٢٧ ـ ج ٢١، س ٣٣ الأحزاب: ٢٢.
٢٨ ـ شَأَمَ: جرَّ الشؤم والنحس.

ويَأمرنا بنقض العهد بيننا وبين محمد؛ وقد وفى لنا محمد بعهده وأحسن جوارنا»؛ ثم نزل من غرفته إلى وراء الباب ينادي: «مَن أنت؟»؛ قال ابن أخطب: «أنا حُيَيّ، وقد جئتك بعز الدهر»؛ قال: «بل جئتني بذُل الدهر»؛ قال: «يا كعب، هذه قريش في قادتها وسادتها مع حلفائهم من كنانة قد نزلت بالعقيق، وهذه فزارة مع قادتها وسادتها قد نزلت الزغابة، وهذه سُلَيم وغيرهم قد نزلوا حصن بني ذبيان، ولا يفلت محمد وأصحابه من هذا الجمع أبداً، فافتح الباب، وانقض العهد بينك وبين محمد»؛ قال: «لستُ بفاتحٍ لك الباب! ويحك يا حُيَي، ارجع من حيث أتيت؛ إنك رجل مشؤومٍ، وإني قد عاهدت محمداً ولست بناقض ما بيني وبينه، وإني لم أرَ منه إلا صدقاً ووفاءً»؛ ولكن ابن أخطب ظل يلح عليه بفتح الباب ليكلمه، وظل كعب يمتنع عن ذلك، إلى أن قال ابن أخطب: «ما يمنعُكَ من فتح الباب إلا خَشيشتُك[٢٩] في التنور (وهي الغزالة الصغيرة) وإنك تخاف أن أشاركك فيها، فافتح، فإنك آمِنٌ من ذلك»؛ قال كعب: «لعنك الله! لقد دخلت علي من باب دقيق»؛ ثم فتح له الباب، ودخل ابن أخطب وهو يقول: «ويلك يا كعب، جئتُكَ بعز الدهر وببحر طامٍ (أي مرتفع)، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، وبغطفان على سادتها وقادتها، وقد عاهدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومَن معه»؛ قال: «جئتني واللهِ بذل

٢٩ ـ لم نجد مرادفاً دقيقاً لهذه الكلمة، ولكن من معاني الخِشاشة: العصافير أو نحوها من الحيوانات الصغيرة ومن حشرات الأرض، (اسم النوع منها «الخشيش» وتجمع على «أخِشَّة» أيضاً). فالمُحتَل بل الأرجح هنا، أن ابن أخطب لكي يثير كعباً حاول اتهامه بالبخل وعدم رغبته في التكلف للضيف، فقال له: إن خشيشتك التي تطبخها في التنور، والتي هي غزالة صغيرة، هي التي تمنعك من فتح الباب لي واستقبالي لكي لا أشاركك فيها، فبهذا الكلام، وبوعده له أن لا يأكل من خشيشته (غزالته) تلك، أثار غضبه وحميته وجاءت الكلمة في مصادر أخرى «جَشيشتك» (بالجيم)، والجشيشة طعام يُصنع من الجشيش الذي هو البُر (القمح) يُطحَن غليظاً، أي السميد.

الدهر، وسحابٍ قد أهرق ماؤه، يُرْعِدُ ويُبْرِق وليس فيه شيء! دعني ومحمداً وما أنا عليه، فإني لم أرَ إلا صدقاً ووفاءً»؛ ولكن ابن أخطب لم يتركه، ولم يزل يؤنسه بالكلام ويزيل عنه نفوره، ويمسح ذروة غاربه وعُلُوَّ سَنامه[٣٠] كما يُفعَل بالجَمَل النَفُور، ويكرر عليه قوله: «انقض العهد الذي بينك وبين محمد، ولا تَرُدَّ رأيي، فإن محمداً لا يفلت من هذا الجمع أبداً، فإن فاتَكَ في هذا الوقت لا تدرك مثله أبداً!»؛ إلى أن طال الكلام بينهما، وانتشر الخبر في الحصن بدخول ابن أخطب فيه لذلك الغرض. فاجتمع إليه رؤساؤهم، فجعل كعب يستشيرهم في مطاوعة ابن أخطب أو مخالفته، فقالوا له: «أنت سيدُنا، وصاحب عهدنا وعقدنا، والمطاعُ فينا، فإن نَقَضْتَ نقضنا معك، وإن أَقَمْتَ أقمنا معك، وإن خرجتَ خرجنا معك».

ولكن شيخاً كبيراً مجرباً فيهم ـ كان قد ذهب بصره يُسمى «زَبِير بن باطا القُرَظي» ـ قام بعد قولهم ذاك وتقدم يقول لكعب ومن اجتمعوا: «يا قوم، إني قد قرأت في التوراة التي أنزلها الله في سِفْرنا، بأنه يُبعَث نبي في آخر الزمان يكون مخرجه بمكة، ومَهجره الى المدينة في هذه البُحرة[٣١]، يركب الحمار العاري، ويلبس الشملة[٣٢] ويجتزىء بالكُسَيرات والتُمَيرات[٣٣]، وهو الضحوك القَتَّال، في عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوة، يضع سيفه

---

٣٠ ـ الغارب: أعلى الظهر، أو ما بين الظهر والعنق ـ السَنام: الحدبة بظهر البعير. يمسح ذروة غاربه ويمسح سطح سنامه، أي يُلَيِّن أعصابه ويدلّله ويهدّئه ويخفف من غضبه وعصبيته.

٣١ ـ البُحرة: البلدة، البلدة المنخفضة، أو: الروضة.

٣٢ ـ الشَملة: ثوب واسع يشمل ويغطي كاملاً ويشمل لابسه.

٣٣ ـ يجتزيء: يكتفي ويقتنع بأجزاء فقط ـ الكُسَيرات، جمع كُسَيْرة وهي تصغير كِسْرة. والكِسْرة: القطعة من الشيء المكسور، وتستعمل عادة لقطع الخبز الصغيرة، فيقال: كِسْرة خبز ـ التميرات، جمع تُمَيرة: التمرة الصغيرة.

على عاتقه لا يبالي مَن لاقى، يبلغ سلطانه مُنقَطَع الخُفّ والحافر[٣٤]، فإن كان هذا هو، فلا يَهُولُهُ هؤلاء وجَمْعُهم، ولو أنهم ناؤوا[٣٥] على هذا الجبال الرواسي لغلبهم»؛ فقال ابن أخطب: «ليس هذا ذاك، إنما ذلك النبيُّ من بني إسرائيل، وهذا من العرب من وُلْد إسماعيل، ولا يكون بنو إسرائيل أتباعاً لولد إسماعيل أبداً[٣٦]، لأن الله قد فضلهم على الناس جميعاً[٣٧] وجعل فيهم النبوة والملك، وقد عهد إلينا موسى أن ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾[٣٨]، وليس مع محمد آية، وإنما جَمَعَهم جمعاً وسحرهم، ويريد أن يغلبهم بذلك»؛ فسكت القوم عن جوابه. ولم يزل هو يكرر عليهم أمثال ذلك، حرصاً منه على نقض عهد رسول الله (ص) ـ وقد كانوا يومئذٍ حلفاء الأوس ـ إلى أن قلبهم عن رأيهم وأجابوه إلى ذلك، وأظهر رئيسهم كعب البراءة من العهد بينه وبين

---

٣٤ ـ الخُفّ: لباس الرِجل للإنسان، الحذاء ـ الحافر: قدم الدواب من خيل وبقر وسواها. يبلغ سلطانه مُنقَطَع الخف والحافر، أي تصل سلطته ونفوذه أو حكمه إلى آخر ما تصل إليه أرجل الناس والحيوانات من الأرض.

٣٥ ـ ناؤوا على الجبال: أقاموا نُئِيَّهم على الجبال، والنُئِي، حمع نُؤْي: أي الحفير والقناة التي حول الخيمة لتمنع عنها مياه السيل؛ والمعنى أنهم حتى لو خيموا على الجبال العالية فوق محمد (ص) لغلبهم فوق رواسيهم.

٣٦ ـ أشاع اليهود في أتباعهم وفي الشعوب الأخرى، أن الأنبياء يكونون دائماً من أبناء إسحاق بن إبراهيم الخليل وولده يعقوب الذي أُعطي نعت «إسرائيل»، أي لا يكون الأنبياء من ولد إسماعيل الابن الأول والأكبر لإبراهيم الخليل، وقد صدّق كثير من العرب هذ الزعم اليهودي وجعلوه حجة في رد نبوة محمد (ص)، ولذا جاءت الآية القرآنية الكريمة عن هؤلاء بقوله تعالى إنهم: ﴿عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ (ج ٢٣، س ٣٨ ص: ٤ ـ وكذا في ج ٢٦، س ٥٠ ق: ٢).

٣٧ ـ إن تفضيل الله تعالى إنما كان لبني إسرائيل الموحِدين في فترة عبادة الشعوب الأخرى للأصنام أو شرك تلك الشعوب، بجعلهم لله تعالى شركاء في الألوهية.

٣٨ ـ جاء ذلك منسوباً إليهم أيضاً في القرآن الكريم (ج ٤، س ٣ آل عمران: ١٨٣).

رسول الله (ص)، بل وأخرج كتاب عهده مع النبي، فأخذه ابن أخطب ومزقه، ثم قال: «قد وقع الأمر الآن، فتجهزوا للقتال».

ولما انتهى خبر ذلك إلى النبي (ص) أغمه غماً شديداً، وطلب سعد بن مُعاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج، وعبدالله بن رواحة، وخوَّات بن جبير، وأسرَّ إليهم أن ينطلقوا إلى بني قريظة للتحقق من الخبر وهل هو صحيح أم لا، وقال لهم: «انظروا ما صنعوا، فإن كان ما بلغنا عنهم حقاً وكانوا نقضوا العهد، فلا تُعلِموا بذلك أحداً حتى لا تفتوا أعضاد الناس، بل لحنوا لحناً نعرفه إذا رجعتم إلينا وقولوا: عَضَلُ والقارَة، وأما إن كانوا على الوفاء، فأجهروا به للناس». وكان اللفظان «عَضَل» و «القارَة» اسمين لقبيلتين من العرب هما أصحاب الرَجيع وأصحابُ خُبَيْب ابن عَدِي، دخلا في الإسلام ثم غدرا بالمسلمين، فصار أسماهما كنايةً يُضرَب بها المثل لكل من غَدَر.

فنهض القوم وخرجوا من عند رسول الله (ص)، إلى أن بلغوا باب حصن اليهود، فأشرف عليهم كعب من فوق الحصن، وجعل يشتم رسول الله وسعد بن عبادة وهو يقول: «لا عقدَ بيننا وبين محمدٍ ولا عهد»؛ وأخذ ابن عبادة يشاتمهم ويشاتمونه، إلى أن نادى ابنُ مُعاذ كعباً يقول له: «إنما أنت ثعلب في جُحر! لَتُوَلِّيَنَّ قريشٌ، ولَيُحاصِرَنَّكَ رسول الله، ثم لَيُنزِلَنَّكَ على الصُغُر[39] والقَماء (أي الذل)، ولَيضربَنَّ عنقَك»؛ ثم قال لصاحبه ابن عبادة: «دع عنك مُشاتَمَتَهُم، فإن ما بيننا وبينهم أعظمُ من ذلك»؛ ثم رجعا بمن معهما إلى النبي (ص) حتى انتهيا إليه وقالا له: «عضل والقارَة»؛ فقال النبي: «لعلنا نحن أمرناهم بذلك»؛ وإنما قال (ص) ذلك على سبيل التورية، خوفاً من بلوغ قريش خبر غدرهم، فتزداد بذلك جرأة على المسلمين.

---

٣٩ ـ الصُغُر والصَغار: المذلة والمهانة والحقارة.

ثم بلغ الخبر بعد ذلك أبا سفيان وأصحابه، لأن حُيي بن أخطب مضى إليهم وبشرهم بنقض بني قريظة عهد النبي (ص)، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً. ولكن، من ناحية ثانية، عظم البلاء على المسلمين بعد أن انتشر الخبر في ما بينهم أيضاً، وازدادوا خوفاً وخشية؛ ولكن النبي (ص) جعل ينادي فيهم: «الله أكبر! أَبْشِروا يا معشر المسلمين!»؛ فإنه كان موعوداً بالنصر والغلبة عليهم.

ولعل أهم عامل من عوامل النصر والغلبة للمسلمين في ذلك اليوم العصيب والشديد جداً على النبي (ص) والمسلمين، كان الخدعِة العميقة والبارعة التي خطَّط لها ونفذها نعيم بن مسعود الأشجعي.

خِدعة نُعَيم بن مسعود:

كان نُعَيم بن مسعود الأشجعي قد فكر بتعاليم الإسلام ودعوة محمد (ص) واقتنع بها، ثم اعتنق الإسلام أخيراً، وكان ذلك قبل قدوم قريش وأحزابها بثلاثة أيّام فقط، ولكن لم يعلم بإسلامه أحد من اليهود، ولا أبو سفيان، ولا أحدمن قريش. فلما نظر إلى وحشة المسلمين وفزعهم من بني قريظة والمشركين، أتى في جوف الليل إلى النبي (ص) وقال له: «يا رسول الله، إني قد أسلمت وآمنت بالله وصدقتك، وقد كتمت إيماني عن الكَفَرة، ولم يعلم بي أحد من قومي، فمُرْني بأمرك: فإن أَمَرتَني أن آتيكَ بنفسي وأنصُرَك بمهجتي فعلتُ، وإن أمرتَ أن أَخْذُلَ بين اليهود وبين قريشٍ فعلتُ، حتى لا يخرجوا من حصنهم»؛ فقال النبي (ص): «إنما أنت فينا رجل واحد، فاْخذلْ عنا ما استطعتَ، وإن ذلك أَوْقعُ عندي، فإن الحرب خدعة»؛ قال: «أفتأذن لي أن أقول فيك ما أريد؟»؛ قال (ص): «قل ما بدا لك».

فانطلق نُعَيم حتى أتى بني قريظة، فدخل عليهم وأخذ يخادعهم، وقال في ما قال: «إني لكم صديق؛ واللهِ ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة؛ إن البلدَ بلدُكم، وبه أموالُكم وأبناؤكم ونساؤكم، وأما

قريش وغطفان فبلادهم غيرها، وإنما جاؤوا حتى نزلوا معكم، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم، وخلّوا بينكم وبين الرَجُل، ولا طاقة لكم به. وإنكم تعلمون مودتي لكم، وقد بلغني أن أباسفيان قال لقومه: نُخرِج هؤلاء اليهود، فنضعهم في نحر محمد، فإن ظفروا كان الذِكْر لنا دونهم، وإن كانت علينا، كانوا هؤلاء مقاديم الحرب؛ لذا أرى لكم أن لا تَدَعوهم يدخلون عسكركم، حتى تأخذوا منهم عشرة من أشرافهم يكونون في حصنكم على [شرط] أنهم إن لم يظفروا بمحمد، لا يبرحون حتى يردوا عليكم عهدكم وعقدكم بين محمد وبينكم، فإنه إن ولَّت قريش ولم يظفروا بمحمد، غزاكم محمد فقتلكم»؛ ففرحت بنو قريظة بكلامه وقالوا له: «أحسنت وأبلغت في النصيحة، وأشرت برأي صواب. إنا لا نخرج من حصننا حتى نأخذ منهم رهنا عشرة يكونون في حصننا»؛ وشكروا نعيماً على رأيه ونصيحته، حتى اطمأن إلى نيتهم وقرارهم.

ثم قام نُعَيم وانصرف إلى أبي سفيان وأَشراف قريش، فلما انتهى إليهم، اختلى بأكابرهم، وقال لهم في ما قال: «يا معشر قريش، إنكم قد عرفتم وُدّي أياكم ونصحي لكم، وفراقي محمداً ودينه؛ وإني قد جئتكم بنصيحة، فاكتموا علي»؛ قالوا: «نفعل؛ وما أنت عندنا بمُتهَم»؛ قال: «تعلمون أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا في ما بينهم وبين محمد، وأنهم بعثوا إليه أنه لا يُرضيك عنا إلا أن نأخذ من القوم رهناً من أشرافهم، وندفعهم إليك فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادكم، وقد أجابهم محمد إلى ذلك، فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفراً من رجالكم، فإياكم أن تعطوهم ولا رجلاً واحداً؛ واحذروهم، فقد بلغني أن محمداً قد وافق اليهود أن يدخلوا بين عسكركم ويميلوا عليكم، وأنه قد وعدهم إذا فعلوا ذلك، أن يرد عليهم جناحهم الذي قطعه بنو النضير وقينقاع، فلا أرى أن تَدَعوهم يدخلون في عسكركم قبل أن تأخذوا منهم رهناً تبعثون بهم إلى مكة، فتأمنون بذلك مكرهم وغدرهم»؛ فاستبشرت قريش بكلامه، وقال له أبو سفيان: «وفقك الله

وأحسن جزاءك! مِثْلُكَ مَن أهدى النصائح».

ثم قام نُعَيم من عندهم وانطلق إلى غطفان، فلما اجتمع بهم، جعل يقوم لهم مثل ما قال لقريش «إني رجل منكم»، ولم يزل يحذرهم من اليهود، وطرح عليهم أيضاً موضوع أخذ الرهائن، حتى صدقوه ووافقوه على رأيه، بل وشكروه على نصيحته.

وفي صباح اليوم التالي، وكان يوم سبت، وجه أبو سفيان «عِكْرِمَةَ بن أبي جهل» في نفر من قريش إلى حصن بني قريظة يقولون لهم: «إن الكُراعَ والخُفَّ قد هلكتا[40]، وإنا لسنا بدار مقام، فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه»؛ فقالوا: «إن اليوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا بعد ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم، نستوثق بهم أن لا تذهبوا وتَدَعونا، فعندئذٍ نناجز محمداً»؛ فغضب القوم من كلامهم، وانصرفوا راجعين إلى أبي سفيان ورهطه يخبرونهم بمقالة اليهود، فقال أبو سفيان: «قد حذَّرَنا واللهِ نُعَيم هذا»؛ وامتنعوا أشد امتناع عن دفع رهن إليهم، بل وبعثوا لهم في ذلك بكلام خشن، فاستشعر اليهود من ذلك صدق كلام نُعَيم لهم، وجعلوا يقولون: «هذا واللهِ الذي قال لنا نُعَيم»؛ وامتنعوا أيضاً أشد امتناع عن مشاركتهم لهم في الحرب إن لم يأخذوا منهم رهناً، فاستشاط أبو سفيان ورهطه غضباً، وأخذ يعاتب حُيَيّ بن أخطب بقوله له: «ويلك يا يهودي! أين قومك؟»؛ وأخبره الخبر، فامتلأ ابن أخطب غيظاً، وانطلق إليهم فاجتمع بهم، وجعل يعاتبهم ويقول: «ويلكم، اخرجوا، فقد نابذتم محمداً الحرب، فلا أنتم مع محمد ولا أنتم مع

---

٤٠ ـ الكُراع (من الإنسان): ما تحت الركبة من مقدم الساق ـ الخُفّ: لباس الرِجْل، الحذاء؛ و (من الحيوانات) الحافر. وقوله: «إن الكراع والخف قد هلكتا»، أي أن الإجهاد قد ذهب بالطاقة والتحمل، ولم تعد السيقان (من الأشخاص) و ـ ربما ـ الحوافر (من الخيل) قادرة على حمل أصحابها فوقها.

قريش»؛ فأجابه كعب بقوله: «هذا من شؤمك، إنما أنت طائر تطير مع قريش غداً، وتتركنا في عقر دارنا يغزونا محمد. لا، إنا لسنا خارجين حتى تعطينا قريش عشرة من أشرافهم يكونون رهناً في حصننا، على [أساس] أنهم إن لم تظفر قريش بمحمد، لا يبرحون حتى يرد علينا محمد عهدنا وعقدنا، فإنا لا نأمن أن تمرَّ قريش، ونبقى نحن في عقر دارنا ويغزونا محمد، فيقتل رجالنا ويسبي نساءنا وذرارينا؛ أما إذا لم نخرج، فلعله يردَّ علينا عهدنا»؛ فقال ابن أخطب: «تطمَعُ في غير مَطمَع؛ فقد نابَذَتِ العربُ محمداً الحرب، ولك عهدُ الله عليَّ وعهدُ موسى، إن لم تظفر قريش بمحمد، أني أرجع معك إلى حصنك، يصيبني ما يصيبك»؛ فامتنع كعب عن إجابته أشد امتناع، وأخيراً قال له: «هو الذي قد قلتُهُ لك: إن أعطتنا قريش رهناً يكونون عندنا خرجنا معهم، وإلا لم نخرج». ولم يزل يَجْبَهُ كلامه بالرد والامتناع، حتى يئس منه ابن أخطب، ورجع إلى قريش يخبرهم بكلام اليهود، وأَنَّهم يسألون الرهن، فقال أبو سفيان: «هذا والله أول الغدر! لقد صدق نُعَيم بن مسعود، ونحن لا حاجة لنا في إخوان القرود والخنازير»؛ وعند ذلك ازدادت قريش والأحزاب غيظاً وغضباً على بني قريظة، واضمرت مهاجمتهم بعد انقضاء أمر النبي (ص) والمسلمين، وكذا النبي (ص) أيضاً ومن معه من الثابتين على الإيمان، فإنهم أضمروا مهاجمة بني قريظة بعد غزوة الأحزاب.

بعدئذٍ قامت قريش وهَمَّ قادتها ورجالها بمباشرة الحرب وقد تكاملوا عشرة آلاف مقاتل، وانضم إليهم مَن تابَعَهُم واستأجروه للحرب من الأحابيش وبني كنانة وغيرهم من البطون، حتى صار مجموعهم ثمانية عشر ألفاً نزلوا ناحية من الخندق، وحاصروا المسلمين ـ وهم ثلاثة آلاف فقط ـ بضعاً وعشرين ليلة، لم يكن بين الفريقين حرب خلالها إلا بالنبل والحصا، ولكن أكثر المسلمين ازدادوا بطول الحصار وهناً عن الحرب وضعفاً في القلوب، حتى غلبهم الجزع والفزع؛ فلما رأى النبي (ص) فيهم ذلك، جمع وجوهاً من أصحابه، فيهم سعد بن عبادة وسعد بن مُعاذ من الأوس،

يستشيرهم في أن يبعث إلى عُيَيْنَة بن حصن والحارث بن عوف (وكانا يومئذٍ قائدا غطفان) يدعوهما إلى الصلح والكف عن الحرب والرجوع بقومهما عن محاصرة المدينة، على أن يكون لهما ثلث ثمارها، فقال سعد بن عبادة: «يا رسول الله، إن كان هذا الأمر لا بد لنا من العملِ به، لأن الله أمرك به وجاءك الوحي فيه، فافعل ما بدا لك، وإن كنتَ تختار أنت أن تصنعه لنا، كان لنا فيه رأي»؛ فقال (ص): «لم يأتني به وحي، ولكني رأيتُ العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وجاؤوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم، إلى أن يحدث أمر ما»؛ فقال سعد بن معاذ: «يا رسول الله، حين كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعرف الله ولا نعبده، كنا لا نطعمهم من ثمرنا إلا ضيافة أو بيعاً؛ والآن حين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا به وأعزنا بك، نعطيهم أموالنا؟ ما بنا إلى هذا من حاجة. والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم»؛ فقال النبي (ص): «الآن قد عرفتُ ما عندكم، فكونوا على ما أنتم عليه، فإن الله تعالى لن يخذل نبيَّه ولن يسلمه، حتى ينجز له ما وعده».

ثم قام النبي (ص) في الناس يدعوهم إلى جهاد العدو ويحرضهم عليه، ويعدهم النصر من الله تعالى؛ ثم صعد بعدئذٍ إلى الجبل الذي عليه اليوم «مسجد الفتح»، يدعو الله تعالى ويناجيه، وصلى هناك ركعتين، ثم جعل يقول: «اللهم إن تَهْلَكْ هذه العصابة، لم تُعبَدْ بَعدها في الأرض. يا صريخَ المكروبين، ويا مجيب دعوة المضطرين، ويا كاشف الكرب العظيم، أنت مولاي ووَلِيي ووليُّ آبائي الأوَّلين، اكشف عنا غَمَّنا وهَمَّنا وكَرْبَنا، واكشف عنا شرّ هؤلاء القوم بقوتك وحَولِك وقدرتك». وظلَّ (ص) يدعو حتى نزل عليه الأمين جبرائيل (ع) يقول: «يا محمد، إن الله قد سمع مقالتك وأجاب دعوتك، وأمر ريحَ الدَّبُور[41] مع الملائكة أن تهزم

---

٤١ ـ الدَّبُور: اسم ريح تأتي من الغرب، تقابلها ريح «الصَبَا» التي تأتي من الشرق.

قريشاً والأحزاب»؛ فجثا النبي (ص) على ركبتيه وبسط يديه وهو يقول: «شكراً شكراً على ما رحمتني ورحمت أصحابي».

وأما ما كان من أمر قريش، فإنهم بعد ما طالت عليهم الإقامة خمساً وعشرين ليلة، قام فوارس منهم واستعدوا للنزال، فركبوا خيولهم بعد أن لبسوا لامةَ الحرب على أبدانهم، يتقدمهم عَمْرُو بن عبدِ وَدّ العامِري، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله، وجعلوا يمرون على القبائل من الأحزاب يأمرونهم بالاستعداد للنزال والحرب، ومروا على منازل بني كنانة ينادونهم: «يا بني كنانة، تهيأوا للحرب، فستعلمون اليوم مَن الفرسان». ثم أقبلوا مسرعين نحو المدينة، تعدو بهم خيولهم، إلى الجهة التي فيها النبيُ (ص) وأصحابُه، إلى أن بلغوا الخندق، فلما رأوه توقفوا أمامه ينظرون إليه وهم يقولون: «والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ولا تعرفها قبل ذلك، وإن هذا من تدبير الفارسي الذي معه» ـ يعنون سلمانَ (ع) ـ ثم جعلوا يطوفون بالخندق، يطلبون مضيقاً منه يعبرونه، حتى انتهوا إلى محلٍ منه أكرَهَ فيه الخمسةُ المذكورون خيولهم، وأخذوا يضربونَها ويدفعونها حتى وثبت بهم من جانب الخندق إلى جانبه الآخر نحو المدينة، وكانوا معروفين في القبائل بأنهم لا يقاومهم أحد، وفي طليعتهم عَمْرو بن عبد وَدّ، الذي كان يومئذٍ شيخاً كبيراً قد جاوز الثمانين، وكان يُعَد بألفِ فارس ويُعرَف بلقب «فارس يَلْيَل» ـ (ويليل اسم وادٍ قرب «بدر» به قرية «يَنْبُع»، كان قد اعترضه فيه بنو بكر في سالف الأيام، فقام وحده في وجوههم، حتى غلبهم ومنعهم أن يصلوا إليه، فاشتهر بذلك) ـ وكان عَمْرو (بن عبد وَدّ) هذا قد قاتل يوم بدر وإصابته فيه جراحات حتى اُرتَثَّ، لذا لم يشهد غزوة أُحُد. فلما حدثت غزوة الخندق، خرج عند البراز مُعلماً على رأسه بعلامة ليُرَى مكانه؛ ولما اقتحم الخندق بأصحابه، ركز رمحه في الأرض، وأقبل يجول ويصول أمام المسلمين ويطلب البراز منهم وينادي فيهم برفيع صوته: «هل مِن مُبارِز؟ هل مِن مبارز؟».

في تلك الأثناء لم يكن أمير المؤمنين علي (ع) أمامَ عمرو بين المسلمين، لأنه (بعد أن اكتشف المسلمون أن في الخندق ثغرة يمكن عبورها) خرج (ع) في نفر من المسلمين حتى انتهوا إلى الثغرة التي اقتحمها المشركون فسدَّها، ثم رجع ومَن رافقوه إلى رسول الله (ص)، فرأى أن المسلمين قد تجمعوا صفوفاً خلفه ملتجئين ومحتمين به، وقدَّموه إلى جهة العدو بين أيديهم وقد طارت عقولهم وغارت أحداقهم وهم وُقوفٌ سُكوتٌ كأن على رؤوسهم الطير، أو كأنهم قوالب بلا أرواح، دهشةً وفزعاً من براز عمرو، لا يجيب صوتَه مجيب ولا يتقدم منهم أحد، ورسول الله ينادي فيهم: «مَن لهذا الكلب وأضمن له على الله الجنة»، ولا يلبيه مُلبٌّ ولا يرد عليه أحد من المسلمين[٤٢].

ولم يزل اللعين ابن وَدّ يكرر النداء بقوله: «ألاَ رَجُل؟ ألاَ رَجُل؟»؛ ويؤنب المسلمين ويسبهم وينادي فيهم:

أيـنَ أنـتـمْ عـن قَـسْـوَرٍ عـامِـريٍّ   تَـتَّـقي الأسْـدُ بأسَـهُ في شَـراهـا[٤٣]

«أينَ جنَّتُكم التي تزعمون أنه مَن قُتِل منكم دَخلها؟»؛ إلى أن أخذ يرتجز بقوله:

ولـقـد بُـحِـحْـتُ مِـنَ الـنـداءِ بِـجـمَـعِـكُـمْ: هـل مِـن مُـبـارِزْ
ووقـفـتُ إذ جَـبُـنَ الـشُـجـاعُ مَـواقِـفَ الـقِـرْنِ الـمُـنـاجِـزِ[٤٤]

---

٤٢ ـ لقد بلغ من شدة خوف المسلمين يوم الأحزاب، ما جعل أبرز المؤمنين وكبار الصحابة يجبنون عن مقابلة عمرو والمشركين؛ وقد جاء في بعض الروايات أن ثاني القوم جعل يناجي ابن عوف وهو بجانبه بقوله: «أما ترى هذا الشيطان عَمْراً؟! لا والله لا يفلت منه اليوم أحد، فهلموا ندفع إليه طلبته ونلحق نحن بقومنا».

٤٣ ـ القَسْوَر: الأسد؛ و: القوي الشجاع؛ الأُسْد (جمع أَسَد): الأُسُود ـ شَراها: جبلُها، موقعها المحمي البعيد العالي.

٤٤ ـ القِرن: النِدّ، الصِنو، المثيل، و: الكُفْء ـ المُناجز: المُقاتل، المُحارب.

إنـــي كـــذلـــكَ لـــم أزَلْ مُـــتَـــســـرعـــاً نـــحـــو الـــهَـــزاهِـــز[٤٥]
إن الـشـجـاعـةَ فـي الـفـتـى والـجُـودَ مِـن خَـيـرَ الـغَـرائـز

ولما رأى أمير المؤمنين (ع) ذلك وسمع نداء الرسول في أصحابه وهم ناكِسو ﴿رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾[٤٦] وقد دارت أعينهم في أحداقهم، وكادت قلوبهم أن تتصدع وأفئدتهم أن تطير ومراراتهم أن تنشق، فزعاً ودهشة من صولة عمرو وهيبته وسطوة صوته، تقدم (عليه السلام) إلى النبي (ص) ملبياً دعوته وقال: «أنا له يا رسول الله»؛ فأشار إليه النبي يأمره بالجلوس، ثم كرَّر النداء في أصحابه ثانياً وثالثاً بقوله (ص): «أيكم يبرز إلى عمرو، وأضمن له على الله من الجنة أعلاها ومن قصورها ارفعها؟»؛ وظل الصمت مخيماً على الآخرين والخوف مُخْرِسَهم، عدا علي (ع) فإنه أجاب ثانية وثالثة: «أنا يا رسول الله». ولطيف هنا أن نذكر بعضاً من أبيات الشاعر المؤمن المبدع، الشيخ محمد كاظم الأزري البغدادي، صاحب القصيدة «الأزرية» المشهورة في وصف تلك اللحظات الحرجة الدقيقة، حيث يقول (رحمات الله عليه):

فابتدَى المصطفى يُحَدِّثُ عما ... يُؤجَرُ الصابرون في أُخراها
قائلاً إن لِلجليلِ جِناناً ... ليس غيرُ المجاهدين يَراها
أين مَن نفسُه تتوقُ إلى الجَنَّـ ... ـاتِ أو يُوردُ الجحيمَ عداها
مَن لِعمروٍ وقد ضَمِنْتُ على اللّـ ... ـهِ مِن جناتِهِ أعلاها
فالْتَوَوا عن جوابِهِ كَسَوامٍ ... لا تراها مُجيبةً مَن دعاها[٤٧]

---

٤٥ ـ الهزاهِز: الحروب، المعارك، الشدائد.

٤٦ ـ هذا الوصف من المؤلف للمشركين الخائفين، هو نص قرآني (مأخوذ من ج ١٣، س ١٤ إبراهيم: ٤٣).

٤٧ ـ السَوام: الحيوانات (الماشية والخيل) السائمة السائرة في المراعي، إنها حيوانات عجماء لا تنطق (ولا تجيب من دعاها).

وإذا هُـمْ بـفـارسٍ قُـرَشـيٍّ   تَرجُفُ الأرضُ خِيفةً إذْ يَطاها[48]
قـائـلاً مـا لـهـا سِـوايَ كَـفـيـلٌ   هـذه ذِمَّـةُ عـلـيٍّ وَفـاهـا

وكان عمر ذلك الفارس القرشي (علي عليه السلام) يومئذٍ يقرب من ثمانٍ وعشرين سنة فقط، فقال له النبي (ص): «يا علي، هذا عمرو بن عبدِ وَدّ فارسُ بَلْيَل»؛ فقال (ع): «وأنا يا رسول الله علي بن أبي طالب»؛ فعند ذلك قال (ص): «اذنُ مني يا علي»؛ فلما دنا منه عَمَّمَهُ النبي (ص) بعمامته التي كانت على رأسه، وناوله سيفه «ذا الفقار»، وألْبَسَهُ دِرعَهُ «ذات الفُضول» ـ وكان قد لفَّ العمامة على رأسه تسعة أكوار ـ ثم أمره بالتقدم نحو عمرو، فأسرع أمير المؤمنين (ع) في الانصراف مهرولاً في مشيته.

(ومشَى يطلبُ الصفوفَ كما   تمشي خِماصُ الحَشَى إلى مَرعاها)[49]

ووقف النبي بمن معه ينظرون إليه وقد دمعت عيناه (ص)، وأخذ يتضرع إلى ربه ويدعو لعلي (ع) بقوله: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته؛ اللهم إنك أخذتَ مني عُبيدة بن الحارث يوم بدر، وحمزة بن عبد المطلب يوم أُحُد، وهذا أخي علي بن أبي طالب، **ربِ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين**»[50]؛ ثم توجه (ص) إلى أصحابه وقال: «برز الإيمانُ كلُّه، إلى الشرك كلِّه».

ولما خرج أمير المؤمنين علي (ع)، تبعه جابر بن عبدالله (رض) لينظر

---

٤٨ ـ يَطاها (مخففة من يَطَأها): يدوس عليها بقدمه. ترجف الأرض حين يضع قدمه عليها.

٤٩ ـ خِماص الحَشَى: فارغات البطون. الحَشَى: ما في البطن من أمعاء وكبد وطحال وكرش (والجمع: أحشاء). خمصاء: فارغة، لا طعام فيها. كما تهرول وتسارع فارغات البطون خوامص الأحشاء من الحيوانات إلى المراعي.

٥٠ ـ هذه العبارة الأخيرة الدعاء، هي التي دعا بها إبراهيم الخليل (ع) ربه، وقد جاءت في القرآن الكريم (ج ١٧، س ٢١ الأنبياء: ٨٩).

ما يكون بينه وبين عمرو، فسمعه راداً على رَجْز عمرو (الذي بدأه مخاطباً المسلمين بقوله: ولقد بُحِحْتُ من النداء بجمعكم هل مِن مبارز) يقول في جوابه رجزاً أيضاً بوزنه وبقافيته نفسيهما:

لا تَعْجَلَنَّ فقد أتاكَ مُجيبُ صوتِكَ غيرَ عاجِزْ
ذو نِيَّةٍ وبَصيرةٍ والصدقُ مُنجي كلِّ فائز
إني لأرجو أن أُقيمَ عليكَ نائحةَ الجَنائز
مِن ضَربةٍ نَجلاءَ يَبقَى صوتُها بَعدَ الهزاهِز

ولما انتهى (ع) إليه، قال له عمرو: «من أنت؟»، قال (ع): «أنا علي ابن أبي طالب بن هاشم بن عبد مناف، ابن عم رسول الله وخَتَنُه[٥١]»؛ فلما سمع عمرو جواب علي (ع)، توقف قليلاً مندهشاً حائراً، لأنه كان في الجاهلية نديماً لوالده أبي طالب (ع)، ثم قال له: «غيرك يا ابن أخي مِن أعمامك مَن هو أسنُّ منك، فوالله إن أباك كان لي صديقاً ونديماً، وإني أكره أن أقتلَكَ وأُهْرِقَ دمك»؛ فقال علي (ع): «ولكني واللهِ ما أكره أن أُهرِقَ دمك»؛ فغضب عمرو من كلامه وسل سيفه وهو يقول: «ارجع يا ابن الأخ، فما أُحِبُّ أن أقتلك، فقد كان بيني وبين أبيك خلة»؛ قال (ع): «لكني واللهُ أُحِبُ أن أَقْتُلَكَ ما دمتَ أَبِيّاً للحق»؛ فحمي عمرو من كلامه واستشاط غضباً وقال: «أأمِنَ ٱبنُ عمِك حين بعثَك إليَّ مِن أن أختطفتك برمحي هذا، وأترُكَكَ مرفوعاً بين السماء الأرض، لا حيٌّ أنت ولا ميت؟»؛ قال (ع): «قد علم ابن عمي أنك إن قتلتَني، دخلتُ الجنةَ وأنتَ في النار، وإن قتلتُكَ فأنتَ في النار وأنا في الجنة»؛ قال: «كلتاهما لك يا علي؟ تلك إذاً قسمةَ ضِيزي[٥٢]»؛ قال (ع): «دع هذا يا عمرو؛ إني سمعتك

---

٥١ ـ خَتَنُه: زوج ابنته.

٥٢ ـ العبارة التي استعملها عمرو قرآنية، ولعلها كانت صارت شائعة (وردت في ج ٢٧، س ٥٣ النجم: ٢٢).

وأنت متعلق بأستار الكعبة تقول: لا يَعرِضُ عليَّ أحدٌ في الحرب ثلاثَ خِصالٍ إلا وقد أجَبْتُهُ إلى واحدة منها؛ وأنا أعرض عليك ثلاث خصال، فأجِبْني إلى واحدة منها»؛ قال: «هاتها يا علي»؛ قال (ع): «الأُولى أن تَشهدَ أن لا إلهَ إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله، وتُسلِمَ لِرب العالمين»؛ قال: «نَحِّ عني هذا»؛ قال (ع): «أمَا إنها خيرٌ لك لو أخذتَها! والثانيةُ أن ترجع وتردَّ هذا الجيش عن رسول الله، فإن يَكُ صادقاً، فأنتم أعلى به عيناً، وإن يَكُ كاذباً، كفَتْكُمْ ذؤبانُ العربِ أمرَه»؛ قال: «إذاً تتحدث نساء قريش بذلك، ويُنشد الشعراءُ في أشعارها أني جَبُنْتُ عن الحرب ورجعتُ على عَقِبي وخذلتُ قوماً رأَسوني عليهم»؛ قال (ع): «فالثالثة أن تنزل إلي، فإنك راكبٌ وأنا راجلٌ حتى أنابِذَك»[٥٣]؛ فوثب عن فرسه مغضباً، وعَقَرَ قوائِمه[٥٤] وهو يقول: «هذه خصلة ما ظننت أن أحداً من العرب يسومني عليها». ثم سل سيفه كأنه شعلة نار، وأقبل نحو علي (ع) كالجمل الغضوب، أو الجبل العظيم وقد احمرت عيناه وانتفخت أوداجه من الغضب، ورفع السيف، فاستقبله أمير المؤمنين (ع) بدَرَقَته[٥٥]، فضربه عدو الله بسيفه البتار بكل شدة وغضبٍ على أم رأسه ضربة قدَّ بها الدَرَقَة على رأسه نصفين، وأثبت فيها السيفَ حتى أصاب رأسه الشريف وشَجَّه، فوثب علي (ع) من تحت ضربته كالبرق الخاطف وانحرف عنه، ولف جرح رأسه بعمامته ـ كما قيل ـ بأقل من طرفة عين، ورجع إليه وهو يقول: «يا عمرو، أَما كفاكَ أني بارزتُكَ وأنت فارسُ العرب حتى اَستَعَنْتَ علي بظهير؟»[٥٦]؛ فالتفت عمرو إلى خلفه لينظر مَن الظهير وراءه، فلم يُمهله أميرُ المؤمنين (ع) دون أن همَّ بالسيف على ساقيه ـ وذلك لِقِصَر قامته (ع)

---

٥٣ ـ حتى أنابذَك، أي حتى [أستطيع أن] أنابذك: أُقاتلك مُواجَهةً، ومتقابلاً.

٥٤ ـ عَقَرَ: جَرَح. عقر الناقة: قطع قوائمها.

٥٥ ـ الدَرَقَة: الترس من جلد.

٥٦ ـ ظهير: مُساند، معين ونَصير، يحمي الظهر.

وطول قامة عمرو ـ وضَرَبَهما به ضربة سمع الفريقان طنّتها ورَجْع صداها، وصدق فيها قول الشاعر (الأزري رحمه الله):

وانْتَضَى مَشرفِيَّةً فتَلَقَّى ساقَ عمروٍ بضربةٍ فَبَراها
وإلى الحشر رَنَّةُ السيفِ منه يَملأُ الخافِقَينِ رَجْعُ صداها

فوقع عدو الله على قفاه كأنه جبلٌ عظيم تَدَهْدَهَ[٥٧]، ثم وقع على الأرض، فثار غبار ملأ الجو فوقهما ومنع الأقوام من رؤيتهما، حتى لم يعلم الفريقان ما جرى بينهما، وحتى اختلف الناس في الحكم على حالهما، فكان بعض منهم يزعم هلاك علي (ع)، وبعض ينكر ذلك، حتى سمع الفريقان صوت أمير المؤمنين (ع) بالتكبير، فقال النبي (ص): «قتله والذي نفسي بيده»؛ فتبادرَ الأصحاب عند ذلك وخرجوا مسرعين نحو موضع النزال، يسابق بعضُهم بعضاً ليعرفوا أمرهما، إلى أن انتهوا إلى العجاج، وكان أول من دخل العجاج عمر بن الخطاب (رض)، فرأى علياً (ع) يمسح سيفه بدرع عمرو، وقد جلس على صدره يكبر الله ويمجده، ثم سمع عَمْراً يقول له: «يا علي، قد جلستَ مني مجلساً عظيماً، فإذا قتلتَني فلا تَسلُبْني حُلَّتي»؛ فقال له علي (ع): «هي أهون عَلَيَّ من ذلك»؛ فرجع عمر (رض) إلى النبي مسرعاً يبشره وقال: «يا رسول الله، لقد قتله».

ولما سكنت العجاجة وانجلت الغبرة، نظر الفريقان فإذا بعلي (ع) جالس على صدر عمرو، وقد قبض على لحيته وهمَّ أن يقطع رأسه، وقيل إن علياً تَأنّى في جَزِّ رقبته، ورآه الناس مماطلاً في ذلك، حتى أخذ أحد المنافقين ينتقده بذلك عند رسول الله، فردَّ عليه النبي مغضباً «أنَّ فِعْلَ علي وتَأنّيهِ في ذلك لا يخلو مِن حكمة تُعرَف بعد رجوعه».

ثم إنه (ع) بعد تَرَيُّثِه هُنَيْهَة، وضع السيف على نحر عمرو، ثم شدَّ به

---

٥٧ ـ في بعض الروايات أن ذلك القائل كان الخليفة عمر (رض).

حتى جزَّ رأسه وقطع أوداجه، وحمله راجعاً به إلى النبي (ص) وهو يخطر في مشيته، ووجهه يتهلهل والدماء تسيل عليه من أم رأسه، وسيفه يقطر منه الدم وهو ينشد قائلاً:

أنا عليٌّ وٱبْنُ عبدِ المُطَّلِب   الموتُ خيرٌ لِلفَتَى مِنَ الهَرَب

فقال أَحَدُ القوم[٥٧]: «ألا ترى يا رسول الله علياً كيف يتبختر في مشيته!»؛ فقال النبي (ص): «إنها لِمَشْيةٌ لا يمقُتُها اللهُ تعالى في هذا المقام!».

ثم قام (ص) بمن معه ليستقبل أمير المؤمنين (ع)، فلما التقيا عانقه النبي (ص) وقبله، وجعل يمسح الغبار عن وجهه وهو يقول: «أَبْشِرْ يا علي، فلو وُزِنَ اليومَ عملُكَ بعملِ أمةِ محمد، لَرَجَحَ عملُك على عملهم»؛ ثم قال (ص): «ضَربةُ عليٍ يومَ الخندق، أفضلُ مِن عبادة الثَقَلين!»؛ وفيها قال صاحب «الأزرية» المُبدع:

يا لَها ضربةٌ حَوَتْ مَكرُماتٍ   لم يَزِنْ ثِقلَ أَجْرِها ثِقْلاها
هذه مِن عُلاهُ إحدى المَعالي   وعلى هذه فَقِسْ ما سِواها

ثم إن النبي (ص) قال لأمير المؤمنين: «يا علي ماكَرْتَهُ»؛ فقال الأمير (ع): «يا رسول الله الحرب خدعة»؛ ثم ألقى (ع) رأس اللعين بين يدي النبي وأنشأ يقول:

أعليَّ تَقتحِمُ الفوارسُ هكذا   عني وعنهم خَبِّروا أصحابي
اليوم يمنعني الفِرارَ حَفيظتي   ومصمِّم في الراس ليس بنابي[٥٨]
أَردَيْتُ عَمْراً إذْ طَغَى، بمُهَنَّدٍ   صافي الحديدِ مُجَرَّبٍ قَضَّابِ[٥٩]

---

٥٨ ـ يمنعني (عن) الفرار حفيظتي، أي حميتي وغيرتي على حفظ المحارم والذب عنها ـ المُصَمِّم: السيف. ويمنعني (أيضاً) عن الفرار سيف يقع «في الرأس، ليس بنابٍ» (أي بعيد أو مايل أو مخطىء) عن هدفه، بل يصيب دائماً.

٥٩ ـ أرديتُ: قتلت عمراً بمهند: بسيف ـ قَضَّاب: شديد القطع والنفوذ.

نَصَرَ الحجارةَ مِن سَفاهَةِ رأيِهِ   ونَصَرتُ رَبَّ محمدٍ بِصَوابِ[60]
فضربتُهُ وتركتُهُ متجدلا   كالجذعِ بين دكادكٍ ورَوابِ[61]
وَعَفَفْتُ عن أثوابِهِ ولَوَ أنَّني   كنتُ المُقَطَّرَ بَزَّني أثوابي[62]
لا تَحْسَبُنَّ اللهَ خاذِلَ دِينِهِ   ونبيِّهِ يا مَعْشَرَ الأحزابِ

وعند ذلك سُمع صوتُ منادٍ بين السماء والأرض يقول:

قَتَل عليٌّ عَمْرَا   قَصَمَ عليٌّ ظَهْرا   أبرَمَ عليٌّ أمرا
صادَ عليٌّ صَقْرا   هَتَكَ عليٌّ سِتْرا

وقام إليه أبو بكر وعمر فقبلا رأسه يقولان: «هلاَّ سلَبْتَهُ يا عليُّ دِرعَهُ؟ فإنه ليس في العرب درعٌ مثلها»؛ قال: «إني استحيَيْتُ أن أشكف سَوْأةَ ٱبنِ عمي».

وأنشأ يومئذٍ حسان بن ثابت يقول:

أمسَى الفتَى عَمْرُو بنُ وَدٍّ يبتغي   بجنودِ يَثْرِبَ غارةً لم تُنْظَرِ[63]
ولقد وجدتَ سيوفَنا مشهورة   ولقد وجدت جيادَنا لم تَقْصُرِ[64]
ولقد رأيتَ غداةَ «بدرٍ» عُصْبَةً   ضربوكَ ضرباً غيرَ ضربِ المُخْسِرِ[65]

---

٦٠ ـ نصرَ وأيَّد (عمرو) الأصنامَ الجامدة التي هي من الحجارة، وذلك من سفاهة رأيه وقلة فهمه.

٦١ ـ مُتَجدِّل: مرمي على الأرض. الجدالة: الأرض ـ الجِذع: أسفل شجر النخل، أو: جسد الإنسان دون رأس ويدين ورجلين ـ الدكادك: الأراضي المنخفضة المليئة بالأتربة وأجزاء الهدم ـ الروابي: الأعالي والمرتفعات من الأراضي.

٦٢ ـ المُقَطَّر: القتيل؛ قطره: صرعه ـ بَزَّني: سلبني.

٦٣ ـ لم تُنظَر: لم تُرَ، لم تتحقق.

٦٤ ـ (السيوف) مشهورة: مسلولة، مسحوبة من أغمادها، مرفوعة ـ (الجياد) لم تَقْصُر: لم تكفَّ وتعجز.

٦٥ ـ المُخْسِر: الواقع في الخسران، غير المصيب.

أصبَحْتَ لا تُدْعَى ليومِ عظيمةٍ ... ـ يا عمرُو ـ أو لِجسيمِ أمرٍ مُنْكَر

ولما بلغ شعره بني عامر (قبيلة عمرو) أجابه فتى منهم بقوله:

كذبتُمْ وبيتِ الله لا تَقتُلونَنا ... ولكنْ بسيفِ الهاشميينَ فٱفْخَروا
بسيفِ ٱبنِ عبد الله أحمدَ في الوَغى ... بكفِّ عليٍّ نِلتُمُ ذاكَ فٱقصروا
ولم تقتلوا عَمْرَو بنَ وَدٍّ ببأسكم ... ولكنه الكُفْوُ الهِزَبْرُ الغَضَنْفَرُ[٦٦]
عليٌّ الذي في الفخر طال بناؤه ... فلا تُكثِروا الدَّعْوَى علينا فتُحْقَروا
فليس لكم فخرٌ علينا بغيرِنا ... وليس لكم فخرٌ يُعَدُّ ويُذْكَرُ

ولما نُعِيَ عَمروٌ إلى أخته، صرخت قائلة: «من الذي اجترأ عليه؟»، قيل لها: «ابن أبي طالب»؛ قالت: «لو لم يكن مَوته على يد كفوٍ كريم، لَما أرْقَأْتُ[٦٧] دمعتي إن أهقرتها عليه! قتلَ الأبطال، وبارز الأقران، وكانت مَنِيَّتُه على يد كفو كريم من قومه، ما سمعتُ بأفخرَ مِن هذا يا بني عامر»؛ وأنشأت تقول:

لو كان قاتلُ عمروٍ غيرَ قاتله ... لكنتُ أبكي عليه آخِرَ الأبَدِ
لكنَّ قاتلَهُ مَن لا نظيرَ له ... وكان يُدعَى قديماً: بيضة البلد[٦٨]

وقالت أيضاً:

أَسَدانِ في ضِيقِ المَكَرِّ تَصاوَلا ... وكلاهما كُفْوٌ كريمٌ باسلُ
فٱذهبْ عليُّ فما ظَفِرْتَ بمثله ... قولٌ سديدٌ ليسَ فيه تحامُلُ
والثارُ عندي يا عليُّ فليتَني ... أدركتُهُ والعقلُ مِنّيَ كامل
ذَلَّتْ قريشٌ بعد مقتل فارسٍ ... فالذُّلُّ مُهلِكُها وخِزْيٌ شامل

---

٦٦ ـ الكُفُوُ، الكُفْءُ: الموازي، المماثل، النِد، الصِنو، المعادل ـ الهِزَبْر: الصَلْب، الشديد ـ الغَضَنفر: الأسد.

٦٧ ـ أرقأ: قطع، أوقف، جفف (الدمع).

٦٨ ـ (هو) بيضة البلد: (هو) كبير قومه.

ثم قالت: «والله لا ثارت قريش بأخي ما حنت النيب»[٦٩]، أي ابد الدهر.

ثم إنه لما قُتِل عمرو، غلب الخوفُ والفزع على مَن كان معه من الأحزاب وقبائل الأعراب، وانخلعت القلوب وطارت الأفئدة، وشاع نبأ ذلك شرقاً وغرباً، وذَلَّت رقاب الكفار على اختلاف أطوارها وتَشَتُّت أديانها و آرائها، وخضعت طواغيت المشركين، ومُلِئوا خشية ورعباً، وداخَلَهم الذل والصغار، وعَرَضَهم الوهن والعار، وظهر على المسلمين العز والافتخار. وأما الأربعة الذين كانوا وثبوا في الخندق مع عمرو، فولوا أدبارهم منهزمين، وقد كادت نفوسهم أن تطير جزعاً، وأشرفت مراراتهم أن تتصدع فزعاً، إلى أن وثبوا في الخندق ثانية بخيولهم راجعين، ما عدا نوفل بن عبد العُزَّى، فإنه قصر به فرسه حتى وقع به في الخندق، وتبعهم المسلمون يتسابقون في اللحوق بهم، وانضم إليهم أمير المؤمنين علي (ع) يتبع المنهزمين، فلما رأوا نوفلاً في جوف الخندق، جعلوا يرمونه بالحجارة، وجعل هو ينادي فيهم: «قِتْلَة أجمل مِن هذه، فلينزل إليَّ بعضكم لأقاتله»؛ فنزل إليه أمير المؤمنين (ع)، وطعنه في تَرْقُوَته[٧٠] طعنة كان فيها حتفه. وكان عدو الله عظيماً في قومه ومهاباً إلى درجة أن بعث المشركون إلى النبي (ص) يعرضون عليه أن يشتروا منه جيفة نوفل بعشرة آلاف، فقال (ص): «هو لكم. إنا لا نأكل ثمن الموتى»؛ وقد فرح النبي (ص) والمسلمون بمقتل عمرو ونوفل فرحاً شديداً، وجعل النبي (ص) يبشرهم بقوله: «ذهب ريحهم، لا يغزوننا بعد اليوم، بل نحن نغزوهم إن شاء الله». ثم أخذ (ص) يدعو على سائر المشركين ويقول: «اللهم يا مُنزِلَ الكتاب يا سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم

---

٦٩ ـ «النِيب» أو «النُوب» (مفردها: النائب): جموع النحل التي تنوب (وتعود نوبة بعد أخرى) إلى الخلايا ـ ما حنَّت النيب: ما دامت النحل تحن (إلى الخلايا)، وهو شيء لا يتوقف.

٧٠ ـ التَرْقُوَة: مكان التقاء الحَلْق بالصَدر.

وزلزلهم». ولحق أميرُ المؤمنين عليٌ (ع) هبيرةَ بعد قتل نوفل، حتى أعجزه وضربه ضربة كان فيها هلاكه بعد أن سقط درعه؛ أما عكرمة وضرار فتمكنا من الهرب ونَجَوَا من القتل.

وأقام النبي (ص) بمن معه بعد ذلك خمسة عشر يوماً في الخندق يحارب المشركين، وخرج ذات يوم ضرار من عسكر المشركين يطلب البراز، فأمر النبي (ص) عُمَرَ بن الخطاب (رض) أن يخرج إليه يبارزه، فلما التقيا، انتزع عمر سهماً ليرميه به، فقال له ضرار: «ويلك يا بن صهاك[٧١]، أترميني في مبارزة؟ واللهِ لَئِن رميتَني لا تركتُ عَدَوِياً بمكة إلا قتلتُه»؛ فولى عمر منهزماً عنه من غير رمي، ولحقه ضرار وضربه بالقناة على رأسه ضربة خفيفة، ثم رفع القناة عنه وهو يقول: «إنها لَنعمة مشكورة، فاحفظها يا بن الخطاب؛ إني كنت آلَيْتُ أن لا تُمكِّنني يدي من قتل قريشي فأقتله»؛ وكان قد جرى بينهما مثل هذه في غزوة أُحُد، وحفظ له عمر ذلك بعد ما وَلِيَ الخلافةَ، فولاَّه.

ثم إن الله سبحانه أرسل على المشركين الريح العقيم الشديدة المسماة «الدَبُور»، حتى اقتلعت أخبيتهم، وفرقت جموعهم، وهزمت أحزابهم حتى لم يتمكنوا معها من الإقامة، وجعلوا يتفرقون يميناً وشمالاً كأنهم أيدي سبا، ولم يبق منهم إلا أبو سفيان في نَفر يسير، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾[٧٢].

ونزل الوحي على النبي (ص) يخبره بما أصاب المشركين، فقام (ص)

---

٧١ ـ لم نجد للكلمة (صهاك) معنى، ولا مرجعاً يذكرها أو يذكر الموجب أو المناسبة لإطلاق اللقب؛ ولا يُستبعَد أن تكون الكلمة في الأصل «صهَّال» باللام (انقلبت بالنسخ مع الزمن إلى كاف)، والصهال (للحصان): الكثير الصهيل، فإذا أصاب تقديرنا تكون الشتيمة من ضرار تعني أنه ابن من يكثر الأصوات (والصهيل) دون أية قوة أو فاعلية معها.

٧٢ ـ ج ٢١، س ٣٣ الأحزاب: ٩.

على التل الذي عليه مسجد الفتح، وكانت الليلة ظلماء، وجعل يصلي ما شاء الله في جوف الليل، ثم قام (ص) بعدئذٍ ينادي في أصحابه: «مَن يذهب فيأتينا بخبر القوم وله الجنة؟»؛ فلم يجبه أحد منهم لِما كان بهم من الخوف والجهد والجوع؛ وكانت الليلة ممطرة شديدة البرد، فأعاد النبي (ص) نداءه فيهم ثانياً وثالثاً يقول: «ألا رجلَ يأتينا بخبرهم، يجعله الله رفيقي في الجنة؟»؛ ولما رأى أنه لا يقوم منهم أحد، نظر فإذا «حذيفة بن اليمان» قريباً منه، فناداه باسمه أولاً وثانياً إلى أن أجاب في الثالثة يقول: «لبيك يا رسول الله»؛ قال (ص): «أما تسمع كلامي؟ أدعوك فلا تجيبني»؛ قال: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، القَرُّ والضَرُّ (يعني البرد والجوع والخوف) مَنَعاني أن أجيبك»؛ فقال (ص): «انطلق وادخل في القوم حتى تسمعَ كلامهم وتأتيَني بأخبارهم، ولا تُحْدِثَنَّ حدثاً حتى ترجع إلي، فإن الله قد أخبرني أنه قد أرسل الرياح وهزمهم»؛ فقام حذيفة وانصرف نحو القوم، ودعا له النبي (ص) بقوله: «اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده».

قال حذيفة: «فمضيت بسيفي وقوسي وجحفتي وأنا أنتفض من البرد، فواللهِ ما كان إلا بقدر ما جُزْتُ الخندق حتى رأيتُ نفسي كأني في حمام، وما بي ضَرٌّ ولا قَر، ومررت على باب الخندق وقد اعتراه المؤمنون والكفار؛ ولما انتهيت إلى القوم، إذا الريح وجنود الله تعالى تفعل بهم ما تفعل، بحيث لا يَستَمسِك لهم معها بناء، ولا يثبت لهم نار، ولا يطمئن لهم قِدْر؛ وكان في الريح حصا، فلم تترك لهم ناراً إلا أذْرَتْها[74]، ولا خِباءً[75] إلا طرحته، ولا رمحاً إلا ألقته، حتى جعلوا يَتَتَرَّسون[76] من

---

٧٣ ـ الجحفة: الأرجح أنها وعاء الشرب.

٧٤ ـ أذرَتْ: فَرَّقَتْ، بعثرت.

٧٥ ـ الخِباء: الخيمة أو غرفة السكن المصنوعة من صوف أو وَبَر أو شعر.

٧٦ ـ يَتَتَرَّسون: يَحْتَمون، يتخذون أترسة (جمع ترس).

الحصا، وكنا نسمع وقع الحصا في الأترسة، فقصدت خباءً عظيماً، وإذا نار تخبو وتوقد فيه، ولما انتهيت إليه إذا هو خيمة أبي سفيان، وإذا هو قد دَلّى خِصْيَتَيهِ على النار وهو ينتفض من شدة البرد، ويقول لمن عنده: يا معشر قريش، إن كنا نقاتل أهل السماء بزعم محمد، فلا طاقة لنا بأهل السماء، وإن كنا نقاتل أهل الأرض فنقدر عليهم. فانسللت وجلست بينهم، وإذا بإبليس في صورة رجل مُطاع منهم قام فيهم يقول: أيها الناس، إنكم قد نزلتم بساحة هذا الساحر الكذاب، ألاَ وإنه لن يفوتكم من أمره شيء، فإنه ليست له طاقة المقام، قد هلك الخُف والحافر. فقام أبو سفيان وقال لهم: لينظر كل رجل منكم إلى جليسه، لا يكون لمحمد عين في ما بيننا؛ فبادرتُ أنا وقلتُ للذي عن يميني: من أنت؟ قال: أنا عمرو بن العاص؛ ثم قلت للذي عن يساري: من أنت؟ قال: أنا معاوية. وإنما بادرت إلى ذلك لئلا يسألني أحد: من أنت؟».

ثم تابع حذيفة بن اليمان قصة تَتَبُّعِهِ لأخبار القوم، فذكر أن أبا سفيان قال بعدئذٍ راداً على الرجل الأول (إبليس) الذي كان يحثهم على متابعة قتال النبي (ص) والمسلمين: «يا معشر قريش، واللهِ ما أنتم بدار مقام! هلك الخف والحافر! وأخلفتنا بنو قُرَيظة، وهذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء»؛ ولم يزل أبو سفيان يشير على قومه بتلك الآراء، ويأمرهم بالارتحال، إلى أن توجه إلى خالد بن الوليد ـ وكان في مَن حضر عنده ـ وقال له: «يا أبا سليمان، لا بد من أن أقيم أنا أو أنت على ضعفاء الناس، فإما أن تتقدم أنت، فتجمع الناس ليلحق بعضهم بعضاً وأكون أنا على الساقة، وإما أن أتقدم أنا وتكون أنت على الساقة»؛ قال خالد: «بل أتقدم أنا وتتأخر أنت»؛ فقاموا جميعاً يخرجون من الخيمة وقد هموا بالانصراف والهزيمة، وتأخر أبو سفيان وحده حتى خرج بعدهم من الخيمة.

قال حذيفة وهو يتابع قصة القوم: «حين خرج أبو سفيان من الخيمة،

كنت أنا متخفياً في ظلها، ونظرت إليه فرأيته يمتطي راحلته قبل أن يحل عقالها، وكان ذلك من فرط الاضطراب الذي كان به، ثم انتبه فترجل ليحل العقال، فأصبح بإمكاني أن أقتله، وقد هممتُ أن أفعل، بل ووضعت السهم في كبد القوس، ثم ذكرت فجأة قول النبي (ص): لا تُحْدِثَنَّ حدثاً حتى ترجع إلي؛ فكففت عن ذلك. فلما قام على راحلته، جعل يعجل على قريش برفيع صوته بالفرار والنجاة بالهزيمة، ينادي فيهم: النجاء النجاء؛ وتبعه طَلْحَة الأزدي، وعُيَيْنَة بن حصن، والحارث بن عوف، والأقرع بن حابس، وأمثالهم، فقاموا وركبوا رواحلهم وهم ينادون في عشائرهم وأصحابهم: ارتحِلوا فإنا مرتحلون، وإن محمداً طلبكم بِشّر؛ إلى أن هربوا كلهم منهزمين ولم يبق أحد منهم، فرجعتُ إلى رسول الله (ص) عند طلوع الفجر وأخبرتُه الخبر، فحمد الله تعالى وشكره كثيراً».

قال حذيفة: «ثم إن الرسول (ص) صلى بالناس صلاة الفجر، وأمر مناديه بعد الصلاة فنادى: لا يَبْرَحَنَّ أحدٌ مكانه إلى أن تطلع الشمس؛ ولكن كثيرين من أصحابه لم يستجيبوا للنداء وغادروا متلهفين إلى بيوتهم وأولادهم، وأطاع أمره (ص) نفر يسير أقاموا معه حتى طلعت الشمس، ثم ارتحلوا معه (ص) نحو المدينة حتى دخلوها وأمامهم وفوق رؤوسهم اللواء مرفوعاً بيد أمير المؤمنين علي (ع)، ويتقدمهم النبي (ص) وهو يقول مكبراً راضياً: لا إِلَه إلا الله وحدَهُ وحدَه، أنجزَ وعْدَه، وأَعزَّ جُنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده. وكشف الله عن نبيه (ص) بسيف علي (ع) كل غمة! والذي نفسُ حذيفة بيده: إن جميع أعمال الأصحاب حول محمد، منذ أن بعثه الله إلى يوم القيامة لو وُضِعت كلها في كفة من الميزان، ووُضِع عمل علي يوم الخندق في الكفة الأخرى، لرجح عمله على جميع أعمالهم! ألا أين كان فلان وفلان وحذيفة وجميع أصحاب محمد، يوم عمرو بن عبد ودّ، حين دعا محمد إلى المبارزة فأحجم الناس كلهم وتأخروا، ما خلا علياً فإنه برز إليه وقتله الله على يده؟! ألا إن عمله

ذاك لأعظم أجراً من أعمال الناس كلهم إلى يوم القيامة!»[٧٧].

ثم كانت في اليوم نفسه، وبعد أن عاد الرسول والمسلمون من الخندق وحرب الأحزاب إلى المدينة، بل وقبل صلاة العصر من ذلك اليوم، غزوة اليهود من بني قريظة.

---

٧٧ ـ نرى مناسباً ما دمنا في سيرة الرسول الأعظم (ص)، وفي أخبار غزوة الأحزاب يوم الخندق، أن ننقل ولو باختصار رواية تنقلها بعض المصادر، وهي أن علياً (ع) بعد أن قتل عَمْرَو بن عبد وَد، دفع سيفه «ذا الفقار» إلى ابنه الحسن (ع) يقول له: «قل لأمك أن تغسل هذا الصيقل»؛ فأخذه الحسن (ع) إلى أمه، ثم أرجعه إلى أبيه وهو عند النبي (ص)، فرأى علي (ع) في وسط السيف نقطة لم تُنَقَّ من الدم، فقال لابنه: «أليس قد غسلته الزهراء؟»؛ قال: «بلى»؛ قال: «فما هذه النقطة؟»؛ فأجابه النبي (ص) بقوله: «يا علي، سَلْ ذا الفقار، يخبرْك»؛ فهزه أمير المؤمنين (ع) وقال له: «أليس قد غسلتك الطاهرة من دم الرجس النجس؟»؛ فأنطق الله السيف حتى سمع كلُّ مَن حضر قوله: «بلى، ولكنك ما قتلتَ بي أحداً أبغضَ إلى الملائكة من عمرو بن عبد ود، لذا أمرني ربي فشربت هذه النقطة من دمه، وهي حَظّي منه، فإنك لا تَسُلُّني يوماً بعد الآن، إلا ورأت الملائكة تلك النقطة وصلَّت عليك»، فعجب الحاضرون من ذلك ودهشوا من كلامه.

غزوة بَني قُرَيْظَة

حين رجع النبي (ص) من غزوة الخندق ودخل المدينة، انصرف إلى بيته وهمَّ أن يغتسل من الغبار، وكان اللواء ما زال معقوداً، إذ هبط عليه الأمين جبرائيل (ع) يقول له: «عَذِيرَكَ[1] مِن مُحارب» (أي هات مَن يعذرك) ثم قال: «واللهِ ما وضعت الملائكة لَأْمَتَها، كيف تضع لأْمَتَك[2]؟ إن الله يأمرك أن لا تصلي العصر إلا ببني قريظة، وإني مُتقدِمُكَ ومُزلزلٌ بهم حصنَهم. لقد كنا في آثار القوم (يعني الأحزاب)، نزجرهم زجراً، حتى بلغوا حمراء الأسد»[3]؛ وجعل جبرائيل (ع) يستعجل النبي (ص) بالرجوع إلى حصن بني قريظة الذين نقضوا عهده ومزقوا كتابه وسبوه وتبرأوا منه اغتراراً باجتماع الأحزاب، فأمره بمحاربتهم، ومداهمتهم قبل صلاة العصر.

خرج النبي (ص) سريعاً من البيت لِيُعْلِم أصحابه بوحي الله وما أمر تعالى به، فإذا أمامه حارثة بن النعمان يستقبله قائلاً له: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هذا دِحْيَة الكَلْبي (وهو أحد الصحابة وكان جبرائيل (ع) يتصور بصورته أحياناً) ينادي في الناس: ألاَ لا يُصَلِّيَنَّ العصرَ أحدٌ إلا في بني قريظة»؛ فقال النبي (ص): «إن ذاك جبرائيل»؛ ثم قال (ص): «ادعوا لي

---

١ ـ العَذير: مَن يعذر، العاذر.

٢ ـ اللّأمة: الدِرْع.

٣ ـ حمراء الأسد: يقول ابن إسحاق (نقلاً عن السيرة.. لابن هشام)، إنها على بعد ثمانية أميال من المدينة.

علياً»؛ ولما أتاه أمير المؤمنين علي (ع)، أمره أن ينادي في المسلمين بنداء جبرائيل (ع)، فلم يزل أمير المؤمنين ينادي في الناس بذلك، حتى اجتمعوا عند رسول الله وهو فزعٌ من تأخير أمر الله سبحانه، فبادر (ص) إلى دفع الراية العظمى إلى أمير المؤمنين، وبعثه على مُقدَّمة الجيش في ثلاثين من الخزرج إلى حصن بني قريظة.

ثم خرج (ص) هو بعدئذٍ بمن معه على أثرهم ومرَّ (ص) في طريقه على جماعة من بني غَنْم[٤] من الأنصار كانوا ينتظرونه، فاستقبلوه وأخبروه أنه «مر بنا دحية الكلبي على بغلة شهباء، عليها قطيفة من ديباج»، فأجابهم النبي (ص) أنه جبرائيل، أُرسِلَ إلى بني قريظة ليزلزل بهم حصونهم، ويقذف في قلوبهم الرعب.

أما مقدمة الجيش الذين سبقوا أهل المدينة بقيادة أمير المؤمنين علي (ع) إلى حصن بني قريظة، فإنهم لما دنوا من الحصن وأحاطوا به، أشرف عليهم من أعلى القصر رئيس بني قريظة ومقدمهم «كعب بن أسيد»[٥]، وأخذ يشتمهم ويشتم رسول الله (ص)، فغضب علي (ع) من ذلك ورجع بنفسه ليخبر النبي (ص) قبل وصوله إليهم، فلقيه في الطريق مقبلاً على حمار يمتطيه، فقال له: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا تدنُ من الحصن»؛ فقال (ص): «يا علي، لعلهم شتموني؟! إنهم إذا رأوني أذلهم

---

٤ ـ بعض التواريخ وكتب السيرة المشهورة (مثل سيرة ابن هشام، وتاريخ ابن الأثير وسواهما) لا تذكر ـ كما ذُكر هنا ـ اسم الجماعة هؤلاء الذين لقيهم النبي (ص) في طريقه (وأخبروه عن دحية الكلبي)، ولكن تذكر اسم المكان الذي لقيهم فيه، وهو «الصَوْرَيْن»: موضع قرب المدينة.

٥ ـ جاء اسم رئيس بني قريظة هذا، كما جاء في المتن «كعب بن أَسْيد» (أفعل التفضيل من فعل ساد يسود، فهو أَسْيَد، بفتح الهمزة وتسكين السين وفتح الياء) أو: . . . أُسَيْد (تصغير أَسَد، أي أسد صغير)؛ وجاء في مصادر أخرى «كعب ابن أَسَد».

الله! دَعْهُم، فإن الله سيُمْكِن منهم، وإن الذي أمكنك من عمرو بن عبد وَدّ لا يخذلك؛ فقف حتى يجتمع الناس، وأبشر بنصرٍ من عند الله تعالى، فإنه قد نصرني بالرعب لهم من مسيرة شهر»؛ فرجع أمير المؤمنين (ع) إلى محله من قرب الحصن. فلما أَشرف عليه اليهود، صاح صائحهم: «قد جاءكم قاتل عمرو»؛ فوقعت الصيحة فيهم من سماعهم ذلك الخبر، وملئوا رعباً وفزعاً وخوفاً وجزعاً.

ثم وصل النبي (ص) بمن معه ودنا من حصنهم، فلما سمع السب والشتم منهم، ناداهم: «يا إخوة القِرَدة والخنازير، أتشتمونني؟! إخسأوا أخسأكم الله!»؛ فأشرفوا عليه من أعلى الحصن ينادونه بقولهم: «يا أبا القاسم ما كنت جَهولاً» (أي غَضوباً، عنيفاً). وكان الموقع الذي وصل إليه الرسول وعسكره وأصحابه، يبعد قدر ميلين عن المدينة ويسمى «بئر بني المطلب»، ولم يكن حول الحصن الذي أحاطوا به مكان ينزلون فيه، لكثرة ما كان هناك من النخيل، فوقف النبي (ص) ينظر إلى النخلات ثم أَشار بيده إليها، فتباعدت كلها عن الحصن وتفرقت في المفازة، فنزل عسكره (ص) حول الحصن، وحاصروه ثلاثة أيام لم يُخرِج أثناءها أحد من اليهود رأسه من الحصن. فلما كان اليوم الرابع، نزل «غزال بن شمول» من الحصن، وتقدم إلى النبي (ص) يفاوضه، وقال في بعض كلامه: «تُعطينا يا محمد ما أعطيتَ إخواننا من بني النضير: تحقن دماءَنا، ونخلي لك البلاد وما فيها، ولا نكتمك شيئاً»؛ قال (ص): «لا، أو تنزلون على حكمي»؛ فرجع غزال إلى الحصن، وبلَّغ أصحابَه كلام النبي، فامتنعوا عن ذلك.

ولكن الشدة تضاعفت عليهم بعد أيام من الحصار، حتى جزعت النساء والصبيان منهم، وجعلوا يبكون بكاء شديداً، إلى أن بعثوا إلى النبي (ص) يسألونه أن يرسل إليهم «أبا لبابة عبد المنذر» ـ وكان أخا بني عمرو بن عوف الذين كانوا يومئذٍ حلفاء الأوس ـ فطلبوه ليستشيروه في أمرهم. فلما أرسله النبي إليهم ودخل الرجل عليهم، قام في وجهه

الرجال، وجهش إليه الصبيان والنساء يبكون ويقولون: «يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟»؛ فرقَّ لهم وقال: «نعم»؛ ولكن مع إشارة منه بيده إلى حلقه، يعني أنه الذبح؛ إلا أنه لم تتحرك قدماه عن موضعه حتى علم أنه قد خان الله ورسوله بعمله ذلك، وندم على إشارته إلى حلقه، ورجع بسرعة منطلقاً بوجهه إلى المدينة من غير رجوع إلى النبي، حتى دخل المسجد وربط نفسه بعمود من عُمُده وهو يقول: «لا أَبرح مكاني حتى يتوب اللهُ عليَّ مما صنعت»، وعاهد اللهَ أن لا يطأ بني قريظة أبداً، ولا يراه الله في محل خان الله ورسوله فيه. وجاء في بعض المصادر أن الآية القرآنية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٦]، إنما نزلت في أبي لبابة هذا. وبلغ النبيَ (ص) خبرُه فقال: «أمَا إنه لو جاءني لاستغفرتُ له، وأمّا إذْ فعلَ ما فعل، فما أنا بالذي أُطلِقُه مِن مكانه حتى يتوب الله عليه».

وأقام النبي بعسكره محاصِرين للحصن خمسا وعشرين ليلة، حتى ارتفع الصراخ والبكاء من نساء بني قريظة وأولادهم في وجوه رجالهم، واشتد عليهم الأمر، وأيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، فقام فيهم صاحبهم كعب بن أَسَيد يقول لهم: «يا معشر اليهود، لقد نزل بكم من الأمر ما تَرَون، وإني عارض عليكم خِلالاً ثلاثاً، فاختاروا أيَّها شئتم»؛ قالوا: «ما هُن؟»؛ قال: «نبايع هذا الرجل ونُصدّقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنوا على دمائكم وأموالكم ونسائكم»؛ قالوا: «لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره»؛ قال: «فإذا أبيتم علي هذا، فهلموا نقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد رِجالاً[٧] مُصْلِتِينَ السيوف[٨] لم

---

٦ ـ الجزء ٩، السورة ٨ الأنفال: ٢٧.

٧ ـ رِجالاً: أي على أرجلنا، راجِلين.

٨ ـ أَصْلَتَ المقاتلُ السيفَ: رفعه، سلَّهُ، أخرجه من غِمده.

نترك وراءنا ثَقَلاً يُهِمُّنا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد؛ فإن نهلَك، لم نترك وراءنا نسلاً يُهمُّنا، وإن نظفرْ لَنجدن النساء والأبناء» (كثيرين غيرهم)؛ قالوا: «نقتل هؤلاء المساكين؟ فلا خير في العيش بعدهم»؛ قال: «فإذا أبيتم عليَّ هذه، فإن الليلةَ ليلةُ السبت، وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أَمِنوا فيها، فأنزِلوا ولعلنا نصيب منهم غِرَّة»؛ قالوا: «نُفْسدُ سبتنا ونُحدِث فيها ما أحدث مَن كان قبلنا، فأصابهم ما قد علمتَ من المَسْخ؟»؛ فقال: «ما بات رجل منكم منذ وَلَدَته أمُّه ليلةً واحدة من الدهر حازماً!». ولما امتنعوا عن الخلال الثلاث التجأوا مضطرين إلى النزول على حكم رسول الله.

وخلال الليلة نفسها، أي قبل طلوع الصباح وإعلانهم نزولهم على حكم النبي (ص)، خرج من الحصن ثلاثة من رجالهم، أسلم اثنان منهم، هما «أسيد بن عبيد» و «ثعلبة بن سعيد»، (وهما من بني هذيل الذين كانوا أبناء عمومة لبني قريظة وبني النضير، ولكن لم يكونوا من أحد الفريقين، وكان نسبهم أعلى من نسبهما)، ولحق الرجلان بالنبي وأصحابه، وسَلِما من القتل؛ أما الثالث فكان «عمرو بن سُعدى القُرَظي» الذي لم يُسْلم، ولكنه لم يشارك أبناء قومه من بني قريظة في الغدر برسول الله، وكان يقول: «لا أغدر بمحمد أبداً». فلما كانت الليلة التي قرر فيها بنو قريظة النزول على حكم النبي (ص)، خرج الرجل من الحصن منعزلاً عن قومه هارباً على وجهه، من غير قبوله للإسلام، ولما انتهى إلى حرس النبي حول الحصن، اعترضه مقدمهم «محمد بن مسلمة الأنصاري»، فلما عرفه وكان يعلم عدم مشاركته في الغدر قال: «اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام» وخلى سبيله؛ فانتهى الرجل إلى مسجد النبي (ص) في المدينة وبات ليلته فيه، ثم انطلق هائماً على وجهه إلى ما شاء الله؛ وعرف النبي شأنه، فقال: «ذاك رجل قد نجاه الله بوفائه».

ولما أصبح بنو قريظة، نزلوا على حكم رسول الله، وخرجوا من الحصن حتى انتهوا إليه، فأمر (ص) أن تُكتَفَ أيدي رجالهم إلى الخلف

بالحبال ـ وهم يومئذٍ سبع مئة ـ وأن تُعزَلَ نساؤهم عنهم. فقامت قبيلة الأوس ـ وكانوا حلفاء لبني قريظة ـ وأخذوا يتوسلون إلى النبي في إطلاقهم والعفو عنهم، إكراماً لحلفائهم المسلمين الأوس، وجعلوا يقولون: «يا رسول الله، حلفاؤنا وموالينا من دون الناس، نصرونا على الخزرج في المواطن كلها، وقد وهبتَ لعبدالله بن أُبَي سبع مئة دارع وثلاث مئة حاسر في صبيحة واحدة، ولسنا نحن بأقل منه»؛ ولما أكثروا القول والإلحاح في ذلك عليه، قال (ص): «أما تَرضَون أن يكون الحُكم فيهم إلى رجل منكم؟»؛ قالوا: «بلى». وتقدم إليه اليهود يسألونه أن يُحَكِّم فيهم رجلاً من القوم، فقال (ص): «اختاروا من أصحابي مَن شئتم»؛ فاختاروا سعدَ بن معاذ، ورضوا بحكمه فيهم.

وكان سعد [بن معاذ] هذا قد أصابه سهم في غزوة الخندق قطَعَ أكحله (وهو عِرق في اليد)، ونزف الدم منه كثيراً حتى أضعفه، فقبض على أكحله وهو يقول: «اللهم إن كنتَ أبقيت من حرب قريش شيئاً فأَبْقِني لها، فإنه لا قومَ أحبُّ إليَّ أن أُجاهدهم، مِن قوم حاربوا اللهَ، وآذَوْا رسولَك وكذبوه وأخرجوه؛ وإن كانت الحرب قد وضعَتْ أوزارها بين رسول الله وبين قريش؛ فاجعلها لي شهادةً ولا تُمِتْني حتى تُقِرَّ عيني من بني قريظة»؛ فاستجاب الله دعاءه، وانقطع عنه الدم في ساعته، وتورمت يده، وأمر النبي حينئذٍ بإنزاله في خيمة في المسجد قريباً منه لرعاية حالته الصحية، وكان (ص) يعوده ويتعهده بنفسه.

فلما كان يوم بني قريظة واختيارهم له للحكم فيهم، بعث إليه النبي (ص) يُحضِره للحكم (وكان قد أمر (ص) بالأسارَى أن يُحبَسوا في دارِ موثوقين، وأمر بجمعِ سلاحهم وجَعْلِه في قُبة)، فلما أتوا بسعد في محفة مجروح اليد مقطوعِ الأكحل، قامت الأوس في وجهه ينادونه «يا أبا عمرو، اتقِ الله وأَحسِن في حُلفائك ومَواليك، فقد نصرونا في المواطن كلها»؛ ولما أكثروا عليه الإلحاح في ذلك، قال: «لقد آن لسعدٍ أن لا

تأخذه في الله لومةُ لائم»؛ فصرخت الأوس تنادي: «واقوماه! ذهب والله بنو قريظة!»؛ وجعلت نساء اليهود وصبيانهم يبكون ويصرخون إلى سعد، إلى أن سكتوا، فقال لهم: «يا معشر اليهود، أرَضِيتُم بحكمي فيكم؟»؛ قالوا: «بلى، قد رضينا بحكمك، واللهِ قد رَجَوْنا نَصْفَك[9] ومعروفك وحُسْنَ نظرك»؛ فأعاد سعد القول عليهم وأعادوا الجواب برضائهم بحكمه، فالتفت سعد إلى رسول الله (ص) إجلالاً له يقول: «ما ترى بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟»؛ فقال (ص): «احكمْ فيهم يا سعدُ، فقد رضيتُ بحكمك فيهم»؛ قال سعد: «قد حكمتُ يا رسول الله أن تَقتلَ رجالهم المقاتلين، وتَسبيَ نساءهم وذراريهم، وتَقسم غنائمهم وأموالهم بين المهاجرين والأنصار، وأن يكون عَقارهم[10] للمهاجرين دون الأنصار»؛ ثم التفت إلى الأنصار وقال لهم: «إنكم ذَوُو عَقار، وليس للمهاجرين عقار»؛ فقام النبي (ص) على قدميه يقول: «الله أكبر! لقد حكمتَ فيهم يا سعد بحكم الله عز وجل من فوق سبعة أرْقِعَة»[11].

أمر النبي (ص) بعدئذ بالاسارى فساقوهم إلى المدينة حيث حُفِرت لهم في مدفنها «البقيع» حفرة مستطيلة، فلما كان المساء، أُخرج المقاتلون الأسارى فنُفذ فيهم تدريجاً حكم سعد، ولكن واحداً واحداً ودون أن يرى أحد منهم مشهد موت أحد من رفاقه وضَرْبَ عنقه أمام عينيه.

وكان رئيس بني قريظة كعب بن أَسَيْد يوصي في الحبس قومه بالصبر والثبات على دينهم، إلى أن أُخرِجَ مجموعةً يداه إلى عُنُقه، وكان جميلاً وسيما، فنظر إليه النبي (ص) وقال له: «يا كعب، أما نفعتكَ وصية ابن الحواس، الحَبْر الزكي الذي قَدِم عليكم من الشام يقول: تركتُ الخمر

---

٩ ـ النَصْف (بتثليث النون): الإنصاف والعدل.

١٠ ـ العَقار: ما كان مستقراً ثابتاً من الممتلكات، كالأرض والدار.

١١ ـ أرْقِعَة: سماوات. (مفردها: رقيع).

والخمير[١٢]، وجئت إلى البؤس والتُمور، لِنبي يُبعَث، مَخرَجُه مكة، ومهجره في هذه البحيرة.[١٣] يجتزي[١٤] بالكِسْرات[١٥] والتُمَيرات، ويركب الحمارَ العُرْيَ[١٦]، في عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوة، يضع سيفه على عاتقه لا يبالي مَن لاقَى منكم، يبلغ سلطانُه منقَطَع الخُفِّ والحافر؟!»؛ قال كعب: «قد كان ذلك يا محمد، ولولا أن اليهود يُعيّرونَني أني جزعت عند القتل، لآمنت بك وصدقتك، ولكني على دين اليهود، عليه أَحْيَى وعليه أموت»؛ فأمر (ص) بضرب عنه.

ثم أُخرج حُيَي بن أخطب مغلولةً يداه إلى عنقه، وعليه حلة فاختة[١٨] قد سَفَقَها[١٩] على جسده من كل ناحية [حتى ولو] كموضع الأنملة كي لا يُسْلَبَها، فقال له النبي: «كيف رأيتَ صُنْعَ الله بكَ يا فاسق؟»؛ قال: «والله يا محمد ما ألوم نفسي في عداوتك، قَلْقَلْتُ كلَّ مُقَلْقَل[٢٠]، وجَهَدتُ كل الجُهد، ولكن مَن يَخْذُلِ اللهَ يُخْذَل»؛ وأنشأ عدو الله[٢١] يقول:

---

١٢ ـ تركت الخمر والخمير: الخمرة والخبز المختمر عجينُهُ، أي الشراب والطعام الهنيء.

١٣ ـ البُحيرة: تصغيرة البحرة: مجتمع الماء، أو: الأرض المنخفضة.

١٤ ـ يجتزيء: يكتفي بالأجزاء.

١٥ ـ الكِسْرات، جمع كِسْرة: القطعة الصغيرة.

١٦ ـ العُرْي: الخالي المجرد من السَرج.

١٧ ـ منقَطَع الخف والحافر: آخر ما تصل إليه قدم الإنسان والحيوان.

١٨ ـ فاختة: تشبه لون القمر ـ وقد جاءت الكلمة في بعض المصادر «فُقّاحية»، أي تضرب إلى الحمرة، وهو نوع من الوشي.

١٩ ـ سَفَقَها: كَثَّفها، لفَّها مكثفة على جسده ـ وجاءت في بعض المصادر «شَقَّها» (.. بمقدار أنملة).

٢٠ ـ قَلْقَل: تحرك وسارع واجتهد ـ كلَّ مُقَلْقَل: كل أنواع التقلقل والتحرك.

٢١ ـ في سيرة ابن هشام أن هذين البيتين كانا من يهودي من بني ثعلبة أسلم وكانت له صحبة، اسمه «جَبَل بن جَوّال الثعلبي».

لَعَمْرِيَ ما لامَ ابنُ أخطبَ نفسَهُ ... ولكنَّهُ مَن يَخذُلِ اللهُ يُخذَلِ
فجاهَدَ حتى بلَّغَ النفسَ جُهدَها ... وقَلْقَلَ يبغي العزَّ كل مقلقل

فأجابه علي (ع):

لقد كان ذا جِدٍّ وجَدٍّ بكفره ... فقيدَ إلينا في المَجامع يُعْتَل[22]
فقلَّدتُهُ بالسيف ضربةَ مُحْفَظٍ ... فصار على قعر الجحيم يُكبَّل[23]
فذاكَ مَآبُ الكافرينَ ومَن يُطِعْ ... لأمر إلٰهِ الخَلقِ في الخُلد يَنزِل

وتوجه كعب إلى الناس يقول: «أيها الناس، لا بأس بأمر الله! كتاب الله وقَدَره وملحمةٌ كتبت على بني إسرائيل!»؛ ثم أقيم بين يدي أمير المؤمنين (ع) للقتل وهو يقول: «قِتْلةٌ شريفة بيد شريف!»؛ فأجابه أمير المؤمنين (ع) بقوله: «إن خِيارَ الناس يَقتلون شِرارهم، وشرارهم يقتلون خيارهم، فالويل لِمَن قَتَلَه الأخيار الأشراف، والسعادةُ لمن قتله الأراذل الكفار»؛ فقال كعب: «صدقتَ يا علي، لا تسلبني حُلَّتي»؛ قال (ع): «هي أَهونُ عليَّ من ذاك!»؛ قال: «سترتني سترك الله»؛ ثم مد عنقه، فضربه علي (ع) ضربةً كان بها قطعه، وترك سلبه دون غيره. وهكذا فُعل مع الآخرين الذين كانوا يُقتَلون ليلاً، واستغرق مقتلهم ثلاثة أيام، كان النبي (ص) خلال حبسهم فيها قد أمَرَ بسَقْيِهِم العَذْبَ وإطعامهم الطيِّب والإحسان إليهم، وإلى قصة الأحزاب ومُظاهَرَة (أي مساندة) يهود بني قريظة لهم كانت الإشارة في قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

٢٢ ـ فقيدَ إلينا، (فقادوه إلينا): فاقتيد وجَرّوه إلينا ـ يُعْتَل: يُجذَب ويدُفعَ بعنف.
٢٣ ـ مُحفَظ: مُغْضَب. مُثارٌ غضبه.

قَدِيرًا﴾[٢٤]. ثم قسم النبي (ص) نساءهم وذراريهم على المسلمين، وبعث سبايا منهم مع سعد بن زيد إلى نجد، فابتاع بهم خيلاً وسلاحاً.

ولما انقضى شأن بني قريظة، انفجر جرح سعد بن معاذ، فأرجعه النبي (ص) إلى خيمته في المسجد، ولم يزل ينزف منه الدم حتى قُبِض (رض)؛ ونزل جبرائيل (ع) على رسول الله (ص) يبشره أن أبواب السماء قد فتحت لموت العبد الصالح سعد.

ووهب النبي رجلاً من اليهود اسمه الزَبِير[٢٥] لرجل من المسلمين اسمه ثابت بن قيس ـ بعد طلب ثابت من رسول الله (ص) أن يهب له دم اليهودي، لأجل يدٍ سبقت إليه من اليهودي في الجاهلية ـ ولما بشره ثابت بعفو النبي (ص) عنه جزاء لإحسانه السابق، قال اليهودي: «شيخ كبير لا أهلَ له ولا ولد ولا مال، فما يصنع بالحياة؟»؛ فرجع ثابت إلى النبي (ص) ثانياً وثالثاً، يشفع لليهودي في أهله وأولاده وماله، إلى أن وهب له النبي (ص) كل ذلك، ولما أتاه في المرة الأخيرة يبشره بهبة النبي (ص) كل ذلك له، قال له: «أي ثابت، ما فعلَ الذي كان وجهه مرآة حسنة تتراءى فيه عذارى الحي كعب بن أسيد؟»؛ قال: «قُتِل»؛ قال: «فما فعل سيد الحاضر والباد، حُيَي بن أخطب؟»؛ قال: «قُتل»؛ قال: «فما فعل مُقَدَّمُنا إذا شَدَدْنا وحُسامنا إذا كَرَرنا غزال بن شمول؟»؛ قال: «قُتِل»؛ قال: «فإني إسألك بيدي عندك يا ثابت، إلا ما ألحقتَني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، وما أنا بصابر حتى ألقَى الأحبة»؛ فأجابه ثابت إلى مسؤوله وضرب عنقه. وأمر

---

٢٤ ـ ج ٢١، س ٣٣ الأحزاب، الآيتان: ٢٦ و ٢٧ ـ أهل الكتاب: أصحاب الديانات السماوية من غير المسلمين، والمقصود بهم في الآية هنا اليهود ـ الصياصي: الحصون (جمع صيصة).

٢٥ ـ تقدم في فصل حرب الأحزاب من كتابنا هذا أن الرجل كان اسمه «الزبير بن ياطا» (ياطا بالياء المثناة)، وجاء اسمه في سيرة ابن هشام «الزَبير بن باطا القُرظي» (باطا بالباء الموحدة)؛ والزبير هذا بفتح الزاي وكسر الباء.

النبي (ص) بقتل امرأة واحدة من اليهود، هي التي كانت أرسلت عليه (ص) حجراً عند اجتماعه مع اليهود للمناظرة[٢٦]؛ واصطفى النبي (ص) لنفسه من تلك النساء «ريحانة بنت عمرو بن خناقة» التي بقيت عنده زماناً على دين اليهودية، ثم أسلمت، واستبشر النبي (ص) بإسلامها، وأقامت عنده مسلمة بقية حياتها، وكانت وفاتها بعد النبي (ص).

وأما ما كان من أمر «أبي لبابة»، فإنه لما رجع إلى المدينة نادماً على مناصحته لليهود، وربط نفسه بعمود من عُمُد المسجد (وهو المعروف اليوم بإسطوانة التوبة أو إسطوانة أبي لبابة، في مسجد النبي) أقام كذلك أياماً وليالي يبكي نادماً على عمله تائباً إلى ربه، حتى انقضت قضية بني قريظة، ونزل جبرائيل (ع) على النبي ذات يوم وكان (ص) في بيت أم المؤمنين «أم سلمة» يبشره بقبول توبة أبي لبابة، فاستبشر النبي بذلك وضحك حتى سمعته أم سلمة (رض)، وسألته عن سبب ضحكه، فأخبرها (ص) الخبر، فاستأذنت أن تبشر به أبا لبابة، فأذن (ص) لها، فقامت على باب حجرتها ونادته: «يا أبا لبابة، أَبْشِر فقد تاب الله عليك»؛ وسمع الناس كلامها، فتسارعوا إليه ليطلقوه، ولكنه رفض ممتنعاً وقال: «لا والله حتى يكون رسول الله هو الذي يطلقني بيده!»، فخرج إليه النبي (ص) عند مُضِيِّهِ إلى صلاة الصبح، وأطلق ربطه وحله بيده الشريفة.

---

٢٦ ـ تنقل معظم المصادر أن الرسول (ص) أمر بقتلها «لِحَدَث أحْدَثَته» دون توضيح ذلك الحدث، وإذا كان المصدر الذي نقل عنه هنا إمامنا المؤلف (قدس سره) يذكر أن السبب كان إرسالها حجراً على النبي (ص) لقتله، فإن ابن هشام الذي أورد الخبر في السيرة منقولاً عن عائشة (رض) وبالنص نفسه «الحدث أحدثته»، يضيف هو موضحاً بعد الخبر، أن تلك المرأة «هي التي طرحت الرَحَى [حجر الطاحون] على خلاَّد بن سويد فقتلته»؛ أما شخصها الذي جهلت اسمه معظم المصادر (أو تجاهلته) فيذكر الطبري أنها «تُسمى «بُنانة» وكانت امرأة الحَكَم القُرَظي.

غزوة بني المُصْطَلِق

وهم بطن من خزاعة يُعرفون بهذا الاسم، وكانت غزوتهم في السنة الخامسة[1] من الهجرة. وكان سببها أن بني المصطلق كانت لهم بئر يستقون منها تسمى بئر «المُرَيْسِيع» (لذا تسمى الغزوة «غزوة المريسيع» أيضاً)، فنزلوا عليها يوماً ليستقوا منها إذ أتاهم الحارث بن أبي ضرار في قومه يدعوهم إلى حرب رسول الله (ص)، فأجابوه إلى ذلك، واستعدوا للمسير معه نحو المدينة. وبلغ خبرهم النبي (ص)، فأرسل «بُرَيْدَة بن الحصيب» للتحقق من الخبر، فلما رجع إلى النبي وأخبره باجتماع القوم على البئر، ندب النبي (ص) الناس، وعجل عليهم في الخروج إلى القوم، فخرجوا مسرعين في الثالث من شعبان من سنة خمس من الهجرة، بعد ما قتلوا عيناً عليهم كان قد أتاهم من المشركين، وخرج معهم رسول الله (ص) بعد أن استخلف على المدينة زَيدَ بن حارثة وكان لهم يومئذٍ ثلاثون فرساً، ولحقهم عبدالله بن أُبَيّ بمن معه من المنافقين.

وسار النبي (ص) بأصحابه حتى انتهى قريباً من البئر، فنزل معهم هناك، وكان معه من نسائه عائشة وأم سلمة وضرب لهما قبة. وبعد أن صفَّ أصحابه بعدئذٍ وتهيأ للنزال، ترامى الفريقان بالنبل ساعة، ثم تزاحفوا واقتتلوا ساعات، انكشفت الحرب بعدها بانهزام المشركين بعد أن قُتِل

---

١ ـ في المصادر وكتب السيرة خلاف في تاريخ الغزوة بين الخامسة والسادسة للهجرة، والأرجح الأصح ما ذكره هنا المؤلف الجليل، أي السنة الخامسة.

عشرة منهم، وملأ الله قلوبهم بالرعب، وسَبَى المسلمون من نسائهم مِئَتي بنت، وأسروا من رجالهم وذراريهم شيئاً كثيراً، وغنموا من مواشيهم ألفي بعير وخمسة آلاف شاة، فأخرج النبي (ص) منها الخُمْس، وقسم بقيّتَها بين المسلمين، فأعطى الفارس سهمين (أو كما في بعض المصادر ٣ أسهم) والراجل سهماً واحداً. وكان في جملة السبايا «جويرية» بنت الحارث بن أبي ضرار قائد المشركين، سباها أمير المؤمنين علي (ع) بعد ما قتل زوجها «صفوان بن مالك» وأباه «مالكاً»، وكانت امرأة جميلة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فوقعت في سهم ثابت بن قيس وابن عم له، فكاتَبها ثابت على تسع أُواق[٢]، بمعنى أنه باعها على نفسها بأن تؤدي إليه تسع أواق من الذهب أو الفضة.

ولما انهزم المشركون ورجع عنهم المسلمون بالغنائم والسبايا، اجتمعوا حول بئر المريسيع ـ وكان الماء فيه قليلاً ـ وقام أنس بن سنان حليف الأنصار إِلى البئر ليستقي منه بدَلوٍ كان معه، وكان على البئر جهجاه ابن سعيد أجير عمر بن الخطاب قد أدلى هو أيضاً دَلواً له في البئر ليستقي، فتعلق دلو كل منهما بالآخر، وأخذ كل منهما يقول «دَلْوي دَلْوي» حتى اختلفا بينهما، ورفع جهجاه يده وضرب بها وجه أنس ضربة أدماه فيها، فصرخ أنس مستغيثاً بحلفائه من الأنصار، واستغاث جهجاه بالمهاجرين، فاجتمع الفريقان حاملين أسلحتهم، وكادت الفتنة أن تقع أشد ما يكون، لكنهم عادوا فتفرقوا ولم يقع سوء. ولكن المنافق عبد الله بن أَبي غضب من ضرب المهاجري للأنصاري غضباً شديداً، وأخذ يقول

---

٢ ـ أُواق: جمع «أُوقِيَّة» التي هي نوع من أنواع الوزن، تعادل بموازين اليوم خُمْس الكيلوغرام، أي مئتي غرام. وفي المصادر أن كل اثنتي عشرة أوقية تعادل رَطْلاً، والرطل (كلمة آرامية الأصل) يعادل بموازين اليوم ٢٥٦٤ غرام [المنجد: رطل]، وعليه فإن ثابت بن قيس كاتَبَ «جويرية» لعتقها وتحررها من السبي بثلاثة أرباع الرطل (من الذهب أو الفضة).

لأصحابه في كلماته الكفرية: «هذا عملكم: أنزلتمُوهم منازلَكم، وواسيتموهم بأموالكم، ووقَيْتُموهم بأنفسكم، وأبرزتم نحوركم للقتل، فأرملوا نساءكم وأيتموا صبيانكم، ولو أخرجتموهم لكانوا على غيركم؛ قد نافَرونا وكاثَرونا في بلادنا، والله ما مَثَلُنا ومَثَلُهم إلا كما قال القائل: سَمِّنْ كلبَك يأكلك؛ وإني قد كنت كارهاً لهذا المسير؛ إني لَأَذلُّ العرب! ما ظننت أن أَبقى إِلى أن أسمع مثل هذا التعيير عندي! أَما والله لئن رجعنا إِلى المدينة، ليَخْرِجَنَّ الأعزُ مها الأذلَّ»؛ (يعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله). ثم قال: «أما والله لو أمسكتم عنه وعن ذَويه فَضْلَ طعامكم، لم يركبوا رقابكم، ولأوشكوا أن يتحولوا من بلادكم، ويلحقوا بعشائرهم ومواليهم»؛ إِلى غير ذلك من كلماته التي أظهر بها كفرَ باطنِهِ ونفاقَه، إِلى أن اعترضه زيد بن أرقم ـ وكان غلاماً مراهقاً ـ وقال له في ما قال: «أنت والله الذليلُ القليلُ المُبغَضُ في قومك، ومحمدٌ في عزٍ من الرحمان ومودة من المسلمين! والله لا أحبك بعد كلامك هذا!»؛ فاضطرب ابن أبي، وأخذ يسأله السكوت عنه، وجعل يعتذر إِلى زيد من كلامه يقول: «إِنما كنت ألعب»؛ كل ذلك خوفاً من أن يبلّغ زيد كلامه النبي (ص) وأصحابه، فلم يقنع زيد باعتذاره الفاسد، بل وانطلق إِلى النبي (ص) ليخبره، وكان (ص) حينئذٍ بظل شجرةٍ وقت الهاجرة، وحوله قوم من الصحابة من المهاجرين والأنصار، فلما انتهى زيد إِليه (ص)، أخبره بما سمعه من المنافق عبد الله، فقال: «لعلك وَهَمْتَ يا غلام»؛ قال: «لا والله ما وهمتُ»؛ قال: «فلعلك غضبت عليه»؛ قال: «لا والله»؛ قال (ص): «فلعله سَفِهَ عليك»؛ قال: «لا والله»؛ فغضب النبي (ص)، وأمر في ساعته مولاه شقران بشد الأحمال وتقديم راحلته، وهم بالرحيل في الساعة الهاجرة، ثم ركب منصرفاً نحو المدينة؛ فتسامع الناس بذلك وأدهشهم الخبر، وجعلوا يقولون: «ما كان رسول الله ليرحل في مثل هذا الوقت»؛ وتبعوه راحلين.

ولحقه سعد بن عبادة وسلم عليه، ثم سأله عن سبب رحيله تلك الساعة الهاجرة، ولحقه سائر الناس يسألونه عن ذلك، فقال (ص): «أَوَما سمعتم قولَ

صاحبكم؟»؛ قالوا: «وأي صاحب لنا غيرك يا رسول الله؟»؛ فأخبرهم بقول عبد الله أنه إن رجع إلى المدينة «ليخرجن الأعز منها الأذل»، فصرخ الناس يقولون: «يا رسول الله أنت وأصحابك الأعز، وهو وأصحابه الأذل»؛ وتقدم إليه أسيد بن حضير يقول له: «أنت والله يا رسولَ الله تُخرِجه إن شئت؛ هو والله الذليلُ وأنت العزيز! يا رسول الله أرفق به، فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لَينظِمون له الخَرَز لِيُتوِّجوه، وإنه لَيَرى أنك قد استَلَبْتَه مُلْكه».

ثم أقبل الناس على ابن أُبي يعذلونه ويلومونه على قوله ذلك، فأنكر عليهم مقالته، وأخذ يحلف أيماناً أنه لم يقل شيئاً من ذلك؛ فأتوا به إلى النبي فقال له: «والذي أنزل عليك الكتابَ ما قلتُ شيئاً من ذلك قط، وإن زيداً لكاذب!»؛ وصرخ الأنصارُ من الخزرج ينادون: «يا رسولَ الله، إنه شيخُنا وكبيرنا، لا تصدق عليه كلام غلام من غلمان الأنصار، عسى أن يكون وَهَمَ في حديثه»؛ فلم يرد عليهم النبي ولم يكلمهم شيئاً، وجدَّ في السير بقية يومه وتمام ليلته إلى أن ارتفع الضحى من غد، والخزرج قد أقبلوا على زيد يلومونه ويشتمونه يقولون له: «كذبتَ على سيدنا عبد الله»؛ وهو يقول: «اللهم إنك لَتعلم أني لم أكذب على عبد الله بن أبي».

ولما كان الضحى من غد، نزل النبي (ص) ونزل معه الناس ورموا بأنفسهم على الأرض نياماً، وقد أراد النبي بجده في السير أن يشتغل الناس بأنفسهم عن حديث ابن أُبي ويكفوا عنه وعن زيد، ونزلت عليه (صلعم) في واقعة بني المصطلق وأقوال ابن أُبَيّ وأمثاله سورة المنافقين الذين يقولون خلاف ما يضمرون في قلوبهم، ويحلفون إيماناً كاذبة، جُنَّةً (أي تغطيةً وستراً كالترس) على أكاذيبهم لينفوها، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ، ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾[3].

---

٣ ـ القرآن الكريم، الجزء ٢٨، السورة ٦٣ المنافقون، الآيتين: ١ و٢.

وكان زيد يومئذٍ معتزلاً عن الناس في بيته من الهم والحياء، لكثرة لوم الناس له، وتكذيبهم إياه وإنكارهم عليه ما حكاه للنبي، فلما نزلت الآيات في تصديقه وتكذيب خصمه، طلبه النبي، وأخذ بإذنه رافعاً إياه وقال له: «يا غلام، صدقَ فوك، ووعت أذناك، ووعى قلبك، وقد أنزل الله في ما قلت قرآناً»؛ ثم جمع أصحابه وقرأ عليهم الآيات إلى آخرها، وبانَ للكل كَذِبُ عبد الله وصِدقُ زيد.

عندئذٍ مضى الناس إلى عبد الله يقولون له إنه «نزل فيك آيات شِداد فاذهب إلى رسول الله يستغفر لك»، فلَوَّى رقبته وهز برأسه مستهزئاً، وجعل يقول: «إنكم أمرتموني أن أؤمن فآمنتُ، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فأعطيت، وما بقي إلا أن أسجد لمحمد»؛ وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾[4] إلى قوله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾[5].

ثم ارتحل النبي بمن معه حتى نزلوا على ماء فوق البقيع قرب المدينة يقال له «بَقعاء»، وبينما هم عليه، إذ هبت ريح شديدة آذتهم وخوفتهم ليلاً، وضلت بها ناقة رسول الله ولم يَهتد الناس إليها. وحدث أن النبي (ص) أخبرهم إن سبب هبوب الريح هو أنه مات اليوم بالمدينة رجل منافق عظيم النفاق هو «رفاعة»، فقال أحد المنافقين الذين كانوا معه: «كيف يزعم أنه يعلم الغيب، ولا يعلم مكان ناقته؟ ألا يخبره الذي يأتيه بالوحي عنها؟»؛ فنزل جبرائيل (ع) على النبي يخبره بقول المنافق ويعرفه مكان الناقة، فقام النبي (ص) فيهم يقول: «إني ما أزعم أني أعلم الغيب، وما اعلمه، ولكن الله تعالى أخبرني بقول المنافق، وعرَّفني مكان ناقتي في الشِعب في مكان كذا»؛ وتبادر الناس إلى المكان، ورأوا صحة خبره وأن الأمر كما

---

٤ ـ ج ٢٨، س ٦٣ المنافقون: ٥.

٥ ـ ج ٢٨، س ٦٣ المنافقون: ٨.

قال (ص)، فأتوا بالناقة، وتاب المنافق عما كان عليه وآمن. ولما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد ـ وهو من عظماء اليهود ـ قد هلك في الوقت الذي ذكره النبي (ص).

وتأخر عبد الله بن أبي المنافق عن النبي في دخول المدينة، ولما دخلها اعترضه ابن له مؤمن اسمه «عبيد الله» (أو كما في مصادر أخرى: «عبد الله» بن عبد الله) وحبسه عن الدخول، حتى نزل الأب مضطراً وأناخ راحلته على مجامع طرق المدينة وهو يصرخ بابنه بقوله: «مالك ويلك؟»؛ فقال له ابنه: «واللهِ لا تدخلها إلا بإذن من رسول الله، ولَتعلَمَنَّ اليوم مَن الأعُز ومَن الأذل»؛ إلى أن بعث عبد الله إلى النبي يشكو إليه ابنه، فأرسل النبي إلى ابنه أن «خَلِّ عنه ودعه يدخل»؛ فأطاع الأمر وهو يقول: «أما إذ جاء أمر رسول الله فنعم»؛ فدخل المنافق المدينة كئيباً مخذولاً ولم يعدِل عن نفاقه، بل أقام يكيد النبي بما يستطيع، وهو الذي افترى في هذه الغزوة نفسها على أم المؤمنين عائشة (رض) ورماها بالإِفْك[6].

حديث الإفك:

أما قصة حديث الإفك التي اشتهرت وتناولتها كتب السيرة وأشار إليها القرآن الكريم، فخلاصتها أنه لما انصرف النبي من غزوة بني المصطلق، نزل بمن معه بإحدى المنازل في طريقه، ولما هموا بالرحيل، خرجت عائشة لقضاء الحاجة حتى جاوزت الجيش وبعدت عنهم، ولما رجعت إلى رَحْلها[7]، التفتت إلى صدرها فإذا بقلادتها التي كانت خرزاً يمانية مقطوعة، فرجعت تلتمس عقدها وتفتش عنه، وأبطأت في طلبه وطال بحثها عنه حتى أقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بها، وحملوا هودجها على بعيرها وهم يحسبونها في الهودج؛ ولما ساروا وبعدوا،

---

٦ ـ الإفك: الكذب، التهمة التي لا أصل لها.

٧ ـ رَحلها: أثاثها، هودجها وما فيه من متاع.

رجعت عائشة ففوجئت بأنه لم يبقَ منهم في المنزل داعٍ ولا مجيب، فجلست هناك ظناً منها بأن القوم سيفْقدونها ويرجعون إليهَا، حتى غلب عليها النوم. وبنيما هي نائمة وصل «صفوان بن المعطل السلمي» وكان قد عَرَّس[8] من وراء الجيش فعرفها، وأناخ لها راحلته حتى ركبتها، من غير أن يكلمها أو تكلمه بشيء، وانطلق يقود الراحلة حتى ألحقها بالجيش في منزلٍ آخر عند الظهيرة.

وفَشا الخبر بذلك، فأخذ المنافقون يرمونها بالإفك، وكان أول من بدأ بذلك وتَوَلَّى كِبْرَه[9] هو عبد الله بن أُبي، وجعل يذيع ذلك عداوةً لرسول الله، وتبعَهُ على ذلك حسان بن ثابت وجمع آخر من المنافقين، دون أن تشعر عائشة بشيء من ذل لأنهم أخفوا الخبر عنها، ثم علمت به بعد شهر من مقدمها، فجعلت تبكي طول ليلتها حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١﴾[10]، فافتضح المنافق وأتباعه، وبَانَ كذبهم وعداوتهم لله ولرسوله (ص).

فكاك جويرية من السبي وإسلامها وزواج النبي بها:

ثم إن النبي كان ذات يوم في حجرة عائشة (رض)، إذ دخلت عليه جويرية بنت الحارث ـ وهي التي وقعت في سهم ثابت بن قيس وكاتبها على تسع أواق كما ذكرنا ـ وجعلت تشكو إلى النبي (ص) حالها وتستعينه

---

٨ ـ عرَّس: توقف عن السفر ونزل فحطَّ للاستراحة ـ وفي بعض الروايات أن صفوان بن المعطل كان متأخراً عن القافلة ـ وِفقاً لعادات معمول بها قديماً ـ ليتفقد الأشخاص والدواب والمتاع، متأخرين أو تائهين أو مفقودات.

٩ ـ تَوَلَّى كِبْرَهُ: قام بتعظيم الأمر وتكبيره وتوسعة نشره وإذاعته.. أو: لحقة الأثم الأعظم منه.

١٠ ـ ج ١٨، س ٢٤ النور: ١١.

على فكاكها وتأدية كتابتها[11]، فأجابها النبي (ص) إلى تأدية تسع أواق إلى سيدها على أن يتزوجها، فأجابته إلى ذلك، وتزوج بها النبي بعد عتقها. وخرج الخبر إلى المسلمين، فأعتقوا رقيقهم وما كان بأيديهم من السبايا من نساء اليهود، حتى بلغ ذلك إلى عتق مئة بيت منهم؛ كل ذلك أسوةً برسول الله وإكراماً لجويرية، ولم يكن أحدٌ أعظم بركةً على قومه منها على قومها وعشيرتها، وسماها النبي «بَرَّة»، وجعل صِداقها عَتْقَ أربعين من قومها؛ وأسلمت وحسن إسلامها.

ثم أتى أبوها الحارث إلى النبي ليفتديها، (في جملة سائر الكفار الذين كانوا يأتون إلى المسلمين ويفتدون السبايا منهم)، ولما أتى الحارث بفداء ابنته قال مخاطباً النبي (ص): «يا رسول الله، إن ابنتي لا تُسْبَى، إنها امرأة كريمة»؛ قال (ص): «فاذهب فخَيِّرْها»؛ فشكره الحارث بقوله: «قد أحسنتَ وأجملت». ثم أتى إلى ابنته يريد إرجاعها إليه وإلى دينه، وقال لها: «يا بنية، لا تفضحي قومك ولا تفضحيني في قومي»؛ وسألها الرجوع، فامتنعت وأبت الرجوع عن الإسلام أشد الإباء وقالت بحزم: «قد اخترتُ اللهَ ورسوله»؛ فغضب أبوها وجعل يدعو عليها. ولما همَّ بالانصراف، اعترضه النبي يسأله عن جملين أخبأهما في شِعبٍ هناك ولم يعلم بهما أحد، فدُهِش الرجل من خبره (ص) وقال: «واللهِ ما علم بهما أحد سواي، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله»، فأسلم وحسن إسلامه ببركة البنت وزواج النبي (ص) بها.

وترامى إلى «عبيد الله» ابن المنافق عبد الله بن أُبي، أن النبي (ص) همَّ بقتل أبيه، فأتى إلى النبي (ص) وقال له: «يا رسول الله، لقد بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت لا بد فاعلاً فمُرْني به، فأنا أحمل إليك

---

١١ ـ تأدية كتابتها: أن تؤدي ما كتبته على نفسها وتعهدت به من مال لتحررها وفكاكها من السبي.

رأسه، فوالله لقد علمَت الأوسُ والخزرج أني أَبَرُّهُمْ ولداً بوالده وأن ليس رجل أَبَرَّ بوالده مني، ولكني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تَدَعُني نفسي أن أنظر إِلى قاتل أبي يمشي في الناس فأَقتله، وأكون قتلت حينئذٍ مؤمناً بكافر، فأدخل النار»؛ فقال (ص): «لا، بل نَرفُقُ به ونُحْسِنُ صُحْبتَه ما بقي معنا».

غزوة الحُدَيْبِيَّة

ثم كانت في سنة ست من الهجرة، غزوة «الحُدَيْبِيَّة»؛ وكان من قصتها أن رهطاً من المشركين يبلغ عددهم قريباً من ثمانين رجلاً، كانوا أَقبلوا نحو المدينة ليغتالوا من المسلمين ويصيبوا منهم، حتى انتهوا إلى جبل «التنعيم» ونزلوه عند صلاة الفجر في العتمة، فأحسَّ بهم المسلمون وأَحاطوا بهم وقبضوا عليهم، ثم أتوا بهم إلى النبي (ص) فخلى سبيلهم وأعتقهم، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[1].

ثم أمره الوحي في منامه بأن يتوجه بقومه إلى مكة لدخول المسجد الحرام والطواف به والحلق مع المحلِّقين[2]، فأخبر بذلك أصحابه، وأمرهم بالخروج وأن يسوقوا معهم الهَدْيَ[3] والجِمال للأضحية، ثم خرج بهم في شهر ذي القعدة الحرام، وكان قد ساق هو (ص) ستاً وستين، أو سبعين بَدَنة[4] للهدي والأضحية، وساق قسم مِن أصحابه جِمالاً مُعَرَّاة ومغطاة، وهم يومئذٍ قريب ألف وخمس مئة نسمة؛ ولما خرج النبي بهم من المدينة، مر في طريقه على مَن كان حوالي المدينة، من قبائل العرب، ومنهم بنو

---

١ ـ القرآن الكريم، الجزء ٢٦، السورة ٤٨ الفتح: ٢٤.

٢ ـ من أعمال الحج والعمرة، الطواف حول الكعبة وحَلق الشعر.

٣ ـ الهَدْي: الحيوانات المهداة إلى الحَرَم.

٤ ـ البَدَنة: الناقة أو البقرة المُسَمَّنة (وجمعها: البُدْن).

غِفار، وأسلم، ومُزَينة، وجُهَينة، وأشجع، والدئل.. فجعل يستفزهم للخروج معه نحو مكة، فلم يجبه أحد منهم، وتثاقلوا عنه متعللين بأعمالهم، وهم يظنون أن الرسول وأصحابه لن ينقلبوا ولن يرجعوا إلى أهاليهم أبداً، زعماً منهم أن العدو يستأصلهم ويصطلمهم، وجعلوا يقولون في ما بينهم: «أيطمع محمد وأصحابه أن يدخلوا الحَرَم، وقد غزتهم قريش في عُقر ديارهم وقتلوهم في بلادهم؟».

سارَ النبي (ص) بمن معه، حتى إذا كان قريباً من منزل «عسفان» على غدير ماء يقال له «غدير الأشطاط»، أتاه عين له كان (ص) قد بعثه أمامه ليستخبر عن مشركي مكة، وكان الرجل من «خزاعة»، وقال: «يا رسول الله، إني تركت كعباً وعامراً ابنَي لوي، قد جمعا لك الأحابيش وجموعاً كثيرة ليقاتلوك ويصدوك عن البيت»؛ فلم يعبأ النبي بكلامه، وأمر أصحابه بالسير. وبلغ خبره مكة، فاجتمع المشركون واتفقت كلمتهم على منع النبي والمسلمين عن دخول مكة، وحلفوا باللات والعُزَّى أن لا يَدَعوه يدخلها وفيهم عين تطرف، وخرجوا بأجمعهم إلى جبل خارج مكة بطريق جدة يسمى «بَلادِح»، ونزلوا على ماء هناك ليمنعوا عنه النبي وأصحابه؛ وبعثوا خالد بن الوليد في مئتي فارس كميناً على رؤوس الجبال، لعلهم يتمكنون من اغتيال المسلمين أو منعهم؛ وعلم النبي بذلك، فأخبر أصحابه في بعض الطريق أن خالداً في طليعة خيل قريش بالغميم، ثم أمرهم أن يأخذوا ذات اليمين، فلم يزالوا يسيرون ويتبع أثَرَهم خالدٌ بمن معه على رؤوس الجبال ينتهز الفرصة لاغتيالهم، إلى أن نزل النبي (ص) بأصحابه منزلاً. وحضر وقت صلاة الظهر، فأذَّن بلال وصلى بهم النبي؛ وكان خالد ومن معه يراقبونهم ولم يفطنوا لاغتيال المسلمين حال اشتغالهم بالصلاة، فلما انصرفوا من الصلاة، فطن خالد ومن معه لذلك، وأخذوا يتحسرون على أن وقتاً مناسباً للاغتيال فاتهم، وجعلوا يقولون: «لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة لأصبناهم، فإنهم لا يقطعون صلاتهم»؛ فقال لهم خالد: «تجيء الآن لهم صلاة أخرى

(يعني صلاة العصر) أحب إليهم من ضياء أبصارهم، فإذا دخلوا فيها، أغَرْنا عليهم»؛ فنزل جبرائيل (ع) على النبي (ص) وأخبره بعزم القوم، وأمره بقصر الصلاة على ركعتين عند الخوف من العدو، وأن يقسم أصحابه شطرين، يأتَمُّ كل شطر منهما بركعة من صلاة النبي، ويكون النصف الآخر منهم حينئذٍ محافظين عليهم، وفي ذلك قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا، فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾[5] فقصر النبي فريضة عصره على ركعتين على نحو ما أُمِرَ به، وسَلِموا بذلك من كيد العدو.

وتابع المسلمون مسيرتهم بعد الصلاة، إلى أن نزلوا على بئر قريبة من مكة على تسعة أميال منها طَرَف الحَرَم تسمى «الحُدَيْبِيَّة» (سُمِي المنزلُ والغزوة باسمها) ونزلوا بأقصاها، وكان الماء فيها قليلاً والحر شديداً والقوم كثيرون، فجعلوا يشكون العطش إلى النبي (ص)، فدعا بدَلْوٍ فيه شيء من الماء، فتوضأ بمائِهِ وتمضمض منه، ثم مج فيه، وأمر به أن يُصَبَّ في البئر. ثم نزع سهماً من كِنانَتِهِ وألقاه في البئر، ودعا ربه بكلمات، ففارت البئر من ساعتها بالماء، حتى جعل القوم يغترفون منها بأيديهم وهم جلوس على شفيرها؛ وأُتِيَ منه لرسول الله (ص)، في تَوْرٍ[6]، فوضع النبي يده فيه فصار الماء يخرج من بين أصابعه كالعيون، فعجب الناس من ذلك، وشربوا ووَسِعوا كلهم وهم ألف وخمس مئة نسمة، وجعلوا يقولون: «لو كنا مئة ألف لكفانا».

---

٥ ـ ج ٥، س ٤ النساء: ١٠١ و١٠٢.

٦ ـ تَوْر: إناء صغير.

وكانوا قد احرموا بأمر النبي من «ذي الحُلَيفة»[7] ملبين بالعمرة، فدعا النبي عمر بن الخطاب (رض)، وأمره بالانصراف إلى مكة ليخبرهم أنه (ص) إنما أتى بأصحابه معتمرين، وأنهم لم يأتوا محاربين، والشهر شهرُ حَرام، ولا يجوز القتال فيه، فلتمنع قريشٌ جُهَّالَهم عن التعرض للمعتمرين، فتثاقل عمر عن تبليغ الرسالة وقال: «يا رسول الله، ما لي بها حميم، وإني أخاف قريشاً لشدة عداوتي إياها، ولكن أدلك على رجلٍ هو أعزُّ بها مني، وهو عثمان بن عفان»؛ فأعرض النبي عنه، ودعا عثمان، وأمره بالانطلاق إلى أبي سفيان وأشراف قريش ويبلغهم أنه (ص) لم يأت للحرب، وإنما جاء زائراً للبيت معظماً لحرمته، فانطلق إليهم عثمان وبلغهم ذلك، فقبضوا عليه وحبسوه، وبلغ النبي والمسلمين الخبر ـ خطأً ـ أن قريشاً قتلته، فقال (ص): «لا نبرح حتى نناجز القوم».

ثم نهض (ص) قائماً واستند إلى شجرة هناك، ودعا أصحابه إلى أن يبايعوه على قتال المشركين والثبات على الحرب وأن لا ينهزموا، فأقبلت جموع أصحابه إليه تحت الشجرة أفواجاً أفواجاً يبايعونه على ذلك، وإلى هذه البيعة كانت الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ، فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ﴾ ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ولما تمت البيعة من الجميع على عدم الفرار ـ وهي المعروفة ببيعة «الرضوان» ـ نزل فيها قوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، وأتى «بديل بن ورقاء» في نفر من قومه من خزاعة ـ وكان الرجل صاحب سر رسول الله وعيبة نصحه من أهل «تهامة» ـ فأقبل من جهة مكة إلى النبي (ص) يريد أن يصرفه عن دخول مكة بلينٍ ونُصْحٍ وطريقٍ حسن، وقال في كلامه: «إني

---

٧ ـ ذو الحُلَيفة، هي القرية التي منها ميقات أهل المدينة (أي الموقع الذي يحرمون فيه) حين يحجون، وهي تبعد المدينة جنوباً بين ستة وسبعة أميال.

تركت كعباً وعامراً ٱبْنَيْ لُؤَي ومعهم العوذ المطافيل[8] (يعني قريشاً) بأجمعهم، رجالهم ونسائهم، صغارهم وكبارهم، وهم مقاتلوكَ وصادُّوكَ عن البيت»؛ فقال له النبي (ص): «إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نَهَكَتْهُم الحرب وأضرَّت بهم، فإن شاؤوا مادَدْتُهم مدة أصالحهم (يعني على ترك القتال)، ويُخَلُّوا بيني وبين الناس»، إلى أن قال (ص): «وإن أَبَوْا، فوالذي نفسي بيده لأقَاتِلَنَّهُم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي» (أي ينقطع رأسي عن جسدي)، أو لَيَنْفُذَنَّ اللهُ تعالى أمره»؛ فقال بديل: «سأبلغهم ما تقول».

ثم انطلق بديل إلى قريش، وأخذ يحرضهم على قبول كلام النبي (ص) وإطلاق سبيله لدخول الحرم معتمراً، وهم يمتنعون عن ذلك أشد امتناع، ويقولون: «لا والله، لا نسمع منك، ولا تُحدِّثُ العربُ أنه دخلها عنوة، ولا نقبل منه إلا أن يرجع عنا»؛ إلى أن قام «عروة بن مسعود الثقفي» ـ وكان رجلاً عاقلاً لبيباً عظيماً في قومه، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[9] ـ وأخذ يعارض كلام الرافضين، ويحرض القوم على قبول قول النبي (ص) وقال: «لقد عرض عليكم خطةَ رشدٍ فٱقبلوها»؛ ولكنهم ازدادوا عتواً وامتناعاً.

أخيراً خرج عروة من مكة بنفسه إلى النبي (ص) يكلمه في الرجوع، فأجابه النبي نحواً من قوله لبديل، فقال عروة (بعد تهديده النبيَ بجموعِ قريش واتفاقِ كلمتهم وحَلْفهم باللات والعُزَّى على منعه): «أي محمد، أرأيتَ إن استأصلتَ قومك، أفتريد أن تبيدهم وتغني أهلك؟ هل سمعتَ أحداً من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله أني لأَرى

---

٨ ـ العُوذ: الإبل الحديثة النتاج، مفردها: العائذ ـ المطافيل (من طَفَل): أي ذوات الأطفال، وهو يعني أن قريشاً كلها قد خرجت للقائك وحربك.

٩ ـ ج ٢٥، س ٤٣ الزخرف: ٣١.

حولك أَوْشاباً خُلَقاء[10] أن يفروا ويَدَعوك»؛ فنهره أبو بكر مغضباً يزرأ به (أي يصرخ) وقال له: «امصُصْ بَظْرَ اللات[11]، أنحن نَفِر عنه ونَدَعُه؟»؛ قال عروة: «من هو ذا؟»؛ قيل: «أبو بكر»؛ فالتفت إليه وقال له: «أمَا والذي نفسي بيده، لولا يدٌ كانت لك عندي لم أَجْزِكَ بها لأَجَبْتُك»؛ ثم توجه إلى النبي يكلمه، بينما جعل يمد يده إلى لحية الرسول أثناء حديثه معه، فضربه المغيرة بن شعبة بنعل السيف على يده يقول له: «أَخِّر يدك عن لحية رسول الله، قبل أن لا ترجع إليك»؛ فسأل عروة عنه، ولما عرفه قال له (مُلمحاً إلى غَدْرٍ كان حدث من المغيرة): «أيْ غُدَر! أَوَ لَستُ مَن سعى في غَدْرتك؟».

وقصة تلك الغَدرة التي أشار إليها عروة، هي أن المغيرة كان قد خرج من الطائف مع ثلاثة عشر تاجراً من «بني مالك» متوجهين إلى «مقوقس» سلطان الإسكندرية، ولما دخلوا عليه، زاد الملك للتجار في العطاء وفضلهم على المغيرة، فحسدهم المغيرة على ذلك. ولما رجعوا من عنده وصاروا في بعض الطريق، سكر القوم وغفوا، فقام إليهم المغيرة وقتلهم عن آخرهم حسداً، وأخذ أموالهم. ثم هرب إلى المدينة، وأتى إلى النبي (ص) وأظهر الإسلام وقدم إليه الأموال، فقبل النبي إسلامه ولم يأخذ من الأموال شيئاً حتى الخُمْس، وقال (ص): «هذا غَدْر لا حاجة لنا فيه»؛ ولما بلغ بني مالك خبر القتلى، اهتزوا بأجمعهم واتفقت كلمتهم على القصاص من عشيرة المغيرة، واشتعلت نيران الحرب بين الفريقين، إلى أن أطفأها عروة بن مسعود هذا بلطائف حِيَله، وأقنع القوم بقبول الدية عن التجار المقتولين، وضَمِنَها على نفسه من ماله.

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي وينظر إليهم، فرأى من تعظيمهم لرسول الله (ص) ما أدهشه، بحيث إذا غمز النبي إليهم بشيء ابتدروا

---

١٠ ـ أوْشاب: أخلاط، أنواع مختلفة ـ خُلَقاء: جديرون بأن، أهلٌ لأن.

١١ ـ البَظر: ما يُقطَع من فرج الأنثى عند ختانها أو ما يبقى فيه بعد الختان ـ وقد كانت أم عروة تختن النساء.

لإطاعة أمره بكل سرعة، وإذا توضأ بماء تسابقوا على تناول ما يسقط من وضوئه يتباركون به وربما يتقاتلون على تحصيله، وإذا تكلم بينهم ارتدت أنفاسهم سكوتاً واستماعاً لكلامه، وإذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم لديه، ولا يُحدُّون النظر إليه تعظيماً له (ص)، وما تَنَخَّمَ نُخامَةً[١٢] إلا تبادروا إلى تناولها ليدلكوا بها وجوههم وجلودهم، فدهش عروة من ذلك حيرةً وعجباً، ورجع إلى قومه يقول لهم: «أي يوم، واللهِ لقد وَفَدتُ على الملوك، ودخلت على قيصر وكسرى والنجاشي، وما رأيت واللهِ مَلِكاً قَطُّ يعظمه أصحابُه مثل ما يعظم محمداً أصحابُه»؛ وجعل يحكي لهم ما رأى من ذلك، ثم قال: «وقد عرض عليكم خطةَ رشدٍ فاْقبلوها»؛ ولم يزل يلح عليهم في ذلك، وقريش لا تزداد إلا إباءً وامتناعا عن دخول النبي (ص) مكة وهم يقولون: «واللهِ لئن دخل محمدٌ مكة وتسامعت العرب، لَنَذِلَّنَ ولَتَجْتَرِئَنَّ علينا العرب».

بعدئذٍ قام رجل من بني كنانة واستمهلهم إلى أن يأتي النبيَّ (ص) ويحادثه ويعود من عنده، فلما أتاه وأشرف عليه، قال النبي (ص) لأصحابه: «هذا من قوم يُعظِّمون البُدْن، فابعثوا بها إليه»؛ فقامت الصحابة يتلقونه مُلَبِّين، وساقوا معهم البدن، فعظم ذلك في نفس الرجل، ورجع من طريقه إلى أصحابه يقول لهم: «سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت مع ما هم عليه من رفع الأصوات بالتلبية[١٣] وسَوْقِهم الهَدْي»؛ فقام منهم رجل آخر يقال له «مِكْرَز بن حفص»، واستمهلهم أيضاً إلى أن يأتي النبيَّ ويكلمه في الرجوع، ولما أقبل إلى النبي وأشرف عليه، قال النبي (ص) لأصحابه: «إن مكرز هذا رجل فاجر»؛ ثم تقدم إلى النبي (ص) وأخذ يكلمه في الرجوع عن مكة بمثل مقالة أصحابه، وسمع من الجواب مثل ما سمع غيره.

---

١٢ ـ النخامة: ما يخرج من صدر الإنسان أو أنفه، مثل العطاس والسعال.

١٣ ـ التلبية: رفع الصوت بقول: لَبَّيك.

ثم جاء من جهة قريش «سهيل بن عمرو» ومعه «حفص بن الأحنف»، فلما أشرفا على النبي قال (ص) لأصحابه: «قد سهل الله عليكم أمركم»؛ ولما انتهيا إليه (ص) دار الكلام بينه وبينهما، إلى أن قال (ص): «ويحَ قريش قد نَهَكَتْهُم الحرب! ألاَ خلُّوا بيني وبين العرب، فإن أكُ صادقاً، فإنما أجُرُّ المُلْكَ إليهم مع النبوة، وإن أكُ كاذباً فكفتهم ذؤبان العرب؛ لا يسألني اليوم امرؤ من قريش خطة ليس لله فيها سخط، إلا أجبته إليها»؛ فقال القوم: «إلى أن ننظر يا محمد إلى ماذا يصير أمرك وأمر العرب، نرى أن ترجع من عامك هذا، فإن العرب قد تسامعت بمسيرك، فإن دخلتَ بلادنا وحَرَمَنا، استذلتنا العرب واجترأت علينا، فإذا أَجَبْتَ نُخلي لك البيت في هذا الشهر من العام القابل ثلاثة أيام حتى تقضي نُسُكك وتنصرف عنا، والله ما تتحدث العرب أنا أُخِذنا ضَغطةً»؛ ولم يزل سهيل يكرر الكلام بمثل ذلك على النبي ويطلب منه الصلح والرجوع من مكانه إلى أن أجابه النبي (ص) إلى الصلح على شروط بينهم وبينه، منها أن قالوا: «وتَرُدَّ إلينا كلَّ مَن جاءك من رجالنا، ونرد إليك كل مَن جاءنا من رجالك»؛ فقال (ص): «من جاءكم من رجالنا فلا حاجة لنا فيه، ولكن الشرط على أن لا يُؤذَى مسلم بمكة في إظهاره الإسلام، ولا يُكْرَهُ على دين، ولا يُنكَر عليه شيء يفعله من شرائع الإسلام»؛ ومنها أنه إذا رجع النبي في عامه ولم يدخل مكة، كان له أن يدخلها في العام القابل بأصحابه ويقيمون بها ثلاثاً، تخرج عنها قريش في تلك الأيام الثلاثة، ولا يدخلها النبيُ (ص) وأصحابُه بسلاح الراكب، أي السيوف في القُرُب[14]، ومنها أن قريشاً لا تُعِينُ عليه وعلى أصحابه أَحداً لا بنَفْسٍ ولا بسلاح؛ قال القوم: «وعلى شرط أن هذا الهَدْي حيث ما حبسناه يكون محله، لا تقدمه علينا»؛ قال (ص): «نحن نسوق وأنتم تَرُدُّون؟!».

وبينما هم في الكلام وبيان شروط الصلح، إذ فاجأهم بالدخول عليهم

---

١٤ ـ القُرُب، جمع قِراب: الغمد، بيت السيف.

ابن سهيل بن عمرو (المفاوض في شروط الصلح) نفسه آتياً من مكة، وابنه هذا ـ الذي كان يكنَّى: أبا جندل ـ كان قد أسلم في مكة وعُذب على ذلك عذاباً شديداً، وخرج من أسفل مكة قاصداً اللحوق بالنبي، متكتماً في ذلك يمشي كالمقيد الذي يتحامل برجله القيد؛ فلما انتهى إلى النبي وأصحابه، رمى بنفسه بين أظهرهم وجلس بجانب النبي (ص)، فغضب أبوه سهيل وقال: «يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده»؛ قال (ص): «إنا لم نرضَ بالكتاب بعد»؛ أي إنه لم يتم الصلح بعد، قال سهيل: «إذاً والله لا أصالحك على شيء أبداً»؛ وامتنع أشد الامتناع عن ترك ابنه عند النبي، إلى أن سأله النبي الإجارة والأمن لابنه، أي أن لا يعذبه إذا رجع إليه[١٥]، ثم أخذ (ص) بيد أبي جندل ورده إلى أبيه وقال: «اللهم إن كنتَ تعلم أن أبا جندل لَصادق فاجعل له فرجاً ومخرجاً».

ثم أقبل سهيل على النبي (ص) يطلب منه أن يرد سائر المهاجرين وقال: «يا محمد، إن أرِقَّاءَنا لحقوا بك فارددهم علينا»؛ فغضب النبي غضباً شديداً حتى بان الغضب في وجهه، وقال (ص): «لَتَنْتَهُنَّ يا معشر قريش، أو ليبعثن الله عليكم رجلاً امتحن الله قلبه للإيمان يضرب رقابكم على الدين»؛ فسكت سهيل. وجعل الناس يسأل بعضهم بعضاً عن الرجل الذي هدَّد النبي قريشاً به حتى سألوه عنه[١٦] فقال (ص):

---

١٥ ـ في بعض المصادر أن سهيلاً لم يقبل من النبي (ص) طلبه الإجارة والأمن لابنه إذا رجع، وأن صاحبه مِكرز قال للنبي: «بلى، قد أجرناه» ولكن سهيلاً ردَّ حتى إجارة مكرز، فاستغاث الابن «أبو جندل» بالنبي (ص) والمسلمين ألا يُرجعوه، وكادت الفتنة تقع بينهم وبين موفَدَي قريش، وأن النبي (ص) قال للناس بعد أن استنكر بعضهم رده أبا جندل: «إنه ليس عليه بأس، إنما يرجع إلى أبيه وأمه، وإني أريد أن أتم لقريش شرطها».

١٦ ـ في بعض الروايات أنهم عددوا له بعض الصحابة: هل هو فلان؟ أم هو فلان؟ وذكروا بعض الخلفاء، والرسول (ص) ينفي، إلى أن ذكر خاصف النعل.

«هو خاصف[17] النعل في الحجرة»؛ أي الخيمة، فتبادر الناس إليها ليعرفوا الرجل، فإذا هو أمير المؤمنين علي (ع)، يخصف شِسْع[18] نعل النبي (ص) ويصلحه وكان قد انقطع.

ولما تم قرار الصلح على الشروط، قام سهيل ومن معه وانصرفوا إلى قومهم من قريش يخبرونهم بذلك؛ ولم يرض أكثر أصحاب النبي (ص) بالصلح واستنكروه، وكان من أشدهم إنكاراً له الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الذي تقدم إلى النبي معاتباً وقال: «ألستَ نبي الله؟»؛ قال (ص): «بلى»؛ قال: «ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟»؛ قال (ص): «بلى»؛ قال: «إذاً فلِمَ نعطي الدَنِيَّةَ في ديننا؟»؛ قال (ص): «إن الله قد وعدني ولن يُخلفني، وإني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري»؛ قال: «أولستَ تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف حقاً؟»؛ قال: «بلى، أفأخبرتُكَ أنا نأتيه هذا العام؟»؛ قال: «لا»؛ قال (ص): «فإنك تأتيه وتطوف به»؛ فولى عمر مدبراً وهو يقول: «لو أن معي أربعين رجلاً لهاجمتهم»[19].

ثم أقبل سهيل بن عمرو وحفص بن الأحنف من عند قريش وقالا: «يا محمد، قد أجابت قريش إلى ما توافقنا نحن وأنت عليه من الصلح على الشروط»؛ فعند ذلك دعا النبي (ص) أمير المؤمنين علياً (ع)، وأمره بكتابة كتاب الصلح على الشروط التي توافق مع سهيل عليها، وأخذ يملي عليه، فلما أملى «بسم الله الرحمان الرحيم»، قال سهيل: «لا نعرف الرحمان الرحيم، إلا أني أظن هذا الذي باليمامة (يعني به مسيلمة الذي ادعى النبوة

---

١٧ ـ خَصَفَ النعل: خرزها وألصق وخاط شِقَّيها عندما تتمزق وتتشق.

١٨ ـ الشِسْع: الزمام، الرباط، السير، الشريط.

١٩ ـ جاء في رواية عن استنكار كثيرين من مرافقي الرسول (ص) للصلح، أن بعض وجوههم جاؤوا النبي وعاتبوه وأكثروا عليه الملام والكلام، فقال لهم أخيراً: «إن لم تقبلوا الصلح فحاربوهم»؛ فبادروا إلى ذلك، ولكن فرسان قريش هزموهم، فعادوا إلى النبي (ص) نادمين معتذرين.

وكان يقال له: رحمان اليمامة)، ولكن اكتب كما كان يكتب أباؤك: باسمك اللهم»؛ فأجابه النبي (ص) إلى ذلك، وأمر علياً (ع) بأن يكتب «باسمك اللهم»؛ فقال علي: «لولا طاعتك يا رسول الله، لما محوت بسم الله الرحمان الرحيم»؛ ثم بعد محوها وكتابة ما أمر به، أملى النبي عليه متابعاً: «هذا ما صالحَ عليه محمد رسول الله سُهيلَ بن عمرو..»، فاعترضه سهيل ثانياً وقال له: «لو علمنا أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا حاربناك، ولو أجبتُك في الكتاب إلى هذا لأقررتُ لك بالنبوة وشهدت على نفسي بالرضاء بذلك؛ امحُ هذا الوصف واكتب: هذا ما تقاضى عليه محمد ابن عبدالله، أتأنف من نسبك يا محمد؟»؛ فقال له النبي (ص): «أنا رسول الله وإن لم تُقِروا»؛ وقال له أمير المؤمنين علي (ع): «إنه والله لرسول الله على رغم أنفك»؛ ثم أمره النبي (ص) بمحو سمة النبوة فقال علي (ع): «يا رسول الله، إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة»؛ قال (ص): «فضَعْ يدي عليها»؛ فأخذ بإصبع النبي ووضعه على الكلمة فمحاها به؛ فقال له رسول الله (ص): «إنك أبيت أن تمحو اسمي من النبوة، فوالذي بعثني بالحق نبياً سيدعوك أبناؤهم إلى مثلها وأنت على مضض مضطهد»؛ [مشيراً (ص) بقوله ذلك إلى ما وقع لأمير المؤمنين (ع) يوم صفين، عند كتابة الصلح بينه وبين معاوية، حينما كتب (ع): «هذا ما اصطلح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب..»، واعترضه عمرو بن العاص بقوله: «لو علمنا أنك أمير المؤمنين ما حاربناك. اكتب هذا ما اصطلح عليه علي ومعاوية»؛ فقال (ع): «صدق الله وصدق رسوله، أخبرني رسول الله بذلك» الخ].

ثم أَمْلَى رسول الله (ص) بعد ذلك وكتب أمير المؤمنين (ع) بعد البسملة: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلَ بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أنه من قَدِمَ مكةَ من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يبتغي من فضل الله، فهو آمنٌ على دمه وماله، ومن قدم المدينةَ من قريش

مجتازاً إلى مصر أو الشام، فهو آمن على دمه وماله، فإن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال[20]، وأنه مَن أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأنه مَن أتى محمداً بغير إذن وَلِيِّه رَدَّهُ إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يردوه إليه، وأن يكون الإسلام ظاهراً بمكة لا يُكرَهُ أحد على دينه، ولا يُؤذَى ولا يُعَيَّر، وأن محمداً يرجع وأصحابه عن مكة وأهلها عامه هذا، ثم يدخل عليهم في العام القابل بمكة، فيقيم فيها ثلاثة أيام، ولا يدخل عليها بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوفُ في القُرُب». ولما تم الكتاب على ذلك وكتبوه نسختين، إحداهما عند رسول الله والثانية عند سهيل، وثب بنو قبيلة خزاعة وقالوا: «نحن في عقد محمد وعهده»؛ ووثب بنو بكر وقالوا: «نحن في عقد قريش وعهدهم»؛ وانصرف سهيل وصاحبه حفص بالكتاب إلى قريش.

ثم أمر النبي أصحابه بنَحْر البُدْنِ وحَلقِ الرؤوس في موضعهم هناك، فغضب كثير منهم وامتنعوا عن ذلك وهم يقولون: «كيف ننحر ونحلق، ولم نَطُفْ بالبيت ولم نَسعَ بين الصفا والمروة؟»؛ وأخذوا يجادلونه (ص) في قرار الصلح أيضاً يقولون: «سبحان الله! كيف يُرَد إلى المشركين مَن جاءنا منهم مُسْلماً، ولا يرد إلينا من مضى إليهم منا؟»؛ فقال لهم النبي (ص): «من جاءهم منا وسمع كلامي ورجع إليهم، فذاك أبعده الله ولا حاجة لي فيه، ومن جاءنا منهم رددناه إليهم، لأنه لو علم الله الإسلام في قلبه جعل له مخرجاً»؛ ولكنهم لم تهدأ فورتهم ولم يسكن غضبهم، ولم ينتهوا عن امتناعهم من النحر والحلق، حتى اغتم رسول الله من ذلك، وأخذ يشكو همه لأم سلمة، فأشارت عليه (ص) بأن يبدأ هو بنفسه، فينحر ويحلق ويترك القوم لشأنهم، ففعل (ص) كذلك، ونحر بُدْنَهُ وحلق رأسه وهو يقول: «رحم الله المحلقين، ورحم الله المقصرين»، إلى أن تبعه القوم شيئاً

---

٢٠ ـ الإسلال: السرقة.. أو: سل السيوف ـ الإغلال: الخيانة.

فشيئاً، فنحروا وحلقوا، على ثبات ويقين أو على شك وارتياب، ورجع بعدئذٍ إلى المدينة، وانصرف وفد قريش راجعين إلى منازلهم في مكة.

ولما وصل النبي (ص) إلى المدينة، أقبل إليه رجال القبائل الذين تخلفوا عن الخروج معه، والذين كانوا يقولون إنه لن ينقلب محمد وأصحابه إلى أهليهم أبداً لأن قريشاً ستهزمهم وتقتلهم، وجعلوا يظهرون الندم على ذلك ويسألونه الاستغفار لهم ويعتذرون إليه بقولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾[21] كما جاء في كتابه الكريم، حيث رد عليهم جل جلاله وكذَّبهم بقوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾[21].

وأما قريش فإنهم لما انتشر خبر صلحهم مع رسول الله بين الناس، اهتدى كثير منهم، ومالت قلوب فريق من الرجال والنساء إلى قبول الإسلام، وجعلوا يهاجرون إلى المدينة متكتمين هرباً من قريش؛ وبما أن النبي لم يذكر في كتاب الصلح النساء، ولم يشترط لقريش إلا رد الرجال الذين يلتحقون به، نزل عليه الأمر من الله سبحانه بإمساك النساء المؤمنات المهاجرات، بعد امتحانهن وإحلافهن على أن خروجهن من مكة لم يكن إلا رغبة في الإسلام، لا بغضاً لأزواجهن، ولا التماساً لدنيا، ولا عشقاً لرجل، ولا رغبة عن أرض إلى أرض، ونهى الله نبيه والمسلمين عن إرجاعهن إلى الكفار، وأمره تعالى بدفع مهورهن إلى أزواجهن إن كن أخذنها، وبقبول إسلامهن بعد الامتحان والاحلاف، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ، ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ، لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ ﴿وَءَاتُوهُم

---

٢١ ـ ج ٢٦، س ٤٨ الفتح: ١١ و١٢.
٢٢ ـ ج ٢٨، س ٦٠ الممتحنة: ١٠.

مَآ أَنفَقُوا۟﴾[22]، ولذلك كان النبي يحبس مَن جاءه مِن النساء بعد الامتحان، ويدفع عنها زوجها وعشيرتها إذا طلبوها.

وكان أول من هرب من مكة من النساء ولحق النبي بالحديبية قبل انصرافه عنها، سبيعة الأسلمية بنت الحارث، ولحقها زوجها الكافر صيفي ابن الراهب يطلبها من النبي (ص) وقال: «يا محمد، أردد علي امرأتي، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد»؛ فلم يجبه النبي إلى طلبه، ودفع له كل ما أنفق في مهرها وتزوجها عمر بن الخطاب؛ وكان عمر قد طلق امرأتين مشركتين كانتا له بمكة، وتزوج بإحداهما من بعده معاوية بن أبي سفيان الذي كان يومئذٍ بَعدُ مشركاً في مكة المكرمة، وكان طلاق عمر لهما لنهي الله تعالى عن التزوج بالكافرة بقوله سبحانه في الآية المتقدمة نفسها المتعلقة بالمؤمنات المهاجرات ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾[22].

ثم هربت من مكة أَرْوَى بنت ربيعة، ولحقت بالنبي مسلمةً، فتزوجها خالد بن سعيد، ثم أميمة بنت بشر، وأم كلثوم بنت عقبة، وغيرهن. . وجعل النبي يحافظ عليهن، ويحكم بأن الإسلام قد فرق بينهن وبين أزواجهن، فيزوجهن بأصحابه من غير طلاق لهن من أزواجهن السابقين، وقد قال تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[23]. وقد ٱرتدَّتْ ستٌ من نساء المؤمنين، ورجعن إلى كفرهن وأهاليهن في مكة، إحداهن أَم الحَكَم بنت أبي سفيان، بعد متابعتها في الإيمان لزوجها عياض ابن شداء.

وأما الرجال من قريش فكان النبي يردهم إلى أهاليهم إذا طلبوهم، وكان من جملتهم أبو بصير عتبة بن أسيد، فإنه لما قدم المدينة هارباً من

---

٢٢ ـ ج ٢٨، س ٦٠ الممتحنة: ١٠.

٢٣ ـ ج ٥، س ٤ النساء: ١٤١.

مكة بعد الصلح وأسلَمَ، لحقه رجل من بني عامر بن لؤي ومعه مولى لهم يطلبانه من النبي، وردَّه (ص) إليهما، فأخذاه وخرجا به نحو مكة. فلما بلغوا ذا الحُلَيفة ونزلوا هناك يأكلون من تمر معهم، قال أبو بصير للعامري: «إني لأرى سيفك هذا صارماً يا أخا بني عامر؟»؛ قال: «نعم، انظر إليه إن شئت»؛ فطلبه أبو بصير لينظر إليه، فلما ناوله إياه ضربه به أبو بصير ضربة صرعه بها في ساعته، فهرب صاحبه المولى منصرفاً إلى المدينة حتى قدمها، ودخل المسجد يعدو وهو ذَعِرٌ كالمدهوش حتى انتهى إلى النبي (ص) وقال له: «قُتِل والله صاحبي وإني لمَقتول»؛ وبينما هو كذلك إذ دخل أبو بصير، ووقف على النبي يقول: «يا نبي الله، قد أوفى اللهُ ذمتَك وردَدْتَني إليهم، ثم أنجاني الله منهم»؛ فقال (ص): «ويلُ أمِّهِ مُسعِر حرب!»[٢٤]؛ فعرف أبو بصير من الكلمة كنايةً أن قبوله يوقد نار الحرب بين النبي وبين قريش. ثم توجه إليه النبي (ص) وقال له: «شأنك بسلب صاحبك، واذهب حيث شئت»؛ فخرج من عند النبي (ص)، وتبعه خمسة أنفار كانوا شركاءه في الإسلام والهرب، حتى انتهوا إلى سِيف[٢٥] البحر على طريق عير[٢٦] قريش، وكمنوا هناك لنهب كل عير لقريش تمر عليهم، ثم لحق بهم أبو جندل بن سهيل في سبعين راكباً خرجوا من مكة هاربين مسلمين، ثم لحقهم جماعة أخرى من بني غِفار، وأسلم، وجُهَينة مسلمين، حتى صاروا عُصْبَة يبلغ عددهم ثلاث مئة مقاتل، فسدوا الطرق، وجعلوا يقبضون على كل عير من قريش تمر عليهم، يقتلون رجالهم وينهبون أموالهم حتى ضاق الأمر على قريش، وبعثوا أبا سفيان إلى النبي يسأله متضرعاً، ويناشد الله والرحم أن يدعُوَ أولئك العُصبة ويضمهم إليه في

---

٢٤ ـ مُسعِرُ حرب (وفي بعض النصوص: مِحَشّ حرب)، أي موقدها ومهيجها.

٢٥ ـ السِيف: الساحل.

٢٦ ـ العِير: القافلة، وقيل إنها في الأصل قافلة الحمير خاصة، ثم أُطلِقت على سواها عامة.

المدينة، وإن مَن خرج مِن قريش إليه فليمسكه ولا يرده إليهم، وأنه لا حرج على النبي في كل ذلك؛ فعند ذلك بانَ للذين كرهوا إرجاع أبي جندل إلى أبيه، أن طاعة رسول الله خير لهم في ما أحبوا وما كرهوا، وظهر لهم أن انتشار دعوة النبي في مكة وقبول أولئك العصبة للإسلام، ثم اغتنامهم تلك الغنائم من عيرات قريش وتجارهم، ثم ذلة المشركين وتوسلهم بالنبي في عدم رد الهارب، لم تكن كلها إلا ببركة عمل النبي (ص) في رد المسلم الهارب إلى أهله.

ثم كانت بعد الحديبية غزوة الرسول (ص) والمسلمين المهمة والمشهورة ليهود خَيْبَر.

غزوة خَيْبَــــر

خَيْبَر اسم موقع لليهود كان على بُعد ثمانية بُرُد[1] من المدينة، وكانت لهم فيه عدة حصون. وقد حدث بعد غزوة المسلمين لبني قريظة اليهود وقتلهم لهم (كما تقدم)، أن حَزنَ يهود خيبر ـ وتعدادهم أربعة عشر ألف نسمة ـ وغضبوا أشد الغضب، فاجتمعوا وقرروا الانتقام من النبي (ص) والمسلمين، واستنجدوا بحلفائهم من «غطفان» وهم أربعة آلاف فارس، فانضموا إليهم، واتفقت كلمة الجميع على مهاجمة المدينة وقتل النبي (ص) وأصحابه.

وكانت حصونهم منيعة رفيعة، منها «الحصن القَموص»، الذي كان أَسدَّها وأرفعها بناء وأكثرها رجالاً، وكان رئيسهم يومئذٍ «الربيع بن أبي الحُقَيق»، لذا كان الحصن ينسب إليه. وكان ابن «كنانة» جديد العرس بابنه «حُيَي بن أخطب» واسمها «صفية»، وكانت من أجمل نساء اليهود.

فلما رجع النبي (ص) من غزوة الحديبية، وبعد إقامته عشرين ليلة مُنْصَرَفَهُ عن الحديبية، بلغه خبر يهود خيبر وإعدادهم لمحاربته والمسلمين، ثم نزل عليه الوحي من الله تعالى يأمره بالخروج إليهم، فخرج (ص) في ألف وأربع مئة مقاتل ـ وكان ذلك في ذي الحجة آخر شهور السنة السادسة، أو في محرم أول شهور السنة السابعة من الهجرة ـ واستخلف على المدينة «سباع بن عُرْفُطَة الغِفاري».

---

١ ـ بُرُد، جمع بَريد، وهو مقدار مسافة، الأرجح أنها تعادل مسيرة نصف نهار.

فلما دَنا (ص) بصحابته من حصون خيبر، توقف وأوقفهم، ثم رفع يديه إلى السماء بالدعاء إلى الله سبحانه قائلاً: «اللهم ربَ السماوات السبعِ وما أَظْلَلْن، وربَ الأَرَضين السبعِ وما أَقْلَلْنَ، ورب الشياطينِ ومَن أضللن، أَسأَلك خيرَ هذه القرية وخيرَ ما فيها، وأعوذ بك مِن شرها وشر أَهلها وشر ما فيها»؛ ثم سمَّى وأمر جنوده بالنزول فنزلوا، وكان نزوله هو (ص) تحت شجرة هناك انتظاراً لطلوع شمس الغد، وتقدم إليه في منزله هناك رجل من أصحابه يسمى «عامر الأكوع»، وأنشد أمامه وأمام المسلمين يقول:

لاهُـمَّ لـولا أنـتَ مـا ٱهـتـدَيْـنـا ... ولا تـصـدَّقـنـا ولا صَـلَّـيـنـا
فـاغـفـر فـداءً لـك مـا ٱقْـتَـنَـيْـنـا ... وثَـبِّـتِ الأقـدامَ إن لَـقِـيـنـا
وأَنْـزِلَـنْ سَـكـيـنـةً عـلـيـنـا ... إنـا إذا صـيـح بـنـا أتـيـنـا
وبـالـصـيـاح عـوَّلـوا عـلـيـنـا[٢]

فترحم عليه النبي (ص) وقد استُشهد الرجل في الغزوة نفسها، وإن النبي (ص) ما استغفر لرجل يخصه بذلك الترحم إلا قُتل.

ثم لما كان اليوم الثاني من نزوله (ص) والمسلمين، خرج جمع من اليهود من الحصون، فلما شاهدوا النبي (ص) وجموعه، غلب عليهم الخوف وانصرفوا هاربين إلى حصونهم، فكبَّر النبي (ص) وقال: «خَرِبَتْ خيبر! إنا جيش إذا نزلنا بساحة قوم مُنذِرين، فساءَ صباحُ المنذَرين». ولما كان منتصف النهار، اعتزل النبي (ص) عن أصحابه إلى مكان نام فيه؛ وبينما هو نائم، نزل عليه (ص) رجل من اليهود ليغتاله، ووقف فوق رأسه وقد جرد سيفه ليضربه، ففتح النبي (ص) عينيه ونظر إليه واقفاً مجرداً عليه

---

٢ ـ وردت هذه الأبيات في بعض المصادر، مع اختلافٍ في بعض أشطرها، ضمن أخبار غزوة الأحزاب (الخندق)، وأن النبي (ص) كان ينشدها أثناء مشاركته المسلمين في حفر الخندق ونقل التراب (ص)، فلعل عامراً الأكوع هذا كان هنا يعيد أبيات النبي نفسها تأسياً وتشبهاً به، وزاد عليها أو عدَّل فيها.

السيف، وقبل أن يقول له النبي (ص) شيئاً، قال الرجل: «يا محمد، مَن يمنُعك[٣] مني اليوم؟»؛ قال (ص): «الله يمنعني منك»؛ فارتعد الرجل من كلامه (ص)، وأغمد سيفه وجلس كأنه جماد لا حراك به، حتى دخل على النبي (ص) بعض الصحابة وأخبرهم بقصة اليهودي، فقالوا: «يا رسول الله، لعل في عقله شيئاً؟»؛ قال (ص): «نعم، دَعُوه»؛ ثم صَرَفه ولم يعاقبه بشيء.

ثم لما كان الليل، سمع بنو غطفان وهم في الحصون، منادياً ينادي فيهم: «يا معشر غطفان، الحقوا حيَّكم»؛ وأخذ يتهددهم بنزول العدو منازلهم، فركب القوم من ليلتهم وبادروا مسرعين إلى حيهم، حتى انتهوا إلى منازلهم من غد، فوجدوها سالمة، وقدَّروا أن ذلك من الله سبحانه وَهْناً وإضعافاً لليهود.

وفي صباح اليوم التالي، أمر النبي (ص) أن يحاصِر المسلمون حصونَ اليهود، فأحاطوا بها يقدمهم أمير المؤمنين علي (ع) وبيده الراية، وحاصروهم بضعاً وعشرين ليلة، واليهود يناوشونهم بالحجارة والسهام. ولحق علياً (ع) رَمَدٌ شديد في عينيه حتى صار لا يبصر شيئاً، ومنعه عن الحرب، ثم لما طال الحصار على اليهود، وكانوا قد حفروا حول الحصون خندقاً عظيماً وضاق عليهم الأمر، خرج ذات يوم جمع منهم ليقاتلوا المسلمين ويبعدوهم عن حصنهم، يتقدمهم رئيسهم وأشجعهم «مَرْحَب» الذي كان رجلاً غنياً ذا صولة عظيمة، وكان مُهاباً طويل القامة عظيم الهامة، على رأسه نقير[٤] من حجر، ومِغفر[٥] قد ثقب الحجر مثل البيضة[٦] على رأسه، لأنه لم توجد له بيضة تسع رأسه لِعِظَمه، فخرج أَمام قومه وهو

---

٣ ـ يمنعك: يحميك.

٤ ـ النقير: قطعة من حجر أو خشب تُنقَر، أي يُحفَر في جوفها ثقب أو فجوة.

٥ ـ المِغفر: زَرَد تحت القلنسوة التي يلبسها المحارب على رأسه.

٦ ـ البيضة: خوذة الرأس الحديدية للمحارب.

يهدر كما يهدر البعير، وكان يُعَد بألف فارس، ولا يثبت له أحد ولا يتجرأ على مبارزته أقوى بطل، فجعل يرتجز قائلاً:

قد علمَتْ خيبرُ أني مَرْحَبُ شاكي السلاحِ بطلٌ مجرَّبُ
إذا الحروب أقبلت تلتهب أطعَنُ أحياناً وحيناً أضرِبُ

فأحجمَ المسلمون عن جوابه، وتتابعت أنفاسهم واهتزت جوانحهم وانخلعت أفئدتهم برعيد صوته، ولم يتجرأ أحد منهم على مبارزته؛ وأخذ النبي (ص) يحرضهم على الخروج إليه ومنازلته، حتى برز إليه بعضهم، وتتابعوا واحداً فواحداً على حربه، ولكنهم لم يغنوا شيئاً، ولم تثبت لأحد منهم قدم حين رؤيتهم صولة مرحب وعظم جثته وشدة بأسه، فلم يكونوا ينتهون إلى موقع النزال حتى يولوا أدبارهم منهزمين بصيحةٍ منه عليهم كالرعد القاصف، ونظرٍ منه إليهم بعينٍ كالبرق الخاطف، إلى أن خرج إليه عامر بن الأكوع الشاعر، وهو الذي ترحم عليه رسول الله (ص) وتقدم ذكره، وكان رجلاً شجاعاً، فخرج مبارزاً لمرحب حتى انتهى إليه وجعل يرتجز (رداً على شعر مرحب) بقوله:

قد علمَتْ خيبرُ أني عامِرُ شاكي السلاحِ بطلٌ مُغامِرُ

فحمل كل منهما على صاحبه، وتبادلا ضربتين، إلى أن أهْوَى مرحب بسيفه على ترس عامر، وضربه بذُباب[7] السيف على عين ركبته ضربة خرَّ عامر بها على وجه الأرض، وفاضت نفسه من ساعته؛ فازداد اليهود بذلك جرأةً، وظهر الوهن والفشل في المسلمين، وكثرت مناوشاتهم له إلى أن عجزوا عن مقاومته، وكثرت شكاياتهم إلى النبي من بأسه وصولته. فدعا النبي أبا بكر وعقد له اللواء وناولَهُ إياه، وبعثه إلى النزال في جمع من وجوه المهاجرين؛ ولما خرج بهم غير بعيد، وشاهد مرحبا كالأسد الغضوب وعيناه كجمرتي نار يوقد منهما الشَرَر، غلب عليه الخوف

---

٧ ـ ذُباب السيف: طرفه الذي يُضرب به.

والفزع، وأخذ يُجبن أصحابه، إلى أن ولّى بهم مدبرين منهزمين من غير حرب ولا نزال؛ فغضب النبي (ص)، وجعل القوم يؤنب بعضهم بعضاً على الفرار بغير ضرب ولا حرب، وأقبلوا يلومون قائدهم. فدعا النبي (ص) عمر بن الخطاب (رض) وناوله الراية ليرسله إلى النزال، وجعل يشدد عليه في الثبات ويحرضه على القتال، إلى أن سار عمر في جمع من المسلمين، ولم يكن أقل من سابقه في الهزيمة والفرار؛ فاستشاط النبي (ص) من ذلك غضباً وازداد عليهم سخطاً، وقال (صلعم): «ما بالُ أقوام يرجعون منهزمين يُجبنون أصحابهم؟! أَمَا إنه ليست هذه الراية لمن حملها؛ أَمَا لَأُعْطِيَنَّ الراية غداً رجلاً يحب اللهَ ورسولَه، ويحبه اللهُ ورسولُه، كَرَّاراً غير فَرَّار، لا يرجع حتى يفتح الله على يده».

ثم انصرف (ص) إلى محله، ورجع اليهود إلى حصنهم، وبات المسلمون ليلتهم يدوكون[8] بجملتهم أيُّهم يُعطَى الراية غداً، وقد تطاولوا جميعهم طمعاً في حمل الراية، رجاء أَن يكونوا هم المشار إليهم في كلام النبي (ص)، وكانوا يقولون: «أما علي فقد كُفِيتُمُوه برَمَده، لأنه لا يبصر سهلاً ولا جبلاً، ولا يَرى حتى موضع قدمه»؛ وسمع أمير المؤمنين (ع) كلام النبي (ص) وَوَعْدَه بإعطاء الراية، فجعل يناجي ربه ويقول في جملة كلامه: «اللهم لا مُعطيَ لِما منعتَ، ولا مانعَ لما أعطيت». وأقبل عمر بن الخطاب (رض) على أصحابه يقول: «ما أحببت الإمارة قبل اليوم، حتى سمعتُ وعد النبي (ص) في دفعِهِ الرايةَ لرجل يكون كذا وكذا».

ولما أصبح الصباح، تبادر الناس إلى النبي (ص) واجتمعوا كلهم عنده، يرجو كل منهم أن يُعطاها. وتقدم سعد وجلس نصب عيني الرسول (ص)، ثم جثا على ركبتيه، ثم قام قائماً على قدميه، رجاء أن يدعوه النبي (ص)؛ وكذا باقي المسلمين، فقد مدوا رقابهم وتطاولت أعناقهم بأجمعهم، ينظرون

---

٨ ـ يدوكون: يفكرون باضطراب.

في عيني النبي (ص) يؤمل كل منهم دعوته، إلى أن قام (ص) بينهم وركز الراية في الأرض، ثم جعل يدير طرفه في القوم، إلى أن نادى برفيع صوته: «أين علي بن أبي طالب؟»؛ قالوا: «يا رسول الله هو رَمِدٌ معصب العينين»؛ قال (ص): «هاتوهُ إلي»؛ ولما أتوا به يقودونه، تلقاه النبي (ص) مستبشراً به حتى ضمه إلى صدره، ثم فتح عينيه وبصق في كل منهما بريقه، فلم يكن إلا كطرفة عين حتى بَرِىءَ أمير المؤمنين (ع) مما به كأنه لم يصبه شيء قط. وهذه الواقعة المشهورة في كتب السيرة والتاريخ، جعلت الكثيرين يقدّرون ما كان لعلي عليه السلام من مكانة عند الرسول صلى الله عليه وآله، وقال فيها الشعراء منذ عهد النبي (ص) وعبر القرون بعده الأشعار الكثيرة، منها مثلاً القصيدة التي قالها الشاعر في عهد النبي نفسه (ص) حسان بن ثابت، الذي عُرف بلقب «شاعر الرسول»، ومنها:

وكان عليٌّ أرمدَ العينِ يَبتغي ... دواءً فلما لم يُحِسَّ مُداويا
شفاهُ رسولُ الله منه بتَفلَةٍ ... فبوركَ مَرْقياً وبوركَ راقيا
وقال سأعطي الرايةَ اليومَ صارماً ... كَمِياً مُحباً للرسول مُواليا[9]
يحبُّ إلَهي والإلَهُ يحبُّهُ ... به يَفتحُ اللهُ الحصونَ الأوابيا[10]
فأصفَى بها دون البرية كلها ... علياً وسماه الوزيرَ المُؤاخيا

ثم دعا النبي (ص) لعلي (ع) بقوله: «اللهم أذهِبْ عنه الحر والبرد»، وصار من أثر دعائه (ص) ذلك أن علياً (ع) ما كان يجد مدة حياته حراً ولا برداً في صيف ولا شتاء، وكان يلبس في هجير الحر القباء الثخين المحشو ولا يبالي، ويخرج في البرد الشدد بثوبين خفيفين ولا يبالي؛ ثم ناوله النبي الراية، وعَمَّمَه بيده، وألبسه ثيابه، ثم أمره بالمسير إلى حصون اليهود في جمع من المسلمين، وقال له: «امضِ يا علي وجبرائيل عن

---

٩ ـ الصارم: السيف القاطع، وتستعمل للابس السيف القاطع أيضاً ـ الكَمِيّ: الشجاع، وتستعمل أيضاً للابس السلاح لأنه يشعر بسببه بالأمان ويتشجع.
١٠ ـ الحصون الأوابي: . . الممتنعة، المنيعة، الصعبة.

يمينك، وميكائيل عن يسارك، وعزرائيل أمامك، وإسرافيل وراءك، ونَصْرُ الله فوقك، ودعائي خلفك، والرعبُ مبثوث في صدور القوم؛ واعلم يا علي أنهم يجدون في كتابهم أن الذي يدمر عليهم اسمه إيليا، فإذا لقيتهم فقل: أنا علي، فإنهم يُخذَلون إن شاء الله تعالى؛ وٱدْعُهُم إلى إحدى خصال ثلاث: إما أن يدخلوا في الإسلام ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وأموالهم لهم، وأخبِرهم بما يجب عليهم من حق الله، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حُمْر النَعَم[11]؛ وأما أن يذعنوا للجزية والصلح ولهم الذمة وأموالهم لهم، وإما الحرب، فإن هم اختاروا الحرب فحاربهم».

ثم تناول النبي إباطَهُ[12] وأركبه على بغلته، فسار أمير المؤمنين مبادراً مسرعاً يهرول في سيره ويركض ركضاً نحو الحصون، ولم ينتظر أن يحمل قومه أسلحتهم ويلحقوا به وأعجلهم عن ذلك، حتى أن سعداً جعل يناديه: «يا علي، إرْبَعْ[13] يلحقْ بك الناس»؛ فلم يعبأ بكلامه، ومضى مسرعاً بوجهه حتى وافى باب الحصن بنفسه وحده، وركز رايته في الأرض، ثم لحقه جمعٌ من المسلمين، فلما رمقته اليهود من فوق الحصون، نزل جمع من شجعانهم وفرسانهم وحماتهم، وخرجوا من الحصن وعبروا الخندق، يقدمهم مرحب كالجبل العظيم، مُعجَباً بنفسه متبختراً في مشيته مرتجزاً بأشعاره، وقد تَتَرَّس على رأسه بحجرين عظيمين، فتقدم إليه أمير المؤمنين وهو يرتجز (ع) بقوله:

أنا الذي سَمَّتْنِ أمي حَيْدَرَة ضِرْغامُ آجامٍ ولَيْثُ قَسْوَرَة[14]

---

١١ ـ النَعَم: الحيوانات الداجنة التي يستفيد الإنسان من بدنها وخدماتها، كالجمال والبقر والغنم والخيل ـ حُمْر النَعَم: نوع قليل منها غالي الثمن.

١٢ ـ الإباط: ما تحت الإبْط.

١٣ ـ إربَع: تمهلْ، توقفْ، انتظِر.

١٤ ـ حَيْدَر: أحد ألقاب الإمام علي(ع)، وحيدر وحيدَرَة: الأسد ـ ضِرغام وليث: =

عَبْلُ الذراعَينِ شديدُ القَصَرَة　كَلَيثِ غاباتٍ كريهِ المَنْظَرة[15]
أكيلُكُم بالسيفِ كيلَ السَنْدَرَة　أضربكم ضرباً يُبينُ الفِقَرَة[16]
وأتَركُ القِرنَ بِقاعٍ جَزَرَة　أضرب بالسيف رقاب الكفرة[17]
ضَرْب غلامٍ ماجدٍ خَرٍ وَرِهْ　من تَركَ الحق يُقَوِّمْ صُغْرَه[18]
أقتلُ منهم سبعةً أو عشرة　فكلهم أهلُ فُسوقٍ فَجَرَة

فلما سمع مرحب منه كلمة حيدرة، تذكر نصيحة زوجته (وكان من قصته أنه كانت له زوجة كاهنة تحبه حباً شديداً وتشفق عليه كثيراً، وكانت معجبة بشبابه وعظم خلقته، وكانت تقول له: قاتِلْ كلَ مَن قاتَلَك، وغالِب كلَّ من غالبك، إلاَّ مَن تَسمَّى بحيدرة، فإنك إن وقفتَ له هلكْتَ)، ولما تذكر كلامها ونصيحتها، غلب عليه الفزع والخوف، حتى أخذ يتراجع القهقهرى إلى ما وراءه، ويتأخر عن أصحابه إلى أن وَلَّى دُبُرَه راجعاً وانصرف عن مقامه هارباً؛ فوقف قومه مدهوشين من صنيعه وهربه من غير قتال ولا براز، وهو مُعتَمَدُهم في النوائب، ومَلاذُهم في النوازل، فأعرضوا عنه، وأحجموا عن الكلام كأن على رؤوسهم الطير وقد مُلِئوا رعباً كما أخبر به النبي (ص)، فتقدم إليهم أمير المؤمنين علي (ع) بوصايا رسول الله (ص)، وعرض عليهم الإسلام أولاً، ثم دعاهم إلى الصلح وقبول

= أسد، و.. شجاع، و.. قوي ـ آجام: جمع أَجَمَة، ضرغام الآجام: أسد الغابات ـ قَسْوَرَة: الأسد، و.. فتى شجاع وقوي كالأسد.

١٥ ـ عبل: ضخم، مليء ـ القَصَرة: أصل العُنُق.

١٦ ـ السَنْدَرَة: نوع من الكيل، مكياله ضخم ـ الفِقَرة: الخَرَزات (في الظهر)؛ يُبِينُ الفِقَرة: يفصل خرزات الظهر بعضها عن بعض ويمزقها.

١٧ ـ القِرن: الند، المماثل المواجه، المقاوم، الخصم الموازي ـ بقاعٍ: بقعرٍ. القاع: الأدنى والأرض والقعر من الشيء ـ جَزَرة: ذبيحة.

١٨ ـ خَرٌ: مهاجم، قوي ـ وَرَهٌ و.. وَرِهٌ: قوي كثير الشحم ـ يُقَوِّم: يُوَلِّد، يُسبِّب ـ صُغْره: هَوانَهُ وذُلَّه.

الجزية ثانياً، فأبَوا قبول شيء منهما؛ وبينما هم كذلك إذ رجع مرحب للبراز. (وكان من قصته أنه تمثل له إبليس في طريقه عند الهزيمة، واعترضه متصوراً بصورة حَبر من أحبارهم، وقال له: «إلى أين يا مرحب؟»؛ فأخبره مرحب بنصيحة زوجته الكاهنة، وتحذيرها له من مبارزة من يسمى بحيدرة، فقال له: «شوها لك يا مرحب! لو لم يكن حيدرة إلا هذا وحده، لما كان مثلك يرجع عن مثله. تأخذ بقول النساء وهن يُخطِئنَ أكثرَ مما يُصِبنَ، وحيدرة في الدنيا كثير، فأرجع لعلك تقتله، وتسود بذلك قومك، وأنا في ظهرك أستصرخ اليهود لك»؛ فلم يزل إبليس به حتى أرجعه إلى القتل)؛ وعرض عليه أمير المؤمنين (ع) ما عرضه على قومه من قبول إحدى الخصلتين: إما الإسلام وإما الجزية، فأبى اللعين إلا الكفر والعناد، فحمل علي (ع) عليه حملة أسدٍ باسل وليث غَضوب، وهَمَّ مرحب به، فسبقه أمير المؤمنين (ع) بضربة شديدة على أم رأسه ملأ الجو رنتها، وأدهش الفريقين بريقها، وقدَّ بها الحجر والمِغفر على رأسه[١٩]، وصرخ أصحابه وولوا منهزمين نحو حصونهم ينادون: «قُتِل مرحب، قُتل مرحب»؛ وكبّر المسلمون برفيع أصواتهم سروراً وقد دهشوا من ضربة أمير المؤمنين (ع)، وعجبوا من صولته وشدة بأسه وقوته.

وكما أُعجِبَ بعلي (ع) وبكرامته في ذلك اليوم خاصةً قدامى شعراء الإسلام، وأنشدوا فيه ـ في عهده نفسه ـ بدائع الأشعار (كما تقدم في شعر حسان بن ثابت)، فإن شجاعته ومواقفه في ذلك اليوم، ومعجزة شفاء رَمَد عينيه بِريقِ الرسول (ص)، وهجومه دون باقي المسلمين على حصون اليهود، وقتله لقائدهم «مرحب»، فتنَتْ الشعراءَ بعده عبر القرون المديدة التالية، فكانت لهم فيه وفي يومه الأغر ذاك، الكثير من الأشعار البديعة،

---

١٩ ـ في بعض الروايات أن سيف أمير المؤمنين علي(ع) نزل في جسم مرحب إلى أضراسه ثم صرته ثم دبره وشطره شطرين، حتى خرَّ النصفان يميناً وشمالاً على الأرض كقطعتي جبل شامخ.

ومنها ـ على سبيل المثال ـ ما قاله من المتأخرين، الفاضل الكمي والمخلص الصفي، الشيخ كاظم الأزري (قده) في قصيدته الهائية المشهورة؛

وله يومَ خيبرٍ فتكاتٌ كبُرَتْ منظراً على مَن رآها
يوم قال النبي إني لأُعطي رايتي لَيْثَها وحامي حِماها
فاستطالت أعناقُ كلِ فريقٍ لِيَرَوا أيَّ ماجدٍ يُعطاها
فدعا: أينَ وارثُ العلم والحلـ ـم مجيرُ الأنام مِن بأساها
أين ذو النجدة الذي لو دَعَتْهُ في الثريا مَروعةٌ لَبَّاها
فأتاه الوصي أرمدَ عينٍ فسقاها مِن ريقه فشفاها
ومضى يطلب الصفوف فولَّتْ عنه عِلماً بأنه أمضاها
ويَرَى مرحباً بكف اقتدار أقوياءُ الأقدار مِن ضُعَفاها[٢٠]

حين وصل كل أصحاب مرحب منهزمين إلى حصونهم، رَدُّوا أبوابها وأغلقوها، ثم جعلوا يرمون علياً (ع) وأصحابه بالحجارة والسهام، ولكن علياً لم يُثْنِهِ شيء من أدواتهم، وظل يتقدم ويتقدم، وافتتح الحصون واحداً بعد واحد، يدمّر شجعانها، ويشطر أبطالها، ويُجَنْدِل مقاتليها، لا معينَ له في ذلك كله سوى الله جل جلاله، إلى أن وصل إلى حصن «الربيع بن أبي الحُقَيق» الذي كان من أعاظم اليهود؛ وقد أسلفنا أن ذلك الحصن كان اسمه «القَموص» وأنه كان أرفع الحصون بنياناً وأعظمها شأناً، وكان بابه قطعة حجر منقور في صخرٍ كأنه حَجَر رَحَى، لا يفتحه إلا مجموعة من رجال أقوياء (قيل يحتاج إلى أربعين رجلاً لرفعه) وفي وسطه ثقب صغير، فلما اقترب منه وحجارة اليهود وسهامهم تنهال عليه، ثَنَى (ع) رجليه ووثب فوق الخندق الحاجز مغضباً حتى انتهى إلى باب الحصن، وكان السيف في يده اليمنى والقوس في اليسرى، فرمى القوس ومد يده اليسرى إلى ثقب

٢٠ ـ بَرَى (بَرْياً): نَحَت وشذَّب (ومنها: بَرْيُ القَلَم).

الباب حتى أدخل فيه إصبعين من أصابعه، وشد فيه بقوة غير عادية حتى اقتلعه من أصله، بعد ما هزَّهُ هزة رجَّت الحصن بأهله، وارتفعت بها أصوات اليهود من داخله، وقامت فيهم الزعقات والعجيج، وهم بين صارخ مرعوب، وباكٍ مدهوش، ومجروح قد سقط من عالي المكان، ومنهم صفية بنت حُيَيّ بن أخطب زوجة كنانة بن الربيع (وقد تقدم ذكرها) فإنها سقطت على الأرض من على سريرها، وشُجَّ وجهها بجانب السرير عند ارتجاف الحصن باقتلاع بابه، وامتلأ الجو وضاق الفضاء في صريخهم.

ثم دخل علي (ع) بنفسه وحده مدينتهم، فحملوا عليه بأجمعهم حملة رجل واحد، رجالهم ونساؤهم، كبارهم وصغارهم، قذفاً بالحجارة، ورمياً بالنبال، فعند ذلك حمل الباب بيسراه فوق رأسه كالترس، وحمل عليهم بيمناه كالليث الغضوب، يميناً وشمالاً، وقلباً وجناحاً، حتى قَتل منهم مقتلة عظيمة، لا يَلقَى فارساً إلا طحنه، ولا بطلاً إلا ردمه، وهو يرتجز تارة بقوله:

أنا عليٌّ وٱبنُ عبدِ المطَّلِب ... مهذبٌ ذو سَطوةٍ وذو غَضَب
قِرنٌ إذا لاقيتُ قِرناً لم أَهَب ... أخو النبي المصطفى والمُنْتَجَب
رسولِ ربِ العالَمينَ قد غَلَب ... بَيَّنَهُ ربُ السماء في الكُتُب
وكلهم يَعلمُ، لا قولَ كَذِب ... ولا بزورٍ حينَ بَذْءٍ بالنَسَب
صافي الأريمِ والجبين كالذَهَب ... اليوم أرضِيهِ بضربٍ وغَضَب[21]
ضَربَ غلامٍ أرِبٍ مِن العرب ... ليس بخَوَّارٍ يُرَى عند النَكَب[22]
فأثبتْ لضربٍ مِن حسامٍ كاللهب ... غُذيتَ في الحرب وعصيان النُوَب

---

٢١ ـ صافي الأريم: صافي النسب والأصل ـ أُرضيه: أرضي النبي، بضرب (الأعداء) وغضب (عليهم).

٢٢ ـ أرِب وأريب: حاذق، ماهر، حصيف ـ خوَّار: ضعيف، جبان، فاتر ـ النَكَب: المُصاب، الهَمّ.

من بيت عز ليس فيه مُنْشَعِب   وفي يميني صارمٌ يجلو الكُرَب[٢٣]
مَن يَلْقَني يلقَ المنايا والعَطَب   إذ كفُّ مثلي بالرؤوس يلتعب
أحمي ذِماري وأذبُّ عن حَسَب   والموتُ خيرٌ للفتى من الهرب[٢٤]

ويهاجم ثانية فرقة أخرى وهو يرتجز بقوله:

أنا عليٌّ البطلُ المظفَّرُ   غَشَمْشَمُ القلبِ بذاك أُذْكَرُ[٢٥]
وفي يميني لِلِّقاءِ أخضرُ   يلمع من حافة برق يزهر[٢٦]
لِلطعن والضربِ الشديدِ مُحْضَرُ   مع النبي طاهرٌ مُطَهَّرُ
اختاره الله العليُّ الأكبرُ   اليوم يُرضِيهِ ويُخزَى عَنْتَرُ[٢٧]

وثالثة يحمل وينشد:

ستشهدُ لي بالكرِّ والطعن رايةٌ   حبَاني بها الطُهْرُ النبيُّ المهذَّبُ
وتعلمُ أني في الحروب ـ إذا التظت   بنيرانها ـ الليثُ الهَموسُ المُجرَّبُ[٢٨]
ومِثليَ لاقى الهَوْلَ في مُفْظَعاتِهِ   وقَلَّ له الجيشُ الخميسُ العَطَبْطَبُ[٢٩]
وقد علم الأحياء أني زعيمها   وأني لَدَى الحربِ الغَديقُ المُرَحَّبُ[٣٠]

---

٢٣ ـ الكُرَب: النوائب، الأحزان والهموم.

٢٤ ـ الذِمار: الحِمَى، الساحة، الحياض ـ أذُبُّ: أدافع.

٢٥ ـ الغَشَمْشَم: الجرىء الشجاع الذي لا يرده شيء أو أحد عن ما يريد.

٢٦ ـ أخضر: (سيف) كثير الخَضْر، أي كثير القطع ـ حافَة: شدة.

٢٧ ـ العَنْتَر: الذباب، والظاهر الراجح أنه يشبه خصم الرسول (ص) بالذباب تحقيراً.

٢٨ ـ إذا التظت نيران الحرب: إذا اشتعلت وحَمِيَت.. ـ اللَيْث الهَموس: الأسد الكسَّار للفريسة.

٢٩ ـ المُفظَعات: الشدائد المهولة والشنيعة ـ الخميس: الجيش ـ العَطَبْطَب: الكثير الإعطاب والإهلاك.

٣٠ ـ الزعيم: الرئيس والمقدَّم والسيد ـ الغديق: المكثر من الغَدَق والسائل (من الدم؟) ـ المُرَحَّب: الموسع (لساحة القتال).

ورابعة ينصب عليهم كالعذاب الأليم وهو ينشد:

أنا علـيٌّ هازمُ العساكِرِ ... أنا الذي أضربُكُمْ، وناصري
إلٰهُ حقٍ ولـه مُهاجَري ... أضربكم بالسيف في المصاغر[31]
معَ ابنِ عمي والسِراج الزاهرِ ... حتى تَدينوا لِلعَليِّ القاهِرِ[32]
ضربَ غلامٍ صارمٍ مُماهِرِ ... يَنصُرُني ربيَ خيرُ ناصرِ
آمنتُ بالله بقلبٍ شاكر ... أضرب بالسيف على المغافر[33]

وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد، المعتزلي الشافعي، في قصيدته البائية:

ألم تُخبِرِ الأخبارُ في فتح خَيْبَرٍ ... ففيها لذي اللُبِّ المُلِبِّ أعاجيبُ[34]
وفَوزُ عليٍّ بالعُلَى فَوْزُها به ... فكلٌّ إلى كلٍ مُضافٌ ومنسوب[35]

إلى أن قال:

وما أَنسَ لا أَنسَ اللَذينِ تقدَّما ... وفَرَّهما، والفَرُّ ـ قد عَلِما ـ حُوبُ[36]
وللراية العظمى وقد ذَهبا بها ... ملابسُ ذُلٍ فوقها وجَلابيبُ

---

٣١ ـ المُهاجَر: المهجر، المكان أو الشخص الذي يهاجر إليه ـ المَصاغر: الأماكن التي تصغر المضروب وتذله، أو: الأعضاء الدقيقة الصغيرة، كالقلب...

٣٢ ـ تَدينوا: تَخضَعوا وتستسلموا وتطيعوا.

٣٣ ـ المَغافِر (جمع مِغفرة): زَرَد يلبسه المحارب تحت القلنسوة للوقاية من ضربات السيوف.

٣٤ ـ اللُب: الخالص الصافي من كل شيء،.. العقل،.. الذكاء. ذو اللُب: العاقل، ذو الفهم ـ المُلِبّ: المتفكر، الشاغل عقله وفكره.

٣٥ ـ العُلَى: الرِفعة، الأمور العالية. يقول: كما فاز عليٌّ بالعُلَى والمفاخر، فازت العُلَى ومراتب الفخر والشرف بعلي، لأنه حملها واتصف بها، فكل منهما يضاف إلى الآخر ويُنسَب إليه.

٣٦ ـ لا أنسَ اللذَينِ تقدما، ولا أنس هروبهما من المعركة، وهما يعلمان أن الفَرَّ حوب: خطيئة، وزر. الحوباء: الخطية.

يَشُلُّهما مِن آلِ موسَى شَمَرْدَلٌ طويلُ نِجادِ السيفِ أجْيَدُ يَعْبُوبُ[37]

إلى أن قال:

يَمُجُّ مَنوناً سيفُهُ وسِنانُهُ ويلهبُ ناراً غَمْدُهُ والأنابيب[38]
عَذَرْتُكما إن الحِمام لَمُبْغَضٌ وإن بقاءَ النفسِ للنفس محبوب
دعا قصبَ العلياءِ يملِكها امْرُؤٌ بغير أفاعيل الدناءة مقضوب[39]
يرى أن طول الحرب والبؤس راحة وأن دوام السلم خَفْضٌ وتعذيب
جَوادٌ على ظهر الجواد وأَخْشَبٌ تَزَلزَلُ منه في النزال الأخاشيب[40]
تجلى له الجبار في ملكوته وللحتف تصعيد إليه وتصويب[41]
وللشمس عينٌ عن عُلاهُ كليلةٌ وللدهر قلب خافق منه مَرْعوب
فعاين ما لولا العِيانُ وعلمُهُ لَمَا ارتاب شكاً أنه فيه مكذوب

---

٣٧ ـ يَشُلُّهما: يطردهما ويُرجعهما ـ من آل موسى: من قوم (النبي) موسى(ع)، من اليهود ـ الشَمَرْدَل: السريع، الفَتِيّ ـ أجْيَد: طويل العنق (حسن الجِيد: .. العنق) ـ اليَعْبوب: النهر الغزير والشديد الجَرْي.

٣٨ ـ يمج: يشرب ـ السِنان: نصل الرُمح ـ الغَمد: بيت السيف ـ أُنبوب السيف: كعبه.

٣٩ ـ قصب العلياء: قصب السبق إلى العلياء؛ فالقدامى كانوا ينصبون في حلبة السباق قصبة ليقتلعها ويُعرَف بها الأول من المتسابقين. هنا دعا وتطلب الرسولُ قصب السبق إلى العلياء التي يملكها امرؤٌ غير مقضوب ـ مقضوب: مُقتَضَب، مقتطع من أصول عريقة، متولد بعيداً من أفاعيل الدناء.

٤٠ ـ جواد على ظهر الجواد: الجواد (الأولى): الكريم، الأصيل، .. السخيّ؛ الجواد (الثانية): الحصان ـ أخْشَب: صلب (العظام) ـ تَزَلْزَلُ: تتَزَلْزَل ـ النِزال: المعركة، الحرب ـ الأخاشيب: الجبال العظيمة.

٤١ ـ الحتف: الموت، المَنِيَّة ـ تصويب: خَفْضَ، إنزال، نَكْس. والضمير في هذا البيت والبيتين التاليين له كما جاء في النسخة التي نقل المؤلف عنها هو للمخاطب (تجلى لك، تصعيد إليك، عن عُلاكَ... الخ) لا للغائب (تجلى له، .. إليه، .. عُلاه) كما ورد في الأبيات التي قبله والتي بعده، لذا صححناه وأرجعناه للغائب.

وشاهد مرأى جلَّ عن أن يَحُدَّه من القوم نظم في الصحائف مكتوب
وأصْلَتَ فيها مرحَبَ القومِ مُقْضِباً جُرازاً به حبلُ الأمانِيِّ مقضوب[٤٢]
فأشْرَبَهُ كأسَ المَنِيَّةِ أحْوسٌ مِنَ الدمِّ طَعِّيمٌ وللدم شَرِّيب[٤٣]
لِذاتِكَ تقديسٌ لِرَمْسك طُهْرةٌ لوجهك تعظيمٌ لمجدك ترحيب
عليكَ سلامُ اللهِ يا خيرَ مَن مَشَت به بازِلٌ عَبْرَ المَهامِهِ خُرعوبُ[٤٤]

وبلغ النبيَّ (ص) خبرُ اقتلاع علي (ع) باب الحصن الحجري، وحمله إياه بيسراه ترساً له في المعركة، فخرج حين بشره البشير بذلك ليشهد عن قرب مظاهر بطولته، ويرى محاسن ما أنجزه في حملته؛ ولمحَ أميرُ المؤمنين (ع) الرسولَ (ص) خارجاً ومتوجهاً إليه، فتوقف حالاً ودحا الباب (أي قذفه) إلى خلفه ليتوجه نحو النبي (ص)، فطار الحجر بقوة الدفع كالطائر في الجو، ومرَّ فوق رؤوس المسلمين، ثم وقع على الأرض خلفهم بعيداً مسافة كبيرة ـ قيل بلغت أربعين ذراعاً ـ عن عساكرهم، وتَذْكُر عدة مِن كتب السيرة النبوية الكريمة، أن أعداداً من المسلمين (وصل البعض بعددهم إلى سبعين رجلاً)، اجتمعوا بعدئذٍ على الحجر ليرفعوه فلم يستطيعوا أن يحركوه. فلما وصل علي (ع) إلى النبي (ص)، ضمه الرسول إلى صدره، وجعل يقبله ويُحيّيه ويقدّره راضياً سعيداً به، ثم قال (ص) له: «بلغني نبأك المشكور وصنيعك المبرور، وقد رضي الله عنك ورضيتُ أنا عنك»؛ فجعل أمير المؤمنين يبكي فرحاً برضاء الله ورسوله (ص) عنه.

---

٤٢ ـ أصلتَ: شَهَرَ، أبرزَ، أخرج (السيفَ) ـ مُقضِباً: (سيفاً) مقضِباً، . . قاطعاً ـ (سيفاً) جُرازاً: قطّاعاً ـ مقضوب: مقطوع.

٤٣ ـ أحوس: شجاع لا يهوله شيء ـ طَعِّيم وشريب للدم: كثير الإطعام والسقي للدم.

٤٤ ـ (ناقة) بازِل: (ناقة) طلع نابُها، أي هي شابة في اكتمال قوتها ـ المَهامِهُ (جمع مَهْمَهٍ ومَهْمَهَة): الفلوات الواسعة البعيدة المقفرة ـ (الناقة) الخُرعوب: الطويلة العظيمة.

وتهافت المسلمين أيضاً فتجمعوا حوله، وجعلوا يقبلونه مُقدِّرين، وببطولته وعزيمته مُعْتَدّين ومعتزين، وسأله عمر بن الخطاب (رض) معجباً بقلعه للباب قائلاً: «يا أبا الحسن، لقد اقتلعتَ منيعاً وأنت ثلاثةَ أيام خَميص[45]، فهل قلعته بقوة بشرية؟»؛ فقال (ع): «لا والله، ما قلعته بقوتي البشرية الجسدية، ولا بحركة بدني الغذائية، بل بعونٍ من قوة إلٰهية ملكوتية، ونفس بلقاء ربها مطمئنة رضية، وبنور ربها مُضِيَّة، فأنا من أحمد كالضوء من الضوء! والله لو تظاهرت العرب كلها على قتالي لما ولَّيت، ولو أمكنَتْني الفرصة من رقابها لما أبقيت، ومَن لم يُبالِ متى يحين حتفه، فَجَنَانه في المُلمّات رابط!».

ومرة أخرى رحم الله الشيخ الأزري الذي يتابع في قصيدته الهائية المتقدمة قائلاً:

وَدَحا بابها بقوةِ بأس لو حَمَتْها الأفلاكُ منه دحاها
عائذٌ للمُؤَمّلينَ مجيبٌ سامِعٌ ما تُسِرُّ من نجواها
إنما المصطفى مدينةُ علم وهو البابُ مَن أتاه أتاها
وهما مُقلتا العوالِمِ: يُسرا ها عليٌّ وأحمدٌ يمناها

ثم إن عساكر المسلمين، وقد كانوا في الطرف الخارجي من الخندق المحيط بالحصن، لما لم يمكنهم العبور إليه بخيلهم وأحمالهم ودوابهم، تحيروا في أَمرهم، فتقدم أمير المؤمنين (ع) وتناول ترسه ـ وهو حجر الباب الذي رماه وراء العسكر ـ فحمله وأتى به إلى الخندق، ثم نزل بنفسه فيه، ورفع الحجر فوق رأسه كالجسر بين حافتي الخندق، فعبَرَ عليه المسلمون من جانب إلى جانب[46]، ودَهِشَ الناس من ذلك حيرة وعجباً،

---

٤٥ ـ خَميص: فارغ البطن، جائع، لم يأكل.

٤٦ ـ جاء في بعض الروايات أن طول الحجر كان قصيراً على عرض الخندق، فجعل أمير المؤمنين(ع) ينقله إلى جانب المسلمين، فيستوي عليه فوج منهم بدوابهم=

وازداد المؤمنون له حباً، كما التهبت نيران الحسد في قلوب المنافقين وملئوا غيظاً؛ وقال له أحدهم: «يا أبا الحسن، لقد حملت ثقلاً!»؛ فقال (ع): «ما كان ذلك إلا مثل جُنَّتي[47] التي بيدي»[48]؛ وقد أنشأ بعضهم يقول في إنجاز علي (ع) في ذلك اليوم:

إنَّ امْرَءاً حمل الرِتاجَ بخيبرٍ ... يومَ اليهودِ بِقُدرةٍ لَمُؤَيَّدُ[49]
حمل الرِتاجَ رتاجَ بابِ «قَموصها» ... والمسلمون وأهلُ خَيْبَرَ حُشَّدُ
فرمى به ولقد تَكَلَّفَ رَدَّهُ ... سبعون شخصاً كلُّهم مُتَشدِّدُ
رَدُّوهُ بعد تكلُّفٍ ومَشَقَّةٍ ... ومَقالَ بعضِهِم لبعضٍ أُرْدُدوا

وقال آخر:

بعث النبيُّ بِرايةٍ منصورة ... معَ ابنِ حَنْتَمَةَ الدَلامِ الأَدْلَما[50]
فمضى بها حتى إذا بَرَزوا له ... دون «القَموص» نَبا وهابَ وأَحْجَما[51]

وأحمالهم على قدر سعة الحجر، فينقلهم إلى جانب الحصن، ثم يرجع لحمل فوج آخر منهم، وهكذا إلى أن نقلهم بأجمعهم.

٤٧ ـ الجُنَّة: الترس، قطعة المعدن (أو الجلد) التي يحملها المقاتل لتحميه من ضربات سيف الخصم.

٤٨ ـ قيل في بعض الروايات إن عمر بن الخطاب (رض) قال للنبي (ص) عند عبور القوم على الحجر: «أما تعجب يا رسول الله من قوة علي، وحمله لهؤلاء الجمع على الحجر فوق رأسه بيد واحدة؟»؛ فقال: «أنظر إلى قدميه فذاك أعجب»؛ فنظر إليهما، فإذا هما مرتفعان عن الأرض وقد استقرا في الجو، وذلك لقصر قامته(ع) وعمق الخندق.

٤٩ ـ الرِتاج: الباب الضخم جداً.

٥٠ ـ حَنْتَمة (بنت ذي الرمحين): أم عمر بن الخطاب [عن القاموس المحيط، باب الميم: حنتم، ومعنى الاسم لغةً: شجرة الحنظل ـ الدَلام: الأسود ـ الأدلم: الشديد اسواد. . ويحتمل أن تكون الدلام (الأولى) صفة لحنتمة، أي الأم حنتمة السوداء (السمراء)، والأدلم (الثانية) صفة للابن.

٥١ ـ نَبا (ينبو): ابتعد.

وأتى النبيَّ براية مردودةٍ أفلا تخوَّفَ عارَها فتذمما
فبكى النبيُّ لها وأنَّبَهُ بها ودعا أمْرءاً حَسَنَ البصيرةِ مُقدِما
فغدا بها في فَيْلقٍ ودعا له ألاَّ يُصَدَّ بها وألا يُهزَما
فزَوَى اليهودَ إلى «القموص» وقد كسا كبْشَ الكتيبةِ ذا غِرارٍ مِخْذَما[52]

ثم إنه لما عبر النبي والمسلمون إلى جانب الحصون التي بعد القموص، دخلوها واحداً بعد واحد، يتقدمهم أمير المؤمنين علي (ع) وهو يحوز الأموال والغنائم، حتى انتهى إلى حصن «الوطيح»، وبعد احتلاله وصل المسلمون إلى حصن «السلالم» الذي كان آخر حصونهم وأعلاها، فحصروه بضع عشرة ليلة، وكانت فيه قلعة مكينة فيها أموالهم ومآكلهم؛ فلما ضاق الحصار على اليهود وطال، بعث الربيع بن أبي الحُقَيق إلى النبي (ص) يسأله الاجتماع به؛ فأجابه النبي إلى ذلك، فنزل الرجل إلى أن اجتمع بالنبي (ص) وسأله الصلح، على أن يخرجوا بمن بقي لهم من الذراري والنساء من أرض خيبر، مقابل أن يحقن لهم دماءهم، وعلى أن يتركوا للنبي (ص) ما كان لهم من مال وأرض، وصفراء وبيضاء، وحِلْقةٍ وبَزٍّ[53]، حتى أرض الكُراع[54] التي لهم على ثلاثة أميال من عُسْفان[55]، ولا يحمل أحد منهم شيئاً من كل ما يملك إلا ما على ظهره من الثياب؛

---

٥٢ ـ زَوَى (عليٌّ) اليهود: دَفَعهم، جعلهم يهربون إلى «القموص» حصنهم ـ كبش الكتيبة: نعت رمزي لأفضل رجل وأقوى فارس مقاتل في القوم (أي مرحب) كما يُنظَر في الكتيبة (أو القطيع) من الغنم، إلى الكبش الأفضل والأبرز ـ كسا (يكسو) عليٌّ كبش الكتيبة: أنزَلَ على رأسه، ألبسه ـ (سيفاً) ذا غِرار: سريعاً ـ مِخْذَماً: قاطعاً.

٥٣ ـ الصفراء: الذهب ـ البيضاء: الفضة ـ الحِلْقة: الماشية والحيوانات ـ البَزّ: السلاحَ، . . والثياب؛ والمعنى الأول (أي السلاح) أقوى هنا.

٥٤ ـ الكُراع: الناحية أو الحدود.

٥٥ ـ عُسفان: قرية (على بُعد مرحلتين، أو ستة وثلاثين ميلاً) شمالي مكة، وقيل هي منهلة (مكان للشرب والسقاية) من مناهل الطريق بين مكة والجحفة، على طريق المدينة.

فأجابه النبي إلى ذلك وصالحه عليه، ولكن على شرط أن لا يخونه اليهود، ولا يكتموه شيئاً من كنوزهم وأموالهم، فإن كتموه شيئاً أو خانوه، فلا ذمة لهم ولا عهد، وتكون قد برئت ذمة الله وذمة رسوله منهم. ثم زادهم النبي (ص) إحساناً، فسمح لهم أن تبقى أراضيهم بأيديهم يزرعونها ويعمرونها على أن يكون لهم النصف من ريعها ومنافعها، وللمسلمين النصف، وعلى شرط أنه متى شاء أن يخرجهم منها أخرجهم؛ فرضوا وفرحوا بذلك، وصالحوه عليه شاكرين له.

ولكنهم حينَ انصرفوا إلى محالهم، أَبوا بينهم إلا الغدر والخيانة، واجتمعت كلمتهم على أن يغيبوا كنز آل أبي الحُقَيق وفيه أموال كثيرة، فغيبوه ودفنوه في خربة، كي لا ينتزعه النبي منهم في جملة أموالهم على مقتضى شرط الصلح. ونزل الوحي على النبي بذلك، فبعث النبي (ص) واستخرج الكنز، وبذلك انتقض العهد، فرجع المسلمون وحاصروا القصر الأعلى، وأقاموا كذلك أياماً، إلى أن خرج منهم ذات يوم رجل وأقبل إلى النبي يقول له: «يا محمد، تُؤَمِّنُي على نفسي وأهلي ومالي ووُلْدي حتى أدلك على فتح القلعة؟»؛ فأجابه النبي إلى ذلك وأمَّنه، وسأله عن دلالته، فأشار اليهودي عليه أن يأمر بحفر موضع هناك حتى ينتهوا إلى ماء القلعة ويسد الماء عنهم، فيلجئهم العطش إلى أن يسلموا إليه القلعة طوعاً؛ فأَبى النبي ذلك وقال (ص): «أو يُحدِث الله غيرَ هذا؛ وقد آمناك».

ولما كان الغد، ركب النبي (ص) بغلته وأمر المسلمين بمتابعته، وسار بهم نحو القلعة إلى أن قربوا منها؛ وأيقنت اليهود بالهلاك والدمار، فصعدوا إلى أعلى القصر وجعلوا يرمون المسلمين بالسهام ويقذفونهم بالحجارة، ولكنها لم تُجدِ شيئاً، ولم تمنع المسلمين من التقدم حتى انتهوا إلى باب القلعة، ثم دخلوها من غير كثير كلفة ولا تعب[٥٦]، وقتلوا من

---

٥٦ ـ في بعض الروايات للسيرة النبوية الكريمة، أن السهام والحجارة التي كان اليهود يرمون بها المسلمين، كانت تمر على يمين النبي (ص) والمسلمين ويسارهم ولا =

اليهود ثلاثة وتسعين رجلاً، وسبوا من نسائهم شيئاً كثيراً، وفي كل ذلك يتقدمهم أمير المؤمنين علي (ع)، حتى انتهى إلى صفية بنت حيي بن أخطب زوجة كنانة بن الربيع.

وكانت صفية قد رأت في منامها قبل سبيها بأيام، أن قمراً وقع في حجرها، ولما عرضت رؤياها على زوجها، غضب عليها ولطمها على خدها لطمة اخضرت بها عينها وهو يقول لها: «ما هذا إلا أنك تتمنين محمداً ملك الحجاز»؛ ولما سباها أمير المؤمنين علي (ع)، ومعها امرأة أخرى، بعث بهما مع «بلال» إلى النبي (ص)، وأوصاه أن لا يضع صفية إلا في يدي رسول الله (ص) كي يرى فيها رأيه؛ فأخذهما بلال، ومر في طريقه على بعض قتلى اليهود، فأخذتا تصرخان وتبكيان وتصكان وجوههما وتحثوان التراب على رأسيهما حتى كادت نفساهما أن تزهقا أسفا على قتلاهما، ولما انتهوا إلى النبي وعرف (ص) بذلك، أخذ يعاتب بلالاً على قلة رحمته لهما بجعل طريقهما على مصارع القتلى من رجالهما، ثم أمر بصفية أن تُحَيَّزَ[٥٧] خلفه، وألقى عليها رداءه، وخيَّرها بين أن يُعتِقها ويتزوج بها، أو أن يُلحِقها بأهلها، فاختارت العِتْق والإسلام والتزوج بالنبي، فتزوج (ص) بها بأمر من الله تعالى، وكان ذلك تفسير منامها. ثم أمر لها بناقة، وتقدم هو (ص) بنفسه وقدم إليها ركبته كالسُّلَّم لها عند ركوبها على الناقة؛ فأبت صفية وضع قدمها على ركبته، فأمر (ص) فوضعت ركبتها على فخذه (ص) وصعدت على ظهر الناقة. وأما المرأة اليهودية التي كانت مع صفية فلم تقبل الإسلام، فأَبعدها النبي (ص) عنه وقال: «اعزبوا عني هذه الشيطانة».

= يصيب شيء منها أحداً منهم، حتى انتهوا إلى باب القلعة المنيعة، وهناك وقف النبي (ص) بقرب حائط من حيطانها الرفيعة الشاهقة، وأشار إليه بيده الشريفة، فانخفض الحائط بإشارته بأسرع من طرف العين حتى ساوى الأرض وعجب الناس من ذلك، ثم دخلوا القلعة من موضع الحائط بأمره.

٥٧ ـ تُحَيَّز: تُعطَى مكاناً، يُجعَلُ مكانها...

ثم جعل النبي (ص) يميز رجال اليهود الأسرى من نسائهم السبايا، فوثب إليه رجل منهم اسمه «زهير أبو جرول» كان رئيس قبيلة «هُوازن»، وجلس بين يدي النبي (ص) يذكِّره أيام ارتضاعه من هوازن ونشأته فيهم، يريد بذلك التوسل به (ص) في خلاصهم من القتل، وأن يمن عليهم بحقن دمائهم، وأنشأ يقول:

أُمْنُنْ علينا رسولَ الله في كَرَم ... فإنكَ المرءُ نرجوهُ وننتظرُ
أمنن على بيضةٍ قد عافها قَدَرٌ ... مُفرَّقٍ شَمْلُها في دهرها عِبَرُ[58]
أبقتْ لنا الحربُ هُتَّافاً على حَزَنٍ ... على قلوبهم الغَمَّاءُ والغَمَرُ[59]
إنْ لم تَدارَكْهُمْ نَعْماءُ تَنشرُها ... يا أرجحَ الناسِ حِلْماً حين يُختبَرُ[60]
أُمْنُنْ على نِسوة قد كنتَ تَرْضَعُها ... إذ فوكَ يَملأهُ مِن مَحْضِها الدُرَرُ[61]
إذ أنت طفل صغير كنتَ تَرْضَعُها ... وإذ يَزِينُكَ ما تَأتي وما تَذَرُ[62]
يا خيرَ مَن مَرَحَتْ كُمْتُ الجيادِ بِهِ ... عند الهياجِ إذا ما آسْتَوْقَدَ الشَرَرُ[63]

---

٥٨ ـ بيضة: ساحة.. (دار، أرض عشيرة).

٥٩ ـ هُتَّاف، هاتفون.. على حزن: أن ما بقي لنا من الحرب قوم يهتفون لا هتاف فرح وزغردة، بل هتافهم هتاف الحزن ـ الغَمَّاء: الحزن والغم والكرب ـ الغَمَر: الحقد.

٦٠ ـ تدارَكهُم، أي تتداركهم، (مثل: ليلة القدر تَنَزَّلُ ـ أي تَتَنَزَّلُ ـ الملائكة والروح فيها).
والشطر الأول في هذا البيت، تابع للشطر الثاني في البيت السابق، أي: أن الرجال الباقين (الذين لم يُقتلوا) في الحرب، إن لم تداركهم وتنجدهم نعماءُ منك تنشرها عليهم، فعلى قلوبهم الغماء (الحزن) والغَمَر ـ الحلِم: العقل، أو.. الصبر وكظم الغيظ والتحمل.

٦١ ـ فوك: فمك ـ مَحْضها: لبنها (الحليب).

٦٢ ـ وإذ يَزِينُكَ: وإذ يبدو زَيناً وجميلاً منك ـ ما تأتي وما تذر: ما تفعله وما تتركه.

٦٣ ـ كُمْت، جمع كُمَيْت: ما كان لونه بين الأحمر والأسود ـ الجياد، جمع الجواد: الحصان ـ استوقد: اشتعل.

لا تَتْرُكَنّا كَمَنْ شالَتْ نَعامَتُهُ وٱستَبْقِ منا فإنا مَعْشرٌ زُهَرُ[٦٤]
إنا لَنَشكُرُ للنُعْمَى وقد كُفِرَتْ وعندنا بَعد هذا اليوم مُدَّخَرُ
فألْبِسِ العفوَ مَن قد كنتَ تَرْضَعُها مِن أُمهاتكَ إنَّ العفوَ مُشْتَهَرُ

فرَقَّ النبي (ص) لهم وقال: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب (يعني من السبايا والأموال) فهو لله ولكم»؛ وتبعه الأنصار وقالوا: «وما كان لنا فهو لله ولرسوله»؛ وردوا ما كان بأيديهم من الذراري والأموال، فانصرفَت الأسرى والسبايا بأهاليهم وأموالهم شاكرين، ودفع النبي (ص) لهم أراضيهم ونخيلهم على الشطر والمقاسمة.

وسمع بذلك أهل «فَدَك»[٦٥]، فطمعوا في كرم النبي (ص) وجوده ومحامد صفاته، وبعثوا إليه أن يسترهم ويعاملهم في الأموال على النصف، ولا يتعرض له بحرب ولا سوء، ويحقن لهم دماءهم، وتبقى أراضيهم ونخيلهم بأيديهم يزرعونها ويعمرونها، لأنهم اعلم بها وأعمر لها، ثم يدفعوا للنبي (ص) نصف رَيْعها، فأجابهم النبي (ص) إلى ذلك وصالحهم عليه، على شرط أنه متى شاء أخرجهم كيهود خيبر وما صالحهم عليه؛ وعلى ذلك صارت أراضي فَدَك ونخيلها خاصة برسول الله (ص) خالصة له، لأنه لم يوجَف عليها[٦٦] بخيل ولا ركاب، (لأنها إذا أُوجِف عليها، تكون للذين أوجفوا وحاربوا لأخذها)، ووهبها النبي (ص) لابنته فاطمة (ع) بأمر من الله، وقد كانت بيدها وظلَّت في تصرفها مدة حياة أبيها، ثم انتزعها بعده منها الخليفة الأول الذي حكم بأن الرسول (ص) لم يورثها إياها؛ وأما أموال خيبر فصارت فَيئاً للمسلمين، لأنها أُخِذت بالحرب والقتال، طبقاً للقوانين الإسلامية.

٦٤ ـ شالت نعامته: مات وانتهى.
٦٥ ـ فَدَك اسم واحة كانت لليهود قرب خيبر، كانت غنية بالتمر والقمح.
٦٦ ـ أَوْجَفَ الخيل: دفعها وحمل بها وجعلها تعدو وتهاجم.

ثم انصرف النبي (ص) والمسلمون إلى منازلهم خارج الحصون، فلما كان الليل، واختلى النبي (ص) في فسطاطٍ له مع صفية، ورأى ما أصاب جبهتها من الشجة وعينها من الحمرة أو الخضرة، سألها عن ذلك، فأخبرته برؤياها القمر في منامها، وبوقوعه في حجرها ولطمة زوجها لها على ذلك، وأما الشجة فمن السقوط من على السرير عند ارتجاف الحصون بقلع بابها بيد علي (ع)، فقال لها النبي (ص): «يا صفية، إن علياً عظيم عند الله، وإنه لما هزَّ الباب، اهتز منه الحصن واهتزت له السماوات، وقد نزل عليَّ عند ذلك جبرائيل متعجباً يقول لي: إن الملائكة لَتنادي في صوامع الملكوت وجوامع السماوات تقول، لا فتى إلا علي لا سيف إلا ذو الفقار».

ثم لما أصبح النبي (ص) سمع صوتاً خارج الفسطاط، فنادى: «مَن هذا؟»؛ وإذا هو «أبو أيوب الأنصاري» قد جلس طول ليلِهِ وراء الفسطاط، يحافظ على النبي (ص) خوفاً عليه من صفية، وقال (في جواب النبي بعد ما سأله عن شأن جلوسه): «يا رسول الله، جارية شابة حديثة عهد بالعرس، وقد صَنَعْتَ بزوجها ما صَنَعْتَ، فلم آمَنْها عليك، وقلتُ إن تحركَتْ كنتُ قريباً منك»؛ فسُرَّ النبي (ص) بكلامه وترحم عليه مرتين.

وكان «كنانة»، زوج صفية السابق، هو الذي غدر بالنبي (ص) ودفن كنز الأموال في خربة وأنكر العلم به؛ ولما أخرج النبي (ص) الكنز، سأله أن يؤدي ما بقي عنده منه فأبى ذلك، وأمر النبي (ص) الزبير بتعذيبه رجاءَ اعترافه، فلم يعترف، فأمر بضرب عنقه.

بعد خيبر: وقائع، ومواقف، و.. سرايا

حدث في حقبة معركة خيبر وبُعَيْدها، وقائع ومواقف يستحق عديد منها التوقف عنده، كما وقعت بعد فتح الحصون وانتهاء المعركة، عدة سرايا أيضاً كان للنصر الذي حققه الرسول (ص) والمسلمون فيها، أثر كبير في وقوعها؛ فلئن كان النصر قد زاد حماس المسلمين وثِقَتَهم وإيمانهم بنبيِّهم (ص) ورسالته، فدفعهم لإكمال المسيرة وإيصال دعوة الإسلام إلى باقي ديار المشركين واليهود خاصة من أهل الكتاب، فإن الآخرين أدَّت أخبار فتح خيبر وانتصار المسلمين إلى الخوف عند بعضهم، والاستعداد للاستسلام وقبول شروط المسلمين للصلح، وأدَّت عند البعض الآخر إلى الغضب الشديد والنقمة والرغبة في الانتقام من المسلمين، وإيقاف المَدّ الجديد الخَطِر على معتقداتهم وتقاليدهم وقُواهم، لذا أَعَدُّوا وٱستعدُّوا وأقدموا على عدة معارك دفاعية وهجومية.

أما أبرز تلك الحوادث والمواقف التي وقعت وظهرت بعد خيبر، فهي التالية:

عودة جعفر بن أبي طالب (ع) من الحبشة:

● ـ حين همَّ النبي (ص) بعد انتهاء الغزوة بالرجوع إلى المدينة، بَلَغَه خبر قدوم ابن عمه جعفر بن أبي طالب (ع) من أرض الحبشة، ففرح بذلك كثيراً وسُر سروراً عظيماً، وخرج بمن معه يتلقاه حتى التقيا بالفرع، فاحتضنه وقبَّل ما بين عينيه وهو يبكي فرحاً بقدومه ويقول (ص): «لا

أدري، بأيهما أنا أشد سروراً: أبقدومك يا جعفر، أم بفتح الله خيبرَ على يد أخيك علي»؛ ثم قال (ص): «يا جعفر، ألاَ أمنحُكَ؟ ألا أُعطيك؟ ألا أَحْبُوك؟»؛ قال: «بلى يا رسول الله»؛ فمد الناس أعناقهم إليهما، ظناً منهم أنه يعطيه ذهباً أو فضة أو مالاً أو متاعاً، فقال (ص): «إني أعطيك شيئاً، إن أنت صنعتَه كان خيراً لك من الدنيا وما فيها، فإن استطعت فاصنعه كل يوم، وإلا فكل يومين، أو كل أسبوع، أو كل شهر، أو كل سنة: صلِ أربع ركعات، متى ما صلَّيتَهُن غُفِر لك ما بينهن»؛ ثم علمه كيفية الصلاة المعروفة بصلاة جعفر، المشتملة على ثلاث مئة مرة قول «سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إلَهَ إلا اللهُ واللهُ أكبر» المذكورة في الكتب الكثيرة وفي قسم المستحبات في رسائل العبادات.

ثم قدَّم جعفر للنبي (ص) الهدايا التي كان أرسلها النجاشي له مع جعفر، وفيها القطيفة والغالية[1]، وكانت القطيفة ألف مثقال من الذهب، فقال رسول الله (ص): «لَأدفعن هذه القطيفة إلى رجل يحب اللهَ ورسولَه، ويحبه اللهُ ورسولُه»؛ فسمع الصحابة قوله ذاك، فأخذ كل منهم يتقدم إليه ويمد عنقه نحوه رجاءَ أن يُعطاها، والنبي (ص) يدير بصره فيهم، إلى أن نادى وقال: «أين علي؟»؛ فوثب عمار يتفحص عنه، حتى لقيه ودعاه إلى النبي (ص)، فلما انتهى إليه، أعطاه رسول الله (ص) القطيفة.

فلما رجعوا إلى المدينة، أمر علي (ع) صائغاً، ففصَلَ القطيفة سِلْكاً سِلْكاً، فباعها علي كلها، وفرق جميعَها على فقراء المهاجرين والأنصار، حتى لم يترك منها لنفسه وأهل بيته شيئاً، لا قليلاً ولا كثيراً، ورجع إلى منزله صفر اليد منها.

ولما كان الغد لقيه النبي (ص) في جمع من أصحابه، وفيهم سلمان وأبو ذَر ومِقداد وعمار وحُذَيفة (رض)، فقال له: «يا علي، إنك أخذت

---

١ ـ القطيفة: ثوب مُخمَل ـ الغالية: أخلاط من الطيب والعطورات.

بالأمس ألف مثقال من ذهب، فاجعل غَذَائي اليوم وأصحابي هؤلاء عندك»؛ فقال (ع): «نعم يا رسول الله، وفي الرحب والسعة، ادخلْ يا نبي الله أنت ومن معك»؛ ولم يكن عند أمير المؤمنين (ع) يومئذٍ من العروض شيء قط، لا ذهب ولا فضة ولا مأكول، لا قليل ولا كثير، وإنما أجاب النبي إلى ذلك، حياءً منه واحتراماً له؛ ولما مضى النبي بمن معه نحو بيت علي، كان سبقهم أمير المؤمنين مسرعاً في الدخول على فاطمة كي يخبرها بالخبر ويبتغي عندها شيئاً من الزاد، فإذا هو يرى وسط البيت جفنة من ثريد ساخن، تفوح منها رائحة المسك، وعليها عُراق[2] كثير، ففرح بذلك. ولما دخل النبي (ص) بمن معه، قدَّم علي الجفنة ووضعها بين أيديهم، فأكلوا منها بأجمعهم حتى شبعوا، ولم ينقص منها شيء، وقد عجبوا من طعمه ورائحته وعدم نقصه.

وقام النبي (ص) فدخل على ابنته فاطمة (ع) يسألها: «أنَّى لك هذا الطعام يا فاطمة؟»؛ قالت: «هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب»؛ هذا والقوم يسمعونها، فخرج النبي إليهم مستعبراً وهو يقول: «الحمد لله الذي لم يُمِتْني حتى رأيتُ لابنتي ما رأى زكريا لمريم. كان إذا دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً فيقول: يا مريم أنَّى لكِ هذا؟ فتقول: هو من عند الله[3]»؛ وازداد القوم بذلك إيماناً وسروراً.

حملة المؤمن «الحَجَّاج بن عِلاط» على مشركي مكة:

● ـ وكان في صحابة النبي (ص) في غزوة خيبر رجل من المهاجرين، اسمه «الحَجَّاج بن عِلاط»، وكان له بمكة أهل ومال، وقد عزم بعد انتهاء الغزوة على المسير إلى مكة، لعله يستنقذ ماله من أهله المشركين، فتقدم إلى النبي (ص) يستأذنه في ذلك، وفي أن ينال من النبي ويهاجمه أمامهم،

---

٢ ـ العُراق: ماء الإدام، ماء الطعام المطبوخ.

٣ ـ النص القرآني لسؤال زكريا وجواب مريم: الجزء ٣، السورة ٣ آل عمران: ٣٧.

كي يسلم منهم ويسترجع أمواله، فأذن له رسول الله (ص) في الأمرين كليهما.

وانصرف الرجل نحو مكة حتى قدمها، ودخل على زوجته فقال لها: «اجمعي لي ما عندك من المال، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد آستُبيحوا وأصيبت أموالهم»؛ ففرحت المشركة بذلك، وبشرت به قومها. وانتشر الخبر في مكة بغلبة اليهود، وانكسار النبي (ص) وأصحابه وانتهاب أموالهم، ففرحت بذلك قريش فرحاً شديداً وسُرُّوا سروراً عظيماً، وغلب الحزن والكآبة والخوف على البقايا من المسلمين الذين كانوا بعدُ في مكة، وفيهم العباس بن عبد المطلب عم النبي (ص)، ولما بلغه الخبر دهش دهشاً شديداً، واستاء حتى تضعضعت جوارحه وصار بحيث لا يستطيع القيام، فبعث عبداً كان له إلى الحجاج يسأله عن الخبر، ويقول له: «ويلك، ماذا جئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعدَ اللهُ خيرٌ مما جئتَ به»؛ فلما انتهى العبد إليه بالرسالة، قال له الحجاج: «اقرأ أبا الفضل السلام، وقل له أن يُخْلي لي بعضَ بيوته لآتِيَه، فإن الخبر على ما يسره»؛ ولما انصرف العبد راجعاً بالرسالة إلى العباس، قال له: «أَبشِرْ يا أبا الفضل!»؛ فوثب إليه العباس فرحاً، وقبله بين عينيه وأعتقه.

ثم دخل الحجاج واختلى بالعباس، وأخبره بحقيقة الأمر، وأن رسولَ الله قد فتح خيبر وغنم أموالهم، واصطفى منهم صفية لنفسه، وأنه ـ أي الحجاج ـ إنما قدِم مكة لجمع مال له، وسأل العباسَ أن يكتم عليه ذلك ثلاثاً، إلى أن يبعد عن مكة، ثم يفشيه بين قريش؛ ففرح العباس بذلك فرحاً عظيماً، واستبشر كثيراً. ولما كان بعد ثلاث، انصرف العباس إلى زوجة الحجاج يسألها عنه، فأخبرته أنه خرج يوم كذا وكذا، وحمل معه ما كان عندهم من مَتاع وحُلِي، ثم جعلت تسليه وتقول: «لا يحزنك اللهُ يا أبا الفضل! لقد شق علينا الذي بلغك»؛ فقال: «أجل، لا يحزنني الله تعالى، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا»؛ وأخبرها بفتح خيبر لرسول الله

واصطفائه صفية لنفسه، إلى أن قال لها: «فإن كان لك حاجة في زوجك فالحقي به» قالت: «أظنك والله صادقاً»؛ قال: «فوالله إني لَصادق، والأمر على ما أخبرتك».

وفشا الخبر في قريش، فاجتمعوا حول العباس يَسألونه عن ذلك، فأخبرهم بحقيقة الأمر وفتح خيبر، وعلة قدوم الحجاج إلى مكة وسؤاله كتمان الخبر ثلاثة أيام، فغلب عليهم الحزن والغيظ والكآبة، واستبشر المسلمون بذلك وفرحوا كثيراً.

ابنة أخي «مرحب» تحاول سَمَّ النبي (ص):

● ـ وحدث أيضاً بعد انصراف النبي (ص) من غزوة خيبر وقدومه إلى المدينة، أن تقدمت إليه امرأة من يهود خيبر ـ كانت ابنة أخي مرحب واسمها زينب بن الحارث ـ وأهدت له شاة مَصْلِية[٤] مسمومة، وكانت قد أكثرت السم في ذراعها بعد ما عرفت أن الذراع أحب إليه من سائر جوارحها؛ ولما أتت بها إليه ووضعتها بين يديه، وهو (ص) حينئذٍ بين جمع من أصحابه، فيهم البراء بن معرور وكان أعرابياً من أهل البادية، قالت اليهودية المتظاهرة بالإسلام: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هذا حَمَلٌ كان لي ربيته لولدي، ولما علمت أن أحب الطعام إليك الشواء وأحبه إليك الذراع، شويته لك وجئتك به»؛ فأمر النبي بإحضار الخبز، وسبقه البراء في التناول من الشواء، فقد مد يده نحوه قبل النبي (ص) وأخذ منه لقمة، فنهاه أمير المؤمنين (ع) عن ذلك وقال له: «لا تتقدم على رسول الله»؛ قال: «يا علي، أنك تُبخِلُ رسول الله؟»؛ قال (ع): «لا، ولكني أُبجّله وأُوَقّره! ليس لي ولا لك ولا لأحد من خلق الله أن يتقدم على رسول الله بقول ولا فعل، ولا أكل ولا شرب، وهذا قد جاءت به هذه المرأة وكانت يهودية، ولسنا نعرف حالها، فإذا أكلتَهُ بأمر رسول الله كان

---

٤ ـ مَصْليَّة: مشوية.

هو الكفيل بسلامتك منه، وإذا أكلته بغير إذنه وَكَلَك إلى نفسك»؛ فلم يعبأ البراء كثيراً بكلام أمير المؤمنين، وتناول اللقمة يلوكها في فيه. وهمَّ النبي (ص) بالذراع، فتكلم بقدرة الله سبحانه، وقال بعبارة فصيحة سمعها الحاضرون بأجمعهم: «لا تأكلني يا رسول الله فإني مسموم». وأثَّر السم حالاً في البراء، وسقط من ساعته في سكرات الموت، وخرَّ على الأرض، فلم يُرفَع إلا وهو ميت.

فأمر النبي بإحضار المرأة وقال لها: «ما حملك على ما صنعت؟»؛ قالت: «وَتَرْتَني وَتراً عظيماً: قتلتَ أبي وعمي وزوجي وأخي وابني، ففعلتُ هذا وقلتُ: إن كان ملِكاً انتقمت منه بهذا الشواء، وإن كان نبياً كما يقول وقد وُعِد بفتح مكة والنصر والظفر، فسيمنعه الله منه ويحفظه، ولن يضره ذلك»؛ فصادق النبي على كلامها، ثم قال لها: «لا يَغُرُّكِ موتُ البراء، فإنما امتحنه الله لِتَقَدُّمِه بين يدي رسول الله، ولو كان أكل منه بأمر رسول الله، لَكان كُفِيَ شره وسمه»؛ ثم دعا عشرة من خيار أصحابه، فيهم سلمان وأبو ذر ومِقداد وعمار وصُهَيب وبِلال بمحضر علي (ع)، فلما حضر القوم وجلسوا عنده مثل الحلقة، وضع يده على الذراع المسموم، ونفث عليه وقال: «بسم الله الشافي، بسم الله الكافي، بسم الله المعافي، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيءٌ ولا داءٌ في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم»؛ وأمر مَن حضروا بالأكل منه وقال لهم: «كلوا على اسم الله»؛ فأكل هو (ص) وأكل القوم كلهم، حتى امتلأوا وشربوا عليه، وكل ذلك بحضور اليهودية وهي تنظر إليهم، ثم أمر النبي بحبسها.

ولما كان الغد أمر (ص) بإحضارها، فلما أحضرت بين يديه، وهو بين أولئك الذين أكلوا بالأمس معه من الشواء المسموم، أخذ (ص) يعاتبها على صنيعها ويلقي عليها الحجة لنبوته، وقال لها: «أليس هؤلاء أكلوا السم بحضرتك؟ فكيف رأيتِ دفعَ الله عن نبيه وصحابته؟»؛ فقالت اليهودية: «رأيت ذلك يا رسول الله وكنت شاكة في نبوتك، وقد أيقنت الآن أنك رسول

الله حقاً، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك عبدُه ورسوله»؛ وحسن إسلامها، وأطلقها النبي ولم يتعرض لها بسوء.

وأما ما كان من أمر البراء بن معرور، فإنه لما خر ميتاً حملوا جنازته إلى أن جهزوها للصلاة عليها، وأتوا بها إلى النبي، ولما وقف (ص) للصلاة عليه، نظر إلى من اصطف خلفه لصلاة الجنازة، فلم ير فيهم أمير المؤمنين، وسأل عنه فقيل: «يا رسول الله، لقد ذهب في حاجةٍ رجلٍ إلى قبا»؛ فجلس النبي (ص) وهو يقول: «إن الله عز وجل أمرني بتأخير الصلاة على جنازة براء، حتى يحضر علي ويجعله في حل مما كلمه به، ويجعل موته بالسم كفارة له»؛ فقيل: «يا رسول الله، إنما كان ذلك مزاحاً مازح به البراء علياً، ولم يكن منه جداً كي يؤاخذه الله به»؛ فقال (ص): «لو كان ذلك منه جداً لأحبط الله تعالى أعماله كلها، ولو كان تصدق بمثل ما بين الثرى إلى العرش ذهباً وفضة، إلا أن رسول الله يريد أن يجدد علي بحضرتكم إحلاله لبراء ويستغفر له، لتعلموا أنه ليس بواجد عليه، ويزيده الله بذلك قربة ورفعة في جنانه»؛ ولم يزل النبي ينتظر قدوم أمير المؤمنين (ع)، إلى أن حضر وعلم الحال، فتقدم نحو الجنازة حتى وقف عليها وقال: «رحمك الله يا براء، لقد كنتَ صوَّاماً وقَوَّاماً»؛ فسُرَّ النبي (ص) بدعائه، وتوجه إلى أصحابه وقال: «لو كان أحد من الموتى يستغني عن الصلاة، لاستغنى صاحبكم هذا بدعاء علي له»؛ ثم وقف بمن معه للصلاة عليه.

ولما انصرف (ص) من دفنه، توجه إلى أَولياء الميت وقال لهم: «يا أولياء البراء، أنتم بالتهنية أولى منكم بالتعزية»؛ ثم جعل يخبرهم ويبشرهم بما أعد الله للبراء في الجنان من الحور الحسان والنعم والقصور والغلمان، وأنه لو كان عليه من الذنوب عدد الحصى والثرى، وقطر المطر وورق الشجر، وشعور الحيوانات ولحظاتهم، وأنفاسهم وحركاتهم وسكناتهم، لكانت مغفورةً له بدعاء علي له، فاستبشر القوم وسائر مَن حضر وهم يقولون: «طوباكِ طوباك يا روحَ البراء». ثم قال النبي لسائر من حضر: «تعرضوا يا عباد الله لدعاء علي لكم، ولا تتعرضوا لدعائه عليكم، فإن من

دعا عليه علي أهلكه الله، وإن كانت حسناته عدد ما خلق الله، كما أن من دعا له علي أسعده الله، ولو كانت سيئاته عدد ما خلق الله!»؛ وذَكَر الكثيرَ من فضائل أمير المؤمنين علي (ع) وأثر دعائه[٥].

رجوع الشمس لعلي (ع):

● ـ وفي تلك السنة نفسها، سنة فتح خيبر (السابعة للهجرة)، حدثت واقعة ردّ الشمس لأمير المؤمنين علي (ع)، وطلوعها من المغرب بعد غروبها، حتى صلى علي صلاة العصر؛ وكان (ع) قد فاتته الصلاة لأن رأس النبي كان في حجره، وقد طال نوم النبي (ص) حتى غابت الشمس، ولم يقم علي للصلاة إكراماً لرأسه الشريف؛ ولما أفاق النبي (ص) من نومه، دعا له برجوع الشمس حتى رجعت، ورأتها الخلائق ورأوا شعاعها على الأرض، ثم غابت ثانية بعد إكمال الصلاة كالبرق الخاطف.

النبي (ص) والمسلمون في مكة، قبل الفتح.. للعمرة:

ـ وفي أواخر السنة السابعة أيضاً، وبالدقة حين أهلَّ شهر ذي القِعدة منها، أمر النبي (ص) أصحابه أن يعتمروا بدلاً من عمرتهم التي صدَّهم المشركون عنها بالحُدَيبِيَّة في السنة الماضية، وشدَّد (ص) علهيم أن لا

---

٥ ـ جاء في عدد من المراجع وكتب السيرة، أن رسول الله (ص)، ظهرت منه في هذه الغزوة أيضاً وبعد انصرافه عنها، عدا النجاة من الشاة المسمومة، معجزات كثيرة نذكر منها هنا ما روي عن جابر (رض) أنه قال: «عند انصرافنا من غزوة خيبر، صرنا إلى وادٍ عظيم قد امتلأ بالسيل والماء، وقاسوا عمقه برمح فلم يبلغ قعره، فتحير المسلمون في أمرهم ولم يتمكنوا من قطعه، حتى شَكَوا ذلك إلى النبي (ص)، فنزل عن راحلته يدعو ربه ويقول: اللهم اعطنا اليوم آية من آيات أنبيائك؛ وضرب بقضيبه وجه الماء، ثم استوى على راحلته وقال لأصحابه: سيروا خلفي باسم الله؛ وجعل يسير على وجه الماء، وتبعه الناس على رواحلهم حتى قطعوه إلى الجانب الآخر ولم تبتل حوافرها.

يتخلف عن العمرة أحد ممن شهد الحديبية، إلا مَن مات منهم أو ٱستُشْهِدَ بخيبر (وقد سُمِّيت هذه العمرة عمرة القضاء)؛ فتجهز القوم بأجمعهم للمسير إلى مكة مع النبي (ص)، وانضم إليهم جمع آخر من المسلمين، حتى بلغ عدد المجموع ألفين.

ثم خرج بهم النبي (ص) وقد ساق معه ستين أضحية بَدَنة[٦]، وحمل معه السلاح والدروع والرماح، وقاد مئة فرس؛ ولما انتهى بهم إلى مكة، خرج أبناء قريش وأتباعهم إلى رؤوس الجبال، وأخلوا لهم مكة، عملاً بشروط الصلح بين الفريقين في السنة السابقة، فدخلها رسول الله بأصحابه، وكان الشاعر عبدالله بن رواحة آخذاً بزمام ناقته (ص) وقد توشح بسيفه، ثم جعل يشير إلى النبي وينشد بقوله:

خَلُّوا بني الكفارِ عن سبيلِهْ   خَلُّوا فكلُّ الخير في سبيلِهْ
قد أنزل الرحمان في تنزيله   في صُحُفٍ تُتْلَى على رسوله
اليومَ نَضربُكُمْ على تَأْويله   كما ضربناكُمْ على تَنزيله
ضرباً يُزيل الهامَ عن مَقيله   ويُذهِلُ الخليلَ عن خليله[٧]
يا ربِّ إني مؤمن بقيله   إني رأيت الحق في قبوله[٨]

إلى أن انتهى النبي إلى البيت، وقد قطع التلبية[٩] من حين دخوله مكة بعد أن كان محافظاً عليها في الطريق، فجعل (ص) يطوف بالبيت راكباً

---

٦ ـ بَدَنَة (وجمعها بُدْن): الناقة (أو البقرة) المليئة البَدَن، . . السمينة.

٧ ـ الهام: الرأس ـ مَقيله: مكان نومه وقيلولته واستراحته. ضرباً يزيل الرؤوس عن أماكن نومها واستراحتها.

٨ ـ قيله: مقالته، ما يقوله.

٩ ـ التلبية: نداء أو صراخ يرفع به المؤمن الحاج أو المعتمر صوته مخاطباً به الله سبحانه، ومُظهِراً أنه أطاع أمره تعالى بأنه سعى إلى بيته الحرام، ونصه: «لبَّيْكَ اللهم لبيك».

بعيره، وقد أحاط به أصحابه يتبعونه في الطواف والأعمال بعد أن كشفوا عن مناكبهم، ويسعون في الطواف بأمره ليجد المشركون فيهم غلظة وقوة.

وكان الذين بقوا في مكة من رجال قريش ونسائهم وصبيانهم قد أحاطوا بالنبي (ص) وأصحابه، ينظرون إليه (ص) وهو يستلم الركن والحجر في أشواطه بقضيب كان بيده، وإلى الأصحاب والمؤمنين وهم يتبعونه ويتابعونه في أعماله، إلى أن كمل طوافه (ص)، فأمر المؤذن، «بلالاً» فصعد على ظهر الكعبة وأذّن برفيع صوته؛ ثم صلى النبي (ص) بأصحابه، وأقاموا بعدئذٍ بمكة ـ بناء على عهدهم وصلحهم مع قريش ـ ثلاثة أيام آمنين، كما وعد الله تعالى نبيه (ص) بذلك في ما سبق بقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾[10].

ولما كان اليوم الرابع من قدومه (ص) مع المؤمنين إلى مكة، تقدم إليه «سهل بن عمرو» و «حُوَيْطِب بن عبد العُزَّى» عند الظهر يقولان له: «قد انقضى أجلك فاخرج عنا»؛ فأجابهما (ص) إلى ذلك، وأمر مناديه فنادى في أصحابه بالرحيل، وأن لا يُمْسِيَنَّ أحدٌ منهم بمكة، وخرج (ص) بهم في ذي الحجة حتى نزل بموقعِ «سَرِف» (على عشرة أميال من من مكة)، وهناك دخل على «ميمونة» التي زَوَّجهُ إياها في مكة عمه العباس ـ وكان العباس زَوْجَ أختها «أم الفضل» ـ ثم انصرف (ص) بأصحابه راجعين إلى المدينة، حتى قَدِمَها وكانت دَخَلَت السنة الثامنة من الهجرة، وعاد (ص) إلى عظاته وتعاليمه وخُطَبه فيها. ولكنه بعد عودته من عمرة القضاء، صار يخطب من على منبر ذي ثلاث درجات صنعته له ـ بعد

---

١٠ ـ ج ٢٦، س ٤٨ الفتح: ٢٧ ـ مُقَصِّرين، من التقصير الذي هو من سُنَن الإحرام في بيت الله الحرام، ويتحقق بقَص الشَعر (أو قسم منه) أو تقصير الأظافر بعد انتهاء المراسم، لأن حلق الشعر وتقصير الأظافر ممنوعان أثناء الإحرام ومراسمه.

استئذانه ـ امرأة من الأنصار، بعد أن كان يقف قائماً مُسنداً ظهره إلى جذع نخلة كانت هناك[11].

❁ ❁ ❁

أما السرايا التي وجَّهها الرسول (ص) بعد وقعة خيبر، فكانت متعددة ومختلفة الأنواع والأعداد، كما يلي:

سرية عبدالله بن رواحة:

● ـ بعثَ النبيُّ (ص) الشاعر المؤمن عبدالله بن رواحة على رأس سرية من ثلاثين راكباً إلى «بشير بن رزام» اليهودي، بعد أن بلغ النبيَّ أنه يجمع حي «بني غطفان» ليغزو بهم المدينة، فبعث النبيُّ (ص) إليه يُطمِعه في أراضي خيبر؛ ولما انتهى إليه المسلمون، بلَّغوه رسالة النبي، وأنه يطلبه ليجعله عاملاً من قِبَله (ص) على خيبر، ولم يزالوا به حتى أقنعوه وتبعهم في ثلاثين من اليهود، وانصرفوا نحو المدينة وقد أَردفَ كل واحد من المسلمين رجلاً من اليهود على راحلته. فلما بعدوا عن منازلهم ستة أميال، ندم بشير اليهودي على اتباعه للقوم وانصرافه نحو المدينة، وأخذ يفكر في أمره، إلى أن أهوى فجأة على سيف المسلم الذي كان هو مُردَفاً على راحلته ـ وكان اسمه عبدالله بن أنيس ـ ليجرده ويحارب به، فانتبه ابن أنيس لذلك، فبادر إلى سيفه فجرده وضرب به رِجلَ بشير حتى قطعها، وضرب بشيرٌ رأسَ عبدالله بعصا قوية كانت بيده شجَّهُ بها شجةً فاحشة،

---

١١ ـ جاء في بعض الروايات التي تتحدث عن كرامات الرسول (صلعم) ومعجزاته، أنه في أول يوم جمعة بعد تخلي النبي عن الاستناد إلى جذع النخلة وصعوده على المنبر، سُمع من الجذع أنين كأنين الرضيع، وصوت فيه نوع من الحنين، ولم يزل يشتد ذلك منه حتى تصدع وانشق؛ وأَخبَرَ النبيُ (ص) عنه أنه يبكي لفراقه وما فقده من الذِكر، ولم يسكن ما به حتى نزل النبي (ص) من على منبره وأخذ يمسحه بيده.

فاشتعل ابن أنيس غضباً، فضرب بشيراً بالسيف ضربةً بلغت أم رأسه، وخر اليهودي على الأرض وهلك؛ عند ذلك انكفأ كلُّ واحدٍ من المسلمين على رديفه حتى قتلوا اليهود عن آخرهم، ما خلا واحداً منهم كان عاجزاً ضعيفاً، ولم يُقتَل أحد من المسلمين؛ ولما قَدِموا على النبي، بصق (ص) في شَجَّةِ عبدالله، فالتأم جرحه من ساعته وشفي من وقته.

سرية غالب بن عبدالله.. إلى بني مرة:

● ـ بعث النبي (ص) غالب بن عبد الله الكلبي في عدة سرايا قادها إلى عدد من أحياء المشركين واليهود، كان منها سريته إلى حي «بني مرة» الذين امتنعوا عن قبول الإسلام، وجبهوا المسلمين للحرب، فقاتلهم غالب والمسلمون الذين معه في السرية حتى قتلوا منهم أعداداً كثيرة، وأسروا الباقين، وأتوا بهم وبغنائمهم إلى المدينة.

سرية عُيَيْنَة بن حصن:

● ـ وبعث رسول الله (ص) «عُيَيْنَة بن حصن» إلى ديار «بني العنبر» لدعوتهم إلى الإسلام، ولكنهم امتنعوا عن الإسلام والجزية، واستعدوا للحرب، فهجم عيينة والمسلمون عليهم وقتلوا مُقاتليهم، وأسروا الباقين (غير المقاتلين)، وأتوا بهم إلى المدينة.

أربع سرايا:

● ـ وبعث النبي (ص) غالب بن عبدالله الكلبي أيضاً في سرية من مئة وثلاثين راكباً إلى «بني عبد بن تغلبة»، فأغار عليهم واستاق أغنامهم إلى المدينة.

● ـ وبعث (ص) في شهر شوال سرِيَّتين بإمرة «بشر بن سعد» إلى قبيلتي «نمر» و «صاب»، فقتل المسلمون المحاربين من القبيلتين، ورجعوا إلى المدينة بالغنائم والأموال.

● ـ وبعث الرسول (ص) سرية كذلك إلى «بني سُلَيم»، يقودها «الأَخْرَم بن أبي العوجاء»، ولم يتوفق المسلمون في هذه السرية، فقد أصيب ابن أبي العوجاء نفسه في الوقعة، ورجع أصحابه إلى المدينة[١٢].

سرية غالب بن عبد الله.. إلى بني المُلَوَّح:

● ـ وبعث رسول الله (ص) بسرية من بضعة عشر رجلاً فقط إلى «بني المُلَوَّح»، يقودهم «غالب بن عبدالله اللَيثي»[١٣]، فلقيهم في بعض الطريق رجل من القوم فقبض المسلمون عليه؛ ثم ساروا حتى نزلوا بعد العصر بطن «الكُدَيْد»، وظهر لهم حينئذٍ جمع من الرعاة، فصعد غالب على تل هناك؛ ولمحه أحد الرعاة، فرماه بسهمين أصاباه في جنبه ومنكبه، فأخرجهما من جسده، ولم يتحول من مقامه، بل بقي ثابتاً في مكانه حتى ظن الرامي أنه حجر، وانصرفوا عنه بمواشيهم.

فلما كان الليل ونزلوا منزلاً أبعد، واحتلبوا مواشيهم، قام غالب بمن معه وشنوا الغارة عليهم فقتلوا منهم جماعة، واستاقوا النَعَم، وانصرفوا راجعين مسرعين نحو منازلهم، فأسرع بقية الرعاة هاربين من القتل نحو الحي، وصرخوا في قومهم وأخبروهم بالفاجعة، فقام فرسان الحي بأجمعهم وركبوا جيادهم وسارَعوا للحوق بالمسلمين، هاجمين عليهم بما لا طاقة لهم به من عدة وعدد، فلما قربوا من المسلمين بحيث لم يكن بين الفريقين إلا بطن الوادي، أرسل الله سيلاً لم يمكن لأحد أن يجوزه، حتى

---

١٢ ـ ثمة اختلاف حول نهاية هذه السرية السيئة، ففي بعض المصادر أن بني سُلَيم قتلوا المسلمين ونجا الأخرم واثنان معه.

١٣ ـ جاء اسم غالب بن عبدالله (الذي تقدم ذكره في سريتين سابقتين) منسوباً إلى «بني كلب»، فسُمي (فيهما) «غالب بن عبدالله الكلبي»؛ وسُمّي في هذه السرية إلى بني المُلَوح منسوباً إلى الليث «غالب بن عبدالله الليثي»، فلفتت إلى أن الاسمين هما للشخص نفسه، وقد جاء اسمه في مراجع أخرى «الليثي الكلبي» و «غالب بن عبدالله الكلبي، كلب ليث».

ملأ الوادي، ولم يتمكن الحي من اقتحامه، فوقفوا على حافة الوادي ينظرون إلى المسلمين وهم يستاقون مواشيهم وأنعامهم وينادون برفيع أصواتهم «أمِتْ أمِت»، ولم يزالوا سائرين كذلك حتى دخلوا المدينة بالمواشي آمنين.

سرية العلاء بن الحضرمي:

● ـ بعث النبي (ص) سرية يقدمها «العلاء بن الحضرمي» إلى ابحرين[١٤] وكان أهلها يومئذٍ على دين المجوس، وكبيرهم اسمه «المنذر بن ساوَىٰ»، فلما قَدِمَ عليه العلاء، صالحه على أداء الجزية، وأن لا تُؤكل ذبائحهم، ولا تُنكَح نساؤهم.

سرية عَمْرو بن كعب:

● ـ وبعث النبي (ص) عَمْرَو بن كعب الغِفاري على رأس سرية من خمسة عشر رجلاً إلى «ذات اطلاح» من نواحي الشام، فلما قدموا الحي ودَعَوا القوم إلى الإسلام، استاؤوا وامتنعوا عن قبول ذلك، بل وهجموا على رجال تلك السرية، وقتلوهم عن آخرهم دون قائدها «عَمْرو»، فإنه نجا بنفسه، وانصرف راجعاً نحو المدينة.

---

١٤ ـ كان يُطلَق اسم البحرين قديماً على القسم الشرقي من الجزيرة العربية، أي على بلاد الساحل المواجه لغربي جزيرة «البحرين» اليوم.

معركـة مُؤْتَـــة

حدثت هذه المعركة في السنة الثامنة للهجرة، (وقد عُرِفَت في كتب السيرة بصفة «غزوة» مؤتة، مع أنها كانت في الواقع «سَرِيَّة»، لأن النبي لم يشترك شخصياً فيها، وربما استُعملت كلمة غزوة عندهم للمعركة الكبيرة)؛ وقد كانت مشؤومة على المسلمين، بل من أسوأ المعارك وأشدها عليهم.

وكان سببها أن الرسول (ص) ـ على عادته مع الملوك والحكام بعد ظهور دعوته ـ أرسل إلى ملك «بُصْرَى» (من نواحي بلاد الشام)، كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث الكتاب مع رجل اسمه «الحارث بن عُمَير»؛ وحدث لما قَدِمَ الرسول إلى أرض الشام، أن اعترضه أحد أمراء الملك، فلما عرف أنه رسولُ رسولِ الله، قبض عليه، وأخذ يعذبه إلى أن قتله صبراً[1]، ثم أمر بقطع رأسه، ولم يُقتَل لرسول الله رسولٌ غيره.

وبلغ النبيَّ ذلك، فاشتد حزنه عليه، وأخذ يدعو الناس إلى الحرب، بعد ما أخبرهم بقتل الحارث، فأجابه المسلمون إلى ذلك، وأسرعوا في الخروج إلى الحرب، واجتمعوا بموضع خارج المدينة يقال له «الجرف»، حتى تكاملوا ثلاثة آلاف.

وخرج إليهم رسول الله، فصلى بهم فريضة الظهر، ثم أخذ يَخْطُبهم

---

١ ـ قتله صبرا: رماه في الحبس وتركه (بلا طعام أو شراب) حتى الموت.

ويَعِظُهُم ويوصيهم بتقوى الله، ويأمرهم بقتالِ مَن كفر بالله، وجعل ينهاهم عن الغدر والغِلّ[٢]، وأمرهم أن لا يقتلوا وليداً صغيراً، أو كبيراً فانياً، أو امرأة، ونهاهم عن أن يقطعوا شجراً أو نخلاً، أو أن يهدموا بناءً؛ ثم جهَّز الجيش وأمَّرَ عليهم «زيد بن حارثة»، وعقد له لواءً أبيض، ناوله إياه، ثم عيَّن لهم بعد زيد ـ إن أُصيب زيد ـ أميراً عليهم ابن عمه هو (ص) جعفر ابن أبي طالب (ع)؛ وإن أُصيبَ جعفر فالأمير الوالي بعده عبد الله بن رواحة، وإن أصيب عبد الله، فليرتضِ المسلمون أحداً منهم يجعلونه أميراً عليهم. ثم أمر (ص) أمراءه عند ملاقاتهم الكفار أن يعرضوا عليهم الإسلام أو الجزية، فإن امتنعوا عن كلا الأمرين فليحاربوهم؛ إلى آخر وصاياه لهم. ثم خرج القوم، وخرج النبي بسائر أهل المدينة مشيعين لهم حتى ثنية الوداع[٣]، ثم رجع (ص) بمن معه إلى المدينة.

وسار القوم إلى أن بلغوا بلدة «مَعان»[٤] بطريق الشام، فبلغهم أن «هرقل» ملك الروم، قد خرج لحرب المسلمين في مئتي ألف مقاتل من الروم، والمستعربة من بني لخم، وخذام، وبلي، وبكر، وبهراء، وقضاعة، وأنهم نزلوا ماء من مياه البلقاء، وأن المشركين قد انحازوا واجتمعوا للحرب أيضاً في موضع يقال له «المشارف»، فغلب الخوف والفزع على المسلمين، وأقاموا في معان يومين يتشاورون بينهم في أمرهم، إلى أن قالوا: «نبعث إلى رسول الله نخبره بكثرة عدونا، فإما

---

٢ ـ الغِلّ: الحقد، . . أو: الخيانة.

٣ ـ ثنية الوداع: اسم موقع مشرف على المدينة، يمر به المتوجه إلى مكة، كان المودعون للمسافر يرافقونه حتى هذا الموضع. والثنية: العقبة المسلوكة في الجبل، ويذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان أن «الوداع» اسم واد بالمدينة، وأن اسم «ثنية الوداع» قديم منذ الجاهلية.

٤ ـ مَعان: بلدة من نواحي البلقاء، بين الشام والحجاز، (ما تزال قائمة اليوم في الأردن) وحرف الميم بأولها مفتوح، ويقول ياقوت: «والمحدثون يقولونه بالضم».

أن يَرُدَّنا، أو يَزيدَنا رجالاً ويرى في ذلك رأيه»؛ فقام فيهم عبد الله بن رواحة يُسكِّن ما بهم، ويحرضهم على الحرب ومقاومة العدو، وقال: «والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عَدد وسلاح، ولا بكثرة خيل، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمَنا الله به»؛ إلى أن قال: «انطلقوا فقاتلوا، فقد والله إن رأيتنا يوم بدر إلا فرساناً، وإنما هي إحدى الحُسْنَيَيْنِ: إما الظهور (أي الانتصار) عليهم، وإما الشهادة، فنلحق بالإخوان نرافقهم في الجنان»؛ وهكذا لم يزل يشجعهم على الثبات للقتال، إلى أن أجابوه وخرجوا للقاء العدو.

فأخذوا يسيرون إلى أن التقوا جموع الروم بقرية من قرى البلقاء تسمى «مشرف»، ثم انحازوا عنهم إلى قرية بمشارف الشام فوق الحسوة تسمى «مؤتة» (بها سُمِيت المعركة، وتُصنَع فيها السيوف، والراجح أن السيوف المشرفية منسوبة إليها)، فلما توقفوا بها أقبلت عليهم جموع الروم، بِعُدَّتهم وعَدَدهم وخيلهم وسلاحهم وكُراعهم[5] وزينتهم وحريرهم وديباجهم وذَهَبهم وسُندُسهم، فبرقت بها أبصار المسلمين، وأيقنوا بأن لا قِبَلَ لهم بتلك الجموع، ولكنهم مع ذلك لم يألوا جهداً في التثبت واحتمال الفوادح والمَضَض، وقابلوا الجموع متجلدين يتقدمهم أميرهم زيد بن حارثة، واقتتلوا قتالاً شديداً حتى قُتِل من الفريقين جمع كثير، وكان اللواء بيد الأمير زيد، فأحاط به القوم برماحهم، ولم يزالوا يطعنونه بها حتى وقع على الأرض ميتاً وسقط لواؤه.

فبادر إليه جعفر بن أبي طالب مسرعاً، ورفع الراية، وأخذ يحارب القوم كالليث الغضوب، يضرب فيهم بسيفه يمنة ويسرة على فرس له أشقر، ولم يثبت له أحد لشجاعته كأخيه أمير المؤمنين علي (ع)، إلى أن ظهر

---

٥ ـ الكُراع: الدواب (من بغال وحمير) والأنعام (التي ترافق المقاتلين مع الخيل، لنقل الأمتعة والأطعمة، أو لتُذبح للأكل).

العجز في جواده، فنزل عنه مسرعاً وعَقَره[٦]، وكان أول من عقر جواده من المسلمين. ثم جعل يقاتل الجموع من كل جانب ماشياً حتى أحاطوا به ضرباً وطعناً ورمياً، وتكاثروا عليه، إلى أن ضربوه على يمينه بالسيف وقُطِعت يده اليمنى، فحمل الراية باليسرى، وأخذ يحارب القوم بشماله، إلى أن هجموا عليه هجمة رجل واحد وضربوه بالسيف على شماله، فقُطِعت يده اليسرى، فانحنى وحمل الراية ببقايا اليدين وضمها إلى صدره، فأحاط القوم به من كل جانب بالسيوف والرماح، إلى أن خرَّ على الأرض ميتاً وسقطت الراية.

فتقدم عبد الله بن رواحة مسرعاً وتناول الراية، ولم يزل مجداً في القتال مستميتاً به كصاحبيه حتى أحاط به الجموع وألحقوه بهما ـ رضي الله عنهم ـ وسقطت الراية على الأرض، فتقدم الأنصاري ثابت بن أقرم فتناولها، ثم أعطاها خالدَ بن الوليد، فتناولها خالد ورجع بها إلى مَن بقي من المسلمين، وجعل يشير عليهم بالتراجع ـ أي بالهزيمة والفرار ـ ويعجل عليهم في ذلك، حتى انهزم بهم وانصرفوا راجعين إلى المدينة.

وبلغ الخبر النبي (ص) قبل قدومهم إلى المدينة، فقد كان (ص) قد علم بكل ما جرى في الغزوة، بل إنه رآها رأي العين يوم الوقعة بقدرة من الله تعالى. إذ إنه في صباح يوم الوقعة نفسه بأرض مؤتة، وحين اشتداد الحرب فيها بين الفريقين، كان (ص) على المنبر في المدينة يخطب في أصحابه، إذ نزل عليه الوحي بذلك، وانخفض له كل رفيع في الأرض من التلال والجبال والأماكن العالية، وارتفعت له أرض مؤتة وموضع النزال منها، حتى رآها النبي من على منبره في المدينة، وصار يشاهد بعينه (ص) ما يقع فيها ويخبر به أصحابه، من التقاء الفريقين،

---

٦ ـ عَقَره: قطع قوائمه، لكي لا يستفيد منه أعداء المسلمين ويحاربوا عليه، بعد أن احتمل جعفر(ع) أنه سيُقتَل.

وكَرّ بعضهم على بعض، وكيفية ما يحدث من الحرب والقتال، إلى أن أخبرهم بشهادة زيد بن حارثة، ثم بقطع يدي جعفر وشهادته، ثم بشهادة عبد الله بن رواحة، فصرخ من كانوا تحت منبره، ورفعوا أصواتهم بالبكاء على شهادة أولئك الأخيار الأشراف أولي الفضل، وكذلك النبي (ص) نفسه، فإنه اشتد بكاؤه عليهم، وخصوصاً على جعفر ابن عمه، فقد قُتِل قتلاً فظيعاً، وأصابه في مقاديم بدنه بضع وتسعون جراحة من طعنة ورمية ليس منها شيء في قفاه، وكان وقوعه (ع) بضربة رجل من الروم قطعه بها نصفين؛ وقد كان النبي يحبه حباً شديداً ويقول فيه وفي زيد بن حارثة: «أخواي ومؤنساي ومحدثاي»؛ وان خير الناس حمزة وجعفر وعلي (ع)؛ وكان (ص) يقول له أيام حياته: «يا جعفر، أشبهتَ خَلْقي وخُلقي»؛ وكان جعفر (ع) يُكنّى «أبا المساكين»، وكان له من العمر يوم شهادته (ع) إحدى وأربعون سنة.

وقد اشتد وجد النبي (ص) على أصحابه أولئك، وبخاصة منهم على ابن عمه جعفر (ع)، حتى أصابه مغص في بطنه، وقال ـ صلى الله عليه وآله ـ: «إنما مَثَلُ أمتي مَثَلُ حديقةٍ قام عليها صاحبها، فأصلح رواكبها[7] وهي في أعلى النخل متدلية لا تبلغ الأرض، وبنى مساكنها وحَلَق سعفها[8]، فأطعمت عاماً فوجاً ثم عاماً فوجاً، فلعل آخرها طعماً يكون أجودها قِنواناً[9] وأطولها شِمْراخاً[10]! والذي بعثني بالحق نبياً، لَيَجدنَّ عيسى بن مريم في أمتي خَلَفاً مِن حواريّه، وقد مَثُلَ[11] لي جعفرُ وزيدٌ وعبد الله في خيمة من الدُرّ، كل واحد منهم على سرير».

---

٧ ـ الرواكب: الفسائل (الأغصان) التي في أعالي النخل.

٨ ـ حلق سَعْفها: قصَّ وشذَّب الزوائد في السَّعْف؛ والسعف: جريد النخل.

٩ ـ قِنوان، جمع قِنو: العِذْق (من النخل)، كالعنقود من العنب.

١٠ ـ الشِمراخ (من النخل): العِذق عليه بُسْر؛ والبُسر: التمر إذا لوَّن ولم ينضج.

١١ ـ مَثُلَ: ظهرَ، بَدَا، تَبَدّى ـ مُثُلَ لي: تشبهَ لي، تصورتُه.

ثم نزل (ص) مِن على المنبر وتوجهَ نحو دار جعفر حتى دخل على زوجته أسماء بنت عُمَيس ـ وكان لها من جعفر يومئذٍ ثلاثة صبية صغار، هم عبد الله وعون ومحمد، وكانت يومئذٍ قد غسلتهم ودهنتهم وعجنت لهم ـ فلما دخل عليها النبي سألها: «أين بنو جعفر؟»؛ فجاءت بهم إليه، فتناولهم رسول الله وضمهم إليه، يشمهم ويمسح رؤوسهم وعيناه تذرفان بالدموع، فأحست أسماء من ذلك بالشر، وتقدمت إليه مستوحشة تقول: «يا رسول الله، إنك تمسح رؤوسهم كأنهم أيتام، فلعله بلغك عن جعفر شيء؟»؛ فازداد النبي (ص) بكاءً ووجداً، وأخبرها بشهادة جعفر، فصرخت صرخة كادت أن تزهق بها روحها، وأخذت تضرب على صدرها رافعة صوتها بالبكاء والنحيب، حتى اجتمعت إليها النساء، وأخذ النبي يعزيها به ويسليها قائلاً: «لا تبكي يا امرأة، ولا تقولي هجرا، ولا تضربي صدراً، فإن الله أخبرني أن له جَناحينِ من زمردٍ أخضر بدلاً من يديه المقطوعتين، فهو الآن يطير بهما في الجنة مع الملائكة». ولم يزل (ص) يبين لها فضائل جعفر حتى أسكن رَوْعها وهوَّن عليها ما نزل بها، وسألته حينئذٍ أن يجمع الناس ويخبرهم بفضل جعفر، كي لا يُنسَى فَضْلُه وذِكْرُه، فأجابها النبي (ص) إلى ذلك، واشتهر جعفر منذ ذلك اليوم بلقب «جعفر الطيار».

ثم خرج النبي (ص) من عندها، وأخذ معه الكبيرَين من الصبية الصغار الثلاثة إلى بيته، لم يفارقهما ثلاثة أيام بلياليها، يدور بهما بيوت أزواجه، ويأمرهن بعمل الطعام لهما من الغذاء الطيب المبارك، ويأكل معهما، ويمسح رأسيهما وهو يبكي حتى تقطر لحيته الشريفة ويقول: «اللهم إن جعفرَ قد قدِم إليك إلى أحسن الثواب، فأَخلِفْه في ذريته بأحسن ما أَخْلَفْتَ أحداً من عبادك في ذريته». ودخل على ابنته فاطمة وهي باكية تنادي: «واعماه!»؛ فقال (ص): «على مثل جعفر فلتبكِ الباكية»؛ وأمر (ص) بأن يُبعَث لآل جعفر الطعام إلى ثلاثة أيام وبذلك جرت السُّنَة، ولم يزل (ص) يبكي عليه وهو يقول: «إن المرء كثير بأخيه وابن عمه»؛ وكان يتفقد أولاده طول حياته.

ثم إنه لما قدم المنهزمون المدينة، تلقاهم أهل البلد بالشر والمكروه، يَحْثُون التراب على رؤوسهم ووجوههم، ويلومونهم ويُسمعونهم الأذى على فرارهم، حتى أن أهالي بعضهم امتنعوا عن قبولهم وفتح أبواب الدور في وجوههم، وجلس أكابرهم في بيوتهم وٱستتروا عن الناس حياء منهم، إلى أن بعث إليهم النبي (ص) واستحضرهم، وجعل يخفف عنهم ويسليهم على ما نزلهم؛ وما لقيَ جيشٌ لرسول الله (ص) ما لقيَهُ أصحاب «مؤتة»؛ وقد أنشد كعب بن مالك في رثائهم يقول:

هَمَت العيونُ ودمعُ عَيني يَهْمِلُ ... سَحّاً كما وَكْفُ الضبابِ المُخْضِلُ[12]
وكأنَّ ما بين الجوانِحِ والحَشَى ... مِمَّا تَأَوَّبَني شِهابٌ مُدْخَلُ[13]
وَجْداً على النَفَرِ الذين تَتابَعُوا ... يوماً بِمُؤْتَةَ أُسْنِدوا لم يُنْقَلوا[14]
فتغيَّرَ القمرُ المنيرُ لِفَقْدِهِمْ ... والشمسُ قد كُسِفَتْ وكادت تَأفَلُ
قومٌ بهم نصرَ الإلٰهُ عبادَهُ ... وعليهِمُ نَزَلَ الكتابُ المُنْزَلُ
قوم على بنيانِهِمْ مِن هاشمٍ ... فَرْعٌ أشمُّ وسُؤْدَدٌ ما يَنْغِلُ[15]

---

١٢ ـ هَمَت (العيون): صبَّت (دموعها) ـ يَهمل (بكسر الميم وبضمها): يَفيض ـ سَحّاً: غزيراً، متتابعاً، منصباً دون توقف ـ الوَكْف: الانصباب قطرات متتابعة ـ المُخضِل: المُبَلِّل، المُنَدِّي، المُرَطِّب.

١٣ ـ الجوانح (للإنسان): اليدان والعضدان والإبطان والجانبان ـ الحَشَى: ما في البطن (تحت الحجاب الحاجز) من كبد وطحال وأمعاء ـ تأوَّبَني: انتابني، أتاني، حلَّ بي ـ الشِهاب: الكوكب (المُنقضّ)، و.. السِنان: نَصْل الرُمْح. يقول: إن ما أصابني وحلَّ بي كأنه سِنان أُدخِل (بين جوانحي وحشاي) في جسدي وأحاسيسي ووجودي.

١٤ ـ وَجْداً: انفعالاً، عاطفةً، .. ألماً ـ النَفَر (مفرد وجمع): الأنفار، الأعداد، الأشخاص ـ أُسنِدوا لم يُنقَلوا: دُفِنوا (في أرض المعركة) لم يُنقَلوا إلى ديار أهلهم ومدافنهم.

١٥ ـ أشم: رفيع، سيد، كريم، ذو أنفة ـ سُؤدد (بضم الدال ـ الأولى ـ وفتحها): مجد، عزة، فخار ـ يَنْغل (بضم الغين وبكسرها): يَفسُد (نسبه). فرع (من نسب هاشم) أشَمّ وسؤدد ما ينغل: لا يَفسُد، لا يشك في صفائه وأصالته وعراقته.

وَلِهَـذْيِهِـمْ رَضِـيَ الإِلٰـهُ لِـخَـلْـقِـهِ ... وَبِـجِـدِّهِـمْ نُـصِـرَ الـنـبـيُّ الْـمُـرْسَـلُ
بِيضُ الوجوهِ تَرَى بطونَ أَكُفِّهِمْ ... تَنْدَى إذا اَغْبَرَّ الزمانُ المُمْحِلُ[16]

١٦ ـ المُمْحِل: الأجدب، فاقد المطر والخصب ـ اغبَرَّ الزمان: عبست الأيام، حصل مَحْل وجَدْب وحرمان وجوع ـ تَندَى بطونُ أكفهم: يَنزل النَدَى (الخير والعطاء) من راحاتهم وأيديهم.

معركة
ذات السلاسل

ثم كان أيضاً من أحداث تلك السنة ـ الثامنة للهجرة ـ معركة «ذات السلاسل» التي تخللتها مخاطر ومشقات للمسلمين كثيرة، فما كان سبب هذه المعركة؟ وما كان من أمرها؟ وكيف انتهت؟؟

بعد أن انتشرت دعوة النبي (ص) في المدينة ونواحيها، ودخل في الدين الجديد كثير من الناس، اجتمع أهل «وادي يابس» وفيهم يومئذ اثنا عشر ألف فارس، فتعاقدوا وتعاهدوا وتواثقوا على حرب النبي (ص)، واتفقت كلمتهم على أن لا يتخلف منهم أحد، ولا يَخْذُل، ولا يَهرُب، حتى يُقتَلوا بأجمعهم، أو يَقتُلوا محمداً وعلياً. ثم تجهزوا واستعدوا للخروج، وعبأوا كتائبهم، وارتفعت الرايات تخفق فوق رؤوسهم، وبعثوا في مقدمتهم الحارث بن مكيدة الخثعمي في خمس مئة فارس من أبطال خثعم ـ وكان الحارث بنفسه يعد بخمس مئة ـ وأقسم هو ومن معه باللاتِ والعُزَّى، أن لا يرجعوا حتى يَقْدِموا المدينة، ويقتلوا محمداً (ص) وعلياً (ع) ومن معهما.

وبلغ الخبرُ النبيَّ (ص)، إذ نزل عليه الوحي بذلك، فنادى مناديه في الجموع بالصلاة جامعة، حتى اجتمع إليه في المسجد أكثر أصحابه، فصعد (ص) المنبر وبعد الحمد لله سبحانه والثناء عليه، خطب فيهم ثم أخبرهم بالوحي وبخبر القوم، وندبهم إلى الخروج لحرب مُقدَّمِهم الحارث ومَن

معه؛ ولما سمعوا باسم الحارث وهو معروف يومئذ بشجاعته وبسالته، تغيرت ألوانهم خوفاً وفزعاً، إلى أن قال لهم النبي (ص): «فمن منكم يخرج إلى هؤلاء القوم قبل أن يطأونا في ديارنا وحريمنا، لعل الله يفتح على يديه، وأضمن له على الله الجنة»؛ فلم يجبه أحد ممن حضر من المهاجرين والأنصار. وكرر النبي (ص) كلامه، وضمن لمن يجيبه في الخروج إلى القوم اثني عشر قصراً في الجنة، فلم يجب دعوته أحد، بل ونكسوا رؤوسهم، إلى أن استدعى أبا بكر (رض) وأمره بالخروج في أربعة آلاف فارس، فأجابوه طوعاً وكرهاً، وأخذوا يستعدون لأمرهم؛ فلما أعدُّوا عدتهم وجهزوا للخروج، أمرهم رسول الله (ص) بالنهوض على اسم الله وبركته، وخرجوا من المدينة يوم الاثنين، يَقدِمُهم أبو بكر وبيده اللواء بعد أن أوصاه النبي (ص) بوصاياه، وأمره أن يعرض الإسلام على القوم عند التقائهم، فإن امتنعوا عن ذلك فليواقعهم، وليقتل مقاتليهم، ويَسْبِ ذراريهم، ويَستَبِحْ أموالهم.

فخرج أبو بكر بالقوم في أحسن عدة وهيئة، يسير بهم سيراً رفيقاً، حتى انتهوا إلى وادٍ كثير الأشجار والحجارة، وكان الحارث ومن معه قد نزلوا بطن ذلك الوادي، فكان الانحدار إليهم صعباً، لذا نزل المسلمون بأعلى الوادي قريباً منهم. وما إن اطمأن بهم المقام حتى خرج إليهم مائتا فارس مدججين بالسلاح، يسألونهم: «من أنتم؟ وأين تريدون؟ ومن أين أقبلتم؟ ألا فليخرج إلينا صاحبكم نكلمه»؛ فخرج إليهم أبو بكر في نفر من أصحابه، ولما سألوه عن اسمه ومجيئه قال: «أنا أبو بكر صاحب رسول الله، وقد أمرني أن أعرض عليكم الإِسلام وأن تدخلوا في ما دخل فيه المسلمون، ولكم ما لهم وعليكم ما عليهم، وإلا فالحرب بيننا وبينكم»؛ فغضب القوم وقالوا له: «أمَا واللاتِ والعُزَّى، لولا رَحِمٌ ماسَّة وقرابة قريبة، لقتلناك وجميع أصحابك قتلة تكون حديثاً لمن بعدكم! فارجع أنت ومن معك وارتجوا العافية، فإنما نريد صاحبكم بعينه وأخاه علي بن أبي طالب.

عند ذلك غلب عليه الخوف من مقالة القوم حتى اصفر لونه، وتوجه إلى قومه يُجْبِنهم عن لقاء العدو بضعف عُدَّتِهم وقلة عَدَدهم وبُعْد مسافتهم عن إخوانهم المسلمين ودِيارِهم، وأمرهم بالرجوع إلى النبي ليعلموه بخبر القوم واستعدادهم، فلم يجيبوه، بل وغضبوا قائلين: «خالفتَ رسول الله وما أمَرَك به، فاتقِ الله وواقِعِ القوم ولا تخالفْ قولَ رسول الله»؛ فردَّ قائلاً: «إني أعلم ما لا تعلمونَ، والشاهدُ يرى ما لا يرى الغائب».

عندئذ تصدى المسلمون بأنفسهم للقتال، من غير قائد ولا لواء، حتى قُتِلَ منهم جمع كثير، عندئذٍ انسحب أبو بكر (رض) بلوائه من المعركة، وتبعه مَن بقي مِن المسلمين، إلى أن قَدِموا المدينة ودخلوا على النبي (ص) وأخبروه بما جرى بينهم وبين القوم، وبمبادرة قائدهم إلى الانسحاب والهزيمة بغير قتال، فجعل النبي (ص) يلومه ويعاتبه على مخالفته لله ولرسوله.

ثم نادى مناديه (ص) في الناس بالصلاة جامعة، فلما اجتمعوا إليه، صعد (ص) المنبر، وبعد حمد الله وثنائه أخبر معاشر المسلمين بما جرى بين أبي بكر والقوم، ثم دعا عمر بن الخطاب (رض)، وأمره بالسير إليهم في أربعة آلاف فارس، وشدّد عليه في قتال القوم إن امتنعوا عن قبول الإسلام، وأوصاه بكل ما أوصى به سابقه، وحذره من أن ينهزم مثله، وأخذ عليه في ذلك العهود والمواثيق المؤكدة.

خرج عمر (رض) بالمهاجرين والأنصار يقتصد بهم في السير، إلى أن أشرف على القوم في بطن الوادي ورأى عُدَّتَهم وعَدَدَهم، فغلب عليه الفزع وطار قلبه من شدة الخوف، ثم ما لبث أن خرج إليه مَن خرجوا إلى صاحبه، وهم مائتا بطل شاكو السلاح، فهددوه وأمروه بالرجوع والمحافظة على حياته، فأجابهم إلى ذلك، ورجع بأصحابه منصرفين نحو المدينة بغير قتال ولا حرب.

فلما دخل على النبي (ص) ـ وقد سبقه الوحي بالخبر ـ أخذ

رسول الله (ص) وقد استاء وتضجر كثيراً، يعذله ويعاتبه شديداً على صنيعه وفراره، إلى أن قال له: «عصيتَ الله في عرشه وعصيتَني، وخالفتَ قولي وعملتَ برأيك؛ قبّح الله رأيك!»؛ فقام إليه عَمْرُو بن العاص وقال: «يا رسول الله، ابعثني إليهم، فإن الحرب خدعة، فلعلي أخدعهم»؛ فأجابه النبي (ص) إلى ذلك، وجهز له الجيش وأنفذه فيهم بعد أن أخذ العهود والمواثيق عليه بعدم الفرار كأخويه، فسار بهم عمرو بن العاص حتى قرب من القوم، وجرى له مثل ما جرى لسابقيه، ورجع بقومه منهزمين كمن قبلهم. وسبقه الوحي إلى النبي (ص) يخبره بهزيمة القوم، فدمعت عيناه حتى انحدرت دموعه على خديه كأنها لؤلؤ انقطع سلكه فلم يتمالك حبسها؛ وظهر في تلك الأثناء علي أمير المؤمنين (ع) على بعير له وكان غائباً، وكان متوجهاً إلى النبي (ص) مقبلاً عليه في مجلسه إذ لمحه باكياً، فلما رأى دموعه (ص) ومظهر حزنه، رمى (ص) بنفسه عن ناقته إلى الأرض وهُرع مضطرباً مسارعاً إليه، وأخذ يمسح دموعه بردائه قائلاً: «ما الذي أبكاكَ ـ لا أبكى اللّهُ عينيك ـ يا حبيب الله؟ هل نزل في أمتك شيء من السماء؟»؛ قال (ص): «يا علي، ما نزل فيهم إلا خير؛ ولكن الأمر.. كذا وكذا»، وذكر له اجتماع «خثعم» يَقْدِمهم الحارث، وأخبره بفرار أصحابه بقوادهم عن قتال القوم، بعد ما ندبهم إلى الحرب وضمن لهم في الجنة قصوراً ذات أنهار وأشجار وسُرُرٍ وخِيام وحُورٍ وغلمان، فقال عندئذٍ علي أمير المؤمنين (ع): «أنا لهم يا رسول الله!»؛ فاستبشر النبي (ص) وقال له: «نعم، هذا لك وأنت له، أُنْجُد[1] إلى القوم»؛ فقام (ع) مسرعاً حتى دخل على فاطمة (ع) يلتمسها العصابة التي كان يتعصب بها في الشدائد، فاستوحشت فاطمة (ع) وسألته عن سبب ذلك، فأخبرها أن رسول الله أمره بالخروج إلى الحارث وقومه من خثعم، فأخذت فاطمة في البكاء إشفاقاً على بعلها من القتل، إذ دخل عليها أبوها رسول الله (ص)

---

١ ـ أُنجُد: سارعْ. (رجلٌ) نَجِدٌ: سريع الإجابة إلى ما دُعي إليه.

وجعل يسكن ما بها من الوجد، ويبشرها بسلامة بعلها ورجوعه غانماً محفوظاً إن شاء الله تعالى، وعلي (ع) يقول: «يا رسول الله لا تَنْفَس[2] علي بالجنة».

ثم إن النبي (ص) جهَّز علياً (ع) في مئة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد، فلما همّ بالخروج من المدينة، تقدم ابن عباس إلى النبي (ص) يقول: «فداك أبي وأمي يا رسول الله! تُجَهِّز ابن عمي في مئة وخمسين رجلاً إلى خمس مئة رجل فيهم الحارث بن مكيدة الذي وحده بخمس مئة فارس؟!»؛ فنهره النبي (ص) يقول: «أمْطِ[3] عني يا ابن عباس، فوالذي بعثني بالحق لو كانوا على عدد الثَرَى[4] وكان علي وحده لأعطاه الله النصر عليهم حتى يأتينا بسَبْيِهم أجمعين». ثم توجه (ص) إلى علي (ع) وقال له: «اذهب يا حبيبي! حَفِظَك اللّهُ مِن فوقك ومن تحتك وعن يمينك وعن شمالك، واللّهُ خليفتي عليك»؛ فركب أمير المؤمنين (ع) فرساً له مهلوباً[5] أشقر، وعليه بُرْدان يَمانيَّان، وبيده قناة خطية، وخرج النبي (ص) بمن معه يشيعه إلى مسجد الأحزاب، ثم ودعه وعانقه يقبله ويدعو له ما شاء الله، إلى أن رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إن كنتَ تعلم أني رسولك، فاحفظني فيه».

سار أمير المؤمنين (ع) بمن معه متنكباً منحرفاً عن الطريق الذي يؤدي مباشرة إلى القوم، وبدا كأنه سائر نحو العراق، حتى ظن القوم أنه يريد

---

٢ ـ لا تَنْفَسْ علَيَّ: لا تَضِنَّ عليَّ، لا تبخَلْ عليَّ. كأن الأمير (ع) كان يخاف أن يتأثر النبي (ص) ويضعف أمام فاطمة وبكائها فيصرفه عن الخروج إلى الحارث وقومه.

٣ ـ أمْطِ عني: دعني، سر وابعد عني.

٤ ـ الثَرى: التراب. على عدد الثرى: . . . (حبات) التراب.

٥ ـ (فرس) مهلوب: . . مجزور الشَعر.

بهم مكاناً غير الذي يقصدونه، ثم انحدر بهم على مَحَجَّة[٦] غامضة يسير بهم سيراً عنيفاً على خلافِ سَيرِ مَن سبقه، حتى كادوا أن ينقطعوا من التعب وتَحْفَى دوابهم من المشي، واعترضوه في ذلك فقال (ع): «لا تخافوا، فإن رسول الله قد أمرني بأمر، وأخبرني أن الله سيفتح علي وعليكم، فأبشروا، فإنكم على خير وإلى خير».

وكان (ع) يسير بهم الليل ويَكْمُن النهار، إلى أن قَرُبَ من «وادي الرمل» على بُعد خمسة مراحل من المدينة، فلما بلغ ذلك الوادي ـ وكان كثير الضباع والذئاب ـ أخذ يسير ببطء، فغلب الخوف منها على بعض مَن معه، حتى أقبل ابن العاص على أبي بكر وعلى عمر بن الخطاب (رض) يقول لهما: «إني أعلَمُ بهذه البلاد مِن عَلِي، وإن فيها ما هو أشد علينا من العدو، وهي الضباع والذئاب، وإني أخاف أن تخرج علينا فتقطعنا»؛ ثم سأل كلاً منهما أن يكلم علياً (ع) في ذلك، ليسير بمن معه مِن أعلى الوادي، فمضى كل منهما إليه وأطال الكلام معه في ذلك، ولكنه لم يأخذ بقول أيٍ منهما، فغضب ابن العاص غضباً شديداً، وراح يوسوس في المسلمين، وجعل يقول لوجوه السَرِيَّة: «إن علياً رجلٌ غِرٌّ لا خبرةَ له بهذه المسالك، ونحن أعرفُ بها ولا ينبغي لنا أن نُضيع أنفسنا، انطلقوا بنا نعلو الوادي»؛ فلم يجيبوه إلى ذلك، بل وغضبوا عليه وجعلوا يقولون: «لا والله ما نفعل ذلك، فإن رسول الله أمرنا أن نسمع لعلي ونطيعه، أفنترك أمره ونطيعك ونسمع لك؟»؛ فسألهم أن يكلموا هم أيضاً علياً (ع) في ذلك، ويقولوا له: «إن هذا الطريق في الأودية بين الجبال لكثير السباع، وسيَلْقَى الناس مِن مَعَرَّتِها أشد مما يحاذرونه من العدو»؛ ولم يزل بهم حتى أجابوه إلى ذلك، وأقبلوا إلى أمير المؤمنين (ع) يسألونه أن يرجع إلى الجادة، فلم

---

٦ ـ مَحَجَّة: طريق (صعب)، وفي القاموس المحيط: الحَجَوَّج (مفتوحة كلها مع تشديد الواو): الطريق يستقيم مرة ويعوَجُّ أُخرى، والحُجُج (بضمتين): الطرق المحَفَّرة.

يكترث بكلامهم ولم يرد عليهم، وأخذ يجد في السير بهم إلى أن قرب من القوم حتى لم يكن بينه وبين الكفار إلا جبل، فأمر أصحابه بالنزول في أسفله، فلما نزلوا، غضب خالد بن الوليد، وأقبل على الخليفتين يقول لهما: «أما ترون هذا الغلام أين أنزلنا؟! إنه لَوادٍ كثيرُ الحَيَّات كثيرُ الهوامّ[7] كثير السباع، وإنما نحن فيه على إحدى خِصالٍ ثلاث: إما سَبُع يأكلنا ودوابَّنا، وإما حيات تعقرنا وتعقر دوابَّنا، وإما أن يعلم بنا العدو فيقتلنا، قوموا بنا إليه نكلمه في ذلك»؛ فنهضوا إلى أمير المؤمنين (ع)، وأطالوا الكلام معه في ذلك أولاً وثانياً، وهو لا يرد عليهم بشيء، إلى أن بالغوا في الإلحاح والإصرار عليه، فقال (ع): «أليس قد أمركم رسول الله أن تسمعوا لي وتطيعوني؟»؛ قالوا: «بلى»؛ قال (ع): «فمن كان طائعاً لله ولرسوله فليتبعني، ومن أراد الخلاف على الله ورسوله فلينصرف عني»؛ فسكتوا يائسين من إجابته (ع) لهم؛ وتوجه إلى سائر من معه وقال لهم: «بارك الله فيكم! ليس عليكم بأس!»؛ فسكن بعضُ ما بهم من الخوف والرعب من السباع والعدو، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: «يا هاديَ كلِّ ضالّ، ويا مُنقِذَ كلِّ غريق، ويا مفرج عن كل مغموم، لا تُقَوِّ علينا ظالماً، ولا تُظفِر بنا عدونا، واْهدِنا إلى سبيل الرشاد».

ثم لما استقر بهم النزول ببطن الوادي، وغابت السباع والحيات التي كانت فيه بدعائه، حتى لم يروا لها أثراً، قام أمير المؤمنين (ع) واشتغل بالصلاة والعبادة، ولم يزل كذلك بقية ليله، إلى أن كان وقت السحر، فنادى في أصحابه: «اركبوا بارك الله فيكم»؛ وركب هو (ع) جواده، ثم صعد بهم إلى أعلى الجبل حتى أشرف على العدو، وأمر أصحابه فنزعوا عَكْمَةَ[8] دوابهم، وشمَّت خيولهُم ريح الإناث، فرفعت أصواتها بالصهيل؛ وسمع القوم صهيلها، فحاروا في أمرهم ولم يعرفوا ما دهمهم، إلى أن

---

٧ ـ الهوامّ (جمع هامَّة): الحيوانات ذات السّم.

٨ ـ عكمة البعير: رباطه ـ و: ما شُدَّ ورُبِط عليه.

طلع الفجر، ورفع بعض المسلمين صوته بالأذان وسمعه القوم، فقال بعضهم: «ينبغي أن يكون الراعي من أصحاب الساحر الكذاب». وتقدم حينئذ أمير المؤمنين (ع) للصلاة، وصفَّ أصحابه خلفه فصلى بهم الغداة؛ ولما أضاء النهار، أمر برفع اللواء، فرآه المشركون وعرفوا أنه لواء المسلمين، فجعلوا يقولون: «هذا عدوكم الذي جئتم تطلبونه، هذا محمد وأصحابه»؛ فركب مِئَتا فارس منهم جيادهم شاكِّين في السلاح، وصعدوا إلى الجبل حتى انتهوا إليه (ع) وإلى أصحابه، فوقفوا عليهم وسألوهم: «مَن أنتم؟ ومن أين أقبلتم؟ وأين تريدون؟»؛ فقام عليٌّ (ع) في وجوههم متكئاً على سيفه وقال: «أنا علي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله وأخوه، ورسوله إليكم، أدعوكم إلى شهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ولكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم من خير وشر، وإلا لأَضرِبَنَّكُم بالسيف»؛ فغضب القوم عليه بأجمعهم، وقالوا له: «إياكَ أردنا وأنتَ طَلِبَتُنا، وقد سمعنا مقالتك، فاستعِدَّ للحرب العَوان، واعلم أنا قاتِلوك وقاتِلو أصحابِك، والموعد بيننا وبينك غداً ضَحْوة، وقد أعذرنا في ما بيننا وبينك»؛ فقال: «ويلكم! تهددونني بكثرتكم وجمعكم؟ فأنا أستعين بالله وملائكته والمسلمين عليكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!»؛ فأثر مقاله ذلك رعباً في صدورهم، بحيث ملئت قلوبهم خوفاً وهيبةً لكلامه، ولكنهم تجلدوا في جوابه وقالوا: «ارجع كما رجع صاحباك»؛ فقال (ع): «لا والله! أنا لا أرجع حتى تسلموا أو أضربكم بسيفي هذا، وأنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب»؛ فازداد القوم رعباً وهيبة لكلامه، وانصرفوا إلى مراكزهم ليتجهزوا مع مَن معهم بأجمعهم للحرب في غد، وأقام أمير المؤمنين بأصحابه في مراكزهم على الجبل، وأمرهم بالإحسان إلى دوابهم وأن يطعموها الشعير، إلى أن جَنَّهُم الليل.

فلما كان السحر، أمرهم أن يسرجوا، ولما انشق عمود الصبح، صلى بأصحابه الغداة في غَلَسٍ[9] وظُلمة، ثم أمرهم بمهاجمة القوم، فبادروا إلى

٩ ـ الغَلَس: ظلام آخر الليل.

ذلك وأسرعوا في النزول من الجبل، وصارت حوافر خيولهم تقدح الشرر كاللهب عند وطئها الأحجار، وجعلوا يهتدون بها في الظلمة إلى مسالكهم وطرقهم، حتى فاجأوا المشركين وتوسطوا جمعهم، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا، فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا، فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا، فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا، فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾[10] فلم يشعر المشركون إلا أن وطأتهم الخيل، وتوسط أميرُ المؤمنين وأصحابُه جموعَهم، وقتل كثيراً من مقاتليهم وفرَّقهم تفريقاً ومزق جموعهم تمزيقاً، ولم يُصَب من أصحابه إلا رجلان، ودهش المشركون وغلب عليهم الخوف والفزع. ثم اجتمعوا بعد التفرق، وشدوا ظهورهم وتأهبوا للحرب، ثم خرج منهم غلام ـ كان من أشدهم بأساً وأكثرهم عناداً وكفراً ـ وهو يفور غيظاً وغضباً، وينادي: «يا أصحاب الساحر الكذاب، أيُّكم محمد؟ فليبرز إلي»؛ فبرز إليه أمير المؤمنين (ع) يقول له: «ثكلتك أمك! أنت الساحر الكذاب، ومحمد جاء بالحق من عند الحق!»؛ فسأله الغلام عن اسمه ونسبه، فقال: «أنا علي بن أبي طالب، أخو رسول الله وابن عمه وزوج ابنته»؛ قال: «ألَكَ هذه المنزلة من محمد؟ فإذاً أنت ومحمد شرع واحد، وما كنت أبالي لقيتُك أو لقيت محمداً»، ثم أنشأ يقول:

لاقَيْتَ يا عليُّ شخصاً ضَيْغَماً   لَيْثاً شديداً من رجالِ خَثْعَما[11]

فأنشأ أمير المؤمنين (ع) في جوابه:

لاقيتَ قَرْناً حَدَثاً وضيغما   لَيثاً شديداً في الوَغى غَشَمْشَما[12]
أنا علي سأبيرُ خَثْعَما   بكل خَطِّيٍّ يرى النَقْعَ دما[13]

---

١٠ ـ القرآن الكريم، ج ٣٠، س ١٠٠ العاديات: ١ ـ ٥.
١١ ـ الضَيْغَم: الأسد، . . العضّاض ـ اللَيْث: الأسد ـ خَثْعَم: اسم قبيلة عربية.
١٢ ـ القَرْن: السيد والرأس ـ حَدَثاً وضَيْغَماً: شاباً وأسداً قوياً ـ الغَشَمْشَم: الشجاع الذي لا يلين ولا يتراجع.
١٣ ـ أبارَ: أهلكَ، سأبير: سأهلِك ـ خَطّي: نوع من الرماح ـ النَقْع: الماء المُجَمَّع.

ثم حمل الغلام على أمير المؤمنين بكل شدة وسطوة، وكان شديد البأس، فاتقى علي (ع) ضربته بترسه وقابله بمثلها، فاتقى الغلام ذلك وتَتالَتْ بينهما ضربتان، ثم سبقه أمير المؤمنين بضربة قدَّه بها، وعجل الله بروحه إلى النار.

وقف علي (ع) بعدئذٍ وتوجه إلى رهط الغلام فنادَى برفيع صوته: «هل من مبارز؟»؛ فبرز إليه أخو المقتول وشد عليه بسيفه، ولكن أمير المؤمنين سبقه بضربة ألحقته بأخيه في الجحيم؛ ثم قام علي وجعل ينادي فيهم ثانياً يطلب منهم البراز، فبرز له الحارث، القوي الشديد الذي كان يُعَد بخمس مئة فارس، وجعل يتبختر في مشيته، مُعْجَباً بنفسه مبتهجاً بخلقته وشجاعته، ولما وصل إلى أمير المؤمنين (ع) وقد ٱمتلأ غيظاً وغضباً عليه، جرد سيفه كأنه شعلة نار وجعل يهزه، وهمَّ بأن يهاجم علياً بضربته، ولكن أمير المؤمنين لم يمهله دون أن قدَّهُ بضربة ملأ الجوَّ رنتُها ورَجْعُ صداها، ففرح بذلك المسلمون، وارتفعت أصواتهم بالتكبير، إذ لم يروها دون ضربته (ع) لعمرو بن وَدٍّ يوم الخندق.

وأما المشركون، فطارت بقتل الحارث أفئدتهم، وخفقت قلوبهم، وضاقت صدورهم، وبان فيهم الانكسار والفزع والخوف، ثم تشدَّد وبرز منهم ابن عم الحارث المقتول «عمرو بن الفتاك»، وأخذ يتجلد مع ما به من الخوف، وأنشأ يقول:

أنا عمروٌ وأبي الفَتَّاكُ ونَصْلُ سيفي بيدي هَتَّاكُ[14]

فأنشأ أمير المؤمنين في جوابه:

وهاكَها مُتْرَعَةً دِهاقا كأسَ دهاقٍ مُزِجَتْ زُعاقا[15]

---

١٤ ـ هَتَّاك: مَزَّاق، كثير الهَتْك والتمزيق.

١٥ ـ هاكَها: خذها (الضربة) ـ مُتْرَعَة: مليئة (بالألم، بالموت) ـ دِهاق: فائضة، طافحة ـ الزُعاق: الشراب المُر.

ثم شد عمرو على أمير المؤمنين (ع)، ولكن الأمير لم يمهله دون أن ألحقه بأسرع مِن خَطْف الطير بأصحابه المقتولين؛ ثم وقف (ع) بعدئذٍ ينادي فيهم بالبراز، فلم يجبه ولم يتجرأ على الخروج إليه أحد منهم، فتقدم عندئذ هو نحوهم، وشدَّ على جمعهم وهاجمهم وحده، وقتل من وجوههم ستة أو سبعة، ثم تبعه أصحابه يشدون على القوم حتى قتلوا من مُقاتليهم مئة وعشرين وأسروا مثلهم، وسبوا ذراريهم واستباحوا أموالهم وهُزِم بقاياهم، وظفر المسلمون بغنائم كثيرة لم يغنموا مثلها إلا في غزوة خيبر. ثم ربطوا الأسارى وربقوهم[١٦] بالحبال مُكَتَّفين كالسلاسل ـ ولذلك سميت الغزوة بها ـ وانصرفوا بهم وبالغنائم راجعين نحو المدينة.

ونزل الوحي بذلك على النبي (ص)، فاستبشر كثيراً، ونزلت عليه حينئذ سورة «العاديات»، فخرج لصلاة الصبح وصلى بأصحابه فريضة الغداة، وقرأ فيها السورة الجديدة، فاعترضه البعض يسألونه عنها لأنهم لم يكونوا سمعوها قبل ذلك؛ فصعد (ص) المنبر، وبعد الحمد والثناء أخبرهم بانتصار المسلمين على يد أمير المؤمنين، وأنه لم يُصَب من المسلمين إلا رجلان، وأنهم قد حازوا غنائم كثيرة، وقُتِل من المشركين كذا وأُسِر منهم كذا، «وإن هذا جبرائيل بشرني بكل ذلك، وأنزلَ عليَّ هذه السورة إشارة إليهم، وإن علياً قادم المدينةَ يوم كذا بالأسارى والغنائم»؛ ثم أمرهم بالخروج جميعاً إلى ملاقاة أمير المؤمنين (ع) في اليوم الموعود.

ولما كان اليوم المذكور، أفاق النبي (ص) من قيلولته في حجرة أم سلمة، وخرج بكافة المسلمين إلى ظاهر المدينة، حتى التقى به على بُعد ثلاثة أميال منها؛ فلما لمحه أمير المؤمنين (ع) من بعيد، ترجل عن فرسه، وجرى مسرعاً على قدميه نحو رسول الله إكراماً له، إلى أن بَصُر به النبي (ص)، فترجل هو أيضاً، ونزل (ص) عن دابته وأسرع نحوه حتى

١٦ ـ ربقوهم: قيدوهم مع عُرَى متعددة في الحبال.

انتهى إليه، فرمى علي (ع) بنفسه على قدمي رسول الله (ص) يقبلهما وقد اصطف المسلمون وأحاطوا بهما ينظرون إليهما، فأهوى النبي (ص) إليه حتى رفعه عن الأرض وضمه إلى صدره، وجعل (ص) يقبّل جبهته ويبكي، ويمسح الغبار عن وجهه (ع) بردائه وهو يقول له: «يا علي، الحمد لله الذي شدَّ بك أزري، وقوَّى بك ظهري؛ يا علي إني سألت الله فيك أن يشد بك أزري، كما سأل أخي موسى بن عمران ربه أن يشرك هارون في أمره»؛ ثم توجه إلى الناس وقال لهم: «معاشر أصحابي، لا تلوموني في حب علي بن أبي طالب، فإنما حبي علياً من أمر الله، واللّهُ أمرني أن أحب علياً وأدينه.[١٧] يا علي، مَن أحبك فقد أحبني، ومن أحبني فقد أحب الله، ومن أحب الله فقد أحبّهُ الله، وحقيق على الله أن يُسكِن حبيبه الجنة! يا علي، من أبغضك فقد أبغضني، ومن أبغضني فقد أبغض الله، ومن أبغض الله فقد أبغضه الله، ومن أبغضه الله لعنَه، وكان حقيقاً على الله أن يوقفه يوم القيامة موقف البغضاء، ولا يَقبل منه صرفاً ولا عدلاً! يا علي، لولا أني أُشفِق أن تقول فيك طوائفٌ من أمتي ما قالت النصارى في المسيح عيسى بن مريم، لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمر بملأ من الناس، إلا أخذوا التراب من تحت قدميك!».

ثم أمره بالركوب على راحلته، وبشره برضاء الله ورسوله عنه، وأمير المؤمنين (ع) يبكي فرحاً بذلك؛ ثم ركبا وركب الناس وانصرفوا نحو المدينة. وسأل النبي (ص) عنه بعض مَن حضر المعركة وقال: «كيف رأيتم أميركم؟»؛ فقالوا: «لم ننكر منه شيئاً، إلا أنه لم يقرأ في شيء من فرائضه التي أمَّنا فيها غير سورة الأحد»؛ فسأله النبي (ص) عن ذلك، فقال: «يا رسول الله أحببتُها»؛ فقال (ص): «فإن الله قد أحبَّكَ كما أحببتَها».

---

١٧ ـ أَدينُهُ: اقدّره، اجِلُّه.

فتح مكة المكرمة

في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة، وبعد معركة «ذات السلاسل» التي تقدم عرضها، كانت الغزوة الأنفذ، والمعركة الحاسمة الأهم في تاريخ الإسلام، أعني وقعة فتح مكة المكرمة، التي ثبَّتت غلبة التوحيد على الشرك، وقيام دولة الإسلام وتوسعها في جزيرة العرب.. ثم في العالم كله.

وكان سبب الوقعة التي انتهت بذاك النصر العظيم، أن قريشاً نقضوا العهد الذي كانوا عقدوه مع النبي (ص) في السنة السادسة، على أن لا يتحاربوا أو يعتدوا أو يأتمروا بعضهم ببعض مدة عشر سنوات (كما مرَّ في حديث معركة الحديبية)، ولكن قريشاً، في حربٍ جرت (بعد سنتين من عقد الهدنة) بين حلفائهم بني كنانة، وحلفاء النبي (ص) بني خزاعة، شجعوا حلفاءهم وحثوهم وأعانوهم سراً ومتكتمين ليلاً، بالنفوس والأموال والسلاح، رغم أن حلفاءهم بني كنانة كانوا أكثر عدداً وأقوى؛ والأغرب أن ممثلَيْ قريش في صلح الحديبية «عكرمة بن أبي جهل» و«سهيلَ بن عمرو» اللذين باشرا كتابة عقد الصلح، وكانا الواسطة في إجراء الهدنة، هما اللذان جعلا يمدان بني كنانة بالسلاح والأموال، ويُعينانهم على حلفاء رسول الله (ص) من بني خزاعة.

أما الحادث الذي أدّى إلى الحرب بين القبيلتين، فكان أن رجلاً من بني خزاعة حلفاء الرسول (ع)، سمع ذات يوم رجلاً من كنانة حلفاء قريش يهجو النبي ويتغنى به، فاعترضه الخزاعي ينهاه عن ذلك ويهدده بكسر فمه

إن أعادها، ولكن الكناني أعادها معانداً، فضرب الخزاعي بيده على فمه، ودارت الحرب عواناً شديدة بين الفريقين، بعد أن استنصر كل منهما بقومه، وقد أسفرت الوقعة بين الفريقين عن قتلى وجرحى كثيرين من خزاعة، وقويت كنانة عليهم حتى أدخلوهم الحرم.

عند ذلك ركب عمرو بن سالم الخزاعي وانصرف مسرعاً نحو المدينة حتى قدمها، ودخل على النبي في المسجد حين كان (ص) بين ظهراني أصحابه، فوقف عليه عمرو وأنشأ يقول:

لاهمَّ إني ناشدٌ محمدا ... حِلْفَ أبينا وأبيهِ الأتلدا[1]
ان قريشاً أخلفوك المَوْعدا ... ونقضوا ميثاقَك المؤكَّدا
وزعموا أنْ لستَ تدعو أحدا ... فأنصرْ هداك اللّهُ نصراً أيِّدا[2]
وأدعُ عبادَ الله يأتوا مَدَدا ... فيهم رسولُ الله قد تَجَرَّدا[3]
أبيض كالبدر ويَنمي أبدا ... إن سيمَ خسفاً وجهُهُ تَرَبَّدا[4]
هم بَيَّتونا في الحَطيم هُجَّدا ... وقَتَلونا رُكَّعا وسُجَّدا[5]

فلما سمع النبي (ص) ذلك وعلم بنقض قريش العهد، استولى عليه الغضب، وقال: «حسبك يا عمرو»؛ ثم نهض قائماً وانطلق نحو بيت إحدى زوجاته «ميمونة» يتروى في أمره وهو يقول: «لا نُصِرْتُ إن لم أنصُرْ بني كعب!» (يعني الخزاعة).

ثم قَدِم من مكة «بُدَيل ابن ورقاء الخزاعي» في نفر من خزاعة،

---

١ ـ ناشدٌ: طالبٌ، سائلٌ ـ الحِلْف: العهد والميثاق ـ الأتلد: الأقدم، الأعرق.
٢ ـ أيِّدٌ: مؤيَّدٌ، مُعزَّز.
٣ ـ مَدَدا: عوناً ـ تجرَّد: تفرَّغ.
٤ ـ يَنمي: يزداد (بياضاً) ـ أبداً: إلى الأبد، بصورة مستمرة ـ سيم خَسْفاً: أُلحِقَ به نقصان أو مهانة ـ تربَّد: عبسَ وأغبرَّ.
٥ ـ بيَّتونا: جعلونا نبيت، . . نقضي الليل (أو النهار) ـ الحطيم: جدار الكعبة، أو ما بين الكعبة و(بئر) زمزم ومقام إبراهيم ـ هُجَّداً: نائمين.

ودخلوا عليه يخبرونه بما أُصيبوا به من بني بكر، ويعرِّفونه بمساندة قريش لكنانة ونقضهم لعقد الصلح، فازداد النبي (ص) غضباً، وهَمَّ بالخروج بجنوده وجموعه لمهاجمة مكة وفتحها متكتماً في ذلك ما أمكنه ومتخفياً به عن أهل مكة، ليدخلها فجأة وقبل أن يستعدوا لمحاربته، وسأل (ص) ربه ذلك قائلاً: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها!»؛ إلى أن نادى مناديه في الناس يأمرهم أن يتجهزوا للخروج والحرب، فأخذ الناس في التجهز.

وأما ما كان من أمر قريش بعد نقضهم العهد وطردهم لخزاعة، أن علموا ببلوغ الخبر بذلك إلى النبي (ص)، فخافوا على أنفسهم من مهاجمته لهم بجنوده، ولم يزالوا يتربصون أخباره وهل أنه هَمَّ بقتالهم أم لا. وكان قائدهم أبو سفيان يومئذ بالشام، فبلغه خبر ما جرى من قومه على خزاعة حلفاء رسول الله (ص)، فغلب عليه الفزع والخوف من غزو النبي (ص) له ولقومه، وخرج مسرعاً نحو المدينة ليتوسط إلى رسول الله (ص) بالعفو عن قريش، وتسديد عقد الصلح بينه وبينهم، ثم أن يزيدَ في مدة العقد. ولقي في طريقه بُدَيل بن ورقاء راجعاً إلى مكة، فشكَّ بأنه الساعي بخبر قريش إلى رسول الله (ص)، فاعترضه يسأله عن مسيره وقال: «من أين أقبلت يا بديل؟»؛ فقال بُدَيل محاولاً أن يُخفي عنه خبر قومه المدينة وملاقاته النبي (ص): «سرت في هذا الساحل وبطن هذا الوادي»؛ يعني وادي عسفان، فقال أبو سفيان: «أفما أتيت محمداً؟» قال: «لا». فلما انصرف بديل نحو مكة، عمد أبو سفيان إلى مَبْرَك ناقة بديل، وأخذ من بعرها وجعل يفته ليرى إن كانت حطت بالمدنية وعُلِفَت من تمرها، فما لبث أن رأى فيه النوى، فقال: «أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً مستفزاً له على قريش!»؛ فركب راحلته مسرعاً يجد السير نحو المدينة إلى أن قَدِمها، ودخل على النبي (ص) ليستجير به، فلما بَصُر به رسول الله (ص) بادره قائلاً: «أغدرتم يا أبا سفيان؟»؛ قال: «لا» فقال (ص): «فنحن على ما كنا عليه»؛ فظن أبو سفيان من كلامه عزيمته على حرب قريش، وغلب عليه

اليأس من إجابته إلى تسديد الصلح وتجديده وتطويل مدته، فخرج يطلب مجيراً لقريش ممن تنفذ إجارته عند رسول الله (ص) ـ أي مَن يقبل النبي إجارته ولا يردها ـ إذ لقي أبا بكر، فسأله أن يجير هو قريشاً لتقديره أن النبي (ص) سيقبل إجارته لها ولن يرده، فلم يجبه إلى ذلك وقال له: «ويحك وهل يجير أحد على رسول الله؟» ـ أي هل يجير أحد مَن رفض النبيُّ إجارته ـ وانصرف عنه؛ فمضى أبو سفيان حتى لقي عمر بن الخطاب وسأله ذلك، فلم يسمع منه إلا مثل ما سمع من أبي بكر، فتوجه إلى بيت ابنته هو «أم حبيبة» يسألها ذلك، وكانت يومئذ زوجة رسول الله (ص)، فلما دخل عليها وتقدم إلى الفراش ليجلس عليه، بادرت أم حبيبة إلى الفراش تطويه، فقال: «يا بنية، أراغبة بهذا الفراش عني؟»؛ قالت: «نعم! هذا فراش رسول الله، ما كنتَ لتجلس عليه وأنت رجس مشرك»؛ فازداد هماً وحزناً، ويئسَ من إجابتها له في إجارة قريش، فلم يكلمها، وخرج من عندها حتى دخل على سيدة النساء فاطمة (ع) وقال لها: «يا بنت سيد العرب، أتجيرين بين قريش وتزيدين في المدة فتكونين أكرم سيدة في الناس؟»؛ فقالت: «جِواري جوارُ رسول الله» ـ أي أجير من يجيره رسول الله ـ قال: «أتأمرين ابنَيك أن يجيرا بين الناس؟»؛ قالت: «والله ما بلغ ابناي أن يجيرا بين الناس، وما يجير على رسول الله أحد»؛ فخرج من عندها مكموداً محزوناً وَجِلاً مشفقاً متفكراً في أمره متحيراً في وجهه، إلى أن لقي أمير المؤمنين علياً (ع)، فأخذ يتوسل به في طلبه في حاجته، إلى أن قال للأمير (ع): «أنتَ أمَسُّ القوم بي رَحِماً، وإني أرى الأمور قد اْعتَسَرت عليّ، فانصحني واجعل لي وجهاً» ـ أي: حَلاً ـ فقال (ع): «أنت شيخُ قريش، تقوم على باب المسجد فتجير بين قريش، ثم تقعد على راحلتك وتلحق بأرضك وقومك»؛ قال أبو سفيان: «وهل ترى ذلك نافعي ومُغْنياً عني شيئاً؟»؛ قال: «لا والله ما أظن ذلك، ولكن لا أجد لك غيره»؛ فانطلق أبو سفيان إلى المسجد ينادي في الجموع: «أيها الناس، إني قد أجرت بين قريش»؛ ثم أقبل على راحلته فركبها، وانصرف مسرعاً نحو مكة.

فلما وصل أبو سفيان إلى قريش، لقيه وجوههم يسألونه عما وراءَه، فأخبرهم بقصته وحدثهم بما جرى له من أمر الإجارة، حتى انتهى إلى ما أشار به أمير المؤمنين (ع) عليه، فقالوا: «وهل أجاز ذلك محمد؟»؛ قال: «لا»؛ قالوا: «ويحك! أوَ أنت تجير بين قريش؟! والله ما زاد ابن أبي طالب على أن لعب بك، فما يُغني عنا ما قلتَ؟»؛ قال: «والله ما وجدتُ غير ذلك»؛ فازدادت قريش عند ذلك رعباً من مهاجمة رسول الله لهم، خاصةً وقد عميت أخباره عنهم، فأقبلوا يتشاورون في أمرهم، وحاروا في شأنهم لم يهتدوا إلى حيلة يتخلصون بها مما هم فيه.

أخيراً انطلقوا إلى زوجة «حاطب بن أبي بَلْتَعَة» ـ وكان زوجها قد أسلم وهاجر إلى المدينة، وهي يومئذ بعدُ مع قومها في مكة ـ فلما دخلوا عليها، سألوها أن تكتب إلى زوجها تسأله عن خبر النبي (ص) وعزمه على غزو مكة، فأجابتهم إلى ذلك، وأرسلوا الكتاب إليه. فلما بلغه الكتاب، كان النبي (ص) يتجهز بجموعه للخروج إلى مكة، وكان يوصيهم بقطع أخباره عن قريش وإخفاء أمره عن أهل مكة، ولكن حاطباً كتب إلى زوجته ـ جواباً على كتابها ـ رسالة ذكر لها فيها خبر عزيمة النبي (ص) على مهاجمة مكة وأنه يتجهز لذلك، بل وحدَّد يوم خروجه للحملة على قريش، ثم أوصاها في الكتاب بأن يأخذوا حذرهم منه. ولما أتم كتابه، جعل يتفكر في بعثه إلى مكة والحيلة في إيصاله إلى أهله خفية عن رسول الله (ص) وسائر المسلمين، إذ قدِمَتِ المدينةَ مولاةٌ لأبي لهب تسمى «سارة» ـ كانت جارية سوداء نائحة مغنية لأهل الطرب ـ جاءت تستميح الناس ليبرُّوها ويطعموها، لأن قريشاً بعد وقعة بدر لم يحتفلوا بطرب ولا غناء، أسفاً على قتلاهم فيها، ولذلك لم تُطْلَب سارة، وبلغ بها الفقر حَدَّ الحاجة إلى رفد الناس.

ثم دخلت سارة على النبي (ص) طالبةً البر والمعروف، فسألها النبي (ص): «أمسلمةً جئتِ؟»؛ قالت: «لا»: قال (ص): «أمهاجرةً

جئت؟»؛ قالت: «لا»؛ قال: «فما جاء بك؟»؛ قالت: «كنتم الأصل والعشيرة، وقد ذهبَتْ مَوالي واْحتجتُ حاجة شديدة فقَدِمْتُ عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني»؛ قال (ص): «فأين أنتِ مِن شبان مكة؟»؛ قالت: «ما طُلِب مني بعد وقعة بدر» ـ أي الغناء والطرب ـ فأخذ النبي (ص) يحث بني عبد المطلب حتى كسوها وأعطوها النفقة والراحلة. فلما همّت بالانصراف والخروج نحو مكة، أتاها حاطب وأسرَّ إليها بإيصال كتابه إلى زوجته وقريش في مكة، ودفع لها عشرة دنانير، وكساها بُردة، وأوصاها بكتمان ذلك عليه، وأن تسير على غير الطريق المعهود، فأجابته سارة إلى كل ذلك، فأخفت الكتاب تحت شعرها، وأخذت ذات اليسار في الحرة على غير الطريق، متسترة في سيرها نحو مكة.

نزل الوحي على النبي (ص) يخبره بكتاب حاطب واستجابة سارة، فدعا النبي (ص) علياً والزُبَيرَ بن العوام ابن عمته، وأمرهما باللحوق بالمرأة قائلاً لهما: «انطلقا حتى تأتيا «روضة خاخ» فإن بها ظعينةً معها كتاب إلى المشركين، فتأخذانه منها، فإن أعطتكما الصحيفة فخليا سبيلها، وإلا فاضربا عنقها»؛ فبادر أمير المؤمنين (ع) إلى راحلته وركبها مسرعاً يريد الخروج، وتبعه الزبير ـ وقيل إنه تبعه أيضاً عمارة وعمر وطلحة والمقداد وأبا مرثد ـ وخرجوا بأجمعهم فرساناً. وكان حارثة بن النعمان في جمع من المسلمين حَرَساً على المدينة بأمر النبي (ص)، فأتاه القوم يسألونه عن المرأة، فقال: «ما مر بنا أحد»؛ فانطلق أمير المؤمنين (ع) بهم مسرعين حتى قدموا الحليفة، ورأوا حَطّاباً فسألوه عن المرأة، فقال: «نعم رأيت امرأة سوداء انحدرت من الحرة»؛ فأسرع أمير المؤمنين (ع) يتبعه الزبير في طلبها واللحوق بها، حتى أدركاها وتقدما إليها معترضَينِ لها يَسألانها عن الكتاب، فأنكرت أن يكون معها شيء من ذلك، فانتزعا ما معها من المتاع والحمل يفتشانه، فلم يجدا الكتاب، وكانت قد بكت، وجعلت تحلف بالله على صدق كلامها وصحة دعواها، حتى صدقها الزبير وقال: «ما أرى يا أبا الحسن معها كتاباً، فارجع بنا إلى رسول الله نخبره

ببراءة ساحتها»؛ فغضب علي (ع) من كلامه ونهره قائلاً: «يخبرني رسول الله أن معها كتاباً ويأمرني بأخذه منها، وتقول أنت لا كتاب معها!»؛ ثم جرّد سيفه وتقدم (ع) إليها يقول: «ما كَذَبْنا ولا كُذِّبنا! أما واللّهِ لئن لم تُخْرِجي الكتاب لأَكْشِفَنَّكِ ثم لأضربن عنقك، وأحلف بالله لا أغمده حتى تُخرِجنَّ الكتاب أو يقع رأسك»؛ فقالت: «إذا كان لا بد من ذلك، فللّه عليكما الميثاق إن أَعطيتُكُما الكتاب أن لا تقتلاني ولا تصلباني ولا تَرُدَّاني إلى المدينة»؛ فأجاباها إلى ذلك؛ عندئذ قالت: «فأَعرِضْ يا ابن أبي طالب بوجهك عني»؛ فلما أعرض عنها، كشفت قناعها، وأخرجت الكتاب من ذوائبها وناولته إياها، فأخذه أمير المؤمنين (ع) وخلى سبيلها، وانصرف بمن معه راجعين نحو المدينة.

فلما وصل (ع) إلى المدينة، دخل على النبي (ص) وناوله الكتاب، فإذا النَص فيه هكذا: «من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، إن محمداً قد نَفَر[6]، وإني لا أدري إياكم أرادَ أو غيركم، فعليكم بالحذر»؛ فعند ذلك نادى منادي رسول الله (ص) في الناس بالصلاة جامعة، حتى اجتمعوا وامتلأ بهم المسجد، فأقبل النبي (ص) وصعد المنبر وبيده الكتاب وقال: «أيها الناس، إني كنتُ سألت الله عزّ وجل أن يخفي أخبارنا عن قريش، وإن رجلاً منكم كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحب الكتاب، وإلا فَضَحَه الوحي»؛ فلم يقم أحد، فأعاد (ص) مقالته، عندئذ قام حاطب قائماً وهو يرتعد كالسعفة في الريح العاصف وقال: «أنا يا رسول الله صاحب الكتاب؛ أمَا والذي أنزل عليك الكتاب، ما كفرتُ منذ آمنت، ولا أحببتُهُم منذ فارقتهم، وما أحدثتُ نفاقاً بعد إسلامي، ولا شكاً بعد يقيني»؛ قال (ص): «فما الذي حملك على أن كتبت هذا الكتاب؟»؛ قال: «يا رسول الله، إنه لم يكن أحد من أصحابك إلا وله بمكة عشيرة غيري، وإن

---

٦ ـ نفَرَ: أعلن التهيؤ للخروج، وإذا كانت نَفَر، فيكون المعنى: دعا للحرب وخرج إليها.

لي بها أهلاً وليس لي بها عشيرة، فأشفقت أن تكون دائرةٌ[7] لهم علينا، فيكون كتابي هذا كفاً لهم عن أهلي»؛ فقام عمر بن الخطاب يقول: «دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فوالله لقد نافق!»؛ فلم يأذن له النبي في ذلك وقال (ص): «إنه من أهل بدر، ولعل الله تعالى اطلع عليهم فغفر لهم»؛ ثم قال (ص): «أخرجوه من المسجد»؛ فأخذ الناس يدفعونه في ظهره ليخرجوه، وهو ينظر إلى النبي استجلاباً لرأفته، حتى رقَّ له وأمر بإرجاعه، وعفا عنه وأمره بالاستغفار وأن لا يعود إلى مثل ذلك، ونزل فيه قوله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾[8].

ثم إن المسلمين بعدما استعدوا للخروج وأكملوا جهازهم للمسير، وقد تكاملوا يومئذ نحواً من عشرة آلاف راجل وأربع مئة فارس من المهاجرين والانصار، لم يتخلف أحد منهم، خرج بهم النبي يوم الجمعة ثالث شهر رمضان بعد صلاة العصر وكلهم صائمون، واستخلف على المدينة «أبا لبابة»، وبعث إلى رؤساء القبائل يستفزهم وعشائرهم لأجل اللحوق به. ولم يُعلم الناس مقصده بوجهه، لأنه (ص) بنى أمره في مسيره على التكتم والإخفاء، فزعموا أنه يريد عشيرة «هوازن»، ووصل إليها الخبر بأن النبي متوجه إليها بجنوده، فأخذت تتجهز وتستعد للدفاع.

وسار رسول الله بجموعه حتى بلغوا كُراع «الغَميم»[9] وباتوا بها، وأصبح النبي مفطراً بسبب السفر وأمرهم بالإفطار. ولم يزل النبي يسير بأصحابه حتى بلغ العقبة، ونزل بهم تحتها، وكان قد لحقه في بعض الطريق ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وابن له، وعبد الله

---

٧ ـ دائرة: انتصار.

٨ ـ القرآن الكريم، ج٢٨، س٦٠، الممتحنة :١.

٩ ـ كُراع: ناحية ـ الغميم: موقع بين المدينة ومكة.

ابن أمية ابن عمة رسول الله، وأسلما على يده بعد شفاعة «أم سلمة» لهما في الدخول عليه.

وكانت أخباره قد عميت عن قريش ولم يشعروا بخروجه، لذلك بعثوا أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل يتجسسان خبره. وخرج الرجلان نحو المدينة، وصادف نزولهما العقبة بعد نزول النبي تحتها بجموعه، فبلغاها ليلاً بعد بلوغ النبي بسويعات؛ وكان المسلمون قد أشعلوا نيراناً في منازلهم لبعض شؤونهم، فلما رأيا النيران تحت العقبة استعظماها، وأخذا يتحادثان عنها وأنها ما هي ولمن هي؟ وكان العباس عم النبي حينئذ راكباً بغلة النبي، يدور في ظلمة الليل بعد نزول عساكر المسلمين، يتفحص عن داخلٍ يدخل مكة من حَطّاب أو غيره ليبعث معه خبراً إلى قريش بمكان رسول الله ومباغتته لهم، فلعلهم يأتونه ويستأمنونه أو يدخلون في الاسلام، وذلك شفقةً من العباس عليهم وحسرة لهم وهو يقول: «يا سوء صباح قريش! والله لئن بَغَتَها رسول الله في بلادها ودخل مكة عنوة، إنه لَهلاكُ قريشٍ آخر الدهر»؛ وبينما هو يدور، إذ سمع صوت أبي سفيان في محادثته لصاحبه عن النيران، فعرفه من صوته، وأقبل نحوه مبادراً إليه، إلى أن قرب منه وناداه: «يا أبا حنظلة»؛ فأجابه أبو سفيان بعد أن عرفه من صوته يقول: «نعم فداك أبي وأمي، أأبو الفضل أنت؟»؛ قال: «نعم»؛ ثم التقيا، وسأله أبو سفيان عما وراءه وعن النيران، فقال العباس: «هذا رسول الله قد جاء بما لا قِبَلَ لكم به، عشرة آلاف من المسلمين»؛ فغلب الفزع والخوف على أبي سفيان، وأخذ يستشير العباس في أمره، ويسأله حيلة ينقذ بها نفسه، وقال: «فما تأمرني أن أصنع؟»؛ فقال له العباس: «تركب عجز هذه البغلة، فأصير بك إلى رسول الله وآخذ لك منه الأمان، فوالله لَئِن ظفر بك لَيَضرِبَنَّ عنقك»؛ فقال: «أوَتراه يؤمنني؟»؛ قال: «نعم، فإني إذا سألته شيئاً لا يردني»؛ فرضي بذلك، وركب وراءه رديعاً له، ورجع عكرمة إلى مكة.

وانصرف العباس بأبي سفيان نحو النبي (ص) يركض ببغلته وهو يمر على نيران المسلمين ويرونه وأبا سفيان، ولا يتعرضون لهما إكراماً لكون

العباس عمّ النبي (ص)، إلى أن مَرَّا بنار عمر بن الخطاب، فناداه عمر وقال له: «يا أبا سفيان، الحمد لله الذي أمكَنَ منك بغير عهد ولا عقد»؛ فلم يكلماه، وأخذا يُركِضان البغلة ويسرعان في السير نحو قبة النبي (ص) إلى أن دخلا عليه، ولم يستقر بهما المقام حتى لحقهما عمر، ودخل على النبي وقال: «يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكَنَ الله منه بغير عهد ولا عقد، فدعني أضرب عنقه»؛ فلم يلتفت إليه النبي ولم يجبه بشيء، بينما العباس يقول: «يا رسول الله، إني قد أجَرتُه وصار إليك معي، فتؤمنه لأجلي»؛ والنبي ساكت لا يرد عليه جواباً، إلى أن رمى العباس بنفسه بجانب النبي، وأخذ برأسه يناجيه مستشفعاً لديه في الأمان لأبي سفيان، مفتخراً بنجواه معه وهو يقول: «والله لا يناجيه اليوم أحد دوني». ولم يزل عمر يعيد على النبي كلامه يسأله الرخصة في قتل أبي سفيان، إلى أن غضب عليه العباس وصرخ به قائلاً له: «مهلاً يا عمر، فوالله ما تصنع هذا بالرجل إلا لكونه من بني عبد مناف، ولو كان من عدي بن كعب لما قلتَ ذلك»؛ فقال عمر: «مهلاً يا عباس، فوالله لَإسلامُكَ يوم أسلمتَ، كان أحبَّ إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم».

عندئذٍ توجه النبي (ص) إلى أبي سفيان وقال له: «أسْلِمْ تَسْلَم»؛ فقال أبو سفيان: «يا أبا القاسم، ما أكرمك وأحلمك»؛ فأعاد النبي عليه كلامه، أولاً وثانياً، وأعاد أبو سفيان جوابه كذلك، إلى أن وكزه العباس وقال له: «ويلك، إن قالها الرابعة ولم تُسْلِم قتلك»؛ فقال النبي (ص): «خذه يا عم إلى خيمتك فقد أمَّناه حتى تَغدُوَ به عليَّ الغداة»؛ فمضى به العباس إلى خيمته، وكانت قريبة من قبة رسول الله. فلما استقر الجلوس به، ندم على انصرافه مع العباس إلى النبي، وأخذ يحدث نفسه يخاطبها هامساً بقوله: «مَن فعلَ بنفسه مثلَ ما فعلت أنا؟! جئتُ فأعطيتُ بيدي، ولو كنتُ انصرفت إلى مكة وجمعتُ الأحابيش وغيرهم، فلعلي كنت أهزمه» فسمع فجأة صوت النبي يناديه من قبته يقول له: «إذاً كان الله يخزيك!»؛ فعلم الرجل أن رسول الله اطلع على ضميره وأجابه عما يحدِّث به نفسه.

فلما كان الغد، أتى العباس بأبي سفيان إلى النبي (ص) بعد أن استأذنه في ذلك، ولما دخل أبو سفيان قال له النبي (ص): «ويلك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تُسلِمَ وأن تعلم أن لا إله إلا الله؟»؛ قال: «بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأكرمك وأرحمك وأحلمك! والله لقد ظننتُ أن لو كان معه إله لأغنَى يوم بدرٍ ويوم أحد»؛ فقال (ص): «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسولُ الله؟»؛ قال: «بأبي أنت وأمي! أما هذه فإن في النفس منها شيئاً»؛ فنهره العباس وقال له: «ويحك! اشهد بشهادة الحق قبل أن يضرب عنقك»؛ فقال وهو يتلجلَجُ لسانُهُ وفُوهُ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله»؛ ويرتعد في كلامه حتى ضحك النبي لتلجلجه فقال للعباس: «رده إلى عندك». ولما هَمَّا بالانصراف، قال أبو سفيان للعباس: «فما نصنع باللات والعزى؟»؛ فبادر في جوابه عمر بن الخطاب وكان حاضراً فقال: «اسلح عليهما»؛ فتوجه إليه أبو سفيان يقول له: «أفٍ لك ما أفحشك يا عمر! وما يُدخِلُكَ في كلامي وكلام ابن عمي؟».

ثم قال النبي (ص) لأبي سفيان: «عند من تكون الليلة؟»؛ قال: «عند أبي الفضل»؛ فقال (ص): «فاذهب به يا أبا الفضل أَبِتْهُ عندك الليلة، واْغْدُ به علي»؛ فانطلق به العباس، ولما أصبح سمع بلالاً يؤذن فقال: «يا أبا الفضل، ما هذا المنادي؟»؛ قال: «هذا مؤذِّنُ رسول الله، قُمْ فتوضَّأْ وصلِّ»؛ قال: «كيف أتوضأ؟»؛ فعلمه العباس فتوضأ، ثم خرجا إلى النبي (ص)، فرأياه يتوضأ وأصحابُهُ حوله يتسابقون إلى تناول ما يسقط من ماء وضوئه فيمسحون به وجوههم يتباركون بذلك، فاستعظم ذلك أبو سفيان وجعل يقول: «والله ما رأيت كاليوم قط، لا كسرى ولا قيصر!»؛ يعني في تعظيمهم لرئيسهم. ثم تقدم النبيُّ (ص) للصلاة وصلى بأصحابه صلاة الغداة، فلما أكملها، تقدم إليه العباس يستأذنه في الانصراف إلى مكة قبل قدوم النبي إليها، لينذر أهلها ويدعوهم إلى الله ورسوله، فأذن له النبي في ذلك، وأوصاه بأن ينادي فيهم أن: «مَن قال: لا إله إلا الله وحده لا

شريك له، وشهد أن محمداً رسول الله، وكفَّ يده، فهو آمن، ومَن جلس عند الكعبة ووضع سلاحه، فهو آمن» فقال العباس: «يا رسول الله، إن أبا سفيان يحب الفخر، فلو خَصَصْتَه بمعروف»؛ فأجابه النبي إلى ذلك وقال: «ومن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن»؛ فابتهج بذلك أبو سفيان وكان حاضراً مع العباس، واستبشر فرحاً وهو يقول: «داري!؟»؛ قال النبي: «نعم، دارك»؛ ثم قال (ص): «ومن أغلق بابه فهو آمن»؛ وانصرف أبو سفيان ليركب راحلته مسرعاً نحو مكة.

ولما اختلى العباس مع النبي (ص) قال: «يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل من شأنه الغدر، و«إنه يُخاف منه إذا سبق المسلمين في الدخول إلى مكة»؛ فقبل النبي (ص) ذلك، وأمره باللحاق به وحَبْسِهِ عنده حتى غد، إلى حين ارتحال عساكر النبي، كي لا يسبقهم في السير ويُثبِّط أهل مكة عن قبول الإسلام، فبادر العباس يعدو وراءه حتى قرب منه، وناداه صارخاً يأمره بالصبر والتوقف، فتوقف أبو سفيان خائفاً فزعاً وقال له: «أغدراً يا بني هاشم؟»؛ فلما انتهى إليه العباس، أمره بالرجوع والبيات عنده ليلته، وقال له: «ستعلم أن الغدر ليس من شأننا، ولكن تصبحُ حتى تنظرَ إلى جنود الله»؛ ورجع به إلى خيمته وأباته عنده.

ولما أصبح الصباح وصلى النبي بجنوده صلاة الغداة، دعا العباس وأمره أن يمضي بأبي سفيان إلى أعلى العقبة ليرَى جنود الله. ولما مضى به إلى حيث أمره النبي (ص) وجلسا هناك، أخذت الرايات تمر بهما وتحت كل راية أفواج من المسلمين؛ وكان أولهم قبائل قضاعة وبني سُلَيم وهم ألف نسمة، يتقدمهم خالد بن الوليد، ولهم يومئذ ثلاث رايات يحملها المقداد بن أسود والعباس بن مرداس وخفاف بن ندبة، فلما اقترب القوم منهما، قال أبو سفيان: «يا أبا الفضل، هل هذا رسول الله؟»؛ قال: «لا، ولكنه خالد في المقدمة»؛ ولما حاذَوهما، رفعوا أصواتهم بالتكبير ثلاثاً وتبعهم في ذلك أبو سفيان؛ ثم أقبلت راية أخرى سوداء قد حملها الزبير في خمس مئة من قبائل جُهَينة وأشجع، وجمعٍ من المهاجرين وأفناء

العرب، فسأل أبو سفيان عن قائدهم وهل هو محمد؟»؛ فقال العباس: «بل هو ابن أختك الزبير»؛ ثم أقبلت راية ثالثة يحملها أبو ذر (رض) في ثلاث مئة من بني غِفار، ثم تبعتهما راية رابعة وخامسة يحملهما بريد وناجية في أربع مئة من بني أسلم، ثم أقبلت راية سادسة يحملها بشر بن سفيان في خمس مئة من بني كعب من خزاعة حلفاء النبي، ثم أقبلت رايات ثلاث يحملها النعمان وبلال وعبد الله بن عمر في ألف نسمة من مزينة، ثم أربعة ألوية يحملها أربعة في ثماني مئة من جهينة، ثم راية في مئتين من بني كنانة وليث وضمرة وسعد وبكر، ثم أقبل لواء في ثلاث مئة من أشجع، ولم تزل الرايات يتبع بعضها بعضاً، والجنود والعساكر تمر قبيلة بعد قبيلة وأفواجاً أفواجاً، رافعين أصواتهم بالتكبير ثلاثاً في وجه أبي سفيان إرهاباً له، وهو يُكرِه نفسه على التكبير معهم، وقد أشرف على الهلاك خوفاً وفزعاً وحقداً وحسداً، ويسأل عن قائد كل منهم «هل هو محمد»، ويجيبه العباس بالنفي، إلى أن ضاق صدره بكثرة الألوية والجنود المتعاقبة، وسأل العباس بقوله: «أما مرَّ محمد بعد؟»؛ فقال له العباس: «لا، ولكن لو رأيت الكتيبة التي هو فيها، لرأيت الحديد والخيل والرجال، وما ليس لأحد به طاقة»؛ فلم يزل أبو سفيان يزداد خوفاً ورعباً وعناداً وحسداً للنبي وأسفاً على دخول القبائل في دينه وقبولهم للإسلام، وبخاصة منهم بني أشجع الذين كانوا أشد العرب على النبي. ولم يزل يسأل العباس عن ذلك متعجباً مستغرباً، والعباس يجيبه بقوله: «نعم، ولكن الله حبَّب إليهم الإسلام، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»، إلى أن طلعت كتيبة خضراء، وظهر سواد شديد، وارتفعت غبرة كثيرة بسنابك الخيل، وفيها ألوية ورايات فوق وجوه المهاجرين والأنصار، مغمورين في الحديد لا يرى منهم إلا الأحداق، فإذا هي كتيبة رسول الله (ص) وفيها ألفا دارع، وألوف من الفرسان والأبطال وقد حمل راية النبي (ص) فوقها سعد بن عبادة، والخيالة والجنود قد أحاطوا به (ص) في أحسن عدة وأجمل زينة وأهيب هيئة، وهو (ص) على ناقته القصوى، وعلى جانبيه أبو بكر وأسيد بن حضير يحدثهما، إلى أن

رأى سعد بن عبادة أبا سفيان على العقبة، فأقبل عليه وهزّ الراية في وجهه وقال له: «يا أبا سفيان، اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً»؛ فازداد أبو سفيان رعباً وقال للعباس: «يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً»؛ قال: «ويحك! إنها النبوة»؛ فقال: «نعم».

ثم أقبل النبي (ص) على ناقته، فلما رآه أبو سفيان، قام مسرعاً يعدو نحوه يزاحم الخيول والجنود ويمر تحت الرماح، حتى انتهى إليه وأخذ بركابه يقبله محتمياً به يشكو إليه سعداً وتهديده لقريش في نشيده «اليوم يوم الملحمة..» الخ، فأخذ النبي (ص) يسليه ويكذب سعداً ويقول: «ليس شيء مما قال سعد».

ثم توجه النبي (ص) إلى أمير المؤمنين علي (ع)، وأمره أن يدرك سعداً وينتزع منه الراية، ويكون هو الذي يدخل بها مكة دخولاً رفيقاً، وينادي في شوارعها وأهاليها بالأمان لمن شهد الشهادتين، أو وضع سلاحه، أو جلس بفِناء الكعبة، أو دخل دار أبي سفيان بأعلى مكة، أو دخل دار حَكيم بن حِزام بأسفل مكة (وذلك بعد أن لحقه في الطريق حكيم وبديل بن ورقاء وأسلما على يده وبايعاه وبعثهما بين يديه إلى قريش يدعوانهم إلى الإِسلام).

وبادر حكيم مع أبي سفيان مسرعين في الخروج نحو مكة، فبعث النبي (ص) حينئذ علياً (ع) في أثرهما، ثم بعث الزبير في خيل من المهاجرين يغرز رايته بالجحون بأعلى مكة، ثم بعث سعد بن عبادة في كتيبة من الأنصار، وخالد بن الوليد في جماعة من قضاعة وبني سليم يغرز رايته دون البيوت من أسفل مكة، وأوصاهم جميعاً أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، ولا يقتلوا أحداً ما عدا أربعة من الرجال، هم عبد الله بن أبي سرح، والحويرث بن نُقَيْذ، وعبد الله بن خَطَل، ومِقْيَس بن صُبانة، وجاريتين كانتا تغنيان بهجائه (ص) وتحرضان المشركين عليه يوم أُحُد، فأباح (ص) دماءهم.

فانصرف القوم في مقدمة الجيش مجدين في السير نحو مكة، ولكن أبا سفيان سبقهم في دخولها وهو يركض بناقته من أسفل الوادي، فاستقبلته قريش يسألونه: ما وراءك؟ وهم لا يعلمون من الحوادث وأخبار النبي (ص) إلا ما رأوه من ارتفاع الغبار فوق الجبال ـ وكان قد غلب عليهم منه الفزع والرعب الشديد ـ وسألوه عنه، فقال أبو سفيان: «هذا محمد في خلق عظيم». فازداد القوم خوفاً ورعباً؛ ثم أخذ ينادي فيهم: «يا آل غالب، يا آل فلان.. وفلان...» من أرباب البيوت، فغارت العيون في الأحداق، وظن القوم أن السيف لا يُرفَع عنهم، وأيقنوا بالهلاك، وتابع نداءه بإعلان الأمن لمن يُسلم أو يضع سلاحه... فلما قال: «ومن دخل داري فهو آمن»، وسمعت زوجته «هند» كلامه، علمت أنه بايع رسول الله (ص) ودخل في أمانه، فغضبت عليه، وجعلت تطرد من يأوي إلى داره وهي تنادي في الجموع: «اقتلوا الشيخ الخبيث! لعنه الله من وافدِ قومٍ وطليعةِ قوم!»؛ حتى أدركها أبو سفيان يُسكِّن بعض ما بها، وقال لها: «ويلك اُسكتي! إني رأيت ذوات القرون وأبناء فارس وملوك كندة وفتيان حمير يُسلمون آخر النهار! ويلك اسكتي، فقد ـ والله ـ جاء الحق ودَنَت البلية!»؛ فسمعت قريش مقالته وشاع الخبر فيهم، فأشرفوا على الهلاك، وكادت نفوسهم أن تزهق خوفاً ورعباً.

ثم قَدِم أمير المؤمنين علي (ع)، وتبعه سائرُ مَن بعثهم النبي (ص) في طليعته، فلما دخلوا مكة، غرزوا راياتهم بأعلاها وأسفلها، وجعلوا ينادون في الجموع ـ كما أمرهم النبي (ص) ـ بالأمان لمن أسلم ومن وضع سلاحه ومن التجأ إلى فِناء الكعبة ومن دخل تلك الدور الآمنة، فسكنت الفورة وطابت النفوس، ورجعت القلوب من الحناجر إلى مَحالِّها، وأخذ الناس يلتجئون إلى مواضع الأمن، والتجأ صناديدهم إلى الكعبة، ووجد أمير المؤمنين (ع) الحُوَيرِث والمِقْيَس في السوق فقتلهما، وقتل إحدى الجاريتين وهربت الأخرى؛ ورأى سعد أن ابن خَطَل قد تعلق بأستار الكعبة فتقدم إليه وقتله.

وبلغ علياً (ع) أن أخته أم هاني بنت أبي طالب قد آوت أناساً من بني مخزوم، فقصد دارها وهو مقنع بالحديد، حتى انتهى إلى باب الدار ورفع صوته، فخرجت إليه أم هاني وهي لا تعرفه وقالت: «يا عبد الله، أنا أمُّ هاني بنت عم رسول الله وأختُ علي بن أبي طالب، انصرف عن داري»؛ فلم ينصرف علي، ولم يزل يقول: «أخرِجوهم»، إلى أن قالت المرأة: «واللّهِ لأشكُوَنَّكَ إلى رسول الله!»؛ فكشف أمير المؤمنين (ع) عن رأسه، فعرفته أخته ورمت بنفسها في حُجْره حتى احتضنته باكية وهي تفديه بنفسها، نادمة على ما سبق منها (مِن حَلْفها للشكاية منه) معتذرة إليه من ذلك، إلى أن قال (ع) لها: «اذهبي فبَرِّي قَسَمك فإنه بأعلى الوادي»؛ فانطلقت أم هاني، حتى انتهت إلى النبي في قبته وهو يغتسل، فرفعت صوتها بالتحية، فسمعها رسول الله وعرفها ورَحَّب بها؛ ثم همت بالشكاية وقالت: «بأبي أنت وأمي ما لقيتُ من علي اليوم!»؛ فسمعتها الصديقة فاطمة (ع) واعترضتها تقول: «يا أم هاني، إنما جئتِ تشكين علياً حيث أنه أخاف أعداء الله وأعداء رسوله؟!»؛ فسكتت أم هاني، وأخذت تعتذر إليها تقول: «فديتُكِ احتمليني»؛ فقال النبي (ص) «قد شكر الله سَعْيَه! وإني قد أجَرْتُ من أجرْتِهِ لمكانك من علي بن أبي طالب» فانصرفت أم هاني.

ثم دخل النبي (ص) مكة بجنوده وقبائله وعساكره وجموعه في الثالث عشر من شهر رمضان، وتخلف عنه ثلاثة من المسلمين، فدخلوا أسفل مكة وأخطأوا الطريق فقُتِلوا؛ ثم انطلق النبي بمن معه نحو الكعبة حتى انتهى إليها وقريش قد أحاطوا بها لائذين مرعوبين، فوقف (ص) بباب الكعبة وأخذ بِعِضادَتَيْه[10] ينادي «لا إله إلا الله وحده وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»؛ ثم توجه إلى قريش وقال (ص): «ما تظنون؟ وما أنتم قائلون؟»؛ فأجابه سهيل بن عمرو بقوله: «نقول خيراً ونظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قَدِرْتَ»؛ قال (ص): «فإني أقول

---

١٠ ـ العِضادتان: الخشبتان اللتان في جانِبَي الباب.

لكم كما قال أخي يوسف ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[11] ألا إن كلَّ دم ومالٍ وتِرَةٍ[12] كان في الجاهلية، موضوعٌ تحت قدمي[13]، إلا سدانة[14] الكعبة وسقاية الحاج، فإنهما مردودتان إلى أهلهما؛ ألا إن الله قد حرَّم[15] مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي محرمة بتحريم الله، لم تحل لأحد كان قبلي، ولم تحل لي إلا ساعةً من نهار، فهي مُحَرَّمة إلى أن تقوم الساعة، لا يُخْتَلَى حلاها (أي لا يُقتَطَع نباتها الرطب الرقيق)، ولا يُقطَع شجرها، ولا يُنْفر صَيْدُها[16]، ولا تحل لُقَطتها[17] إلا لمنشد»[18]؛ فقام العباس وقال: «يا رسول الله إلا الإِذْخِر[19] فإنه للقبر والبيوت»؛ فأجابه النبي (ص) إلى ذلك وقال: «إلا الإِذخر».

ثم قال (ص) لمعاشر قريش: «ألاَ لَبئسَ جيرانُ النبي كنتم! لقد كذبتم وطردتم وأخرجتم وآذيتم وفللتم وكسرتم، ثم ما رضيتم حتى جئتموني في بلادي تقاتلونني!» ثم عفا عنهم بعد اعترافهم له بذلك وتصديقهم لمقالته، فقال (ص): «اذهبوا فأنتم الطُلَقاء![20]»؛ ـ [وبذلك سُمِّيَ أهل مكة «الطُلَقاء»] ـ فتعجب القوم، ودهشوا من سعة رحمته وعظيم عفوه، ونهضوا قائمين على أقدامهم، كأنهم انتشروا من القبور وغُمِروا بعد نزول العذاب

---

١١ ـ القرآن الكريم، ج ١٣، س ١٢ يوسف: ٩٢.

١٢ ـ تِرَة: ظُلم، أو ثأر، أو حق يُطالَب به.

١٣ ـ أي: أعتبر كل دم مسفوك ومُطالَب به، وكذا كل مالٍ مستحِق أو ثأرٍ لأحد بمقاييس الجاهلية، لا قيمة له عندي، وارفض الحقوق بتلك المقاييس.

١٤ ـ سدانة الكعبة: خِدْمَتها وحجابتها وتولجي خدمتها ورعاية عمارتها.

١٥ ـ حرَّمها: جعل لها حُرْمة وحصانة فلا يحل انتهاكها.

١٦ ـ لا يُنفَر صَيدها: لا تُصاد ولا تلاحَق للصيد طيورُها القابلة للصيد (كالحمائم وسواها).

١٧ ـ اللُقْطة واللُقَطة (بتسكين القاف وفتحها): المُلقَى المتروك لا يُعرَف صاحبه.

١٨ ـ المُنشِد لشيءٍ أو لِضالّة: الباحث المسترشد (عنه أو عنها).

١٩ ـ الإِذْخِر: الحشيش الأحضر.

٢٠ ـ الطُلَقاء: المُحَرَّرُون، الأحرار، المعفو عنهم، المُطلَق سِراحهم.

عليهم بكل خير وحبور، ورفعوا أصواتهم بالشكر له على عظيم كرمه وجميل صفحه، ورَفعِ سيفه عنهم بعدما أمكنَهُ الله من رقابهم، وأدخلَهُ مكة عُنوةً رغماً عن آنافهم، فصارت له فَيْئاً[٢١] وصاروا له عبيداً، مع علمهم بما سبق منهم له من الطرد والتكذيب والحبس والتعذيب والضرب والمقاطعة والتبعيد، فكأنهم أُطلِقوا من عِقال ورجعوا أحياءً بعد الموت، وتقدم إليه ابن الزِبَعْرَىٰ فأسلَمَ ثم أنشأ يقول:

يـا رسـول الآلـه إن لـسـانـي ... راتِـقٌ مـا فَـتَـقْـتُ إذْ أنـا بُـورُ[٢٢]
إذ أباري الـشيـطـان في سَنَنِ آلْـ ... غَـيِّ ومَـن مـالَ مَـيْـلَـهُ مَـثْـبـورُ[٢٣]
آمـنَ الـلـحـمُ والـعـظـامُ لـربـي ... ثم نفسي.. الشهيدُ أنتَ النَذيرُ[٢٤]

ثم جعل النبي (ص) يدور حول البيت، وينظر إلى الأصنام المعلقة عليها (وكان بعضها مشدوداً بالرصاص) وعددها يومئذ ثلاث مئة وستون صنماً، فتناول (ص) كفًّا من الحصا ورمى بها على وجوهها وهو يقول ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢٥]، ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[٢٦]؛ ثم قال: «شاهَت الوجوه!»؛ فخرَّت الأصنام على الأرض بوجوهها، فتقدم إليها يطعنها بمخصرته، ثم أمر بها فأُخرِجَت من المسجد وكُسِرت، ودهشت قريش والجموع عجباً وحيرة من سقوط

---

٢١ ـ الفَيْء: الغنيمة (أو الغنائم) الحاصلة بدون حرب.

٢٢ ـ راتِق: مُغلِق وسادّ وخائط ـ فتقتُ: مَزقتُ، شَرَختُ، فتحتُ ـ بُور: هالك، ضالّ. إن لساني سيخيط ويرتق ويُغلق ما كنتُ أحدثتُ من تمزيق وشروخ وانشعاب حينما كنتُ ضالاً بوراً قبل إسلامي.

٢٣ ـ أباري الشيطان: أُجاريه وأسابقه ـ سَنَن: طريق ـ مَن مالَ ميله: مَن سار على طريقه ـ مثبور: هالك.

٢٤ ـ في رواية أخرى «ثم قلبي»، بدل «ثم نفسي».

٢٥ ـ القرآن الكريم، ج ١٥، ص ١٧ الإسراء: ٨١.

٢٦ ـ القرآن الكريم، ج ٢٢، س ٣٤ سَبَأ: ٤٩.

الأصنام بإشارته وظهور معجزته، حتى قال بعضهم: «والله ما رأينا رجلاً أسحر من محمد».

ثم رفع (ص) رأسه وإذا بالصنم الكبير الطويل بأعلى الكعبة ـ الذي كان يقال له «هُبَل» وكان من نحاس ـ مُوَتَّدٌ بأوتاد[٢٧] من الحديد إلى الأرض، فتوجه إلى أمير المؤمنين علي (ع) وقال له: «أما ترى يا علي هذا الصنم بأعلى الكعبة؟»؛ قال: «بلى يا رسول الله»؛ فقال (ص): تركب على كتفيَّ أو أركب كَتِفَيكَ لنُلقِيَه؟»؛ قال: «بل تركبُ أنت يا رسول الله»؛ فلما انحنى أمير المؤمنين (ع) ووضع النبي (ص) رجلَه على كتفه ليصعد، كادت عظام أمير المؤمنين تتكسر، ولم يستطع حمله لثقل الرسالة؛ فلما شاهد النبي فيه العجز الشديد عن ذلك، أنزل رجله من على كتفه وهو يبتسم ويقول: «لو أن ربيعة مُضَر جَهَدوا أن يحملوا مني بِضعةً وأنا حيٌّ لما قدروا! ولكن قف يا علي»؛ فاستوى أمير المؤمنين (ع)، وضرب النبي بيديه على ساقي علي (ع) فوق القرنوس[٢٨] ضربة اقتلعه بها من الأرض، حاملاً إياه على يديه بأسرع من طرفة عين، حتى بان للملأ بياض إبطيه، ثم وضع قدميه على كتفيه، فلم يحس علي (ع) إلا وقدماه على كتِفَي النبي، وهو (ص) ممسك إياه بساقَيْه[٢٩]؛ ثم استطالا ـ الحاملُ وهو النبي (ص)،

---

٢٧ ـ أوتاد، جمع وَتَد: مسمار من حديد أو رزَّة خَشَب تُدْخَل في الجدار أو الخَشَب.. لتثبيت شيء في الجدار بواسطة الوتد، والفِعل منه: أوتَدَ ـ مُوَتَّد: مُثَبَّت، مُلصَق ومُحكَم.

٢٨ ـ القرنوس: الأرجح أنه القسم البارز.

٢٩ ـ وفي هذه الكرامة التي آختُص بها علي (ع) دون سواه، قال أحد الشعراء:

قال النبيُّ المصطفى سيِّدُنا ... ليلةَ المِعراجِ لَمَّا صَعَدَهْ
وضعَ اللّهُ بِكَتْفي يَدَهُ ... فأحسَّ القلبُ أنْ قد بَرَّدَهْ
وعليٌّ واضعٌ أقدامَهُ ... في مكانٍ وضعَ اللّهُ يَدَهْ

وقوله في البيت «كَتْفي» صحيح، لأن كَتِف (بكسر التاء) وكَتْف (وتبسكينها) كلاهما صحيح.

والمحمولُ وهو الوصي (ع) ـ بقدرة الله سبحانه وإعجازه، وارتفعا حتى صار أمير المؤمنين (ع) وهو فوق مساوياً لسطح الكعبة على علوها، وأشرفَ على الصنم الكبير؛ عندئذٍ ناداه رسول الله (ص) يقول: «ما ترى يا علي؟»؛ قال (ع): «أرى أن الله عزّ وجل قد شرَّفني بك حتى لو أردتُ أن أمَسَّ السماء لَمَسَسْتُها»؛ فأمره بتناول الصنم وقلعه، فلم يزل أمير المؤمنين (ع) يعالجه ويشد فيه يقلع أوتاده، والنبي (ص) يُثنّي ويُقَوي ويترنم قائلاً: «ايه ايه! جاء الحق وزهق الباطل» إلى أن تمكن (ع) منه وقلعه من موضعه، ثم رمى به من أعلى الكعبة المكرمة إلى الأرض، فتكسرت أعضاؤه قطعاً، واهتزت جوانح المشركين برَنَّته أسفاً، لَكأنها انتُزعت منهم الأرواح وصُكَّت منهم الأسماع، وكثيرون منهم يبكون ويصرخون شفقة على آلهتهم وحزناً على ما نزل بمعبودهم، وجعلوا يلتقطون قطعات هُبَلهم وكُسَيرات جسده، وهم لا يستطيعون لإنقاذه حيلة ولا يهتدون سبيلاً سوى الصبر والحنين والحسرة والزفير، والنبي (ص) يقول مستبشراً: «يا علي، زادك الله شرفاً إلى شرفك!»؛ ثم انحسر (ص) من تحت قدمي علي (ع) مسرعاً كخطفة خاطف، فسقط علي (ع) من علوّ مكانه على الأرض برفق وتأنٍّ واستوى قائماً على قدميه، من غير أن يصيبه ألم أو يحس بسوء، فغلبه الضحك. وسأله النبي (ص) عن سبب ضحكه، فقال: «يا رسول الله، سقطتُ من أعلى الكعبة فما أصابني شيء»؛ فقال (ص): «كيف يصيبك شيء وإنما حَمَلك محمد وأنزلك جبرائيل؟».

ثم سأل النبي (ص) عن مفاتيح الكعبة، فقيل له: «إنها عند أم شيبة»؛ فدعا النبي (ص) ابنها شيبة وأمره بإحضارها من عند أمه؛ فلما انطلق شيبة إلى أمه ليأخذ المفاتيح، امتنعت عن تسليمها وأبَتْ ذلك إباءً شديداً، بل وأمرت برجوعه إلى النبي (ص) وأن يقول له: «قتلتَ مُقاتِلينا، وتريد أن تأخذ مَكرُمَتنا؟!»؛ فلما رجع شيبة إلى النبي (ص) وبلغه كلامها، غضب النبي (ص) وأخذ يتهددها بالقتل، وأمر ابنها بتبليغها ذلك، فمضى الغلام وأتى بالمفاتيح، فتناولها رسول الله، ودعا عمر بن الخطاب (رض) وقال

له: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾[30] وكان ذلك القول منه (ص) لِما سبقَ من عمر في سنة الصلح، من الاعتراض على النبي (ص) في قبوله الصلح ورجوعه عن الطريق من غير دخول مكة، مع ما كان قد سبق منه (ص) من وعدِ قومه بالنصر، ودخوله مكة بمن معه آمنين محلقين رؤوسهم من غير خوف، وذلك برؤيا كان (ص) رآها، وبوعد كان قد وعده به ربه، وهو أن يرده إلى مكة. ذلك أنه (ص) حين الهجرة من مكة والفرار من الغار نحو المدينة، توجه إلى مكة وقال مخاطباً إياها: «الله يعلم أني أحبكِ، ولولا أن أهلك أخرجوني عنك، لما آثرتُ عليكِ بلداً ولا ابتغيت بك بدلاً، وإني لمغتم على فراقك»؛ فنزل عليه جبرائيل (ع) بهذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[31] وقال: «يا محمد، العليُّ الأعلى يُقرِئُك السلام ويقول: سنردك إلى هذا البلد ظافراً غانماً سالماً قادراً قاهراً»؛ ولما أخبر النبي (ص) أصحابه بذلك، وبشرهم به في المدينة، واتصل خبره إلى أهل مكة، أخذوا يضحكون عليه ويسخرون منه ويستهزئون بوعده، إلى أن وقع الصلح بينه وبين قريش في السنة السادسة ـ على ما سلف شرحه ـ وانصرف النبي (ص) بعد إحلاله من عمرته من غير دخول مكة؛ فارتاب جمع من أصحابه في وعده، ووعد ربه له بدخول مكة، حتى تقدم إليه يومئذ عمر بعنف وشدة يعترض عليه في ذلك، وأجابه النبي (ص) بقوله: «إني لم أعدكم بدخولها في هذه السنة». فلما كانت السنة الثامنة ودخلها بجموعه وتناول مفاتيح الكعبة، دعا عمرَ وقال له ذلك، دفعاً لارتياب القوم وشكهم في صدق مواعيد الله ورسوله (ص)، ونزل قوله تعالى ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ

---

٣٠ ـ هذا القول من النبي (ص) هو إعادة لقول النبي يوسف (ع) لأبيه يعقوب (ع) بعد تحقق حلمه وسجود إخوته الأحد عشر له، وهو جزء من الآية القرآنية الكريمة (رقم) ١٠٠ من السورة ١٢ سورة يوسف (ج ١٣).

٣١ ـ ج ٢٠، س ٢٨ القصص: ٨٥.

مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾[٣٢].

ثم فتح النبي (ص) الكعبة ـ زادها الله شرفاً وتعظيماً ـ وكان فيها بضعة أصنام لقريش، وتصاوير منها صورتان كانوا قد صوَّروهما لإبراهيم وإسماعيل، فأمر بإخراجها وكسرها حتى الصورتين وهو يقول: «قاتلهم الله! أمَا والله لقد علموا أنهما لم يُستَقْسم بهما قط!».

ثم نزل عليه (ص) قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾[٣٣] فدخل (ص) البيت وصلّى فيه ركعتين إلى أن زالت الشمس[٣٤]، وأمر «بلالاً» فصعد على سطح الكعبة ليؤذّن، فلما رفع صوته بالأذان، تضجرت قريش من ذلك، واشمأزت نفوسهم، ودهشت عقولهم، وأخذوا يتكلمون بينهم؛ فمنهم من قال: «الدخول في بطن الأرض خيرٌ مِن سماع هذا»؛ ومنهم من قال: «الحمد لله الذي لم يُبْقِ والدي حياً لهذا اليوم»؛ وقال عِكْرِمَة بن أبي جَهْل: «واللّهِ إني لأكره أن أسمع صوت ابن رياح ينهق على الكعبة»؛ وأمثال ذلك من الأباطيل. وكان فيهم أبو سفيان، فقال وأعاد: «أما أنا فلا أقول شيئاً! والله لو نطقتُ لَظننتُ أن هذه الجُدُر تُخبر محمداً به».

فلما كمل الأذان، صلى النبي (ص) بجموعه فريضة الظهر، ثم قام فيهم خطيباً، وقال (ص) بعد حمد الله تعالى والثناء الجميل عليه: «أيها الناس، لِيُبلّغ الشاهدُ منكم الغائب، أن الله تبارك وتعالى قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخُرَها بآبائها وعشائرها؛ أيها الناس، إنكم من آدم وآدم من طين، ألَا إن خيرَ عباد الله عبدٌ اتّقاه! ألا وإن خيركم عند الله وأكرمكم عليه، أتقاكم وأطوعكم له؛ ألا وإن العربية ليست بأبٍ والد،

---

٣٢ ـ ج ٢٦، س ٤٨ الفتح: ٢٧.

٣٣ ـ ج ١٥، س ١٧ الإسراء: ٨٠.

٣٤ ـ زالت الشمس: بلغت الزوال، أي الظُهر (في المفهوم الفقهي).

ولكنها لسان ناطق، فمَن قَصَّر به عملُه، لم يُبْلِغْه رضوانَ الله حَسَبُه[٣٥]! ألا وإن كل دم أو مَظْلَمة أو إحْنَة[٣٦] كانت في الجاهلية، فهي تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة».

ثم انصرف (ص)، وأخبره الوحي بتضجر قريش من أذان بلال، وأقاويل أولئك الذين تكلموا بالأباطيل فيه، فبعث إليهم يدعوهم واحداً واحداً، ليتم عليهم الحجة ويعرفهم بالوحي، فحضروا بأجمعهم ما عدا عكرمة، وأخبر النبيُّ (ص) كلاً منهم بما قاله، فازدادوا عجباً بمعرفته وعلمه بهم وبأحديثهم، وأخذوا يعتذرون من ذلك، بل وأسلم بتلك المعجزة بعضهم، ومنهم «عتاب بن أسيد»، فتقدم إليه وقال: «قد واللّهِ قلنا يا رسولَ الله ذلك، فنستغفر الله ونتوب إليه!»؛ ثم أسلمَ وحَسُن إسلامه وهو يومئذ شاب حَدَثُ السن ابن ثماني عشرة سنة، وارتفع مقامه عند رسول الله (ص) حتى ولاّه أميراً على مكة عند مُنصَرَفِه منها إلى المدينة.

ثم إن النبي (ص) بعد اعتراف القوم بأباطيلهم واعتذارهم من أقاويلهم، لم يزدهم إلا الدعاء لهم بقوله (ص): «اللهم اَهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون»؛ ولم يتعرض لهم بسوء. ثم أغلق (ص) باب الكعبة، فتقدم إليه عمه العباس يسأله أن يعطيه مفاتيحها ويودعها عنده، فنزل قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[٣٧]، فدعا شيبة، ورد إليه المفاتيح ليسلمها إلى أمه ويعتذر إليها، فأعجبته مكارم أخلاق النبي (ص)، وعرف ما نزل عليه في ذلك، فأسلم وأقر النبي (ص) المفاتيح في يده.

ثم خرج النبي (ص) نحو جبلَي الصفا والمروة، ورأى على المروة

---

٣٥ ـ الحَسَب: كرامة البيت والنَسَب، مفاخر الآباء. أي أن الحَسَب وكرامة النسب والبيت، لا توصِل إلى رضوان الله إذا كان صاحبهما مقصراً في عمله.

٣٦ ـ الإحْنَة: الحِقْد.

٣٧ ـ ج ٥، س ٤ النساء: ٥٨.

صنماً كبيراً، فتقدم إليه جمعٌ من وجوه قريش وصناديدهم يسألونه راجين متوسلين أن يترك لهم صنمهم ذلك، ولم يزالوا يلحون عليه حتى أخذوه بكثرة حيائه، فأُلهم من ربه تعالى، فخرج (ص) من ضغط حيائه، وأمر به فكسروه وأزالوه، وإليه الإشارة بقوله سبحانه ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[38].

وأما ما كان من أمر عِكْرِمَة بن أبي جهل، فإنه خاف على نفسه ولم يأت إلى النبي (ص) مع من أتى إليه، بل وخرج من مكة هائماً على وجهه هارباً نحو جدة، ثم ركب البحر منها مع جماعة نحو اليمن. فلما بعدوا عن الساحل، خَبَّ[39] بهم البحر حتى أشرفوا على الغرق والهلاك، فأخذوا في الدعاء والتوسل إلى الله سبحانه وهم يقولون: «هذا موضع لا ينفع فيه سوى الله عزّ وجل»؛ ففكر عكرمة بكلامهم واستعاده، وجعل يحدث نفسه ويقول: «هذا إلّه محمد الذي يدعونا إليه»؛ ولم يزل يتفكر في ذلك وتميل نفسه إلى الإسلام وقبول دعوة النبي (ص)، إلى أن قال لقومه: «ارجعوا بنا إلى محمد»؛ فهمُّوا بالرجوع، ولما وصلوا إلى جدة، إذا بأم حكيم ـ زوجة عكرمة ـ على الساحل تُلَوِّح له وتشير إليه أن يرجع إلى البر. وقد كان من قصتها أنها أخذت لزوجها الأمان من رسول الله (ص)، وأن النبي (ص) آمنه بأمان الله، ونادى في قومه أن لا يتعرضوا له بسوء إذا رأوه، ولا يسبُّوا أباه إذا لقوه، فإن سَبَّ الميت يؤذي الحي ولا يبلغ.

ولما انتهى عكرمة إلى الساحل تلقته زوجته ـ وكانت امرأة عاقلة قد آمنت بالنبي (ص) ـ فجعلت تسلي زوجها وتسكن ما في نفسه من الخوف، وتسأله الرجوع إلى مكة وهي تقول له: «يا ابن العم، جئتُكَ من عند أَوْصَل الناس وأبَرِّهم وخيرهم! لا تهلك نفسك، فقد استأمنتُ لك محمداً فأمَّنك»؛ ولم تزل المرأة تلح عليه وهو غير واثق بكلامها ولا هو آمِنٌ على

---

٣٨ ـ ج ١٥، س ١٧ الإسراء: ٧٤.

٣٩ ـ خَبَّ البحر: اضطربَتْ وارتفعت وهاجت أمواجه.

نفسه، وجعل يكرر السؤال عن ذلك بقوله: «أأنتِ فعلتِ ذلك؟»؛ وهي تقول: «نعم، أنا كلمتُه فأمَّنك»؛ إلى أن صدَّق مقالتها وانصرف معها نحو مكة.

وسبقهما الوحي على النبي (ص) يخبره بقدوم عكرمة، فأخبر النبي (ص) بذلك قومه؛ فلما وصلا إلى مكة، دخلت أم حكيم على النبي (ص) متنقبة بحجابها، تخبره بقدوم زوجها عكرمة، وتستأذنه في دخوله عليه، فاستبشر النبي (ص) وأذن له في ذلك، فلما دخل رحَّب به النبي (ص) ترحيباً أزال ما به من شديد الخوف وسكن روعه، ولكنه دهش عجباً من حسن خلق النبي (ص) ومكارمه وصفاته ومختلف حالاته، وجعل يسأل النبي (ص) عن صدق مقالة زوجته وإخبارها بالأمان له، والنبي (ص) يجيبه بقوله: «نعم صَدَقَت، فأنت آمِن»؛ إلى أن قال: «أشهد أن لا إله إلا اللّهُ وحده لا شريكَ له، وأنَّكَ عبدُهُ ورسُوله، وأنك أبَرُّ الناس وأوفَى الناس»، وهو في كل ذلك قد طأطأ رأسه ولا يرفع طرفه إلى النبي (ص) حياء منه، وخجلاً مما سبق منه من السؤال والجهالة، إلى أن قال: «يا رسول الله، استغفِر لي كلَّ عداوة عادَيْتُكَها، أو مركبٍ أوضعتُ فيه (أي أسرعت فيه) أريد به إظهارَ الشِرك»؛ فرفع النبي (ص) رأسه يقول: «اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها، أو منطق تكلم به، أو مركب أوضع فيه يريد أن يصد عن سبيلك!»؛ فاستبشر عكرمة كثيراً، وقال وهو ظاهر السعادة والإخلاص والصدق في قوله: «يا رسول الله، مُرْني بخيرِ ما تعلم فأعمله»؛ فأمره النبي (ص) بالشهادتين والجهاد في سبيل الله، فقال: «أمَا واللّهِ لا أدعُ نفقةً كنتُ أنفقتُها في الصدِّ عن سبيل الله، إلا وأنفقت ضِعفَها في سبيل الله، وكذا القتال في سبيل الله»؛ ثم انصرف بزوجته مسرورين، وحَسُنَ إسلامه، ولم يزل يجاهد في كل غزوة مع النبي (ص) بل وبعد وفاته، إلى أن قُتِل في خلافة أبي بكر (رض).

ثم إن النبي (ص) قام خطيباً على «الصفا» في جموعه يقول: «يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب، إني رسولُ الله إليكم، وإني شفيق عليكم، لا تقولوا إن محمداً منا، فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلا المتقون،

فلا أعرفكم إن تأتوني يوم القيامة تحملون الدنيا على رقابكم، ويأتي الناس يحملون الآخرة، ألاَ وإني قد أعذَرْتُ في ما بيني وبينكم، وإن لي عملي ولكم عملكم». وأخذ الناس يأتونه أفواجاً أفواجاً يبايعونه ويؤمنون به، وأتته القبائل جموعاً جموعاً يدخلون في الإسلام بأسرهم بعد أن كانوا يدخلون فيه فرداً فرداً، ونزل الوحي عليه (ص) بسورة «النصر»، وهي قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا، ! فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[40] وبها نَعى الوحيُ إلى النبي (ص) نفسه، وقد عاش بعدها سنتين لم يُرَ فيهما ضاحكاً، ولم يزل بعد نزولها في سائر أوقاته وحركاته وسكناته يسبح ربه ويستغره.

ثم أتت إليه النساء ليُبايعْنَه وهو على «الصفا»، وأمير المؤمنين علي (ع) أسفل منه بدرجة، فدعا (ص) بقدح ماء، فغمس يده فيه ثم أخرجها، وأمَرهُنَّ بأن يفعلن مثل ذلك، إذ هكذا تكون البيعة من المرأة غيرِ المَحْرَم، وقال (ص): «إني لا أصافح النساء»، ولم تمس يده (ص) امراة أجنبية عنه قط مدة حياته. وأنزل الله عليه حينئذ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[41] فقرأه النبي عليهن، وفيهن يومئذ «هِند» ـ أم معاوية بن أبي سفيان ـ متنقبة[42] متنكرة، حذراً من أن يعرفها رسول الله (ص)[43] فلما سمعت قوله تعالى «ولا يأتين

---

٤٠ ـ ج ٣٠، ص ١١٠ النصر: ١ ـ ٣.

٤١ ـ ج ٢٨، س ٦٠ المُمْتَحنة: ١٢.

٤٢ ـ مُتَنقِّبَة: لابسة النِقاب، أي الحجاب،.. الغطاء.

٤٣ ـ جاء في بعض الروايات أن هنداً حين سمعت من الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ قالت: «أوَتزني الحُرة؟»؛ فتبسم من قولها أحد السامعين وكان على صلة بها قبل إسلامهما.

ببهتان[44].. ولا يعصينك.. الخ» قالت: «والله إن البُهتان لقَبيح! وما تأمرنا إلا بالرُشْد ومَكارم الأخلاق، وما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيَكَ في شيء». وسألته زوجة عكرمة قائلة: «يا رسول الله، ما ذلك المعروفُ الذي أمَرَنا الله أن لا نعصيَكَ فيه؟»؛ فقال (ص): «لا تَلطِمَنَّ خداً، ولا تَخمِشَنَّ وجهاً، ولا تَنتِفَنَّ شعراً، ولا تَشقُقَنَّ جيباً، ولا تُسَوِّدَنَّ ثوباً، ولا تَدْعِيَنَّ بِوَيْل».

ثم أقبل إلى النبي (ص) عبد الله بن أبي أمَيَّة وسلّم عليه، فأعرض عنه النبي (ص) ولم يجبه بشيء، فمضى إلى أخته «أم سلمة» ـ وهي يومئذ زوجة رسول الله (ص) ـ وأخذ يشكو إليها من أن النبي (ص) لم يَقْبَلْه وقد قَبِل غيره، فجعلَتْ أم سلمة تتوسل بالنبي بعد دخولها عليه في العفو عن أخيها وقبول إسلامه، فقال (ص): «يا أمَّ سلمة، إن أخاكِ كذَّبَني تكذيباً لم يكذِّبني أحدٌ مثله، وهو الذي كان يقول: **لن نُؤمنَ لكَ حتى تفْجُر لنا من الأرض يَنبوعاً أو يَكونَ لكَ بيتٌ من زُخْرُفٍ أو تَرْقَى في السماء ولن نؤمن لِرُقِيِّكَ حتى تُنْزِل علينا كتاباً نَقرأُه**»[45]؛ فقالت: «بأبي أنتَ وأمي، ألم تَقُل إن الإِسلام يَجُبُّ ما قبلَه؟»؛ ولم تزل تلح على النبي (ص) حتى عفا عن أخيها وقبِلَ إسلامه.

ولم يزل سائر الناس يأتون إليه (ص) يبايعونه على الإسلام، إلى أن تمت البيعة في مكة، وأقر مفاتيح الكعبة بيد شيبة، وسقاية الحاج لعمه العباس بن عبد المطلب، فجعل كلٌّ منهما يفتخر على صاحبه بما بيده، إلى أن مرَّ عليهما أمير المؤمنين (ع) وسمع مقالتهما وتَفاخُرَهما، فاعترضهما بقوله (ع): «أنا سيدكما وسيد أهل الأرض بعد رسول الله؛ أنا الذي ضربتُ حتى آمنتما وأقررتما أن محمداً رسول الله»؛ فغضبا، وأقبلا إلى

---

٤٤ ـ البُهتان: الكذب.

٤٥ ـ هذا القول من أُمية مذكور في القرآن الكريم، ج ١٥، س ١٧ الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣.

النبي (ص) يشكوان علياً (ع)، فنزل جبرائيل بهذه الآية ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾[٤٦] ثم قال: «يا محمد، عليٌّ خيرٌ منهما!». فسكت الرجلان، وأذعنا بأفضلية أمير المؤمنين (ع).

ثم أخذ النبي (ص) يبعث الوفود والسرايا إلى القبائل حول مكة، يدعونهم إلى الإسلام من غير حرب ولا قتال؛ فبعث غالب بن عبد الله إلى «بني مُدْلِج»، وبعث عمرو بن أمية إلى «بني الدئل»[٤٧]، وبعث عبد الله بن سليمان إلى «بني محارب»، وبعث عمرو بن العاص إلى «هُذَيل» ليهدم صنمهم «سُواع»، وبعث سعد بن زيد في عشرين نسمة إلى «المُشَلَّل»[٤٨] ليهدموا الصنَمَ «مَناة»، وكان للأوْس والخَزْرَج، وبعث خالد بن الوليد في ثلاثين رجلاً ليهدم صنماً آخر لهم اسمه «العُزَّى» كان أعظم أصنامهم، وكان ببطن نخلة[٤٩]، وسَدَنَتُه[٥٠] يومئذ «بنو شيبان» من «بني كنانة»؛ فكانت القبائل منها مَن تتقبل الإسلام وتلبي الدعوة وتأتي إلى رسول الله (ص) للبيعة والدخول في الدين، ومنها مَن تأبى ذلك، ولكن النبي (ص) لم يتعرض للأخيرين بشيء.

ثم بعث (ص) خالد بن الوليد وعبد الرحمان بن عوف إلى حي «بني المصطلق» وبعث معهما سرية، فلما انتهى خالد بمن معه إليهم، خرجوا إليه يتلقونه وعليهم السلاح وهم يقولون: «يا خالد، إنا لم نأخذ السلاح على الله ورسوله ونحن مسلمون، فانظر فإن بعثك رسولُ الله لنا عيناً فهذه

---

٤٦ - ج ١٠، س ٩ التوبة: ١٩.

٤٧ - كذا في المتن، والاسم نفسه في المصادر عامة مُلَيَّن: بنو الدِّيل.

٤٨ - المُشلَّل: اسم موقع كان للأوس والخزرج، وفيه كان الصنم «مناة».

٤٩ - نخلة، اسم مكان، وقوله «بطن» نخلة، يرجح أنه كان وادياً أو منحَدَراً.

٥٠ - السَّدَنَة (جمع سادن): المُتَوَلُّون خدمة مقام عبادة أو ضريح (وما شابه) وإدارة شؤونه.

إبلُنا وغنمُنا فاْغْدُ عليها»؛ قال: «ضعوا السلاح»؛ قالوا: «نخاف منك أن تأخذنا بإحْنَةِ[٥١] الجاهلية، وقد أماتها الله ورسوله»[٥٢]؛ وكان بينه وبين القوم شِرَّة[٥٣] وضغائن قديمة»، ـ (إذ كانوا قد أصابوا نسوة من «بني المغيرة»، وقتلوا عم خالد ووالد عبد الرحمان) ـ فاحتال عليهم خالد وأعطاهم الأمان، وكتب لهم كتاباً بذلك، فتفرقوا. ثم حلَّ وقت الصلاة، فنادى منادي خالد بالصلاة، فاجتمعوا وصلُّوا وانصرفوا.

ولما كان الغد، نادى المنادي أيضاً لصلاة الفجر، فاجتمع القوم ثانية وقد وضعوا سلاحهم آمنين، فَغَدَرَ بهم خالد، وأمر مَن معه فشنُّوا حملة على القوم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا الباقين وكتفوهم وجاؤوا بهم إليه، فأمر أصحابه أن يقتل كلٌّ منهم أسيره فقتلوه ولم ينجُ إلا أفراد قلائل تمكنوا من الهرب، وجاء رسول منهم إلى النبي (ص) يخبره بفعل خالد فيهم، وأراه كتاب الأمان منه، فغضب النبي (ص) غضباً شديداً، وتأثَّر تأثراً بالغاً حتى انهملت عيناه بالدموع يبكي، ورفع يديه (ص) إلى السماء قائلاً ومُكرِّراً: «اللهم إني أبرأ إليك من ما فعلَ خالد! اللهم إني أبرأ إليك من ما فعل خالد!»؛ ثم دعا عليًا أمير المؤمنين (ع)، وأعطاه سَفَطاً[٥٤] من ذهب، وبعثه إلى الحي ليسترجع من خالد أموالهم التي نهبها منهم ويردها عليهم، ويستنقذ نساءهم اللواتي سباهن، ويعذل خالداً على صنيعه، ويعوض على الحي دِيَةَ المقتولين منهم من الذهب الذي معه؛ فمضى أمير المؤمنين، وفعل كل ما أمره النبي به، وردَّ عليهم كل أموالهم ـ حتى الإناء الذي يَلِغُ فيه الكلب ـ وأدَّى دِيَةَ كل مقتول منهم، حتى اعترفوا بأنه لم يبق

---

٥١ ـ إحْنة: حِقد، كيد ونيّة ثأر.

٥٢ ـ أمات الإسلام إحن الجاهلية وثاراتها، أي أمر أن تُعتَبَر كأنها لم تَحْدُث ولم تكن.

٥٣ ـ الشِرَّة: اسم المرة من الشَرّ، أي حادثة شر.

٥٤ ـ السَفَط: وعاء كالسلة أو القفة.

منها باقية؛ وفَضَل[55] معه من الذهب فضلة فدفعها أيضاً لهم، ليرضوا عن رسول الله وتداركاً لِرَوْعِ نسائهم وفَزَعِ صبيانهم. ثم رجع (ع) إلى النبي (ص) وأخبره بكل ذلك فسُرَّ النبي كثيراً وقال: «يا عليّ، أعطيتَهم ليَرضَوا عني، رضي الله عنك! فقد أرضيتني؛ يا علي، إنَّما أنتَ مني بمنزلةِ هارون من موسى، إلا أنه لا نبيَّ بعدي؛ يا علي أصَبْتَ وأحسنتَ، أنت هادي أمتي! إن السعيد كل السعيد مَن أحبك وأخذ بطريقتك، وإن الشقيَّ كل الشقيِ مَن خالفك ورغب عن طريقك إلى يوم القيامة؛ والله لا يَسُرُّني يا علي أنَّ لي بَدَلاً عما صنعتَ حُمْرَ النَعَم»[56].

ثم إن النبي بعدما استوثقَتْ له مكة واستتم له الأمر فيها وفي نواحيها، همَّ بالرجوع إلى المدينة، ودعا عَتَّاب بن أسيد ـ وكان غلاماً ابن ثماني عشرة سنة ـ فجعله أميراً على أهل مكة، وكتب له بذلك عهداً يقول فيه:

«من محمد رسول الله، إلى جيرانِ بيت الله وسُكان حَرَم الله: أما بعد، فمَن كان منكم بالله مؤمناً، وبمحمد رسوله في أقواله مُصدِّقاً وفي أفعاله مُصَوِّباً، ولعليٍّ أخي محمدٍ ووصيِّهِ وخيرِ خلق الله بعدَه موالياً، فهو منا والينا؛ ومَن كان لذلك أو لشيء منه مخالفاً، فسُحْقاً وبُعْداً لأصحاب السعير، لا يقبل الله شيئاً من أعماله، ومن عَظَّمَ وكَبُرَ يصليه نار جهنم خالداً فيها مخلداً أبداً. وقد قلَّد محمدٌ رسولُ الله عَتَّابَ بن أسِيد أحكامَكم ومصالحكم وفوَّضَ إليه تنبيهَ غافِلِكم، وتعليمَ جاهلكم، وتقويمَ أَوَدِ[57] مُضْطَرِبِكم، وتأديبَ مَن زال عن أدب الله منكم، لِما علم مِن فضله عليكم

---

٥٥ ـ فَضَلَ: زادَ.

٥٦ ـ النَعَم (بفتح النون، جمع نَعمة): نَعْتٌ للحيوانات ذات الخير والبركات، من لبن وزبد ولحم وجِلد، مثل الإبل (خاصة) والبقر والغنم...؛ وفي الإبل منها خاصة نوع نادر بجودته الفائقة وهو أحمر اللون، لذا غَدَت الإبل الحُمْر مضرب المثل في النفاسة وغلاء الأثمان، فيقال (كما جاء في المتن): أغلى من حُمْرِ النَعَم.

٥٧ ـ أوَد: اعوجاج ـ تقويم الأَوَد: إصلاح الاعوجاج، وجعله قويماً مستقيماً.

في موالاة محمد رسول الله، ومن رجحانه في الحب لعلي وليّ الله، فهو لنا خادم، وفي الله أخ، ولأوليائنا مُوالٍ، ولأعدائنا مُعادٍ، وهو لكم سماءٌ ظليلة، وأرض زكية، وشمس مضيئة، قد فضَّله الله على كافتكم بفضل موالاته ومحبته لمحمد وعلي والطيبين من آلهما، وحكَّمه عليكم يَعملُ بما يريد. . . فليطمعِ المطيعُ منكم بحسن معاملته شريفَ الجزاء وعظيم الحِباء[٥٨]. ولْيَتَوَقَّ المخالفُ له شديدَ العذاب وغضَبَ الملكِ العزيز الغلاّب، ولا يَحتجَّ مَحتجٌّ منكم في مخالفته بصِغَر سِنّه، فليس الأكبُر هو الافضل، بل الأفضلُ هو الاكبرُ، وهو الاكبُر في موالاتنا وموالاةِ أوليائنا ومعاداة أعدائنا، فلذلك جعلناه الأميرَ عليكم، والرئيس عليكم، فمن أطاعه فمرحباً به، ومن خالفه فلا يبعد الله غيره».

ثم طوى الكتاب وناوله لعتَّاب، فأخذه عتاب وانطلق به إلى مجمع قريش، ووقف فيهم موقفاً ظاهراً، ثم نادى فيهم وأعاد حتى اجتمعوا عنده، فأخبرهم بإمارة النبي (ص) له، وقرأ عليهم الكتاب، ثم قال:

«معاشر أهل مكة، إن رسول الله رماني بكم شهاباً مُحرقاً لِمُنافقكم، ورحمةً وبركة على مؤمنكم، وإني أعلمُ الناس بكم وبمنافقكم. . . وبعدُ، إن الصدق أمانة، والفجور خيانة، ولن تشيع الفاحشة في قوم إلا ضربهم الله بالذل؛ قويُّكم عندي ضعيف حتى آخذَ منه الحق، وضعيفكم معي قويٌّ حتى آخذ له الحق! اتقوا الله وشَرِّفوا بطاعة الله أنفسَكم، ولا تَذِلوا بمخالفة ربكم».

فلما أَنْهَى خطابه وانصرف، تفرق الناس، وظهر أن المنافقين استاؤوا من تأمير شابٍّ حَدَثٍ عليهم، وأخذوا يتحادثون بينهم قائلين: إن محمداً لا يزال يستخف بنا حتى ولّى علينا غلاماً حَدَثَ السن ابن ثماني عشرة سنة، ونحن مشايخُ ذوي الاسنان، وجيرانُ حرمِ الله الآمن وخيرِ بقعة على وجه

---

٥٨ ـ الحِباء: العطاء والخير.

الأرض» ولكن عَتَّاباً ظلَّ أميراً عليهم، ولم يزل يعدل وينصف بينهم، وينفذ الاحكام فيهم مهتدياً بهَدْي الله ورسوله كما أمره النبي (ص)، حتى أذعن له الصغير والكبير، وخضع له الوضيع والشريف، وصوَّبوا النبي وشكروه في تأميره عليهم.

ثم إن النبي (ص) عزم على العودة إلى المدينة، فلما همَّ بالخروج مع جموعه من المهاجرين والانصار من مكة، بلغه ان رجال قبيلة «هوازن» قد اجتمعوا بوادي «أوطاس» ـ على ثلاث مراحل من مكة ـ لقتاله، فتوقف عن المسير إلى المدينة، استعداداً للقاء القوم، وكان ذاك اللقاء بعدئذٍ في غزوة «حُنَيْن».

غزوة حُنَيْن

لما خرج النبي (ص) لفتح مكة وبلغ الخبر قبيلة «هوازن»، ظنوا أنه قاصد ديارهم، وأنه لم يخرج إلا لقتالهم، فلما رَأوا بعدُ أنه كان يقصد مكة، وقد فتحها وهي مركز القوة الاكبر ضده، وأسلم أهلها وازداد جيشه وأنصاره وقوته، قدَّروا أنه سيغزوهم حتماً بعد مكة، وجعلوا يتداولون في امرهم، فرأوا ان يهاجموه هم قبل أن يهاجمهم هو، واجتمع رؤساؤهم عند «مالكِ بن عَوف» من بني «نَصر» ـ وكان شاباً ذا عنفوان ـ وبعد التداول والبحث معه، رضوا به أميراً عليهم، وجعلوه قائداً لهم ولأتباعهم في الحرب، ثم تفرقوا واستعدوا للخروج إلى قتال النبي.

ولما جمعوا جموعهم وأسلحتهم وأطعمتهم وعُدَدَهم، خرجوا وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وذراريهم بأمر من مالك بن عوف، ليقاتل كلُّ امرىءٍ عن نفسه وأهله وماله، وانضم إليهم قبيلة «ثقيف» ومن قبائل قيْس عَيْلان «نَصْر» و«جُشَم» وبعض من قبائل أخرى، حتى تكاملوا آلافاً مؤلفة.

وأخرجوا معهم «دُرَيد بن الصِّمة» كبير قبيلة جشم ـ وكان شيخاً كبيراً قد ذهب بصره من الكبر ـ فاصطحبوه معهم يَتَيمَّنون[1] به ويرجعون إلى رأيه، إلى أن نزلوا بأَوْطاس[2]، فلمس دريد الأرض بيده وسأل قومه: «بأي وادٍ

---

١ ـ يَتَيمَّنون: يتأملون اليُمْن والتوفيق ويتفاءلون بالخير بوجوده معهم.

٢ ـ «أوطاس» اسم الوادي الذي وقعت فيه معركة حنين، وكان في ديار قبيلة هوازن، وقد قال الرسول (ص) حين حميت المعركة بينه وبين المسلمين والمشركين: «الآن حمِيَ الوطيس» ولعلها من يومها ذهبت مثلاً!

أنتم»؟، قالوا: «بأوطاس»، فاستحسنها لمجال الخيل، وأنها ليست بخشنة ولا لينة سهلة. ثم سمع نهيق الحمير وخُوار البقر وثُغاء الشاء وبكاء الاطفال وصريخ الرُضَّع، وسأل عنها، فأخبروه بأمر مالك بأن يسوقوها مع العساكر والجموع، فاستاء من رأي مالك وقال فيه: «راعي ضَأنٍ وربِّ الكعبة! ما له وللحرب؟!»؛ ثم دعَاه وسأله عن ذلك، فقال مالك: «سقتُ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ليجعل كلُّ رجل اهلَه ومالَه وراء ظهره، فيكون اشد لحربه»؛ قال دريد: «يا مالك، إنك اصبحت رئيس قوم، وإنك تقاتل رجلاً كريماً، وإن هذا يوم كان له ما بعده من الأيام! ويحك لمْ تصنع شيئاً، قدَّمتَ بيضة هوازن إلى نحور الخيل، وهل يَرُدُّ وجهَ المنهزم شيء؟ وهل يَلْوي على شيء؟ أرْدُدْ بيضة هوازن إلى عليا بلادهم ومُمتَنَع مَحَّالهِمُ وألْقَ الرجال على متون الخيل، فإنها إن كانت لك، لم ينفعك إلا الرجَلُ بسيفه ورمحه وفرسه، ولحق بك مَن وراءَك، وإن كان عليك، تكون قد فُضِحتَ في أهلك وعيالك»؛ فقال له مالك: «إنك قد كَبُرتَ وضَعُفَ عقلك»؛ قال: «إن كنتُ قد كبرتُ فأنت تورِث غداً قومك ذلاً بتقصير رأيك وعقلك؛ هذا يوم لم اشهده ولم اغب عنه»، ثم سأل عن قبيلتي «كعب» و«كلاب»، فقيل له: «لم يحضر منهم أحد»؛ فقال: «غاب الجِدُّ والحزم، لو كان يومَ عَلاءٍ وسعادة ما كانوا يغيبون»، ثم سأل عن مَن حضر مِن هوازن، فقيل له: «عَمْرو وعَوف ابنا عامر»، فقال: «ذانِكَ الجَذَعانِ[٣]، لا ينفعان ولا يضران!».

وأما ما كان من أمر النبي (ص) فإنه بعد بلوغه اجتماع هوازن بأوطاس، نادى مناديه في قبائل المسلمين حتى اجتمعوا، فخطبهم خطبة يرغبهم بها في الجهاد وبَعِدُهم النصر، وأخبرهم ان الله قد وعده أن يُغْنِمَه أموال أولئك الكفار ونساءهم وذراريهم، فرغب الناس في الجهاد، وأجابوه إلى ذلك.

---

٣ ـ الجَذَع: الفتى الحَدَث، الشابّ (غير الناضج).

وبلغه أن «صفوان بن أمية»[٤] عنده مئة درع، فدعاه وسأله الدروع، فقال: «أَغَصْباً يا محمد؟»؛ قال (ص): : «لا، ولكن عارية مضمونة»؛ فأجابه الرجل إلى ذلك وأتى بها إليه، ففرقها النبي (ص) على المسلمين، واستعدوا للقتال. ثم أمر (ص) كل مَن كان حاملَ رايةٍ عند دخول مكة، أن يحملها ويخرج بها في جموعه، وعَقَدَ اللواء الأكبر ودفعه إلى أمير المؤمنين علي (ع).

وتجمع المقاتلون خارج مكة وتعدادُهم عشرة آلاف من المسلمين قبل الفتح، ولحقهم من أهالي مكة الذين أسلموا بعد الفتح، ألفٌ من «بني سُلَيم» يقدمهم عباس السُلَمي، وألف من «مُزَيْنَة»، حتى تكاملوا اثني عشر ألفاً، ففرحوا بعُدَّتهم وعَدَدهم وخيلهم وأسلحتهم، ووثق اكثرهم بالنصر بفضل قوتهم (لا بفضل الله)، حتى قال بعضهم[٥]: «لن يغلبنا اليوم عدو» وأصيب المسلمون عامةً بالزهو الغرور، فسار بهم النبي إلى أن كانوا من هوازن على مسيرة ليلة، فنزلوا هناك.

وبعث النبي (ص) عبد الله بن أبي حَدْرَد عَيْناً عنه إلى مقاتلي هوازن وانصارهم، ليطّلع على قوتهم ونواياهم، فلما انتهى إليهم سمعَ مالكَ بن عوف يقول: «يا معشر هوازن، إنكم أَحَدُّ العرب، وأَعَدُّهم، وإن هذا الرجل (يعني النبي) لم يَلْقَ قوماً يَصْدِقونه القتال، فإذا لِقيتموه فاكسروا جُفوَن سيوفكم[٦] واحملوا عليه حملةَ رجلٍ واحد، ولْيجعلْ كلُّ رجل منكم أهلَه ومالَه خلفَ ظهره، واكْمُنوا في شِعاب هذا الوادي وفي الشجر، فإذا

---

٤ ـ صفوان بن أمية هذا كان ما زال مشركاً (في الفترة التي أمهَلَ فيها النبيُّ الناس، كما جاء في بعض المصادر) وقد أسلمَ بعدُ وحَسُنَ إسلامه.

٥ ـ تختلف كتب السيرة والمصادر في مَن قال هذا القول، فنسبه البعض إلى أبي بكر (رض)، ونَسَبه الغير إلى سواه، وقال ابن الأثير في الكامل إن صاحب هذا القول كان النبي (ص) نفسه، وهذا الغرور والاعتداد بقوة مستبعَد من الرسول (ص)، ونسبه الآخرون إلى بعض الأنصار إلا أن ابن الأثير نفسه يعود فيقول: «وقيل إنما قالها رجل من بكر» (الكامل ٢: ٢٦٢).

٦ ـ جفون السيوف: أغمادها، بيوتها.

كان غَلَسُ[7] الصبح، فأحمِلوا حملة رجل واحد، وهدُّوا القوم، فإن محمداً لم يَلْقَ أحداً يُحسِن الحرب»، فرجع عبد الله إلى النبي وأخبره بذلك، فكذَّبه عمر بن الخطاب وقال: يا رسول الله، لا تسمع إلى ما يقوله ابن أبي حَدْرَد»، فرد عليه النبي (ص) قائلاً: : «يا عمر، قد كنتَ ضالا فهداك الله، وابن أبي حَدْرَد صادق».

ثم لما انشق عمود الصبح، صلى النبي بأصحابه الغداة، ثم انحدر بهم في وادي حُنَين[8] الذي كان له انحدار بعيد، والمشركون قد كَمَنوا حينئذ في شِعابه ومَضايقِه، وبأيديهم السيوف، والعُمُد[9] والقُنِيُّ[10]، وكانت ليلة ظلماء، فأحاطوا بالنبي وجموعه، وشدوا عليهم بالكتائب من كل ناحية قتلاً وضرباً وطَعْناً فلم يثبت المسلمون إلا قليلا، وما لبثوا أن انهزموا في الشِعاب يميناً وشمالا كأنهم الجراد المنتشر، وتفرقوا أيدي سبا على رؤوس الجبال والتلال، وقد غارت العيون منهم في الاحداق، وذهلت العقول، وطارت الأرواح، وهم يمرون في هزيمتهم على رسول الله (ص)، لا يلوون على شيء، وهو يناديهم برفيع صوته يا معشر الأنصار، إلى أين تِفرُّون؟ أنا رسول الله! إليَّ! فلا يجيبه مجيب، ولا يرد عليه أحد، وإليه الاشارة بقوله سبحانه ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾»[11].

وكان العباس بن عبد المطلب ينادي فيهم بأمر النبي (ص) ـ وكان

---

٧ ـ الغَلَس: آخر الظلام قبل الصبح.

٨ ـ حُنَين: وادٍ في بلاد الحجاز، بين مكة والطائف.

٩ ـ العُمُد: جمع «العَمود».

١٠ ـ القُنِيُّ (بضم القاف وكسر النون والياء المشددة): جمع «القناة»: الرُمْح، أو عودُهُ.

١١ ـ القرآن الكريم، الجزء ١٠، السورة ٩ التوبة: الآية ٢٥.

جَهْوَرِيَّ الصوتَ ـ يقول: «يا أهل بَيْعَةِ الشجرة، يا اصحابَ سورة البقرة، إلى أين تفرون؟ اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسول الله»؛ وقامت نسيبة بنت كَعْب المازِنية تحثو التراب في وجوههم وتقول: «إلى أين تفرون عن الله وعن رسوله؟»؛ ورأت عمر بن الخطاب منهزماً، فاعترضته وصاحت به تقول: «ويلك! ما هذا الذي صنعَت»، فقال: «هذا أمر الله» وولى مدبراً مع المنهزمين.

ولم يثبت مع النبي (ص) يومئذ إلا عشرة أشخاص، تسعة منهم من بني هاشم، والعاشر غير الهاشمي أيمنُ بن عُبيد الخزرجي (الأخ الأكبر لأسامة بن زيد من أمه أم ايمن)؛ أما التسعة الهاشميون فأولهم أمير المؤمنين علي(ع) وقد شهر سيفه يُذُبُّ به عن النبي (ص) يميناً وشمالا يدور حوله، ويقاتل المشركين يَمَنةً ويسرةً وأماماً وخَلفاً؛ واما الثمانية الباقون، وهم عباس بن عبد المطلب وابنه الفضل، وابن أخيه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ونوفل وربيعة ابنا الحارث، وعبد الله بن الزبير، وعتبة ومعتّب ابنا أبي لهب، وأيمن[12]، فقد احاطوا ببغلة النبي، آخذين بذمامها وممسكين سرجها، حفظاً من نفورها، وفي ذلك أنشأ مالكُ بن عُبادة الاندلسي قوله:

لم يُواسِ النبيَّ غيرُ بني ها ... شم عند السيوف يومَ حُنَينْ
هرب الناسُ غير تسعةِ رهطٍ ... فهُمُ يهتفون بالناس: أيَنْ
ثم قاموا مع النبي على المَوْ ... تِ فآتوا زَيناً لنا غيرَ شَيْن
وسِوَى «أيمنَ» الأمينِ منَ الـ ... قومِ شهيداً فاعتاضَ قُرَّةَ عَين[13]

---

١٢ ـ في المصادر بعض الاختلاف في أسماء التسعة الهاشميين، ولكن فيها إجماع على أسماء علي (ع) والعباس وابنه الفضل، وأبي سفيان بن الحارث وابنه ربيعة، وعبد الله بن الزبير وعتبة ومعتب ابني أبي لهب.

١٣ ـ لم يُواس النبي سوى تسعه رهط من بني هاشم وسوى أيمن (بن عُبيد الخزرجي).

وَأنشأ العباسِ بن عبد المطلب (رض) قوله:

نَصَرْنا رسولَ اللّهِ في الحربِ تسعة وقد فَرَّ مَن قد فَّر عنه فَأقْشَعُوا[14]
وقَولي إذا ما الفضلُ، شدَّ بسيفه على القوم أخرى: يا بُنّي لِيَرجعوا
وعاشِرُنا لاقَى الحِمامَ بنفسه لِمـا نـالَـهُ فـي الله مـا يَـتَـوَجَّـعُ

ولقي معاويةُ بن أبي سفيان أباه في المنهزمين، فلحقه في الهزيمة وهو يعتب عليه قائلاً له: «يا ابن حرب، ما صبرتَ مع ابن عمك، ولا قاتلت عن دينك، ولا كففت هؤلاء الاعراب عن حريمك»، وهو يصدقه في مقاله.

وأخيراً استولى الغضب الشديد على النبي (ص) من فرار قومه ونقضهم لعهده، فنهض قائماً على قدميه في ركابي بغلته، وصار وجهه يتلألأ نوراً وضوءاً كالقمر ليلة البدر، ورفع يديه نحو السماء يدعو ربه وهو يقول: «اللهم إني أُنشِدُكَ ما وعدتَني؛ اللهمّ لا ينبغي لهم أن يَظهَروا[15] علينا»؛ ثم تناول كفّاً من حَصَى ورماه في وجوه المشركين وهو يقول «شاهت[16] الوجوه»، ثم قال (ص): : «اللهم إن تَهْلَكْ هذه العصابة لم تُعْبَد. اللهم لك الحمدُ وإليكَ المشتكَى وأنت المُستَعان»؛ فنزل عليه جبرائيل (ع) يقول: «يا رسول الله، دَعَوتَ بما دعا به موسى ففلق الله به البحر له ونجّاه من فرعون»؛ ثم بشره باجابة دعوته، ونزول الملائكة من السماء لنصرته، فاستبشر (ص)، وجعل ينادي المنهزمين برفيع صوته حتى اسمعهم عن آخرهم، يلومهم على الهزيمة، ويحرضهم على الرجوع، ويعدهم النصر، ويبشرهم بنزول الملائكة من السماء، ويقول في بعض كلامه «يا أصحاب البيعة يوم الحُدَيبيَّةُ، اللّهَ اللّهَ في الكرة على نبيكم! يا أنصارَ الله وأنصار رسوله، يا بنَي الخَزْرَج».

---

١٤ ـ أَقْشَعُوا: تفرقوا، تخلوا (عنه).

١٥ ـ يَظهَرُوا: يتغلّبوا، ينتصروا.

١٦ ـ شاهَت: قَبُحَت، صارت شوهاء، أو مشوهة، أي معطوبة.

ولم يزل النبي (ص) رافعاً صوته بالنداء، حتى أجابه جمع من المسلمين، ورموا بأنفسهم على الأرض يقولون «لَبَّيكَ لبيك يا رسول الله»، وانحدروا نحو الوادي وكسروا جفون سيوفهم وقد غلب عليهم الحياء من رسول الله، إلى درجة أنهم حين مروا عليه منصرفين نحو الراية المرفوعة في ساحة القتال ليجاهدوا تحتها، لم يكلموه ولم يرجعوا إليه خجلا منه، وسأل عنهم النبي (ص) فأجابه العباس: «ان هؤلاء الانصار»، ففرح النبي وقال: «الآن حَمِيَ الوطيس، ونزل النصر من السماء!».

ثم انتهوا إلى الراية وكانت بيد أمير المؤمنين (ع) وهو يجاهد المشركين ويحمل وحده على ألوف منهم، يمنةً ويسرة وجناحاً وقلباً، ثابتَ الجأش عظيم المراس كالليث الغضوب، يخطف رؤوسهم ويفرق جموعهم ويشتت صفوفهم، إلى أن برز إليه أحد ابطالهم ـ وكُنْيَته «أبو جَرْوَل» ـ عَلى جَمَلٍ أحمر، وبيده راية سوداء في رأس رمح طويل، وهو يقول:

أنا أبو جَرْوَلَ لا بَراحْ حتى نُبيحَ القومَ أو نُباحْ

فصمد إليه أمير المؤمنين (ع) وضرب عَجُز بعيره فصرعه، ثم ضربه هو ضربة ألقاه بها على قفاه وقطعه نصفين وهو يقول:

قد علمَ القومُ لَدَى الصباح أني لَدَى الهَيْجاءِ ذو نِصاح

وبان الانكسار بقتله في المشركين، وظهر عليهم الخذلان، فعند ذلك التأم المسلمون، وعطفوا بأجمعهم فهاجموا العدو، وتجالد الفريقان، والنبي (ص) قد قام على قدميه في ركابي سرجه مشرفاً عليهم، ينظر إليهم ويقول:

أنا النبيُّ لا كَذِبْ أنا ابْنُ عبدِ المُطَّلِبْ

إلى إن اشتد القتال بين الفريقين والنبي يدعو ربه بقوله «اللهمَّ إنك أذقتَ أولَ قريش نَكالا، فأذِقْ آخرَها نَوالا» فما كان أسرع من أن ولَّى المشركون على أدبارهم منهزمين، وقد مُلِئَتْ أعينهم ترابا من قبضة رماها النبي في وجوههم، وانتشروا كالجراد مُدْبِرين، لا يلحق آخرُهم أولَهم، ولا

يُلْوي كبيرهم على صغيرهم، ولا يسأل أحد أحداً، بعد أن قُتِل اربعون مبارزاً بطلاً بسيف أمير المؤمنين (ع)، يقدُّ كلاً منهم نصفين حتى أنفه وأسفله، لا يزيد أحدهما على النصف الآخر منه، وكانت ضرباته مبتكرة معروفة لا تُثَنَّى، ولا يحتاج في قتل أحد إلى ضربة ثانية بعد الأولى.

وتبعهم المسلمون حينئذ يقتلون منهم ويأسرون، حتى ارتفع النهار ونادى منادي النبي بالكَفّ عنهم، وأن لا يَقتل أحدٌ اسيراً، فأجابوه ورجعوا إليه بالاسارى، لم يُقتَل منهم سوى نفرين قتلَهما بعض الأنصار، أحدهما «ابن الاكوع» الذي كان عَيْناً[17] على النبي من «هُذَيل»، وثانيهما «جميل بن معمر»، وبلغ النبيَ خبر مقتلهما، فغضب غضباً شديداً وٱستاء كثيراً حتى بعث إلى الأنصار يلومهم ويعنفهم على ذلك بعد بلوغهم النهي الشديد عن قتل اسير، فاعتذروا بأن عمر أمرهم بذلك[18].

وأَغنَمَ اللّهُ نبيَّه في هذه الغزوة ستة آلاف أسير من الذراري والنساء، واثني عشر ألف ناقة، عدا ما لا يُعلَم من الأغنام والغنائم والأموال، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[19] وهم الذين ثبتوا معه ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[19] وعند ذلك أسلم كثير من المشركين، لِما رأوا من نصر الله لنبيه وإعزازه لدينه.

وقد كان من أبرز المشركين الذين أسلموا «شيبة بن عثمان» الذي كان أكثر الناس بغضاً لرسول الله، وكان يتربص الفرص لقتله، انتقاماً لأبيه

---

١٧ - عَيْناً: مراقباً، جاسوساً.

١٨ - يشير السيد المؤلف إلى رواية وردت في المصادر القديمة تذكر أن النبي (ص) حين علم أن عمر بن الخطاب أمر بقتل الأسيرين، غضب غضباً شديداً عليه وأعرض عنه ولم يكلمه، حتى توسط «عمير بن وهب» عند الرسول (ص)، متوسلاً إليه بالصفح عن عمر.

١٩ - ج ١٠/س ٩ التوبة: ٢٦.

وعمه اللذين قُتِلا في غزوة أُحُدُ بسيف أمير المؤمنين علي وعمه حمزة (عليهما السلام)، ولم يتمكن من ذلك في سائر الغزوات، إلى أن فُتحت مكة للنبي، فيئس الرجل من قتل النبي (ص). فلما اجتمعت هوازن بحنين، لحق بهم طمعاً في نيل مرامه؛ وحين انهزم المسلمون وتفرقوا عن النبي (ص) أيدي سَبا، قصده شيبة بسيفه، ولما دنا منه (ص) وهمَّ أن يثب عليه، رُفِع له شُواظ[20] مِن نار كأنه برق حالَ بينه وبين النبي، ففزع على نفسه من الاحتراق، ورجع عنه القَهْقَرَى واضعاً يديه على بصره، فالتفت إليه النبي وقد علم قصده، ودعا له قائلاً: «اللهمّ أذهِبْ عنه الشيطان»؛ ثم دعاه بقوله: «يا شيبة، أُدْنُ مني»؛ فرفع الرجل بصره إليه، وإذا النبي (ص) أحَبُّ إليه مِن سَمْعِه وبصره، فتقدم إليه ووضع النبي يده على صدره وقال: «يا شيبة، قاتل الكفار»؛ فبادَر إلى إجابته (ص)، وجعل يشد في القتال بين يديه، حتى أن لو عَرضَ له ابوه واعز الخلق عليه لقتله حباً للنبي. ولما انقضى القتال قال له النبي: «إن الذي أراده الله لك، خير مما اردتَهُ لنفسك» ثم حدثه بجميع ما كان يُحدِّث به نفسه من الفكرة في قتل النبي، فأسلم الرجل وحسن إسلامه.

ثم انهزم سائر المشركين وافترقوا فرقتين، فمنهم مَن هرب إلى «اوطاس» على ثلاث مراحل من مكة، ومنهم من هرب إلى الطائف، وهم «ثقيف» ومَن تَبِعَهُم، فبعث النبي أبا عامر في سرية إلى اوطاس، يتتبعون الاعراب الملتجئين إليها؛ ولما انتهوا إليهم، ظلَّ أبو عامر ـ وهو حامل الراية ـ يقاتلهم حتى قُتل، وحمل رايته ابن عمه أبو موسى الأشعري، ثم شد المسلمون في القتال حتى نصرهم الله وقتلوا من المشركين مقتلة عظيمة، وفتحوا بلدهم ورجعوا بالاسارى والغنائم إلى النبي (ص).

ثم بعث النبي (ص) أبا سفيان في جماعة إلى الطائف، يتتبعون ثَقيفاً ومَن تَبِعَهم، ولما انتهى إليهم، خرجوا إليه وحملوا عليه حملة رجل واحد

---

٢٠ ـ شُواظ: موجة من لهب ناري لا دخان فيه.

حتى ضربوه على وجهه، فانهزم بمن معه، وانصرفوا راجعين إلى النبي (ص)، وقال أبو سفيان: «يا رسولَ الله، بعثتني مع قوم لا يُرفَعُ بهم الدِلاء[٢١]، فما أغنوا عني شيئاً»؛ فغضب النبي عليه ولم يجبه بشيء، وأمر بالغنائم والأموال التي اجتمعت لديه من الغزوة، وبالسبايا التي غنموها من المشركين، ان تودَع جميعها في «الجعرانة»، وهي ميقاتُ[٢٢] الإحرام[٢٣] في الحِلّ بالقرب من مكة، ثم امر جموعه بالرحيل نحو الطائف، وسار هو بنفسه معهم، وأنفذ اميرَ المؤمنين مع خيل في مقدمته، وأمره أن يطأ كل ما يجده، ويكسر كل صنم يراه؛ فمضى أميرُ المؤمنين(ع) بمن معه، ولقيه في طريقه خيل قبيلة «خثعم» في جمع كثير واعترضوه، ثم اصطف الفريقان للقتال، وبرز من المشركين بعد قليل اسد باسل يقال له «شهاب» يطلب البراز، وكان ذلك في غَبَش[٢٤] من الصبح، فنادى أمير المؤمنين في أصحابه يقول: «مَن له؟ ومَن يبرز إليه؟»؛ فلم يجبه أحد منهم، إلى أن قام بنفسه، فلما همَّ بالبراز، وثب إليه «أبو العاص» صهر النبي (ص) وقال له: «تُكفاهُ[٢٥] أيها الأمير»؛ فلم يأذن له أمير المؤمنين في البراز، حتى برز بنفسه نحو شهاب وانشأ يقول:

إن علــى كــلِ رئيــسٍ حَـقــا أن يُـرَوِّي الـصَـعْـدَةَ أو يُـدَقَّـا[٢٦]

---

٢١ - أي لا يفيدون حتى ولا بمقدار رفع دَلْو الماء من البئر.

٢٢ - الميقات: الموضع المعين للإحرام في الحج، وتوجد حول مكة عدة مواقيت على طُرُق الوافدين إليها من البلدان المختلفة، للحج.

٢٣ - الإحرام: ارتداء لباس خاص للرجال في الحج، بسيط، موحد الشكل، يتساوى فيه جميع الحجاج الثري والفقير، والحاكم والمحكوم؛ وعكس الإحرام، أي عدم التقيد بلباس خاص (كما هو الحال قبل الإحرام وبعده) يُسمى: الحِلّ.

٢٤ - غَبَش من الصبح: بقايا الظلام والعتمة، أو أواخرها قبيل الصباح.

٢٥ - تُكفاهُ: أنا أكفيكَ إياه وأقوم عنكَ بما يجب له.

٢٦ - كل رئيس عليه «حقٌ»: (أي) واجبٌ أو فرض، أن «يُرَوّي»: يَسقي ويُشبِع (من دم الأعداء) «الصَعْدة»: قناة السيف المستقيمة المستوية النافذة (في الرقاب والأجساد)، «أو» (وإلا) «يُدَقّ»: يُسْحَق ويُضْرَب (حتى يصبح رقيقاً ناعماً).

إلى أن التقيا واختلفا ضربات حتى ضربه أمير المؤمنين(ع) ضربة قَدَّه بها، ثم حمل بقومه على المشركين حتى هزموهم باذن الله، وكسروا أصنامهم، وغنموا منهم غنائم، وانصرفوا راجعين إلى النبي (ص).

وكان النبي (ص) يومئذ قد حاصر الطائف بجموعه، فلما ابصر عليا(ع) كبَّر للفتح واستبشر بقدومه، وقام إليه يتلقاه ويعانقه، ثم اختلى به يناجيه طويلا، فتقدم إليه (ص) احد المرافقين في الحملة يقول: «أتناجيه وتخلو به دوننا يا رسول الله؟»؛ فقال (ص): «ما انا اَنْتَجَيْتُهُ، بل الله اَنْتجاه!».

وأقام النبي (ص) بمن معه محاصرا للطائف ما يقرب من شهر، ولم يؤذَن له من ربه تعالى بدخولها وفتحها، ولكنه انفذ عليا(ع) إلى داخل حصونها، وامره بكسر الأصنام الموجودة فيها؛ ولما انصرف راجعاً إلى النبي (ص) بعد تنفيذ أمره (ص) وكسر أصنامهم، من غير أن يصيبه منهم شيء، أمَرَ النبي (ص) جموعه بالانصراف نحو مكة، فسمع قول أحدهم معترضاً: إن يومنا هذا كيوم الحديبية حين قلت لنا: «لَتَدخُلُنَّ المسجدَ الحرام؛ فصُدِدنا عنه ولم ندخله»، فقال النبي (ص) مغضباً: «لم أقل لكم أنكم تدخلونه في ذلك العام».

ولمّا همّ الرسول (ص) بالعودة إلى مكة، وقبل أن يغادر الطائف، خالفه رجل مِمَّن كانوا في أتباعه اسمه «سعيد بن عبيد» لم يرض بالارتحال دون الفتح، وأخذ ينادي في الجموع يحرضهم على مخالفة النبي (ص)، وأن لا يزولوا حتى يفتحوا، فغضب النبي (ص) ودعا عليه بقوله: «لا أقمتَ ولا ظَعَنْتَ!»؛ فسقط الرجل وانكسر فخذه، بحيث لم يقدر على القيام والظعن بنفسه.

وانتهى النبي (ص) بجموعه إلى مكة، فلما دخلها ـ وكان ذلك في شهر شوال ـ لم يكن باسرع من أن قَدِمَ عليه جمعٌ من عبيد أهل الطائف وأرِقّائهم وأسلموا على يديه (ص)، ثم لحقهم وفد من مَواليهم وساداتهم

حتى قدموا عليه (ص) ودخلوا في الإسلام طائعين، ثم سألوه أن يرد عليهم رقيقهم، فأبى ذلك وقال (ص): «أولئك عتقاء اللّه!».

ولم تزل الوفود من الطائف يتبع بعضها بعضا، يقدمون عليه ويُسْلمون على يديه حتى انتشر الإسلام فيها، ولكنهم امتنعوا عن الصلاة والزكاة. وبلغ خبرُ ذلك النبيَّ (ص)، فغضب (ص) وقال: «لا خيرَ في دينٍ لا ركوعَ فيه ولا سجود! أمَا والذي نفسي بيده، لَيُقيمُنَّ الصلاةَ وليُؤْتُنَّ الزكاة، أو لأَبْعَثَنَّ عليهم رجلاً هو مني كنفسي، يحبُ اللّهَ ورسولَه، ويُحبه اللّهُ ورسولُه، فَلَيَضرِبَنَّ أعناقَ مُقاتليهم، ولَيَسْبِيَنَّ ذراريهم، وما استعصى عليَّ أهلُ مملكةٍ ولا أمةٍ إلا رميتُهم بسهم الله عز وجل»؛ فتطاولت لمقالته أعناق صحابته، يرجو كلٌّ منهم ان يكَون هو المقَصود بها، إلى أن قالوا: «يا رسول الله، وما سهم الله؟»؛ فرفع علياً (ع) بيده قائلاً: «هو هذا، علي بن أبي طالب، ما بعثتُهُ في سَرِيَّةٍ إلا ورأيتُ جبرائيل عن يمينه وميكائيل عن يساره، ومَلَكاً أمامه وسحابة تُظلله، حتى يعطي الله عز وجل حبيبي النصرَ والظفر»؛ فجعل المسلمون بعد سماعهم قول الرسول (ص) يتحادثون بينهم يقولون: «ما رأينا كاليوم ولا سمعنا الفضلَ لأحدٍ قطُّ كما لعلي بن أبي طالب»! وبلغ أهل الطائف خبرُ استنكار النبي (ص) لرفضهم الصلاة والزكاة وتهديده لهم، فأطاعوه في الصلاة والزكاة كغيرهما.

وأقام النبي (ص) في مكة بقية شوال، يبعث الوفود والسرايا إلى القبائل يدعونهم إلى الإسلام، فبعث سَرِية إلى حي «جُلُنْد»[٢٧] يأخذون الصدقات منهم، ويردونها على فقرائهم؛ وبعث «كعب بن عُمير» إلى «ذات اطلاع» من نواحي الشام، فأصيب هو وأصحابه؛ وبعث «عُيَيْنَة بن حِصْن» إلى «بني العَنْبر»، فأغار بمن معه عليهم، وسبا منهم نساءً بعد امتناعهم عن

---

٢٧ - حي «جُلُنْد» هو ديار آل «الجُلُنْدي» الذين كانوا ملوك عُمان منذ ما قبل الإسلام، وكانوا إحدى قبائل «الأزْد».

قبول الإسلام، وهكذا إلى أن دخل شهر ذي العقدة، فارتحل (ص) بجموعه نحو «الجِعْرانَة» لتقسيم غنائم الهوازن، وكان ذلك بعد أن قضى عُمْرَتَه في مكة وأمَّر عليهم «عِتاب بن أَسْيَد»، وخلف معه معاذ بن جبل يُفقِّهُهُم في الدين.

ولما انتهى (ص) بمن معه إلى الجِعرانة، جعل يقسم الغنائم من الأموال والسبايا، وزادَ المؤلَفَة من اصحابه (وهم الذين لم يزالوا على شك وارتياب من الدين) وكانوا ضعفاء اليقين، وفيهم أبو سفيان وابنه معاوية وتسعة آخرون أمثالهما، فأعطى كل واحد منهم مائة رأس من البعير استجلاباً لهم وتأليفاً لقلوبهم، كي يثبتوا على الدين، ثم قسم بقية الغنائم على سائر الناس، فلم يُصِب كلاً منهم إلا شيء يسير منها، ففاضوا[٢٨] من ذلك وماجوا[٢٨] وغضبوا كثيراً، وصار الانصار يتحدثون عن ذلك في مجالسهم، حتى قال قائلهم: «لقي الرجل [يقصد النبي (ص)] أهله وبني عمومته، ونحن أصحاب كل كريهة». (أي نحن كانت علينا الحرب ومخاطرها وشدائدها، وكانت غنائمها وعائداتها لخاصته واقربائه).

ودخل على النبي (ص) وهو بين جمع من أصحابه رجل من بني تميم، طويل اسمر أحنَى[٢٩] بين عينيه أثرُ السجود يقال له «ذو الخويصرة» فسلم على مَن حضرَ ولم يخص النبي (ص) بتحية، بل وأخذ يعاتبه بحدة وقال له (ص): قد رأيتُكَ وما صنعتَ في هذه الغنائم»؛ فقال (ص): «وكيف رأيت؟»، «لم أرَكَ عدلَت، وما عدلت حين قسمتَ»؛ فغضب النبي (ص) وقال له: «ويلكَ ما تقول؟! إذا لم يكن العدلُ عندي فعند مَن يكون؟ ألا ترى أني قسمت الشياهَ حتى لم يبق معي شاة واحدة، وقسمت البقر حتى لم يبق معي بقرة واحدة، وقسمت الإبل حتى لم يبق معي بعير

---

٢٨ ـ فاضوا: امتلأوا (هيجاناً) ـ و.. ماجوا: اضطربوا وازداد تحركهم مثل «الموج» المرتفع.

٢٩ ـ أحنَى: أوجد حنايا ونُتوءاً.

واحد؟!»؛ وأغتاظ الحاضرون من الرجل، واستأذنوا النبي (ص) في ضرب عنقه، فلم يأذن لهم بذلك، بل قال (ص): «دعوه، فإنه سيكون له اتباع يقرأون القرآن ولا يجوز تراقِيَهم[٣٠]، ويمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَمِيَّة[٣١]، يقتلهم الله على يد أحب الخلق إليه من بعدي». (ولقد صدق النبي (ص) في ما أخبر به، فان الرجل هو الذي خرج بعدئذ على أمير المؤمنين(ع) يوم «النهروان» في أربعة آلاف من الخوارج، حتى قُتِلوا بأجمعهم بسيف الحق، ما عدا تسعة منهم هربوا، وكان أحدهم عبد الرحمان بن مُلجِم المُرادي[٣٢] لعنه الله).

ثم اشتدت الفوضى في الناس بشأن قسمة الغنائم حتى اجتمعوا حول النبي (ص) حينما همَّ بالانصراف من الجِعرانة، وجعلوا يقولون له بلهجة مغيظة معترضة ومتهجمة: «يا رسول الله، إقسم علينا فَيْأنا»[٣٣] حتى ألجأوه إلى شجرة وانتزعوا رداءه وهو يقول: «ايها الناس، رُدُّوا عليَّ ردائي، فوالذي

---

٣٠ ـ التراقي (جمع تَرْقُوة: عُمْق الحَلْق بأعلى الصدر)، وقد جاءت في الآية القرآنية الكريمة في وصف حال البشر واضطرابهم يوم القيامة وصعود أرواحهم إلى تراقيهم جزعاً وخوفاً واضطراباً: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ، وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ، وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ (ج ٢٩، سورة القيامة: ٢٦ ـ ٢٨)، ويقصد الرسول (ص) بالعبارة هنا أنهم يقرأون القرآن لفظاً وصوتاً في الأفواه والألسن فقط، دون أن يجتاز المعنى والتأثير إلى عقولهم أو قلوبهم.

٣١ ـ الرَمِيَّة: الطريدة المُصادَة التي يخترقها السهم حتى يخرج من الطرف الآخر من بدنها.

٣٢ ـ عبد الرحمان بن مُلجِم المرادي، هو الذي طَعن أمير المؤمنين علياً (ع) طَعْنته التي أدّت إلى مقتله.

٣٣ ـ الفَيْء: ما يغنمه المحاربون ـ أو (في تعريف آخر): ما يجنيه المحاربون خارجَ المعارك، مثل الأسلحة والذخائر والحيوانات والأغذية التي يتركها المحاربون المنهزمون الفارون، أو ما يغنمه المنتصرون منهم بعد توقف المعارك، واحتلال مواقعهم ودورهم ـ أو (كذلك): الخَراج، أي الضريبة السنوية أو الموسمية على الأرباح الزراعية والتجارية وأمثالها.

نفسي بيده لو كان عندي عددُ شَجَر «تهامة» نَعَماً[٣٤] لقسمته عليكم، ثم ما أَلفَيْتموني بخيلا ولا جبانا»، ثم مد يده إلى سَنام[٣٥] بعير واخذ منه وَبْرةً وقال: «أيها الناس، والله مالي من فَيْئكم ولا هذه الوَبرة[٣٦] إلا الخُمْس[٣٧]، والخُمس مردود عليكم، فأدُّوا الخِياطَ والمِخْيَط[٣٨]، فان الغُلول[٣٩] عارٌ ونار وشَنار[٤٠] على أهله يوم القيامة»؛ فتفرق القوم عنه، ولكن الانصار ظلوا مغضبين من قلة سهامهم، حتى انشأ أحد شعراء وجوههم «عباس بن مِرْداس» ـ وكان لم يُصِب من الابل إلا اربعاً ـ في حالهم وما ناله هو، أبياتاً من الشعر مخاطباً فيها النبي (ص) بقوله في بعضها:

أتـجـعـلُ نَـهْـبي ونَـهْـبَ «الـعُـبَيْـ ـدِ» بـيـنَ «عُـيَـيْـنَـةَ» و«الأقْـرَعِ»[٤١]
فـمـا كـان «حِـصْـنٌ» ولا «حـابِـسٌ» يـفـوقـانِ «مِـرداسَ» في مَـجْـمَـعِ[٤٢]

---

٣٤ ـ النَعَم: الإبل (الجِمال والنياق)، ويطلق أيضاً على البقر والغنم، لما فيها (جميعها) من النِعَم والخيرات.

٣٥ ـ السَنام: العَظْمة (القبة) التي في ظهر البعير.

٣٦ ـ ولا هذه الوبرة: أي «حتى لو كان هذه الوبرة».

٣٧ ـ حكم الرسول (ص) هنا بأن له الخمس، إنما هو استناداً إلى الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ (ج ١٠، س ٨ الأنفال: ٤١).

٣٨ ـ الخِياط: الخَيط ـ المِخْيَط: الإبرة.

٣٩ ـ الغُلول: الخِيانة.

٤٠ ـ الشَنار: العيب المفرط الشديد القبح.

٤١ ـ النَهْب: الغنيمة ـ العُبَيد: اسم فرسه الذي كان يزهو به وبنتاج هجماته ـ «عُيَيْنَة» (بن حِصْن) و«الأقرع» (بن حابس): اثنان من «المُهاجرين» الذين أعطى النبي (ص) كل واحد منهم مئة بعير تأليفاً لقلوبهم واستجلاباً لودهم وإخلاصهم ـ يقول الشاعر المقاتل عباس: أتجعل (يا رسول الله) غنيمتي وفرسي، موزعة بين عيينة والأقرع، ومعطاة لهما؟

٤٢ ـ «حِصْن وحابس»: والدا عيينة والأقرع (المذكورَين في البيت السابق) ـ «مِرداس»: والد الشاعر نفسه (عباس): يقول: والداهما لم يكونا يفوقان والدِي=

وما كنتُ دونَ أمرىء منهما ومَنْ تَضَعِ اليومَ لم يُرفَعِ[43]
وقد كنتُ في الحرب ذا تُدْرَءٍ فلم أُعْطَ شيئاً ولم أُمتَعِ[44]

فبلغ النبيَّ (ص) مقالتُه وشعره، فدعاه وعاتبه على ذلك، ثم قال (ص) لامير المؤمنين علي (ع): «قم يا علي واقطع لسانه»؛ ففزع الرجل فزعا شديداً وعظم ذلك عليه كثيراً، فقام أمير المؤمنين (ع) وأخذ بيده وانطلق به، والرجلُ يرتعد كالأَفْكَل[45] يلتمس أحداً يخلّصه من أمير المؤمنين علي (ع)، وسأل الأميرَ ـ وهو يرتجف: «يا عليُّ، أإنكَ لَقاطعٌ لساني؟»؛ فقال له الأمير (ع) «إني لَمُمْضٍ فيك ما أُمِرْتُ به»؛ وجعل الرجل لفرط جزعه واضطرابه يكرر سؤاله نفَسه والأمير(ع) يكرر عليه جوابه، حتى انتهى به إلى حظائر البعير، فأوقفه عندها وقال له: «إعقِلْ[46] منها أربعاً، أو مئة»؛ فعند ذلك سكنَ بعضُ ما فيه من الرعب والفزع، وادرك أن النبي (ص) والوصي (ع) لم يقصدا من قطع اللسان إلا إرضاءه بالعطية من الغنيمة، فأستبشر وهو يقول: «بأبي أنت وأمي، ما أكرمكم وأحلمكم واعلمكم!»؛ فقال أمير المؤمنين (ع): «ان رسول الله أعطاك أربعا وجعلك من المهاجرين، فان شئتَ فخذها، وأن شئت فخذ المئة وكن من أهل المئة»؛

= أو يعلوان عليه في أي مجمع (أو محيط، أو عائلة، أو طبقة) في قبائلنا. [وقد جاء في بعض النسخ بدل اسم «مرداس» والد الشاعر في الشطر الثاني، قوله: «يفوقان شَيخيَ»، أي أبي، سيدي].

٤٣ ـ دونَ امريَ منهما: (ما كنتُ) أقلَّ وأدنى من (أي) واحد منهما ـ ومن تَضَعْهُ (يا رسول الله) وتخفض رتبته ومكانته، بتخفيض عَطِيَّتِه وغنيمته، لن يرتفع مقامه واحترامه بعدُ.

٤٤ ـ ذو تُدْرَءٍ: رجل دفاع وحماية وردٍ للشر ـ لم أُمنَع: لم أحظَ بالمنعة والحماية (وحفظ الحق). [ويُحْتَمَل أن تكون الكلمة «لم أُمتَع»، أي لم أحظَ بالمتعة الوافية].

٤٥ ـ الأَفْكَلُ: المصابُ بمرضِ الرعدة.

٤٦ ـ إعقِل: اربط بالحبل.

فقال الرجل: «انتَ أشِرْ عليَّ يا أبا الحسن»؛ فقال (ع): «انا أفضِّل لك أن تأخذ ما اعطاك النبيُّ وترضى به»؛ فأجابه الرجل إلى ذلك، وانصرف من غير ان يأخذ شيئا من البعير.

ثم إن منادي النبي (ص) نادى في الانصار يأمرهم بالاجتماع عنده، فلما تكاملوا بمحضره أمرهم بالجلوس، وأن لا يقعد معهم غيرهم. ثم أقبل عليهم يتخطى جموعهم يتبعه من خلفه أمير المؤمنين علي (ع)، حتى جلسا في اواسطهم؛ ولما استقر بهم الجلوس، بادر سعد بن عبادة إلى مخاطبة النبي (ص) وقال: «يا رسول الله، أتأذن لي في الكلام؟»، فلما أذن له النبي قال: «يا رسول الله، إن كان الامر في هذه الأموال التي قسمتَ بين قومك شيئاً أنزله الله تعالى، رَضينا به، وإن كان غير ذلك، لم نرض»؛ فقال (ص): «يا معشر الأنصار، أَكُلكم على قول سيدكم؟»؛ قالوا: «ان سيدنا الله ورسوله»؛ فأعاد قوله عليهم وأعادوا عليه قولهم، إلى ان قالوا في الثالثة: «نعم، نحن على مثل قوله ورأيه»؛ فقال (ص): «إني سائلكم عن أمر فأجيبوني»؛ قالوا: «قل يا رسول الله»؛ قال (ص): «ألستم كنتم ضالين فهداكم الله بي؟ ألم تكونوا على شَفا حُفرةٍ من النار فأنقذكم الله منها بي؟ ألم تكونوا قليلاً فكثَّركم الله بي؟ ألم تكونوا أعداءً فألَّف الله بين قلوبكم بي؟» وفي كل ذلك ينادون في جوابه بقولهم: «بَلَى والله! فَلِلَّه المِنَّةُ والطَول والفضلُ ولرسوله علينا»؛ وسكت النبي (ص) هنيئة ثم عاد إلى الكلام وقال: «ألا تجيبونني بما عندِكم؟» قالوا: «بمَ نُجيبك فداؤك آباؤنا وامهاتنا؟ قد أجبناك بان لك الفضلَ والمَن والطَول علينا»؛ فقال (ص): «أمَا لو شئتُم لَقُلتم: وانتَ قد كنتَ طريداً فآويناك، وجئتَنا خائفاً فآمنَّاك، وجئتنا مُكذَّبا فصدَّقناك!!»؛ فارتفعت عند ذلك أصوات القوم بالبكاء والنحيب، وقام شيوخهم وساداتهم إليه يقبلون يديه وركبتيه ورجليه وهم يقولون: «رضينا بالله وعنه، ورضينا برسوله وعنه، وهذه أموالنا بين يديك، فان شئتَ فأقسِمها على قومك، وان الذين قالوا منا ما قالوا، إنما

قالوه على غير وَغَر[47] ولا غِل[48] في القلب، ولكنهم ظنوا الأمر سَخَطاً عليهم وتقصيرا لهم، وقد استغفروا من ذنوبهم»؛ فقال (ص): «يا معشر الانصار، أوَجَدْتم[49] في أنفسكم إذ قسمتُ مالاً أتألَّفُ به قوماً، ووَكَلتُكم إلى ايمانكم؟ أما تَرْضَون ان يرجع غيرُكم بالشياهِ[50] والنَعَم وترجعوا أنتم وفي سهمكم رسولُ الله؟»، قالوا: «بلى رضينا»؛ فارتاح (ص) ورضي عنهم ورضوا عنه؛ وقال: «ان الأنصار كرشي وعَيْبتي[51]، ولو سَلَكَ الناس وادياً وسلَكَتِ الانصار شِعْباً لَسلكْتُ شِعْبَ الانصار»[52]، ثم جعل (ص) يكرر الدعاء لهم بقوله: «اللهم اغفر للانصار، ولابناء الانصار، ولابناء ابناء الانصار».

ثم لما كان القابل[53]، جاء فريق المؤلفة الذين زاد لهم النبي (ص) القسمة، وقدموا للنبي (ص) واصحابه من أموال الكفار التي غنموها في حروبهم التي قاموا بها دفاعاً عن الإسلام، اكثر مما اعطاهم في سابقتها، (وبذلك أسلم بعدئذ كثير من الناس حين ظهر لكافتهم سر ما عمله النبي (ص) في سابق العام من تضعيف سهامهم على سهام غيرهم) وقام (ص) خطيبا في الانصار وقال لهم: «أهذا خير أو الذي قلتم؟؟ إنهم قد جاؤوا من الابل والأموال بكذا وكذا ضِعفِ ما أعطيتُهم، وقد أسلم للّه تعالى أناس كثيرون، والذي نفسُ محمد بيده، لَوَدِدْتُ أنَّ عندي ما أُعطي كلَّ انسان دِيَتَه على أن يُسْلم للّه رب العالمين، وقد فرض اللّهُ للمؤلفة

---

٤٧ ـ الوَغَر والوَغْر: الغَيظُ القلبي.

٤٨ ـ الغِلّ: الحِقد.

٤٩ ـ وَجَدتُم: غضبتم ـ حقدتم.

٥٠ ـ الشاء والشياه (جمع الشاة): الأغنام.

٥١ ـ الأنصارُ كَرِشي: . . جيشي. عَيْبَتي: وعائي، مَجْمَع مُلكي وعُدَّتي.

٥٢ ـ الوادي: المنحدر الواسع العميق بين جبلين، والشِعْب: الطريق (الضيق أو المتفرع) في الجبل.

٥٣ ـ القابل: العام التالي.

قلوبهم سهماً في القرآن»[54]؛ وكان قوله (ص) للعبارة الأخيرة اشارةً منه أو رداً على ما بلغه من قول بعض المعترضين على قسمته: «ما هذه القسمة؟ ما يريد الله بها؟؟»؛ فصبر وسكت عنهم وهو يقول: «قد أوذِيَ أخي موسى باكثر من هذا».

ثم إنه ارتحل بجموعه نحو المدينة، ونادى مناديه في اصحاب الغنائم أن «لا تُوَطأ الحَبْالَى حتى يَضَعْنَ، ولا الحَيالَى حتى يَسْتَبْرِئْنَ بحيضة»[55]. ولما انتهى بهم إلى المدينة، أقام بها ما بين ذي الحجة (السنة الثامنة) ورجب (السنة التاسعة).

---

٥٤ ـ هذه الإشارة من النبي (ص) إلى سهم للمؤلفة قلوبهم في القرآن الكريم، ظاهر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ...﴾ (ج ١٠/س ٩ التوبة: ٦٠).

٥٥ ـ أي لا يجوز للذين اغتنموا في الحرب النساءَ الحوامِل أن يقاربوهن قبل الولادة، والنساء الحَيالَى (أي اللواتي لا يحبلن) أن يقاربوهن قبل اجتيازهن حيضة (دورة شهرية).

غزوة تَبُّوك

ثم كانت في شهر شعبان[1] من السنة التاسعة للهجرة، غزوة «تَبوك»[2]. وقد كان الباعث المسبِّب لهذه الغزوة ـ التي كانت آخر غزوات النبي (ص) ـ أن الأخبار كثرت وتواترت على الرسول (ص) وأهل المدينة وعامة المسلمين، أن الملوك والحكام والولاة في البلاد المجاورة للحجاز، وبخاصة بلاد الشام والروم في شماليها، قد أقلقهم بل أخافَهُم خَبرُ فتح محمد (ص) لمكة المكرمة، ودخول القبائل أفواجاً متسابقة شائقة في دينه، حتى خافوا على ممالكهم وسلطانهم ومستقبلهم، وبلَغَ النبيَّ (ص) أن ملك الروم وحُكام الإمارات التابعة له بين دولته العظمى وبلاد الحجاز، قد حشدوا جموعاً كبيرة لمحاربته، وأنهم يتهيَّأون لمهاجمة المسلمين وغزو ديارهم.

وكان أبرز أولئك الحكام، «أُكَيْدِر»[3] ملك «دومة الجندل» التي كانت المملكة الكبرى والأقرب إلى الحجاز، فقد كان مِمَّن يُخافُ منه في عظمة السلطنة وكثرة العساكر والأتباع والجموع، وكانت الأخبار عنه هو خاصة،

---

١ ـ ذكرت مصادر أخرى أن الغزوة كانت في شهر رجب (قبل شعبان)، والمحتمل المقبول أن يكون قرار الغزوة اتُخِذ وبدأ الاستعداد والعمل لها في شهر رجب، وابتدأ تنفيذها في شهر شعبان.

٢ ـ في «معجم البلدان» لياقوت الحموي، عن تبوك أنها «موضع بين وادي القرى والشام». . . و«تبوك بين الحِجْر وأول الشام، على أربع مراحل من الحجر، نحو نصف طريق الشام».

٣ ـ اسمه الكامل: أُكَيْدِرَ بن عبد الملك الكِندي.

تتكرر وتتزايد مع الشائعات المقلقة والمثيرة، بأنه قاصد للمدينة، وأنه قد عزم على استئصال النبي (ص) وقتله والقضاء على أصحابه وأن يُبيد خضراءهم.

وإضافةً إلى هذه الأخبار والتهديدات الخارجية، أشاع المبطلون والمنافقون في الداخل من أهل المدينة، أراجيفَ وأكاذيب لإخافة المسلمين وتثبيط عزائمهم، منها أن ملك الروم «هِرَقْل» بنفسه[4] قد انضم إلى أكيدر، وسار بجمعه وجنوده في عسكر عظيم، وجلب معه أيضاً قبائل غسان وجُذام وفِهْر وعاملة، وأن عساكره الذين كانوا نزلوا بحمص قد غادروها وتقدموا جنوباً حتى وصلوا إلى البلقاء[5] قاصدين غزو رسول الله، إلى غير ذلك من الهفوات المختلَقَة، حتى غلب الخوف والوجل على أصحاب النبي (ص)، ومُلئوا رعباً واشفاقاً على أنفسهم وعلى رسول الله، حتى جعلوا يتناوبون على حراسته والمحافظة عليه، كلَّ يوم عشرون منهم، بل بلغ الأمر فيهم أنه كلما صاح صائح، ظنوا أنه قد طلع عليهم أوائل رجال أكيدر وجنوده.

ولم يزل المنافقون يتخللون أصحاب رسول الله، ويَنْدَسُّون في أوساط المسلمين، يهيجون أحزانهم ورعبهم، ويوسوسون إلى ضعفائهم يقولون ان

---

٤ ـ ثمة رواية في بعض المصادر أن ملك الروم هِرَقْل الذي كان نصرانياً مؤمناً ويتوقع ظهور مُخلِّص للإنسانية بَشَّر به المسيح (ع)، بعث بصورة سرية، رسولاً من حي بني غسان إلى المدينة ليشاهد صفات النبوة ويتحرى علاماتها في رسول الله، وعَدَّ له منها أشياء أوصاه بالتفحص عنها، منها الحمرة في عينيه (ص)، وخاتم النبوة بين كتفيه، وعدم قبوله الصدقة، فلما دخل رسوله ذاك على النبي (ص) ووجد الصفات كلها فيه، رجع إلى الملك وأخبره بها، فأسلمَ سراً وآمن بالنبي (ص)، ثم دعا وجوه قومه للتصديق به والإسلام، فأبوا وامتنعوا شديداً حتى خافهم على ملكه وسلطانه، وكتم عنهم إيمانه.

٥ ـ البلقاء: كورة (أي مقاطعة أو ولاية) من أعمال دمشق بين الشام ووادي القُرَى (الذي هو بين المدينة والشام) قصَبتُها عَمَّان، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة» ـ معجم البلدان.

أكيدر قد أعد من الرجال كذا وكذا، ومن الكُراع[6] كذا وكذا، ومن العُدَّة والمال والسلاح كذا وكذا، وأن مناديه قد نادى فيهم: ألاَ قد أَبَحْتُ لكم النهبَ والغارة في المدينة، وأنه يوشك أن يقصد المدينةَ فيقتل رجالها ويسبي ذراريها ونساءها، فأين يقع أصحاب محمد من جنود أكيدر؟! إلى غير ذلك من الأباطيل والمفتريات الكاذبة التي كانوا يلقونها إلى المسلمين ليخذلوهم، حتى ازداد فيهم الفزع والجزع، وصاروا يشكون إلى النبي بعض ما هم فيه، وهو يسكّنهم ويزيل عنهم بعض ما في صدورهم من الأذى والرعب، إلى أن نزل عليه الأمر من ربه تعالى بتجهيز الجيوش والعساكر والخروج إلى أكيدر، ووعده بالنصر والظفر بأكيدر من غير حرب ولا قتال.

فأمر النبي (ص) مناديه أن ينادي في الجموع بالتعبئة والاستعداد للخروج إلى تبوك، وعلى عكس حاله (ص) في سائر غزواته التي كان يخفي عن أتباعه والمقاتلين معه خطة مسيره إليها ويوري[7] بغيرها، أبان لهم هذه المرة ـ في غزوة تبوك هذه ـ هدفه والمكان الذي يقصده، والاستعداد الكبير المطلوب منهم، وذلك بسبب كثرة قوة العدو، ولبعد المسافة، وفداحة المشقة، وصعوبة المفاوز، وقلة ما بها من الخيرات، وأمرهم أن يتزودوا لها كثيراً، فبادر المسلمون إلى ذلك وأكثروا من الزاد، دقيقاً وعسلاً وتمراً ونحلاً مالحاً، وطلب من أهل الغنى والثروة فيهم، مواساة الضعفاء، والإنفاق على الفقراء، وتقويتهم بالمال والزاد والراحلة، فأجابه إلى ذلك كثير من الأنصار وغيرهم، وكان أسبقهم في ذلك عمه العباس بن عبد المطلب الذي أنفق نفقة حسنة جهز بها، وسارع الأنصار كذلك إلى التلبية والإنفاق، فكان ممن أنفقوا عثمان بن عفان الذي ذكرت الروايات أنه أنفق أواقي من فضة جاء بها وصبها في حجر رسول الله، وعبد

---

٦ ـ الكراع (جمع الكَرَع): الطبقة الدنيا من الناس، ويقصد بهم هنا الخَدَم وعمال الطعام وساسة الخيل.

٧ ـ يوري بغيرها: يتصرف بطريقة توحي بفكرة أو بصورة مختلفة عن الواقع.

الرحمان وطلحة والزبير[8]، وتبعهم جمع من المنافقين في الإنفاق كرهاً أو رياءً، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[9] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[9] إلى أن تجهز أناس من أهل العسرة والضعف.

ثم كتب النبي إلى قبائل الأعراب من تَميم، وغَطَفان، وطَي، وخُزاعَة، ومُزَيْنَة، وجُهَيْنَة، يأمرهم بالجهاد ويَحثُّهم على اللحوق والاجتماع به في «ثَنِيَّة الوداع»[10]، وكتب إلى «عَتَّاب بن أسيد»[11] عامله على مكة، أن يستفز أهلها ومَن حولها للغزو والخروج إلى الجهاد، ومواساة الفقراء، وتقوية الضعفاء، وتجهيزهم لذلك، ولم تزل الجموع تجيبه إلى ذلك والوفود تَقْدِم عليه، حتى تكاملوا ثلاثين ألفاً.

وأما ما كان من أمر المنافقين، فإنهم لما أحسوا بعزم النبي على الخروج إلى أكيدر مع ما شاهدوا في أصحابه من الجبن والوَهَن، استبشروا بذلك، وأيقنوا بهلاك النبي ومَن معه، وكذَّبوا وَعْدَه لهم بالنصر والظفر يقولون: «لا والله! ولكنها آخر كسراته التي لا ينجبر بعدها، وإن أصحابه لَيموتون في هذا الحر ورياح البوادي والمياه الفاسدة المؤذية في الطريق، ومَن سَلِمَ منهم من ذلك، فهم بين قتيل وجريح وأسير بيد أكيدر».

ثم إنهم اجتمعوا عند أحد ألد أعداء النبي (ص)، وكنيتُه «أبو عامر»، وكان نصرانياً تَرَهَّبَ في الجاهلية ولبس المسروح، ولكنه لم يكن على نهج النصارى في معاملة الرسول (ص)، لأن النصارى كانوا بصورة عامة ينظرون إليه وإلى دعوته نظرة تعاطف ومودة، بينما كان أبو عامر يحزِّب

---

٨ ـ عبد الرحمان بن عَوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام ابن عمة الرسول (ص).

٩ ـ القرآن الكريم الجزء ١٠، السورة ٩ المائدة: الآيتان ٥٣ و٥٤.

١٠ ـ ثَنِيَّة الوداع: هي ثنية (طريق عقبة) مشرفة على «المدينة»، دخل الرسول (ص) منها على المدينة يوم هجرته من مكة.

الأحزاب على النبي بعد قدومه المدينة؛ ولما فتحت مكة هرب منها إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف، خرج منها إلى الشام ولحق بالروم، ولقبه النبي (ص) «الفاسق»؛ وكان أبو عامر (الفاسق) هذا، في تلك الأيام الشديدة على النبي (ص) والمسلمين، أي أيام الاستعداد لغزوة تبوك، ما زال في المدينة يعادي النبي (ص) أشد العداوة، سِيَّما بعد ما أسلم ابنه «أبو حنظلة» واستُشهد في غزوة أُحُد بين يدي النبي جُنُباً، وسماه النبي «غسيل الملائكة» لمباشرهم تغسيله.

فلما اجتمع المنافقون عند (أبي عامر) الفاسق وهم أربعة وعشرون رجلاً، بايعوه على الغدر برسول الله، وكتبوا إلى الملك أكيدر كتاباً يسألونه فيه مهاجمة رسول الله في المدينة، ويَعِدونه باصطلام[١٢] النبي والقبض عليه وإعانة الملك على قتله.

ثم اتفقت كلمتهم على بناء مجمع لهم يجتمعون فيه، وجعلوا يتذاكرون بينهم في ذلك وفي سائر شؤونهم، ثم بادروا إلى بناء مُصَلًّى خارج المدينة على طريق «مسجد قبا» لِيوهموا النبي والمسلمين ويُمَوِّهوا عليهم أنه للصلاة، وسمَّوه «مسجد الضِرار»، وسارعوا في بنائه معارضة وحسداً لبني عمرو بن عوف الذين اتخذوا مسجد قبا. فلما أكملوه، أقبلوا إلى النبي (ص) حتى دخلوا عليه وهو متجهز إلى تبوك، وسألوه الخروج إلى مسجدهم والصلاة فيه تمويهاً على الناس، وقالوا: «يا رسول الله، إن بيوتنا قاصية عن مسجدك، وإنا نكره الصلاة في غير جماعة، ويصعب علينا الحضور في مسجدك، وقد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الممطرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه

---

١١ - ورد اسم عامل الرسول على مكة «أسيد بن عتَّاب»، ولكنه في المصادر القديمة «عتاب بن أسيد»، وبعض المحققين يحرك أسيد بفتح الهمزة وكسر السين «أَسِيد»، وبعضهم بضم الهمزة «أُسيد»، والمحتمل المقبول لغوياً «أَسْيَد» (بفتح الهمزة وتسكين السين وفتح الياء: أفعل التفضيل من ساد وسَيِّد)، أو «أُسَيْد» (بضم الهمزة وفتح السين وتسكين الياء) تصغير «أسد».

١٢ - اصطلام: استئصال.

وتدعو بالبَرَكة، ونحن نتيمن ونتبرك بالصلاة في موضع مُصَلاَّك»؛ ولم يزالوا يكررون عليه الكلام بكل إلحاحٍ ويتوسلون إليه في ذلك، وهو يأبى إجابتهم لعلمه بسوء ضمائرهم ونفاقهم، ويعتذر إليهم من ذلك بحسن سياسة وطيب اعتذار، يقول: «إني على جَناح سَفَر، ولو قَدِمنا أتيناكم إن شاء الله تعالى فصلينا لكم»؛ ولا يَجْبَهُمْ بالرد والإنكار، إلى أن بالغوا في الإلحاح عليه حتى غلب عليه الحياء ـ وكان حَيّياً ـ فقال (ص): «ايتوني بحماري»، فلما ركبه وتوجه نحو مسجدهم، ما جاوز الحمارُ خطواتٍ يسيرةً حتى ارتكز في الأرض كالوَتَد من غير حركة قَط، وأحاط القوم به يسوقونه فلا يزول عن مقره ولا قَدْر خطوة، فصرفه النبي عندئذٍ إلى جهة أُخرى، فجدَّ في السير كالطير، وصرفه القومُ ثانياً نحو جهة المسجد فارتكز في الأرض كالمرة السابقة، وانصرف إلى جهة أخرى يعدو كالصقر، وهكذا حتى فعلوا ذلك مراراً دون استجابة من الحمار، إلى أن يئسوا من سيره نحوهم، فقالوا: «لعل الحمار رأى في هذا الطريق شيئاً كَرِهَهُ فلا ينبعث نحوه»؛ وأتوا للنبي (ص) بفرسه، فلما ركبه لم يَرَ منه إلا مثل ما رأى من الحمار، إذ كان كلما وجهوه نحو المسجد ركز في الأرض كالصخرة لا يحركه محرك، وكلما صرفوه إلى جهة أخرى يعدو في مسيره كأنه له جناح، إلى أن يئسوا منه أيضاً، وأخذوا يلحون على النبي في المشي على قدميه، فأجابهم إلى ذلك واندفعوا يمشون معه، ولكنهم لم يقطعوا إلا خطوات يسيرة حتى جثوا على رُكَبِهِم، وثقلت أبدانهم ولم يقدروا على الحركة، فقال النبي (ص): «إن هذا أمر قد كرهه الله فليس يريده الآن، وأنا على جَناح سفر، فأمْهِلوا حتى أرجعَ إن شاء الله تعالى، ثم انظر في هذا برضاء الله»؛ وانصرف راجعاً نحو داره.

عندئذ انصرف المنافقون إلى مجمعهم، يتحادثون بينهم في تدبير حيلة للغدر بالنبي، إلى أن اتفقت كلمتهم وتَواطأوا على نهب المدينة بعد خروج النبي بجموعه منها، وعلى سَبْيِ ذَراريه ونسائه وخواصه المتخلفين عنه، كل ذلك بإشارة من مُقَدَّمهم الراهب الفاسق. ثم اختار الفاسق لنفسه أن يغيب عنهم ويخرج من المدينة قبل خروج النبي منها، حذراً من وقوع التهمة عليه

في ذلك، فخرج قاصداً ملك الروم ليغريه بغزو المدينة، ويشجعه على قتل النبي (ص)، ولكنه هلك في الطريق، وأدركته مَنِيَّتُهُ قبل أن يدرك مُنْيَتَه.

وكان المنافقون في المدينة يتوقعون قدوم الفاسق بجنود الروم، وفي انتظار قدومه وقدومهم، تواطأوا بينهم على أن يفترقوا فرقتين: فرقة تقيم في المدينة لنهبها حين خلوها من النبي وجنودِه، وثانية تسير معه في جملة أصحابه، لتدبير حيلة في قتله والغدر به في الطريق؛ فاختاروا منهم للإقامة والتخلف عن السير عشرة، وللخروج مع النبي أربعة عشر، وذلك تمام عددهم، فنزل الوحي على النبي (ص) يخبره بأمر القوم وما اجتمعت عليه آراؤهم، وأمره الله تعالى بالخروج بجنوده إلى أرض تبوك (التي أسلفنا أنها بين الشام والمدينة من نواحي البلقاء) ولم يكن النبي (ص) سافر سفراً أبعد ولا أشق منه. فلما أشرف على الخروج، أتاه المتواطئون على الإقامة للنهب والغارة يستأذنونه في التخلف عنه بأعذار واهية، كالمرض والحر وأمثالهما، وهو (ص) يجيبهم إلى ذلك موافقاً، لعلمه (ص) بعصيانهم وفضيحتهم بالمخالفة، فأحب الستر عليهم وأذن لهم في التخلف عنه، فعاتبه الله على ذلك عتاباً جميلاً ذكر فيه العفو عن نبيه (ص) قبل عتابه بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[13]، وتبعهم في التخلف عن الخروج والاستئذان منه (ص) في ذلك جماعة أخرى، ولكن من المؤمنين، بسبب الفقر وعدم توفر الزاد والراحلة لهم، لا من دافع النفاق والأعذار الكاذبة، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ....﴾[14] ومنهم عبد الله بن أم مكتوم (وكان شيخاً كبيراً ضعيفاً في بدنه نحيفاً في جسمه كفيف البصر)، وعائذ بن عمرو وأصحابه (وقد امتنعوا عن الخروج مع النبي لما بهم مِن العَجْز

---

١٣ - ج ١٠/س ٩ التوبة: ٤٣.

١٤ - ج ١٠/س ٩ التوبة: ٩١.

والزَمانة[15]) ومنهم سبعة آخرون أتوا إلى رسول الله (ص) يبكون ويقولون: «يا رسول الله، ليس بنا قوة أن نخرج معك»، وجعلوا يسألونه نعالاً يلبسونها وأعذرهم النبي عن الخروج، وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾[16]. وتبعهم أيضاً في التخلفَ جماعة أخرى توانياً وتهاوناً، ثم ندموا على ذلك، فمنهم مَن ندم قبل فوات وقت التدارك، كأبي خيثمة الذي لحق بالنبي (ص) في بعض الطريق، بعد أن كان مفتوناً بحب ما عنده من زوجتين وعريشتين أَلْهَيْنَهُ عن الخروج، فتركهن وبادر إلى اللحوق بالنبي حتى انتهى إليه، فدعا له النبي (ص) وجزاه خيراً؛ ومنهم ثلاثة آخرون من الأَوْسِ والخَزْرَج، هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، ولكنهم ندموا بعد فوات المسير وعدم إمكان التدارك. ولما انصرف النبي (ص) من الغزوة وقدم المدينة، أتوه يستغفرونه، ولم يتعذروا بالأكاذيب، بل جعلوا يقولون: «والله ما لنا من عذر»؛ وإليهم الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ فأعرض عنهم النبي (ص) ولم يكلمهم بشيء، ونهى الناس عن مكالمتهم، فهجرهم الناس كافة حتى الصبيان، وأقبلت زوجاتهم إلى النبي (ص) يستئِرْنَه في الاعتزال عنهم، فلم يرخص لهن ذلك، ولكن نَهاهُنَّ عن قبول المقاربة، فكُنَّ يأتين لهم بالطعام والشراب وسائر ما يحتاجون إليه، فَيَضَعْنَها في ناحية قريبة منهم، ويرجعن عنهم من غير كلام ولا حديث معهم. وأقام القوم على ذلك مدة يبكون الليل والنهار وهم صائمون، إلى أن طالَ عليهم الأمر، وضاقت عليهم المدينة، وقال بعضهم: «قد هَجَرَنا الناس لا يكلمنا أحد منهم، فهلاً نتهاجرُ نحن بعضنا عن بعض»، فتفرقوا في الليل على رؤوس الجبال، بعد ما حلفوا أن لا

---

١٥ ـ الزمانة: العاهة، نقص بعض الأعضاء.

١٦ ـ ج ١٠/س ٩ التوبة: ٩٢.

يكلم أحد منهم صاحبه إلى أن يموتوا، أو يتوب الله عليهم، وأقبلوا على البكاء والدعاء والاستغفار الصادق ثلاثة أيام، نهاراتها ولياليها، وكلٌ واحد منهم بعيد عن صاحبَيْه، لا يرى أياً منهما ولا يكلمه، فلما كانت الليلة الثالثة (وبها بلغت مدة ندامتهم وبكائهم منذ بدء توبتهم خمسين يوماً)، نزل الوحي على الرسول (ص) ـ وكان في بيت «أم سلمة» ـ بآية التوبة عليهم من الله سبحانه وفيها: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾[17]، فاستبشر النبي بذلك كثيراً، وخرج إليهم ووجهه كفلقة القمر يتلألأ نوراً وسروراً، وبشرهم بذلك، فعند ذلك تصدق أحدهم ـ وهو كعب ـ بثُلث ماله شكراً على قبول توبته.

كذلك نزل في جماعة أخرى من المتخلفين كانوا من الأغنياء الأقوياء، وكان عددهم نحواً من ثمانين نفراً، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[18]، إلى قوله تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾[18]، فلما بلغتهم الآية ندم منهم نحو عشرة ـ فيهم أبو لبابة ـ فأتوا إلى مسجد النبي (ص)، وأوثقوا أنفسهم بأعمدة المسجد يبكون مستغفرين نادمين على ما فاتهم، وحلفوا أن لا يحلهم إلا رسول الله، وبلغ الخبر النبي فقال (ص): «**وأنا أقسم أن لا أكون أول مَن حلَّهم، إلا أن أؤمر فيهم**». وأقام القوم كذلك أياماً، إلى أن نزل على النبي (ص) قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[19]، فأتاهم النبي وبشرهم بقبول توبتهم، وحلَّ وثاقهم، فانطلقوا وأتوا بأموالهم إلى النبي يقولون: «هذه أموالنا التي خلَّفتنا عنك، فخذها

---

١٧ ـ ج ١١/س ٩ التوبة: ١١٨.
١٨ ـ ج ١١/س ٩ التوبة: ٩٣ و٩٤.
١٩ ـ ج ١١/س ٩ التوبة: ١٠٢.

وتصدق بها»، فامتنع النبي عن ذلك، حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٢٠]، فأخذ منها ثلثاً تصدق به على الفقراء، وترك لهم الثلثين الباقيين.

❁ ❁ ❁

وأما ما كان من أمر النبي عند خروجه من المدينة لبدء الغزوة، فإنه لما اجتمعت جموع العساكر والقبائل عنده وكان ذلك في شدة القيظ واشتداد أيام الحر، وكانت الأثمار قد أينعت وآن أوان اقتطافها، وصار ذلك سبباً لإبطاء كثير من الناس عن طاعة نبيهم، رغبةً في العاجل دون الآجل، وحرصاً على المعيشة، وخوفاً من لقاء العدو، واستثقالاً لبعد المسافة، وأحس النبي (ص) بذلك، قام فيهم وخطب خطبة طويلة يحثهم فيها على النهوض، ويُحرِّضُهم على الجهاد، وقرأ عليهم ما نزل عليه (ص) فيم من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾[٢١] إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ﴾[٢٢] وقرأ عليهم أمره تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[٢٣]؛ وبعد أن تلا عليهم آيات الله تعالى (حول تلك الغزوة) وأوامره جل جلاله للمسلمين بتلبية أوامر رسوله الأكرم (ص)، تابع النبيُّ خطبته التي كانت بليغة مثيرة وقال (ص):

«أيها الناس، إن أَصدقَ الحديث كتابُ اللّهُ، وأَوْلى به أولو القُربَى، وأَوْلَى القول كلمة التقوى، وخيرُ الملل ملة إبراهيم، وخيرُ السُنَن[٢٤] سُنَّة

---

٢٠ ـ ج ١١/س ٩ التوبة: ١٠٣.

٢١ ـ ج ١٠/س ٩ التوبة: ٣٨.

٢٢ ـ ج ١٠/س ٩ التوبة: ٤٢.

٢٣ ـ ج ١٠/س ٩ التوبة: ٤١.

٢٤ ـ السُنن، مفردها سُنَّة: العَمَل المطبَّق، الطريقة المعمول بها، التعاليم والعادات المُمارَسَة.

محمد، وأشرفُ الحديث ذِكر الله، وأحسن القَصص هذا القرآن، وخير الأمور أوساطها، وشر الأمور مُحْدَثاتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء، وأشرف القتل قتل الشهداء، وأعمى العَمَى الضلالة بَعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتُبع، وشر العَمَى عَمَى القلب، واليد العُلْيا خير من اليد السُفْلَى، وما قَلَّ وكفى خيرٌ مما كَثُر وألْهَى، وشر المعذرة حينما يحضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة، ومِن الناس[٢٥] مَن لا يأتي الجمعة إلا نَزرا، ومنهم مَن لا يذكر الله إلا هَجْرا؛ ومِن أعظم خطايا اللسان الكذب، وخير الغِنَى غِنَى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، وخير ما أُلقِيَ في القلب اليقين، والارتياب من الكفر، والتباعد من عمل الجاهلية، والغُلول[٢٦] من جمر جهنم، والسُكر جمر النار، والشِعر من إبليس، والخمر جماع الإثم، والنساء حبائل إبليس، والشباب شعبة من الجنون، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المآكلِ أكلُ مال اليتيم، والسعيد مَن وُعِظ بغيره، والشقِيُّ من شقِيَ في بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع[٢٧]، والأمر إلى آخره، ومِلاك[٢٨] العمل خواتيمه، وأربى الربا الكذب، وكل ما هو آتٍ قريب، وسُباب المؤمن فِسق، وقتال المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحُرمة ماله كحرمة دمه، ومن توكل على الله كفاه، ومن صبر ظفر، ومن يَعْفُ يعفُ الله عنه، ومن كظم الغيظ يأجُره الله، ومن يصبر على الرزِيَّة يعوضه الله، ومن يتبع السَمْعَة يُسَمِّعُ الله[٢٩] به، ومن يَصِمْ[٣٠] يضاعف اللّهُ له، ومن

---

٢٥ - مِن الناس (بعد الجملة السابقة: شر الندامة)، أي الشر والأسوأ من الناس.. من لا يصلي صلاة الجمعة، جَماعة مع المؤمنين.

٢٦ - الغُلول: الخيانة.

٢٧ - يصير أحدهم إلى موضع أربعة أذرع: ينتهي (كل) أحد منكم إلى القبر،.. إلى الموت.

٢٨ - مِلاك العمل: قيمته، قِوامه.

٢٩ - يتبع السَمْعَة: يسعى للشهرة فقط وليَسمع عنه الناس (لا للخير الصرف) - يُسَمِّع به: يفضحه ويذيع معايبه.

٣٠ - يَصِم: ينسب (أو ينشر) عيباً لأحد (الفعل المضارع من: وَصَم).

يَعْصِ اللَّهَ يُعَذِّبْه. . .» ثم ختم (ص) خطبته بالاستغفار لنفسه ولأمته، وجعل يكرر طلب المغفرة لهم، وبشَّر جموعه بالنصر في غزوته تلك، وأن الله سيظفره بأُكَيْدِرِ مِن غير حربٍ ولا قتال وسيأخذ منه الجزية، وأنه (ص) سينصرف بعساكره إلى المدينة سالمين إلى ثمانين يوماً.

عند ذلك نشط الأقوام للخروج، ورغبوا في الجهاد، وجدُّوا في التجهيز؛ فلما أشرف (ص) على الخروج بهم، نزل عليه جبرائيل (ع) وقال: «يا محمد، العليُّ الأَعلَى يقرأُكَ السلام ويقول: إما أن تخرجَ أنتَ ويُقيمَ عليٌّ، أو تقيم أنتَ ويخرج عليّ، لا بد من ذلك! فإن علياً قد نَدَبْتُه لإحدى ٱثنتينِ لا يعلم أحدٌ كُنْهَ مَن أطاعني فيهما وعظيم ثوابه غيري»؛ فدعا النبيُّ (ص) أميرَ المؤمنين عَلياً (ع) وبَلَّغه أَمرَ الله تعالى، فقال علي (ع): «السمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله، وإن كنتُ أحبُ أن لا أتخلف عن رسول الله في حال من الأحوال»؛ فقال (ص): «أَمَا ترضَى أن تكون مني بمنزلة هارونَ من موسى، إلا أنه لا نبيَّ بعدي»؛ قال: «بلى، رضيتُ يا رسول الله»؛ فقال (ص): «يا أبا الحسن، إن لك أجرَ خروجك معي في مَقامك بالمدينة، وإن الله قد جعلك أُمَّةً وحدك، كما جعل إبراهيم أمة، وأن هيبتك تمنع جماعة المنافقين والكفار عن الحركة على المسلمين». ثم أوصاه بوصاياه بالمدينة، وودعه وخرج بمن معه.

رجع أمير المؤمنين علي (ع) إلى منزله، وبهت المنافقون بعودته إلى المدينة ليبقى فيها، وخاب سعيهم في ما كانوا أضمروه من النهب والغارة، وعَظُمَ عليهم مقام علي (ع) لعلمهم باحتراس المدينة به وقطع مطامعهم فيها، فساءهم ذلك وقد كانوا يؤثرون خروجه مع النبي، وأرجفوا كذباً وزوراً بقولهم إنه خلفه استثقالاً له، لا إكراماً له ومودة. وبلغته أراجيفهم، فركب (ع) راحلته وخرج في أثر النبي (ص) إثباتاً لِفِرْيَتِهم وأكاذيبهم ورغبةً في فضيحتهم وبُهْتِهِم، إلى أن انتهى إليه في مكان يقال له «الجُرْف»[٣١]،

---

٣١ ـ الجُرْف: مكان على بُعد ثلاثة أميال من المدينة.

فدخل عليه، وقال له بعد السلام والتحية: «يا رسول الله، لقد زعمت قريش أنك خلَّفتَني استثقالاً لي ومَقْتاً»؛ فتضجر النبي من مفترياتهم وأقاويلهم، وقال (ص): «طالما آذت الأمم أنبياءها!»؛ ثم قال له: «ارجع يا أخي إلى مكانك، فإن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك، فأنت خليفتي في أهل بيتي وقومي ودارِ هجرتي، أمَا يكفيك أنك جلدة ما بين عينيَّ ونور بصري وكالروح في بدني، وإن لكَ عَلَيَّ ـ لمحبتك ـ أن أسأل الله أن تشاهد مِن محمدٍ سَمْتَه[٣٢] في سائر أحواله، وأن يأمر اللّهُ جبرائيل في جميع مسيرنا هذا، أن يرفع الأرض التي نسير عليها، والأرض التي تكون أنت عليها، ويُقوّي بصرك حتى تشاهد محمداً وأصحابه في سائر أحوالك وأحواله، فلا يفوتك الأُنْسُ من رؤيته ورؤية أصحابه، ويغنيك ذلك عن المكاتبة والمراسلة»؛ ففرح أمير المؤمنين (ع)، ورجع إلى المدينة وأنشأ يقول:

ألاَ باعَدَ اللّهُ أهلَ النِفا	ق وأهلَ الأراجيفِ والباطلِ[٣٣]
يقولون لي قد قَلاك الرسول	فخلاَّك في الخَلَف الخاذلِ[٣٤]
ومـا ذاك إلا لأن النـبـ	يَّ جَفاكَ وما كان بالفاعلِ
فسِرتُ وسيفي على عاتقي	إلى الراحِم الحاكم الفاصِلِ
فلما رآني هَفا قلبه	وقال مَقال الأخ السائلِ
أَمِمِ ابْنَ عمي فأنباتُهُ	بأرْجاف ذي الحَسَد الداغلِ[٣٥]
فقال: أخي أنت مِن دونِهِمْ	كهارون موسى، ولم يَأتَلِ[٣٦]

---

٣٢ ـ سَمْته: مقصده، طريقه، اتجاهه.

٣٣ ـ الأراجيف: الأكاذيب، الأخبار السيئة المختلَقة.

٣٤ ـ قَلاكَ: أبغضك، نَفَر منك ـ خلَّاكَ في الخَلَف: أبقاك في جماعة المتخلفين غير المناصرين.

٣٥ ـ أمِمْ: ترأس، تَوَلَ الإمامة والقيادة (فعل الأمر من أَمَّ: صار إماماً ومتقدماً) ـ أرجاف: أراجيف، مفتريات، أكاذيب ـ الداغل: المفتري، السيىء النية.

٣٦ ـ لم يأتلِ: لم يتردد.

وازداد المنافقون المتخلفون غيظاً وغضباً، وكلما هموا بوقيعة في بقية المسلمين المقيمين في المدينة، غلب عليهم الخوفُ من أمير المؤمنين (ع) وامتنعوا عن ذلك، حتى اتفقت كلمتهم على التماس حيلة في قتله (كانوا في ظنهم متأكدين من عدم رجوع النبي (ص) من سفره، يقولون: هي كرة محمد التي لا يؤوب منها)، فحفروا في الطريق الذي لابد لعلي (ع) من سلوكه حفيرةً بعمق نحو خمسين ذراعاً، وغطوها بحُصُرٍ رِقاق نثروا عليها شيئاً يسيراً من التراب يغطيها، وكان حواليها أرض ذات أحجار أضمروا أن يكبسوه بها عند سقوطه في الحفيرة.

فلما كان الصباح، ركب أمير المؤمنين (ع) دابته على عادته، وخرج من الدار إلى أن قَرُب من الحفيرة، فأنطقَ الله الفَرَس بقدرته وأخبر أميرَ المؤمنين (ع) بمكر القوم، فجزاه أمير المؤمنين خيراً ودعا له، ثم أمره بالسير على وجه الحفيرة من غير وَجَل ولا خوف؛ وبادر الفرس إلى إطاعة أمره، ومَضَى مسرعاً حتى جاوز الحفيرة وقد صارت باذن الله كالصخرة الصلبة، ثم لوى عنقه نحو أمير المؤمنين (ص) وخاطبه بقدرة الله تعالى قائلاً: «ما أكرمَكَ على رب العالمين!»؛ هذا والقوم محيطون به أماماً وخلفاً، وقد أدهشهم ما رأوا من سلامة علي من الحفيرة ومقالة الفَرَس له.

ثم أمرهم أمير المؤمنين (ع) بكشف الموضع فانكشف، وسألهم عن مَن عمله فقالوا: «لا نعلم»؛ فقال (ع): «ولكن فرسي هذا يعلم»؛ وتوجه إليه وقال له: «أيها الفرس، كيف هذا؟ ومن دبره؟»؛ وأمره بالنطق بقدرة الله تعالى، فسمع القوم كلامه بلسان طَلْقٍ يقول: «يا أمير المؤمنين، إذا كان الله عز وجل يُبْرِم ما ينقُضُه جُهّال الخَلق وينقض ما يُبرمونه، فالله هو الغالب وهم المغلوبون!»؛ ثم قال: «فعل هذا فلان وفلان...» حتى ذكر عشَرةً من المنافقين؛ وقال: «إنما ذلك بمواطأة من أربعة وعشرين، انطلق الآخَرون منهم مع النبي ليدبروا قتله على العقبة، والله من وراء حياطة رسوله ووَليِّه، لا يغلبه الكافرون»؛ فازداد القوم بسماع ذلك دهشةً وعجباً، وجعلوا ينظر بعضهم إلى بعض، ولكن لا يزدادون إلا كفراً ونفاقاً غضباً من

فشلهم، ولا يذعنون، ويفسرون المعجزة بأنها سحر.

وانصرف عنهم أمير المؤمنين (ع)، ولحقه بعضُ مَن حضر من المؤمنين، يشير عليه أن يكاتب النبي، أو يبعث إليه رسولاً مسرعاً يُحذِّره من كيد القوم، فقال (ع): «إن كتاب الله إلى محمدٍ اسبق، ورسوله إليه أسرع، فلا يَهُمَّنَكم ذلك»؛ وصار الأمر كما أخبر (ع)، فقد نزل في وقته جبرائيل على النبي (ص) وهو يومئذ في الطريق، وأخبره بما جرى لأمير المؤمنين في المدينة، فجمع النبي قومه وأخبرهم بذلك. وسمع المنافقون في جملة الناس مقالته فلم يصدقوه، واجتمع بعضهم مع بعض يقولون: «ما أمهر محمداً بالمخرقة، وأن فَيْجاً[37] مسرعاً أو طيراً أتاه من المدينة، وأخبره بقتل علي الذي واطأنا عليه أصحابَنا، فهو يكتم الخبر ويقلبه إلى ضده، يريد أن يسكِّن مَن معه، كي لا يمدوا عليه أيديهم، وهيهاتَ والله! ما أَلْبَثَ علياً بالمدينة إلا حتفُهُ وقد هَلَك، وما أخرجَ محمداً إلى هنا إلا حتفُه وهو هالكٌ لا محالة». ثم نهض القوم وأقبلوا على رسول الله يهنئونه بسلامة أمير المؤمنين، ويظهرون له السرور بذلك استجلاباً لقلبه إليهم، حتى يُمضوا فيه تدبيرهم.

ثم أخذوا يَسألونه (ص) عن فضل علي (ع)، وهل هو أفضل أم ملائكة الله المقربون؟ فذكر لهم شرحاً طويلاً من فضائل أمير المؤمنين علي (ع)، إلى أن قال: «وهل شَرُفَت الملائكة إلا بحبهم لمحمد وعلي وقبولهم لولايتهما؟! ألاَ إنه لا أحد من محبي علي قد نظف قلبُه من أقذار الغِش والدَغَل والغِل ونجاسات الذنوب[38]، إلا كان أطهر وأفضل من الملائكة، وهل أَمَرَ الله الملائكة بالسجود لآدم إلا لكونهما في صلبه؟!»، إلى آخر ما ذكره (ص) من ذلك، فقام القوم وانصرفوا من عنده يستهزئون في ما بينهم بكلامه، حتى قال بعضهم على نحو الاستهزاء: «أَمَا تخافون

---

٣٧ ـ فَيجاً: رسولاً، بريداً، ناقل أمر أو ناقل خبر.

٣٨ ـ الدَغَل: التصرف المريب، الخيانة ـ الغِل: الحِقد.

أن يُخبر اللّٰهُ محمداً بما نحن فيها وبما في قلوبنا، ويُنزل عليه بذلك قرآناً يقرأه الناس؟!»؛ فنزل على النبي قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾[39]، وأضاف تعالى في آية تالية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ...﴾[40] وردَّ سلفاً على اعتذارهم الكاذب بقوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[41]، فأرسل النبي (ص) إليهم عمارَ بن ياسر يدعوهم ويخبرهم بما أخبره الله به من مقالتهم واستهزائهم، فأخذوا يعتذرون بأنا قلنا ما قلناه على حد اللعب والمزاح، وازدادوا عجباً مِن علم النبي بما جرى بينهم وبمقالاتهم وأباطيلهم، وأسلم أربعة منهم بعد الشك والنفاق كان احدهم «مختير بن الحمير»، وسماه النبي «عبد الله» وعفا عنه، ودعا الرجل لنفسه بالشهادة، فاستجيب له وقُتِل يوم اليمامة.

ثم سار النبي (ص) بجموعه، وإذا هم بجبل يرشح منه الماء وعجب الناس منه، فأخبرهم النبي أنه يبكي، فازدادوا بمقالته عجباً يقولون: «كيف يكون ذلك؟»؛ فتوجه إلى الجبل يناديه: «أيها الجبل، مم بكاؤك؟»؛ وإذا بِرَنَّةٍ منه تقرع الأسماع يقول: «يا رسول الله، مرَّ بي عيسى بن مريم وهو يتلو: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[42] وإنما خوفي وبكائي مِن أن أكون من تلك الحجارة»، فأمَّنه النبي (ص) وقال له: «إنما تلك حجارة الكبريت»؛ فسكنت رنته وجف رشحه من وقته، ولم يبق فيه أثر من ذلك قَط.

ثم ساروا حتى انتهوا إلى وادٍ كان يعرف فيه الماء، فوجدوه يابساً ليس فيه أثر من الماء، فعظمت بليتهم وضاقت صدورهم، واجتمعوا عند

---

٣٩ ـ ج ١٠/س ٩ التوبة: ٦٤.
٤٠ ـ ج ١٠/س ٩ التوبة: ٦٥.
٤١ ـ ج ١٠/س ٩ التوبة: ٦٦.
٤٢ ـ ج ٢٨/س ٦٦ التحريم: ٦.

النبي يشكون إليه ذلك، فأخذ سهماً من كنانته وناوله رجلاً منهم، وأمره بِنَصْبِهِ بأعلى الوادي، فلما فعلَ تفجرت منه اثنتا عشرة عيناً جرت في الوادي، حتى ارتووا وملأوا قِرَبهم.

وانصرفوا عنه حتى انتهوا إلى مرحلة أخرى ونفد بها ما معهم من الماء، حتى غلب عليهم العطش ولم يهتدوا إلى حيلة لِما نزل بهم، فاستقبل النبي (ص) القبلةَ وأخذ في الدعاء، فسرعان ما ارتفعت سحابة في السماء، ولم يبرح النبي من موضعه حتى سُقِيَ الناس وملأوا الأَسْقِيَة[٤٣]، فقيل لرجل من المنافقين: «ويلك! أبعد هذا مجالٌ بعدُ للشك؟»؛ فقال: «سحابة مارة»؛ ولم يذعن للنبي بشيء.

ثم انكشفت السحابة من ساعتها، فساروا حتى انتهوا إلى «وادي القُرى»[٤٤] ونزلوا فيه، فنادى منادي النبي: «ان ريحاً شديدةً ستهب الليلة فلا يَقُومَنَّ أحدٌ منكم من موضعه إلا مع صاحب له، ومَن كان له بعير فليوثقه بعقاله»؛ وحدث كما أخبر (ص)، فقد هاجت في الليل ريح شديدة أفزعت الناس، ولم يقم من المرافقين الخارجين مع الرسول إلا رجلان من «بني ساعدة»، خرج أحدهما لحاجته، وثانيهما لبعير له يتفقده دون أن يتقيدا باصطحاب مرافق (كما أمر النبي) فأخذتهما الريح، وضلت ناقة النبي في تلك الشدة، فقال أحد المنافقين مستهزئاً: «يخبرنا محمد بخبر السماء، ولا يدري أين ناقته»؛ وبلغ النبي خبر مقالته، فقال (ص): «إني لا أعلم إلا ما علّمني الله، وقد أخبرني الآن إنها بشِعْب[٤٥] كذا وزِمامُها[٤٦] ملتف بشجرة كذا»؛ فانتهى الناس إليها، وإذا هي كما أخبر وأتوا بالناقة.

---

٤٣ ـ الأَسْقِيَة: أوعية من جلد يوضع فيها الماء أو اللبن وما شابههما (مفردها: السِقاء).

٤٤ ـ وادي القُرَى: وادٍ بين الشام والمدينة. . فيه قرى كثيرة وبها سُمي وادي القرى. . وكانت قديماً ثمود وعاد ـ معجم البلدان.

٤٥ ـ الشِعْب: طريق في الجبل، أو بين جبلين.

٤٦ ـ الزِمام: المِقْوَد، الحبل الذي تُقَيَّد به الدابة، (الرَسَن).

ثم ارتحلوا، وظلوا يسيرون حتى طال عليهم السفر وحتى نفد ما عندهم من الطعام، ولم يبق منه إلا بقايا قليلة قد فسدت أو شارَفَت على الفساد، فاجتمعوا إليه (ص) يسألونه طعاماً طرياً ولحماً مشوياً وحَلْوَى، ويشكون إليه فساد ما بقي عندهم من الزاد يقولون: «يا رسول الله، قد بَشِمْنا[٤٧] من هذا الطعام الذي معنا، وقد عَتِق وأيبَس، وكاد أن يريح[٤٨] ولا صبر لنا عليه»؛ فطلب ما بقي معهم، فجاء كل منهم بما كان قد بقي عنده من كَفِ دقيق أو سَويق[٤٩] أو تمر، فبسط رداءه تحتها ووضع يده على كل منها، ثم نادى مناديه في الجموع: «ألاَ مَن أراد الزاد، فليأتِ»؛ فأقبل الناس من كل جانب يأخذون الدقيق والتمر والسويق والطعام الطري، حتى ملأوا ما كان معهم من الأوعية، ولم ينقص مما في الرداء شيء. وبينما هم كذلك مرَّ فجأة طائر فوق رؤوسهم، فاشتهته نفوسهم، فأمر النبي بعضهم أن يناديه ويقول له: «إن رسول الله يأمرك أن تقع على الأرض»؛ فلم يلبث الطير إذْ سمع النداء أن وقع أمام النبي (ص)، فأشار إليه فصار لحماً مشوياً، فأمرهم (ص) بأكله مع ذكر اسم الله عليه والصلاة على محمد وآله الطيبين، فأخذوا يأكلون منه فرقة فرقة حتى أكلوا بأجمعهم منه وهم ألوف كثيرة وشبعوا، ثم اشتهت نفوسهم ـ كبني إسرائيل ـ البقل والقثاء والفوم[٥٠] والبصل وطلبوها من النبي، فأجابهم (ص) إلى ذلك بعد تهديدهم بمسخ أو بعذاب من الله إن بقي منافقهم على نفاقه وشكه بعد رؤيته لتلك الكرامات والمعاجز منه. ثم أشار (ص) إلى عظام الطير وجناحيه وريشه، فانقلبت بقدرة الله وكرامة نبيه (ص) إلى ما اشتهوه،

---

٤٧ ـ بَشِمنا: أُتخِمنا، أو: سَئمنا.

٤٨ ـ يريح: تفوح منه رائحة.

٤٩ ـ كف دقيق: مقدار ما تسع كف اليد من الدقيق ـ الدقيق: الطحين ـ السَويق: الناعم من دقيق الحنطة والشعير.

٥٠ ـ الفوم: الثوم.

ودهش القوم من كل ذلك دهشة بالغة؛ ولما أكلوا منها حتى الشبع الكامل وقد طابت لهم كثيراً، سألوه ماء أو لبناً أو شراباً آخر، فأجابهم إلى ذلك أيضاً، تثبيتاً للإيمان في قلوب مؤمنيهم، وإتماماً للحجة على منافقيهم، وأمر (ص) كلاً منهم أن يأخذ شيئاً مما بقي من لحم الطير (ولم يكن قد نقص منه شيء بعد ما شبعوا منه بأجمعهم) وأن يضعه في فمه، مع ذكر اسم الله عليه والصلاة على رسوله وآله الطيبين، فلما فعلوا، انقلب اللحم في فم كلٍ منهم إلى ما اشتهاه من الشراب، وازدادوا حيرة وعجباً وإيماناً ونفاقاً؛ ثم أمر الطير بعد ذلك ـ كما فعل المسيح (ع) ـ أن يرجع حياً، فلم يتم كلامه (ص) حتى رجع الطير حياً سوياً بإذن الله تعالى، وطار في الجو، ولم يبق بين يدي القوم من العظام والريش والجناح وغيرها شيء قط، فتفرقوا وقد غلبهم البُهتُ والحيرة والعجب.

ثم ارتحلوا، ولقي النبي (ص) في طريقه «الجد بن قيس» ـ وكان رجلاً منافقاً مُغرَماً بالنساء ـ فقال له: «ألا تنفر معنا يا أبا وهب في هذه الغزاة، لعلك أن تحتقِبَ[51] بنات الأصفر[52]»؛ فقال: «يا رسول الله، والله إن قومي لَيعلمون أنه ليس فيهم أحد أشد عجباً بالنساء مني، وأخافُ إن خرجتُ معك أن لا أصبر إذا رأيتُ بنات الأصفر، فلا تَفتِنّي، وائذن لي أن أقيم»، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾[53]؛ وانصرف «الجد» عن الرسول (ص) وهو يقول للناس: «أيطمع محمد أن يرجع من هذه الحرب، ويزعم أن حرب الروم مثل حرب غيرهم؟! والله إنه لا يرجع ولا أحد من أصحابه هؤلاء أبداً»؛ ثم أخذ ينهاهم عن متابعة الرسول (ص) يقول لهم: «لا تنفروا في الحر»، فاعترضه ابنه ينهاه عن إغواء الناس والرد على رسول الله، وقال له: «والله لَيُنزِلَن

---

٥١ ـ احتقبها على فرسه: أركبها وراءه على فرسه.

٥٢ ـ بنات الأصفر: بنات الروم.

٥٣ ـ ج ١٠/س ٩ التوبة: ٤٩.

اللّهُ في هذا قرآناً يقرأه الناس إلى يوم القيامة»؛ وتحقق ذلك بنزول الآية الكريمة ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾[54].

ثم ارتحل النبي (ص) بمن معه، حتى إذا صاروا على بُعدِ ليلة من وادي تبوك، قال (ص) لهم: «إنكم ستأتون غداً - إن شاء الله تعالى - حين يضحي النهار عَينَ تبوك، فلا يَمُسَّنَ أحد من مائها حتى آتيها»، فلم يسبقه إليها إلا رجلان، وكانت عيناً شحيحة قليلة الماء، فلما قدم إليها، عرف الرجلين المتسابقين نحوها، فعاتبهما على مخالفتهما، وتقدم (ص) فاغترف من مائها شيئاً قليلاً غسل به وجهه ويديه، ثم أعاده فيها، فسالت بماء كثير استسقى منه آلافُ جموعهِ كفايتَهم. ثم قدم بهم في الغد وادي تبوك - وكان الثالث من شعبان - وأقام فيه بقية شهره وأياماً من شهر رمضان.

وقدم على النبي (ص) بعد ثلاثة أيام من قدومه «أبو ذر الغفاري» (رض)، وكان قد تخلف عن النبي وجموعه لأن جَمَله الذي كان أعجف عجز في بعض الطريق عن المشي، فتركه وحمل أثقاله على ظهره يمشي، ومر في طريقه على صخرة كان قد تجمع عليها قليل من ماء السماء، فذاقه فإذا هو عذب بارد، فقال في نفسه: «لا أشربه حتى يشربه حبيبي رسول الله»، فملأ منه إداوةً[55] كانت معه ليقدمها للرسول (ص)، فلما أشرف على وادي تبوك، لمحه النبي (ص) فأخبر من معه أنه أبو ذر وهو عطشان، وأمرهم أن يدركوه بالماء، فلما قدم على النبي (ص) سأله عن صبره على العطش مع ما معه من إداوة الماء، فأخبره أنه لم يشربه على ما به من العطش، حذراً من كون النبي (ص) عطشان، وهو أعز عليه من نفسه، فترحم عليه النبي (ص) ثم قال (ص) له: «يا أبا ذر، تعيش وحدك، وتموت وحدك، وتُبعَث وحدك، وتدخل الجنة وحدك! يَسعد بك قوم من أهل العراق، يتولون غسلك وتجهيزك ودفنك والصلاة عليك». وقد تحقق

---

٥٤ - ج ١٠/س ٩ التوبة: ٨١.

٥٥ - إداوة: إناء ماء صغير من جلد.

ما قاله رسول الله (ص)، فعاش أبو ذر (رض) السنوات الأخيرة من عمره (حين نفاه الخليفة عثمان) وحيداً في جنوبي بلاد الشام[٥٦]، ثم وحيداً بعد

---

٥٦ ـ جغرافياً تعني عبارة «بلاد الشام» ـ منذ القديم ـ قسماً كبيراً من (ما يُسمَّى اليوم دُول) سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، ويُطلِق عامة الناس اليوم اسم «الشام» على قَصَبتها (عاصمتها) مدينة «دمشق». والاحتمال الغالب، بل المشهور أن نَفْيَ أبي ذر (رض) إنما كان إلى ما يُسمَّى «جبل عامل» (في جنوبي لبنان وقسم من شمالي فلسطين) من بلاد الشام. وثمة رأي شائع أن التعاطف المذهبي والسياسي من أهالي جبل عامل، تاريخياً وحتى اليوم، مع خط الإمام علي بن أبي طالب (ع)، سواء في خط الخلافة والإمامة، أو في خط معارضة معاوية بن أبي سفيان (الذي كتب إلى الخليفة عثمان يشكو من أبي ذر ويطلب من الخليفة نقله من بلاد الشام، وقد استجاب الخليفة ونقله)، هذا التعاطف المذهبي والسياسي من «العامليين» مع خط الإمام علي (ع)، إنما كان نتيجة إقامة أبي ذر (رض) في جبل عامل. هذا وما تزال اليوم في بعض قرى جبل عامل آثار (أو أماكن) تحمل اسم أبي ذر أو تُنسب إليه، منها في بلدة «الصَرَفَنْد» الأثرية من العهد الروماني وربما الفينيقي (التي كانت قديماً تحمل اسم: سْرِبْتا Srepta) والقائمة على تلة مشرفة على ساحل البحر المتوسط، بين مدينتي «صيدا» و«صور»، في الجنوب الغربي من لبنان اليوم، غرفة يُرجَح أن أبا ذر كان يقيم فيها، وكذا في قرية «مَيْس الجبل» في الجنوب الشرقي من جبل عامل، القريبة جداً بل شبه لصيقة بالحدود الشمالية لفلسطين، مسجد يطلق عليه اسم «مسجد أبي ذر»، لعله كان مُصَلاّه، أو مسجداً بُني مكان بيته، كما أن في قرية «أنصار» بين الساحل الغربي القريب من مدينة «صور»، ومدينة «النبطية» إلى الشرق منها في وسط جبل عامل، موقع صغير المساحة يُنْسب إلى أبي ذر (رض).

وهنا نرى مناسباً أنْ نذكر، أنَ العلامة الجليل، آية الله لواساني، مؤلف هذا الكتاب ـ تاريخ النبي أحمد (ص) ـ بعد نزوله «الغازية» (اول قرية لزائر جبل عامل من الشمال) في أواخر العشرينات من القرن العشرين الميلادي (١٩٢٩م ـ ١٣٤٨هـ) كان يتفقد القرى المجاورة، بل وبعض القرى البعيدة أحياناً، للوعظ والإرشاد الديني، فاقترح على سكان «الصرفند» إقامة بناء مناسب مكان المسكن المنسوب إلى أبي ذر (رضوان الله عليه) أو فوقه، وهكذا كان؛ فقد جمع القوم مبلغاً من المال أصلحوا به البناء، ثم طبع السيد (رحمه الله) أسماءَ المتبرعين، ومبلغ ما تبرع به كلٌ منهم، ووجوه صَرْف تلك المبالغ، ووزَّعها على المتبرعين=

عودته إلى الحجاز (حين نفاه ثانية إلى الرَبَذة شمالي المدينة)، وتوفي في منفاه وحيداً ليس معه إلا زوجته وغلام[57]. وصَدَف أن الصحابي عبد الله ابن مسعود كان مقبلاً نحو المدينة في رهط من أهل العراق، فأخبرهم الغلام بوفاة أبي ذر طالباً عونهم في غسله وتكفينه ودفنه، فلما رآه ابن مسعود، بكى وصلى عليه وقال: «صدق رسول الله!».

ثم إن النبي (ص) بعد إقامته في تبوك أياماً ـ وقد كان بينه وبين أُكَيدِر مسافة مرحلة واحدة ـ دعا ذات ليلة الزُبَير وسماك بن خرشة، وأمرهما بالانطلاق ليلاً في عشرين من المسلمين إلى باب قصر أكيدر، ليقبضا عليه ويأتيا به، فاستعظما ذلك وقالا: «كيف يا رسول الله نأتيكَ به ومعه من الجيش ما قد علمتَ، عدا ألف نسمة من عبيده وإمائه وخَدَمه وحشمه ومَن معه في قصره؟! وكيف نحتال عليه كي يخرج من قصره وهذه ليلة قمراء، ونحن في الصحراء، وطريقنا إليه أرض ملساء، فكيف نَخفَى عليهم ويسترنا الله عن عيونهم؟! فأمرهما بالصلاة على محد وآله الطيبين، معتقدَينِ أن أفضل آله علي بن أبي طالب، وأكد ذلك على الزبير خاصةً وقال له: «يا زبير، عليك أنت خاصة أن تعتقد أنه لا يكون عليٌّ في قوم إلا كان هو أحق بالولاية عليهم، وليس لأحد أن يتقدمه»؛ ثم قال لهما: «فإذا أنتما فعلتما ذلك، جعل الله لكما نوراً لا يتبين معه لكما ظل، وتبلغان حائط قصره لا يراكما أحد، وعند ذلك يبعث الله غزلاناً تحك قرونها بباب قصره، فهو يراها ويفرح بها، وينزل إليها ليصطادها وهو يقول: مِن أينَ لحمدٍ مثلُ هذا؟ فتعترضه زوجته طالبة منه عدم الخروج من القصر وتقول: إن محمداً قد أناخ بِفِنائك، ولستُ آمَنُ أن يكون قد احتال عليك ودسَّ مَن

= وسواهم. ونضيف هنا أيضاً أنه أقيم بعد عهد مديد من سفر السيد (رحمه الله) بناءٌ جديد مكان السابق، وبجواره قاعة للاستقبالات والمحاضرات والمجالس العزائية، والغرفة «الغفارية» اليوم مَزار ديني للتبرك، ومَرفق سياحي.

٥٧ ـ في بعض الروايات أن مَن كان مع أبي ذر وزوجته «بنت»، وفي بعضها «ابن» لهما (لا غلام مرافق).

يقع بك ويغزوك؛ فلا يعبأ بمقالتها ويطردها عن نفسه يقول: إليكِ عني، فلو كان أحد انفصل عنه في هذه الليلة البيضاء، لَتَلَقَّتْهُ عيونُ أصحابنا ونَفَرَتْ منه الوحش؛ ثم ينزل أكيدر بعدئذ ويخرج لصيد الغزلان، فتهرب جميعها منه وهو يتبعها ويتبعها حتى يبعد عن قصره، فتحيطان ومن معكما به حتى تقبضوا عليه وتأتوني به»؛ فمضيا بمن معهما، وجرى الأمر كله كما أخبر به الرسول (ص)، وقَبَض المسلمون على أُكَيدر أسيراً.

فلما توجهوا نحو تبوك فاجأهم أسيرهم الملك في بعض الطريق يقول للقائدَين المسؤولَين الزبير وسماك بلهجة متوسلة: «لي إليكما حاجة»؛ فسألاه عنها وتكفلا بقضائها مهما كانت، إلا أن تكون تخلية سبيله، فسألهما نزعَ ثيابِ الملك وسيفِهِ ومنطقتِه عنه، وأن يحملاه إلى النبي بزي التواضع، استجلاباً لرحمته وعفوه عن قتله؛ ففعل القوم ذلك، ولبسوا ثيابه متبخترين بها. فلما قدموا على النبي، نظر (ص) إليهم وقال: «إن خيطاً واحداً من منديل أهل الجنة، خير من كل تلك الثياب وما بها من الذهب والجوهر، بل هو أفضل من ملء الأرض إلى السماء من مثلها».

ثم تقدم إليه أُكَيدِر يلوذ به ويسأله الإقالة وتخلية سبيله، على أن يدفع عن النبي مَن وراءه مِن الأعادي، فقال (ص): «وإن لم تف به؟»؛ فقال أكيدر: «يا محمد، إن لم أفِ لك، فإن كنتَ رسول الله يُظفرْك بي! مَن ساقَ الغزلان إلى بابي حتى ٱستَخْرَجْتَني من قصري؟ ومَن أعمى أبصار قومي عن أصحابك حتى قبضوا عليَّ وأتَوا بي إليك؟ وإن لم تكن نبياً، فستوقعني دولتك في قبضتك بمثل هذه»، فأجابه النبي (ص) إلى ذلك، وصالحه على الجزية بألفي وقية من الذهب وأربع مئة حلة في كل سنة، يدفع نصفاً منها في صَفَر ونصفاً في رجب، وعلى أن يُضيفَ مَن مرَّ به من عساكر المسلمين ويُزَوِّدَهم إلى مرحلة[58]، وإن هو نقض شيئاً من الشروط،

---

٥٨ - يُزَودهم: يؤمِّن ويقدم لهم زاداً (طعاماً) يكفيهم إلى مسافة مرحلة (أي مسيرة نصف يوم).

فقد بَرئَت منه ذمة الله وذمة محمد رسول الله، فأجابه أكيدر إلى الصلح على تلك الشروط، وانصرف إلى موضعه، ثم بعث إلى النبي (ص) ألفي بعير، وثماني مئة رأس من سائر الدواب، وأربع مئة دِرع، وأربع مئة رمح، وخمس مئة سيف، واستبشر المسلمون كثيراً وازداد المنافقون من أصحابه غيظاً وكمداً.

طار النبأ بذلك شرقاً وغرباً، فغلب الخوف قبائل الأعراب حتى ضاقت صدورهم وملئوا فزعاً ورعباً من النبي الكريم وجموعه، ونتج مِن ذلك أن أقبل إليه بتبوكَ أميرُ (أَيْلة) (وهو جبل قرب ينبع) وكان اسمه «يوحَنّا[٥٩] بن رؤبة» يأخذ الأمان منه لنفسه وعشائره، فصالحه النبي على الجزية، وكتب له بذلك كتاباً، ثم كتب مثله كتاباً لأهل جَرباء وأَذْرُح (قريتين من نواحي الشام) بينهما مسيرة ثلاث ليال يذكر فيه لهم الأمان؛ وبعث (ص) أيضاً أبا عبيدة بن الجراح في جمع من المسلمين إلى حي «جذام» يدعوهم إلى الإسلام، فانطلق أبو عبيدة بمن معه حتى انتهى إليهم، وقتل منهم رجالاً وأصاب منهم سبايا؛ ثم بعث (ص) سعدَ بن عبادة في سرية إلى حي بني «سُليم» وجموع «بَلِيّ»، فلما قربوا منهم هرب أهل الحي بأجمعهم، ورجع المسلمون إلى النبي.

وازداد المنافقون من الصحابة بعد كل تلك الفتوحات والانتصارات للنبي (ص) حسداً وعداوة، ولم يزالوا يجتمعون في ما بينهم، يتحادثون في أمره ويلتمسون حيلة للوقيعة والغدر به، إلى أن تَواطأوا واتفقت كلمتهم على أن يسبقوا النبي في المسير حين ينصرف من تبوك نحو المدينة، ويربطوا عليه الطريق عند جبل العقبة في ظلمة الليل، فيُنَفِروا ناقة النبي حين يصل إليهم، فترمي به من مَمَرّه بأعلى الجبل إلى قَعرِ المَهْوَى الذي

---

٥٩ ـ يوحَنَّا: هكذا ذَكر اسمه ابن الأثير في تاريخه «الكامل»، وهو الأشهر والمعروف حتى اليوم، وقد ذكرته مصادر أخرى بصورة «يُحنّه» [كما في سيرة ابن هشام]، بل وإن بعضها (ربما بسبب التباس أو خطأ في قراءة الخط قديماً) كتبه «بخته».

يَهول الناظرَ بُعدُه، وتفرق القوم على ذلك (وقيل: كان فيهم أمير الشام[٦٠] وأبوه، وسعد بن أبي وقّاص، وابن الجراح، وابن الوليد، وعبد الرحمان بن عوف، وعمرو بن العاص، وطلحة، وأبو الأعور، والمغيرة، وسالم مولى أبي حُذيفة، والأشعري)[٦١].

فلما ارتحلِ النبي (ص) بجموعه من تبوك، نزل عليه الوحي بخبر المنافقين ومُواطَأتهم على الغدر والفتك به؛ فلما قربوا من العقبة ـ وكان يقال لها: «عقبة ذي فتق» ـ نادى مناديه (ص): «ألاَ لا يَسبِقَنَّ رسولَ الله أحدٌ إلى العقبة ولا يطأها حتى يجاوزَها رسولُ الله»؛ فأبطأ الأقوامُ والجنود حتى ارتحل النبي في جوف الليل نحو العقبة، ولم يصطحب معه إلا سلمانَ آخذاً بزمام ناقته، وحُذَيفةَ يسوقها، وعماراً بجنبها، وسبقه المنافقون إلى العقبة متلثمين لا يُرَى منهم إلا الأحداق[٦٢]، وقد استبشروا بارتحال النبي (ص) منفرداً، ومروره على العقبة في سواد الليل بعيداً عن جنوده وتقدمه عليهم، يقولون بينهم: «ألاَ ترون حتف محمد كيف أغراه بأن يمنع الناس عن صعود العقبة معه حتى يقطعها وحده، وحتى يمضي فيه تدبيرنا وأصحابُه بمعزل عنه؟!».

ولما انتهى القوم إلى العقبة ـ وكانوا قد تواطأوا بينهم على قتل أي إنسي يرونه في الوادي أو على العقبة، كي لا يخبر النبيَ بأمرهم ويُبطل عليهم تدبيرَهم ـ تفرقوا على يمين الجبل وشماله وفوقه، وقد اصطحبوا معهم دِباباً[٦٣] من الجلود اليابسة كالقِرَب، وجعلوا في كلٍ منها شيئاً من

---

٦٠ ـ رجَّح بعض المؤرخين المتقدمين أنه يقصد معاوية بن أبي سفيان.

٦١ ـ في بعض المصادر أسماء أخرى مذكورة بكُناها (الكُنية: أبو فلان، أبو كذا...).

٦٢ ـ الأحداق (جمع حَدَقَة): سواد العيون، وقد تُطلق مجازاً على العيون عامة.

٦٣ ـ دِباب: آنِيَة، أوعية من جِلد (للماء أو الزيت أو اللبن...)، مفردها دَبَّة: إناء، وعاء...

الحَصَى، واختفوا في مواضعهم ينتظرون وصول النبي إلى العقبة وصعوده عليها. وكان النبي (ص) أمرَ حذيفة أن يسبقه إلى سفح الجبل، يتستر بأكبر صخرة يراها هناك (بعد أمر الصخرة بالمحافظة عليه من الأعداء بإذن الله تعالى وإذن رسوله، وبأن لا يَرَوهُ بينما هو يراهم ويعرفهم بأسمائهم وأعيانهم ويسمع محادثاتهم وأباطيلهم في ما بينهم)، فانطلق حذيفة خائفاً حتى انتهى إلى الصخرة، وبلّغها أمر النبي (ص) ثم تستر بها، ولم يشعر به القوم، بينما رآهم هو، وعرفهم في وجوهم، وسمع مقالاتهم في ما بينهم؛ ثم رجع إلى النبي وجعل يحدثه بكل ما رأى وما سمع منهم، وأخبره بأسمائهم واحداً فواحداً، فسار النبي على ناقته بين الثلاثة من صحابته وهو يقول لهم: «إذا كان الله يثبت محمداً، فلا يقدر هؤلاء ولا الخلق أجمعون أن يزيلوه! إن الله تعالى بالغُ أمرِه في محمد ولو كره الكافرون!».

ولما وصل النبي ومرافقوه إلى سطح العقبة، دحرج المنافقون دِبابهم من فوقه على الطريق وعلى جوانبه، حتى ملأ الوادي رنتُّها المهولة، وأخذت تتقلب من علو إلى هبوط حتى قربت من النبي وناقته، ثم ارتفعت إلى فوق رأس النبي بإذن الله تعالى ارتفاعاً كثيراً ولكن دون أن تصيبه أو ناقته أو أياً من مرافقيه، بل جاوزته وسقطت في الجانب المنحدر الهاوي واحدة فواحدة حتى انتهت بأجمعها، ولم تعبأ بها الناقة ولم تنفر براكبها، لَكأنها لم تحس بقعقعة شيء منها، ولم تعدل عن سيرها الرفيق.

وأخذ النبي (ص) ينادي المنافقين حين بدأوا برمي دباب الحجارة عليه (ص) يقول: «يا أعداء الله، أنتم أيها القُعود لتنفروا بناقتي!»، فلم يرد عليه أحد منهم بشيء وقد غلبهم الدهش والحيرة من أمر الدباب وعدم نفور الناقة وسلامة راكبها، وهم لا يزدادون بمشاهدة كل ذلك إلا كفراً وعناداً وغيظاً وحسداً، ولا يرون ما بهتهم إلا احتيالاً وسحراً؛ وتقدم حذيفة إلى النبي يستأذنه في قتلهم فأبى (ص) ذلك وقال: «إني أكرهُ أن يقول الناس قاتل بهم، فلما ظفر بخصمه قتلهم»؛ ثم إنه أمر عماراً أن يصعد إلى الجبل

ويضرب بعصاه وجوه رواحل[٦٤] القوم، فبادر عمار إلى ذلك ونتج منه أن نفرت منهم الرواحل حتى سقطوا مِن عليها، وانكسر من كل منهم عضو من عَضُدٍ أو رِجل أو جَنْب، واشتدَّت أوجاعهم؛ وافتضحوا وعلاهم الذّل والعار ولبسوا لباس الخِزي والشَّنار، وبقيت فيهم آثار الجروح التي لحقتهم مدى أعمارهم، وأخذ النبي يتأوه ويترحم على سعد بن مَعاذ[٦٥] يقول: «رحمكَ الله يا سعد! لقد كنتَ شَجاً[٦٦] في حلق الكافر، ولو بقيتَ لَكَفَفْتَ العِجل الذي كاد أن يُنْصَب في بيضة الإسلام كعجل قوم موسى»؛ فقيل: «يا رسول الله أَوَ عِجلٌ يُتخَذ في مدينتك هذه؟»؛ قال (ص): «بَلَى والله، ولو كان سعد حياً لما استمر تدبيرهم».

ثم سار النبي ولحقته جموعه إلى أن أشرفوا على المدينة، فاستبشر(ص) برؤيتها وقال: «هذه طابة، وهذا جبل أُحُد يحبنا ونحبه»؛ ثم دخل البلدة بعد ثمانين يوماً من خروجه منها، فتتابعت وفود القبائل والأعراب عليه للدخول في دينه طوعاً ورغبة، أو رعباً وخوفاً، وكان فيهم وفد من بني «ثقيف»، ووفد من أشراف بني «تميم» يقدمهم «عطارد بن الحاجب»، ووفد من «طي» فيهم «زيد الخيل» و«عَدِيّ بن حاتم» فأكرمهما النبي بعد قبولهما الإسلام، وانصرف زيد إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام ـ ولقَّبه النبي (ص) «زيد الخير» ـ وأخبر (ص) أصحابه بعد انصراف زيد أنه يخاف عليه من الموت بحُمَّى يقال لها «أم ملدم»، فانتهى زيد إلى مرحلة في سفره من بلاد نجد، فأصابته الحمى ومات بها. وأقام ابن حاتم عند النبي وحسن إسلامه، ومنَّ عليه النبي وعلى أخته بالعطاء والكسوة والإكرام.

---

٦٤ ـ رواحلهم: دوابُّ ركوبهم من خيل وجِمال.

٦٥ ـ سعد بن مَعاذ مؤمن مقاتل من قبيلة «الأوْس»، تقدم الحديث عنه في غزوة الخندق التي أصابه فيها سهم قطعَ عِرق الأكحل في يده، وعاش أمداً بعدها إلى أن انفجر جرح أكحله وتوفي بعد غزوة المسلمين ليهود بني قريظة الذين اختاروه حَكَماً فيهم، وحكمَ بقتل مُحارِبيهم.

٦٦ ـ شَجاً: غصة، ألم، هَمّ وحزن.

ثم وفَدَ عليه وفْدُ «سلامان» يقدمهم كبيرهم «حبيب»، ثم قَدِم عليه وفد «محارب» ـ ولم يكن أغلظ منهم على رسول الله (ص) ولا أفظّ ـ فتقدم إليه «سواءُ بن الحارث» ـ وهو أشدهم ـ يقول: «الحمد لله الذي أبقاني حتى صدَّقتُ بك»؛ فقال (ص): «إن هذه القلوب بيد الله!؛ ثم مسح بيده على وجه «خزيمة» وهو ابن «سواء»، فصار في وجهه غرة بيضاء. وأتاه يومئذ كتب من أمراء «حِمْيَر» يذكرون فيها قبولهم للإسلام ودخولهم في دينه.

ثم قدم عليه وفد «الأزد»، ووفد «غسان»، ووفد «عامر»، ووفد «زبيد»، ووفد «كِندَة»، ووفد «بني حنيفة» وفيهم «مُسَيْلِمَة الكذاب» وقد أسلم مع قومه، ولكنه حين انصرف إلى بلده باليمامة، ارتد عن الدين وادَّعى النبوة لنفسه.

وقدم على النبي أيضاً وفد «عَبْس»، ووفد «خولان»، وأقبل من الطائف «عروة بن مسعود الثقفي» وأسلم، ثم استأذن النبي في الرجوع إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام، فقال (ص) له: «أخاف أن يقتلوك»؛ فأنكر ذلك وقال: «إن وجدوني نائماً أيقظوني»؛ ثم انصرف بعد إذن النبي (ص) له حتى انتهى إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام، فنفروا منه وأسمعوه الأذى؛ ولما طلع الفجر من غد، قام في غرفة داره وأذن للصلاة، فرماه رجل بسهم فقتله.

ثم قدم على النبي كذلك وفد «بجيلة» وهم مئة وخمسون رجلاً، يَقْدِمُهم «جرير بن عبد الله» ـ وكان النبي (ص) قد أخبر أصحابه قبل ذلك بقدومهم ـ فبايعوا النبي (ص) وأسلموا على الشهادتين، وعلى إقام الصلاة وإيتَاءِ الزكاة، وصيام شهر رمضان، ونصح المسلمين، وإطاعة ولَي الأمر وإن كان عبداً حبشياً؛ ثم سأله النبي عما وراءه فقال: «يا رسول الله، قد أظهر اللّهُ الإسلام والأذان، وهدمت القبائل أصنامهم التي كانوا يعبدونها»؛ ثم سأله عن «ذي الخلصة» (وهو يومئذ بيت فيه صنم لقبائل «دوس وخثعم وبجيلة» وغيرهم، وكان كعبتهم التي يطوفون بها في اليمن) فقال: «هو على

حاله»؛ فأمره النبي بالانصراف إليه في قومه ليهدمه، فاعتذر عن ذلك وقال: «إني لا أثبت على الخيل»؛ وكأنه غلب عليه الخوف منهم، فمسح النبي صدره وهو يقول «اللهم اجعله هادياً مهدياً»، فاشتد قلبه وتنشط للخروج، وعقد له النبي لواءً، فخرج إليهم في قومه، ولم يكن إلا أيام يسيرة حتى رجع بمن معه إلى النبي (ص) يقول: «والذي بعثك بالحق هدمتُه وأحرقت الصنم بالنار وتركته كما يَسوءُ أهلَه»؛ فبارك النبي خيلَهم ورجالهم، وانصرفوا مستبشرين.

ثم أقبل من «بني زبيد» رجل يقال له «عَمْرو بن مَعْديكَرب»، وكان معجباً بنفسه وشجاعته، فلما قدم على النبي، قال (ص) له: «أسلمْ يا عمرو، يؤمِّنْك الله من الفزع الأكبر»؛ قال: «وما الفزع الأكبر يا محمد؟ فإني لا أفزع من شيء»؛ قال (ص): «يا عمرو، إنه ليس كما تظن! إن الناس يُصاحُ بهم صيحة واحدة، فلا يبقى ميتٌ إلا ونُشِر، ويُصَفُّون جميعاً، وتنشق السماء، وتخر الجبال، وتُهَدُّ الأرض هداً وترمي النارُ بمثل الجبال شرراً، فلا يبقى ذو روحٍ إلا انخلع قلبه، وذكَرَ ذَنْبَه، وشُغِل بنفسه، إلا مَن شاء الله! فأين أنت من هذا يا عمرو؟!»؛ فدهش الرجل وقال: «ألاَ إني أسمع أمراً عظيماً!». ولم يزل النبي (ص) يعظه ويرشده حتى أسلم مع مَن كان معه من قومه، ثم انصرف، ولكنه ارتد عن الإسلام[٦٧] بَعدئذٍ وأغار على قوم من بني الحارث بن كعب المسلمين، وانطلق إلى قومه. وبلغ النبي (ص) ذلك، فبعث أمير المؤمنين علياً (ع) في وفد فيهم خالد بن الوليد وأبو موسى الأشعري، إلى أن انتهى (ع) بمن معه إلى قوم عمرو، فقاموا واستعدوا للقتال على خوف وَوَجَل يُحرِّضون عَمْراً للبراز، إلى أن خرج بجماعة من قومه وتقدم للبراز وهو يقول:

---

٦٧ - ارتد عمرو بن معدي كرب عن الإسلام لأن النبي (بسبب أن الإسلام أهدر ثارات الجاهلية) رفض أن يأخذ عمرو بثأر أبيه الذي قتله في الجاهلية «أُبَيّ الخثعمي».

إني امرؤٌ أحْمي حِمايَ بعزةٍ ... وإذا تكون شديدةٌ لا أجزعُ
وأنا المُظَفَّرُ في المَواطِنِ كلِها ... وأنا شِهابٌ في الحوادثِ يَلمعُ
مَن يَلْقَني يَلقَ المنِيَّةَ والردَى ... وحياضَ موتٍ ليس عنه مُدَفَّعُ
فاْحذَرْ مُصاوَلَتي وجانِبْ مَوقِفِي ... إني لَدَى الهيجا أضَرُّ وأنفع[68]

فنهض خالد بن سعيد ليبرز إليه، واستأذن علياً (ع) في ذلك وقال له: «بأبي أنت وأمي يا أبا الحسن، دَعْني أبارزه»؛ فلم يوافقه الأمير (ع) على طلبه وقال له: «قف مكانك إن كنتَ ترى أن لي عليك طاعة»؛ ثم خرج هو (ع) بنفسه وهو يقول مجيباً على شعر عمرو:

يا عَمْرُو قد حَمِيَ الوَطيسُ وأُضْرِمَتْ ... نارٌ عليكَ وهاجَ أمرٌ مفظعُ[69]
وتَساقَتِ الأبطالُ كأسَ مَنِيَّةٍ ... فيها ذُراريحٌ وسَمٌّ مُنقِع[70]
فإليْكَ عني لا يَنالُكَ مَخْلَبي ... فتكوَن كالأمْسِ الذي لا يَرجِعُ
إني امْرُؤٌ أحْمي حِمايَ بِعزةٍ ... واللَّهُ يُخْفِضُ مَن يشاءُ ويَرفَعُ
إني إلى قَصدِ الهُدَى وسَبيلِهِ ... وإلى شَرايعِ دينِهِ أتَسرَّعُ
ورَضِيتُ بالقرآن وَحياً مُنزَلاً ... وبِربِنا رَبّاً يَضُرُّ ويَنْفَعُ
فينا رسولُ اللَّهِ أُيِّدَ بالهُدَى ... فلِواؤُهُ حتى القيامةِ يَلمَعُ

ولما انتهى (ع) إلى عمرو وأصحابه، صاح بهم صيحة منكرة تقطعت بهم أفئدتهم، وكادت أرواحهم أن تفارق أجسادهم رعباً وفزعاً منه (ع)، ولم يملك عمرو نفسه دون أن وَلَّى دبره منهزماً، وفرَّ فرار الذئب من الضرغام، واختفى حتى كأنه طير غاب في الجو، أو صَيدٌ خسفت به الأرض. وحمل أمير المؤمنين (ع) على سائر مَن معه وكافة قبيلته، وقتل

---

٦٨ ـ مُصاوَلتي: مُنازَلَتي ومصارعتِي ومبادلتي الضرب والطعن في الحرب ـ والعبارة الأخيرة في البيت «أضر وأنفع» جاءت في روايةٍ «أضرُ وأدفعُ».

٦٩ ـ الوَطيس: التنور.

٧٠ ـ تساقَت الأبطال: سقَى بعضها بعضاً ـ المنية: الموت ـ ذراريح (جمع ذُراح وذُروح): دويبات من السموم تطير ـ مُنقِع: قاتل.

منهم جمعاً كان فيهم أخو عمرو وابن أخيه، وسَبَى منهم نساء كان فيهن زوجة عمرو، وخَلَّفَ عليهم خالدَ بن سعيد ليقبض صدقاتهم، ويُؤَمِّنِ المنهزمين منهم إذا رجعوا إليه مسلمين.

واصطفَى أمير المؤمنين (ع) من السبايا جارية لنفسه من الخُمس، فحسده خالد بن الوليد وغضب لذلك كثيراً، حتى بعث «بريدة الأسلمي» بكتاب إلى النبي (ص) في المدينة ليُوقِعَ في علي (ع)؛ ولما انتهى بريدة إلى المدينة ودخلها، لقيه أحد الصحابة[71] فسأله عن الغزوة وعن قدومه قبل الجيش، فأخبره بقصة الجارية، وأنه لم يَقدِمِ إلا للوقيعة في علي عند رسول الله (ص)، فقال له: «امضِ لما جئتَ له، فإنه سيغضب لابنته»، فلما قدم بريدة إلى النبي (ص) ومعه كتاب خالد، وأخذ يقرأ الكتاب عليه (ص)، تغير وجه رسول الله (ص) غضباً عليه وعلى خالد، وأشعر بريدةَ بذلك فقال: «يا رسول الله، إنك إن رَخَّصْتَ للناس في مثل هذا ذهبت فيهم»؛ فازداد النبي (ص) غضباً عليه وقال له: «أحدثْتَ نفاقاً يا بريدة، إن علي بن أبي طالب يَحِل له من الفَيْءِ[72] ما يحل لي! إن علي بن أبي طالب خيرُ الناس لك ولقومك، وخيرُ مَن أُخلِفُ بعدي لكافة أمتي؛ احذَر يا بريدة أن تُبغِضَ علياً فيبغضك الله»؛ فارتعد بريدة من شدة غضب النبي (ص) عليه، وأخذ يتمنى أن الأرض تنشق وتخسف به وهو يقول: «أعوذ بالله من سَخَط الله وسخط رسوله! يا رسول الله استغفر لي، فلن أبغض علياً أبداً ولا أقول فيه إلا خيراً»؛ فصفح عنه النبي (ص)، وتاب عليه واستغفر له.

ثم لما انصرف أمير المؤمنين علي (ع) من حي بني زبيد نحو المدينة، رجع عمرو بن معدي كرب إلى قبيلته، ودخل على خالد بن سعيد عامل أمير المؤمنين (ع) وتاب على يده وعاد إلى الإسلام، ثم كلمه في زوجته

---

٧١ - في بعض المصادر أنه الخليفة الثاني.

٧٢ - الفَيْء: الغنيمة، الخراج، المدخول.

ووُلْده السبايا، فأرجعهم خالد إليه ووهبهم له، فوهبه عمرو سيفَ صمصامةٍ كان له، ودخل أمير المؤمنين (ع) المدينةَ بمن معه، وتلقاه النبي (ص) مستبشراً بقدومه مرحباً بطلعته، حتى ضمه إلى صدره يقبل جبهته ويشكر سعيه ويبين للناس فضله.

ونزل ـ عقب عودة أمير المؤمنين (ع) ـ الأمرِ من الله تعالى على نبيه (ص) بهدم المسجد الضِرار الذي بناه المنافقون على طريق «قِبا» ـ وقد مر شرحه ـ وأنزل تعالى آيات في ذم المسجد ونفاق أهله، وفي فضل مسجد قبا والثناء على أهله، بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[٧٣]. فبعث النبي (ص) عَدداً من أصحابه فيهم عمار ابن ياسر، فهدموا المسجد الظالم أهلُه، وأشعلوا فيه سَعَف النخل حتى احترقت البنية، وهدموا حيطانه، واتخذه الناس بأمر النبي (ص) كُناسة[٧٤] تُلقَى فيها الجِيَف[٧٥]، وكان النبي (ص) عند المرور عليه إلى مسجد قبا يسرع في المشي ويتباعد عنه إلى ناحية الطريق، ويرفع ثيابه إلى ساقَيْهِ حذار أن يُصيبه شيءٌ من المحل.

ثم قدم على النبي (ص) وفد بَني «عامر بن صعصعة»، وفيهم «عامر بن الطفيل» وابن عمه «أربد بن قيس»، وكانا قد تَواطآ بينهما على الفتك بالنبي (ص)، فوقف ابن الطفيل عليه لِيُلْهِيَهُ بالكلام وقال: «يا محمد، ما لي إن أسلمتُ؟»؛ قال (ص): «لكَ ما للمسلمين، وعليك ما عليهم»؛ قال: «أتجعل لي الأمر بعدك؟»؛ قال (ص): «ليس ذاك إليَّ، إنما ذلك إلى

---

٧٣ ـ ج ١١/س ٩ التوبة: ١٠٧ و١٠٨.

٧٤ ـ الكناسة: مجمع الأوساخ والقاذورات.

٧٥ ـ الجِيَف: جُثث المَوتَى المنتنة.

الله، يجعله حيث يشاء»؛ قال: «فتجعلني على الوَبَر وأنت على المَدَر؟»[٧٦]؛ قال (ص): «لا»؛ قال: «فماذا تجعل لي؟» قال (ص): «أجعل لك أعِنَّةَ الخيل تغزو عليها»؛ قال: «أوليس ذلك لي اليوم؟»؛ ثم طلب النجوى معه أي الاختلاء به، فأجابه النبي (ص) إلى ذلك وتقدم إليه؛ فجعل عامر يغمز أربد أن يغدر بالنبي (ص) بأن يضربه بالسيف من خلفه، فدار أربد خلف النبي (ص) وجرد سيفه بمقدار شبر، فالتفت إليه النبي (ص) ـ وقد أُشعِر بسوء ضمائرهما ـ قال: «اللهم اكْفِنيهما بما شئت»؛ فيبست يد الرجل ولم يتمكن من اخترط السيف، وبادر إليهما الناس للقبض عليهما، فولّيا هاربَين، وارتفعت فوقهما سحابة سوداء رمت أربدَ بصاعقة أحرقته قبل أن تزل قدماه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[٧٧] وهرب عامر وهو يقول: «دعوتَ ربك يا محمد فقُتِل أربد، والله لأَمْلأَنَّها عليك خيلاً جُرْداً وفِتياناً مُرْداً»؛ حتى انتهى في سيره إلى بيت امرأة سَلوليَّة[٧٨] وبات عندها، ولما أصبح خرج مغضباً وعليه سلاحه وهو يقول: «والله لئن أصْحَرَ[٧٩] إليَّ محمد وصاحبُه (يعني مَلَك الموت) لأَنفِذَنَّهما برمحي»؛ فلم ينصرف في سيره إلا خطوات يسيرة حتى حدثت فيه غُدَّة عظيمة تحت جلده كغدة البعير، فرجع إلى بيت السلولية يتضجر ويقول: «أغُدَّةٌ كغدة البعير ومَوتٌ في بيت سَلولية!؟»؛ ولم يلبث حتى هلك في يومه.

ثم قدم على النبي (ص) ذات يوم في المسجد بعد صلاة الغداة[٨٠]، أعرابي طويل القامة عظيم الهامة متعمم بعمامة على ناقة له، فأناخها

---

٧٦ ـ تجعلني على الوَبَر: أي الآمر المسؤول على الحيوانات، على الخيل والإبل ـ وأنت على المَدَر: على البلدان والمساكن.

٧٧ ـ ج ١٣/س ١٣ الرعد: ١٣.

٧٨ ـ امرأة سَلولية: امرأة من بني «سَلُول».

٧٩ ـ أصحَرَ إليَّ: جاءني خارج البيوت، . . . في الأراضي المنبسطة الواسعة.

٨٠ ـ الغِداة: الصباح الباكر، بين الفجر وطلوع الشمس.

وعَقَلها بباب المسجد، ثم دخل المسجد يتخطى الناس وهم يوسعون له حتى انتهى إلى النبي (ص) وأسفر عن لثامه، وَهمَّ أن يتكلم، فأخذته رعدة لم يتمكن معها من الكلام، فصبر هنيهة حتى سكن ما به، ثم همَّ ثانياً وثالثاً بالكلام، وفي كل ذلك يغلب عليه الفزع ويمتلىء رعباً ويُرتَجُ عليه[81] ولا يمكنه التكلم هيبة من النبي (ص)، وشعر به النبي (ص) وبما أصابه، فالتهى عنه بالحديث مع أصحابه حتى أَنِسَ الرجل وفرخ رَوْعُه، فقال له النبي (ص): «قل لله ما أنت قائل»؛ فأنشد الرجل أبياتاً من الشعر اعتذاراً مما أصابه، فاستوى النبي (ص) جالساً بعد أن كان متكئاً وقال له: «أنت أَهْيَبُ بنُ سَمّاع؟»؛ قال: «نعم، أنا أهيبُ بنُ سماع، الأبِيُّ الدَفَّاع، القوي المنَّاع»؛ ثم حدثه النبي بما ألهمه الله من علمٍ عنه وعن قومه بأنهم شنوا الغارات، وأتوا بما أتوا به من الهفوات، ولمْ يمتنعوا عنها إلا منذ بضعة أشهر بعد سنوات، وأنهم أصيبوا بمَحْلٍ شديد وقحط عظيم حتى أنهم صاروا يصطادون الضب المكنون[82] بعد إرصاد[83] طويل؛ ثم حدثه النبي (ص) أيضاً بما حدث به نفسه في طريقه، واختلج في فكره أن يسأل عنه النبي، فأخبره النبي (ص) بكل ذلك حرفاً فحرفاً، حتى دهش الرجل وحار وهو يقول: «لا والله، لا أطلب أثراً بعد عَيْن[84]، فكأنكَ كنت معي في طريقي وكنت شريكي في أمري»، إلى أن قال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله». ثم قال: «زدني يا رسول الله شرحاً وبياناً، أزدَدْ بك إيماناً»؛ فقال (ص): «أتذكر إذ أتيتَ صَنَمَك في الظهيرة، فعَنَزْتَ له العَنيزة[85]»، قال: «نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إن الحارث بن أبي

---

٨١ ـ يُرتَجُ عليه: يتلعثم، لا يمكنه النطق والكلام.

٨٢ ـ الضَبّ: حيوان من الزَّحافات، له ذَنَب فيه عقد كثيرة، ويشبه الضب الحرذون ـ المكنون: المتخفي، المستتر.

٨٣ ـ الإرصاد: المراقبة والتحري.

٨٤ ـ العَين والعِيان: المشاهدة الظاهرة الواضحة التي لا مجال للشك فيها ـ الأثر: ما يدل على الشيء ويرشد إليه.

٨٥ ـ عَنَزْتَ: طَعَنتَ ـ العنيزة: الذبيحة.

ضرار المُصْطَلَقي جمع لك جموعاً ليدهمك بالمدينة، واستعان بي على حربك، وكان لي صنم يقال له واقب»[86]، فرقبت خلوته وقَمَمْتُ[87] ساحته ونفضت التراب عن رأسه وعَنَزْتُ له عنيزة لأستخيره في أمري وأستشيره في حربك، إذ سمعتُ له صوتاً قام له شعري واشتد له ذعري، فوليت لأهرب منه فزعاً إذ سمعته يقول:

أَهُيَبُ مالكَ تَجزَعْ لا تَنأ عني وارجع وٱسمَعْ مقالاً يَنفَعْ
جاءكَ ما لا يُدفَع نَبِيُّ صِدقٍ أرْوَع فٱقصِدْ إليه أسرع
تأمَنْ وَبالَ المضرَعْ

فانصرفت إلى أهلي مذعوراً ولم أُعْلِمْ أحداً بما حدث لي. ولما كان من الغد، رجعتُ إلى الصنم في الظهيرة، ورقبتُ خلوته وقممتُ ساحته وعنزت له عنيزة أخرت صبغته بدمها، إذ سمعت له صوتاً هائلاً، وكلاماً مثل كلامه في اليوم السابق، فوليت هارباً، وركبت ناقتي ولبست لَأْمَتي[88] وتكبدت الطريق حتى أتيتك، ولم يَعلم بكل ذلك أحد»؛ ثم سأل النبي (ص) أن يعلمه شرائع الدين، فأمر النبيُ (ص) علياً (ع) أن يعلمه شيئاً من القرآن والأحكام، وأقام الرجل أياماً حتى تعلم أشياء وحَسُنَ إسلامه. ثم سألَ النبيَ (ص) أن يوجهه في جماعة من المسلمين ليشنوا الغارة على الحارث بن أبي ضرار، فوجهه النبي (ص) مع أمير المؤمنين علي (ع) في جماعة، حتى أغاروا عليهم وظفروا بهم وغنموا شيئاً كثيراً من جِمالهم ومَواشيهم.

---

٨٦ ـ اسم علم للصنم، ومعناه لغوياً: المُقْبل، الآتي.
٨٧ ـ قَمَّ: نَظَّفَ، قَمَمْتُ: كنستُ، نظفتُ.
٨٨ ـ لَأْمَتي: دِرعي.

قصة «المُباهَلَة»
بين النبي (ص) ووفد «نَجران»

«المُباهَلَة» عبارة تعني تَوافُقَ فريقَين مختلفَين في الرأي أو في غيره، على إجراء «ابتهال» (أي: دعاء) مِن كلٍ منهما إلى الله سبحانه أن يُنزِل لعنته وغضبه وعذابه على الكاذب أو المخطيء منهما المُصِرِّ على كذبه أو خطئه؛ وعَمَلُ المباهلة هذا كان مطبقاً ومعمولاً به في الجاهلية وحين ظهور الإسلام.

وقد جرت دعوة إلى المباهلة بين النبي (ص) ووفد من قبائل مدينة «نَجْران» (التي كانت مركز منطقة واسعة تقع في الجنوب الغربي من الحجاز، بشمالي اليمن وجنوبي منطقة «عسير» على ساحل البحر الأحمر)، وكان ذلك الوفد قد أتى من نجران ـ البعيدة عن «المدينة» مقر الرسول وعاصمة المسلمين ـ ليباحثوه (ص) في أمر دعوته الدينية الجديدة.

وكان السبب في مجيء وفد قبائل نجران للقاء الرسول (ص)، أخبار فَتْح المسلمين لمكة، وخضوع القبائل العربية عامة له (ص)، على كثرتها وتَشَتُّتها وكبريائها وتَفَرْعُنها، وأخبار انتشار دُعاته (ص) ورُسُله وكتبه إلى باقي بلاد الجزيرة العربية والدول والقبائل المجاورة لها، حتى بلغت مساعيه في دعوته مستوى مكاتبة أقوى دولتين في ذلك العصر، وهما دولتا الفُرْس والروم اللتان كتَبَ النبي (ص) إلى مَلِكَيْهما «كسرى» و«قيصر» ـ كما كتب إلى الملوك الذين هم أدنى منهما ـ وإلى عامة القبائل، يدعوهم إلى

الإسلام، فإن أبَوا فإلى دفع الجزية مع بقائهم على دينهم (إن كانوا من أهل الكتاب)، وإلا فالحرب؛ وقد أخافت تلك الأخبارُ قبائلَ نجران وتوابعها، وملأتهم رهبة بل رعباً، وغدَوا يتوقعون أن يأتيهم قريباً إنذار الرسول (ص) لهم - عملاً بأمر الله تعالى لرسوله (ص) بقوله جلَّ جلاله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾[1]، وتضاعفَ في نفوسهم احتمالُ أن يهاجمهم (ص)، فجعلوا يُكثرون الاجتماعات والمداولات والمشاورات في أمرهم ووَضْعهم، وما يجب أن يفعلوه...

وكان أهالي نجران ومنطقتها يختلفون عن باقي قبائل العرب، بأنهم كانوا نصارى أتباعاً لديانة المسيح (ع) (بينما كان باقي العرب في غالبيتهم مشركين عَبَدة أوثان، أو يهوداً) وكانوا في نصرانيتهم فِرَقاً مذهبية مختلفة، من السالوسِيَّة والأَرْيوسِيَّة والمارونية والنَسطورية واليعقوبية[2]، وفي أنسابهم

---

١ - القرآن الكريم، الجزء ٣ السورة ٣ آل عمران: الآية ٦٤.

٢ - «السالوسية» اسم فرقة لعله مشتق من «الثالوث»، إذ ثمة شعوب (كالفرس والهنود والترك وسواهم) ليس في لفظهم حرف «ث» فيلفظونه «س»، وعليه فكلمة «ثلاثة» مثلاً يلفظونها «سلاسة»، ومبدأ «الثالوث» (الأب والابن والروح القُدُس) الذي يقول به عامة المسيحيين، أو غالبهم يصبح «السالوس».

- و«الأريوسية» فرقة تقول بأن الله خَلَقَ كائناً أول أوحد (هو: أريوس، وفي اليونانية: أيون ione) **تولدت منه باقي المخلوقات في ما بعد.**

- و «النسطورية» فرقة قالت بأن المسيح (ع) كان ذا طبيعتين: إلٰهية وبشرية، ثم ذابت الطبيعة البشرية أو آمتُصَت وتوحدت في الطبيعة الإلٰهية، فأصبح المسيح ذا طبيعة واحدة إلٰهية.

- و«اليعقوبية» تقول بطبيعتين للمسيح (ع): طبيعة إلٰهية وطبيعة بشرية، وهي الفرقة المستمرة حتى اليوم في شقيها: الشرقي (الأرثوذكسية) والغربي (الكاثوليكية)، وأما «المارونية» فلا تختلف معتقداً عن اليعقوبية، ولكنها تميَّزت=

وأعراقهم شُعَباً من قبائل متعددة، كبني «عبد المدان»، وأمثالهم من فروع «بني الحارث» وحلفائهم، ولكن أخبار انتصارات النبي (ص)، والانتشار الواسع للإسلام، والسرعة التي تمت وانبسطت بها الدعوة، أنستْهُم كل اختلاف أو تباين بينهم، وولَّدت فيهم ذلك الخوف من الدعوة الجديدة وأربابها، ودفعتهم إلى الاجتماع والتداول والتشاوُر، محتملين متوقعِين أو متخوفين ـ كما سلفت الإشارة ـ أن يرسِل نبيُّ الإسلام (ص) إليهم هم أيضاً كتاباً يدعوهم فيه إلى الدين الجديد، وأن يتضمن كتابُهُ الإنذارَ والتخيير بين الإسلام وبين الجزية أو الحرب.

وقد صحَّ حَدْسُهم، فإنهم كانوا في جلساتهم ومشاوراتهم تلك، إذ قَدِم عليهم وفد من النبي (ص) حاملاً إليهم رسالة منه يقول (ص) فيها: «بسم إله إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوب، من محمدٍ رسول الله إلى أسقف نجرانَ، وأهل نجران، أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، إن أسلمتُم فإني أحمد إليكم اللهَ إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فإن أَبَيْتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذَنْتُكم بحرب، والسلام».

فلما تسلَّمَ أسقف نجران الأكبر كتاب الرسول (ص)، أَوْلاهُ كثيراً من الاهتمام والعناية، ثم جعل يستدعي أكابر قومه من النجرانيين، وأعيان بني نِحْلَتهم النصارى من باقي القبائل والمدن والعشائر الذين كانوا ينتظرون الدعوة المحمدية، فلما بلغهم خبرها وأطلعهم الأسقف الأكبر على مضمونها، ازدادوا قلقاً واضطراباً، وجعلوا يجتمعون في الكنيسة الكبرى، بعد أن زيَّنُوها بالطنافس والحرير والديباج، ورفعوا فيها الصليب الأكبر المعظم المُرَصَّع بالذهب ـ وقد كان أنفذه إليهم قيصر الروم ـ وراح الأكابر والأشراف والعلماء والرهبان والقسيسون والأحبار والأساقفة فيهم،

= بتقديسها وتعظيمها لكاهن مُتبتِّل اسمه «مارون»، فتختلف في بعض المناسك الثانوية عن باقي اليعقوبيين، لا في المذهب والمعتقد.

يتبادلون الرأي وقد تبايَنَت وتعددت نظراتهم وأحكامهم وآراؤهم:

فمنهم مَن تخوَّفَ من فكرة البروز للنبي (ص) وتَحَدِّيه ومصارعته، لِما انتهى إليه (ص) من قوةٍ واتساعِ سلطانٍ كما أسلفنا..

ومنهم مَن كان له ذلك الموقف نفسه أيضاً ولكن لعاملٍ آخر، هو ما قرأوه في تعاليمهم القديمة من ظهور نبي من نَسلِ إسماعيل ـ جد محمد (ص) ـ كما وعد الله أباه النبي إبراهيم الخليل (ع)، واحتمال أن يكون هذا القرشي هو ذلك النبي، وكان مِن الذين تخوفوا مِن ذلك واحتملوه، حكيم فيهم اسمه «شرحبيل بن وداعة»..

ومنهم مَن أخذتهم حَمِيَّةُ الجاهلية وغَرَّتهم كثرتُهم وقوتهم، فطالبوا بالتصدي لمحمد (ص) وأتباعه، بل وأن يخرجوا هم إلى مكة وإلى المدينة بعدها ليصارعوه وقومه في ديارهم، ومن أبرز وجوه هؤلاء زعيمُ «بني الحارث» وأميرُ حروبهم ومُحَدِّثُهم وسيدُهم المطاع «كرز بن سبرة» الذي كانت تُرَدُّ إليه أمور الناس، وكان يُعْصَبُ بالتاج وكُنْيَتُه «أبو سبرة».. وقد انضم إلى أصحاب هذا الخط لُيوثُ الحرب وفرسانُ الهيجاء المعروفون ببطولاتهم وقوتهم عند العرب منذ قِدَم الجاهلية، مِن قبائل «مذحج» و«عك» إلى «حِمْيَر» و«أنمار» وعشائرهم وحلفائهم من قبائل «سَبَأ»، وقد وَرِمَت آنافُهم غضباً وأَنَفَة وتكبراً..

ومنهم مَن كان يحتمل أن يكون قد تحقق إخبارُ عيسى المسيح (ع) بظهور رسول يأتي من بعده، ولكنهم كانوا محتارين بين أن يكون الرسولُ المنتظَر هو هذا الداعية القرشي محمد بن عبد الله، ابن مكة المهاجر إلى المدينة، أو هو رجل آخر ظهر في ذلك الحين أيضاً ومن نَسلِ إسماعيل كذلك، ولكن في اليمن في جنوبي بلاد العرب اسمه «مُسَيْلِمَة»[٣]، وكان ادَّعَى النبوة وأنه هو الرسول المنتَظَر..

---

٣ ـ معروف في التاريخ باسم «مسيلمة الكذاب»، واسمه في الأصل «مسيلمة بن حبيب».

ومِنهم مَن قَبِلَ مبدأ أن يكون محمد رسولاً سماوياً، ولكنه مبعوث لقريش فقط، ولِبيئةِ «يَثْرِب» التي صار اسمها بعد هجرته (ص) إليها «المدينة»، اختصاراً لنعتها «مدينة الرسول».

وكان في عِداد أعلام نصارى نجران وتوابعها ـ عدا كرز بن سبرة، وشرحبيل ـ أعلام آخرون دينياً وقَبَلياً وحربياً، مثل أحد أمرائهم البارزين الذي يُسمَّى «عبد المسيح» ويقال له أيضاً «العاقب»، ومثل الأسقف المرموق «أهتم[4] بن النعمان» الذي كان يقال له «السيّد» ويُكنَّى «أبا سعاد»، ويعادل عندهم العاقبَ في عُلوِّ المنزلة ورِفعة المقام وبُعد التأثير، ومثل «جهير بن سراقة» الذي كان من زنادقتهم، وكان له وجه ومنزلة عند الملوك والقبائل؛ وكان فيهم أسقف آخر من بني بكر بن وائل اسمه «حصين بن علقمة» وكنيته «أبو حارثة»، كان حينئذٍ قد بلغ من العمر مائة وعشرين سنة وقد غطَّى حاجباه عينيه، بل قيل فيه انه كان أسقفهم الأول وعلَّامتهم وصاحب مدارسهم، ذا الرأي والروية والوجه فيهم وعالي المنزلة، وكان آمَنَ سراً بأن محمداً القرشي هو الرسول المنتظَر الذي بشر المسيح (ع) بظهوره من بعده، ولكنه كان يكتم إيمانه عن قومه، وظل خلال مناقشات القوم صامتاً لا يتكلم بشيء.

فلما انتهت المناقشات إلى قرار القوم واتفاق كلمتهم على إطلاق الحرب على النبي (ص)، تحرك أبو حارثة، فَدعا بعصابة ربط بها حاجبيه ورفعهما، ثم قام ووقف خطيباً، فدعا إلى التريث والتحسب، «لأن الأناةَ والحَذَرَ مِن حالِ مَن كاتَبَ الملوكَ العظام وحاذروه أَوْلَى وأفضل...»؛ فقام أبو سبرة، داعي الحرب، يجيبه بلهجة عنيفة حادة، وأصرَّ على مهاجمة النبي والمسلمين، عندئذٍ قام العاقب (عبد المسيح) يُسكّن بعض ما به، ويفضل بلهجةٍ ألطف، تقدير المخاطر التي عرض لها أبو حارثة، إذ

---

٤ ـ أوردت اسمَه بعض المراجع: أيهم (لا: أهتم).

«لكل عصر رجال، والمَرْءُ بيومه أشبهُ منه بأمْسِه، وهي الأيام تُهلك جيلاً وتُديل جيلاً... وللآفات أسباب، وإن مِن أوْكدِ أسبابها التعرض لأبوابها»؛ فاعترضه «السيد» (أهتم بن النعمان) بكلام أثْنَى فيه على الطرفين، واقترح أن يتفقا على حل بينهما يرتضيانه.

فلما سمع جهير بن سراقة ذلك من السيد، توجه إليه، وسأله رأيه هو في العمل الأنسب في ذلك المقام، فماطلَ السيد في الجواب ولم يَرُدَّ بوضوح، فألح عليه جهير وأكثرَ، إلى أن تكلم وأبدى للقوم رأياً مختلفاً، فيه لين ودهاء وسياسة، واقترح أن يسايروا النبي (ص) ووفده، فيطيعونه في بعض مطلبه عندهم، ويُماطلونه في البعض الآخر، ويبعثون خلال تلك الفترة وفوداً إلى الملوك والحكام ورؤساء العشائر من أهل ملتهم، كقيصر ملك الروم، وملوك السودان الخمسة (النوبة والحبشة وعلوة والرعاة والراحات) ثم ملوك «غسان» و«لَخم» و«جذام» و«قضاعة»، ثم نصارى «مريس» و«القبط» و«الحيرة»، وقبائل «تَغْلِب» و«ربيعة» وغيرهم من العشائر والموالي والأعوان وكل إخوانهم في الدين، وسائر مَن حَلُّوا بالشام مِن العُبَّاد والرهبان، فيستصرخونهم لدين المسيحية حتى تنجدهم الروم والأساودة[5]، ونصارى العرب من شمالي الشام إلى ربيعة اليمن؛ ثم قال: «فإذا وصَلَت الأمدادُ، تهاجمون محمداً حتى تطيحوا به، وحينئذٍ سيعود إليكم كلُ مَن مالَ إليه وتبع دينه مغلوباً مقهوراً، ولا تتمالك العرب إلا أن تتهافت دخولاً في دينكم، ثم لَتَعْظُمَنَّ بِيعَتُكُم[6] هذه ولَتَشْرُفَنَّ حتى تصير كالكعبة المَحْجوجة بتهامة، هذا هو الرأيُ فانتهزوه إذ لا رأي لكم بعده»؛ فنشط الجمع لمقالته، وأعجبهم كلهم رأيه حتى أخذ بمجامع قلوبهم.

وما همَّ القوم بالتفرُّق ليبدأوا العمل بخطته، حتى قام خطيباً فيهم رجل

---

٥ - الأساودة: (الأرجح المقصودُ بها) السودان، ذوو البَشَرة السوداء، أو جمع الأسْوَد.

٦ - البِيعة: الكنيسة.

من قبيلة «ربيعة» اسمه «حارثة بن أثال» ـ وكان موحداً على دين المسيح (ع) ـ وأنشأ يقول:

متى ما تَعِذْ بالباطلِ الحقَّ يَأْبَهُ وإن عِذْتَ بالحقِ الرَواسِيَ تَنْقَدِ
إذا ما أتَيْتَ الأمرَ مِن غيرِ بابِهِ ضَلَلْتَ وإن تَقْصِدْ إلى الباب تهتدي

ثم توجَّهَ إلى كافة الحاضرين، وفيهم القسيسون والرهبان والسيد والعاقب وغيرهم، وقال: «سَمْعاً سَمْعاً يا أبناء الحكمة وبقايا حَمَلَة الحُجَّة! إن السعيدَ واللهِ مَن نَفَعَتْهُ المَوعِظَةُ ولم يَعْشُ عن التذكرة؛ ألَا وإني أُنذِرُكم وأذكِّركم بقول مسيح الله عزَّ وجلَّ. . .»، ثم أخذ في عَرض وصية المسيح (ع) لشمعون بن يوحنا، وذكر أمر الله تعالى له بأخذ كتابه وتفسيره لأهل سوريا، إلى قوله سبحانه: «ثم إني باعثٌ بذلك نَجيبَ رسالتي، خِيَرَتي من بَرِيَّتي، الفارقْليط[7] عبدي، أبتعثُهُ بمولده. . . . .

٧ ـ الفارقْليط: كلمة في الأصل يونانية، لفظُها في لغتها الأم، الأصلية: پاراكْلِت Paraklet، فحين نُقِلت إلى اللغة العربية بلفظها الأوروبي دون ترجمة، انقلب الحرف الأول منها أي: پ P ـ (غير الموجود في العربية) إلى ف F، وانقلب الحرف ت T إلى ط (كما في: پَلَستين Palestine، التي تُقرأ في العربية: فلسطين). وقد جاءت كلمة فارقليط هذه، في إنجيل يوحنا (الإنجيل الرابع والأخير عند إخواننا النصارى، دون سواه من الأناجيل الأخرى) وصفاً لشخص بشَّر المسيح (ع) بأنه سيأتي من بعده متمماً ومكملاً لرسالته هو. (إنجيل يوحنا، في الإصحاح رقم ١٤: ١٦ و٢٦ـ وفي الإصحاح ١٥: ٢٦ـ وفي الإصحاح ١٦: ٧).

ما معنى فارقليط؟ قبل الإجابة على السؤال نلفت النظر إلى أن اللغة اليونانية تضيف غالباً حرف السين (س S) إلى الأسماء دلالة على الوصف أو النسبة (فمثلاً: إيليا، صارت: الياس، وجورج: جُرجُس، وپول: بولس) وهكذا أضيفت «س» S إلى پاراكليت فصارت پاراكليتس. ولكن كلمة پاراكليتس لها باليونانية لفظان، أو قراءتان، أولاهما «پاراكليتُس» بضم التاء، ومعناها ما يقارب «المُعين»، والثانية «پاراكليتِس» بكسر التاء، ومعناها ما يقارب «المحمود كثيراً» أو «الأكثر حمداً» (وهذا التفسير سمعته أول مرة في أواخر الثمانينات من=

= القرن العشرين الميلادي من الأب الدكتور فريد جبر، وبعده من غيره أيضاً، مثلاً من الأب المحقق الدكتور سُهيل قاشا، في أذار ـ مارس ٢٠٠٦ في بيروت ودير يسوع الملك، جنوبي جونية، لبنان)؛ وهذه القراءة الثانية ـ بكسر التاء في پاراكليتِس ـ تلتقي وتتوافق تماماً مع الآية التي وردت في القرآن الكريم، واصفةً الشخص الذي أخبر المسيحُ (ع) أنه سيأتي من بعده، ونصها: «وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مُصَدِّقاً لما بين يديَّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين» (القرآن الكريم، الجزء ٢٨ـ السورة: ٦١ الصف، الآية: ٦).

والظاهرة العجيبة والطريفة، أن الترجمات التي حَدَثَت للأناجيل عن اللغة اليونانية ـ اللغة الأولى التي كُتِبت بها ـ نَقَلت كلمة فارقليط (پاراكليت) بلفظها اليوناني نفسه، أي لم تترجمها ولم تذكر معناها باللغة التي ترجمتها إليها، بل وما تزال الكلمة نفسها، بذلك اللفظ القديم نفسه، مدرجة حتى اليوم في العديد من الترجمات العالمية، إن لم نقل في معظمها؛ وقد كان الأمر كذلك أيضاً في الترجمات العربية للإنجيل حتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي؛ مثال ذلك هذا النص الذي نجده في طبعات الترجمة العربية للعهد الجديد (أي الإنجيل) المنشورة في لندن خلال السنوات ١٨٢١ و١٨٣١ و١٨٤٤ ميلادية (والتي ينقلها رحمة الله الهندي في كتابه: إظهار الحق) ناقلاً قول المسيح (ع) لتلاميذه حين أخبرهم أنه سيفارقهم صاعداً إلى السماء (إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٦، الفقرة ٧): «لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأني إن لم أنطلق، لا يأتيكم الفارقليط» [نقلاً عن كتاب «العقيدة الإسلامية وأسسها» لعبد الرحمن حسن حَبَنَّكة الميداني، الطبعة ٥، منشورات دار القلم، دمشق ١٤٠٨هـ، ١٩٧٧م، ص ٣٢٨ و٣٢٩]. ولكن الترجمات العربية المتأخرة للأناجيل، لم تورد كلمة «فارقليط» بالنص اليوناني ـ كما كان يحدث قبلاً ـ بل أوردت ترجمتَها العربية، ولكن لا بالمعنى الثاني (پاراكليتِس) ـ بكسر التاء ـ الموافق أو المتناسب مع ما جاء في القرآن الكريم، بل بالمعنى الأول (پاراكليتُوس) الذي جاءت ترجمتُهُ بصُوَر وتعابير مختلفة، لفظاً وحتى معنًى مثل «المعين» كما أشرنا (في طبعة: الإنجيل كتاب الحياة، ترجمة تفسيرية للعهد الجديد، India ١٩٨٢)، و«المُعَزِّي» (طبعة جمعية =

«فاران»[8]، من مقام أبيه إبراهيم، أُنزِلُ عليه توراةً حديثة، أَفتحُ بها

= الكتاب، في الشرق الأدنى)، و«المؤيد» (طبعة دار المشرق، بيروت، ١٩٩١)، وفي ترجمة فارسية (طبعة بريتش وفورت بَيْبِل سوسائيتي دار السلطنة، لندن ١٩٤٧) جاءت: «تَسَلّى دَهَنْدِه»، أي ما يعادل «المُواسي» أو «المُعزي»... وسواها.

وهنا يُطرَح سؤال: أيمكن لرسول الإسلام (ص)، الذي كان يعايش النصارى في بيئته وزمانه، ويجادلهم ويصارحهم في معتقداتهم، أن يَنسِبَ إلى المسيح (ع) كلاماً لم يقله ولا يجدونه في الإنجيل، أي أنه يضع بين أيديهم مستَنَداً ضده، ومادة لتكذيبه (جلّ مقامه)؟ بل أليست الآيات القرآنية الأخرى التي تتحدث عن المسيح (ع) وعن معتقدات أتباعه من إخواننا النصارى، تنطبق تماماً على ما نجده اليوم في نصوص الأناجيل التي بين أيدينا، أي التي يقولون هم بها، مثل قولهم بالتثليث الإلٰهي «الآب والابن والروح القدس» فيرد القرآن هذا المعتقد بآية ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ (الجزء ٦/ السورة ٥: المائدة/ الآية: ٧٣)، وقولهم أيضاًإأن المسيح هو ابن الله، كما جاء في عدة نصوص، مثل قول الملاك لمريم (حين اُستَغْرَبَتْ أن تحمل دون أن يقاربها رجل): «الروحُ القُدُس يحِلُّ عليك.. فالقُدُّوس المولود منك يُدعَى ابن الله» (إنجيل لوقا: ١: ٣٥)، فيرد القرآن هذا الحكم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ (ج٦/ س٤ النساء/ الآية ١٧١)، وقوله أيضاً: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ (٣٠/ ١١٢ الإخلاص/ ١ـ ٣) ومثلُ تلك الأحكام أو المعتقدات التي يَرُدُّها الله سبحانه في القرآن قَولُ اليهود (الذي يقبله الإخوان النصارى) أنهم (اليهود) قتلوا المسيح (ع) وصلبوه، والرد على ذلك ونفيه في القرآن الكريم: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ (ج ٦/ س ٤ النساء/ ١٥٧).

إذاً، فعندما يَنسُبُ القرآن الكريم إلى المسيح (ع) أنه بشَّر برسول يأتي من بعده اسمه پاركليت ـ أي: أحمد ـ لم يكن ليفعل ذلك لو لم يكن معروفاً ومقبولاً في عهد النزول [ولنقل نحن اليوم: قبل اعتماد المعنى الثاني لكلمة پاركليت].

٨ ـ فاران: اسم «مكة» قديماً، وقد جاء ذكرها في التوراة في أخبار النبي إبراهيم الخليل (ع) وابنه إسماعيل من زوجه «هاجر»، في سِفر التكوين: «وكان الله مع الغلام فكبر.. وسكن في قرية فاران» (التكوين، الإصحاح ٢١: ٢١)؛ ويعرّفها ياقوت الحموي بتفصيل أكثر، منه قوله: «كلمة عبرانية معربة، وهي من أسماء=

أعيناً عُمْياً وآذاناً صُمّاً وقُلوباً غُلفاً؛ طوبى لِمَنْ شَهِدَ أيامَه وسَمعَ كلامَهُ فآمن به واتبع النور الذي جاء به! فإذا ذكرتَ يا عيسى ذلك النبي فصلِّ عليه، فإني وملائكتي نُصلي عليه».

فغضب العاقب والسيد من مقالته، وأظلَمَت الدنيا في أعينهما، وأقبلا عليه يُغْلِظان عليه بالكلام، ويَعذُلانِهِ على ذِكْر ما فيه فضيحتهما وإفساد آرائهما لدى الجماهير، فبدأ العاقب بجوابه وقال: «أمسِكْ عليكَ يا حار، فإن رادَّ هذا الكلامِ عليكَ أكثرُ مِن قابِلِه، ورُبَّ قولٍ يكون بَلِيَّةً على قائله، والقلوب نَفِراتٌ عندَ الإصداع».. إلى آخر كلامه.

ثم تبعه السيد وقال لحارثة: «إني لم أزل أعرف لك فضلاً تميل إليه الألباب، فإياك أن تقتعد مطية اللجاج...»، إلى آخر هفواته المتضمنة الثناء على صاحبه العاقب والطلب من حارثة أن يعتذر منه؛ ثم تابع دعواه بتكذيب النبي (ص)، وأن أيامه قليلة تنقطع سريعاً، إلى أن قال: «ويكون بعد ذلك قرن يظهر في آخره النبيُ المبعوث بالحكمة والبيان، والسيف والسلطان، يملك مُلْكاً مؤجلاً تُطبِق فيه أمتُه على المشارق والمغارب، ويكون مِن ذريته الأميرُ الظاهر، يظهر على جميع المملكات والأديان، ويَبلغُ مُلْكُه ما طلعَ عليه الليلُ والنهار، وذلك يا حارِ أملٌ من ورائه أَمَد، ومن دونه أَجَل، فتَمَسَّكْ مِن دينك بما تعلم، فإنما نحن ليومنا، ولِغدٍ أَهْلُه».

فأقبل حارثة عليهما بلين الكلام، يثني عليهما استجلاباً لرضاهما وتسكيناً لغضبهما ـ وكان غريباً في نجران ـ وفي خلال مقالته جعل يَنْصَحُهما بالتقوى والتسليم لله تعالى، وإعمال العقل، واستجلاب عزة

= مكة.. (و)قيل: هو اسم لجبال مكة (معجم البلدان: فاران)، والمعروف والشائع في التواريخ أن النبي إبراهيم وابنه إسماعيل (ع) كانا في مكة، بل وأنهما هما اللذان بَنَيا الكعبة فيها.

الحياة وسعادة المُنْقَلَب بذلك، والحذر من المتالف والهلاك بالعزة، إلى أن سكن بعض ما بهما من الغضب، وظهرت عليهما آثار الخجل والندامة من خشونة الكلام، وأقبل حارثة على العاقب يَعذله على الهفوة ويأمره بالتوبة، إلى أن قال: «وعرضتَ بذكر نبيين يولدان بعد ابن البتول، فأين يذهب بك عن ما خَلَد في الصُحُف مِن ذِكْري ذلك؟ ألم تعلم ما أنبأ به المسيحُ في بني إسرائيل وقوله لهم: كيف بكم إذا ذُهِبَ بي إلى أبي وأبيكم وخَلَفَ بعد أعصارٍ تخلو بَعدي وبَعدكم صادقٌ وكاذب!»؛ قالوا: «ومَن هما يا مسيح الله؟» قال: «نبي من ذرية إسماعيل (ع) صادق، ومتنبىء من بني إسرائيل كاذب، فالصادق منهما مُبْتَعَث برحمة، يكون له المُلْكُ والسلطان ما دامت الدنيا، وأما الكاذب فله نَبْزٌ[9] يُذْكَرُ به «المسيح الدجَّال» يملك فَواقاً[10]، ثم يَقتُلُه اللهُ بيدي إذا رجع بي».

ثم أقبل على كافة مَن حضر وأخذ يخاطبهم ويحذرهم مِن أن يكونوا أسوة باليهود، «فإنهم أُنذِروا بمسيحَيْن: مسيحِ رحمةٍ وهُدَى، ومسيحِ ضَلالة وعَمَى، ولكل منهما آية وأمارة[11]، فجحدوا مسيحَ الهُدى وكذَّبوه، ونبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم، وقتلوا أنبياءَه القَوَّامين بالقسط مِن عِباده، وآمنوا بمسيح الضلالة الدَجَّال، وأقبلوا على انتظاره، وأضربوا[12] في الفتنة وركبوا نتجها، فحجب الله عزَّ وجلَّ عنهم البصيرةَ بعد التبصرة بما كسبت أيديهم، ونزع منهم مُلكهم بِبَغْيهم، وألزمهم الذُلَّ والصَغار، وجعل مُنْقَلَبَهم إلى النار»؛ فاعترضه العاقب وقال: «فما أشعرَكَ يا حارِ أن يكون هذا النبيُ المذكورُ في الكتب هو قاطن يثرب؟ ألا يُمكن أن يكون ابنَ عمك صاحب اليمامة، وإنه يَذكرُ مِن النبوَّة ما يَذكرُ منها أخو قريش، وكلاهما مِن ذُرِّية

---

٩ ـ نَبْز: لَقَب سيء.
١٠ ـ فواقاً: وقتاً قليلاً، زماناً يسيراً.
١١ ـ أمارَة (بفتح الهمزة): علامة.
١٢ ـ أضربوا: سلكوا وأمعنوا وزادوا.

إسماعيل، ولكلٍ منهما أتباعٌ وأصحاب يشهدون بنبوته، ويُقِرُّونَ برسالته، فهل تجد بينهما في ذلك من فاضلة تذكرها؟»؛ قال: «أجل والله! أجدها أكبرَ وأبعدَ مما بين السحاب والتراب!»؛ ثم أخذ بذكر ما أخبرت به العِيرُ[١٣] التي أَتَتْ من المدينة وشهدت بما رأته من معجزات النبي (ص)، ومنها أنه (ص) بصق في آبار كثيرة كانت مياهها مالحة لا تُسْتَطْيَبُ ولا تُسْتَعْذَب، أو كانت قليلةً ثَماداً[١٤]، فعادت ببُصاقه حُلوةً عَذبة طيبةً، وكثرت كالبحر؛ وأنه (ص) بَصقَ في عيونٍ رُمْدٍ[١٥]، فبَرِئَت لوقتها وما اشتُكِيَ منها إلى آخر الأبد؛ وبصق على جراح رجال فاندملت لحينها وما أَلِموا منها مدة حياتهم.

وبلغ خَبَرُها مُسَيْلمةَ وأصحابه وسألوه مثلها، فأجابهم كارهاً، وأقبل بهم إلى بعضِ آبارٍ كان ماؤها عذباً وبصق فيها، فعاد ماؤها مالحاً لا يُستطاعُ شُربه، وبصق في بئر أخرى كان الماء فيها قليلاً، فغارت ولم تَسِل بقطرة، وبصق في عين رَمِدَة فعَمِيَت، وعلى جِراحِ رجل مجروح، فاكتسى جلده بَرَصاً.

وٱعتُرِضَ على مُسيلمة في ذلك، فقال: «وَيْحَكُم! بئسَ الأمةُ أنتم لِنَبيكم، وبئس العشيرة لابن عمكم! تَنَقَّصْتُموني قبل أن يوحَى إِليَّ في شيء مما سألتم! والآن قد أُذِنَ لي في أجسادكم وأشعاركم[١٦] دون آباركم ومياهكم، وهذا لمن كان بي مؤمناً، وأما من كان مُرتاباً، فإنه لا يزيده

---

١٣ ـ العِير: في الأصل معناها: الحَمِير/بالجمع (ومفردها العَيْر: الحمار) ولكن عبارة «العِير» تُطلق أيضاً على قافلة الحمير كلها؛ على الحيوانات وعلى أصحابها أو المشرفين عليها وبخاصة في الأسفار، وعندنا شواهد لها في القرآن الكريم، مثلاً في سورة يوسف (ع): ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾ (ج ١٣، س ١٢ يوسف: ٩٤).

١٤ ـ ثَماد: حفرة قليلة الماء.

١٥ ـ عُيون رُمْد: جمع عَين رَمداء: أي هائجة، متألمة.

١٦ ـ أشعار: جمع شَعْر (البدن أو الرأس).

بُصاقي عليه إلا بلاء، فمن شاء منكم الآن فليأتِ لأبصُقَ في عينه وعلى جلده»؛ فلم يتقدم إليه أحد ولم يتجرأوا على ذلك، وجعلوا يقولون: «ما فينا وأبيك أحدٌ يشاء ذلك، وإنا نخاف أن يَشمت بك أهلُ يثرب»؛ وما انتهى حارثة من كلامه الذي قاله، حتى غلب الضحك على الحاضرين، وأخذ السيد والعاقب وهما يضحكان يفحصان الأرض بأرجلهما، ويقولان: «ما النورُ والظلامُ والحقُ والباطلُ بأشدَّ تَبايُناً وتفاوتاً مما بين هذين الرجلين صدقاً وكذباً».

وكان العاقب حينئذٍ في نفسه راغباً في الإشادة بمسيلمة وتفخيمه وتعظيمه ليجعله كفؤاً لرسول الله (ص) عند أهل ملّته، ويُظهر بذلك عُلُوَّ مَقامه وسُمُوَّ منزلته لديهم، وأخذ يصدّق حارثةَ في بعض مَقاله ويكذبه في آخر، ويثني على رسول الله (ص) من وَجهٍ وينتقده من آخر، كقوله بلهجة حارة: «ولئن فجَرَ أخو بني حنيفة في زعمه أن الله عزَّ وجلَّ أرسلهُ وآدَّعَى ما ليس له بحق، فلقد بَرَّ في نقل قومه مِن عبادة الأوثان إلى الإيمان بالرحمان».

وأخذ حارثة يغلظ عليه الأَيْمان ويناشده بالله الذي دحاها وأشرق باسمه قَمَراها، أن يعترف بما وجده في الكتب السالفة عن الله عزَّ وجلَّ، وبشاراته بإنزال الكتب وإرسال الرُسُل لاستنقاذ العباد، والبَرِيَّةُ في الأرض يهتدون بهم كالنجوم الدراري في السماء يَهتدي بها أهلُها، وأن أوامرهم وإطاعتهم وعِصيانهم مقرونة بأوامره وإطاعته وعصيانه، وأن خاتَمَهم وأفضلَهم أحمدُ، وأن الله تعالى وملائكته واللاعنين، لَعنوا مِن خَلْقِه في سمائه وأرضه، مَن جَحدَ رُبوبِيَّته، أو كذَّب أحداً مِن رُسُله، أو قال أوحِيَ إليَّ ولم يوحَ إليه شيء. . . إلخ؛ إلى أن أذعن العاقبُ للحق: قائلاً: «رويدك، إني أشهدُ لقد نَبَّأتَ حقاً».

وقال السيد: «ما أرى أخا قريش مُرسَلاً إلا إلى قومه بني إسماعيل، وهو يَزعُم أن الله أرسله إلى الناس جميعاً»؛ قال حارثة: «أفتعلم أن محمداً مُرسَل من ربه إلى قومه خاصة؟ أوَ تَشهد له بذلك؟»؛ قال: «أجل وَيْحَك!

وهل يُستطاعُ دفعُ الشواهد؟ نعم أشهد غير مرتابٍ بذلك، وبه شهِدَت له الصحف الدارسة والأنباء الخالية»؛ فأطرق حارثة برأسه، ينكت الأرض بسبابته وهو يضحك، فاغتاظ السيد شديداً من ضحكه مستهزئاً بمقالته، وقال له: «ما يضحكك يا ابن أثال؟»: قال: «عجبتُ فضحكتُ»؛ قال: «أوَ عَجَبٌ ما تَسمع؟»؛ قال: «نعم، العَجَبُ أجمعُ بالله! ألَيس بعجيبٍ مِن رجلٍ أوتِيَ أثَرَةً مِن علم وحكمة، يَزعُمُ أن الله عزَّ وجلَّ، اصطفى لنبوته واختص برسالته وأيّد بروحه وحكمتِه، رجلاً خَرَّاصاً[17] يكذبُ عليه في دَعْوَى إرساله إلى الناس كافة، ويزعُمُ أنه أُوحِيَ إليه بذلك وهو لم يوحَ إليه شيء منه، فيخلط كذباً بصدق وباطلاً بحق؟ فبُهتَ السيد بجوابه وبرهانه، وأمسك محجوجاً[18] قد تغير لونه من الخجل والفضيحة في المقال.

عندئذٍ أراد العاقبُ نصرتَه وتسكينَ بعضِ ما أصابه بتغليظ الكلام على حارثة، ونَهْيِهِ عن التكلم بما تُنكِرُهُ القلوب، وإن كان ظاهرُهُ حسناً لا يَتَوجه عليه اعتراض ولا إنكار؛ وذكر في كلامه الطويل علوَّ مقامه حتى جعله الله وصاحبَه حُكاماً وقُوَّاماً[19] على مُلوك مِلَّتِهم (يهددُ بذلك حارثةَ ويُسكتُه عن المُحاجَجَة)، إلى أن قال: «وذكرتَ أخا قريش، وما جاء به من الآيات والنُذر، فأَطَلْتَ وأعرضتَ؛ ولقد بَرَزْتَ، فنحن بِمُحمدٍ عالِمون، وبه جداً مُوقنون، أشهدُ لقد انتَظَمَتْ له الآيات والبَيِّنات، سالِفُها وآنِفُها، إلا آيةً هي أشفاها وأشرفُها، وإنما مَثَلُها في ما جاءت به مَثَلُ الرأس للجسد، فما حالُ جسدٍ لا رأسَ له؟ فأمهِلْ رُوَيداً نتجسَّس الأخبار ونعتبر الآثار، لِنستَشِفَّ ما ألْفَينا مما أُفضِيَ إلينا، فإن أَنِسْنا[20] الآيةَ الجامعةَ الخاتمةَ لَدَيْهِ،

---

١٧ - خَرَّاص: كذّاب.

١٨ - محجوج: مغلوب بالحُجة - أمْسَكَ محجوجاً: سَكَتَ وتوقف عن الكلام والجدال مغلوباً بالحُجج المذكورة ضد كلامه.

١٩ - قُوَّام: مؤثِّرون، نافِذون، مسيطرون.

٢٠ - أنِسْنا: اقتنعنا، وقَبلنا وصدَّقنا.

فنحن إليه أسرعُ وله أطْوَع. . . إلخ»؛ فأجابه حارثة وقال له: «قد ناديتَ فأسمعتَ، وقرَّعتَ[٢١] فصَدَّعْتَ[٢٢] وسُمِعْتَ فَأُطِعْتَ، فما هذه الآية التي أوْحَشَ[٢٣] بعد الأُنْسَةِ فَقْدُها، وأعقبَ الشكَّ بَعد البَيِّنةِ عُدْمُها؟ فاكْشِفْها ليَ الآنَ فِداكَ أبي وأمي»؛ فقال العاقب: «أفلحَ مَن سلَّم للحق وصَدع به[٢٤]، ولم يرغب عنه وقد أحاط به عِلماً؛ فقد علمنا وعلمتَ من أنباء الكتب المستَوْدَعَة علمَ القرون، وما كان وما يكون، فإنها اَستهلَّتْ بلسان كل أمةٍ منهم، مُعْرِبَةً[٢٥] مبشرةً ومُنذرةً بأحمد النبي العاقب[٢٦]، الذي تُطبق[٢٧] أمته على المَشارق والمغارب، يملك وشيعتُه[٢٨] مِن بعده مُلْكاً مؤجَّلاً[٢٩]، ويوسِع مِن بَعدهم أمَّتَهم، فيملكون بذلك سَبْتاً طويلاً[٣٠]، حتى لا يبقى بجزيرة العرب بيتٌ إلا وهو راغب إليهم أو راهب منهم، ثم يُدالُ[٣١] بعد لأْيٍ[٣٢] منهم، ويَشْعَثُ[٣٣] سلطانهم جداً جداً، وبيتاً بيتاً، حتى تجيء أمثالُ الدود من الأقوام فيهم، ثم يَملِكُ أمرَهم عليهم عبيدُهم وقَيْنُهم[٣٤]، يملكون جيلاً

٢١ ـ قَرَّعْتَ: أثَرْتَ وأقلقتَ، شدَّدْت.
٢٢ ـ صَدَّعْتَ: كشفتَ وصارَحْتَ.
٢٣ ـ أوحَشَ: أخاف، أقلَقَ.
٢٤ ـ صَدَع به: سلَّم به وأعلن جهاراً قبوله.
٢٥ ـ مُعْرِبة: موضِحَة، مُبَيِّنة.
٢٦ ـ العاقب: الذي يأتي بعداً.
٢٧ ـ تُطْبِق عليها: تُغطيها، تنتشر فوقها.
٢٨ ـ شيعته: أتباعه، مؤيدوه.
٢٩ ـ مُؤَجَّل: يطول أمده.
٣٠ ـ سَبْتاً طويلاً: زَمَناً طويلاً، دهراً.
٣١ ـ يُدال منهم: يؤخذ الحكم والدولة منهم.
٣٢ ـ بَعد لأي: بعد حين من الشدة.
٣٣ ـ يَشْعَث سُلطانُهم: تتفرق قوتهم، تتمزق دولتهم.
٣٤ ـ القَيْن: الإماء، جمع أَمَة: العبدة المملوكة.

فجيلاً، ويسيرون في الناس بالقَشْعَرية[٣٥] خيطاً خيطاً، ويكون سلطانهم سلطاناً غضوضاً[٣٦] ضروساً[٣٧]، فتنقص الأرض حينئذٍ من أطرافها ويشتد البلاء، وتشتمل الآفات حتى يكون الموت أعزَّ مِن البقاء، والعَدَمُ أحب مِن الحياة حتى إلى المُعافَى السليم، وما ذلك إلا لما يُذْهَمون به من الضُرْ والضَرّاء، والفتنة العشواء، وقِوامُ الدِين وزعماؤه يومئذٍ أناسٌ ليسوا من أهله، فيُمَجُّ الدين بهم، وتعفو آياته، ويُدْبِر تَوَلِياً وٱنمحاقاً[٣٨]، فلا يبقى منه إلا اسمه حتى ينعاه ناعيه، والمؤمن يومئذٍ غريب، والديَّانون قليلون حتى يَيْأسَ الناسُ من رَوح الله وفَرَجه إلا أقلهم، ويَظن أقوامٌ أن الله لن ينصر رسلَه ولن يُحققَ وعده، فإذا غَرِقوا كلهم بالشدائد والنِقَم، وأُخِذَ جميعُهم بالكَظْم[٣٩]، تلافَى[٤٠] الله دينه، وراش[٤١] عبادَه من بعد ما قنطوا، برجل من ذرية نبيهم أحمد ونَجْلِه[٤٢]، يأتي به اللهُ عزَّ وجلَّ من حيث لا يشعرون، تُصلي عليه السماواتُ وسُكانها، وتفرح به الأرض وما عليها من سَوام[٤٣] وطائر وأنام، وتُخرِج له بَرَكاتِها وزينتَها، وتُفيءُ[٤٤] إليه كنوزَها وأفلاذَ كَبِدها حتى تعود كهيئتها على عهد آدم، وترفع عنهم المسكنة في عهده، والعاهات والنقمات التي كانت تُضرَب بها الأمم من قبل، وتُلقي في البلاد الأَمَنَة،

---

٣٥ ـ القَشْعَرية: الحِرمان، القِلة.

٣٦ ـ غَضوضاً: ضعيفاً.

٣٧ ـ ضَروساً: شديداً، قاسياً.

٣٨ ـ انمِحاقاً: زوالاً ـ انمحق: انْمَحَى، زال.

٣٩ ـ الكَظْم: الغيض، الغضب المكتوم.

٤٠ ـ تلافَى: تدارك، أنقذ.

٤١ ـ راشَ يروش: أعان.

٤٢ ـ نَجْله: سلالته.

٤٣ ـ سوام: حيوانات برية، مثل البقر والجِمال. . .

٤٤ ـ تُفيء: تُعيد، تُرجع.

وتنزع حُمَّة[٤٥] كل ذي حُمة، ومِخلبَ كل ذي مِخلب، ونابَ كل ذي ناب، حتى أن المرأة اللئيمة لَتلعبُ بالأفاعي فلا تضرها شيئاً، ويكون الأسد في جماعةِ البقر كأنه راعيها، والذئبُ في البهائم كأنه ربُّها، ويُظهِرُ[٤٦] الله عبدَه على الدين كله، فيملك مقاليد الأقاليم إلى بيضاء الصين، حتى لا يكونُ على عهده في الأرض أجمعها إلا دينُ الله الحق الذي ارتضاه لعباده، وبعث به آدمَ بديعَ فطرته، وأحمدَ خاتَمَ رسالته، ومَن بينَهما مِن أنبيائه ورسله».

فاستبشر حينئذٍ حارثة بمقالاته وتبياناته، وغلب عليه الفرح والسرور، وأقبل عليه يقول: «أشهد بالله البديع، أيها النبيُّ الخطير والعليم الأثير، لقد ابتسمَ الحقُّ بقيلك[٤٧]، وأشرق الفِناء بعَدلِ مَنطِقِك»، إلى أن قال: «فما بعد هذا؟»، قال: «فإنكَ زَعَمْتَهُ أخا قريش، فكنتَ بما تؤثر من هذا غالِطاً حقاً!»؛ قال: «وبِمَ؟ ألا تعترفُ الشواهدُ بِنُبُوَّتِه ورسالته؟»؛ قال: «بلى لَعمرُ الله! ولكنهما نبيان رسولان يَعْتَقِبان بين مسيح الله تعالى وبين الساعة: محمد وأحمد، اشتق اسمُ أحدِهما من صاحبه، بَشَّرَ بأولهما وبثانيهما عيسى، فأخو قريش هذا مُرسَل إلى قومه، ويَقْفُوه[٤٨] من بعده ذو المُلْك الشديد والأَجَل الطويل، يبعثه الله عزَّ وجلَّ خاتماً للدين، وحجةً على الخلائق أجمعين، ثم تأتي من بعده فترةٌ تتزايَلُ فيها القواعد مِن مَراسيها، فيعيدُها الله عزَّ وجلَّ، ويُظهرُه على الدين كله، فيملكُ هو والملوك الصالحون مِن عَقبِه جميع ما طلعَ عليه الليل والنهار مِن أرضٍ وجبلٍ وبحرٍ وبَرٍّ، يرثون أرض الله عزَّ وجلَّ مُلْكاً كما مَلَكها الأبوان آدم ونوح (ع)، يُلاقَوْنَ وهم الملوك الأكابر، في مثل هيئة المساكين فقراً وٱستكانة، فأولئك

---

٤٥ ـ حُمَّة: خَطَر.

٤٦ ـ يُظهر: يَنصُر، يُغلِّب.

٤٧ ـ قِيلِكَ: كلامِك، ما قلته.

٤٨ ـ يقفوه: يأتي بعده.

الأكرمون الأوائل، لا يَصْلُحُ عبادُ الله إلا بهم، وينزل عيسى بن البِكر[٤٩] على آخرهم، بَعد مَكثٍ طويل ومُلْكٍ شديد، ويَردُفُهمْ[٥٠] اضطرابُ طَغام[٥١] في مثل أحلامِ العصافير، عليهم تقوم الساعة، فهي إنما تقوم على شِرار الناس وأخابثهم، فذلك الوعد الذي صلى به الله عزَّ وجلَّ على أحمد، كما صلّى به على خليله إبراهيم، في كثير مما لأحمد صلّى الله عليه من البراهين، والتأييد الذي خَبَّرَتْ به كتب الله الأولى»؛ قال حارثة: «فمِن الأمر المستقِرِ عندك يا أبا وائلة في هذين الإسمين أنهما لشخصين نَبِيَّيْن مُرسَلَين في عَصرَين مختلفين؟»؛ قال: «نعم؛ فهل يخالجك في ذلك رَيبٌ أو يعرض لك فيه ظَنٌّ؟»؛ قال: «كلا والمعبود! إنَّ هذا لأَجْلَى من الشمس المستديرة» (وأشار إلى جِرْمها)، فأكب حارثة مطرقاً ينكت الأرض بإصبعه، إلى أن رفع رأسه إليه وقال: «إنما الآفةُ أيها الزعيمُ المُطاعُ أن يكون المالُ عند مَن يَخزُنُهُ لا مَن يُنفِقُه، والسلاحُ عند مَن يَتَزَيَّنُ به لا من يُقاتل به، والرأيُ عند مَن يملكه لا مَن يَنصرُه»، فغضب العاقب من مقاله غضباً شديداً وقال له: «اسكتْ يا حُوَيرث، لقد أسمعتَ فأقذَعْتَ[٥٢]، وطَفِقْت[٥٣] فأقدَمْتَ»؛ فأخذ حارثة يُغلظ الأيْمانَ بالذي قامت السماوات والأرض بإذنه، وغلبَ الجبابرةَ بأمره، أنهما اسمان مشتقان لنفسٍ واحدة، ونبي واحد، ورسول واحد، أنذَرَ به موسى بن عمران، وبشَّرَ به عيسى بن مريم، وأشار به إبراهيم في صُحُفه مِن قبلهما»؛ فأخذ السيد يتضاحك استهزاءً به وبمقالته، وأعانه العاقب على ذلك، وقال لحارثة مؤنباً إياه: «لا يَغرُرْكَ باطلُ أبي قُرَّة[٥٤]، فإنه وإن ضحك لك، فإنما يضحك منك»؛ وأخذ حارثة

---

٤٩ ـ البِكر: العَذراء مريم (ع).
٥٠ ـ يَردُفهم: يتلوهم، يأتي أو يَحدُث بعدهم.
٥١ ـ طَغام: أوغاد، أدنياء، أراذل، أشرار.
٥٢ ـ أقذعَ: أفحشَ، بالغَ في الإساءة.
٥٣ ـ طَفِقتَ: شرَعتَ، بَدَأتَ.
٥٤ ـ أبو قُرَّة (بضم القاف): كنية الحِرباء، صفة تُطلَق على مَن يقول غير ما يضمر.

يَعذلهما ويقول: «لئن فعلَها لأنِها إحدى الدَواهي وخِفَّةٌ وسَوْءَة! ألم تتعرفا من موروث الحكمة أنه لا ينبغي للحكيم أن يكون عَبَّاساً في غير أَرَب[٥٥]، ولا ضحَّاكا مِن غير عجَب؟ أوَ لم يَبلُغكما عن سيدكما المسيح أنَّ ضَحِكَ العالِم في غير حِينهِ غفلةٌ من قلبه، وسَكرة ألهَتْهُ عما في غده؟»؛ فنهره السيد وأغلظ الكلام معه، إلى أن قال: «أوَلَم يبلغْكَ أنتَ عن سيدنا المسيح علينا سلامهُ، أن لله عباداً ضحكوا جَهْراً من سعة رحمته، وبَكَوا سراً من خيفته؟»؛ ثم لما طال الخصام والتنازع بينهما وبين حارثة، وملت نفوسهم من القيل والقال، قاموا وافترقوا منصرفين وتفرق الناس.

ثم اجتمعوا ثانياً وثالثاً في اليومين التاليين، وطالت الأبحاث والجدال بين الفريقين في أمر النبي في تلك المحافل، إلى أن كان اليوم الرابع؛ فاجتمعوا كذلك، واجتمعت القبائل والأفواج وسائر طبقات الناس لاستماع المناظرات.

ولما أخذوا في الحديث، جعل السيد يغلظ الأَيمان على حارثة وهو يسأله: هل وجد في صحيفة «شمعون الصفا» (وهي بلغة أهل سوريا وتَوارَثَها أهلُ نجران) أنه يقول فيها: إذا قُطِعَت الأرحام، وعَفَت الأعلام[٥٦]، بعث الله عزَّ وجلَّ عبده الفارقليطا بالرحمة والمعدلة؛ قيل: وما الفارقليطا؟ قال: أحمدُ النبي، الخاتَمُ الوارث، ذلك الذي يُصَلَّى عليه حياً وميتاً، وأن ابنه الطاهر الخابر، ينشره اللهُ في آخر الزمان، بعدما تكون انفصمتْ عُرَى الدين[٥٧]، وخَبَتْ مصابيح الناموس[٥٨]، وأَفَلَت نجومُه، فلا

---

٥٥ ـ أرب: حاجة، دافع، موجِب.

٥٦ ـ عَفَت: زالت، انمحت، بَلِيَت ـ الأعلام: البارزون، الكِرام.

٥٧ ـ انفصمت عُرَى الدين: انفصمت: انحلَّت وتمزقت؛ العُرَى؛ جمع عُروَة، مكان ربط الخيط أو الحبل.

٥٨ ـ خَبَتْ مصابيح الناموس: خَبَت: انطفأت؛ الناموس: الشريعة، و: الشرف والسُمْعة.

يلبث ذلك العبد الصالح إلا أَمَماً[٥٩]، حتى يعود الدين به كما بُدىء، ويُقِرّ الله عزَّ وجلَّ سلطانَه في عبده، ثم في الصالحين مِن عَقِبه، ويُنشَر منه حتى يبلغَ مُلكُه مُنقَطَعَ التراب»؛ فقال حارثة: «قد أنشدتما[٦٠] بهذه المأثرة لأحمد وكررتما بها القول، وهي كما أنشدتما حقٌ ولا وحشةَ مع الحق ولا أنس في غيره، فأسكت»؛ وقال السيد: «إنْ من الحق أنْ لا حظَّ في هذه الأكرومة للأبتر»[٦١]، قال: «أليس لمحمد ولد؟» قال: «إنك ما علمتَ إلا لَدّاً[٦٢] وخصاماً! ألم يخبرنا سِفرنا[٦٣] وأصحابنا في ما تجسسنا مِن خَبَرِهِ، أن وَلدَيه الذكرين من القُرَشية والقِبْطية ماتا، وتُرِكَ محمد بلا ناصر، كالبهيمة المكسور القرن، وهو مُشْرِفٌ على ضريح الموت، لا يُتَرَقَّبُ له بعد ذلك وَلَد؟ فلو كان له بقية، لَكان لكَ بذلك مَقال»! فتوجَّهَ حارثة إليه وإلى صاحبه العاقب جميعاً، يقرع أسماعهما بكلام حاوٍ للتهديد مرة وللترغيب أخرى، أوله مقالات خَشِنة وتعريضات لهما بَيِّنة، وآخره نصائح لينة؛ وكان في ما قال: العِبَرُ لَعَمْرُ الله كثيرة والاعتبار بها قليل، والدليل موفٍ على سُنَن السبيل إن لم يَعْشُ عنه ناظر[٦٤]، وكما أن الأبصار الرَمِدَة لا تستطيع النظر في قُرص الشمس لِسُقمها، فكذلك البصائر القصيرة لا تتعلق بنور الحكمة لعجزها؛ أَلَا ومَن كان هكذا فلستما كذلك، وإنكما ويَمينِ اللهِ لمَحجوجان[٦٥] بما آتاكما الله عزَّ وجلَّ من ميراث الحكمة، واستودَعَكما من بقايا الحجة، ثم بما أوجب لكما من الشرف والمنزلة في الناس، وجعلكما

---

٥٩ ـ أَمَماً: وقتاً قليلاً.

٦٠ ـ أنشدتما: عرَّفتما.

٦١ ـ الأبتر: بتَرَ: قطَعَ وقصَّ؛ الأبتر: يُطلَق على مَن لا ولد له.

٦٢ ـ لَدّاً: شِدةً في العِداء والخصومة.

٦٣ ـ سِفرنا: كِتابنا.

٦٤ ـ الدليلُ موضحٌ جداً جوانب الطريق إن لم تَضعف عينُ ناظرٍ إليه.

٦٥ ـ محجوج: مقصود، يأتيه الآخرون لسماع رأيه ولحل مشكلاتهم.

حُكّاماً وقُوّاماً على ملوك مِلّتنا وذادَةً[٦٦] لهم، يفزعون إليكما في دينهم ولا تفزعان إليهم، وتأمُرانِهم فيأتمرون لكما، وحق لكل مَلِكٍ أو مُوَطّأ الأكناف[٦٧] أن يتواضع لله عزَّ وجلَّ إذ رفعه، وأن ينصح له في عباده ولا يُداهِن[٦٨] في أمره؛ وإنكما ذكرتُما محمداً بما حكمت له الشهادات الصادقة، وبيَّنَته الأسفار المُستحفَظَة، ثم رأيتماه بعد ذلك مُرسَلاً إلى قومه دون الناس جميعاً، وأنه ليس بالخاتم الحاشر[٦٩] ولا الوارث العاقب[٧٠]، لأنكما زعمتماه أبتر؛ وإني لو أرَيْتُكما أن له بَقِيَّةً وعُقْبى[٧١]، هل كنتما مُمْتَرِيْنِ شاكَّيْنِ في أنه النبي الخاتَم المُرسَل إلى كافة البشر؟» فقالا: «لا»، قال: «أفليس هذا القول (مع طول اللوائم والخصائم) مستقراً عندكما؟»؛ قالا: «بلى»، فرفع حارثة صوته بقوله: «الله أكبر»؛ فقالا: «كبَّرت كبيراً!»؛ وسألاه عما دعاه إلى ذلك، فقال: «الحق أبلج[٧٢] والباطل لَجلَج[٧٣] ولَنَقْلُ ماءِ البحر وشَقُّ الصخرِ أهْوَنُ مِن إماتَةِ ما أحياه الله عزَّ وجلَّ، وإحياءِ ما أماته! فاعلما الآن أن محمداً ليس أبتَرَ، وأنه الخاتمُ الوارثُ والعاقِبُ الحاشر حقاً، فلا نبيَّ بَعدَه، وعلى أمته تقوم الساعة ويرثُ اللهُ الأرض ومَن عليها، وأن مِن ذريته الأميرَ الصالح الذي بَيَّنْتُما ونَبَّأتُما أنه يَملك مَشارق الأرض ومغاربها، ويُظهِرُهُ عزَّ وجلَّ بالحنيفية[٧٤]

---

٦٦ ـ ذادَة: مُدافِعون، مُحامون (جمع ذائد).

٦٧ ـ مُوَطّأ الأكناف: مأمون الجانب، آمِن الدار.

٦٨ ـ يُداهِن: يخدع، يُظهر غير ما يبطن.

٦٩ ـ الحاشِر: الجامع.

٧٠ ـ العاقب: مَن يَخلُف ويتولى الإدارة (أو الرئاسة أو القيادة أو الأعمال...) بعد السَلَف الذي كان قبله.

٧١ ـ بقيةً وعُقْبى: أولاداً ونَسلاً.

٧٢ ـ أبلج: واضح جداً.

٧٣ ـ لَجْلَج: غير واضح، فيه تردد/وتعدد.

٧٤ ـ الحنيفية: الطريقة، الديانة ـ الإبراهيمية، أي التي كان عليها النبي إبراهيم الخليل=

الإبراهيمية على النواميس[75] كلها».

فاستنكر الرجلان، وعادا يعارضانه ويَغلُظان عليه في الكلام، ويهددانه ويتوعدانه، إلى أن قالا له: «وتأبى إلا المراوغة والمصارعة كالثعالبة، فلا تسأمُ المنازعةَ ولا تَملُّ من المراجعة»؛ ثم سألاه عن البرهان على الأمر العظيم الذي زعمه من ثبوت ذريةٍ للنبيّ (ص)، فقال: «أمَا وجَدُّكما لأُنبئُكما ببرهان يُجير من الشبهة ويَشفي داء الصدور»؛ ثم أقبل على حصين ابن علقمة أسقفهم الأول، يسأله إحضارَ «الجامعة» (وهي الصحيفة الكبرى عندهم التي تجمع الكتب الدينية السابقة لتأنسَ بها القلوب وتَثْلُجَ بها الصدور)، فنهض العاقب والسيد، وقاما مُغضِبَينِ لينصرفا من طول المنازعة والخصام وطلبا تأجيل الأمر في مراجعة الكتاب إلى غد.

وتفرق الناس بأجمعهم يتحادثون في ذلك، إلى أن كان اليوم الخامس، واجتمع القوم والأفواج وزادوا على ما كانوا عدداً؛ ولما استقر الجلوس بالأكابر الثلاثة، أقبل الرجلان على حارثة يسألانه البرهان على مقاله من غير إحضار الجامعة، حذراً من فضيحتهما لَدَى الجموع، بما فيها من التبشيرات برسول الله (ص)، يقولان له: «إنك قد أكثرتَ وأمْلَلْتَ، قُصَّ الحديثَ لنا مع قَطعِهِ واختصاره، وَدَعْنا من تِبْيانه»؛ إلى أن قالا: «نحن غيرُ كاتِمِينَ لله عزَّ وجلَّ حجة، ولا جاحدون له آية، ولا مُفتَرون

= (ع)، بعد أن فكر في مبدع الكون، فظنه حيناً الكوكب في السماء، وحيناً القمر، وحيناً الشمس ثم تنكر لكل الماديات التي تغيب وتزول وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أي له وحده ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (القرآن الكريم: ج٧، س ٦ الأنعام: ٧٩)؛ وقد أثنى الله تعالى على أفكار إبراهيم (ع) وشجع على اتباع ملته في كتابه الكريم بقوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ (ج ٤، س ٣ آل عمران: ٩٥)، بل ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (ج ٥، س ٤ النساء: ١٢٥).

٧٥ - النواميس: الشرائع، المذاهب، الأديان.. (جمع: ناموس).

على الله عزَّ وجلَّ في عبدٍ مُرسَل أنه ليس برسوله، فنحن نعترف يا هذا بمحمد ـ صلَّى الله عليه ـ أنه رسول من الله عزَّ وجلَّ إلى قومه من بني إسماعيل، من غير أن يجب له بذلك على غيرهم من العرب والأعاجم اتباعه، ولا طاعته بخروج له عن ملّة ولا دخولٍ معه في ملّة، فليس المطلوب إلا الإقرار له بالنبوة والرسالة من قومه»؛ فسألهما حارثة عما ألزمهما بالإقرار بنبوته، فقالا: «من التبشيرات والبَيِّنات التي وجدناها في الأناجيل والكتب السابقة»، ثم أعادا مقالتهما السالفة أنه «لولا أنه أبتر، لأذْعَنّا[76] له بالرسالة إلى كافة الناس، لأن الذي بشر به المسيح في الإنجيل، إنما هو مَن يكون له ابن من ذريته، يملك القاهرة الجامعة، وقُرَى الأرض بأجمعها، من ابنته البتول الصِدّيقة، ونحن في أمرٍ مستقِرٍ من نُبُوَّته، ولولا انقطاع نسله لما شككنا أنه العاقب السابق، وإن ذلك لَمِن أكبر أَماراته[77] عندنا».

ثم أطالا في الكلام إلى أن قال حارثة: «إن الجامعة تحكم بيننا في ذلك»؛ فنادت الأفواج من كل جانب بعد أن مَلَّت نفوسهم طولَ المناظرات يقولون: «الجامعة الجامعة يا حارثة»؛ فأمر بإحضارها، حتى أتى بها رجل قوي ضخم يحملها على رأسه يكاد لا يتماسك بها لثقلها، والجموع يحتملون الفَوْزَ والغلبة فيها لصاحبيهم السيد والعاقب اللذين استاءا كثيراً مِن جَلْبها، وبلغ ذلك منهما كل مبلغ، لعلمهما بما فيها من دلائل نبوته (ص) وصفاته، وذِكْرِ أهل بيته وذريته، وما يَحْدُث من بعده في أمته وأصحابه إلى فناء الدنيا وانقطاعها، وأشرفا على الهلاك حَذَراً من فضيحتهما بين الجموع والقبائل، حتى قال أحدهما لصاحبه: «هذا يومٌ ما بورك لنا في طلوع شمسه، لقد شهدَتْهُ أجسامُنا وغابت عنه آراؤنا بحضور طَغامِنا وَسَفَلَتِنا»؛ وأقبل عليه صاحبه يُسَكِّنُهُ مما أصابه، ويهوّن عليه بعض ما نزل به.

---

٧٦ ـ أذْعَنّا: أقْرَرنا، قبِلنا، اعترفنا.

٧٧ ـ أماراته: علاماته.

وشعر حارثة بذلك، فانتهز الفرصة، وأرسل سراً إلى نَفَرٍ من أصحاب رسول الله (ص) ودُعاتِه يستحضرهم، فحضروا المشهد، ولم يستطع الرجلان الفرار من المجلس ولا تأخيره، حتى اتفق رأياهما على الانقياد لما يَذْهَمُهما من الخَطْب، وأن لا يُظهِرا نفوراً ولا منعاً لقِراءة «الجامعة»، حذراً من تطرق التهمة إليهما بين كافة الجماهير الحاضرة، وهم بأجمعهم يتطلعون إليها ويطلبون قراءتها لمعرفة ما تضمنته من صفات النبي (ص) وبِعْثته، فلم يجد الرجلان حيلة دون أن يُظهرا رغبةً منهما في قراءتها، بل ويحثا على ذلك، فتقدما إليها وهي حينئذٍ بين يدي شيخهم وأسقفهم أبي حارثة، وجلس بجانبهما حارثة بن أثال، وحفَّت بهم رُسُل النبي (ص)، وتطاولت الأعناق من كل جانب ومكان، وزاحَمَ الناسُ بعضهم بعضاً حرصاً على استماع ما في «الجامعة»، وسيطر الفرح والسرور على أبي حارثة أيضاً لشدة رغبته في قراءتها، فأمر بفتحها.

فُتِحَت «الجامعة»، واستُخرِجَ منها صحائف كثيرة، تتضمنُ كلُّ واحدة منها أَخبارَ أحد أنبياء الله ورسله (ع)، ووقائع زمانه ودعوته، منذ عهد آدم حتى عهد المسيح (ع)، وتشتمل على تعاليم إلٰهية، وإيحاءات وإنذارات وبشائر سماوية، عَبْرَ أجيال وعهود وآماد عديدة مديدة، كانت أولاها ـ كما أشرنا ـ صحيفة آدم (ع) الكبرى، وبعدها صحائف كثيرة، مثل الصحيفة الكبرى أيضاً لابنه شيث (ع)، التي ورثها منه ـ (بعد عهد نبي الله نوح (ع) وأيام ملوك الهياطلة النماردة) ـ نبيُ الله إدريس (ع) في بيت عبادته من أرض «كوفان»، وكانت كتابتها باللغة السريانية القديمة، وكذلك صحيفة خليل الله النبي إبراهيم (ع)؛ ثم الألواح التي نزلت على كليم الله موسى (ع)، وبعدها صحيفة الإنجيل، وفي جميع تلك الصحف منذ عهد آدم (ع)، تبشير برسول مِن وُلد إسماعيل بن إبراهيم (ع)[٧٨]، اسمه (يقارب أو يَعني)

---

٧٨ ـ خلافاً لباقي الرسل والأنبياء، فإنهم جاؤوا من وُلْد أخيه إسحاق (= إسرائيل) ابن إبراهيم الخليل (ع).

«أحمد»، هو الخاتم والوارث للرسل والأنبياء الذين يظهرون بعد إبراهيم (ع)، يأتي بعد أمد مديد، ينقذ البشر من إبليس وشره، وتسود على يده رسالة العدالة والخير والسعادة على الإنسانية.

ولما انتهت قراءة الجامعة إلى ذلك النص، بُهِتَ العاقب والسيد ساكتَيْن، وقد مُلِئا غَيظاً وكمداً، لأن الأوصاف المذكورة فيها لذلك الرسول، تنطبق وتتوافق كثيراً بل تماماً مع أوصاف «محمد» الظاهر بينهم، وصَدَّقَ واقتنعَ الذين كانوا معهما (مِن قومِهما وسائر مَن حضروا) بما سمعوه ووقفوا عليه، وانتعش أصحابُ رسول الله (ص) ورُسُلُه الحاضرون فرحاً وسروراً، واستطاروا له قياماً وقعوداً، وازدادوا إيماناً ويقيناً؛ ثم رفع أبو الحارثة صوته يقول مخاطباً العاقب والسيد: «الآن أسفَرَ الصبح لذي عينين، واتضح الحق لمن رضي به ديناً، فهل في نَفْسَيكما مِن مرضٍ تستشفيان به؟»، فازداد الرجلان بمقالته غيظاً وغضباً ولم يردا عليه جواباً.

ثم قال أبو الحارثة: «اعتبروا الأمارة الخاتمة من قول سيدكم المسيح»، فأَقبَلوا يتصفحون الأناجيل، حتى وجدوا في المفتاح الرابع[٧٩] من الوحي إليه ما يشبه البشائر والبينات المذكورة في سائر الكتب، وكان أبو الحارثة قد أشار إلى بعض ذلك في بداية كلامه عند افتتاح المناظرة، وزاد عليه صفاتٍ أخرى للنبي المنتظر ذَكَرَتْها النبوات السابقة، منها أنه «ذو الوجه الأقمر والجبين الأزهر، تنام عيناه ولا ينام قلبه، مولده في بلد أبيه إسماعيل[٨٠]، ويبعثه الله في أمة أمية»...[٨١] فانقطع

٧٩ ـ المفتاح الرابع، المقصودُ منه الإنجيلُ الرابع، أي إنجيل يوحنا الذي يتضمن التبشير برسول يأتي بعد المسيح، وقد أوردنا تفصيله في الحاشية ٧ من هذا الفصل (في الصفحة ٣٤٢).

٨٠ ـ كان مولد إسماعيل (ع) ـ جد النبي (ص) ـ في «مكة»، خلافاً للأنبياء من بني إسرائيل الذين وُلدوا في بلاد الشام (فلسطين وما حولها).

٨١ ـ أمّة أمّية: أمة من غير بني إسرائيل، اليهود.

السيد والعاقب مخصومين وأمسَكا عن المنازعة والكلام، ثم نهضا غاضبَين إلى منزليهما، ونهضت الأقوام والجموع أيضاً وانصرفوا إلى منازلهم، وقد غلب عليهم البُهت والفكر المتعمق في أمر دينهم، بعد ما اتضح لهم من أمر النبي (ص) وصفاته ما جعلهم يخوضون بينهم يتحادثون في ذلك، ويكثرون التردد إلى الرجلين يسألونهما عن رأيهما في الأمر فكانا يأمرانهم بالتمسك بدينهم حتى ينكشف أمر النبي (ص) ودينه، إلى أن اختليا بينهما يتشاوران في الأمر وكان الختام اتفاقهما على أن يسيرا بنفسيهما إلى المدينة للمناظرة مع رسول الله (ص)، طمعاً في الغلبة عليه في المحاجة والمقال، أو على الأقل أملاً في التمويه على أقوامهما بنشر بطلانه بينهم، وأنه ليس النبي الموعود وأنهما لم يجدا فيه كامل الصفات.

ثم تجهزا للمسير إلى المدينة، وٱنتُدِبَ[٨٢] معهما أربعة عشر فارساً من أكابر نجران، وجَمْعٌ[٨٣] من أشراف بني الحارث، ولحقهم حين مسيرهم ثلاثة قدموا من حضرموت، أحدُهم أخٌ لأبي الحارثة يسمى «كرز»، وارتحلوا بأجمعهم يقدُمهم السيد والعاقب وأبو الحارثة.

وبينما هم في المسير إذ عثرت بغلة أبي الحارثة، فقال أخوه كرز: «تَعِسَ من نأتيه الأبعد!»؛ فغضب أبو الحارثة وقال له: «بل أنت تَعِسْتَ وٱنتكَسْتَ!» قال كرز: «ولمَ ذاك يا أخي؟»؛ قال: «لأنك أتعستَ النبيَ الأُمّي أحمد! واللهِ إنه النبيُّ الذي كنا ننتظره!»؛ قال: «وما عِلمُكَ بذلك؟»؛ قال: «أما نقرأ المصباح الرابع من الوحي إلى المسيح: يا بني إسرائيل، آمنوا برسولي النبي الأُمّي الذي يكون في آخر الزمان، صاحبِ الوجهِ الأقمر، والجملِ الأحمر، المشرَّبِ بالنور، ذي الجناب الحَسَن، والثوبِ الخشِن، سيدِ الماضين عندي، وأكرمِ الباقين عليّ»، إلى أن قال عيسى (ع): «قدوس

---

٨٢ ـ انتُدِبَ: دُعِيَ وٱستجاب.

٨٣ ـ قيل أن عددّهم بلغ سبعين.

قدوس!»، وسأل ربه عنه وعن اسمه وهو يقول: «قد أحبه قلبي ولم تره عيني!»؛ فأخبره الله تعالى ببعض صفاته ومسكنه ونسله، واسمه أحمد ومحمد، وما أعدَّ له في الجنات ولأهل بيته وأمته، وطوبى لهم وله (ص)، إلى آخر ما قرأه أبو الحارثة مما في المصباح، فبهت كرز من ذلك وهو يقول: «فأين تُقْدِمُ بنا على مَن هذه صفته؟»؛ قال: «لكي نشهد أقواله وأحواله، وننظر آياته، فإن كان هو هو، ساعدناه بالمسالمة، ونكْفِهِ عن أهل ديننا بالأموال، وإن كان كاذباً، كفيناه بكذبه على الله»؛ ثم ضرب راحلته، وأخذ في السير، وأنشأ أبياتاً من الشعر يخاطب فيها النبي (ص).

ولما قرب القوم بأجمعهم من المدينة وكان النبي (ص) يومئذٍ يترقب رجوع رسله من عندهم لذا فإنه بعد أن استبطأهم أنفذ إليهم خالد بن الوليد في خيل سَرَحها[٨٤] معه لمشارفة أمرهم، فوجدهم مقبلين ،فرجع خالد بأصحابه إلى النبي (ص) يخبره بذلك، ونزل القوم موضعهم واغتسلوا بما معهم من المياه، وتنظفوا مِن وعثاء السفر، ولبسوا أفخر أثوابهم من الحرير والبُرد[٨٥]، وذَرُّوا المِسكَ والطِيبَ على شعورهم ومَفارقهم، كل ذلك لِيُباهوا المسلمين؛ ثم ركبوا خيولهم واعترضوا بالرماح[٨٦]، وأقبلوا يسيرون صفاً واحداً على أحسن هيئةٍ، وهم يومئذٍ أجملُ العرب صُوَراً وأتمهم أجساماً وخَلقاً، إلى أن قدموا المدينة، وأقبل الناس من كل جهة إليهم مُعجَبين بهم يقولون: ما رأينا وفداً أجمل من هؤلاء! إلى أن دخل القومُ مسجدَ رسول الله (ص) ـ ولم يكن النبي (ص) حاضراً ـ وحانَ وقت صلاتهم، فأقبلوا يضربون الناقوس، واجتمع المسلمون عند النبي (ص) يخبرونه بذلك،

---

٨٤ ـ أنفذَ رجلاً في خيل: أي أرسلَ رجلاً يرأس ويَقود مجموعة من الرجال راكبي الخيل ـ سَرَحها: أرسلها، أطلقها.

٨٥ ـ البُرْد: كساء من صوف، جميل مخطط ثمين، يُلتَحَفُ به.

٨٦ ـ اعترضوا: ظهروا بمشهدٍ يَعرضون فيه أنفسهم ـ اعترضوا بالرماح: حاملين الرِماح.

وأنهم يُصَلُّون نحو المشرق، فنهاهم النبي (ص) عن التعرض للقوم، ثم تفرقوا بعد صلاتهم إلى منازلهم في الحرة[87] وأقاموا ثلاثاً في المدينة، يترددون إلى مسجد النبي (ص) ومجالسه ليروا هَدْيَه[88] ويعتبروا فيه ما وجدوه في كتبهم من صفاته، مِن غير مُناظرة معه ولا سؤال يُوَجَّهُ إليه، وأمهلهم النبي (ص) كذلك في الأيام الثلاثة، لم يَدْعُهُم فيها.

وأقبلوا في اليوم الثاني إلى مدارس اليهود وجعلوا يستصرخون بهم يقولون: «إن هذا الرجل بين ظهرانيكم قد غلبكم، إنزلوا إلينا واحضروا غداً معنا نمتحنه»؛ فانضم إليهم اثنان من أكابر اليهود «منصور وكعب بن الأشرف».

ولما كان اليوم الثالث، دخلوا على رسول الله (ص) بهيئة حسنة من الثياب والوقار، وسلموا عليه فلم يَأْبَهْ لهم ولا كلمهم بشيء، فخرجوا من عنده مغضبين، حتى لقوا عثمان بن عفان وعبد الرحمان بن عوف ـ وكانت لهم معرفة بهما ـ فشكوا إليهما يقولون: «أن نبيكم كتب إلينا، فأقبلنا مجيبين له وأتيناه وسلمنا عليه، فلم يَأْبَهْ لنا ولم يكلمنا»؛ فانطلق الرجلان إلى علي أمير المؤمنين (ع) يخبرانه بذلك ويقولان: «ما ترى يا أبا الحسن فيهم؟»؛ فأشار أمير المؤمنين (ع) بوَضْعِ حِلِيِّهم وخواتيمهم ونَزْعِ ما عليهم من الثياب، ففعلوا ذلك، وعادوا إلى النبي (ص) وسلموا عليه، فرد عليهم وهو (ص) يقول: «والذي بعثني بالحق، لقد أتوني المرة الأولى وإبليسُ معهم».

ثم جلسوا بين يديه يسائلونه، والنبي (ص) يجيبهم بما يبهتم إقناعاً وقبولاً، إلى أن قال السيد: «يا أبا القاسم، موسى مَن أبوه؟»؛ قال (ص): «عمران»، قال: «يوسفُ مَن أبوه؟»؛ قال: «يعقوب»؛ قال: «فأنتَ مَن

---

٨٧ ـ الحَرَّة: موقع قرب المدينة.

٨٨ ـ هَدْيَهُ: سيرته، طريقته، نوعية تصرفاته.

أبوك؟»؛ قال (ص): «عبد الله بن عبد المطلب»؛ قال: «فعيسى من أبوه؟»؛ قال (ص): «هو روح الله وكلمته»؛ قال: «وهل يكون روح بلا سجد»؛ فقرأ النبي (ص) في جوابه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾[89] فعَظُم على السيد ما قَرَعَ سمْعَه مِن أن عيسى خُلِق من تراب، فنزا نزوة[90] إعظاماً لعيسى وذِكْره، وغضب من ذلك وقال: «أتزعُمُ أن الله أوحَى إليكَ أن عيسى خُلق من تراب؟! ما نجد هذا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا يجده هؤلاء اليهود في ما أوحي إليهم»؛ ثم تكلم كلٌّ من القوم اعتراضاً على النبي (ص)، وطال البحث والجدال بينه (ص) وبينهم، إلى أن قال العاقب: «إنا لَنُنْكِرُ واللهِ ما تقول! ولا نقول في المسيح إلا أنه ابنُ الله وأنه ثالث ثلاثة أب وابن وروح القدس، وقد سمعنا في قرآن نزل عليك يقولُ فَعَلْنا وجعلنا وخلقنا بصيغة الجمع، ولو كان واحداً لكان يقول: خلقتُ وجعلتُ وفعلتُ بصيغة المفرد...»؛ وفي كل ذلك يرد النبي (ص) عليهم أجوبة شافية تبهتهم وتقنعهم، إلى أن قالوا: «يا أبا القاسم، إن ما أخبَرَتْنا به كتبُ الله عزَّ وجلَّ من صفات النبي (ص) المبعوث بعد الروح عيسى، قد وجدناها كلها وتعرفناها فيك، إلا خِلَّة[91] واحدة هي أعظم الخلال، وأجلاها آيةً وأمارة ومنزلة ودلالة»؛ فسألهم النبي (ص) عنها، فقالوا: «إنا نجد في الإنجيل من صفة النبي الغابر[92] بعد المسيح أنه يُصدِّق به ويؤمن به، وأنت تسبه وتكذبه وتزعم أنه عبد»؛ قال (ص): «لا، بل أصدِّق به وأؤمن به، وأشهد أنه النبي المرسل من ربه عزَّ وجلَّ، وأقول إنه عبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً»؛ قالوا: «وهل

---

٨٩ ـ القرآن الكريم ج ٣ س ٣ آل عمران: ٥٩.

٩٠ ـ نَزا: قامَ، وثب، هبَّ.

٩١ ـ خِلَّة: صِفة.

٩٢ ـ الغابر: التالي، الظاهر بعداً.

يستطيع العبيد أن يفعلوا مثل ما كان يفعل؟ وهل جاء الأنبياء بما جاء به من القدرة القاهرة؟ ألم يكن يحيي المَوْتَى ويُبْرِئُ الأَكْمَهَ[٩٣] والأَبْرصَ، ويُنَبِّئُهم بما يُكنّون[٩٤] في صدورهم وما يدخرون في بيوتهم، فهل يستطيع ذلك إلا الله عزَّ وجلَّ وابنه؟»؛ قال (ص): «قد كان أخي عيسى كما قلتم: يُحيي المَوْتَى ويُبْرئُ الأَكْمَهَ والأبرص إلى غير ذلك، وكل ذلك بإذن الله عزَّ وجلَّ، وهو لله عبدٌ، وليس عليه عار ولا هو مستنكف منه، وإنه كان من دمٍ ولحمٍ وشَعْرٍ وعَظْمٍ وعَصَبٍ وأمشاج[٩٥] يأكل الطعام ويظمأ، ويخرج إلى بيت الخَلاء، وإن ربه هو الأَحَد الحق الذي ليس كمثله شيء، وهذا آدم (ع): ألم يكن عبداً مخلوقاً يأكل ويشرب ويُحدِث، وهو أَعْجبُ من المسيح خَلقاً لأنه جاء من غير أبٍ ولا أم، وليس شيء من الخلق أصعب ولا أهون على الله عزَّ وجلَّ في قدرته من شيء، إنما أمرُهُ إذا أراد شيئاً أن يقول له: كُنْ، فيكون»؛ فسكت القوم بأجمعهم عن جوابه ولم يقنعوا بكلامه، إلى أن سألوه الملاعنة، وانتهى الأمر بينهم وبينه إلى أن يجتمعوا غداً في الموعد، ويحضرَ النبيُ (ص) بمن أَحَبَّ ويدعو كلٌّ من الفريقين على الآخر، كي يَتَبيَّنَ الحقُ من الباطل، ويُعلَمَ الصادقُ من الكاذب منهما، وذلك معنى «المباهلة»؛ وقرأ النبي (ص) ما نزل عليه في ذلك من وقته وساعته من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ . .[٩٦] إلخ؛ فنهض القومُ وهم يقولون: «أنصفت يا أبا القاسم، فإن المباهلة مُثْلَة[٩٧] وآية معجلة بيننا وبينك»؛

---

٩٣ ـ الأَكْمَهُ: المولود أعمى.

٩٤ ـ يُكِنُّون: يُخفون، يكتمون.

٩٥ ـ أمشاج: أشياء مختلطة متداخلة بعضها في بعض، وقد تطلق (أيضاً) على الأوساخ المجتمعة في السُرَّة.

٩٦ ـ القرآن الكريم، ج ٣ س ٣ آل عمران: ٦١.

٩٧ ـ مُثْلَة: عِقاب (في حالة الكذب).

وانصرفوا إلى منازلهم يتحادثون بينهم في ذلك قائلين: «قد جاءكم الرجل بالفصل من أمره وأمركم، فانظِروا بمن يُباهِلكم، أبِكافَّةِ أتباعِهِ وأهلِ المكانة من أصحابه؟ أو بذوي التخشع والتمسكن والصفوة منهم وهم قليلون؟ فإن جاءنا بالكثرة وذوي الشدة كما يصنع الملوك، باهلناه والفَلْج[98] إذاً لنا دونه وهو ليس بنبي، وإن أتانا بنَفَرٍ قليل من أهل بيته خاصة، كما هي سجية الأنبياء وصفوتهم، فلا نباهله، وإياكم إذاً من مباهلته، فإنه لا يَقْدِم على أهل بيته إلا وهو صادق، وهذه لكم أمارة».

أما النبي (ص) فإنه بعد انصرافه إلى منزله، أمرَ بعضَ مَن عنده بالانطلاق إلى شجرتين كانتا بموعد المباهلة، فقصدوهما وكسحوا[99] ونظفوا ما بينهما، إلى أن كان من الغد ـ وكان اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام، على الأَشْهَر ـ فبعث كساءً أسودَ رقيقاً، فنُشِر على الشجرتين، وأقبل نصارى نجران وفرسان بني الحرث، حافّين[100] بأبي الحارثة في أحسن هيئة وأجمل زينة يتقدمُهم السيد والعاقب، ومعهما ابنان لهما كأنهما بَيْضتا حَمام عليهما دُرَّتان، يقال لهما «صِبْغَةُ المِجَنْ وعبدُ المنعم»، وبنتان يقال لهما «سارَة ومريم»، واجتمع أهل المدينة ـ من المهاجرين والأنصار وسائر القبائل ـ بأحسن هيئة وأجمل ثياب، حاملين راياتهم وألويتهم لينظروا ما يكون من الأمر؛ ولبث النبي (ص) في حجرته حتى ارتفع النهار، فخرج ويدُهُ بيد أمير المؤمنين علي (ع)، وأمامهما الحسنان، وخَلْفَهما فاطمة ابنته (ع)، وعلى كتفه (ص) كساءٌ وَسَط، بين الرقيق والخشن، والكثيف واللين، وعلى مَن معه حِلل نُمَرانية[101]، وأقبل بهم حتى أوقفهم تحت الكساء المنشور على الشجرتين، ووقف هو (ص)

---

٩٨ ـ الفَلْج (بسكون اللام): الفَوْز.

٩٩ ـ كَسَحوا: أبعدوا، طرحوا، اخرجوا.

١٠٠ ـ حافّين: محيطين.

١٠١ ـ حِلَل نُمَرانية: ثياب بيضاء عليها (للزينة) خطوط، أو نُقَط، سوداء.

معتمداً على قوسه، ومَنْكِبُهُ[١٠٢] الأيسر تحت الكساء، ورفع يديه إلى السماء يقول: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي!»، وأقبلت الأفواج والجموع يُزاحم بعضهم بعضاً ينظرون إليه، وقد غلب عليهم الرعب والخوف، حتى اصفر من السيد والعاقب لوناهما، وتغير وجهاهما، وارتعدا وزُلزِلا، وكاد عَقْلاهما أن يطيشا، وقال السيد: «والله إني لأَرَى وجوهاً لو سألوا ربهم أن يُزيلَ الجبل عن مكانه لأجابهم إلى ذلك وأزاله»؛ وسأل أبو حارثة عَمَّنْ مع النبي، فقيل له: «هذا ابن عمه زوج ابنته، وهذه ابنته، وهذان ابنا بنته، وهم أعز الناس عليه وأقربهم إلى قلبه».

ثم تقدم النبي (ص) للمباهلة، وجثا على ركبتيه، فازداد القوم رعباً وفزعاً، وبصبصوا[١٠٣] وارتعدوا كالنخلة في الريح العاصفة، يتشاورون بينهم في أمرهم، يقول أحدهم: «أنباهله؟»؛ ويقول الآخر: «لا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نفر نصراني إلى يوم القيامة»؛ وقال ثالثهم: «أوَما علمتم أنه ما باهلَ قومٌ نبياً قَطُّ فنشأ صغيرُهم وبقيَ كبيرَهم»، إلى أن دعاهم النبي (ص) للتقدم والمباهلة، فقال السيد لأبي الحارثة: «أُدْنُ يا أبا حارثة» فامتنع شديداً وقال: «إني لأرى رجلاً جريئاً على المباهلة، وأخاف أن يكون صادقاً فلا يَحولُ واللهِ علينا الحَوْلُ وفي الدنيا نصراني، وإنه واللهِ جَثا[١٠٤] كما جثا الأنبياء قبله للمباهلة»؛ ولما يئس السيد من إجابته إلى ذلك، توجَّهَ إلى صاحبه العاقب وسأله التقدم إلى النبي (ص)، وأن يُرِيَهُ أنهم غير مكترثين به، ولا هم يُقِرُّون بفضله وفضل أهل بيته، وأن يقول له: أبهؤلاء تباهلنا؟ استخفافاً بهم واحتقاراً لهم، كي لا يشعر النبيُ بغلبة الخوف على النصارى وامتلاءِ قلوبهم رُعباً، ثم يصالحه على المال والسلاح ما أراد.

---

١٠٢ ـ المَنْكِب: مُلتَقَى رأس الكتف ورأس العَضُد، الذي هو القسم الأعلى (العظم الأعلى) من اليد.

١٠٣ ـ بَصْبَصوا: فتحوا أعينهم خوفاً ودهشة.

١٠٤ ـ جَثا (يجثو): جلس على ركبتيه.

وبينما هم كذلك إذ ظهرت في السماء آثار نزول العذاب، وارتفعت فوق رؤوسهم في حَمارَّة القَيظ[١٠٥] واشتدادِ الهَجير[١٠٦] قِطَعٌ رقيقة من السحاب، وانتشر في الجو دخان أظلمَ الفضاءَ[١٠٧]، وبانت النجوم كأنها تستطلع على الأرض ومَنْ عليها، وتساقطت طيور من أعالي الفضاء على الجبال والأرضين ونشرت أجنحتها، وأيقن القوم بالهلاك، وكادت أجسادهم أن تخلو من أرواحهم، وغارت العيون في الأحداق، وانخلعت القلوب عن مَقَرّاتها، ورجعَ الأحبار الثلاثة إلى أصحابهم، وتقدمت أقوامهم إليهم يسألونهم عما أصابهم وعما استقرت عليه آراؤهم، وهم يتماسكون عن الجواب ويتَلَجْلَجون في الكلام، إلى أن قالوا: «ما كان ثَمَّةَ مِن خَطْبٍ نخبركم به».

ثم أقبل عليهم شاب من خِيارهم قد أوتي عِلماً وحكمة، ينهاهُم عن المباهلة قائلاً: «ويحكم! اذكروا ما عثرتم عليه في الجامعة من صفاته، فوالله إنكم لَتعلمون حق العلم أنه لَصادق»، ثم أخذ يحذِّرهم مِمّا نزل بالأمم السابقة من المَسْخ[١٠٨] والخسف[١٠٩] حين تكذيبهم لرُسُلهم، ثم تقدم إليهم المنذر (أخو أبي الحارثة) وكان له حظ من العلم، فأخذ بيد السيد والعاقب، وسأل القومَ الاختلاءَ بهما، ثم اعتزل بهما عن الجموع، وأقبل عليهما يقول: «إن الرائد لا يكذب أهله، وأنا لكما حقاً نَصيحٌ وعليكما جِدُّ شفيق، فإن نظرتُما إلى نَفسَيْكما نَجَوتما، وإن تركتما ذلك هَلَكتُما وأَهْلكتُما»؛ فخضع الحَبرانِ لمقاله يسألانِهِ أن يشير عليهما برأيه، فقال: «تعلمان أنه ما باهَلَ قوم نبياً قَطُّ إلا كان مَهْلَكُهم كلَمْح البصر، وقد علمتُما

١٠٥ ـ القَيظ: لهيب الصيف، شدة الحَر.

١٠٦ ـ الهَجير: الحر الشديد.

١٠٧ ـ أظلَمَ الفضاءَ: جعله مُظلِماً.

١٠٨ ـ المَسْخ: تبدُّل البدن أو الشكل إلى صورة أدنى أو أقبح كأن ينقلب إلى صورة قِردٍ مثلاً أو كلب. . . .

١٠٩ ـ الخسْف: انهيار تحت مَن (أو: ما) فوقها؛ ويُستعمل أيضاً لغياب نور القمر حينما يحجبه حلول الأرض بينه وبين نور الشمس.

وعلمَ كلُّ ذي أَرَبٍ[١١٠] من وَرَثَة الكُتُب، أن محمداً ـ أبا القاسم هذا ـ هو الرسول الذي بشَّرَتْ به الأنبياء، وأَفْصَحت بِنَعْتِهِ وأهلِ بيته الأُمَناء، أُنظُرا إلى النجوم كيف ٱستطلعت على الأرض، وانظرا إلى خشوع[١١١] الشجر وتَساقُطِ الطير وتَقَيُّئِها[١١٢] ما في حواصلها، وليس عليها من تَبِعَة[١١٣] الله عزَّ وجلَّ شيء، وانظرا إلى ٱقشعرار الجبال، وانتشار الدخان، وقَزَعِ[١١٤] السحاب، ونحن في حَمارَّة القيظ وإِبَّان الهَجير[١١٥]، وليس كل ذلك إلا لِما أطل من العذاب، وانظرا إلى محمد والأربعة من أهله، رافعين أيديَهم ينتظرون ما تجيبان به، وٱعلما علمَ يقين، أنه إنْ نطقَ فوه بكلمةٍ مِن بُهلة، لا نُتدارَك هَلاكاً، ولا نرجع إلى أهل ولا مال، وأنكما إن أسلمتما له سَلِمتُما في العاجلة والآجلة، وإن آثرتُما دينَكما وطِيبَ عَيشِكما وشَحَحْتُما بمنزلتكم من الشرف في قومكما، فلست أحجز عليكما الضَنَّ والبُخْلَ بما نلتما من ذلك، ولكنكما اتفقتما مع محمد على المباهلة حِجازاً[١١٦] وآيةً بينكما وبينه بعدما شخصتما من نجران، فأسرعَ إلى ما بغيتما منه، وإن الأنبياء إذا ظهرت بأمرٍ لا ترجع إلا بقضائه وفعله، فإذا نَكَلتما[١١٧] عن ذلك وأذهلَكما الخوف مِمَّا تريان، فالحظ لكما في النكول؛ فالوَحا الوَحا[١١٨] يا إخوتي والبِدارَ البِدارَ[١١٩]، سارِعا إلى محمد

---

١١٠ ـ أَرَب: حكمة، بصيرة ـ ذو أرب، وأريب: ذو حكمة وبصيرة.
١١١ ـ خشوع: خضوع، انحناء ذلاً وتعظيماً.
١١٢ ـ تَقَيَّأ: استفرغ ـ تقيأت ما في حواصلها: أخرجَتْ واستفرغت ما فيها.
١١٣ ـ تَبِعَة: مسؤولية أو خطأ ـ تقيَّأت الطير واستفرغت ما في حواصلها رغم أنها لم يكن عليها تبعة أو ذنب.
١١٤ ـ قَزَع السحاب: تفرقه أجزاء وقطعاً صغيرة متفرقة.
١١٥ ـ إبَّان الهجير: حين اشتداد الحر.
١١٦ ـ حِجازاً: حداً فاصلاً.
١١٧ ـ نَكَلْتُما (نُكولاً): تراجعتما، لم تنفُذا.
١١٨ ـ الوَحا الوَحا: هَيَّا هَيَّا، هَلُموا هلموا.
١١٩ ـ البِدارَ البِدارَ: سارعوا سارعوا، عجلوا عجلوا.

وصالحاه وأرْضِياه ولا تُرْجِئا ذلك، فإنكما ومَن معكما بمنزلة قوم يونس لما غَشِيَهم العذاب!»؛ ولم يزل المنذر يُنذرهما ويُحذِّرهما، إلى أن أجاباه إلى النكول وقبول الجزية والخزية، وسألاه الانطلاق إلى النبي (ص)وقالا له: «يا أبا المثنى، كن أنتَ الذي تَلقَى محمداً بكفالةِ ما يبتغيه، والتمس لنا إليه ابن عمه هذا، ليكون هو الذي يبرم الأمر بيننا وبينه، فإنه الزعيم ذو الوجه عنده! لا تُبْطِئَنَّ في ذلك، لنطمئن بما ترجع به إلينا».

فنهض المنذر مبادراً، وانطلق إلى النبي (ص) مسرعاً، حتى انتهى إليه، وأسلم من ساعته وقال: «السلام عليكَ يا رسولَ الله! أشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ الذي ٱبتعثَكَ، وأنك وعيسى عَبدان لله عزَّ وجلَّ مُرسَلان». . ثم بلَّغَهُ استقالةَ الرجلين وقبولَهما الجزيةَ والصَغار على نفسيهما، فبعث النبي (ص) علياً (ع) إليهما يدعوهما، فانطلق أمير المؤمنين عليّ (ع) وأتى بهما مُسَلِّمينِ طائعَين، إلى أن انتهى بهما إلى النبي (ص)، فقال لهما: «أسْلِما»، قالا: «أسلمْنا قَبلك»، فقال (ص): «كذبتُما! إنما مَنَعَكما عن ذلك حُبُّ الصليبِ وشربِ الخمر»؛ ثم دعاهما إلى المباهلة، فسكتا عن جوابه، فوثب العاقبُ في وجه صاحبه وقال له: «أُناشِدُكَ اللهَ أن تُلاعِن[١٢٠] هذا الرجل، فوالله إن كان كاذباً لم يكن في ملاعنته ضَرَر، وإن كان صادقاً لا يحول عليكم الحَول ومنكم نافِخُ ضَرْمَة»[١٢١]؛ فرفع النبي (ص) كفه إلى السماء، وفَرَجَ بين أصابعه، فارتعد الحَبران وتزلزلت أقدامُهما، وأشرفا على الهلاك خوفا ورعباً، يقول أحدُهما لصاحبه: «واَرَهْبَتاه! دَراكِ[١٢٢] الرجلَ، فإنه إن فاهَ بِبُهْلة[١٢٣]، لا نرجع إلى أهل ولا مال»؛ ثم تقدما إليه يتوسلان به (ص)، ويسألانه

١٢٠ ـ تلاعَنَ الرجلان (أو الفريقان): أطلقا اللعن وطَلَب العذاب على الكاذب منهما.

١٢١ ـ وباقٍ منكم واحد ينفخ لإضرام (إشعال) نارٍ يطبخ بها طعامه.

١٢٢ ـ دَراكِ: (اسم فعل = أدرِكْ).

١٢٣ ـ فاهَ (يفوه): تفوَّهَ، نَطَق ـ بُهْلَة: دُعاء.

الإقالة[١٢٤]، والمُهلةَ إلى أن يرجعا إلى قومهما، يُعْلمانِهم بما شاهداه، ويكون الأمر على مَلَإٍ[١٢٥]، منهم، إما قبول الإسلام، وإما الجزية في كل عام، فأجابهما النبيُّ (ص) إلى ذلك، ثم قال: «أَمَا والذي بعثني بالكرامة، لو أنكم باهَلتُموني بمن تحت الكساء، لأَضرم اللهُ عليكم الوادي ناراً تَوَجج، ثم ساقها إلى مَن وراءكم في أسرع من طرف العين فحَرَقَتْهم تأجُجاً! أَما والذي نفسي بيده، إن العذاب قد تَدَلَّى على أهل نجران، ولو أنهم لاعنوني، لَمُسِخوا قِردةً وخنازير، واستأصل الله نجرانَ وأهلها حتى الطيرَ على رؤوس الشجر، وقُلِعَت دُورُهم وقُطِع دابِرهم، وما حالَ الحَوْلُ على النصارى كلهم في الدنيا، حتى يهلكوا ولا يَبقَى منهم بشر، وإن هذا أخي جبرائيل (ع) يقول: يا محمد، إن الله عزَّ وجلَّ يَقرأُك السلام ويقول: إن عبدي موسى باهَلَ عدوَّهُ قارونَ بأخيه هارون وبَنِيه، فخُسِفَت الأرضُ بقارونَ وأهلِه وماله وبمن آزَرَهُ مِن قومه، إني بِعِزَّتي وبجلالي أقسم يا أحمد، لو أنك باهَلْتَ بمن تحت الكساء (من أهلك) أهلَ الأرضِ والخلائقَ جميعاً لَتَقَطَّعت السماءُ كِسَفاً[١٢٦] والجبال زُبُراً[١٢٧] متهافتة ساقطة عليهم»؛ ثم سجدَ النبي وخرَّ على الأرض باكياً، ورفع يديه نحو السماء حتى بانَ بياضُ إبْطَيْهِ يشكرُ ربَّهُ بما أبْلاه من الكرامة في أهل بيته، يكرر قوله: «شكراً للمنعم، شكراً للمنعم»؛ ثم رفع رأسه وتوجه إلى أهل بيته، وأخذ يدعو على مَن ظَلَمَهُم بقوله: بُهْلَةُ الله ولعنتُه تَتَابعُ إلى يوم القيامة على مَن ظلمكم حقَّكم وبَخَسني الأجرَ الذي افترضه الله عليه فيكم»؛ ثم قرأ (ص) ـ مخاطباً إياهم ـ قولَه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[١٢٨]، ثم دعا

---

١٢٤ ـ الإقالة: الإعفاء وعدم المطالبة بتنفيذ التعهد السابق (بالمباهلة).

١٢٥ ـ على مَلَإٍ منهم: على جمع كبير منهم.

١٢٦ ـ كِسَفاً: قِطَعاً.

١٢٧ ـ زُبُرا ـ أجزاء متفرقة.

١٢٨ ـ القرآن الكريم، ج ٢٢، س ٣٣ الأحزاب: ٣٣.

(ص) علياً (ع) وبعثَه مع الحَبرين إلى أقوامهما ليصالحهم، وسأله أمير المؤمنين (ع) قائلاً: «بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله، على ما أصالحهم؟»؛ فقال (ص): «رأيُكَ يا أبا الحسنِ رأيي في كل ما تُبْرِمُ معهم»؛ فانطلق أمير المؤمنين (ع) إلى جُموعهم، وصالحوه على ألف حُلَّةٍ[129] وألف دينار، يُؤَدونها شطراً في شهر محرم - (الشهر الأول من السنة الهجرية) وشطراً في شهر رجب - (الشهر السابع من السنة الهجرية) - وألف سيف، وألف درع، وجَحْفة[130] يؤدونها في عامهم ذلك.

ولما انصرف راجعاً إلى النبي (ص)، لم يلبث السيد والعاقب أن أتَيا إلى النبي (ص) وأسلما على يديه، وأهديا إليه حُلَّةً وعَصاً وقَدَحاً ونَعلين؛ ثم لَحقهما أبو حارثة (أسقُفُهم الأول)، وأسلم على يد النبي (ص) بعد ما أخبره النبي (ص) عند انصرافه بما يجري عليه، وصار وتحقق كل ما أخبره به (صلى الله عليه وآله وسلم).

---

١٢٩ - حُلَّة: ثوب ساتر لكل البدن، (وتستعمل أيضاً للثوب الجديد).

١٣٠ - الجُحْفة: القطعة من السَمن. كذا جاء في «القاموس المحيط»، وهي لا تتناسب ولا تقارب (قدراً وأهمية) قيمةً بقية المواد التي صالحهم عليها الإمام (ع)، لذا لا نستبعد أن يكون الناسخ الذي كتب الكلمة في المتن القديم، قد أخطأ في قراءتها أو في نسخها عن المصدر الذي نقل عنه.

نزول

سورة «بَراءَة»

بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، صالح النبيُ (ص) قُريشاً وسائر قبائل العرب فيها وفي نواحيها على الهدنةِ ورَفْعِ السيف عنهم على شروط، منها أداء الجزية في كل عام، ومنها عدم التَعرُّض له (ص) ولأصحابه بعداوة، ولا مُظاهَرَةِ[1] عدوٍ عليه؛ ولما كانت السنة التاسعة بلغَهُ أن كثيراً منهم ـ كقبائل: قريش وبكر وبني خزيمة وبني مدلج وبني ضمرة وبني الدئل ـ قد خانوه ونقضوا عهده، ولم يستقم على العهود والشروط إلا قبائلُ قليلة ـ مثلُ: أهل هَجَر والبحرين وأبلة ودومة الجندل ـ وكان قد بقي مِن أَجَلِ العهد والصلح تسعة أشهر، فغضب النبي (ص) من غَدْرِهم، ونزلت عليه وحياً سورةُ الغضب ـ أي السورة التي تبدأ بعبارة «براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين»[2] ـ والتي أمر الله فيها نبيه (ص) بإعلام المشركين الذين نقضوا العهد، أنه بَرِئَت ذمة الله ورسوله من العهد لهم، وأن لهم المُهلة في رفع السيف عنهم إلى أربعة أشهر؛ بدايتها حين بلوغهم الخبر بذلك، فإن أسلموا، وإلا فليخرجوا من مكة، وإذا وُجِدوا فيها بعد الأَجَل، قُتِلوا أينما كانوا، وأما الذين أقاموا على عهدهم،

---

١ ـ مُظاهرة: مُساندة، تأييد.

٢ ـ القرآن الكريم (الجزء ١٠، السورة التاسعة، التوبة: الآية الأولى).

فأجَلُهم نهاية المدة أو ظهور النقض منهم، ثم لا يُسمَح بعد ذلك لمشرك في الدخول إلى مكة، ولا يجوز للمسلمين تمكينهم من ذلك، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾[4]، وقوله سبحانه بعدئذٍ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[5] إلخ، ففرح رسول الله (ص)، ودعا أبا بكر بن أبي قحافة (رض)، وأمره بالانطلاق إلى مكة ليقرأ على أهلها في الموسم نحواً من عشر آيات من السورة، فانطلق بها، ولمَّا بلغ مَوقعَ «ذي الحليفة» نزلَ جبرائيل (ع) على النبي (ص) وقال: «إن الله يقرأك السلام ويقول: لا يؤدّيها إلا أنتَ أو رجلٌ منك»، فبادر رسول الله (ص) ودعا أمير المؤمنين علياً (ع) وقال له: «اركب ناقتي العضباء[6]، والْحَقْ أبا بكر تأخذ منه السورة، وتمضي بها إلى مكة تنبذ بها عهد المشركين إليهم، وخيِّرْ أبابكر بين أن يسير في ركابك أو يرجع إليَّ»؛ فركب أمير المؤمنين (ع) الناقة، وخرج مسرعاً يجدُّ السَيرَ حتى أدركه، فلما بَصُرَ به أبو بكر اضطرب وقلق من ذلك، ثم تلقاه وسأله قائلاً: «فيمَ جئتَ يا أبا الحسن؟ أسائرٌ أنتَ معي أم آتٍ لغير ذلك؟»؛ فأخبره أن النبي (ص) أمره أن يقرأ هو على أهل مكة آية البراءة، وأن يُخيِّره بين الذهاب والرجوع، فانزعج أبو بكر شديدا وٱمتلأ غَيظاً، واختار الرجوع إلى النبي (ص)، حتى انتهى إليه مغضباً، وجعل يعاتبه بقوله: «يا رسول الله، إنك أهَّلْتني لأمرٍ طالت الأعناق إليَّ فيه، ولما توجهتُ له رَدَدْتني، ما لي؟ أنَزَل فيَّ قرآن؟»؛ قال (ص): «لا، ولكنَّ

---

٣ ـ القرآن الكريم، ج ١٠، س ٩ التوبة: ١.

٤ ـ س ٩ التوبة: ٤.

٥ ـ س ٩ التوبة: ٢٨.

٦ ـ العَضباء: المشقوقة الأذُن.

الأمينَ جبرائيلَ هبطَ إليّ عن الله عزَّ وجلَّ أنه لا يؤديها إلا أنا أو رجلٌ مني، والذي هو مني إنما هو علي، فإذاً هو الذي يؤدي عني»؛ فسكت عندئذٍ، ولم يرد على النبي (ص) شيئاً.

وانطلق علي (ع) حتى انتهى إلى مكة، وحضر المواقف كلها يقرأ الآيات في كلٍ منها على أهاليها برفيع صوته وهو مُخْتَرِطٌ[7] سيفه، حتى أَسمعَ أهل الموسم بأجمعهم كافة، وبلّغهم أذان الله ورسوله بالبراءة من المشركين، وهو قوله سبحانه: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾[8]، وكان عامُهم آخرَ سنة لاجتماع المشركين مع المسلمين في الحج، ولذلك سُمِّيَ بالحج الأكبر؛ ثم جعل (ع) ينادي في الجموع وقد جرد سيفه يقول: «ألا لا يطوفُ بهذا البيت بعد هذا العام عريان، ومَن وجدتُهُ كذلك ضربتُهُ بالسيف، ولا يَقْرُب المسجدَ الحرام بعد هذا العام مُشرك، ومَن كان له عهدٌ فإلى مُدَّته، ومَن لم يكن له عهد فله أربعة أشهر، فإن أخذناه بعد ذلك قتلناه».

ثم رجع (ع) إلى المدينة، وفَشا[9] خَبرُهُ في القبائل، فَامتلأوا رعباً وخوفاً، ولم يَجْرُؤ أحد منهم بعد ذلك على دخول مكة إلا بعد أن يُسْلم، وعَلَتْ بذلك كلمة الإسلام وقويت قلوب المسلمين، ولم يزالوا يزدادون بذلك عُدَّةً وعدداً.

ثم بلغ النبيَ (ص) عُتُوُّ[10] أهلِ اليَمَن وطغيانُهم على رجال الوفد الذين بعثهم إليهم، فقد كان (ص) بعث إليهم وفداً - يقدُمهم خالد بن الوليد - فأقام فيهم ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام، ولكن لم يُجِبْه أحد منهم،

---

٧ - اختَرَطَ السَيفَ: استلّه.

٨ - ج ١٠، س ٩ التوبة: ٣.

٩ - فَشا (يفشو): شاع وانتشر وذاعَ باتساع.

١٠ - عُتُوّ: طُغيان، تَعالي، تَجبُّر.

فكتب إلى النبي (ص) بذلك، فغضب رسول الله (ص) وساءه كثيراً، ودعا علياً أمير المؤمنين (ع)، وأمره أن ينطلق إلى اليمن يدعو أهلها إلى الإسلام، وأن يرجع خالد ومَن معه إلى المدينة، عدا مَن أَحَبَّ الإقامة مع أمير المؤمنين (ع).

وتجهز علي (ع) للخروج، وأرسل النبي (ص) معه كتاباً إلى أهل اليمن، ثم ودَّعَهُ وأوصاه بوصاياه، وبالدعاء ومَزيد الشكر فإنهما مقرونان بالإجابة، وأوصاه بأن لا يُقاتل أحداً قبل الدعوة، ثم قال (ص): «وأَيْمُ الله، لَأَنْ يَهدي اللهُ على يَدَيْكَ رجلاً، خيرٌ لكَ مما طلَعَتْ عليه الشمس»، ثم وضع يده الشريفة على صدر أمير المؤمنين (ع) ودعا له قائلاً: «اللَّهمَ اْهْدِ قلبه، اللَّهمَّ اْهْدِ قلْبَه، وَثَبِّتْ لسانَه»؛ ثم أمره بأنه عند بلوغه أعلَى العقبة مِن قرية «أفيق»، أن ينادي برفيع صوته: «يا شَجَرُ يا مَدَرُ[11] يا ثَرَى[12]، محمدٌ رسولُ الله يَقْرَأُكم السلام»، فانطلق علي (ع) حتى انتهى إلى أوائل اليمن، فلَقيَ خالداً ومَن معه وأمرهم بالرجوع، فرجعوا نحو المدينة إلا قليلاً منهم أحبوا الإقامة معه، (منهم البَراء بن عازب)[13] فسار بهم أمير المؤمنين (ع) حتى انتهى إلى عقبة «أفيق»، فخرج إليه أهل اليمن شاهرين سيوفهم، مُشرِعِينَ[14] أسِنَّتَهم[15]، مُتَنَكِّبينَ قِسِيَّهُم[16]، فرفع صوته (ع) ينادي

---

١١ ـ مَدَر: طين، وَحْل ـ وتُستعمل أيضاً بمعنى: البناء (مقابل الخِيام).

١٢ ـ ثَرَى: تراب.

١٣ ـ البَراء بن عازِب: صحابي من قبيلة الخَزْرَج في «المدينة» (يثرب سابقاً)، اعتنق الإسلام في سن مبكرة حتى منعهُ النبي (ص) عن القتال في معركة «بَدْر» لصغر سنه، وشارك بعداً في عدة غزوات في عهد الرسول (ص) وبعد عهد الرسولُ منها فتح بلاد فارس، وكان من المؤيدين الموالين للإمام علي (ع)، توفي سنة ٧١ للهجرة (٦٩٠م) في الكوفة، ودُفن فيها.

١٤ ـ مُشرِعين: رافعين بصورة عالية.

١٥ ـ أَسِنَّة: جمع سِنان: نَصل الرُمح.

١٦ ـ مُتَنكِّبين قِسِيَّهم: القِسِيّ، جمع قوس: الآلة التي تُرمَى بها السهام ـ متنكبين=

الشجرَ والمدر والثّرى، يبلغهم سلامَ رسول الله (ص)، فلم يُتِم كلامه حتى ارتجت العقبة والأودية بما فيها من الشجر والثرى والمدر، تَرُد السلامَ بأصوات رفيعة وعبارات فصيحة تقول: «وعلى محمد رسول الله وعليك السلام»؛ فاضطربت بذلك قوائم القوم من أهل اليمن، وارتعدت فرائصهم خوفاً ورعباً حتى سقطت أسلحتهم من أيديهم، وكان ذلك عند طلوع الفجر، وحينئذٍ خضعوا لأمير المؤمنين (ع)، وأقبلوا إليه مسرعين يُعلنون الإسلامَ والبَيعةَ للنبي (ص) على يد الوصي (ع).

ثم تقدم أمير المؤمنين علي (ع) للصلاة بأصحابه، فاصطف القومُ بأجمعهم خلفه للصلاة صفاً واحداً، ثم وقف (ع) بعد إكمال الصلاة قائماً على قدميه خطيباً فيهم، فحمد الله وأثْنَى عليه، ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله (ص) يدعوهم إلى الإسلام، فأجابوه بأجمعهم يتقدمون إليه أفواجاً أفواجاً يبايعونه على ذلك، حتى أسلم كلهم في يوم واحد، وكانوا يُعْرَفون ببني همدان، وكتب أمير المؤمنين (ع) بذلك إلى رسول الله (ص)، ففرح النبي (ص) واستبشر بذلك كثيراً، وابتهج ابتهاجاً عظيماً، وخَرَّ على الأرض ساجداً لله شاكراً، ثم رفع رأسه يكرر قوله (ص): «السلام على همدان، السلام على همدان».

وكان عمرو بن شأس في مَن أقاموا مع أمير المؤمنين علي (ع) في اليمن، ولكنه خالف الأمير (ع) في بعض الأعمال، حتى وجد في نفسه على أمير المؤمنين (ع) بعض الغيظ، بل ورجع إلى المدينة، فلما قدمها لقيَ بعض أصحابه وجعل ينتقد ويشكو عندهم علياً، ثم دخل على النبي (ص) في المسجد وجلس إليه، فتوجه إليه رسول الله مغضباً ينظر إليه شَزْراً وقال له: «يا ابن شأس، لقد آذيتني»؛ فاضطرب الرجل وقال: «إنا لله وإنا

= القِسِي: حاملين القِسِي على مَناكبهم، والمناكبُ جمع مَنكِب طرف الكتف الذي يلتقي مع أعلى العضد في اليد، وتستعمل المناكب عامة للأماكن المرتفعة أيضاً.

إليه راجعون! أعوذ بالله والإسلام من إيذاء رسول الله!»، فقال (ص): «من آذى علياً فقد آذاني».

ثم إن أمير المؤمنين (ع) - بعد دخوله اليمن وإسلام بني همدان - تتابعت إليه الوفودُ من سائر القبائل من بلاد اليمن ونواحيها، يبايعونه على الإسلام ويدخلون في دين الله أفواجاً؛ ولم يزل مقيماً بينهم، يعلمهم شرائع الإسلام، ويبين لهم الحلال والحرام، ويَحْكم فيهم بِحُكم الله ورسوله، إلى أن حكم فيهم في فَرسٍ أَفْلَتَ وقتلَ رجلاً بما لم يرض به أَوْلياءُ القتيل، فركبوا دوابَّهُم وأقبلوا إلى المدينة يشكونه عند رسول الله (ص)؛ فلما دخلوا عليه وشكوا إليه ظلم علي، غضب النبي (ص) وقال: «أن علياً ليس بظَلَّام، ولم يُخلَق علي للظُلْم، وإن الولاية من بعدي لِعلي، والحكمَ حكمُهُ والقول قولُهُ، أَلا لا يَرُدُّ حُكْمَهُ وقولَه إلا كافر، ولا يَرضَى بحُكمه وولايته إلا مؤمن»؛ فندم القوم على صنيعهم وتابوا عن مقالتهم، وقالوا قد رضينا بحكم علي (ع)، وقبلَ النبي (ص) توبتهم وعفا عنهم.

ثم كتب النبي (ص) كتاباً إلى أمير المؤمنين علي (ع) يأمره فيه بالانطلاق إلى نجران، وأن يأخذ من أهلها الجزية والصدقات[١٧]، ثم أن يَلْحَق به (ص) في مكة في حَجَّة الوداع (التي كانت في السنة العاشرة من الهجرة)؛ وكان قد نزل عليه الأمر بالحج، وأن ينطلق بنفسه يُعلِّم الناس شرائع الحَج وآدابه فإنها آخر سنة من حياته (ص)، ونزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾[١٨] إلخ، فبعث (ص) وفوداً إلى بلاد صنعاء والبحرين وحضرموت وقبائل طَي وبني أسد وحَنْظَلة وبني تميم، لجمع الصدقات

---

١٧ - الصَدَقات أموال تؤخذ من المسلمين، والجزية ضريبة تؤخذ من غير المسلمين العائشين في الدولة الإسلامية والذين رفضوا الإسلام، فلم يَفْرِضْهُ المسلمون فرضاً عليهم، وأخذوا منهم الجزية ضريبةَ حمايتهم في ديار الإسلام وإعفائهم من حروب الدفاع عنها.

١٨ - ج ١٧، ٢٢ الحج: ٢٧.

والجزية منهم، ونادى المنادون والمُؤَذِّنون بأمره (ص) في المدينة ونواحيها، وفي أهل العوالي[19] والقبائل يدعونهم إلى الحج، ويُعْلِمونهم أن رسول الله (ص) يَحُج في عامه هذا (بعد أن لم يحج طيلة مدة إقامته تسع سنوات في المدينة)، حتى بلغت دعوته (ص) على ألْسنة المنادين باسمه والمؤذِّنين بالحج أقاصي بلاد المسلمين، فاستجاب المسلمون بنسبة عالية لدعوته إياهم للحج، وتجهزوا للخروج معه (ص)، كما اجتمع في المدينة مِن ضواحيها أيضاً كثيرون متجهزون للحج، فخرج ـ (ص) ـ بهم في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة الحرام، ولم يذكر (ص) في كتابه إلى أمير المؤمنين (ع) نوعَ الحج الذي عزم عليه مِن قِران أو إفراد أو تَمَتُّعٍ[20]، وخرج (ص) قارناً[21] قد ساقَ معه ستا وستين هَدْياً[22]، حتى انتهى إلى «مسجد الشجرة» بذي الحليفة[23]، وزالت[24] الشمس، فاغتسل وصلَّى بأصحابه في المسجد فريضة الظهر، ثم أَحْرَمَ[25] (ص) وتبعه الناس وسار بهم حتى بلغ البيداء، ووَلَدَتْ هناك أسماءُ بنتَ عُمَيْس إبناً لأبي بكر سماه محمداً، إلى أن دخل النبي (ص) مكة في الرابع من ذي الحجة، ودخلها في اليوم نفسه أيضاً أمير المؤمنين

---

١٩ ـ العَوالي: مدينة داخل المنطقة الصحراوية من جزيرة البحرين.

٢٠ ـ حَجُّ القِران وحَجُّ الإفراد: هما الحجَ من ديار قريبة إلى بيت الله الحرام مثل الحجاز ونجد وسواهما، ولكن حج القران يعني أن الحاج مرْفَق بناقة أو فرس. . . بينما حج الإفراد ليس مُرفقاً بشيء؛ وأما حج التمتع فهو الحج من ديار بعيدة عن بيت الله.

٢١ ـ قارِناً: حاجّاً على نوعية القِران.

٢٢ ـ الهَدْيُ: ما يُهْدَى إلى الحَرَم (المكي. . .) مِن النَعَمَ (الخِراف، الماعز. . .).

٢٣ ـ ذو الحليفة هو ميقات، أي أحد المواضع التي يُحْرِمُ فيها حجاج بيت الله الحرام، فيبدأون فيها أعمال حَجِّهم، وذو الحليفة هو ميقات أهل المدينة ومن يمر على طريقهم.

٢٤ ـ زالَت الشمس: بلغت الزوال: الظُهر.

٢٥ ـ أَحْرَمَ: لَبِس ثياب الإحرام، ثياب الحج.

علي (ع)، فالتقاهُ النبي (ص) وضمه إلى صدره يعانقه ويُقبِّله مستبشراً بقدومه، ثم سأله عن نوع حَجِّه ونيَّته وقال له: «بِمَ أهْلَلْتَ يا علي؟»، فقال: «يا رسول الله، إنك لم تكتبْ إليَّ بإهْلالك، فعقدتُ نيتي بنيتك، وقلتُ: اللَّهمَّ إهلالاً كإهلال نبيِّك؛ وسُقتُ معي أربعاً وثلاثين بَدَنَة»[26]، فكبَّر النبي (ص) إعجاباً بذلك، وقال (ص): «قد سُقتُ أنا سِتاً وستين، وأنت شريكي في حَجِّي ومَناسكي وهَدْيي، فأقِمْ على إحرامك».

وكان كثير من المسلمين قد خرجوا مِن غير سِياقِ هَدْي، فنادى مُنادي رسول الله في الناس أنَّ «مَن لم يَسُقْ منهم هَدْياً فَلْيُحِلَّ من إحرامه ويجعلْه عُمْرَة، ومَن ساق هدياً فليُقِم على إحرامه»، فأحَلَّ كثير ممن لم يَسوقوا هديًا ولَبِسوا ثيابَهم.

وأما ما كان من أمر أمير المؤمنين علي (ع)، فإنه بعد دخوله مكة وملاقاتِهِ النبيَّ (ص)، رجع إلى جنود جيشه الذين كانوا معه في اليمن، وكان قد خَلَّفهم[27] خارج مكة، وأوْدعَ ما أتى به من الحُلل والثياب، ومِن الجِزية والصدقات، عند رجل منهم كان قد استخلفه عليهم، ولما انتهى إليهم رأى أن الرجل قد كَسَا[28] كلاً منهم حُلَّة منها، فغضب (ع) ونَزَعها عنهم، فاستاؤوا من ذلك ولما قَدِموا مكة دخلوا على النبي (ص) يشكون علياً (ع) في ذلك، فنَهَرَهم رسول الله (ص) وقال لا تَشْكوا علياً فإنه واللهِ لَخَشِنٌ في ذات الله، ولا يعمل ما يعمل إلا بأمرٍ من الله ورسوله.

ثم إن النبي (ص) دخل المسجدَ الحرامَ وجموعُ الناس خلفَه، وطاف بالبيت سبعة أشواط، وصلَّى في مقام إبراهيم (ع)، ثم رجع إلى الحَجَر[29]

---

٢٦ ـ بَدَنَة: ناقة أو بقرة معلوفة بصورة مشبعة، ومُسَمَّنة.
٢٧ ـ خَلَّفَهُم: تركهم خَلْفه.
٢٨ ـ كَسَا (يكسو): ألبَسَ كسوة: ثوباً.
٢٩ ـ الحَجَر: «الحجر الأسود» حجر لصيق بالكعبة، يتبارك به الحُجَّاج والزُوار المسلمون.

يستلمه، ثم سَعَى بين الصفا والمروة وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[٣٠] إلخ، ثم رجع إلى منزله بالبطحاء، ورجع أمير المؤمنين علي (ع) أيضاً إلى مكة المكرّمة، ودخل على زوجته الصديقة فاطمة (ع)، ورآها قد أحَلَّتْ مِن إحرامها واستعملت الطِيب، فسألها عن ذلك فقالت: «إن رسول الله أمرنا بهذا»، ولم تكن هي ساقَتْ هَدْياً.

وأقام النبي (ص) بمن معه، إلى أن كان يوم التَرْوِيَة عند الزوال، فأمر الناس بالاغتسال والإهلال بالحج، ثم خرج بهم إلى عرفات، وعلَّمَهم واجبات المشاعر بأجمعها، إلى أن رجع بهم إلى مكة ثالث أيام التشريق، وقام خطيباً على راحلته العضباء، وخطب خطبة طويلة بليغة يَعِظُهم فيها ويأمرهم بالاعتصام بكتاب الله، ورَفْض بِدَع الجاهلية مِن الرِبا في المال والنسيءِ في الشهور، وبيَّنَ لهم الأشهرَ الأربعةَ الحُرُمَ منها، ثم أوصاهم بمراعاة النساء، وبيَّنَ حقوقَهن على أزواجهن وحقوقَ الأزواج عليهن، إلى أن رفع (ص) يديه إلى السماء في الخاتمة، يُشْهِد ربه على التبليغ» قائلاً: «اللَّهمَّ إني بَلَّغت».

ثم لما تفرق الناس ورجع (ص) إلى منزله، دعا جريرَ بن عبد الله، وبعثه إلى «ذي الكلاع» ملك الطائف يدعوه إلى الإسلام، وكان قد طَغَى حتى ادعَى الربوبية، فلما انتهى إليه جرير وبلَّغه أمر النبي (ص)، أجاب وأَسلمَ على يده، وكذا زوجته «ضريبة بنت أَبْرَهَة» صاحب الفيل، وأقام على إسلامه حتى دخل المدينة أيام خلافة عمر بن الخطاب (رض) ومعه من العبيد ثمانية عشر ألفاً، وجدد إسلامه على يد الخليفة عمر، وأعتَقَ مِن عبيده أربعة آلاف.

ثم أسلم بعد ذي الكلاع «فروةُ بن عَمْرو» ـ وكان يومئذٍ عاملاً لملِكِ الرُوم ـ وبعث هدايا للنبي (ص) فيها بغلة بيضاء وفَرَس وحمار، وثياباً فيها

٣٠ ـ القرآن الكريم، ج ٢ س ٢ البقرة: ١٥٨.

قباء سُنْدُس مخوص (أي مُزَيَّن) بالذهب، وكتب له كتاباً يخبره فيه بإسلامه، وأجابه النبي (ص) بكتاب، وبلَغَ خبرُ الرَجُلِ ملكَ الروم، فاستدعاه وأمره بالرجوع إلى دينه، فامتنع عن ذلك، فحبسه الملِك ثم قتله وصلبه.

ثم تجهز النبي (ص) للخروج من مكة بمن معه نحو المدينة، إلى أن خرج ومعه يومئذٍ حشد كبير جداً من المؤمنين. (جاء في بعض المراجع أن عددهم كان مئة وعشرين ألفاً).

غديرُ خُم

حين خرج النبيُ (ص) من مكة في الخامس عشر (أو السادس عشر) من شهر ذي الحجة، نَزلَ عليه أمينُ الوَحي جبرائيل (ع)، بأمرٍ من الله تعالى، أن يُنصّب ابنَ عمه زوج ابنته عليَّ بن أبي طالب مَولىً وأميراً على المؤمنين، وخليفةً له مِن بعده، فقال النبي (ص): «يا جبرائيل، إن الناس حديثو العهد بالإسلام، فأخشى أن يعترض البعضُ أو الأكثر منهم ولا يطيعوا»، قال (ص) ذلك لِعلمِهِ بشدةِ ألمِ أقارب بعض المشركين الذين قُتِلوا على يد علي (ع)، ولِما يعرف (ص) أيضاً من حَسَد المنافقين المشحونة قلوبهم وصدورهم كمداً وغيظاً على أمير المؤمنين، لذا كان يفضّل تأجيل الأمر إلى وقت أكثر أماناً وأهلية، فعَرَج الأمين (ع) إلى السماء، وسار النبي (ص) بجموعه.

فلما كان اليوم الثالث من مسيرته (ص)، وصلَ إلى وادٍ يُسَمَّى «غدير خُم»، فنزل عليه أمينُ الوحي جبرائيل (ع)، يجدد الأمر بإعلان الولاية بعده (ص) لعلي (ع)، قارئاً الآية الكريمة التي تتضمن نوعاً من العتاب بل ما يشبه الاتهام بالتقصير ـ جلَّ مقامه ـ إن لم يبلغ الأمر الإلهي بإعلانه ولاية علي (ع) من جهة، ونوعاً من الطمأنة والحماية من الله تعالى له (ص) من أية أذية من المشركين حين ينفذ أمره تعالى من جهة أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ

وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]؛ فاضطرب النبي (ص) رعباً، وأمر بعض مَن معه بإناخة راحلته[2] وقال: «واللهِ لا أبرح هذا المكان حتى أبلّغ رسالة ربي».

ولما نزل (ص) مِن على راحلته، نادى مناديه في الأفواج وكافة الجموع يدعوهم لسماع النبي (ص)، حتى رجع المتقدمون منهم ولحق المتأخرون، ثم نادى المنادي فيهم «الصلاة جامعة»، حتى أسمعَ أولَهم وآخرَهم، ونزل الناس بأجمعهم عن رِحالهم، وكان يوماً قائظاً شديد الحر، حتى جعل كثيرون منهم يلقون أرديتهم على أقدامهم من شدة حرارة الشمس وحرارة الأرض وهي تكاد تلتهب ناراً، وقد استاء كثيرون من نزول النبي (ص) وأمْرِه بذلك في وادٍ لم يُعهَدْ فيه النزول، يَسأل بعضهم بعضاً عن سبب ذلك، إلى أن استقرت بهم الأرض وجلسوا بأجمعهم يترقبون أمره، فنصبوا له منبراً بأمره من أقتاب[3] الجِمال ورِحال القوم، فصعد عليه حتى صار في ذِروته، ثم دعا علياً (ع) وأصعَدَهُ إلى جانبه وأقامه عن يمينه أو دونه بمرقاة[4]، ثم قام بنفسه على قدميه، وخطبَ خطبة طويلة، أكثرَ فيها من الحمد لله والثناء عليه والتسبيح له تعالى، والتوحيدِ والتقديس والشهادة له بالربوبية، وعلى نفسه (ص) بالعبودية له، إلى أن قرأ عليهم الآية الشريفة ثم قال:

«مَعاشِرَ الناس.. إنني ما قصرت في تبليغ ما أنزِلَ إليّ، وأنا مبين لكم سبب هذه الآية، وهو أن جبرائيل هبط عليَّ ثلاث مرات، يأمرني (عن السلام ربي وهو السلام) أن أقوم في هذا المشهد، فأُعلِمَ كلَّ أبيض

---

١ ـ القرآن الكريم، ج ٦، س ٥ المائدة: ٦٧.
٢ ـ الراحلة: الدابة التي يركب فوقها المسافر، وجمعها رِحال.
٣ ـ أقتاب، جمع قَتَب وقَتْب: ما يوضع على ظهر البعير كالسَرْج.
٤ ـ بمرقاة: بدرجة (من سُلّم).

وأسود، أن علي بن أبي طالب هو أخي ووصيي وخليفتي، والإمامُ مِن بعدي، الذي مَحَلُّه مني محلُّ هارون من موسى، إلا أنه لا نبيَّ بعدي؛ وهو وليُّكم بعد الله ورسوله، وقد أنزل الله تبارك وتعالى علي بذلك من كتابه آية «إنما وليُّكم اللهُ ورسولهُ والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون»[٥]؛ وعلي بن أبي طالب أقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع يريد الله عزَّ وجلَّ في كل حال، وسألت جبرائيل أن يعفيني من تبليغ ذلك إليكم، لِعلمي بقلّة المتَّقين، وكثرة المنافين، وأدغال[٦] الآثمين، وحِيَل المستهزئين بالإسلام الذين وصفهم الله تعالى في كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويحسبونه هَيِّناً وهو عند الله عظيم[٧] وكثرة أذاهم لي حتى سَمَّوني أُذُناً، وزعموا أني كذلك لكثرة ملازمة عليٍ إياي وإقبالي عليه، حتى أنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ قوله في ذلك «ومنهم الذين يؤذون النبيَ ويقولون هو أُذُن»[٨] ولو شئتُ أن أُسميَ أسماءَهم لَسميتُ، وأن أُوميءَ إليهم بأعيانهم لأَوْمَأت، وأن أدُلَّ عليهم لَدلَلْتُ، ولكني واللهِ في أمورهم قد تكرمتُ، وكلُّ ذلك لا يُرضي الله مني إلا أن أبلِّغَ ما أَنزَلَه إليَّ، فاعلموا - مَعاشِرَ الناس - أن اللهَ قد نَصَبهُ لكم وَلياً وإِماماً مفترِضاً طاعته على المهاجرين والأنصار، وعلى التابعينَ لهم بإحسان، وعلى البادي والحاضر، وعلى الأعجمي والعربي، والحُرّ والمملوك، والصغير والكبير، وعلى الأبيض والأسود، وهو على كل مُوَحِّدِ ماضٍ حكمهُ، جايزٌ قوله، نافذٌ أمرهُ، ملعونٌ مَن خالَفه، مرحومٌ مَن تَبعِه، ومَن صدَّقه فقد غفر اللهُ له ولمن سمعَ منه وأطاعه.

---

٥ - (ج ٦، س ٥) المائدة: ٥٥.

٦ - أدغال: مَفاسد، ضلالات.

٧ - النص هنا قريب إلى الآية الكريمة: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ ج ١٨، س ٢٤ النور: ١٥.

٨ - ج ١٠، س ٩ التوبة: ٦١.

معاشَر الناس.. إنه آخر مقام أقومه في هذا المشهد، فاْسمعوا وأطيعوا وانقادوا لأمر ربكم، فإن الله عزَّ وجلَّ هو ربُّكم ووَليُّكم وإلٰهكم، ثم مِن دونهِ رسولهُ محمدٌ وليُّكم القائمُ المخاطِبُ لكم، ثم مِن بَعدي عليٌّ ولِيُّكم وإمامكم بأمر الله ربكم، ثم الإمامةُ في ذريتي من وُلْده إلى يوم القيامة يوم تَلقَون الله ورسوله! لا حلالَ إلا ما أحلَّه الله، ولا حرامَ إلا ما حرَّمه الله؛ عرَّفَني الحلالَ والحرام، وأنا أفضيت إلى علي بما علمني ربي من كتابه حلالِه وحرامَه.

مَعاشرَ الناس.. ما مِن علمٍ إلا وقد أحصاه الله فيَّ، وكلُّ عِلم عَلِمتُه فقد أحصَيْتُهُ في علي إمامِ المتقين، وما مِن عِلم إلا وقد عَلَّمته علَياً وهو الإمام المبين!

مَعاشرَ الناس.. لا تَضِلوا عنه، ولا تنفِروا منه، ولا تستنكِفوا من ولايته، فهو الذي يَهدي إلى الحق ويَعمل به، ويُزهِقُ الباطلَ ويَنْهَى عنه، ولا تأخذُهُ في الله لَوْمَةُ لائم! إنه أولُ مَن آمن بالله ورسوله، والذي فَدَى رسول الله بنفسه، والذي كان مع رسول الله يوم لا أحَدَ كان يعبد الله مع رسوله من الرجال غيرُه!

مَعاشرَ الناس.. فَضِّلوه فقد فضَّلَه الله، واْقبلوه فقد نَصَبَه الله!

معاشرَ الناس.. إنه إمامٌ من الله ولن يتوبَ اللهُ على أحدٍ أنكرَ ولايته ولن يغفر الله له! حتماً على الله أن يفعلَ ذلك بمن خالف أمرَهُ فيه، وأن يعذبه عذاباً نُكراً أبَدَ الآبادِ ودَهْرَ الدُهور، فاحذروا أن تخالفوه فَتَصْلَوْا ناراً وَقودُها الناسُ والحجارةُ أُعِدَّتْ للكافرين.

أيها الناس.. بي واللهِ بشَّرَ الأولونَ مِن النبيين والمرسَلين، وأنا خاتم الأنبياء والمرسلين، والحُجَّةُ على جميع المخلوقين من أهل السموات والأَرَضين، فمَن شكَّ في ذلك فهو كافرٌ كُفرَ الجاهلية الأولى، ومن شكَّ في شيء مِن قولي هذا فقد شك في الكل منه، والشاكُّ في الكل له النار.

معاشرَ الناس.. حَباني اللهُ بهذه الفضيلةَ مَنّاً مِنه عَلَيّ، وإحساناً منه إليّ، ولا إلٰهَ إلا هو، له الحمدُ مني أبَدَ الآبدِين ودَهرَ الداهرين.

معاشرَ الناس.. فَضِّلوا علياً فإنه أفضلُ الناس بَعدي مِن ذكر وأنثى، بنا أنزلَ اللهُ الرزق، ملعون ملعون مغضوب مغضوب مَن ردَّ قولي هذا ولم يوافقه، ألَا إن جبرائيل خَبَّرني عن الله تعالى بذلك يقول: مَن عادى علياً ولم يَتَوَلَّهُ فعليه لعنتي وغضبي، فلتنظرْ نفس ما قدَّمَتْ لغدٍ، واتقوا الله أن تخالفوه، فتزِلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها، إن الله خبير بما تعملون.

معاشرَ الناس.. إنه جَنبُ الله الذي نَزَّلَ عنه في كتابه «أن تقول نَفْسٌ يا حَسْرَتا على ما فرَّطتُ في جنب الله»[9].

معاشرَ الناس.. تدبَّروا القرآنَ وأفهموا آياتهِ، وأنظروا إلى مُحْكَماتِهِ ولا تتبعوا مُتَشابِهَه، فَوَاللهِ لن يُبَيِّن لكم زَواجِرَهُ ولا يوضح لكم تفسيره إلا الذي أنا آخذٌ بيده، ومُصْعِدُهُ إليَّ وشائلٌ بِعَضُده[10]، ومُعْلِمُكم أنَّ مَن كنتُ مَولاه فهذا مولاه، وهو علي بن أبي طالب أخي ووصيي، ومُوالاتُهُ مِن الله عزَّ وجلَّ أَنْزَلَها عليّ.

معاشرَ الناس.. إن علياً والطيبين من وُلْدِهِ هم الثَقَلُ[11] الأصغر، والقرآنُ هو الثقل الأكبر، فكلٌ منهما مُنْبِىءٌ عن صاحبه ومُوافق له، لن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحَوْض، أمناءُ الله في خَلْقِه، وحُكّامُه في أرضه؛ ألَا قد أدَّيْتُ، ألا قد بَلَّغْتُ، ألا قد أسمعتُ، ألا قد أوْضَحتُ، ألا إن الله عزَّ وجلَّ قالَ وأنا قلتُ عن الله عزَّ وجلَّ: ألا إنه ليس أميرُ المؤمنين غيرَ أخي هذا، ولا تَحِلُّ إمْرَةُ المؤمنين بعدي لأحد غيره»؛ ثم ضرب النبيُّ (ص)

---

٩ ـ ج ٢٤ س ٣٩ الزُمَر: ٥٦.

١٠ ـ شائل: رافع ـ العَضُد: هو العظم الذي بين الكتف والمِرفَق (بأعلى الذِراع في اليد).

١١ ـ الثَقَل: الشيء النفيس، القيِّم.

بيده على عَضُدِ أمير المؤمنين (ع)، ورفعه حتى حاذَتْ قَدَماه رُكبَتَي النبي (ص)، ونادى (ص) برفيع صوته:

معاشرَ الناس.. هذا عليٌّ أخي ووصِيي وواعي[١٢] عِلمي، وخليفتي على أمتي، وهو تفسير كتاب الله عزَّ وجلَّ، والداعي إليه، والعاملُ بما يرضاه، والمحارب لأعدائه، والموالي على طاعته، والناهي عن معصيته، خليفةُ رسول الله، وأميرُ المؤمنين، والإمامُ الهادي، وقاتل الناكثين والقاسِطين والمارِقين[١٣]، بأمر الله أقول: ما يُبَدَّلُ القولُ لَدَيّ؛ بأمر الله ربي أقول: اللَّهمَّ والِ مَن والاه، وعادِ من عاداه، واْلعنْ من أنكره، واْغضبْ على من جحدَ حقَّه! اللَّهمَّ إنك أنزلتَ عَلَيَّ أن الإمامةَ لعلي وَلِيِّك، عند تِبْياني ذلكَ ونَصْبي إياه عِلماً بما أكملتَ لِعبادكَ من دينهم، وأتممتَ عليهم نعمتَك، ورضيتَ لهم الإسلام ديناً، قلتُ: مَن يَبْتَغ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبَلَ منه وهو في الآخرة من الخاسرين؛ اللَّهمَّ إني أشهدك أني قد بلَّغت!

معاشرَ الناس.. إنما أكملَ اللهُ تعالى دينَكم بإمامته، فمَن لم يَأْتَمَّ به وبمن يقوم مَقامَه مِن وُلْدي مِن صلبه إلى يوم القيامة، والعرض على الله عزَّ وجلَّ؛ فأولئك الذين حَبِطَت أعمالهم وفي النار هم خالدون، لا يُخَفِّف الله عنهم العذابَ ولا هم يُنْظَرون.

معاشرَ الناس.. هذا عليٌّ أَنصَرُكم لي، وأَحقُّكم بي، وأقربكم إليّ، وأعزكم عَليّ، واللهُ عزَّ وجلَّ وأنا عنه راضيان، وما نزلت آية رضا إلا فيه، وما خاطبَ الله الذين آمنوا إلا بدأ به، وله شهِدَ الله بالجنة في «هل أتى على الإنسان»، هو ناصرُ دين الله، والمجادِلُ عن رسول الله، وهو التقي النقي، الهادي المهدي؛ نبيُّكم خَيرُ نبي، ووصيُّكم خير وَصِي، وبنوه خير الأوصياء! ذُرِّيةُ كلِ نبيٍ مِن صُلْبه، وذريتي من صلب علي.

---

١٢ ـ واعي (علمي): مُدرك و.. حافظ (عِلمي).

١٣ ـ الناكثين: الناقضين للعهد ـ القاسطين: الجائرين المبتعدين عن الحق ـ المارقين: الخارجين من الدين، المنحرفين عن خط الالتزام والقواعد المعتمدة.

معاشرَ الناس. . إن إبليسَ أخرج آدمَ من الجنة بالحَسَد، فلا تحسدوه فتَحْبطَ أعمالُكم وتَزِلَّ أقدامُكم، وإن آدم أُهبِطَ إلى الأرض بخطيئة واحدة وهو صفوة الله عزَّ وجلَّ، فكيف بكم وأنتم أنتم ومنكم أعداءُ الله! ألا إنه لا يُبْغِضُ علياً إلا شَقي، ولا يَتولَّى علياً إلا تقي، ولا يؤمن به إلا مؤمنٌ مخلص وَفِيّ، وفي علي واللهِ نزلت سورة «والعصر»، وهو المقصود المَعْنِيُّ بقوله تعالى فيها: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوا بالحقِ وتواصوا بالصبر.

معاشرَ الناس. . قد استشهدتُ اللهَ وبلَّغتُكم رسالتي، وما على الرسول إلا البلاغ المبين! إتَّقوا اللهَ حقَّ تُقاتِهِ ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون.

معاشِرَ الناس. . آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أُنْزِلَ معه، النورُ مِن الله عزَّ وجلَّ فيَّ، ثم مسلوكٌ في علي، ثم في النسل منه إلى القائم الذي يأخذ بحق الله وبكل حق هو لنا، لأن الله عزَّ وجلَّ قد جعَلَنا حُجَّةً على المُقصِّرينَ والمُعانِدينَ والمخالفين والخائنينَ والآثمينَ والظالمين، من جميع العالمين.

معاشِرَ الناس. . إني أُنذِرُكم أني رسول الله إليكم، قد خَلَتْ[١٤] من قَبْلِيَ الرُسُل، أفإن مُتُّ أو قُتِلتُ انقلبتُم على أعقابكم، ومن يَنقَلِبْ على عَقِبَيْهِ فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين! ألَا إن علياً هو الموصوف بالصبر والشكر، ثم مِن بَعده وُلْدي[١٥] مِن صُلْبه.

معاشِرَ الناس. . لا تَمنُّوا على الله إسلامَكم، فيَسخَط عليكم ويصيبكم بعذاب من عنده إنه لَبِالمِرصاد.

معاشِرِ الناس. . سيكون من بعدي أئِمةٌ يدعون إلى النار ويومَ القيامة لا يُنْصَرون! إن الله وأنا بريئان منهم.

---

١٤ ـ خَلَت: سَلَفَت، جاءت قبلي وذهبت.

١٥ ـ وُلْدي: سلالتي، أبنائي الآتون بعدي.

معاشِرَ الناس. . إنهم وأشياعَهم وأتباعهم وأنصارهم في الدَرْكِ الأسفلِ مِن النار، ولَبِئْسَ مَثْوَى المتكبرين! أَلَا إنهم أَصحابُ الصحيفة، فلْيَنظرْ أحدُكم في صحيفته.

معاشِرَ الناس. . إني أدَعُها إمامةً وَراثةً في عَقِبي إلى يوم القيامة، وقد بَلّغتُ ما أُمِرْتُ بتَبليغه حجةً على كل حاضر وغائبٌ، وعلى كل أحدٍ ممَّن شهِدَ أو لم يَشهدْ، وُلِدَ أو لم يولَد، فلْيُبلِّغِ الحاضرُ الغائبَ، والوالدُ الولَدَ إلى يوم القيامة، وستجعلونها مُلْكاً اغتصاباً؛ أَلَا لعنَ اللهُ الغاصبين والمتعصبين، وعندها ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾[١٦]، ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾[١٧].

معاشِرَ الناس. . إن اللهَ عزَّ وجلَّ لم يكن لِيَذَركم على ما أنتم عليه، حتى يَميزَ الخبيثَ من الطيب وما كان الله لِيُطْلِعَكم على الغَيب، واْعلَموا أنه ما مِن قريةٍ كذَّبت، إلا اللهُ مُهلِكُها بتكذيبها، وكذلك يُهلك القُرَى وهي ظالمة ـ كما ذكر الله تعالى[١٨] ـ وهذا إمامُكم ووليُّكم، وهو من موَاعد[١٩] الله والله يصدقُ ما وعده، وقد ضلَّ قبلكم أكثرُ الأولين، فأهلك الله الأولين وهو مُهلِكَ الآخِرين.

معاشِرَ الناس. . إن الله قد أَمَرَني ونَهاني، وقد أَمرتُ علياً ونَهَيتُه، فعَلِمَ الأمرَ والنَهْي من ربه عزَّ وجلَّ، فاسمعوا لأمره تَسلموا، وأَطيعوه تَهْتَدوا، واْنتَهُوا لِنَهْيه تَرْشُدوا، وصِيروا إلى مُراده ولا تَفَرَّقُ بكم السُبُلُ عن سبيله! أنا صراطُ الله المستقيمُ الذي أَمَرَكم باْتباعه، ثم علي مِن بَعدي، ثم وُلْدي من صُلْبه أئمةٌ يَهدون بالحق وبه يَعدِلون.

---

١٦ ـ القرآن الكريم، ج ٢٧، س ٥٥ الرحمان: ٣١.

١٧ ـ القرآن الكريم، ج ٢٧، س ٥٥ الرحمان: ٣٥ ـ شُواظ: لَهَبٌ صِرفٌ لا دخان فيه.

١٨ ـ القرآن الكريم، ج ١٢، س ١١ هود: ١٠٢.

١٩ ـ مَواعِد، جمع مَوعِد: عهد، وعد ـ مَواعد الله: وعود الله.

ثم قرأ النبي (ص) سورةَ الفاتحة إلى آخرها، وقال (ص): فِيَّ وفيهم نزلتْ، ولهم عمَّتْ، وإياهم خصَّت، أولئك ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[20] أولئك حزب الله ألا ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾[21] ألا إن أعداءهم أهل الشقاق هم العادون، وهم أخوان الشياطين ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[22] ألا إن أولياءهم هم المؤمنون حقا، الذين ذكرهم الله في كتابه فقال عز وجل ﴿أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾[23] ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[24] ألا إن أولياءهم يدخلون الجنة زُمَراً يقول لهم خزنَتُها: سلام عليكم ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[25].. ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾[26]! ألا إن أولياءهم ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾[27].

ألا إن أعداءهم يَصْلَونَ سعيراً إلا إن أعداءهم يُلْقَونَ في جهنم ويسمعون لها شهيقاً وهي تفور ولها زفير[28]، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ

---

٢٠ ـ القرآن الكريم، (ج ١١، س ١٠) يونس ٦٢.

٢١ ـ القرآن الكريم، (ج ٦، س ٥) المائدة ٥٦.

٢٢ ـ القرآن الكريم، (ج ٧، س ٦) الأنعام ١١٢.

٢٣ ـ القرآن الكريم، (ج ٢٨، س ٥٨) الحشر ٢٢.

٢٤ ـ القرآن الكريم (ج ٩، س ٦) الأنعام ٨٢.

٢٥ ـ القرآن الكريم، (ج ٢٩، س ٣٩) الزُمَر ٧٣.

٢٦ ـ القرآن الكريم، (ج ٢٤، س ٤٠) غافر ٤٠.

٢٧ ـ القرآن الكريم (ج ٢١، س ٦٧) المُلك ١٢.

٢٨ ـ شهيق: صوت عالٍ منكر يعبر عن ألم، أو اضطراب ـ زفير: إخراج بصعوبة للنفَس نتيجة حالة نفْسية أو صحية صعبة.

إِذَا ٱدَّارَكُواْ[29] فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[30]، ألا أن أعداءهم هم الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾[31].

معاشِرَ الناس.. شتان ما بين السعير والجنة! عَدُوُّنا مَن ذَمَّهُ اللهُ ولَعَنَه، ووَلِيُّنا مَن أحبَّهُ اللهُ ومَدَحَه.. أَلا إني منذرٌ وعليٌّ هادٍ. إني نبي وعليٌّ وصيي.. أَلا إن خاتَمَ الأئمة منا هو القائمُ المهديُّ صلوات الله عليه، ألا إنه الظاهر على الدين، ألا إنه المنتقمُ من الظالمين، ألا إنه فاتحُ الحُصون وهادمُها، ألا إنه قاتلُ كل قبيلةٍ من أهل الشِرك، ألا أنه مُدرِكُ كلِ ثأرٍ لأولياء الله عزَّ وجلَّ، ألا أنه ناصرُ دينِ الله عزَّ وجلَّ، ألا إنه الغَرَّافُ من بحر عميق، ألا أنه يَسِمُ[32] كلَّ ذي فضل بفضلِهِ، وكلَّ ذي جهل بجهله، ألا إنه خِيَرَةُ الله ومختارُه، أَلَا إنه وارثُ كل علم والمحيطُ به، ألا إنه المُخْبِرُ عن ربه عزَّ وجلَّ والمُنَبِّه بأمر إيمانه، ألا إنَّه الرشيد السَديد[33]، ألا إنه المُفوَّضُ إليه، ألا إنه قد بَشَّر به مَن سَلَفَ بين يديه، ألا إنه الباقي حجةً ولا حُجَّةَ بعده، ولا حقَّ إلا معه، ولا نورَ إلا عنده، ألا إنه لا غالبَ له ولا منصورَ عليه، ألا إنه وليُّ الله في أرضه، وحُكمُهُ في خَلقه، وأمينُهُ في سره وعلانيته.

معاشِرَ الناس.. قد بينتُ لكم وأفهمتُكم، وهذا علي يُفهمكم بعدي.. ألا إنني عند انقضاء خطبتي أدعوكم إلى مصافَقَتي[34] على بَيعته والإقرار به،

---

٢٩ ـ ادَّاركوا فيها: أدرك بعضُهم بعضاً وتلاقَوا فيها.
٣٠ ـ القرآن الكريم، (ج ٨، س ٧) الأعراف ٣٨.
٣١ ـ القرآن الكريم (ج ٢٩، س ٦٧) المُلك ٨ و ٩.
٣٢ ـ يَسِمُه: ينعته بصفته.
٣٣ ـ السَديد: الصائب الحُكم.
٣٤ ـ مَصافقتي: الاتفاق معي والتعهد لي ومبايعتي.

ثم مصافقته مِن بعدي. . ألا إني قد بايعتُ اللهَ وعليٌّ قد بايعني، وأنا آخُذُكم بالبَيعة له عن الله عزَّ وجلَّ، ومن نَكَثَ فإنما ينكُث على نفسه، ومَن أوْفَى بما عاهد عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيماً[٣٥].

معاشِرَ الناس. . ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾[٣٦].

معاشِرَ الناس. . حُجُّوا البيت، فما وَرَدَهُ أهلُ بيتٍ إلا ٱستَغْنَوا، ولا تخلفوا عنه إلا افتقروا. .

معاشِرَ الناس. . ما وقفَ بالمَوْقفِ مؤمن إلا غفرَ الله له ما سلفَ مِن ذنبه إلى وقته ذلك، فإذا انقضت حَجَّتُه استأنف عمله.

معاشِرَ الناس. . الحُجاج مُعانون، ونَفَقاتُهم مخلفة، والله لا يُضيعُ أجرَ المحسنين.

معاشِرَ الناس. . حُجّوا البيتَ بكمال الدين والتَفَقُّه، ولا تنصرفوا عن المشاهد إلا بتوبةٍ وإقلاع.

---

٣٥ ـ «فمن نكث. . .» نص آية قرآنية كريمة، هي الآية العاشرة من السورة ٤٨ سورة الفتح، في الجزء ٢٦؛ ومعنى نكث أخلَّ وغَدَرَ والقراءة الغالبة فيها لكلمة «عليهُ» بضم الهاء.

٣٦ ـ القرآن الكريم (ج ٢ س ٢ البقرة: ١٥٨). أما «الصَفا» و«المَرْوَة» فهما اسمان لأكَمَتَيْن (تلَّتين) صخريتين قرب مكة، كان في الجاهلية ـ قبل الإسلام ـ على كل واحدة منهما صنم يُعبَد، وقد هُدِم ذانك الصنمان (في جملة الأصنام التي هُدِمت بعد انتصار الإسلام وشيوعه) ولكن بعض المسلمين كانوا يتحرجون في أيام الحج من السعي والطواف بين الأكمتين ـ كما تقضى أحكام السعي في الحج ـ خوفاً من أن يكون في عملهم نوع من العبادات الوثنية القديمة، أو ـ ربما ـ خوفاً مِن أن يُتَّهموا بأنهم ما زالوا يقدسون الصنمين ومكانهما، فنزلت هذه الآية الكريمة تُعلن وتُعلِم أن الجبلين (الصفا والمروة) هما من شعائر الله في الحج، ولا جُناحَ من التطوف بهما.

معاشِرَ الناس. . أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ـ كما أمركم الله عزَّ وجلَّ ـ بعدي، ومَن خلفه اللهُ مني يُخبركم بما تسألون منه، ويبين لكم ما لا تعلمون! ألا إن الحلال والحرام أكثر من أن أُحصيَهما وأعرِّفهما، فآمُرُ بالحلال وأنْهَى عن الحرام في مقام واحد، فأُمرتُ أن آخذ البيعة عليكم ومنكم، والصفقة لكم بقبول ما جئتُ به عن الله عزَّ وجلَّ في علي أمير المؤمنين، والأئمةِ مِن بعده، الذين هم مني ومنه أئمةٌ قائمة ـ منهم المهديُّ ـ إلى يوم الدين الذي يقضي فيه بالحق.

معاشِرَ الناس. . كلُّ حلال دَلَلْتُكم عليه، وكل حرام نهيتَكم عنه، فإني لا أرجع عن ذلك ولا أبدلُ، أَلَا فاذكروا ذلك واحفظوه وتَواصَوا به ولا تُبدلوه ولا تغيروه! ألا وإني أجدد القول: أَلَا فأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة وأْمُروا بالمعروف وانْهَوْا عن المنكَر؛ ألا إن رأسَ الأمرِ بالمعروف أن تَنتَهُوا إلى قَولي وتبلِّغوه مَن لم يحضره وتأمروه بقبوله وتَنهَوْه عن مخالفته، فإنه أمرٌ من الله عزَّ وجلَّ ومني، ولا أمرَ بمعروفٍ ولا نَهْيَ عن منكرٍ إلا مع إمام معصوم.

معاشِرَ الناس. . القرآنُ يُعرِّفكم أن الأئمة بَعدَه مِن وُلْدِه، وعرَّفتُكم أنهم مني ومنه، إذ يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾[37] وقلتُ: لن تضلوا ما أن تمسكتم بهما.

معاشِرَ الناس. . التَقْوَى التَقْوَى! احذروا الساعة، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾[38] اذكروا المَمَاتَ والحسابَ والموازين والمحاسبة بين يَدَيْ رب العالمين، والثوابَ والعقابَ، فمَن جاء

---

٣٧ ـ هذه الآية الكريمة وردت في (ج ٢٥، س ٤٣) الزخرف رقمها: ٢٨، منسوبة إلى نبي الله إبراهيم الخليل (ع) وبما أن النبي (ص) والإمام علي (ع) هما مِن عقِب إبراهيم (ع) أي من سلالته ـ فعَقِبُه مستمر فيهما.

٣٨ ـ القرآن الكريم (ج ١٧، س ٢٢) الحج: ١.

بالحسنة أُثيب، ومن جاء بالسيئة فليس له في الجنات من نصيب.

معاشِرَ الناس.. إنكم أكثر مِن أن تصافقوني بكف واحدة، وقد أمرني ربي عزَّ وجلَّ أن آخذ مِن ألسنتكم الإقرارَ بما عَقَدتُ لعليٍ مِن إمرَةِ المؤمنين، ومَن يأتي بعده من الأئمة مني ومنه، على ما أعلمتُكم أن ذريتي مِن صُلْبه، فقولوا بأجمعكم إنا سامعون مطيعون، راضون منقادون لِما بَلَّغتَ عن ربنا وربك، في أَمْرِ عليٍ وأمرِ وُلْده من صُلبه من الأئمة، نُبايُعُك على ذلك بقلوبنا وأنفسنا وألسنتنا وأيدينا، على ذلك نَحْيَى ونموت ونُبعث، ولا نُغيِّرُ ولا نبدل، ولا نَشك ولا نرتاب، ولا نَرجع عن عهدٍ ولا نَنقضُ الميثاق، ونطيع اللهَ ونطيعُكَ وعلياً أمير المؤمنين ووُلْدَه الأئمةَ الذين ذكرتَهم من ذُريتكَ مِن صُلبه بعد الحسن والحسين، اللذينِ قد عرفتكم مكانهما مني، ومحلهما عندي، ومنزلتهما من ربي عزَّ وجلَّ، فقد أديتُ ذلك إليكم! إنهما سيدا شباب أهلِ الجَنة، وإنهما الإمامان بعد أبيهما علي، وأنا أبوهما قَبْله، وقولوا: أطعنا الله بذلك وإياك وعلياً والحسنَ والحسينَ والأئمَة الذين ذكرتَ، عهداً وميثاقاً مأخوذاً لأمير المؤمنين مِن قلوبنا وأنفسنا وألسنتنا،، لا نبتغي بذلك بَدَلاً ولا نرى مِن أنفسنا عنه حِوَلاً أبداً، أَشْهَدْنا اللهَ وكفى بالله شهيداً، وأنت علينا به شهيد، وكلُّ مَن أطاع ممن ظهر واستتر، وملائكةُ الله جنودُه وعبيده، والله أكبر من كل شهيد!

معاشِرَ الناس.. ما تقولون فإن الله يعلم منه ظاهِرَ كلِ صوت، وخافِيةَ كلِ نفس، فَمَن اَهتدى فلنفسه، ومَن ضلَّ فإنما يَضِل عليها، ومَن بايعَ فإنما يبايعُ الله عزَّ وجلَّ، يد الله فوق أيديهم.. فاتقوا الله وبايعوا علياً أميرَ المؤمنين، والحسنَ والحسينَ والأئمة الكلمة الباقية بعدهم، يُهلِكُ اللهُ مَن غَدَر، ويَرحمُ الله مَن وَفَى.

معاشِرَ الناس.. قولوا الذي قلتُ لكم، وسلِّموا على علي بإمرة المؤمنين، وقولوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفرانَكَ رَبنا وإليك المصير؛ وقولوا: الحمدُ لله الذي هَدانا لهذا وما كنا لِنَهتَدِيَ لولا أن هدانا الله.

معاشِرَ الناس.. إن فضائل علي بن أبي طالب عند الله عزَّ وجلَّ ـ وقد أنزلها عليَّ في القرآن ـ أكثرُ مِن أن أُحْصِيَها في مكان واحد، فمن أنبأكم بها وعَرَّفها فصدِّقوه.

معاشِرَ الناس.. مَن يُطِعِ اللهَ ورسولَه وعلياً والأئمةَ الذين ذكرتُهم فقد فاز فوزاً عظيماً، والسابقونَ إلى مُبايَعَتِهِ ومُوالاتِه والتسليمِ عليه بإمرة المؤمنين، أولئك همُ الفائزون في جنات النعيم!

معاشِرَ الناس.. قولوا ما يَرْضَى اللهُ به عنكم مِن القول، فإن تكفُروا أنتم ومَن في الأرض جميعاً فلن يَضرَّ اللهَ شيئاً؛ ثم توجه النبي (ص) نحو السماء وقال: اللَّهمَّ اغفر للمؤمنين والمؤمنات، واغضب على الكافرين والكافرات، والحمد لله رب العالمين».

ثم نَعَى إلى الأمة نفسَه الشريفة وقال: «إني قد دُعِيتُ ويوشك أن أُجيب، وقد حان مني خُفوق[39] مِن بين أظهُرِكم، وإني مُخَلِّفٌ[40] فيكم ما إن تمسَّكم به لن تَضِلّوا من بعدي: كتابَ الله وعِتْرَتي أهلَ بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض»؛ ثم رفع علياً (ع) أكثر مما كان عليه، حتى بانَ للناس بياضُ إبطيهما، ونادى برفيع صوته: «أَلَستُ أَوْلَى بِكم مِن أنفسكم؟»، فرفع الناس أصواتهم بأجمعهم يقولون: «اللَّهمَّ بَلَى»، فقال (ص): «فمَن كنتُ مَولاهُ فهذا عليٌّ مولاه»؛ ثم توجه نحو السماء وقال: «اللَّهمَّ والِ مَن والاه، وعادِ من عاداه، وانْصُرْ من نَصَرَه، واخْذُلْ مَن خذله»؛ ورفع الناس أصواتهم يقولون: «سمعنا يا رسولَ الله، وأَطَعْنا أمرَ الله وأمرَ رسوله، بقلوبنا وألسنتنا وأيدينا».

ثم نزل النبي (ص)، وكان الوقت وقت الظهيرة، فصلَّى ركعتين، ثم أذَّن مؤذنه لفريضة الظهر، فصلاها بجموعه، وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة.

---

٣٩ ـ خُفوق: غروب، غياب، ذهاب.

٤٠ ـ مُخلِّف: تارِكٌ خلفي، مُبْقٍ بَعدي.

ثم أمر بعد الصلاة بنصب خيمة فنُصِبت، واجلس فيها علياً (ع)، ثم نادى مُناديه في كافة القبائل والجموع ممن حضر، يأمرهم بالدخول على أمير المؤمنين (ع) في خيمته، للتسليم عليه بإمرة المؤمنين، وتهنِئَته بالكرامة، فكان أول من دخل عليه وسبق وأطاع هو الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، فسلم عليه بإمرة المؤمنين، واطنب مستبشراً في تهنِئَته يقول: «بَخٍ بَخٍ لكَ يا أبا الحسن، أصبحتَ مولايَ ومَولَى كل مؤمن ومؤمنة!»؛ ثم تَتابعت الجموع والقبائل أفواجاً أفواجاً يدخلون عليه وينادونه «السلام عليك يا أمير المؤمنين»، ويقبِّلون يده ويبايعونه على طاعة الله ورسوله فيه، ويعاهدونه على عدم النكْث، ويُهنِّئونَهُ بكرامة الله ورسوله له، ورسولُ الله جالس بجنبه يقول: «الحمد لله الذي فَضَّلَنا على جميع العالمين». وأقام النبي (ص) بهم هناك ثلاثة أيام، ظَلَّ الناس فيها يتتابعون في الدخول على أمير المؤمنين (ع)، وتهنئته والتسليم عليه ومبايعته بأمر النبي (ص)، حتى انتهى الأمر إلى أمهات المؤمنين زوجات الرسول (ص) وسائر من حضر من نساء المؤمنين، فلم يترك أحداً إلا أمره بذلك، حتى كملت له في الأيام الثلاثة بَيْعَةُ ألوف[41] كثيرة جداً من المؤمنين[42]، وأخذ بعضُ المنافقين ممن حضر يوميء بطرفه إلى أصحابه مستهزئاً بالنبي (ص) وَعَقْدِ بيعته لابن عمه وفيهم عمرو بن العاص، إلى أن تقدم للتسليم والتهنئة مستبشراً يُظهِر الفرح والسرور، وأنشأ يقول:

بِآلِ محمدٍ عُرِفَ الصَّوابُ　　وفي أَبياتِهِمْ نَزَلَ الكتابُ
وهم حُجَجُ الإلهِ على البَرايا　　بِهِمْ وبِجَدِّهِمْ لا يُسْتَرابُ

---

٤١ - في بعض الروايات أنه بايعه (ع) مئة وعشرون ألف نسمة مهنئين له ومسلِّمين عليه بالإمامة.

٤٢ - جاء أيضاً في إحدى الروايات أنه كان بين الداخلين على أمير المؤمنين علي (ع) مُسلِّمِينَ له بالإمامة شابٌ حسنُ الوجه مليح المنظر، أخبر النبيُّ (ص) عنه بعداً أنه كان جبرائيل (ع).

ولا سِيما أبي حَسَنٍ عَلِيٍّ   لهُ في الحربِ مَرْتَبَةٌ تُهابُ
طَعامُ سُيوفِهِ مُهَجُ الأعادي   وفَيْضُ دَمِ الرِقابِ لها شَرابُ
وضَرْبَتُهُ كَبَيْعَتِهِ بِخُمٍ   مَعاقِدُها مِنَ القومِ الرِقابُ
عليٌّ الدُرُّ والذَهَبُ المُصَفَّى   وباقي الناسِ كلُّهُمُ تُرابُ
هو البَكَّاءُ في المِحرابِ ليلاً   وضَحَّاكٌ إذا اشْتَدَّ الضِرابُ
هو النَبَأُ العظيمُ وفُلْكُ نوحٍ   وبابُ اللهِ وانْقَطَعَ الخِطابُ

ثم تقدم الشاعر حسان بن ثابت إلى النبي (ص)، واستأذنه في إنشادِ ما يرضاه الله من الشعر، فقال (ص): «قل على اسم الله»؛ فوقف على مرتفع من الأرض وأنشد برفيع صوته:

يُناديهِمُ يومَ الغَديرِ نَبِيُّهُمْ   بِخُمٍّ وأَسْمِعْ بالنَبِيِّ مُنادِيا
وقد جاءَهُ جِبْريلُ عن أَمْرِ رَبِّهِ   بِأَنَّكَ مَعْصومٌ فلا تَكُ وانِيا
وبَلِّغْهُمُ ما أنزلَ اللهُ رَبُّهُمْ   إِلَيكَ ولا تَخْشَى هناكَ الأعادِيا
فقامَ بِهِ إذْ ذاكَ رافِعَ كَفِّهِ   بِكَفِّ عَلِيٍّ مُعْلِنَ الصَوتِ عاليا
وقالَ: فَمَنْ مَولاكُمُ وَوَلِيُّكُمْ   فقالوا: ولَمْ يُبْدوا هُناكَ تَعامِيا
إِلَهُكَ مَولانا وأنتَ وَلِيُّنا   ولَنْ تَجِدَنْ فينا لكَ اليومَ عاصِيا
فقالَ له: قُمْ يا عليُّ فإنَّني   رَضِيتُكَ مِن بَعدي إماماً وهادِيا
فَمَنْ كنتُ مَولاهُ فهذا وَلِيُّهُ   فكونوا له أنصارَ صِدْقٍ مَوالِيا
فَخَصَّ بها دونَ البَرِيَّةِ كلِّها   علياً وسَمَّاهُ الوَزيرَ المُؤاخِيا
هناكَ دعا اللَّهُمَّ والِ وَلِيَّهُ   وكُنْ لِلَّذي عادَى علياً مُعادِيا
ويا رَبِّيَ انْصُرْ ناصِريهِ لِنَصْرِهِمْ   إمامَ هُدَىً كالبَدرِ يَجلو الدَياجِيا

فدعا له النبي على شرط ثباته على الإيمان والنصرة لأمير المؤمنين (ع). ثم نزل جبرائيل (ع) بهذه الآية ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٤٣]

---

٤٣ ـ القرآن الكريم، ج ٦، س ٥ المائدة: ٣.

فعند ذلك استبشر النبي (ص) وقال: الحمدُ لله على كمال الدين وتمام النعمة ورِضَى الربِ الكريم برسالتي والولاية لعلي بن أبي طالب.

ثم نادى مناديه في الأفواج بالرحيل، وتفرق الناس عائدين إلى منازلهم وبلادهم، وارتحل النبي (ص) بمن معه نحو المدينة، إلى أن دخلها في المحرم (الشهر الأول) من السنة الحادية عشرة (من الهجرة).

مُدَّعِيا نُبُوَّة:
مُسَيْلِمَة الكَذَّاب، والأسوَد العَنْسي

بعد أن عاد النبي (ص) - (من حجة الوداع ووصيته في غدير خم) - إلى المدينة، جاءه بعد بضعة أيام رجلان من «اليمامة»[1]، يحملان إليه (ص) رسالة من «مُسَيْلِمَة»، الذي كان يقال له «رحمان اليمامة»، وصار يُعرف بعداً بلقب «مسيلمة الكذاب»، لأنه بعد أن كان أسلم في المدينة على يدي رسول الله (ص)، ارتدَّ عن الإسلام حين رجع إلى بلدته اليمامة وادَّعى النبوة، واستغوَى أهلَ بلاده يقول لهم: «ينزِل عَلَيَّ مَلَك اسمه رحمان، وإني قد اشتركتُ مع محمدٍ في النُبُوَّة»، فأطاعه جَمْعٌ مِن قومه وكثير مِن أهل بلاده، وبايَعَه بنو حنيفة[2] إلا قليلاً منهم، وفيهم يومئذٍ أربعون ألف مقاتل، وأحلَّ لأتْباعِه الخمرَ والزنا، ووضعَ عنهم الصلاة، وأفْشَى بينهم مُنكَراتٍ كثيرة، وأخرَجَ مِن اليمامة عاملَ النبي (ص) «ثُمامة بن أثال»،

---

١ - اليَمامة: بلاد وسط الجزيرة العربية، من مقاطعات نَجْد؛ يرجع الاسم على ما يقال إلى زرقاء اليمامة.. هي اليوم واحة تُدعَى العارض، ينمو فيها النخيل.. سَكَنَها بنو جديس في الجاهلية.. ثم بنو حنيفة بن لجيم الذين اعتنقوا الإسلام - عن «المنجد في الأعلام»، ط ٨.

٢ - بنو حَنيفة بن لُجَيْم: بطن من بكر بن وائل، انفصلت عنها في أواخر حرب البسوس وانضمت إلى تغلب. تبعَ بعضُهم مسيلمة الكذاب، فقاتلهم خالد بن الوليد، ودخلوا مِن بعدُ في الإسلام - «المنجد في الأعلام»، ط ٨.

وطغَى حتى كتب في كتابه إلى النبي (ص) مع الرجلين: «من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله، أما بَعد: فإن الأرضَ لنا نِصفٌ ولِقريشٍ نصفٌ، ولكنَّ قريشاً قوم يعتدون. . .» إلخ ولما انتهى الكتاب إلى النبي وقرأه، غَضِب غضباً شديداً، ودعا الرجلين يَسْتَشهِدُهما على نُبُوَّة نفسه، فشهدا له بذلك، ثم قال (ص) لهما: أتشهدانِ أن مسيلمة رسول الله؟ قالا: نعم، وأنه شريكك في النبوة؛ فازداد النبي غضباً وقال: لولا أن الرسول لا يُقتَل لضربت عُنُقَيْكما! وكتب في جواب مسيلمة كتاباً يَذْكر في أوله: «من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب. . أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، وقد أهلكتَ أهلَ هَجَر أبادكَ اللهُ ومَن صَوَّبَ معك»؛ ولما بلغه كتابُ النبي (ص) مع الرجلين، ازداد عُتُواً وطغياناً، يجمع الجموعَ لحرب النبي (ص).

ثم بلغ النبيَ خبرُ عُهَيلَة بن كعب، ـ الذي يقال له، الأَسوَد العَنسي، وكان في اليمن ـ أنه وثب أيضاً يدَّعي النبوة لنفسه، وأنه ٱستَغوَى أهل بلاده يريهم الأعاجيب، حتى أخذ بمجامع قلوبهم، فإنه كان قبل ذلك كاهناً مشعبذاً، وأنه طغَى حتى أخرج من اليمن عاملَ رسول الله عليها «مَعاذَ بن جَبَل»، ثم اقتحم بجنوده «صنعاء» وسائر بلاد اليمن، وأخرج منها سائر عُمّال النبي (ص) وطردهم، وتملَّك البلاد واستولى على أهاليها، فاستاء النبي من خبر الرجلَين كثيراً، وكتب كتاباً إلى عَدَد من رجالٍ في بلاد الأَسوَد، أن يستنجدوا رجالاً من حِمْيَر وهَمْدان بأمره، ثم يحاولوا إبعاد الأسوَد، فأجابوه إلى ذلك، وفيهم «فيروز» ابن أخت «النجاشي» ملك الحبشة (فقد كان الأسود أكرهَ ابنة عم فيروز على أن يتزوجها بغير رِضىً منها، بعد أن قَتل زوجَها «شَهْر بن باذان»، ولما همَّ الفِتية بالإعداد لِقَتْلِ الرَجُل، بعد أن اتفقوا على ذلك، أرسلوا فأخبروا بقرارهم زوجتَه الكارهة له، فوافقتهم على قتله وأرشَدَتْهم إليه، حتى نقبوا عليه جدار حجرته، وهجم عليه فيروز، وطعنه طعنات قاتلة، جعلته يخور خوار الثور قبل أن يقطع فيروز رأسه، فبادر الحَرَس حين سمعوا الخوار إلى الباب ليستطلعوا

الخبر، فإذا زوجته على باب الحجرة، فسألوها عن الصوت فقالت: «ليس بشيء مهم، إن النبي يُوحَى إليه»، وصرفتهم عن الحجرة، وخمد الخوار، ورجع الحرس إلى محالهم.

فلما طلع الفجر، قام أصحاب فيروز ينادون بالأذان يقولون: «نشهد أن محمداً رسول الله، وأن عهيلة كذاب»، ثم شنوا غارة على أصحاب الأسود، فقتلوهم عن آخرهم، ونزل الوحي بذلك في ليلته على النبي. فلما أصبح النبي (ص)، أخبر أصحابه بذلك وقال لهم: «قُتِلَ الأسودُ البارحة، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين، هو فيروز.. فازَ فيروز! فاز فيروز!» وكانت المدة من خروج الأسود بادعائه النبوة إلى حين مقتله نحواً من أربعة أشهر، وارتاح النبي والمسلمون كثيراً بتوقف دعوته نتيجة قتله.

وحُمَّ النبي (ص) خلال ذلك ومرض، ولم يزل تزداد عليه الحمى يوماً فيوماً إلى أن ثقل ووقع في فراش الموت، وطار نبأ مرضه إلى النواحي وأطراف البلاد، وقام المسلمون وقعدوا واضطربوا في جميع الجهات إشفاقاً عليه، وبلغ الخبر بذلك إلى مسيلمة، فاستبشر واشتد أمره وقوي ظهره حتى بلغه خبر موت النبي (ص)، فطَغَى وتجهز بجموعه لمهاجمة المسلمين، فبعث أبو بكر (رض) بعد النبي جيشاً إليه من المسلمين يقدمهم خالد بن الوليد، وفيهم «أبو دجانة» و«الوحشي» وهو الذي قَتَل حمزة في معركة «أُحُد»، ثم ندم وتاب وأسلم، وقَبِل النبيُ (ص) إسلامه وتاب عليه.

ولما سار جيش المسلمين إلى اليمامة والتقى العسكران، تقاتلا قتالاً شديداً حتى بان الانكسارُ في عسكر مسيلمة، وقُتِل منهم نَحوٌ من عشرين ألفاً، ولم يُقْتَل من المسلمين سوى قرابة ألف ومئتين، وجعل بنو حنيفة يُعاتبون مسيلمة يقولون له: «أينَ ما كنتَ تَعِدُنا من النصر والغَلَبة وظهور الكلمة؟!»، وهو يقول: «قاتلوا عن أحسابكم»، إلى أن تفرقوا عنه وانهزموا، ووثب الوحشي وأبو دجانة على مسيلمة وقتلاه شر قتلة، ورجع

المسلمون إلى المدينة والوحشي يقول: «قتلتُ خيرَ الناس وشرَ الناس!»، أي حمزة ومسيلمة.

ثم لما ثَقُلَ النبي (ص) في مرضه ـ وكان ذلك في العَشر الأخيرة من شهر صَفَرَ ـ نادى مناديه في الناس أن يتجهزوا لغزو الروم، وكان الروم قد قَتلوا رسول النبي (ص) زيدَ بن حارثة، فعقد النبي (ص) لِواءً لابنه أسامة ابن زيد، وأمره أن يسير بالجنود إلى حيث كان مقتل أبيه من بلاد الروم، وأن يغزُوَهم ويوطِئَهُم الخَيل (وكان أسامة يومئذٍ شاباً حدث السن لم يبلغ العشرين) ونَدَبَ النبيُ (ص) كافةَ وجوه المهاجرين والأنصار ـ وفيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقّاص وسعد بن زيد وأبو عبيدة وقتادة وأضرابهم ـ بحيث لم يَدَعْ أحداً منهم إلا أمره بالسير في عسكر أسامة، وعَظُمَ على مُعْظَم القوم تأميرُهُ (ص) أسامة عليهم، وأخذوا يتكلمون بينهم في ذلك يقولون: «إنه يستعمل هذا الغلام علينا ونحن المهاجرون الأولون!»؛ ولم يزالوا يتثاقلون عن الخروج تحت راية أسامة، لحداثة سِنِّهِ ولخوفهم من خُلُوّ المدينة منهم إن حدث للنبي (ص) حادث؛ ولكن النبي، على شدة مرضه، لم يزل (ص) يعجل على أسامة بالخروج، ويقول له: «أُغْزُ باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلْ مَن كفرَ بالله»، وجعل يعجل على القوم باللحوق به، مع أنه كان (ص) لم يزل يُغمَى عليه ساعة بعد ساعة، وكان كلما أفاق ينادي فيهم: «نفذوا جيش أسامة! نفذوا جيش أسامة»، ويلعن المتخلف منهم، إلى أن خرج أسامة بلوائه وعسكرَ بالجُرُف[3] خارج المدينة، ولحقه جمع من المسلمين وقد تجهزوا للحرب.

وبلغ النبيَ (ص) أباطيلُ البعض من القوم في تأمير أسامة، فخرج مُغضِباً وقد عصب رأسه وعليه قطيفة[4]، وغلبه الضعف من الأوجاع والحُمّى

٣ ـ الجُرُف: الجانب الذي أتلفته المياه من جدار النهر.

٤ ـ قطيفة: غطاء جميل، مخملي.

حتى صعد المنبر واجتمع عنده الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (ص):

«أما بَعدُ أيها الناس، فما مقالةٌ بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة؟! ولئن طَعَنْتُم في تأميري إياه، فقد طعنتم قبله في تأميري أباه؛ وأيْمُ الله إنه كان للإمارة خَليقاً[5] وإن ابنه من بعده للإمارة لخَليق، وإنه لَمِن أَحَبِّ الناس إليّ، فاستَوْصُوا به خيراً فإنه مِن خِياركم».

ثم نزل (ص) وانطلق إلى منزله، وأقبل إليه الناس يوادعونه ويخرجون إلى أسامة، وتخلف بعض منهم عن الالتحاق به.

فلما سار أسامة بعسكره، اشتد المرض برسول الله (ص) وغلب عليه الضعف، حتى لم يتمكن من الحركة، وعلم بتخلف قوم عن الخروج مع أسامة رغم ما سبق منه من التأكيد عليهم بذلك، فاستدعاهم وقد غلب عليه الغضب يعاتبهم على مخالفته، وقال لهم: «ألم آمركم أن تنفذوا جيش أسامة؟» قالوا: «بلى يا رسول الله»، قال (ص): «فلِمَ تأخرتم عن أمري؟»؛ فأجابه بعض المتخلفين عن أسامة وجيشه بأعذار ضعيفة غير مقبولة، فاستشاط النبي (ص) غضباً، وسكت هنيهةً ثم قال (ص): «إئْتُوني بدواة وكتيف[6] لأكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»، ثم أغمي عليه. وقام بعضُ مَن حضر يلتمس دواة وكتيفاً، فناداه عمر وقال له: ارجع فإن الرجل لَيَهجُر، لا تأتوه بشيء وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله!»، فاختلف القوم بينهم واختصموا في ذلك، فمنهم من يقول: «قربوا له دواة وكتيفاً يكتب لكم رسول الله»، ومنهم من يقول: «القول ما قاله عمر! حَسْبُنا كتابُ الله»؛ إلى أن كثر اللغط والاختلاف، وارتفع الصياح بين الفريقين، وأفاق النبي (ص)، «وسمع ذلك فقال (ص) قوموا عني فلا ينبغي الاختلاف عندي؛ ثم

---

٥ ـ خليقاً: جديراً، أهلاً، مناسباً، مستحقاً.

٦ ـ كَتيف: صفيحة من حديد (أو ورق، أو سواهما).

أعرض بوجهه عنهم ونهض القوم من عنده، وتقدم إليه بعضُ الناس يستأذنه في إحضار الدواة والكتيف، فلم يأذن له في ذلك وقال: «أَبَعْدَ الذي قلتم؟ لا.. ولكني أوصيكم بأهل بيتي خيراً»، فخرج الناس من عنده يبكون وقد يئسوا منه، فقال له عمه العباس: «يا رسول الله، إن يكن الأمرُ فينا مستقراً من بعدك فبشرنا، وإن كنتَ تعلم أنا نُغلَبُ عليه فأَوْصِ بنا»؛ فقال (ص): «أنتم المستضعفون بعدي»؛ وكان رأسه (ص) حينئذٍ في حِجر أمير المؤمنين (ع)، وكان في البيت جمع من المهاجرين والأنصار.

ثم توجه إلى عمه يقول: «يا عباس، يا عم النبي، إقبَلْ وصيتي في أهل بيتي وأزواجي، واَقضِ دَيني واَنجِزْ عِداتي[7] وأبرِىء ذمتي»؛ فتثاقل العباس عن ذلك وقال: «يا رسول الله، أنا شيخ ذو عيال كثير، غيرُ ذي مالٍ ممدود، وأنتَ أجْوَدُ من السَحاب الهاطل والريح المرسلة، فلو صرفتَ ذاك عني إلى مَن هو أَطْوَقُ له[8] مني»؛ فأعاد النبي (ص) عليه الكلام ثانياً وثالثاً وهو يعيد جوابه، فغضب النبي (ص) وقال: «إني سأعطيها مَن يأخذها بحقها ولا يقول مثل ما تقول»؛ ثم توجه إلى أمير المؤمنين علي (ع) وقال: «يا علي هاكَها[9] خالصةً لا يَحاقُّك[10] أحد، يا عليُّ اَقبَلْ وصيتي وأنجِزْ مواعيدي وأَدِّ دَيني، يا علي اخْلُفني في أهلي وبلِّغْ عني مِن بعدي»؛ فاختنق أمير المؤمنين (ع) بعبرته، وارتجف فؤاده حتى منعه ذلك عن الجواب، وحتى أعاد النبي (ص) كلامه يقول: «يا علي، أو تقبل وصيتي؟»؛ فازداد أمير المؤمنين (ع) بُكاءً وأجابه إلى ذلك، وهو يكاد يعجز من شدة البكاء عن أن يقول «نعم»، فاستدعى النبي (ص) بلالاً يأمره

---

٧ ـ عِداتي: وعودي.

٨ ـ أطوق له: أكثر طاقة له، وأقدر عليه.

٩ ـ هاكها: خذها.

١٠ ـ لا يَحاقُّك: لا ينافسك في حَقّك.

بإحضار أمتعته ودوابه وقال له: «إِئْتِني بذي الفِقار[11]، ودِرْعي ومِغفري ورايتي والعنزة والقضيب الممشوق والمرتجز والعضباء والدُلْدُل واليعفور وغيرها»، حتى طلب جميع مَتاعِه ومنها العصابة التي كان يشدها على بطنه في الحروب، ولما أحضرها بلال بأجمعها، والبيتُ حينئذٍ غاصٌّ بالمهاجرين والأنصار، تَوَجَّهَ النبي (ص) إلى أمير المؤمنين (ع) وقال له: «قم يا علي فاقبضها»؛ ثم نزع خاتمه من إصبعه وناوله إياه وقال له: «ضعْهُ في إصبعك في حياةٍ مني وشهادةِ مَن في البيت، لكيلا يُنازِعَك أحدٌ مِن بعدي»؛ ولما استلم أميرُ المؤمنين (ع) الأمتعةَ والدواب أخذها إلى بيته، ثم رجع، فقال له النبي (ص): «يا علي أَجْلِسني»، فأجلسه وأسنده إلى صدره، وهو (ص) يَثْقُلُ رأسه الشريف، ويَنْحَطُ شيئاً فشيئاً من الضعف؛ فجعل يخاطب مَن في البيت بصوتٍ ضعيف يُسمِع أقصاهم وأدناهم قائلاً: «إن أخي ووصيي ووزيري وخليفتي في أهلي عليُ بن أبي طالب، يقضي دَيني ويُنجِزُ مَوعدي؛ يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب، لا تبغضوا علياً ولا تخالفوا أمره فتَضِلوا، ولا تحسدوه ولا ترغبوا عنه فتكفروا.. يا معشر الأنصار: قد حان الفِراق، وقد دُعِيتُ وأنا مُجيب الداعي، وأنتم قد جاوَرْتُم فأحسنتم الجِوار، ونَصَرْتُم فأحسنْتُمُ النصرة، وواسَيتم في الأموال، ووَسَعْتُم في المسلمين، وبذلتُمْ لله مُهَجَ النفوس، والله يَجزيكم بما فعلتم الجزاءَ الأَوْفَى، وقد بَقِيَتْ واحدة وهي تمامُ الأمر وخاتمةُ العمل، والعملُ مقرون معها، وهي منقسمة إلى اثنتين، وإني أرَى أن الفارق بينهما لو قِيسَ

---

١١ ـ ذو الفِقار: نعت أو اسم لسيف يوجَد في وَسَط الحَد منه (الذي يُطعَن العدو به) شق يجعله ذا شقين، والتالي أنه يضاعِفُ أَثَره وخطره على العدو المطعون ـ الدِرع: قميص من زرد الحديد يُلبَس وقاية من طعنات العدو ـ المِغْفَر: زرد حديدي للوقاية يلبسه المحارب تحت القلنسوة ـ العنزة في الفأس: حَدّها ـ المرتجز: زينة الهودج مركب النساء على الجِمال ـ العضباء: الناقة المشقوقة الأذن ـ الدُلدُل: الأمر المهم ـ اليعفور: الغزال.

بشعرةٍ ما أنقاسَ، ومَن أتى بواحدة وترك الأُخرَى، كان جاحداً للأولى، ولا يَقْبلُ اللهُ منه صرفاً ولا عدلاً».

فرفع القوم أصواتهم يسألونه أن يُعرِّفهم بتلك الخِلة الباقية المنقسمة إلى اثنتين مقرونتين، يقولون: عَرِّفنا بهما كي لا نُمْسِكَ عنهما فنَضِلَّ ونَرتدَّ عن الإسلام وعن النعمة مِن الله ومِن رسوله علينا، فقد أنقَذنا اللهُ بك من الهلكة يا رسول الله، وقد بلَّغتَ ونصحتَ وأدَّيتَ، وكنتَ بنا رَؤوفاً رحيماً شفيقاً»؛ فقال (ص): «إنهما كتابُ الله وأهلُ بيتي، فإن الكتاب هو القرآن، وفيه الحُجَّةُ والنورُ والبرهان، كلامُ الله جَديدٌ غضٌّ طريٌّ شاهد ومُحْكَم عادل، قائدٌ بحلاله وحرامه وأحكامه، يقوم غداً فيُحاجُّ أقواماً، ويُزِلُّ الله به أقدامَهم عن الصراط.. يا معشرَ الأنصار احفظوني في أهل بيتي، فإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحَوْض.. أَلَا وإن الإسلام سَقفٌ تحتَهُ دَعامة لا يقومُ السقفُ إلا بها، فلو أن أحدَكم أتى ذلك السقف ممدوداً لا دعامة تحته، لَأَوْشكَ أن يَخِرَّ عليه سقفهُ، فيهوي في النار.. أيها الناس: الدَعامةُ دعامة الإسلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[١٢]، فالعملُ الصالح طاعةُ الإمام وَليِّ الأمرِ، والتمسكُ بحبله.. أيها الناس.. أَفَهِمْتُم؟ اللهَ اللهَ في أهلِ بَيْتي، مَصابيحِ الظُلَم، ومعادِنِ العِلْم، ويَنابيعِ الحِكَم، ومُستَقَرِّ الملائكة، منهم وَصِيِّي وأميني ووارثي، وهو مني بِمَنزلةِ هارونَ مِن موسى! أَلَا هَلْ بَلَّغتُ؟ مَعاشرَ الأنصار.. أَلَا فاسمعوا ومَن حَضر.. أَلَا إن فاطمةَ بابُها بابي، وبَيْتُها بيتي، فمن هَتَكَهُ فقد هتكَ حِجابَ الله!»؛ ثم انقطع النبي (ص) عن الكلام، وأذِنَ للأنصار بالانصراف، فنهضوا وخرجوا من عنده.

ثم بعث إلى سائر المهاجرين يستدعي حضورَهم، ولما اجتمعوا عنده قال (ص): «أيها الناس، إني قد دُعيتُ وإني مجيبٌ دعوةَ الداعي، قد

---

١٢ ـ القرآن الكريم: ج ٢٢، س ٣٥ فاطر: ١٠.

ٱشتَقتُ إلى لقاءِ ربي واللحوقِ بإخواني من الأنبياء، وإني أُعطِيتُ خزائنَ الدنيا والخُلْدَ فيها ثم الجنة، وخُيِّرتُ بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة، فٱخترتُ لقاء ربي والجنة، وقد أقبلَتِ الفِتَن كقِطَع الليل المظلم، يَتبعُ آخرُها أولَها، والآخرةُ شرٌّ من الأولى، وإني أُعْلِمكم أني قد أَوْصيتُ إلى وصيي وصيتي، ولم أُهمِلْكم إهمالَ البهائم، ولم أترك من أموركم شيئاً».
فقام إليه أَحدُهم وقال: «يا رسول الله، أَوْصَيتَ بما أوصَى به الأنبياءُ مِن قبلك؟»؛ قال (ص): «نعم»، قال: «فبأمر مِن الله أوصيتَ أم بأمرك؟»؛ قال (ص): «إجلس أيها الرجل، أوصيتُ بأمر الله وأمرُهُ طاعتُه، وأوصيتُ بأمري وأمري طاعةُ الله، ومَن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى وصِيِّي فقد عصاني، ومن أطاع وصيي فقد أطاعني، ومن أطاعني فقد أطاع الله».

ثم التفت النبي (ص) وهو في شدة الغضب إلى سائر المهاجرين يقول: «أيها الناس، اسمعوا وصيتي: مَن آمنَ بي وصدَّقني بالنبوة وأني رسول الله، فأوصيه بولاية علي بن أبي طالب وطاعتِه والتصديق له، فإن ولايتَهُ ولايتي وولايةُ ربي، قد أبلغْتكم، فليبلغ الشاهدُ الغائب.. إن علي ابن أبي طالب هو العِلْم فمَن قصَّر دون العلم فقد ضلَّ، ومن تقدمه تقدم إلى النار، ومن تأخر عن العِلْم يميناً هلك، ومن أخذ يساراً غَوَى، وما توفيقي إلا بالله، فهل سمعتم؟»؛ قالوا: «نعم يا رسول الله»؛ فأذن لهم بالانصراف، فنهضوا مِن عنده وتفرقوا.. ثم قال (ص): «يا علي، أَضْجِعْني»[١٣]، فأنزله أميرُ المؤمنين (ع) عن صدره وأَضْجَعَه في فراشه.

مكث النبي (ص) في فراشه يَتَمَلْمَل تَملمُل السليم[١٤]، وقد ازداد المرض ولوجاً فيه ـ وكان رأسه في حجر أمير المؤمنين علي (ع) ـ إلى أن حَلَّ وقت الصلاة وأذَّن «بِلال»، ثم نادى على عادته «الصلاة يرحمكم

---

١٣ ـ أضجِعْني: أَنِمْني على الأرض، . . . في فراشي.
١٤ ـ السَليم: نَعْت (أو وَصْف) يُستعمل للمريض في حالة جد شديدة، أملاً بأن تَنقلب حاله إلى الشفاء ويصبح «سليماً».

الله»، فبادر النبي (ص) مسرعاً ليقوم، ولكنه لم يتمكن، فطلب من أمير المؤمنين علي (ع) وعمه العباس أن يحملاه، فحملاه وأقبلا به ورجلاه تخطان الأرض، إلى أن أجلساه عند المحراب، فنزل به إماماً، وصلّى بالناس جلوساً، ثم أَمَرَ (ص) بَعد الصلاة فحُمِل ووُضِع به على المنبر، واجتمع الناس من كل فج عميق حتى امتلأ المسجد من المهاجرين والأنصار وسائر الناس رجالهم ونسائهم، وبَرَزَت المُخَدَّرات (النساء المتسترات المُحَجَّبات) من خُدورهن، والجميع بين باكٍ وصارخ ومُسترجِع[١٥] ونائح، كلُّ ذلك إشفاقاً على النبي (ص) وقد غلب عليه الضعف، وهو جالس على المنبر صامتاً قد خنقته العبرة، ولبث كذلك فترة طالت قليلاً، إلى أن هَمَد المؤمنون بعض الشيء، وهدأت الأصوات، وسكنت الضجة والأنفاس، فشرع بخطبة كانوا ينتظرونها، وبدأ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال (ص):

«أيها الناس! ما تُنكرون مِن مَوت نبيكم؟ ألم أَنْعَ إليكم نَفْسي؟ ألم تُنْعَ إليكم أنفسكم؟ ألا لو خَلَدَ أحدٌ قبلي لخَلدْتُ فيكم! ألا وإني لاحِقٌ بربي، وقد تركتُ فيكم ما إن تمسكتُمْ به لن تَضلوا: كتابَ الله تعالى بين أَظْهُركم، تقرأونه صباحاً ومساءً، فلا تَنافسوا[١٦] ولا تَحاسدوا ولا تَباغَضوا، وكونوا إخواناً كما أمركم الله؛ وقد خلَّفتُ فيكم عِتْرتي أهلَ بيتي وأنا أوصيكم بهم، ثم أوصيكم بهذا الحي من الأنصار، فقد عرفتم بَلاءَهم عند الله عزَّ وجلَّ، وعند رسوله، وعند المؤمنين؛ ألم يُوسِعوا في الديار[١٧] ويشاطروا

---

١٥ ـ مُسترجع: صارخ مُرَدِّد: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

١٦ ـ لا تنافَسُوا ولا تَحاسَدوا ولا تَباغَضوا: = لا تَتَنافسوا ولا تتحاسدوا.....

١٧ ـ أَوْسَعوا في الديار: أحسنوا الضيافة حتى في البيوت الصغيرة، إذ جعلوا قسماً منها للضيوف، حتى لكأنها بيوت كبيرة فيها كثير السعة لكرام الضيوف ـ شاطروا الثمار، أعطوا الغير من ضيوفٍ وأهل ومحتاجين أشطراً أي أقساماً من الثمار عندهم رغم ما بهم من خصاصة، أي ضيق وقلة مال وفقر.

الثمار ويؤثروا وبهم الخصاصة؟ فمَن وَلِيَ منكم أمراً يَضُر فيه أحداً أو ينفعه، فَلْيَقْبَلْ مِن مُحْسِنِ الأنصار ولْيتجاوزْ عن مُسيئهم.

«أيها الناس! لا نَبِيَّ بعدي، ولا سُنَّةَ بعد سُنَّتي، فمن ٱدَّعَى ذلك فهو ودَعْواه وبِدْعَتَهُ في النار، فاقتلوه واقتلوا مَن تَبِعهُ فهو أيضاً في النار.

«أيها الناس! أَحْيُوا القِصاصَ وأحيوا الحقَ ولا تَفرَّقوا[١٨]، وأَسْلِموا وسَلِّموا تَسْلموا.. كتب الله لأغلِبَنَّ أنا ورُسُلي إن الله قوي عزيز[١٩].

أيها الناس! إني تارك فيكم الثَقَلَين[٢٠]، أحدُهما أكبر، وهو سَبَبٌ[٢١] طَرَفٌ منه بيد الله، وطَرَف بأيديكم تعملون فيه، ألا وهو القرآن؛ والثَقَل الأصغر أهلُ بيتي؛ وأَيْمُ الله إني لأَقولُ لكم هذا ورجالٌ في أصلاب أهل الشِرْك أَرْجَى عندي من كثير منكم[٢٢]، واللهِ لا يحبهم عبدٌ إلا أعطاه الله نوراً يوم القيامة حتى يَرِد عليَّ الحَوْض، ولا يُبغضُهم عبد إلا ٱحتجبَ الله عنه يومَ القيامة.. أيها الناس! إنني أُوشِك أن أُقْبَض قَبْضاً سريعاً، فيُنْطَلق بي، وقد قَدَّمتُ إليكم القولَ معذرةً إليكم..

ثم دعا علياً (ع) حتى رفعه على المنبر ونادى في الجموع: هذا علي مع القرآن والقرآن مع علي، خليفتان بصيران، لا يفترقان حتى يَرِدا عليَّ الحوض، فأسألُهما ماذا خلَّفتُ فيهما.. يا معشرَ المهاجرين والأنصار، ومَن حضرَني في يومي هذا وساعتي هذه من الجن والإنس، فليبلِّغْ شاهدُكم

---

١٨ ـ لا تَفرَّقوا: لا تتفرقوا.

١٩ ـ القرآن الكريم: ج ٢٨، س ٥٨ المجادلة: ٢١.

٢٠ ـ الثَقَلان: العزيزان النفيسان.

٢١ ـ سَبَب: حَبْل، خَيط.

٢٢ ـ رجال في أصلابِ أهل الشِرْك، أي رجال في المستقبل يولدون من أبناء (مِن نسلِ) رجالٍ موجودين اليوم مشركين، ولكنهم يؤمنون بَعدُ إيماناً يجعلهم عندي أرْجَى، أي أكثر رجاءً وأملاً واحتمالاً لبلوغ رضاء الله من كثير منكم.

الغائبَ: أَلَا قد خلَّفتُ فيكم كتابَ الله، فيه النور والهدى والبيان، ما فرَّط الله فيه من شيء، حُجَّةُ الله لي عليكم، وخلفت فيكم العِلْمَ الأكبر، عِلمَ الدين ونورَ الهدى وصيِّي علي بن أبي طالب، ألا هو حبْلُ الله ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[٢٣].. أيها الناس! هذا علي بن أبي طالب كنزُ الله اليومَ وما بَعد اليوم، مَن أحبه وتولّاه اليوم وما بعد اليوم، فقد أَوْفَى بما عاهد عليه الله وأدَّى ما وجَب عليه، ومَن عاداه اليوم وما بعد اليوم، جاء يوم القيامة أعمَى وأصمَّ[٢٤] لا حُجةَ له عند الله.. أيها الناس! لا تأتوني غداً بالدنيا تزفونها زفاً[٢٥]، ويأتي أهل بَتي شُعْثاً غُبْراً[٢٦] مَقهورين مظلومين تسيل دماؤهم أمامكم وبِيعات[٢٧] الضلالة والشورى للجهالة! أَلَا وإن هذا الأمر له أصحاب وآيات قد سماهم الله في كتابه، وعرَّفتُكم وبلَّغتكم ما أُرسِلتُ به إليكم، ولكني أراكم قوماً تجهلون.. لا تَرجِعُنَّ بعدي كُفاراً مُرتَدِّين مُتأَوِّلين[٢٨] للكتاب على غير معرفة، وتبتدعون السُنَّة بالهَوَى[٢٩]! أَلَا إن كل سُنَّةٍ وحَدَثٍ وكلام خالفَ القرآن فهو مردود وباطل.. القرآن إمام هُدًى، وله قائد يهدي إليه ويدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.. وَلِيُّ الأمر بعدي وَلِيُّه، ووارث علمي وحكمتي وسري

---

٢٣ ـ القرآن الكريم: ج ٤، س ٣ آل عمران: ١٠٣.

٢٤ ـ أَصَمَّ: لا يسمع، أطرش.

٢٥ ـ لا تأتوني بالدنيا: أي باللذات الدنيوية (لا الأخروية) ـ تزفُونها زفًا: تبتهجون بها ابتهاج أهل العروس بزفافها (أي بعرسها).

٢٦ ـ شُعْثاً: جمع أشعَث (متفرق، مُبعثَر) ـ غُبْراً: جمع أغبَر (مُلَطّخ، مُلَوَّث).

٢٧ ـ بِيعات: دور العبادة (لغير المسلمين) موازية المساجد (عند المسلمين).

٢٨ ـ مُتأوِّلين: مفسرين للأحكام والأقوال بمعانٍ محتملة (في نظرهم).

٢٩ ـ تبتدعون: توجدون وتُنشِئون ـ السُنَّة: القاعدة السلوكية المطبقة ـ بالهَوَى: وِفق ميولكم ورغائبكم الشخصية.

وعلانيتي وما ورثه النبيون من قبلي، أنا وارثُه وموَرثُه، فلا تُكذبَنَّكم أنفسكم.

«أيها الناس! اللهَ اللهَ في أهل بيتي، فإنهم أركانُ الدين ومصابيح الظُلَم ومعدن العِلم، أَلَا إن عليَّ بن أبي طالب هو أخي، ووارثي ووزيري، وأميني والقائمُ بأمري، والموفي بعهدي على سنَّتي، أولُ الناس بي إيماناً وآخرُهم عند الموت بي عهداً، وأوسطُهم يوم القيامة لي لقاءً، فليبلِّغ شاهدُكم غائبَكم! إلا ومَن أمَّ قوماً إمامةً عمياء وفي الأمة مَن هو اعلم منه، فقد كفر!

«أيها الناس! مَن كانت له قِبَلي[٣٠] تَبِعة[٣١] فها أنا، ومن كانت له عِدَةٌ[٣٢] فليأتِ بها عليّ بن أبي طالب، فإنه ضامن لذلك كله، حتى لا يبقَى لأحدٍ عليَّ تباعة». ثم سكت (ص) قليلاً لغلبة الضعف، ونزل أمير المؤمنين (ع) من على المنبر والناس لهم دويّ من الأنين والجزع على رسول الله (ص) كدوي النحل إلى أن نادى فيهم: «مَعاشرَ أصحابي! أيَّ نبيٍ كنتُ لكم؟ ألم أجاهد بين أَظْهُرِكم[٣٣]؟ ألم تكسر رُباعيتي[٣٤]؟ ألم يُعَفَّر[٣٥] جبيني؟! ألم تَسِل الدماء على حَرِّ وجهي حتى كَنفت[٣٦] لحيتي؟ ألم أكابد الشدة والجهد مع جُهَّال قومي؟ ألم أربط حجر المجاعة على بطني؟»؛ فارتفعت أصوات النساء بتصديق مقالته يَقُلْنَ: «بَلَى يا رسول الله! لقد كنتَ لله صابراً، وعن مُنكَر بلاء الله ناهياً، فجزاك الله عنَّا أفضل الجزاء!»؛ فقال (ص): «وأنتم فجزاكم الله! إن ربي عزَّ وجلَّ حكم أن لا يجوزَهُ ظُلْمُ ظالم، فناشدتكم

---

٣٠ ـ له قِبَلي: له عليَّ.

٣١ ـ (له عليَّ) تَبِعَة.. أو: تباعة: (عليّ) حق، (له عليَّ) مسؤولية.

٣٢ ـ عِدَة: وعْد.

٣٣ ـ بين أظهركم: حين وجودي بينكم.

٣٤ ـ الرُباعية: السن التي بين الثنية (السِن الوسطى في الفم) والناب.

٣٥ ـ يُعَفَّر: يُمَرَّغ، يُمْسَح ويخلط.

٣٦ ـ كَنَفت: غطت، أحاطت.

بالله: أي رجل منكم كانت له قِبَلَ محمد مَظْلَمةٌ، إلا قام، فَلْيَقْتَصّ منه، فالقصاص في دار الدنيا أحبُّ إليَّ من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والأنبياء»؛ فقام إليه رجل من أقصى القوم يقال له «سوادة بن قيس» وقال: «فداك أبي وأمي يا رسول الله! إنك لما أقبلتَ من الطائف، استقبلتُكَ وأنت على ناقتك العضباء[37] وبيدك القضيب الممشوق[38]، فرفعت القضيب وأنت تريد الراحلة، فأصابني ولا أدري عمداً كان أو خطأً»، فقال (ص): «مَعاذَ اللهِ أن أكون تعمدتُ!»؛ ثم دعا بلالاً وقال له: «قم إلى منزل فاطمة، وأْتِني بالقضيب الممشوق»؛ فانطلق بلال وهو ينادي في سِكَك[39] المدينة: «معاشرَ الناس، مَن ذا الذي يعطي القِصاص مِن نفسه قبل يوم القيامة؟! فهذا محمد يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة»؛ إلى أن انتهى إلى دار فاطمة (ع)، وطرق عليها الباب، وناداها من ورائه يقول: «قومي يا فاطمة، فوالدك يريد القضيب الممشوق»؛ فخرجت سيدة النساء (ع) إليه تقول: «يا بلال، وما يصنع والدي بالقضيب وليس هذا يوم القضيب؟»؛ قال: «أما علمتِ أنه صعد المنبر يودِّع أهل الدين والدنيا؟»؛ فصرخت فاطمة (ع) صرخة كادت أن تزهق روحها، وهي تقول: «واغمَّاهُ لغمك يا أبتاه! مَن للفقراءِ والمساكين وابنِ السبيل يا حبيبَ الله وحبيبَ القلوب!»، ثم أخبرها بلال بقضية سوادة، فازدادت جَزَعاً وبكاءً إشفاقاً على أبيها، ثم ناولته القضيب، فأتى بلال به حتى ناوله النبي (ص) وهو على المنبر ساكت قد غلبه الضعف، فنادى (ص): «أين الشيخ؟»، فنهض سوادة قائماً يقول: «ها أنا ذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله»، فقال (ص): «تَقَدَّمَ فاقتصَّ مني حتى ترضَى»؛ فتقدم سوادة وقد احتفَّ به الناسُ من كل جهة بين صارخٍ وباكٍ، يسألونه العَفْوَ عن رسول الله لمكان ضعفه، وأنه لا

---

٣٧ ـ العَضباء: المشقوقة الأذُن.

٣٨ ـ المَمْشوق: الطويل غير السمين.

٣٩ ـ سِكَك: جمع سِكّة، أي طريق.

يتحمل ضرب القضيب، وسوادة ساكت لا يرد عليهم بشيء، إلى أن صعد المنبر وتناول القضب من النبي (ص)، وقال: «إكشف لي عن بطنك يا رسول الله»؛ ولما كشف له عنه قال: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله! أتأذن أن أضع فمي على بطنك؟»، فأذن له النبي (ص)، فوضع سوادة فمه على بطن الرسول (ص)، يقبله ويبكي ويقول: «أعوذ بموضع القصاص من بطن رسول الله من النار يوم النار!»؛ فقال النبي (ص): «أتعفو يا سوادة أم تقتص؟»، قال: «بل أعفو يا رسول الله»؛ فدعا له النبي (ص) وقال: «اللّهمَّ اعفُ عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيك محمد»، ثم أمر (ص) فأنزلوه مِن على المنبر وهو يقول: «ربِ سلِّمْ أمةَ محمدٍ من النار ويَسِّرْ عليهم الحساب».

ثم حُمِلَ إلى بيت أم سلمة، فتلقته أم سلمة مستوحشة مما به من الضعف وقد تغير لونه الشريف، فسألته عن سَبَب ذلك، فقال (ص): «نُعِيَت إليّ نفسيَ الساعة، فسلام لك في الدنيا، فلا تَسمعين بعد اليوم صوت محمد أبداً»؛ فصرخت أم سلمة وأَنَّتْ ووَلْوَلَتْ وهي تقول: «واحزناهُ عليك يا رسولَ الله حزناً لا تدركه الندامة».

ثم ثَقُل النبي (ص) في مرضه، حتى حُجِبَ عنه الناسُ ما عدا زوجته وأهل بيته، وكان أمير المؤمنين علي (ع) ملازماً له لا يفارقه إلا لضرورة. وحدث مرة أن قام أمير المؤمنين علي (ع) في بعض شؤونه، وكان النبي (ص) قد أغمي عليه، فلما أفاق ولم يرَ علياً (ع) قال (ص): «ادعوا لي أخي»؛ وعاوده الضعف فصمت، فقالت أم سلمة: «ادعوا له علياً، فأنه لا يريد غيره»؛ فلما أقبل أمير المؤمنين (ع) ودخل عليه، أَمَرَ النبي (ص) كافة مَن حضر عنده مِن زوجاته وسائر الناس أن يخرجوا من البيت، وأمر أم سلمة أن تقف على الباب فتمنع أن يقربه أحد.

ثم استدعى (ص) ابنته فاطمة (ع) والحسنين (ع)، ولما اجتمعوا حول فراشه، أخذ بيد فاطمة (ع) ووضعها طويلاً على صدره، ثم تناول بيده

الأخرى يد أمير المؤمنين علي (ع) ولما همّ بالكلام، لم يتمالك نفسه دون أن غلبه البكاء واختنق بعبرته، فشهقت الزهراء (ع) شهقة كادت أن تزهق بها روحها، وصرخت تقول: «قطعتَ قلبي يا رسول الله، وأحرقت كبدي لبكائك، يا سيد النبيين من الأولين والآخرين، يا أمينَ الله ورسولَه وحبيبه ونبيَّه، مَن لِوُلْدي ولِذُلٍ ينزل بي بعدك؟ مَن لعليٍ أخيك وناصر الدين؟ مَن لوحي الله وأمره؟»، واشتد حينئذٍ بكاءُ أمير المؤمنين (ع) وجَزَعُ الحسنين (ع)، وأكبوا بأجمعهم على النبي (ص) وطال أَنينُهم وصريخهم حتى كادوا أن يشرفوا على الهلاك، إلى أن فتح النبي (ص) عينيه وبيده يد فاطمة (ع)، فوضعها في يد أمير المؤمنين (ع) وقال له: «يا أبا الحسن.. هذه وديعةُ الله ووديعة رسوله محمد عندك، فاحفظِ اللهَ واحفظني فيها، وإنك لِفاعِلُه! يا علي هذه واللهِ سيدةُ نساءِ أهل الجنة مِن الأولين والآخرين، هذه والله مريمُ الكبرى! أما واللهِ ما بَلَغَتْ نفسي هذا الموضع، حتى سألتُ الله لها ولكم، فأعطاني ما سألتهُ؛ يا علي نفّذ ما أمَرَتكَ به فاطمة، فقد أمرتُها بأشياء أمرَ بها جبرائيل؛ واعلم يا علي أني راضٍ عَن مَن رضيَتْ عنه ابنتي فاطمة، وكذلك ربي وملائكته، يا علي، وَيلٌ لِمَن ظَلَمها، ويل لمن ٱبْتَزَّها حقَّها، ويل لمن هَتَكَ حُرمتَها، ويل لمن أحرق بابها، ويل لمن آذى خليلَها، ويل لمن شاقَّها[40] وبارَزَها». ثم أسرَّ إلى أمير المؤمنين (ع) بأسماء جماعة يظلمونها بعد وفاته، ثم مد (ص) يديه وضمَّ فاطمة (ع) وبَعْلَها وولَدَيها إلى نفسه، وجعل يبكي شديداً ويناجي ربه ويقول: «اللَّهمَّ إني لهم ولمن شايَعَهم سِلْمٌ وزعيمٌ[41] بأنهم يدخلون الجنة، ولِمَن عاداهم وظَلَمهم وتَقَدَّمَهم أو تأخر عنهم وعن شيعتهم، عَدُوٌّ وحرب وزعيم بأنهم يدخلون النار! اللَّهمَّ إني منهم بريء وهم مني بُرَءاء»؛ ثم قال (ص) لفاطمة (ع): «والله لا أرضى يا فاطمة حتى تَرْضَيْن»، يكرر ذلك ثلاثاً، ثم اختَلَى بفاطمة

---

٤٠ ـ شاقَّها: عاداها وحاربها.

٤١ ـ زعيم بأنهم: مُعتقِد مُعلِن بأنهم.

(ع)، وخرج أمير المؤمنين (ع) والحَسَنان (ع) ووقفوا بالباب، وكان الناس ونساء النبي (ص) خلف الباب ينظرون إليهم، وطالت المناجاة بين رسول الله وابنته، إلى أن ارتفع أخيراً صوت فاطمة من داخل البيت تدعو ابن عمها، فبادر أمير المؤمنين علي (ع) مسرعاً نحو النبي (ص)، فإذا هو (ص) في لحظات الاحتضار كأنه يجود بأنفاسه الأخيرة، فلم يتمالك أمير المؤمنين علي (ع) نفسه عن أن ارتفع صوته بالبكاء والصريخ، ففتح النبي (ص) عينيه ونظر إليه وقال له: «ما يُبْكيكَ يا علي؟ ليس هذا أوان البكاء! لقد حان الفراق بيني وبينك فأستودعك الله يا أخي، وأنا لا أبكي لهذا الفراق، لأن ربي اختار لي ما عنده، وإذا بكيتُ فإنما بكائي وغمي وحزني عليك وعلى هذه أن تضيع بعدي، فقد أجمع قوم على ظلمكم»، ثم مد يده الشريفة، وضمَّ ابنته فاطمة (ع) إلى صدره، وقد هَمَلَت عيناه بالدموع الهاطلة كالوابل من المطر، حتى ٱبتَلَّتْ لحيته المباركة من دموعه وهو يقبِّلها ويقول: «فداكِ أبوك يا فاطمة! أما واللهِ لَيَنْتَقِمَنَّ اللهُ ربي لكِ، ولَيَغْضَبَنَّ لِغَضَبِكِ، فالوَيلُ ثم الويل للظالمين»؛ فَعَلا صوت فاطمة بالبكاء والنشيج، وكادت أن تتقطع كبدُها وجداً وهي تقول: «نفسي لنفسك الفداء ووجهي لوجهك الوقاء يا أبتاه! ألا تكلمني أيضاً وأيضاً فتسعدني؟»، فقال (ص) بصوت ضعيف: «أي بُنَيَّة، إني مفارقك فسلام عليك»؛ فازدادت فاطمة وَجْداً وصريخاً وقالت: «يا أبتاه فأين الملتقَى يوم القيامة؟»، قال (ص): «عند الحساب»؛ قالت: «فإن لم أَلْقكَ هناك؟»، قال (ص): «فعند الشفاعة، أشفعُ لأمتي»؛ قالت: «فإن لم ألقَكَ هناك؟»، قال (ص): «عند الصراط، جبرائيل عن يميني وميكائيل عن يساري، والملائكة أمامي وخلفي ينادون: ربُ سلم أمةَ محمدٍ من النار ويسِّر عليهم الحساب».

ثم أخذ النبي (ص) يُسَكِّن بعض ما بها، ويأمرها بالصبر في عزائه والتوكل على الله، وذَكَر لها شيئاً بليغاً من فضائل بعلها أمير المؤمنين (ع)، وأنه أعظمُ الناس حقاً على المسلمين بعد أبيها، وأقدَمُهم سِلماً، وأعزهم خطراً، وأجملهم خَلقاً، وأشدهم في الله ورسوله غضباً، وأشجعهم قلباً،

وأثبتهم في الميزان قدراً، وأربطهم جَأشاً، وأسخاهم كفاً، وأعلمهم علماً، وأحلمهم حلماً، وأنه أولُ مَن آمن بالله ورسوله، وأنه وابنَ عمه الرسول وذريتَهما الطاهرين هم السابقون المقرَّبون في جنات النعيم، ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨﴾[42]، «أصحاب الميمنة» الذين أشار الله تعالى إليهم في القرآن المجيد بعبارة التجليل والإكبار، وهم «أهلُ البيت» الذين ذَكَرَهم الله سبحانه ومدحهم في كتابه الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾[43]، ثم بشرها بأن المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً هو من ذريتها، إلى أن قال (ص): «يا بنية، والذي بَعَثني بالحق يا فاطمة، لقد حُرِّمَت الجنةُ على الخلائق حتى أدخُلَها أنا، وإنكِ لأولُ خَلْقِ الله دخولاً فيها بعدي، تَدخُلينَها كاسِيةً حاليةً ناعمة[44]، هنيئاً لك يا فاطمة! والذي بعثني بالحق إنكِ لَسيِّدةُ مَن يَدخُلُها من النساء، وإن جهنم لَتَزْفُرُ[45] زفرةً لا يبقَى معها مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرسَل إلا صَعِقَ[46]، فيناديها الجبار جلَّ وعزَّ: أسكُني بعزي واستقري حتى تجوز فاطمة بنت محمد إلى الجنان ولا يغشاها قَتَر[47] ولا ذِلَة، والحَسَن عن يمينك والحسين عن يسارك، تُشرفون مِن أعلَى الجنان في المقام الشريف بين يدي الله تعالى، ولواء الحمد مع علي بن أبي طالب يكسى إذا كسيت ويحبى إذا حبيت، والذي بعثني بالحق لأقومن بخصومة أعدائك، ولَيَنْدَمَنَّ قوم أخذوا حقك وقطعوا مودتك وكذَّبوا علياً ولَيَخْتَلِجَنَّ دوني،

---

٤٢ ـ القرآن الكريم، ج ٧، س ٥٦ الواقعة: ٨.

٤٣ ـ القرآن الكريم، ج ٢٢، س ٣٣ الأحزاب: ٣٣.

٤٤ ـ كاسية: مرتدية كساء: ثوباً ـ حالية: متزينة بِحُلِيّ (من ذهب أو فضة) ـ ناعمة: عليها مظاهر النعمة والرفعة.

٤٥ ـ تَزْفُر زفرة: يَصدر مع تنفسها المديد، صوتٌ يعبِّر أو يدل على غضب أو ضيق.

٤٦ ـ صَعِقَ: بُهِتَ، ذُهِل، أصيب بتيهٍ حتى لَكأنه مُغشى عليه.

٤٧ ـ يغشاها: يحل على وجهها ـ قَتَر: غبار أو تشويه.

فأقول أمتي أمتي، فيقال لي إنهم بدلوا بعدك وصاروا إلى السعير؛ فجعلت فاطمة (ع) تنظر في وجهه الشريف، وتَرتَعُ مَفاصلها جزعاً على أبيها، وتندبه بشعر عمها أبي طالب (ع):

وأبيضُ يستسقي الغمامُ بوجهه ثِمالُ اليتَامَى عِصْمةٌ للأرامِلِ

فناداها النبي (ص) بصوت ضئيل: «بنية، هذا قول عمك أبي طالب لا تقوليه، ولكن قولي: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾[48] ولم تزل يزداد بها الوجد والبكاء، إلى أن أومأ إليها النبي (ص) يأمرها بالدُنُوّ منه، فلما دَنَت منه أسرَّ إليها شيئاً تهلهل به وجهها فرحاً، وتبسمت سروراً؛ فسُئِلَتْ بعدئذٍ عن ذلك، فقالت: «إنه بشرني أني أول الناس لحوقاً به من أهل بيته، فاستبشرتُ وفرحت بذلك».

ثم أمر النبي (ص) علياً (ع) أن يخرج إلى الناس ينادي فيهم: «أيها الناس.. يقول لكم رسول الله: إن جبرائيل أتاني من عند الله برسالة، وأمرني أن أبعث بها إليكم مع أميني علي بن أبي طالب: ألا مَن ادعَى إلى غير أبيه، فقد بَرِىءَ الله منه! ألا مَن وَالَى غيرَ مُواليه فقد بَرِىءَ الله منه، ومن تقدم على إمامه أو قدَّم إماماً غيرَ مُفترَض الطاعة ووالَى بائراً[49] جائراً بدلاً عن الإمام، فقد ضادَّ الله في ملكه، والله منه بريء إلى يوم القيامة، ولا يقبل الله منه صَرفاً ولا عدلاً! ألَا مَن ظلم أجيراً أجرته، فعليه لعنة الله متتابعة إلى يوم القيامة! ألا مَن والى غير مُواليه فعليه لعنة الله! ألَا مَن سَبَّ أبويه فعليه لعنة الله»؛ فخرج أمير المؤمنين (ع) ونادى مُناديه في الناس بالصلاة جامعة، حتى اجتمعوا في المسجد الجامع، فصعد المنبر وبلَّغهم أمر النبي (ص) ومقالته، فقام عمر بن الخطاب إليه يسأله عن تفسير الكلام، فقال (ع): «الله ورسوله أعلم»، فانصرف عمر (رض) في جمع من

---

٤٨ ـ القرآن الكريم، ج ٤، س ٤ آل عمران: ١٤٤.

٤٩ ـ بائر: ضعيف القيمة (علمياً)، شبه مجهول ـ جائر (من الجَور): ظالم.

الصحابة، حتى دخلوا على النبي (ص) يسألونه عن ذلك، فقال (ص): «نعم أمَرْتُه أن ينادي: مَن ظَلَمَ أجيراً أجرتَه، فعليه لعنة الله، فالله يقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [50] فمن ظلمني في أجري ولم يُوالِ القُرْبَى مِن أهل بيتي، فعليه لعنة الله، والله يقول: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [51] فمنْ كنتُ مَوْلاه فعلي مولاه، ومن يُوالي غيرَ علي فعليه لعنةُ الله! وأنا أُشهِدُ الله وأَشهِدُكم أني وعلياً أَبَوانِ للمؤمنين، فمن سَبَّ أحدَنا فعليه لعنة الله»؛ فنهض القوم وخرجوا من عند النبي (ص) يتقدمُهُم عمرُ يقول لهم: «يا أصحابَ محمد، ما أكَّد النبيُّ لعلي بالولاية في غدير خم ولا في غيره، أشدَّ من تأكيده في يومنا هذا.

ولما رجع أمير المؤمنين علي (ع) ودخل على النبي (ص)، رأى رأسه في حُجرِ رجلٍ حَسَنِ الوجه جميلِ الخَلق، ولما رأى علياً (ع) قال له: «أُدْنُ يا أبا الحسن إلى ابن عمك، فأنت أحق به مني»، فتقدم أمير المؤمنين (ع) وأخذَ برأس النبي (ص) وهو نائم، وقام الرجل عنه وغاب. ولما استيقظ النبي ورأى رأسه في حُجرِ أمير المؤمنين (ع) سأله عن الرجل، فحكى له علي (ع) مقالته، وأنه دفع إليه الرأسَ الشريف وغاب عنه، فقال (ص): «ذاك جبرائيل، كان يحدثني حتى خَفَّ عني وَجعي، ونِمتُ ورأسي في حُجره».

ثم أجلس عليٌّ (ع) النبيَ (ص) وأسنده إلى صدره، فقال له النبي (ص): «يا أبا الحسن تحوَّلْ مِن موضعك وكن أمامي»؛ فقام أمير المؤمنين (ع) وقد أحس بحضور جبرائيل، يسمع صوته ولا يرى شخصه، وعلم جلوسه خلف النبي (ص)، وأنه أسند ظهر النبي (ص)؛ فلما جلس علي (ع) أمام النبي (ص)، قال له النبي (ص): «يا علي، ضُمَّ كَفَّيك»، ولما ضمَّهما وألصقَ أحدَهما بالآخر، قال (ص): «يا علي قد عَهِدتُ إليك،

---

٥٠ ـ القرآن الكريم، ج ٢٥، س ٤٢ الشورى: ٢٣.

٥١ ـ القرآن الكريم، ج ٢٥، س ٣٣ الأحزاب: ٦.

والآن أجَدِّدُ العهد لك بِمحْضَرِ أمينَيْ ربِ العالمينَ جبرائيل وميكائيل؛ يا علي، بِحقهما عليكَ إلا نفَّذتَ وصيتي على ما فيها، وعلى قبولك إياها بالصبر والوَرَع على منهاجي وطريقي لا طريق سواي، وخذْ ما آتاكَ الله بقوة»، ثم دفع إليه كتاباً كان نَقَله إليه جبرائيل (ع) عن الرب الجليل يقول في صدره: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عَهَدَ وأوصَى به محمد بن عبد الله، وأسنده بأمر الله إلى وصِيِّهِ علي بن أبي طالب أمير المؤمنين..» إلخ، وأمره بقراءته حرفاً حرفاً، فقرأه أمير المؤمنين علي (ع) إلى آخره، وفيه سُنَنُ الله وسنن رسوله، وكلُ ما يجري عليه من الأمة بعد رسول الله، إلى أن فرغ منه، فقال له رسول الله (ص): «يا علي، هذا عهدُ ربي تبارك وتعالى إليّ وأمانتُه وشرطُه عليّ، وقد بلَّغتُ ونصحتُ وأدَّيتُ»؛ فقال أمير المؤمنين (ع): «بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله، وأنا أشهدُ لك بالتبليغ والنصيحة والصدق على ما قلت، ويَشهدُ لك به سمعي وبصري ولَحمي ودمي»؛ وعند ذلك سمع صوت جبرائيل يقول: «وأنا لكما على ذلك من الشاهدين»؛ فعاد النبي (ص) يقول: «يا علي أخذتَ وصيتي وعرفتَها، وضمنتَ للهِ وليَ الوفاءَ بما فيها؟»، قال: «نَعم بأبي أنت وأمي، عليَّ ضمانُها وعلى اللهِ عَوني وتوفيقي على أدائها»؛ قال (ص): «يا علي، إني أريدُ إن أُشهِد عليكَ بموافاتي بها يوم القيامة»؛ قال (ع): «نعم أشهِد»، فقال النبي (ص): «إن جبرائيل وميكائيل بيني وبينك الآن، وهما حاضران ومعهما الملائكة المقرَّبون، أُشهِدُهم عليك؟»؛ قال (ع): «نعم، ليشهدوا وأنا أُشهِدهم يا رسول الله»؛ قال (ص): «يا علي، تَفي بما فيها مِن مُوالاة مَن والَى اللهَ ورسولَه، والبراءة مِمَّن عادَى الله ورسولَه، والعداوة لهم على الصبر منك وعلى كَظْمِ الغَيظ، وعلى ذهاب حَقك، وغَصْب خُمسك، وانتهاك حُرْمَتك؟»، قالَ (ع): «نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله»؛ وعند ذلك سمع أميرُ المؤمنين (ع) قولَ جبرائيل للنبي (ص): «يا محمد، عَرِّفْه أنه تُنْتَهك الحرمة، وهي حرمة الله وحرمة رسول الله، وأنه تُخضَب لحيته من رأسه بدم عبيط»؛ فصُعق أمير المؤمنين (ع) بمقالة جبرائيل (ع)، وسقط

على وجهه، إلى أن أفاق ورفع رأسه وقال للنبي: «نعم قبلتُ ورضيت وإن انتُهِكَتْ الحُرمة، وعُطِّلَت السُنَنِ، ومُزق الكتاب، وهُدمت الكعبة، وخُضِبَتْ لحيتي من رأسي بدم عبيط[٥٢]، صابراً محتسباً أبداً حتى أقدِم عليك»، فتناول النبي (ص) الكتاب من أمير المؤمنين (ع)، وغاب من يده فكأنه ناوله لجبرائيل (ع) والملائكة ليوقعوا فيه شهاداتهم، ولم يكن بأدنَى من أن رجع إلى يد النبي (ص)، وأرجعه النبي إلى أمير المؤمنين (ع)، وإذا في آخره «شَهِد جبرائيلُ وميكائيل وإسرافيل على ما أوصَى به محمد إلى علي بن أبي طالب، وقَبَضَه وصيُّه وضَمِنَه على ما فيها، على ما ضَمِنَ يوشعُ بن نون لموسى بن عمران (ع)، وعلى ما ضمن وأدَّى وصيُّ عيسى ابن مريم، وعلى ما ضمن الأوصياء قبلهم: على أن محمداً أفضلُ النبيين، وعلياً أفضلُ الوصيين، وأوصى محمد وسلَّم إلى علي، وأقرَّ علي وقبض الوصية على ما أوصى به الأنبياء، وسلَّم محمدٌ الأمرَ إلى علي بن أبي طالب، وهذا أمرُ الله وطاعتُه، وولَّاهُ الأمرَ على أن لا نُبُوَّةَ لعلي ولا لغيره بعد محمد، وكفى بالله شهيدا».

ولما ناولَ الوصية أميرَ المؤمنين (ع)، قال له ولفاطمة (ع): «أمَا قد فهمْتُما ما تقدمتُ به إليكما وقبلتماه؟»؛ قالا: «بلَى، قَبِلْنا وصَبَرنا على ما ساءَنا وغاظنا!»؛ ولم يزل النبي (ص) يكرر ويؤكد على أمير المؤمنين (ع) بحفظ الوصية، والصبرِ على ما يَنزل به، والمحافظةِ على كتاب الله، وحلاله وحرامه وفرائضه وأحكامه، وإقامة حدود الله بشروطه، والأمر بالمعروف، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، والجهاد في سبيل الله، والنهي عن المنكر، ويقول له: «اتخذ لها جواباً غداً بين يدي الله تبارك وتعالى رب العرش»؛ ولم يزل أمير المؤمنين (ع) يجيبه في كل ذلك يقول: «بأبي أنت وأمي! أرجو بكرامة الله لك، ومنزلتك عنده ونعمته عليك، أن يُعينَني ربي ويُثَبِّتَني فلا ألقاكَ بين يدي الله مُقَصِّراً ولا مُتَوانياً،

٥٢ ـ دم عبيط: حارّ صاف.

ولا مُفَرِّطاً ولا معرّضاً وجهَك وِقاءَ وجهي ووجوهِ آبائي وأمهاتي، بل تجدُني ـ بأبي أنتَ وأمي ـ مستمراً مُتَبلِّغاً لوصيتك ومنهاجك وطريقك ما دمتُ حياً، حتى أقدمَ بها عليك، ثم الأول فالأول أيضاً مِن وُلْدي بعدي، لا مُقَصِّرينَ ولا مُفَرِّطينَ»؛ ثم أدخلَ النبيُّ (ص) يَدَهُ بين كفَّيْ علي (ع) ثم كأنه أفرغ فيهما شيئاً وقال (ص): «يا علي، قد أفرغتُ بين يديك الحكمةَ وقضاءَ ما يَرِدُ عليك وما هو واردٌ، لا يَعْزُب[٥٣] عنك من أمرك شيء؛ وإذا حضرتكَ الوفاةُ فأَوْصِ وصيتَكَ إلى مَن بَعدَك على ما أوصيكَ، واصنع هكذا بلا كتاب ولا صحيفة.

ثم أُغميَ على النبي (ص) طويلاً، فانكبَّ عليه أمير المؤمنين (ع) وقد غَطَّتْ دموعُه خدَّيه، وكاد قلبه أن يذوب وَجْداً وحزناً وهو ينادي: «واوَحْشَتاهُ بَعدَك يا رسولَ الله، ووَحْشَةُ ٱبنتِكَ وَبنيك! بأبي أنت وأمي! ما أطولَ غَمِّي بَعدَكَ يا أخي! انقطعَتْ عن منزلي أخبارُ السماء، وفَقَدْتُ بَعدكَ جبرائيلَ وميكائيلَ، فلا أُحِس أثراً ولا أسمعُ خبراً».

ثم دخلت النساء الغرفة تلهفاً على صحة الرسول (ص) بل على حياته، وإذ رَأَيْنَه ارتفعت أصواتهن بالبكاء والنحيب، وضجَّ مَن كانوا بالباب من المهاجرين والأنصار، ففتح النبيُّ (ص) عينيه في وجه أمير المؤمنين (ع) وقال له: «يا أخي، افهَمْ فَهَّمكَ اللهُ وسدَّدَك وأرْشَدَك، ووفَّقك الله وأعانَك، وغفرَ ذنبك ورفعَ ذِكْرك! اعلمْ يا أخي أن القومَ سَيَشْغَلُهُم عني ما يَشغَلُهم، أنتَ ـ وإنما مَثَلُكَ في الأمة كمَثَلِ الكعبة، نَصَبها اللهُ للناس عَلَماً ـ إنما تُؤْتى[٥٤] من كلِ فَجٍّ عميق ونَأْيٍ سحيق[٥٥] ولا تأتي، وإنما أنت

---

٥٣ ـ لا يَعزُب عنك. . شيء: لا يسبب لك خسارةَ شيء مما عندك. . لا يضرك بشيء.

٥٤ ـ تُؤتى: يأتون إليك ويقصدونك (ليستفيدوا من عِلمك أو عَونك أو توجيهك) ـ ولا تأتي (أنتَ إليهم) لأنك الأعلم والأقدر ولست بحاجة إلى أحد.

٥٥ ـ فَجّ: وادٍ (أو مُنبَسَط من الأرض) بين جبلين ـ نَأي: بُعْد ـ سحيق: كثير، مُفرط.

عَلَم الهُدَى ونور الدين! يا أخي.. والذي بعثني بالحق، لقد قَدَّمتُ إليهم بالوعيد[٥٦]، بعد أن أخبرتهم رجلاً رجلاً ما افترض الله عليهم مِن حَقك، وألْزَمَهم من طاعتك، وكلٌّ[٥٧] أجابَ وسلَّم إليك الأمر - وإني لأعلم خلافَ قوله - فإذا قُبِضتُ[٥٨] وفرغتَ من جميع ما أُوصيكَ به وغَيَّبْتَني في قبري، إلْزَمْ بيتك، واجمع القرآن على تأليفه، والفرائض والأحكام على تنزيله، ثم اُمضِ على غير لائمة على ما أمرتُك به، وعليك بالصبر على ما يَنزل بك وبها، حتى تُقدِموا عَلَيّ.. يا عَلِيّ، ما أنت صانعٌ إن تآمَرَ القومُ عليك بعدي وتقدموا عليك، وبعث إليك طاغيتُهم يدعوك إلى البيعة، ثم لُبِبْتَ[٥٩] بثوبك تُقاد كما يقاد الشارد من الإبل مذموماً مخذولاً محزوناً مهموماً، وبعد ذلك ينزل الذل بهذه» - وأشار إلى فاطمة (ع) - فصرخت فاطمة برفيع صوتها، نادبةً لاطِمةً، وبكى النبي لها بكاءً شديداً، ثم قال (ص) لها: «بُنَيَّة، لا تبكي ولا تؤذي جُلساءَكِ من الملائكة، هذا جبرائيل بَكى لبكائك، وكذا ميكائيل، وصاحبُ سِر الله إسرافيل، بُنَيَّة لا تبكي، فقد بكت السماوات والأرض لبكائك!

ثم قال أمير المؤمنين (ع) في جوابه: «يا رسول الله، أنقادُ إذاً للقوم وأصبرُ على ما أصابني من غير بيعة لهم ما لم أصب أعواناً ولا أناجز القوم»؛ فقال النبي (ص): «اللَّهمَّ اَشهد». ثم قال (ص): «يا علي، ما أنتَ صانع بالقرآن والعزائم والفرائض؟»[٦٠]، قال(ع): «أجْمَعُه يا رسول الله ثم آتيهم به، فإن قبلوه وإلا أشهدتُ اللهَ عزَّ وجلَّ وأشهدتُكَ عليهم»، فقال (ص): «اللَّهمَّ اَشهد»، ثم أسرَّ إلى أمير المؤمنين (ع) ببعض وصاياه، ثم

---

٥٦ - قدَّمتُ إليهم بالوعيد: بادَرْتُهم وأعلمتهم سَلَفاً بالخطر وهددتهم بالعذاب.

٥٧ - وكلٌّ: وكل واحد منهم - أجاب: وافقَ، قَبِل، أطاع.

٥٨ - قُبضتُ: تُوُفِّيتُ، مِتُّ.

٥٩ - لُبِبْتَ: أخِذتَ بتلابيك، أمْسِك بك.

٦٠ - الفرائض: الواجبات التي فرضها الله على المؤمن، كالصلاة والحج..، والعزائم: ما يفرضه الإنسان على نفسه، مثل النذور، ومثل الصدقات.

قال (ص): «يا علي، أرأيت إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧﴾[٦١]، إنهم شيعتُنا[٦٢] وأنصارك، ومَوعِدي ومَوعِدُهم الحَوْضُ يوم القيامة، إذ جَثَت[٦٣] الأمم على رُكَبها وبدأ الله في عَرض خَلْقِه فيدعوك وشيعتَك، فتجيئون غُرّاً مُحَجَّلين شِباعاً مَرْوِيين[٦٤]، يا علـــي ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦﴾[٦٥] هم اليهود وبنو أمية وأتباعهم، يُبعثون يوم القيامة أشقياء جياعاً عِطاشاً مُسْوَدةً وجوهُهُم، أمَا والله يا علي لَيَرجِعَنَّ أكثرُ هؤلاء كُفاراً يضربُ بعضُهم رقابَ بعض وليس بينَكَ وبين أن ترى ذلك إلا أن يغيب عنك شخصي.. يا علي، مَن شاقَّك من نسائي وأصحابي فقد عصاني، ومَن عصاني فقد عصى الله وأنا منهم بريء.. يا علي، إن القوم يأتمرون بعدي يَظلِمون ويُبيِّتون[٦٦] على ذلك، ومن بَيَّتَ على ذلك فأنا منهم بـريء وفـيـهـم نـزلـتْ ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾[٦٧].. يا علي اصبرِ على ظُلم الظالمين، فإن الله تعالى ـ (مقابل المُبيِّتين) ـ سيوفر لك شيعةً تقاتلُ بهم الناكثين والقاسطين وتابعي المضلين»؛ ثم غلب الضعف على النبي وأغمي عليه، ودخل عليه الحسنان وهما يصرخان بكاءً، ورمَيا بنفسَيْهما عليه يقولان: أنفُسُنا لنفسك الفداء، ووجوهنا لوجهك الوقاء! ولم يزالا كذلك، والناسُ في صراخ وضجيج

---

٦١ ـ القرآن الكريم: ج ٣٠ س ٩٨ البيِّنة: ٧.

٦٢ ـ شيعتنا: أتباعنا، السائرون على خطتنا، مؤيدونا.

٦٣ ـ جَثَتْ: (فِعل) مؤنث «جَثا»: أي ركع، أو جلس على رُكبتَيْه.

٦٤ ـ غُرّاً (جمع أغرّ): مَزهُوّين، جميلي المَظهر، مُتَباهِين ـ مُحجَّلين: لابسين الزينات، مُظهرين الزَهْوَ في البهجة ـ شباعاً مَرويين: ضد جائعين عطاشى.

٦٥ ـ القرآن الكريم، ج ٣ س ٩٨ البيِّنة: ٦.

٦٦ ـ يُبيِّتون: يُعِدُّون بصورة سرية، يُخَطِّطون متكتمين.

٦٧ ـ القرآن الكريم، ج ٥ س ٤ النساء: ٨١.

وندبة وعجيج[٦٨]، إذ أفاق النبي (ص) وعانق فَرْخَيهِ (ع) يقبلهما ويبكي بكاءً شديداً ـ وكان الحسن (ع) أشد بكاءً ـ فأخذ النبي (ص) يُسْليهما ويأمرهما بالكف عن الصريخ والبكاء، وهَمَّ أمير المؤمنين (ع) أن ينحيهما عنه، فتوجه إليه النبي وقال: «دَعْني يا علي أَشُمُّهما ويَشُمانني، وأتزوَّدُ منهما ويتزودان مني، أمَا إنهما سيُظلَمان بعدي ويُقْتَلانِ ظُلْماً، فلعنةُ الله على مَن يَظْلِمُهما»، وكرَّر اللعن ثلاثاً.

ثم دخل عليه جمع من أصحابه فيهم عَمَّار، وتقدم إليه يفديه بأبيه وأمه ويسأله عن مَن يصلّي عليه بعد موته، فقال له النبي: «مَهْ رحِمكَ الله يا عمار»، وتوجَّهَ إلى أمير المؤمنين علي وقال له: «يا ٱبنَ أبي طالب، إذا رأيتَ روحي قد فارقت جسدي، فاغسِلْني وأنْقِ[٦٩] غُسْلي، وكَفِنِّي في طَمْرَيَّ[٧٠] هذين، أو في بياض حَبرٍ ويُرْدِ يمَان[٧١]. ولا تُغالِ في كَفَني، ولا يغسلني غيرُك يا علي فيَعْمَى بَصَرُه، كذا أخبرني جبرائيل عن ربي، ويعينك على غُسلي جِبرائيلُ وميكائيلُ وإسرافيلِ ومَلَكُ الموت، وإسماعيل صاحب السماء الدنيا والفضلُ بنُ العباسِ يناولُكَ الماءَ مِن غير أن ينظر إلى شيء مني، فإنه لا يَحِلُّ ذلك له ولا لغيره، من الرجال والنساء وحرام عليهم، وإنك لا تَهُمُّ بعَضوٍ من أعضائي إلا أعانَتْكَ الملائكة عليه وعلى تقليبي؛ فإذا فرغتَ من غُسلي فضعني على لوح، وأَفرِغْ عليَّ مِن بئري أربعين قِربةً مفتحة الأفواه، ثم ضع يدك يا عليُ علَى صدري وأَحْضِر معك فاطمةَ والحسنَ والحسينَ من غير أن ينظروا إلى شيء من عُرْيِ جسمي، ثم تفهمُ عند ذلك ما كان وما هو كائن، إن شاء الله تعالى، أَقَبِلْتَ يا علي؟»؛ قال:

---

٦٨ ـ عَجيج: صياح مع مبالغة في رفع الصوت.

٦٩ ـ أنْقِ غُسْلي: أَتِمَّ غُسْلي بصورة أنيقة كاملة.

٧٠ ـ طَمْرَيَّ: ثَوبَيَّ البالِيين.

٧١ ـ بياضُ حَبْرٍ: ثوب زاهٍ لِحَبْرٍ، أي رئيس أو ذي مكانة واحترام ووجاهة ـ بُرْد يمان: ثوب يمني، والأثواب اليمنية كانت نفيسة ثمينة وافرةُ الجمال.

«نعم»؛ قال (ص): «اللّهمَّ أشهد! يا علي أضمِنتَ دَيْني تقضيه عني؟»؛ قال (ع): «نعم»؛ قال (ص): «اللّهمَّ اشهد»! ثم قال: «كَفِّني يا علي بثلاثة أثواب أحدُها يَمان، وادفِني يا علي في بيتي، فإن بيتي قبري، ولا يدخلْ قبري غيرُك»؛ قال (ع): «بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فحدد لي أي النواحي أصَيِّرُك فيه؟»، قال: «إنك مُسَخَّر بالموضع ستراه»، وسكت هُنَيهة، ثم عاد يقول: «ابيَضَّت وجوهٌ واسوَدَّت وجوه، وسَعِد أقوام وشَقِيَ آخرون! إن أصحاب الكِساء الخمسة أنا سيِّدهم ولا فَخر، وعِترَتي أهلُ بيتي هُم السابقون المُقرَّبون، سَعِدَ مَن اتَّبعَهم وشايَعَهم، على ديني أنجزتُ مَواعيدك يا ربِّ إلى يوم القيامة في أهل بَيتي، وقد اسودَّت وُجوهُ أقوام مزقوا الثَقلَ الأولَ الأعظم، وأخَّروا الثقل الأصغر، وحسابُهم على الله، يَرِدونَ نارَ جهنمَ ظِماءً مُظَمَّئين[٧٢] - ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾﴾[٧٣] - ثم قال (ص) بعد هُنَيْهَة: «مُبغِضُ عليٍ وآلِ علي في النار! ومُحبُّ عليٍ وآلِ علي في الجنة!».

وتقدم إليه بعدئذٍ عبد الله بن مسعود وقال: «يا رسولَ الله، كلُّ نَبيٍ يغسله وَصِيُّه»؛ فقال (ص): «وأنا يغسلني وصِيِّي علي بن أبي طالب»؛ قال: «كم يعيش بعدك يا رسول الله؟»؛ قال (ص): «ثلاثين سنة، كحالِ يوشع بن نون وصِي موسى، فقد عاش بعده ثلاثين سنة.

ثم عاد النبي (ص) فتوجه بحديثه إلى أمير المؤمنين علي (ع)، يوصيه بأمر دفنه بعد الغسل، وقال: «ثم احملني حتى تضَعَني على شفير قبري، فأولُ مَن يصلي عليَّ الجبارُ جلَّ جلاله مِن فوق عرشه، ثم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل في جنود من الملائكة لا يُحصي عددَهم إلا اللهُ عزَّ وجلَّ، ثم الحافُّون بالعرش، ثم سكانُ أهل سماءٍ فسماء، وصلِّ عليَّ أنت

---

٧٢ - مُظَمَّئين: مُعَطَّشين، معذَّبين بالعَطَش المفروض عليهم والمعاقَبين به.
٧٣ - القرآن الكريم، ج ٢٧ س ٥٩ الطور: ٢١.

أولَ الناس، ثم جُلُّ أهلِ بيتي يَبدأ بها الأقربُ منهم فالأقرب، ثم النساءُ ثم الصبيانُ زُمَراً زمراً، يأتمُّونَ جماعاتٍ في الصلاة عليَّ ويُسلِّمون تسليماً، ولا يؤذونني بصوتِ نادِبة[٧٤] ولا نائحة ولا مُرِنَّة، لأن الآية القرآنية التي كرَّمني الله بها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾[٧٥] إنما نَزَلَتْ في الصلاة عليَّ بعد قبضِ الله تعالى لي، فتَوَلَّ أنت أمري، ولا تفارقني حتى تُوارِيَني في رَمْسي[٧٦]، وآستعِنْ بالله عزَّ وجلَّ.

ثم دفع إليه النبيُّ (ص) شيئاً من الحَنوط[٧٧] وقال: «يا علي ويا فاطمة، هذا حَنوطي من الجنة، دفعه إليّ جبرائيل، وهو يقرأكما السلامَ ويقولُ لكما آقسماه وآعزلا منه لي ولكما، فقسماه أثلاثاً يكون لكل منا ثُلُثُه، أي ثلاثة عشر دِرْهَماً وثُلُثاً»، (لأن مجموعَهُ كان أربعين درهماً)، ثم أغمي عليه (ص) ورأسُه على صدر أمير المؤمنين (ع) إذ كان مُسنِدَه، والحسنان (ع) يقبّلان قدمَيْه ويصرخان، وفاطمة (ع) تئن أنيناً تتقطع منه القلوب، وارتفعت أصوات الناس بالضجة والبكاء، وسمعوا في البيت عويلاً ونغمة لم يعرفوا أهلها، فأخبر أميرُ المؤمنين علي (ع) أنها نغمة الملائكة.

وبينما هم كذلك، إذْ طارق يطرق باب الدار بشدة، فأقبلت فاطمة (ع) وراء الباب تسأل عنه فقال: «رجلٌ غريب أتيتُ رسول الله تأذنون لي في الدخول عليه؟»، قالت فاطمة (ع): «امضِ لحاجتك رحمك الله، فرسول الله لا يستطيع الآن»؛ ورجعَتْ إلى البيت، ولم يكن أقرب من أن أعاد الطارقُ دقَّ الباب ثانياً ثم ثالثاً بأشد مما كان، وهو يستدعي الرخصة

---

٧٤ ـ نادبة: باكية مع تعداد محاسن الميت ـ نائحة: باكية مع عويل وجزع وصراخ ـ مُرِنَّة: رافعة صوتها بالبكاء والنحيب والصياح.

٧٥ ـ القرآن الكريم، ج ٢٢ س ٣٣ الأحزاب: ٥٦.

٧٦ ـ تُواريني: (تَحجبني =) تدفنني ـ في رمسي: في قبري.

٧٧ ـ الحَنوط: طِيبٌ تُحشَى به جثة الميت، فيَمنع أو يؤخر طويلاً إصابتَها بالبِلَى.

للدخول بصوت مزعج مهيب، ينادي: أتأذنون للغرباء؟»؛ فارتعبت فاطمة (ع) من صوته وارتعدت، وأفاق النبي (ص) وعلم الحال، فأمرَ ابنته أن تأذن له وقال: «يا فاطمة، أتدرين مَن هو؟ إنه مُفرّق الجماعات ومُنغِّصُ اللذات، هذا مَلَك الموت، ما ٱستأذَنَ واللهِ على أحدٍ قَبلي ولا يستأذنُ على أحدٍ بَعدي، وإنما ٱستأذن عليَّ لكرامتي على الله! إئذني له»؛ ولما أذنت له أُشعِرَت بريحٍ هَفَّتْ[78] ودخلت البيت وقالت: «السلام على أهل بيت رسول الله».

وقد ورد عن أهل البيت (ع) ـ وهم الصادقون وأدرى بما في البيت ـ أن عزرائيل (ع) وقف بين يدي النبي (ص) وقال: «يا أحمد، إن الله أرسَلَني إليك وأمرني أن أطيعك في ما تأمرُني، فإن أمرتَني بقبضِ نفسك قبضتُها، وإن كرهتَ ذلك تركتُها»؛ فاستمهله النبي (ص) إلى أن يأتِيَهُ جبرائيل (ع)؛ فعَرَجَ مَلَكُ الموت إلى السماء، ولقيَ في عروجه جبرائيلَ نازلاً، ومعه إسماعيلُ ملك السماء الدنيا والهواء، وسبعون ألف ملك غيره، فسأله جبرائيل (ع) عن قبض روح النبي (ص)، فقال عزرائيل (ع): «إنه ينتظرك»؛ فنزل جبرائيل (ع) بمن معه وانتهى إلى النبي (ص)، وقال له: «إن الله تَباركَ وتعالَى اشتاق إلى لقائك ويقول لك: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾»[79].

وقد قيل مَروِياً عنهم (ع) أيضاً، أنه لما هَبَطَ عليه جبرائيل (ع)، طلبَ منه النبيُ (ص) أن يبشره ببشارة يَزول بها هَمُّه، فبشره بفتحِ أبواب السماوات السبع، وقيامِ أفواج الملائكة سكانها صفوفاً صفوفاً انتظاراً لعروج روحه المقدسة إلَى الملأ الأعلى، كي يَتلَقَّوْهُ ويسلموا عليه، فلم يعبأ النبي (ص) بذلك، وبقيَ على همِّهِ وكآبة وجهه، وأعاد قوله: أخي

---

٧٨ ـ هفَّت الريح: هبَّت مع صوت مسموع.

٧٩ ـ آية قرآنية كريمة، ج ٣٠ س ٩٣ الضُحَى: ٤.

جبرائيل، بشِرْني ببشارة يزول بها هَمْي ويَنْفرج بها كَرْبي، فعرج جبرائيل (ع) إلى الملأ الأعلى، ثم عاد إليه وبشَرَهُ بفتح أبواب الجنان، وتَزَيُّن الحُورِ والغِلمانِ فرحاً بقدوم نفسه المقدسة، وبشره بتغطية أبواب النيران.. وغير ذلك من وجوه تكريماته، ولكن النبي (ص) بقي على ما هو عليه من الكآبة والحزن، وظَلَّ يستدعيه ثانياً وثالثاً بقوله: «بشرني بما يزول به هَمِّي» إلى أن سأله جبرائيل (ع) عما يُهِمه، فقال (ع): «أُمتي أمتي»؛ فعرَجَ الأمينُ إلى السماء، ثم هبط عليه وقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾[80] أي مِن الشفاعة لهم، ففَرِحَ (ص) وقال: «الآن طابَ ليَ الموت»؛ ثم توجه إلى عزرائيل (ع) وقال له: «إمضِ لما أُمِرْتَ به»؛ فتوجه جبرائيل (ع) إلى النبي باكياً وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾[81]؛ يا محمد، هذا آخِرُ هُبوطي إلى الدنيا، وإنما كنتَ أنتَ حاجتي فيها».

ودعا النبيُ (ص) الحَسَنينِ (ع) يُقبِّلُهما ويَشُمُّهما ويرشف[82] شفتيهما، وعيناه تَهمُلان[83] بالدموع ويقول لهما: «سَتَلْقَيانِ من بعدي زِلْزالاً وأمراً عُضالاً[84]، فلعن الله مَن يَحفيكُما[85]! اللّهمَّ إني أَسْتَوْدِعُكَهُما وصالحَ المؤمنين»! ثم مدَّ يَدَه نحو أمير المؤمنين (ع)، وجذبه إليه حتى أدخله تحت الثوب الذي كان عليه، ووضع فمه على أُذُنه وناجاه طويلاً، ثم مد أمير المؤمنين كفَّهُ اليُمنَى تحت حَنَكِ النبي (ص)، وفاضَتْ نفسه الشريفة في كف علي (ع)، وجبرائيل (ع) عن يمينه وميكائيل (ع) عن يساره، ثم انْسَلَّ أمير المؤمنين (ع) من تحت الثوب، ومسح وجهه بكفه التي كانت تحت

---

٨٠ - ج ٣٠ س ٩٣ الضُحَى: ٥.

٨١ - القرآن الكريم، ج ٢٣ س ٣٩ الزُمَر: ٣٠.

٨٢ - يَرْشُف: يَمُصّ.

٨٣ - تَهمُلان (بالدموع): تفيضان.

٨٤ - عُضالاً: شديداً، صعباً حَلُّهُ، قاسياً جداً.

٨٥ - يَحفيكما: يُزري بكما، يؤذيكما.

حَنَك النبي، ومد عليه إزاره، ثم توجَّهَ إلى الناس وقد كَئِبَ[86] وجهه، واحمرت عيناه من البكاء وغارتا في أم رأسه يقول: «أعظمَ الله أجوركم في نبيكم، فقد قبضه الله إليه»؛ فارتفع الصراخ من كل ناحية، وضجَّت المدينة بأهلها، وارتجت أكناف الأرض وآفاق السماء بما فيها، وفُتِحت أبواب المَلَكوت الأعلى، واصطفت الملائكة بأصنافها صفوفاً صفوفاً يتلقون روح رسول الله (ص)، وزُخرِفَت الجِنان، وتزينت فيها الحُور، استبشاراً بمقدمه الشريف، وكان ذلك على المشهور الصحيح مساء يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر صفر من السنة الحادية عشرة قبل غياب الشمس، وإذا صوتٌ بالباب يُسمَعُ ولم يُرَ صاحبه يقول برفيع صوته:

السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله! كلُ نفس ذائقةُ الموت، وإنما تُوَفَّون أجورَكم يوم القيامة! إن في الله عزاء من كل مصيبة، وخَلَفاً من كل هالك، ودَرْكاً من كل ما فات، فبالله ثِقُوا وإياه فَارْجُوا، فإن المُصابَ هو مَن حُرِمِ الثواب! وأستغفر الله لي ولكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

فقال أمير المؤمنين (ع): «هذا هو الخَضِرُ (ع) يعزيكم بنبيكم»؛ ثم أخذ في تجهيزه، ودعا الفضلَ بن العباس وعصبَ عينيه، وأمره أن يناوله ماء الغُسل؛ ومدَّ النبيَّ (ص) على المُغْتَسَل مُغطّى بثوب، ووضع خدَّيه على ظَهرِ قدمَي النبي (ص)، وجعل يصرخ ويقول: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله! صلّى الله عليك، طِبْتَ حياً وطبت مَيْتاً، انقطعَ بموتك ما لم ينقطع بموت أحد، خُصِصْتَ حتى صرت مُسْلياً عمَّن سواك، وعمَّت مصيبتك الأنام، حتى صار الناس فيك سَواء، ولولا أنك أمَرتَ بالصبر ونهيت عن الجَزَع، لأنفدنا عليك ماء الشؤون[87]، ولكان الداء مُماطِلاً والكَمَد محالِفاً»؛ ثم اشتغل بغسله من تحت قميصه من غير أن يكشف عنه، إلى أن

---

٨٦ ـ كَئِبَ: صار كئيباً، أي حزيناً.

٨٧ ـ ماء الشؤون؟ لا نستبعد أن تكون: ماء العيون.

حَنَّطه وكفَّنه، وجبرائيل يُعينه على كل ذلك ليس معه غيره، ثم وضعه في حجرته وحيداً، لصلاة الله تعالى وملائكته عليه، وتقدم بعدئذٍ بنفسه (ع) وصلّى عليه، ثم أمر نساءه وأهل بيته وسائر الناس بعده أن يدخلوا عليه عشرة عشرة، يطوفون حوله وينادون وهم يخرجون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾[88] و «إن الله وملائكته يصلون على النبي..كان هو (ع) مُلازماً الباب تعبيراً عن شكر لهم وتقدير، إذ سُمع في الجو صوتٌ مُنادٍ يعزيهم عن الله سبحانه يقول: «السلام عليكم أهلَ البيت ورحمة الله وبركاته! إن في الله عزاءً مِن كل مصيبة، ونَجاةً من كل هَلَكَة، ودَرْكاً لما فات! كلُ نفسٍ ذائقة الموت، وإنما تُوَفَّوْنَ أجورَكم يومَ القيامة، فمن زُحْزِحَ عن النار وأُدخِلَ الجنةَ فقد فاز، وما الحياةُ الدنيا إلا مَتَاعُ الغرور!

إن الله اختارَكم وفضَّلكم وطهَّركم وجعلَكم أهلَ بيتِ نَبيِّه، واْستودَعَكم عِلْمَه، وأورثكم كتابَه، وجعلكم تابوتَ علمه، وعَصَا عِزه، وضرب لكم مَثلاً مِن نُوره، وعَصَمَكم مِن الزَلَل، وآمَنَكم من الفِتَن، فتَعَزَّوا بعزاء الله، فإن الله لن يَنْزَعَ مِنكم رحمتَه، ولن يُزيل عنكم نعمته، فأنتم أهلُ الله عزَّ وجلَّ الذين بهِمْ تمَّتِ النعمة، واجتمعت الفرقة، واْئتَلَفَت الكلمة، وأنتم أولياؤه، فمن تَوَلَّاكم فاز، ومن ظَلَم حقَكم زَهَق، ومودتُكم من الله واجبة في كتابه على عباده المؤمنين، ثم اللهُ على نصركم إذا يشاء قدير؛ فاصبروا لعواقبِ الأمور، فإنها إلى الله تصير! قد قَبِلَكُم الله من نَبيّه وديعة، واستودعكم أولياءه المؤمنين في الأرض، فمَن أدى أمانتَهُ آتاه الله صدقة، فأنتم الأمانةُ المُستودَعة، ولكم المَوَدَّةُ الواجبة والطاعة المفروضة، واللهُ قبضَ رسولَه وقد أكملَ لكم الدين، وبيَّن لكم سبيلَ المخرج، فلم يترك لجاهلٍ حُجَّة، فمَن جَهِلَ، أو تجاهل، أو أنكر، أو نسي، أو تناسَى، فعلى

[88] ـ آية قرآنية كريمة ج ٢٢ س ٣٣ الأحزاب: ٥٦.

اللهِ حِسابُه، واللهُ مِن وراء حوائجكم، وأستودعكم الله! وٱعلَموا أنَّ أهلَ الأرض يموتون، وأن أهلَ السماء لا يَبقُون، والسلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته».

ثم ٱستدْعَى أميرُ المؤمنين (ع) أبا طلح زَيدَ بن سهل الذي كان يحفر القبور للمَوْتَى من أهل المدينة، وأَمَره فحفر قبراً للنبي (ص)؛ ولما كان اليوم الثالث من وفاته (ص)، وكان يوم أربُعاء وقد كملت صلوات الناس عليه، حمله أمير المؤمنين والعباس وابنه الفضل إلى شفير[89] قبره، ونزل علي (ع) في الحفرة، وتناول جثته الشريفة، ثم مده في قبره تجاه القبلة، وكشف عن وجهه ووضع القسم الأيمن من خَدَّيْه على الأرض، ولم يحضر كثير من الناس دفنه ولا الصلاة عليه (ص) لِما وقع بينهم من الجدل واختلاف الرأي في أمر الخلافة ومَن يتولى أمور المسلمين والشريعة بعد الرسول (ص)، إلى أن بادر بعض منهم بالبيعة لأبي بكر وتبعهم الباقون، قبل فراغ أمير المؤمنين من أمر تجهيز النبي ودفنه.

ولما خرج أمير المؤمنين (ع) من القبر، ووَضَع اللَّبِنَ[90] وأهالَ عليه الترابَ، وأخذ يعمل برفشه[91] شِبْهَ حائطٍ حول القبر، إذ أتاه رجل وقال له: «يا أمير المؤمنين، إن القوم قد بايعوا أبا بكر، ووقعت الخِذْلَة[92] في الأنصار لاختلافهم، وبادَرَ الطُّلَقاءُ[93] بالعقد للرجل خوفاً من إدراككم الأمر»؛ فاستوى علي (ع) متكئاً على رَفْشِه وقال: «بسم الله الرحمان

---

٨٩ ـ شفير (قبره): حافة...

٩٠ ـ اللَّبِن: الطين المُجَفَّف على صورة مُرَبَّع ـ أو: مربعات ـ ليصبح صالحاً (كالأحجار المربعة) للبناء؛ واحدته: لَبِنَة.

٩١ ـ الرَّفْش: لوحة حديدية لجرف التراب أو الأوساخ، مرتبطة بعصا خشبية لحملها، وتسمَّى أيضاً: مِسْحاة.

٩٢ ـ الخِذْلَة: الشعور بعدم وجود الناصر أو المؤيد أو المعين.

٩٣ ـ الطُّلَقاء: أهل مكة خاصة، لقب أُطلِق عليهم.

الـرحـيـم.. ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾[94].

ثم رجع (ع) إلى منزله، ليشتغل بجمع القرآن وتنفيذ الوصايا، والبكاء والندبة على رسول الله (ص)، إذ أقبل أبو سفيان على باب داره، يناديه برفيع صوته ويدعوه للخروج بمن معه على القوم ومخاصمتهم، وأنشأ يقول:

لا تُطْمِعُوا الناسَ في نَزْعِ الخِلافَةِ مِنكُمُ ... ولا سِيَّما يَتْمَ بنَ مَرَّةَ أو عَدِيّ
فَما الأمرُ إلا فيكُمُ وإليكُمُ ... وليسَ لها إلا أبو حَسَنٍ عَلِيّ
أبا حَسَنٍ فاشْدُدْ بها كَفَّ حازِمٍ ... فإنكَ بالأمرِ الذي تَبْتَغي مَلِيّ

ثم نادى برفيع صوته: «يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، أرضيتم أن يَليَ عليكم أبو فصيل الرُّذُل[95]؟ أما واللهِ لئن شئتم لَأَمْلأَنَّها عليهم خيلاً ورجالاً»؛ فطرده أمير المؤمنين (ع) وقال له: «ارجع يا أبا سفيان، فواللهِ ما تريد اللهَ بما تقول، وما زلتَ تكيد للإسلام وأهله، ونحن مشاغيل برسول الله، ولِكلِ امرىءٍ ما اكتسب، وهو وَليُّ ما احتقب[96]!»؛ ثم جلس يرثي النبي (ص) بقوله عليه السلام:

الموتُ لا والِداً يُبْقي ولا وَلَدا ... هذا السبيلُ إلى أن لا تَرى أَحَدا
هذا النبيُّ ولم يَخْلُدْ لأُمَّتِهِ ... لو خلَّدَ اللهُ خَلْقاً قَبلَه خَلَدا
الموتُ فينا سهامٌ غيرُ خاطِئَةٍ ... مَن فاتَهُ اليومَ سهمٌ لم يَفُتْهُ غَدا

وكان (ع) كثيراً ما يخرج إلى القبر الشريف صارخاً باكياً، أو يجلس في البيت حزيناً نادباً، ويرثي النبي بأشعار منها قوله (ع):

---

٩٤ ـ القرآن الكريم، ج ٢٠ س ٢٩ العنكبوت: ١ إلى ٤.

٩٥ ـ أبو فصيل الرُّذُل: رأس فريق الأراذل،... الرديئين،... المحتقرين.

٩٦ ـ احتَقَبَ: جمَعَ، أعدَّ + ادَّخرَ + فَعَلَ.

نَفسي على زَفَراتِها محبوسَةٌ يا لَيْتَها خرجَتْ مع الزَفَراتِ
لا خَيْرَ بَعدَكَ في الحياة وإنما أبكي مَخافَةَ أنْ تُطولَ حياتي

ومنها قوله (ع):

إذا ٱشتدَّ شَوقي زُرتُ قبرَكَ باكياً أنوحُ وأشكُو لا أراكَ مُجاوِبي
فيا ساكنَ الصحراءِ علَّمتني البُكا وذِكْرُكَ أنساني جميعَ المصائبِ
فإنْ كنتَ عني في التراب مُغَيَّباً فما كنتَ عن قلبي الحزينِ بغائبِ

وكذلك قوله (ع):

كـنـتَ الـسَـوادَ لِـنـاظِـري فـبَـكَـى عـلـيـكَ الـنـاظِـرُ[97]
مَـن شـاءَ بَـعـدَكَ فـلْـيَـمُـتْ فـعـلـيـكَ كـنـتُ أحـاذِرُ

إلى غير ذلك من أبياته وأبيات الصِدِّيقة فاطمة (ع)، وما سُمِع أيضاً من أبياتٍ منسوبة إلى الجن وغيرهم في مراثيه (ص).

هذه خلاصة مهمات حياته وغزواته، فلنشرع الآن في سائر ما يتعلق به على نحو الإجمال فنقول: أما زوجاته (ص) فاعلم أنه تزوج (ص) مدة حياته (ص) بخمس عشرة لم يكن فيهن بكر غير عائشة بنت أبي بكر (رض)، وفارق اثنتين منهن قبل أي تَماسٍّ بهما، وهما أسماء بنت النعمان وفاطمة بنت شريح.

أما فاطمة فهي اختارت الدنيا وفراق النبي (ص) حينَ خيَّرها وسائر نسائه بين الإقامة عنده مع أجور الآخرة، وبين مفارقته رغبةً في تحصيل الدنيا. وكان قد نزل عليه الأمر في تخيير نسائه بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٢٩﴾[98]. ففارقَها النبي (ص) من غير تماس،

---

٩٧ ـ وفي رواية ثانية لهذا الشطر من الشعر: فَعَليكَ يبكي الناظِرُ.

٩٨ ـ القرآن الكريم، ج ٢١ س ٣٣ الأحزاب: ٢٨ و ٢٩.

وآلَ أمرُها إلى ٱلْتقاطِ البَعْر[٩٩] لتحصيل معيشتها، فكانت تقول: «أنا الشقية، اخْتَرتُ الدنيا، فحُرِمتُ الدنيا والآخرة كليهما»؛

وأما «أسماء». فإنها لما دخلت على النبي (ص)، قالت: «أعوذ بالله منك»؛ فَعَلَت ذلك بتعليم اثنتين من زوجات النبي لها احتيالاً عليها، فغضب النبي (ص) بمقالتها، وفارقها من غير مقاربة، وقال (ص) لها: «إلحَقي بأهلك فقد أَعَذْتُك»؛ وعليه فلم تكن أزواجه إلا ثلاث عشرة:

أولاهن وأفضلهن: خديجة (ع)، وقد سبق شرح زواجها، وثانيتهن: سودة، أخذها بعد هلاك زوجها الحَبَشي النصراني؛ ثم تزوج (ص) بعائشة بنت أبي بكر قبل الهجرة بسنة، وكانت يومئذٍ بنت سبع سنين، وقاربَها بعد الهجرة بسنة، أي بعد إكمالها تِسعَ سنين؛ وكان عمرها عند وفاة النبي (ص) ثماني عشرة سنة، وعاشت إلى أيام إمارة معاوية وقد قاربت السبعين.

ثم تزوج (ص) في السنة الثانية من الهجرة ـ أي بعد معركة «بدر» بسنة ـ بأم سلمة.. هند بنت عاتكة بنت عبد المطلب بعد انقطاعها عن زوجها أبي سلمة، ثم أخذ (ص) حَفْصَةَ بنت عمر بن الخطاب (رض) بعد انقطاعها عن زوجها خنيس السهمي.. ثم تزوج (ص) بابنة عمته زينب بنت جحش، حفيدة عبد المطلب، بعد أن طلقها زوجها زيد، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[١٠٠] إلخ؛ ..ثم تزوج (ص) بجُوَيْرِية بنت الحارث.. ثم بأم حبيبة بنت أبي سفيان أخت معاوية، في السنة السادسة من الهجرة.. ثم بصفية بنت حي بن أخطب اليهودي، بعد أن أُسِرَتْ وأسلَمَت في السنة السابعة.. ثم بميمونة بنت الحارث، خطبها له

---

٩٩ ـ البَعْر: قذارة طعام المعدة عند بعض الحيوانات مثل الجَمَل والغَنم، تخرج كحبوب مستديرة.

١٠٠ ـ ج ٢٢ س ٣٣ الأحزاب: ٣٧.

جعفر بن أبي طالب (ع)، وهي أخت زوجة العباس عم النبي (ص).. ثمَ بزينب بنت خزيمة.. ثم بزينب بنت عميس.. ثم بخولة بنت حليم التي وهبت نفسها للنبي (ص)، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ إلخ[101]. وكان له (ص) جاريتان: مارية القبطية (أم إبراهيم) ورَيْحانة الخندفية، أهداهما له بعض الملوك، وتوفي (ص) عن تسع من أزواجه، ولم يتزوج (ص) بمن تزوج إلا لِحِكَم ومَصالح لا يسع المقام شرحها، ولا عارَ عليه (ص) في الزواج كجده الخليل (ع) وسائر الأنبياء (ع)، ولم يولَد له (ص) من غير خديجة (ع) إلا إبراهيم (ع) من مارية، ومات إبراهيم وكُل إخوته الصبيان الثلاثة: الطاهر، وعبد الله، والقاسم في حياة أبيهم رسول الله. وأما بناته الأربع من خديجة (ع)، فماتت ثلاث منهن في حياته (ص): رُقَيَّة أولاً، وبعد وفاتها أختها أم كلثوم ـ وكانتا تحت عثمان بن عفّان ـ وزينب أم أمامة؛ ومات النبي (ص) عن واحدة هي فاطمة أم الحسنين (ع).

وأما أسماؤه وألقابه وكناه (ص) فكانت:

محمد، وأحمد، والشاهد، والداعي، والهادي، والرحيم، والبشير، والنذير، والشهيد، والنبي، والرسول، والأمي، والأمين، والمكين، والمبين، والمذَّكِر، والذِكْر، والمُزَّمِل، والمُدَّثر، والرؤوف، والضُحَى، والليل، والنجم، والشمس، وطه، ويس، وكهيعص، وحم عسق، وأمثال ذلك مما ورد في تفاسير أهل البيت (ع)، وله أسماء مختلفة وألقاب كثيرة في سائر الكتب السماوية، وقد روي عنهم (ع) أن له أسماء كثيرة غير ذلك، مكتوبة بقلم القدرة، على كل من المخلوقات العُلوية والسفلية، حتى على أجنحة الطيور، وعلى الجبال والصخور، وعلى باب الجنة، وأنه يُعرَف عند كل قوم من الأمم الماضية والقرون السالفة باسم خاص، وكذا عند أصناف

---

١٠١ ـ ج ٢٢ س ٣٣ الأحزاب: ٥٠.

الملائكة والجان والشياطين وغيرهم، بما يطول المقام بشرحها.

وأما نسبه وشمائله (ص):

فهو من جهة الأب هاشمي، ومن الأم زهري، ومن الرضاع سعدي، والميلاد مَكي، والهِجرة مَدَني، والوصف عربي؛ وكان(ص) فخماً مفخماً، عظيماً في الصدور، معظماً في العيون، يتلألأ وجهه كالبدر، أطولُ من المربوع القصير، وأقصر من المهزول الطويل، عظيم الهامة، على رأسه عمامة، بين كتفيه علامة، تُظَلِّلُه غَمامة، أنْجلُ العينين، واسع الجبينين، واضح الخدين، طويل الحاجبين، بعيد ما بين المنكبَين، طويل الزَنْدَين، أشعر الذراعين، أقْنَى الأنف[١٠٢]، مُفْلَج الثنايا[١٠٣]، أزهر اللون، خشِن الكف والقدم، كَثُّ اللحية، كبير الفم، ضخم العَظمِ والكراديس[١٠٤]، سواء البطن والصدر، تامُّ الخِلقة والأعضاء، غير مسترخي اللحم ولا كثيره، كبير الكف، كثير العطاء، ممتد العظام في الساقين والذراعين؛ وكان باطنُ قَدَمَيه كثير الارتفاع عن الأرض، لم يكن على ظاهرهما كثير لحم؛ يمشي بسكينة ووقار، من غير تكبر ولا استعجال، واسع الخُطَى، وكان أصحابه يسرعون في المشي ولا يلحقونه، وكان مَشْيُه كمن يمشي في مُنْحَدَر، إذا ٱلتَفَت التفت بجميع بدنه، وكان خافِض الطَرْف[١٠٥] وجُلُّ نَظَره إلى الأرض، يُبادِرُ مَن لقيه بالسلام، وكان عَرَق وجهه كاللؤلؤ، أطيب من المسك، وكان أكرم الناس عِشرةً وألْيَنهم عريكة[١٠٦]، وأجودهم كفاً، لا لئيماً ولا

---

١٠٢ ـ أقْنَى الأنف: مرتفع الأنف.

١٠٣ ـ الثنايا: الأسنان الأثنينية في مُقَدَّم الفم، اثنان من فوق، واثنان من أسفل ـ مُفْلَج: منشطر، مفتوح، منشق ـ مفلج الثنايا: أسنانه الأمامية في الفم مفتوحة، أو منفرجة، علامة التبسم، هو مفلج الثنايا: كثير الابتسام.

١٠٤ ـ الكراديس: جمع كردوسة: كل مفصل يلتقي عنده (أو عليه) عَظمان.

١٠٥ ـ الطَرْف: العين.

١٠٦ ـ ألْيَنهم عريكة: أفضلهم خلقاً، أسْلَسُهم معاملة.

عاجزاً ولا بخيلاً، مَن خالَطَهُ بمعرفةٍ أحبه، ومن رآه بَديهةً هابه؛ وكان (ص) عريضَ الصدر والجبهة، طويلَ العُنُق، حسَنَ الوجه، قطط الشعر، دائمَ الفكر، قليل الكلام، إلا في موضع الحاجة، يتكلم بجوامع الكلم فصلاً، ليِّن الخُلُق، لا غليظ الطبع ولا حقير النفس؛ لا يُهينُ مَن جالَسَه، ولا يستصغر شيئاً من النعم ولا يذمه، ولا يَصِفُ ما ذاقه من الطعام بِطيبٍ ولا بشاعة؛ لا يغضب إلا للحق، وإذا غضب للحق لم يَقُم لغضبه شيء حتى ينتصر له؛ وكان يعرض عن مَن غضب عليه، من غير فُحش ولا سَبْ، وإذا فرح غَضَّ طرفه، وإذا ابتسم بَدَتْ أسنانُه من غير قهقهة، ولا صوتَ لضحكه، يُكرِمُ كريمَ كل قومٍ ويتفقد أصحابه، فمن كان منهم غائباً دعا له، ومن كان شاهداً زاره؛ ومَن كان منهم مريضاً عاده، وكان يُؤلِّفُ بينهم ويألفُهم ولا يُنَفِّرهم، وكان يأمرهم بالمواساة والمؤازرة والنصيحة وكلِ مَعروف، ويَنهاهم عن المنكرات وكل قبيح وعن كل سوء، وكان (ص) كثيرَ الذِكْر لله في قيامه وجلوسه وسائر أحواله، وإذا دخل مجلساً لا يتخذ لنفسه موضعاً خاصاً يُعْرَفُ به، بل يجلس أينما كان منه؛ وكان مَجلسُه مجلسَ حِلم وحَياءٍ وصِدقٍ وأمانة، لا تُرفَعُ فيه الأصوات، ولا يُعاقَب فيه أَحَد، ولَا يَسبق جلساءَه في الانصراف عنهم، وكان (ص) متواضعاً متواصلاً، يُوَقِّر الكبير، ويرحم الصغير، ويُؤْثر صاحبَ الحاجة حتى يُرجعَهُ بحاجته أو بميسور من القول، ويُؤوِي الغرباء، ويصبر على هَفَواتهم وجَفْوَتهم في المسألة والمنطق، ولا يقطع الكلام على أحد من جلسائه، لا يخيب منه مؤمِل ولا ييأس منه راجٍ، وإذا تكلم أنصتَ له جُلَساؤه وأطرقوا كأن على رؤوسهم الطير، هَيبَةً منه وإجلالاً له، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا لإطاعته، وإذا توضأ أو بصق أو تنخَّم[١٠٧] ابتدروا يتلقون بُصاقَه ونُخامَته وما يقطر من مواضع وضوئه، فيدلكون بها وجوههم

---

١٠٧ ـ النُّخامة: ما يَنزِل من الأنف: المخاط.. أو من الصدر عن طريق الفم: الريق ـ تَنَخَّم: أنزل النخامة من أنفه أو فمه.

وأجسادهم؛ وإذا حلق الحلاق رأسه الشريف، أحاطوا به كالحلقة يتسابقون على اختطاف شعراته، وربما تشاجروا في ذلك حتى لا تقع شعرة منه إلا في يد واحد منهم، وإذا أتوا إلى بيته، يقرعون بابه بالأظافر توقيراً له وتعظيماً، وربما أرعد بعضهم من هيبته (ص) عند الجلوس بين يديه، مع ما كان فيه أو رغم ما كان فيه (ص) من التواضع لهم، ولِين العريكة معهم، والمجالسة والمؤاكلة مع فقرائهم، والمزاح مع أدناهم؛ وقد أدَّب اللهُ تعالى عبادَه ونهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي (ص) والجهر معه في الكلام، بقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾[108] إلخ، ومدحَ أقواماً يَغُضّون أصواتهم عنده بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾[109]، ثم ذمَّ الله تعالى قوماً كانوا ينادونه من وراء الحجرات ـ وهم الجُفاةُ من بني تَميم ـ إذ أنهم حين لم يكونوا يعلمون في أي حجرة من حجراته هو (ص)، كانوا يطوفون عليها ينادونه برفيع أصواتهم يقولون: «يا محمد، أخرج إلينا»؛ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾[110]؛ ولما أكثرَ الناسُ في النجوى مع رسول الله (ص) يفتخرون بذلك على غيرهم لدرجة أن تأذى النبي (ص) بذلك، أوجب الله تعالى على من يريد النَّجْوَى مع نبيه (ص) أن يتصدق بشيء (لا أقل مِن دِرهَم) على الفقراء قبل النجوى معه حتى يباح له ذلك، فقال جلَّ جلاله ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾[111].. وفي ذلك تخفيف عن النبي (ص)، وعن إيذائه بكثرة الاختلاء به، كما أن فيه نفعاً للفقراء، واختباراً للناس، وتميزاً للبخيل من غيره

---

١٠٨ ـ القرآن الكريم: الجزء ٢٦، السورة ٤٩ الحجرات، الآية: ٢.

١٠٩ ـ ج ٢٦، س ٤٩ الحجرات: ٣.

١١٠ ـ ج ٢٦، س ٤٩ الحجرات: ٤.

١١١ ـ القرآن الكريم، ج ٢٨، س ٥٨ المجادلة: ١٢.

وبياناً لفضلِ الفضيل منهم بأداء الصدقة للنجوى، فلم يعمل بهذه الآية إلا أمير المؤمنين علي (ع)، فإنه تصدق بعشرة دراهم للنجوى مع رسول الله (ص) عشر مرات، ثم نُسِخَت الآية بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[112] وكان بعض بني تميم يتقدمون عليه في المشي، فنهاهم الله عن ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[113].

وكان الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) كثير الدعابة والتبسم، ولكنه إذا ذُكر عنده النبي (ص)، اصفرَّ لونُه الشريف هيبة لِذكره (ص)؛ وما كان يُحدِّث عن جده النبي (ص) إلا على طهارة، وإن أعمال العباد بأجمعهم أبرارهم وفجارهم تعرض كل يوم على رسول الله (ص) وخلفائه (ع)، وذلك قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[114].

ولقد كان الرسول (ص) ثابتاً في الشدائد، صابراً على البأساء والضرّاء، زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة، وقد قُبِضَ[115] (ص) ودِرعُه[116] مرهونة عند رجل من يهود «المدينة» بعشرين صاعاً[117] استسلفها نَفَقةً لأهله، وإنه لم يُورِث ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا وليدة[118] ولا شاة[119] ولا بعيراً[120]، مع ما سخر الله له من خزائن الملوك، وأموال

---

١١٢ ـ ج ٢٨، س ٥٨ المجادلة: ١٣.
١١٣ ـ ج ٢٦، س ٤٩ الحجرات: ١.
١١٤ ـ ج ١١، س ٩ التوبة: ١٠٥.
١١٥ ـ قُبِض: فاضت روحه، تُوُفي (ص).
١١٦ ـ الدرْع: (بكسر الدال): قميص، أو ثوب من معدن (حديد أو ما يقاربه) يُلْبَس وقايةً من السهام أو السيوف.
١١٧ ـ الصاع: مكيال، أحد أنواع المكاييل القديمة.
١١٨ ـ الوليدة: ابنة العبدة المملوكة (وهي كأمها مُلْك لمالِكِ أمها).
١١٩ ـ شاة: (المذكر والمؤنث): صغير الغَنَم.
١٢٠ ـ البعير: الجَمَل، المكتمل سناً.

الصناديد[١٢١] والأكابر والأثرياء، وأباح له من الغنائم، ومنَّ عليه بخزائن الأرض، فقد نزل عليه جبرائيل (ع)، وعرض عليه بأمر الله أن يأخذ مفاتيحها، ويتملك ثرواتها المخزونة تحت الأرض إن أحب ذلك، من غير أن ينقص شيء قَطّ من درجاته في الجنة، ولا من مقامه عند ربه، فلم يختر (ص) إلا أن يكون فقيراً في المال، يجوع يوماً فيناجي ربه، ويشبع يوماً فيشكر مُنعِمَه.

وكان ـ (ص) ـ موصوفاً لَدَى المُوالِف[١٢٢] والمخالِف بأنه: أمينٌ، صَدُوقٌ، حاذق، أصيل، فصيح، بليغ، نَصوح، مَكين، عاقل، فاضل، عابد، سَخِيٌّ، قانع، حليم، غيور، رحيم، صبور، كريم، ولم يكن له ظِلٌّ في الشمس ولا في القمر، وكان يغلب نُورُه نُورَيهما، وكان وجهه في الليلة الظلماء ينير كالبدر، حتى أن عائشة (رض) وجدت يوماً إبرة لها بنوره عند دخوله عليها في غسق الليل

وكان بقدرة الله تعالى يرتفع بالرأس والرقبة على كل مَن يصاحبه عند سيره، طويلاً كان صاحبه أو قصيراً، ولم يشم مدة حياته رائحة كريهة، ولا كان يطير فوقه طائر، ولم يجلس عليه ذُباب، ولم تَدْنُ منه هامَّة ولا سامَّة[١٢٣].

وكان (ص) يتكلم بلغات عِدَّة، ويسمع كلام جلسائه في المنام كما كان يسمعه في اليقظة، فتنام عيناه ولا ينام قلبه؛ وكان (ص) يخبر بالمغيبات وبما يخطر في نفوس الناس. وقد دخل عليه يوماً أبو سفيان وهو يحث نفسه ويضمر الخطاب للنبي (ص) بأن يقول له: «يا ابن أبي كَبْشة، واللاتِ والعُزَّى، لَأَمْلَأَنَّها عليك خيلاً ورجالاً، وإني لَأرجو أن

---

١٢١ ـ الصَناديد (جمع صِنديد): السادة الشجعان، والمسيطرون.

١٢٢ ـ المُوالِف: المؤيد، المُوالي.

١٢٣ ـ (الحشرات) الهامَّة: المؤذية الضارة دون أن تؤدي إلى الموت ـ والسامَّة: الخطرة المؤدية إلى الموت.

أرقى هذه الأعواد»؛ فأطّلع النبي (ص) على ما أخطره بقلبه، ورد عليه قائلاً (ص) له: «ويكفينا اللهُ شرْكَ يا أبا سفيان».

وكان خاتم النبوة بين كتفيه مثل بيض الحمام وحوله شعرات، وكان مكتوباً عليه في خلقته كلمة التوحيد والرسالة، ولما توفي (ص) رفع الخاتم عنه. ومما جاء عنه (ص) من الأوصاف الكثيرة في كتب التاريخ والسيرة النبوية، أنه ما أجنب في المنام قط، ولم تُشَمَّ منه رائحة كريهة على الإطلاق، ولم تَهْرَم دابةٌ رَكِبها، وكانت الأشجار تسلم عليه عند مروره عليها، كان لا يَبِينُ لِقدميه أثر في الأرض السهلة إذا مَشى عليها، وأما الأرض الصلبة فكانت تَلين لقَدَمِهِ الشريفة ويظهر عليها أثر مَشْيِهِ؛ وكان على كتفيه شعر مجتمع، وفي رأسه ولحيته نحوٌ من عشرين شعرة بيضاء وعلى شفته السفلى خال ولم يشبع ثلاثة أيام متوالية من خبز بُرّ[١٢٤].

وكان (ص) يرقع ويَخْصِف[١٢٥] نَعْله بيده، ويركب الحمار العاري[١٢٦] ويُردِف خلْفه[١٢٧]، ويتعاطف مع الناصح، ويجيب الدعوة، ويجلس على الأرض جلسةَ العَبد، ويأكل وينام عليها، ويَقبَل عُذْرَ مَن اعتذر إليه، حتى قيل فيه إنه أُذُن أي أنه يقبل الشيء وعكسه ويوافق على الحسن والقبيح، لأن الأذن تسمع الكثير من الأشياء المختلفة بل وحتى المتضادة حُسناً وقبحاً، وقد أشار الله جلَّ جلاله إلى هذا الحكم عليه في كتابه الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾[١٢٨].

---

١٢٤ ـ البُرّ (بضم الباء): القمح.

١٢٥ ـ يَخْصِف: يُعالِج ويصلح ـ نعله (المتضرر، الذي به عَطَب أو نقص) حتى يعود سليماً صالحاً كزميله (النعل الثاني).

١٢٦ ـ الحمار العاري: الحمار الذي ليس على ظهره بَرْدَعة يجلس عليها الإنسان، فيجلس على لحم الحمار مباشرة.

١٢٧ ـ يُردِف خَلْفَه: يُركِب خلفه شخصاً آخر معه.

١٢٨ ـ القرآن الكريم، الجزء١٠، السورة ٩ التوبة: الآية ٦١.

وقد اَستَجْلَبَ (ص) بحُسْن خُلُقِه كثيراً من الكفار إلى دينه، وكان ليهودي عليه دنانير، فطلبها منه في بعض الطريق، فقال (ص): «ما عندي الآن ما أعطيك»؛ قال اليهودي: «إذن لا أفارقك حتى تقضيني»؛ قال (ص) إذن: «أجلس معك»؛ فجلس معه حتى صلّى في موضعه الظهرين والعشاءَين والصُبحَ من غدٍ، وهَمَّ أصحابُه زَجْرَ اليهودي وتهديده، فنهاهم النبي (ص) عن ذلك وقال: «لم يبعثني ربي عزَّ وجلَّ بأن أظلم مُعاهِداً[129] أو غيره»؛ ولما علا النهار، أسلمَ اليهوديُّ وشهد الشهادتين، وبذل شطرَ مالهِ على ما هو عليه مِن الغِنَى في سبيل الله، وجعل يَعْتَذِر إلى النبي (ص) ويقول: «أمَا واللهِ ما فعلتُ بكَ ما فعلتُ، إلا لِأَنظُرَ إلى نَعْتِكَ وقد قرأته في التوراة، فهذا مالي بين يديك، فاَحكُمْ فيه بما أنزلَ الله عليك». وأدْركهُ أعرابي، فأخذ بردائِهِ وجَذَبَهُ جَذبةً شديدة حتى أثَّرَتْ حاشية الرداء في عُنُق النبي (ص)، وقال له: «يا محمد، مُرْ[130] لي مِن مالِ الله الذي عندك»؛ فالتفت إليه رسول الله (ص) وتبسم، ثم أمر له بعطاء.

ولم يكن لِيُسألَ شيئاً فيقول: لا؛ وكان فراشه عباءة، ووسادته أدم[131] حَشْوُها لِيف؛ وكان يلبس الصوف، ويأكل مع العبيد، ويُسلِّمُ على الصبيان والنساء الهَرِمَة دون الفتيات الشابات.

وحَدَثَ مرةً أن أهدَى إليه رجلٌ اثنَيْ عَشَرَ دِرْهماً، فمضى مع أمير المؤمنين علي (ع) إلى السوق ليشتري بها ثوباً لنفسه؛ وإذ هو يَرَى في طريقه جارية على قارعة الطريق تبكي، فسألها عن سبب بكائها، فقالت: «إن أهلي أعْطَوني أربعة دراهم لأشتري لهم بها، فَسَقَطَت مني وفُقِدَت»؛ فأعطاها النبي (ص) أربعة دراهم، وانصرف إلى السوق واشترى لنفسه

---

١٢٩ ـ مُعاهِداً: أي أحداً من أهل الكتاب، أو: معاهداً الله الواحد على التعاليم الإلٰهية الدينية.

١٣٠ ـ مُرْ لي: (مخففة مِن) أؤمُرْ لي.

١٣١ ـ أدم: قطعة من جلد.

قميصاً بأربعة أخرى من الدراهم ولَبِسَهُ وحَمِدَ الله سبحانه، وانصرف راجعاً، وإذا هو بعُريانٍ في الطريق يقول: «مَن كَساني كَساهُ اللهُ مِن ثياب الجنة»؛ فنزع النبي (ص) القميصَ عن بدنه وكسا به السائل، ثم رجع إلى السوق، واشترى لنفسه بالأربعة الباقية قميصاً آخر، كالمرة السابقة، لبسه مع الحمد والشكر لربه تعالى؛ فلما رجع نحو منزله، إذا بالجارية نفسها تبكي على قارعة الطريق، فتقدم إليها وسألها عن السبب، فأبدت الخوف من أهلها، لأنها أبطأت في الرجوع إليهم، فانصرف (ص) معها نحو دار أهلها حتى انتهى إليها، ووقف قرب الباب، يسلم على أهل الدار برفيع صوته، أولاً وثانياً وثالثاً، وهم يسمعونه ولا يردون عليه سلامه إلا في المرة الأخيرة، قائلين: «سمعنا سلامك ولم نرد عليك، حباً لتكراره ورغبة في الاستكثار منه»؛ ثم أعتقوا الجارية إكراماً له ولقدومه شفيعاً لها، فقال (ص) فَرِحاً بذلك: «الحمد لله! ما رأيتُ أعظمَ بَرَكةً مِن هذه الدراهم، كسى الله بها عُريانَين؛ وأعتق بها نسمة».

وكان (ص) ربما يحلب الشاة، ويَعقِل[132] البعير بيده، ويطحن مع الخادم إذ عَيِيَ[133]، ولم يُرَ قط على بول ولا غائط، وفي الصَحارَى كان يبعد لقضاء الحاجة عن الناس إلى حيث لا يُرَى، أو أنه يستره شجر أو حجر يكون هناك عن أعين الناظرين. وكان بعد الطعام، لا يتَجَشَّأ[134]، قَط؛ وكان (ص) يُشيِّع الجنائز، ويَعود[135] المرْضى في أقصى المدينة راجلاً، وربما مشى حافياً من غير رداء ولا عمامة؛ وكان يحب مجالسة الفقراء والمساكين ومؤاكَلَتَهم، وربما يناولهم ويطعمهم بيده، ويُكرم أهلَ

---

١٣٢ ـ يعقل: يقيد، يربط.

١٣٣ ـ عَيِيَ: تَعِبَ جداً.

١٣٤ ـ تجشأ (يتجشأ): أخرج من فمه هواءً (أو ريحاً) مع صوت، وغالباً بعد الطعام، ولفظه بالعامية في كثير من البلاد العربية: يتَدَشَّأ.

١٣٥ ـ يعود المَرْضَى: يزورهم (عاده يعوده: زاره، تستعمل لزيارة المريض فقط).

الفضل والدين؛ وكان يصافح أصحابه، ويَصِلُ رَحِمَهُ، من غير أن يؤثرهم[136] على غيرهم في العطاء؛ وكان أكثَرُ جلوسه إلى القبلة ناصباً ساقيه، ويُكرِمُ مَن دخل عليه، وربما بَسَطَ له ثوبه وآثره بوسادة تكون تحته، ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق؛ وكان (ص) أكثر حياءً مِن العَذراء في خِدْرها، وكان أكثر طعامه التمر والماء، وكان يحب البطيخ والعنب والخيار بالرُطَب[137] الطري، والثريد باللحم، واليقطين والخبز بالسمن والخلّ والهِندبا؛ وإذا أكلَ مع قوم بَدأ قبلهم، ورفع يده عن الطعام بعدهم، ويأكل مما يليه إلا في التمر، ويشرب الماء ثلاثاً يَحمد الله خلال الشُرب وبعد انتهاء المرات الثلاث، ويمص الماء مصاً ولا يعبه عباً.

وكان (ص) يحب العطاء والكَرَم، ويكره البخل والبخيل، ويقول: «أمرني ربي بالسَخاء والبِر، ونهاني عن البُخْل والجَفاء، وما شيءٌ أبغضُ إلى الله تعالى مِن البُخل وسوءِ الخُلُق»[138].

وكان يجلس مع أصحابه في حَلَقات، ويأمر مَن ينصرف عن المجلس بالسلام على جلسائه عند الانصراف، وكان ينامُ على الحصير، حتى أثّر في جنبيه، فقيل له في ذلك أن يَتخذ له فراشاً، فقال (ص): «مالي والدنيا؟! وما مثلي ومثلها إلا كراكبٍ سار في يوم صائف، فاستظلَّ تحت شجرة ساعةً من نهار، ثم مضى وتركها». وكان يُسَمّي[139] عند وَضعِ المائدة بين يديه، ثم يدعو ربه أن يجعلها نعمة مشكورة، تصل بها نعمة الجنة؛ وكان يجلس على المائدة كجلوس المصلي في التشهد، إلا أن الرُكبة على الركبة والقَدَم على القَدَم، وكان (ص) يبدأ طعامه بالملح ويختمه به أيضاً، ويدعو

---

١٣٦ ـ يُؤْثِرَهم: يُفَضِّلهم، يُقَدِّمُهم ـ آثَرَهم: فضَّلهم.

١٣٧ ـ الرُطَب: التمر.

١٣٨ ـ وينقل المؤلف الجليل أيضاً قولاً منسوباً للنبي (ص): «أنا أديبُ الله وعليٌّ أديبي».

١٣٩ ـ يُسمّي: يقول: بسم الله الرحمن الرحيم.

بعد الأكل لمن يضيفه، ويفطر عن الصوم على التمر أو السكر أو الماء الفاتر، ولم يكن يأكل ما فيه المغافير[١٤٠] والأرياح الكريهة كالثوم والبَصَل والكَرَّاث وأمثالها، وكان يأكل سواقط الخِوان[١٤١]، ويشرب الماء قائماً[١٤٢] أو راكباً، ويغسل رأسه ولحيته بالسِدْر[١٤٣] ويدهن بالبَنَفْسَج[١٤٣] وغيره، ويمشط لِحْيَتَه من تحتها ومن فوقها، ثم يُمِرُّ المشطَ على رأسه وصدره، ويجعل المشط عند المنام تحت وسادته، وربما اكتحل عند المنام؛ وكان يستعمل السِواك[١٤٤] عرضاً، ويطلي بدنه الشريف، وكان له منديل يمسح به وجهه من الوضوء، أو يمسحه بطرف ردائه، ويتختم في يمينه بخاتَم من حديد أهدي له مكتوبٍ عليه «محمد رسول الله»، وكان يمزح أحياناً مع أصحابه، ولكنه لا يقول إلا الصدق والحق.

---

١٤٠ ـ المغافير: أنواع من الصمغ، تسيل من الشجر.

١٤١ ـ الخِوان: المائدة، السُفرة.

١٤٢ ـ قائماً: واقفاً.

١٤٣ ـ السِدْرُ والبَنَفْسَج: زهرتان نباتيتان حسنتا الرائحة.

١٤٤ ـ السِواك: عود تنظيف الأسنان.

فضائله وخصائصه ومعجزاته

وأما فضائله وخصائصه ومعجزاته فهي كثيرة، نشير إلى بعضها إجمالاً، أبرزها أنه (ص) كانت له أحكام وأمور مختصة به دون أمته، منها: وجوب السِواك[1] عليه، ووجوب التَهَجُّد بالليل، ووجوب الأضحية[2] عليه؛ ومنها: زواجه بأكثر من أربعٍ في النكاح الدائم، وحرمة تزويج زوجاته على الأمة بعد وفاته، ومنها: عدم انتقاض وضوئه بالنوم، وجواز دخوله في مسجده جُنُباً دون غيره؛ ومنها: جواز دخوله مكة بغير إحرام[3]، ولا يجوز ذلك لغيره، ومنها: وجوب إجابته إذا دعا أحداً، حتى وإن كان المدعوُّ مشتغلاً بالصلاة الفريضة، ولا تبطل بذلك صلاته؛ ومنها ـ تمييزاً واحتراماً له ـ: كراهة الجمع بين اسمه «محمد» وكنيته «أبي القاسم» في غيره، ومنها: انتساب أولاد بناته إليه دون سائر الناس، فأولاد البنات منهم لا يُنسَبون إلى جدهم للأم، ومنها: حُرْمة رفع الصوت عليه، وحرمة ندائهِ مِن وراء الحُجُرات، وحرمة ندائه باسمه الشريف، فلا يُخاطَب بقولِ «يا محمد» أو «يا أحمد»، بل يخاطب بألقابه الشريفة «يا رسول الله» أو «يا نبي الله» وأمثال ذلك، وفيه قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ

---

١ ـ السِواك: تنظيف الأسنان بالعود.

٢ ـ الإحرام: لباس بسيط مفروض على مَن يدخل مكة.

٣ ـ القرآن الكريم، ج (الجزء) ١٨، س (السورة) ٢٤ النور، (الآية): ٦٣.

بَعۡضِكُم بَعۡضًاۚ﴾[٤]، وإنه سبحانه لم يخاطِب نَبِيَّه في الكتاب الكريم إلا بألقابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ. . .[٥] يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ. . . يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ. . . قُمِ ٱلَّيۡلَ. . يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ. . قُمۡ فَأَنذِرۡ. . طه مَآ أَنزَلۡنَا. .[٦] يسٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ. . وأمثالها، تعظيما له وإجلالا، خلافا لخطابه تعالى لسائر أنبيائه كما جاء في الكتاب بقوله تعالى ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ﴾ ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ﴾ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾فالعباد أولى بذلك تعظيما لنبيهم الأكرم وأنه لا يجوز توجيه الخطاب في الصلاة لغير الله إلا في التسليم عليه في حال التشهد بقول المصلي السلام عليك أيها النبي وإنه سيد ولد آدم بل سيد الخلائق أجمعين، وأنه أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يبعث يوم القيامة، وهو زعيمُ عرصة[٧] المحشر، وأول شافع ومشفع وقد حرم الله الجنة على الأنبياء (ع) حتى يدخلها هو قبلهم، وحرمها على جميع الأمم حتى تدخلها أمته قبلهم وقد جعل الله الخلافة في أهل بيته من بعده إلى يوم القيامة، وأن لواء الحمد يومئذ بيده. ولقد من الله تعالى عليه بأن وهب له «الكوثر»، وقال له ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾[٨] وهو نهر في الجنة، مجراه تحت العرش، على حافَّتَيْهِ ألفُ ألفُ قصر من الذهب والفضة، حشيشُها الزعفران، ورَضراضها[٩] الدر والياقوت، وأرضها المسك الأبيض؛ وأن الله تعالى سخر له البراق[١٠] حتى ركبه ليلة الإسراء، ولم يركبه أحد غيره من الأولين والآخرين، وقد اتبع شريعته على قصر عمره الشريف وقلة مدة حياته عشرات الألوف وأكثر منها بفضل ربه تعالى ولطفه به، حتى زادت

---

٤ ـ «الرسول: ج ٦ س ٥ المائدة: ٦٧ ـ النبي: ج ١٠ س ٨ الأنفال: ٦٤، وسواها ـ المُزَّمل: ج ٢٩ س ٧٣ المُزَّمل: ١ـ المُدَّثِر: ج ٢٩ س ٧٤ المدثر: ١ـ طه: ج ١٦ س ٢٠ طه: ١ـ يّس: ج ٢٢ س ٣٦ يّس: ١.. وأمثالها.

أُمَّتُهُ في حياته على أمم كل من الأنبياء (ع) أيام حياتهم على طول مدة كل منهم، وفيهم مثلا نوح (ع) الذي لبث في قومه، ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[11] ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾[12] وهم اثنان وثمانون نسمة وأن صفوف أهل الجنة يوم القيامة مئة وعشرون ألف صف، منها ثمانون ألف صف من أمته، وأربعون ألف صف من الأمم الماضية اتباع جميع الأنبياء السابقين(ع)؛ وأنه (ص) خاتم الأنبياء بأجمعهم، وقد نَسَخَت شريعته شرائعهم كلها، وأن شريعته لا تنسخ إلى يوم القيامة، والحلال فيها حلال والحرام فيها حرام إلى الأبد، وأنها أسهل الشرائع وأسمحها، كيف لا وهو القائل (ص) «بعثت للشريعة السهلة السمحة» وليس فيها ضرر ولا ضرار[13]

---

٥ ـ آدم: ج ١ س ٢ البقرة: ٣٥، وسواها ـ نوح: ج ١٢ س ١١ هود: ٤٦ وسواها ـ إبراهيم: ج ١٢ س ١١ هود: ٧٤ و٧٥ و٧٦ وسواها ـ موسى: ج ١٦ س ٢٠ طٰه: ١١ و١٢ـ داوود: ج ٢٣ س ٣٨ صٓ: ٢٦ ـ زكريا: ج ١٦ س ١٩ مريم: ٧ـ يَحْيى: ج ١٦ س ١٩ مريم: ١٢ـ عيسى: ٣ س ٣ آل عمران ٥٥ ـ لوط: ج ١٢ س ١١ هود: ٨١.

٦ ـ عَرْصة: ساحة، ميدان.

٧ ـ القرآن الكريم، ج ٣٠ س ١٠٨ الكوثر: ١.

٨ ـ الرَضْراض: الحصوات والأحجار الصغيرة.

٩ ـ البَراق: اسم مَلَك أو طائر (أو مخلوق من نوع آخر) حَمَلَ النبيَّ محمداً (ص) وأَسْرَى به ليلاً من مكة إلى المسجد الأقصى في القدس (بفلسطين) ثم صعد به إلى السماوات العُلَى حتى صار قريباً من الله تعالى بمقدار قاب قوسين أو أدنى [كما جاء في القرآن الكريم، ج ٢٧ س ٥٣ النجم: ٨ و٩ وغيرهما].

١٠ ـ القرآن الكريم، ج ٢٠ س ٢٩ العنكبوت: ١٤.

١١ ـ ج ١٢ س ١١ هود: ٤٠.

١٢ ـ لا ضَرَرَ ولا ضِرار: لا «ضَرَرَ» عليه هو نفسه، ولا «ضِرارَ» منه على غيره.

١٣ ـ «هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين مِن حَرَج: القرآن الكريم، ج ١٧ س ٢٢ الحج: ٧٨.

ولا حرج[١٤] وأن الله تعالى فرض على أمته مودة ذوي القربى من أهل بيته(ص)، أجرا على رسالته، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[١٥]، وجعل قرآنه معجزة باقية مصونة من التغيير والتبديل، وأنزل في ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ خلافا لكتب السماوية سابقة نزلت على ديانات أخرى فضاع الأصل منها، أو غير أتباع الأجيال التالية كلا منها وبدلوها وحرفوها من بعد ما عقلوها وهم يعلمون ثم جعل الله تعالى لمحمد ولذريته أبد الدهر خمس الغنائم من أموال أمته، وجعل لهم الأنفال[١٦]، وأباح لهم الغنائم من الكفار، ثم قرن اسم النبي (ص) الشريف بمقدس اسمه تعالى في آيات كتابه، وجعل طاعة الرسول طاعة نفسه المقدسة جل جلاله، فقال تعالى: ، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ﴾[١٧] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾[١٨] ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾[١٩] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[٢٠] ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾[٢١] ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٢٢] ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[٢٣] ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٢٤] ﴿ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ

---

١٤ - ج ٢٥ س ٤٢ الشورى: ٢٣.

١٥ - ج ١٤ س ١٥ الحجر: ٩.

١٦ - الأنفال: الغنائم والأرباح التي تتوفر دون حرب أو عذاب، نتيجة تسليم أحد الفريقين المتحاربين للفريق الآخر أسلحته أو أمواله لعامل الخوف من خطره، أو لجلب تأييده في محاربة سواه.

١٧ - ج ٥ س ٤ النساء: ٨٠.

١٨ - ج ٢٨ س ٦٣ المنافقون: ٨.

١٩ - ج ٣ س ٣ آل عمران: ٣٢ و١٣٢.

٢٠ - ج ٩ س ٨ الأنفال: ٢٤.

٢١ - ج ٢٨ س ٥٩ الحشر: ٨.

٢٢ - ج ١٠ س ٩ التوبة: ٩١.

٢٣ - ج ٦ س ٥ المائدة: ٥٦.

٢٤ - ج ١٠ س ٩ التوبة: ٧٤.

﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾[٢٥] ثم جعل عصيان رسوله عصيانه، هو وإيذاءه إيذاءه وحربه حربه، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[٢٦] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[٢٧] ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة؛ ثم جعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وجعل أزواجه أمهاتهم، وأنزل قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾[٢٩]. ثم وصفه بما وصف به نفسه المقدسة من الرأفة والرحمة بالمؤمنين فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[٣٠] كما قال عن ذاته المقدسة ﴿إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ﴾[٣١] بل جعله رحمة للعالمين بأجمعهم وأنزل فيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[٣٢] وبعثه إلى كافة الخلائق من الجن والإنس وأنزل في ذلك ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[٣٣] ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[٣٤] ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[٣٥] إلخ.. ولم يُرسِل،كذلك قبله أحداً من الأنبياء السابقين، وإنما أرسل كلاً منهم إلى قوم خاص أو ناحية مخصوصة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾[٣٦] ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا

---

٢٥ - ج ١٠ س ٩ التوبة: ٥٩.
٢٦ - ج ٢٢ س ٣٣ الأحزاب: ٣٦.
٢٧ - ج ٢٢ س ٣٣ الأحزاب: ٥٧.
٢٨ - ج ٣ س ٢ البقرة: ٢٧٩.
٢٩ - ج ٢١ س ٣٣ الأحزاب: ٦.
٣٠ - ج ٢ س ٢ البقرة: ١٤٣.
٣١ - ج ١١ س ٩ التوبة: ١٢٨.
٣٢ - ج ١٧ س ٢١ الأنبياء: ١٠٧.
٣٣ - ج (الجزء) ٢٢، س (السورة) رقمها ٣٤، اسمها: سبأ، الآية: ٢٨.
٣٤ - ج ٢٦، س ٤٦ الأحقاف: ٢٩.
٣٥ - ج ٢٧ س ٧٢ الجن: ١.
٣٦ - ج ١٣ س ١٤ مريم: ٤.

إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾[37] ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[38] ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾[39]، إلى غير ذلك من الأنبياء المُصرَّح أو غير المُصرَّح في الكتاب بأسمائهم الشريفة؛ وقد رُوِي أن الخليل (ع) ـ على عِظَمِ شأنه ـ لم يكن مُرسَلاً إلا إلى قرية تسمى «كوثى»، وكذا ابنه إسحاق من بعده، وأن يعقوب (ع) كان مرسلاً إلى أرض «كنعان»[40] فقط، ويوسف (ع) كان نبياً على أهل مصر فقط، ويوشع (ع) أرسل إلى بني إسرائيل في البرية، والياس (ع) إلى أهل الجبال، وكذا غيرهم من الأنبياء العظام. وأما محمد (ص) فقد كان نذيراً للبشر، بل نبياً على كل مَن غاب أو حضر، من السابقين واللاحقين، إلى يوم الدين، بل كان حجة على أهل السماوات والأرضين، وهو الشاهد يوم القيامة على الأنبياء والمرسلين (ع)، بل على كافة الخلائق أجمعين، من العُلْوِيِّين والسُفْلِيين، كما قال تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾[41]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾[42] وهو القائل: «كنت نبياً وآدمُ بين الماء والطين». ثم أوجب الله تعالى على أمته أن يقرنوا ذِكْرَه بذِكْر ربهم تعالى في شهاداتهم: في صَلَواتهم، وأذانهم، وإقامَتِهم، وخُطَبهم، وأذعِيَتهم[43]، وأشار إلى كل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾[44]، إلى غير ذلك

---

٣٧ ـ ج ٢٩ س ٧١ نوح: ١.

٣٨ ـ ج ٨ س ٧ الأعراف: ٨٥.

٣٩ ـ ج ٢٤ س ٤٠ غافر: ٢٣... و٢٤.

٤٠ ـ أرض «كنعان» ما أُطلِقَ عليها بعداً اسم «بلاد الشام»، وهي القسم الأغلب من سواحل سوريا ولبنان وفلسطين.

٤١ ـ ج ١٤ س ١٦ النحل: ٨٩.

٤٢ ـ ج ٢٢ س ٣٣ الأحزاب: ٤٥.

٤٣ ـ مثال ذلك في أذان المسلمين «أشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهَ وأن محمداً رسولُ الله» وكثير غيره من الأدعية والخُطَب وسواها.

٤٤ ـ ج ٣٠ س ٩٤ الشرح: ٤.

من الفضائل المختصة به دون منَ سبقه من الأنبياء والعِظام والرُسُل الكِرام، على ما هم عليه مِن عُلُو الشأن ورِفعة المقام، مِن غير نقصٍ ولا حطٍ بقدرهم، ولا إزراءٍ بشأنهم، قد خَصَّ اللهُ تعالى كلاً منهم بفضيلة أو فضائل، ثم جمع كل تلك الفضائل في نبيه محمد، ولم يُعطِ أحداً منهم كرامةً أو معجزةً إلا وقد أعطاه مثلها، وزادَهُ وفضَّلَه على جميعهم، وصلّى عليه هو وملائكتُهُ، وأمر عبادَه المؤمنين أيضاً بفِعْل ذلك، في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾[45]، وأخذ الميثاق والعهود على جميع أنبيائه بالإيمان بخاتمهم، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ﴾[46].. إلخ وقد كان الأنبياء عند الحلف واليمين يحلفون بالله، كما قال الخليل إبراهيم (ع) ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾[47]، وأما الله سبحانه فقد حَلَف بنبيهِ محمد (ص) في قوله تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾[48]، وأمثال ذلك في القرآن لكثيرة وأنهم (ع) في أعمالهم وعباداتهم كانوا ـ كسائر المؤمنين ـ يطلبون رضا الله عنهم ويدعونه في ذلك، كقول الخليل (ع) وابنه إسماعيل (ع) بعد بناء الكعبة ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾[49] إلخ، بينما نقرأ في عدة سور عن القرآن الكريم، أن الله تعالى قد طلب رضاء حبيبه محمد كقوله جل جلاله ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾[50] ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾[51] ﴿وَمِن

٤٥ ـ ج ٢٢ س ٣٣ الأحزاب: ٥٦.
٤٦ ـ ج ٣ س ٣ آل عمران: ٨١.
٤٧ ـ ج ١٧ س ٢١ الأنبياء: ٥٧.
٤٨ ـ ج ١٤ س ١٥ الحجر: ٧٢.
٤٩ ـ ج ١ س ٢ البقرة: ١٢٧.
٥٠ ـ ج ٢ س ٢ البقرة: ١٤٤.
٥١ ـ ج ٣٠ س ٩٣ الضحى: ٥.

ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾[52]، ثم فوض الله إليه الأمر والحُكْمَ في الدين في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾[53] إلخ، فَفرَضَ أشياءَ، وأباحَ أشياءَ، وحرَّم أشياء، ونَهَى نَهْيَ كراهَةٍ وتنزيهٍ عن أشياء، مِن غير أن يَنْزِلَ عليه من ربه فيها أمرُ شيء، وأمضَى وأقرَّ اللهُ له كلَّ ذلك، فقال عزَّ من قائل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[54] إلخ، فأضاف النبيُّ (ص) في فرائض الظُهْرَينِ والعشاءِ رَكعتينِ رَكعتين، وجعل كلاً منها أربعاً بعد أن كانت ركعتين ركعتين، وسَنَّ النَوافِل[55] في اليوم والليلة ضِعفَي[56] الفريضة، أي أربعاً وثلاثين ركعة، وسنَّ صَوْمَ شعبانَ وثلاثةَ أيام في كل شهرٍ، فكان المجموع ضِعْفَي فريضةِ الله وهي صومُ شهرِ رمضانَ فقط، وحرَّم كلَّ مُسْكِر مضافاً إلى الخمر التي حرَّمها الله، وأوجَبَ لجد المُتوَفى من الميراث السُدُس، مضافاً إلى سائر سهام الوَرَثَة، وإن أمثال ذلك لكثيرة، ولم يجعل الله مثل ذلك لأحد من الأنبياء الماضين (ع)، وإن أهلَ النار ليَهتِفُون ويصرخون نَدَماً على أنهم ما أجابوه في الدنيا، كما قال تعالى فيهم ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾[57] ثم جعله الله شاهداً على أمته، بل وعلى سائر الأمم، بتبليغ الرُسُل لهم حينما ينكرون تبليغات رسلهم، فيقولون يوم القيامة: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ﴾[58]، ويكذّبون دَعوَى رسلهم وشهاداتهم بالتبليغ، فيأمر

---

٥٢ ـ ج ١٦ س ٢٠ طه: ١٣٠.

٥٣ ـ ج ٥ س ٤ النساء: ١٠٥.

٥٤ ـ ج ٢٨ س ٥٩ الحشر: ٧.

٥٥ ـ النوافل: صلوات مستحبة (غير واجبة)، ـ إضافة إلى الصلوات الواجبة ـ يؤديها المؤمن تقرباً إلى الله تعالى وطلباً لمزيد الأجر والثواب.

٥٦ ـ ضِعْفُ الشيء: مُعادِله، فالضعفان: المقدار مرتان.

٥٧ ـ ج ٢٢ س ٣٣ الأحزاب: ٦٦.

٥٨ ـ ج ٦ س ٥ المائدة: ١٩.

الله محمداً بالشهادة للأنبياء على أممهم، فيشهد عليهم ولا يَسَعُهم تكذيبه، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾[59] وقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[60]، إلخ.

وقد ناجاه الله تعالى عند سِدْرَة المنتَهَى، فوق السماوات السبع بساقِ العَرش، وبلَّغه مقامَ قاب قَوسَين من ربه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾[61] وهو ما لم يبلغه نبيٌّ مُرسَل ولا مَلَك مُقرَّب، وذلك أفضل من مناجاته مع كليمه موسى (ع)، في الأرض على طور[62] سيناء؛ ثم إن موسى مَشَى على قَدَميهِ إلى موضع المناجاة، بينما محمد (ص) أُسْرِيَ به راكباً؛ ونودي موسى (ع) ونوجي محمد (ص) كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾[63] والنداء للبعيد والنجوى للقريب ولا واسطة بينهما. وكان معراج موسى (ع) في النهار، ومعراج النبي (ص) بالليل، حين اختلاء كل حبيب بحبيبه؛ وكان معراجه (ص) بغتة من غير ميعاد، وذلك أحبُّ وأفضلُ من المعراج بالميعاد كمعراج الكليم، وقد كانت مناجاته تعالى مع كليمه بعد أربعين ليلة، ومناجاته مع حبيبه بلا مهلة، وان الكليم (ع) لم يحتمل ما سمعه من كلام ربه وخر صاعقاً فَزَعاً وهيبةً لكلامه تعالى حتى أتاه النداء: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ۝٣١﴾[64]، والحبيبُ رأى أعظم من ذلك واحتمله من غير فزع ولا خوف ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنَ

---

٥٩ - ج ١٤ س ١٦ النحل: ٨٩.

٦٠ - ج ٢ س ٢ البقرة: ١٤٣.

٦١ - ج ٢٩ س ٥٣ النجم: ٨ و٩.

٦٢ - طور: من الكلمات الدخيلة في اللغة العربية، أصلها سرياني، ومعناها «جَبَل». طور سيناء (أو: طورسينين كم هي في مكان آخر) تعني: جبل سيناء في جنوبي فلسطين.

٦٣ - ج ١٩ س ٢٦ الشعراء: ١٠.

٦٤ - ج ٢٠ س ٢٨ القصص: ٣١.

ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾[65] ثم أخبر اللهُ سبحانه بما جرى بينه وبين كليمه (ع) بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[66].. إلخ وكتَمَ ما جرى بينه وبين حبيبه في المعراج، فقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾[67] وكان مع موسى عند مناجاته سبعون رجلاً من حواريه، والحبيب كان وحده مختلياً مع ربه. وسأل موسى ربه أن يشرح له صدره بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾[68] فأجابه الله تعالى إلى ذلك، وأما النبي محمد (ص) فقد شرح الله تعالى له صدره من غير سؤال، وأوحى إليه ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾[69]؛ وأوصى اللهُ الكليمَ موسى (ع) وأخاه هارون بالقول اللَّيِّن مع العدو، فقال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[70]، أما النبيُّ الحبيب، فكان بنفسه لَيِّناً مِن غير توصية، إلى أن أمَرَهُ ربُه بالغِلظَةِ على الكُفار والمنافقين، بقوله سبحانه: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[71]:

وإن يَـكُ مـوسـى كَـلَّـمَ اللهَ جَـهْـرَةً   على جَبَلِ الطُورِ المُنيفِ المُعظَّمِ
فـقـد كـلَّـمَ اللهُ الـنـبـيَ مـحـمـداً   على الموضِعِ الأعلَى الرفيعِ المُسَوَّمِ.

وانفلق البحر لموسى في الأرض وانشق القمر لمحمد (ص) في السماء، كما قال الله تعالى في بداية سورة القمر ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾[72]، وذلك أعظم من انفلاق البحر. وإن الله سبحانه لم يبين لموسى (ع) كل أمر، ولم يكتب له في التوراة والألواح التي أنزلها عليه إلا

---

٦٥ - ج ٢٧ س ٥٣ النجم: ١٨.
٦٦ - ج ٩ س ٧ الأعراف: ١٤٣.
٦٧ - ج ٢٧ س ٥٣ النجم: ١٠.
٦٨ - ج ١٦ س ٢٠ طه: ٢٥.
٦٩ - ج ٣٠ س ٩٤ الشرح: ١.
٧٠ - ج ١٦ س ٢٠ طه: ٤٤.
٧١ - ج ١٠ س ٩ التوبة: ٧٣ والنص نفسه أيضاً كاملاً في ج ٢٨ س ٦٦ التحريم: ٩.
٧٢ - ج ٢٧ س ٥٤ القمر: ١.

بعض العلوم بشهادة كلمة (مِن) في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾[73] وعَلَّمَ محمداً عِلْمَ كل شيء، وأنزلَ عليه كتاباً حاوياً لكل شيء وخاطبه بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[74] من غير كلمة «من»؛ وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[75]، ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾[76]، إلى غير ذلك من الأمور التي تدل عيل أفضليته (ص) من الكليم (ع)، وكذا مَن قَبْلَه ومَن بَعْدَه من الأنبياء (ع)، فكلهم دون محمد (ص) في الفضل، ولَئِن كان آدم إمامَ الملائكة، فإن محمداً (ص) كان ليلة المعراج إماماً لآدم وغيره من الأنبياء العظام، الذين هم أفضل من الملائكة؛ وإن عيسى المسيح (ع) سَيُصَلِّي وراء خليفته الثاني عشر[77] عند ظهوره، والإمام أفضل من المأموم، وإن كان نبي الله سليمان (ع) عُلِّم مَنْطِقَ الطَير[78]، وكانت الحيوانات تُكلِمُهُ ويُكلمُها ومنها النَمْل[79]، فمحمد (ص) سَبَّحَت الحَصَى في كَفِّه حينما أخذ منها قبضة، وكذا كثير من الجمادات، وقد أسلَفنا ذِكر تسليم الجبال والأشجار عليه، وذلك أعجب وأهمّ، وما ألطف قول الشاعر في إشارته إلى واقعة تكلم نملة مع زميلاتها حين خافت من سليمان (ع) وجنوده، وتبسمه ضاحكاً من

---

٧٣ ـ ج ٩ س ٧ الأعراف: ١٤٥.

٧٤ ـ ج ١٤ س ١٦ النحل: ٨٩.

٧٥ ـ ج ٧ س ٦ الأنعام: ٣٨.

٧٦ ـ ج ٧ س ٦ الأنعام: ٥٩.

٧٧ ـ الإمام الثاني عشر: هو الإمام المنتظَر محمد (بن الحسن) المهدي (ع).

٧٨ ـ هذه العبارة البيانية الجميلة «منطق الطير» جاءت في القرآن الكريم، والمقصود منها «لغة الطيور»، في ج (الجزء) ١٩، في س (السورة) ٢٧ النمل، الآية: ١٦.

٧٩ ـ ذِكره النمل وحده هنا ـ في سياق حديث النبي سليمان (ع) مع الحيوانات ـ إرجاع للقارىء إلى موضوع تعاطى النبي داود (ع) وابنه النبي سليمان (ع) وجنوده من الجن والإنس والطير مع النمل والهدهد. . . ومَن الإله المعبود، في عَرضٍ طويل.

قولها، ومقارنة ذلك بما كان عند رسول الله (ص) من كرامة المخاطبة لا مع الطير والحيوانات الضعيفة فقط، بل حتى ومع المواد الجامدة والصغيرة كمثل الحصوات الحجرية الضعيفة:

وإنْ تَكُ نَمْلُ البَرِّ بالوَهْمِ كَلَّمَتْ سليمانَ ذا المُلْكِ الذي لَيسَ بالعَمِي
فهٰذا نَبيُّ اللهِ أحمدُ سَبَّحَتْ صِغارُ الحَصَى في كَفِّهِ بالتَرَنُّمِ

وأنه (ص) أتاه ذاتَ يوم طيرٌ يُرَفْرِفُ على رأسه يكلمه، فتوجه النبي (ص) إلى مَن حضر عنده وقال: أيكم فَجَعَ هذا الطيرَ بِفَرْخِه؟ فقال أحدهم: أنا يا رسولَ الله أخذتُ فرخَه؛ فأمره النبي (ص) برده. وأقبل إليه (ص) في يومٍ آخَرَ جَمَل، حتى وضع رأسه في حِجر النبي (ص) يُخَرْخِر، فقال (ص) لِمن عنده: إن هذا الجملَ يزعم أن صاحبه يريد نَحْرَه في وليمةِ ابنه، وقد جاء يستغيث؛ فقال رجلٌ: نعم يا رسولَ الله، إن هذا لِفلان، وقد أراد به ذلك؛ فأرسل النبي (ص) إلى صاحبه يَشفع له في إطلاقه، فأجابَهُ الرجلُ وأَطلقَ الجمل. ومَرَّ (ص) ذات يوم على بَعِير ساقط، فتبصبص للنبي (ص) يكلمه، فقال النبي (ص): أنه لَيَشْكُو شَرَّ ولايةِ أهله، ويسألني إخراجَهُ مِن عنده؛ ثم بعث إلى صاحبه، فاشتراه منه وأعطاه لأمير المؤمنين علي (ع)، وقد ظلَّ عنده إلى يوم صفين؛ وإنَّ أمثالَ ذلك مِن تَكَلُّمِ الذئب وسائر الحيوانات معه (ص) لكثيرة، يضيق المقام عن ذكر جميعها. وإن كان عيسى المسيح (ع) قد أبرأ الأَكْمَهَ[٨٠] والأبرص وأحيى الموتى وهم أربعة أَنفار: عازَر، وابن العَجوز، وسام بن نوح، وابنة الحاشِر، فق وقع لرسول الله (ص) وصدر منه بإذن الله تعالى أمثال ذلك كثير، فمثلاً أتاه مَعاذُ بن عفراء يشكو إليه بَرَصاً بجنبه، فمسح النبي (ص) الموضع بعودٍ بيده، فزال عنه ما به في ساعته. وأقبل إليه رجل من «جُهَيْنَة»[٨١] يشكو إليه

---

٨٠ ـ الأَكْمَهَ: مَن وُلِد أعمى، ومؤنثه: كَمْهاء، مثل: أعْمَى وعَمياء.

٨١ ـ جُهَيْنَة: اسم قبيلة عربية، بين يثرب (المدينة في الحجاز) ومصر.

جُذاماً[82]، فبصق النبي (ص) في قَدَح ماء وأمرَ الرجلَ أن يَدْلُكَ به جسده، وفعل الرجل ذلك، وشفي مما كان به. وجاءته عجوز بابنة لها كَمْهاء عمياء تشكو إليه، فتناول (ص) عوداً ومسح به عينيها فأبصرتا حالاً، وأتاه (ص) رجل به أدرة عظيمة (بمعنى: انتفاخ خِصْيَتَيه) يشكو إليه (ص) ذلك، فبصق (ص) في شيء من الماء وأمره أن يصبه على نفسه، ففعل الرجل ذلك، ثم غفا غَفْوةً، ولما انتبه من نومه لم يرَ أثراً من مَرَضَ الخِصْيَتَيْن.

وحضر (ص) ذات يوم على رجل قد أصابه التثاؤب حتى لَقد أشرف على الموت، ولم يتمكن منذ أيام من تناول الطعام لغلبة التثاؤب عليه، فقال (ص): «يا عدو الله، جانِبْ وَليَّ الله، فأنا رسولُ الله»، فلم يُتمّ كلامه حتى استوى الرجل قائماً صحيحاً مُعافَى. وأقبل إليه (ص) ذات يوم جمع من قريش، يسألونه أن يُحييَ لهم جماعةً مِن مَوتاهم، فوجَّهَ معهم أميرَ المؤمنين علياً (ع) إلى مقبرة البلدة، ينادي بأسماء أولئك الموتى برفيع صوته، يقول لهم: «إن رسول الله يقول لكم: قوموا بإذن الله تعالى»، فلم يَتِمَّ نداءُ علي (ع) لهم حتى انشقت قبورهم، وخرجوا مِن لُحودِهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يلبون نداءه، فدُهِشَ الحاضرون، وطارت أفئدتهم عَجَباً وحِيرة، ثم اجتمعوا عليهم يسألونهم عما جرى لهم بعد الموت ويخبرونهم بظهور النبي (ص)، وهم يقولون في جوابهم: «إنا وَدَدْنا إدراكَه لنؤمن به».

ولَئِنْ كان المسيح (ع) زاهداً في الدنيا، فلقد كان محمد (ص) أزهد منه ومن جميع الأنبياء (ع)، فطعامهُ كان خبز شعيرٍ لم يَشبع منه قَطُّ مدة حياته، ولم يَترك بعده صفراء ولا بيضاء[83] على ما مكنه الله من الغنائم ووطَّأ له مِن البلاد، وربما كان يقسم في يوم واحد ثلاث مئة ألف أو أربع مئة ألف درهم

---

٨٢ ـ الجُذام: مَرَض يسبب تساقط اللحم، وزوال الأعضاء البدنية.

٨٣ ـ لا صفراء ولا بيضاء: لا ذَهَبَ ولا فِضة، أي لم يجمع ويحفظ لنفسه ثروات وأموالاً يخلّفها بعده لوَرَثَتِه.

أو دينار، ويأتيه السائل عشية فلا يجد عنده شيئاً من البُر[84] أو الشعير أو الدرهم أو الدينار. وكان يُسمعُ لِصدرِهِ حين قيامه للصلاة أزيزٌ[85] كأزيز القِدر عند غليان ما فيها، وكان يبكي أشد البكاء، وحتى ربما يُغْمَى عليه، وكل ذلك خوفاً من ربه تعالى أو شوقاً إليه. وقام عشر سنين طول الليالي بالمناجَاة مع ربه من غير كبوة ولا فترة، حتى اصفرَّ وجهُهُ الشريف وَوَرِمَتْ قَدَماه، فنهاهُ الله سبحانه عن ذلك نَهْيَ شَفَقةٍ ورحمة بقوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾[86].. إلخ، وأمَرَه بالراحة والنوم في بعض الليل بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾[87].. إلخ.

ولَئن كان المسيح (ع) يُنبِىءُ قومَه بالمُغَيَّبات وما يأكلون وما يَدَّخرون في بيوتهم، فقد أخبر النبيُ محمد (ص) بأضعاف ذلك من المغيبات، وقد أسلَفْنا ذِكْرَ جُملة منها؛ وكان كثيراً ما يأتيه بعضُ الناس لِيسأله مَسائل، فيُخبره النبي (ص) عن ضميره قبل سؤاله، ويقول له: «تقول أو أقول؟»، ثم يخبره بسؤاله ويجيبه عنه.

وحدث ذات يوم أن أتاه ثلاثون من المشركين يَدَّعون أن صَنَمَهم الأعلى «هُبَل» هو الذي يَشفي مَرْضاهم ويُنقِذ هَلْكاهم ويُعالج جَرحاهم، والنبي (ص) يُكذِّبهم في ذلك، وهم يتهددونه بضربةٍ مِن هُبَل تنزل عليه، مِن لَقْوَةٍ[88] أو فَلَج أو جُذام أو عَمَى، إلى أن طلبوا منه أن يسأل ربه إنزالَ تلك الآفات عليهم، حتى يسألوا هم هُبَلَهم، فَيُعافيهم ويبرئهم منها، كي يظهر كونه شريكاً لرب النبي (ص)، فنزل جبرائيل (ع) على النبي (ص)

---

٨٤ ـ البُرّ: القمح.

٨٥ ـ أزيز: صوت قوي، ويُطلق أيضاً على الرعد.

٨٦ ـ القرآن الكريم، ج (الجزء) ١٦، س (السورة) ٢٠ طه، الآيتان: ١ و٢.

٨٧ ـ ج ٢٩، س ٧٢ المزَّمل: ١ و٢.

٨٨ ـ اللَقوة: حالة مَرَضية تصيب الوجه، فيَعْوَج شِدق الفم إلى أحد طرفَي الوجه.

يُبلغُه أن يَدعوَ على عشرين منهم، ويدعوَ عليٌّ (ع) على العشرة الباقين منهم، بنزول تلك العاهات بهم، فلم يُتِما دَعاءَيْهما حتى برص القوم في مكانهم من وقتهم وساعتهم، وأصابهم الجُذام والفَلَج واللَقْوُ والعَمى، ومنهم مَن انفصلت عنه يداه ورجلاه، ولم يبق في أحد منهم عضو صحيح، ما خلا ألسنتهم وآذانهم، واجتمع عليهم أقوامُهم إلى أن حملوهم إلى هُبَل، يَتَوَسَّلون به لِشفائهم ومعافاتهم، ويشكون إليه أمرَ النبي (ص)؛ وبينما هم يلوذون به ويدعونه، إذ سمعوا منه دَوِيّاً عظيماً وصوتاً مَهُولاً، يُخاطِبُهم بصريح عبارة مشتملة على بيانِ عَجْزِه عن ذلك، وأن محمداً ـ وهو أفضل النبيين والمرسلين ـ إن دعا عليه لتهافتت أعضاؤه وانفصلت أجزاؤه، ولا يبقى منه عينٌ ولا أثر؛ فدهشت الجموع الحاضرون من ذلك، وفزعوا وارتعدوا مما سمعوا حتى كادت نفوسهم أن تَزْهَق وأفئِدَتُهم أن تَنْخلِع، ثم رجعوا بمرضاهم إلى النبي (ص) يستغيثون به طالبين شفاءَهم ومعافاتهم، فأغاثهم رسول الله (ص)، وأمَرَ العشرين أن يتوسلوا إلى الله سبحانه ويقسموا عليه، بمحمدٍ وعلي وآلهما الطيبين في عافيتهم؛ ثم أمَرَ أمير المؤمنين علياً (ع) أن يلقن العشرة الباقية منهم ذلك، ففعل القوم بأجمعهم ذلك، ولم يَتِم دعاؤهم حتى قاموا كلُّهم وقد شُفوا مما أصابهم، كأنهم حُرِّروا مِن عقالٍ، ولم يبق بأحد منهم نكبة، فأسلم الثلاثون وجَمْعٌ من أهاليهم، وغلب الشقاء على الباقين، فلم يُسلموا ولم يَرَوا كل ذلك إلا سحراً؛ ثم قال النبي (ص) للمسلمين منهم: «أأزيدكم بصيرة؟»، قالوا: «بَلَى»، فأخبرهم بما أَكَل كُلٌّ منهم بيومه في بيته، وما تَداوَى به بعضهم، وما بقي من طعامهم، حتى ازداد القوم عَجَباً وحِيرةً بعلمه وإيماناً به وتصديقاً له، ثم تَوَجَّهَ (ص) إلى حواليه يقول: «يا ملائكةَ ربي أَحضِروا لي بقايا غذائهم»، ولم يُتِمَّ كلامه حتى نزل من السماء ألوانٌ من الطعام هي بقايا مأكولاتهم، والنبي (ص) يبين لكل منهم ما اختص به من المأكول، ثم استشهد تلك الأطعمة المختلفة، فتكلم كلٌّ منها بقدرة الله تعالى، وشهدت بصحة إخباره بما أكلَ كلٌّ من القوم منها، وبذلك غلب البُهْتُ

والحيرة على كافة مَن حَضَرَ مِن الجموع والأقوام، ولم يَزْدَد الأشقياءُ منهم بكل تلك المعاجز إلا كفراً وعِناداً وحَسَداً وعَداءً، إلى أن تقدم إليه جمع من اليهود يجادلونه في أمور، ويسألونه مَسائِلَ شتَّى، وهو يجيبهم بما بَهَتَهُم وأفحمهم، فلم يَقْنعوا حتى سألُوه أن يأتيهم بمثلِ عَصا الكليم موسى (ع) وهو يقول لهم: «إنَّ ما أتَيْتُ به مِن القرآن الباقي إلى يوم القيامة، المتعرض للأعداء والمخالفين وهم لا يَقدِرون على مُعارَضَةِ سورة منه، لأَعظمُ مِن عصا موسى (ع) التي زالت ولم تَبْقَ بَعده»؛ فلم يَقبل القوم منه دون أن يأتي بمثلها، إلى أن أجابهم النبي (ص) إلى ذلك، وأخبرهم أن جُذوعَ مَجْمَعهم ـ وهي أكثر من مئة جذع ثعابين ـ ستنقلبُ في ليلتهم المقبلة وتصيرَ كلُّها بقدرة الله أفاعِيَ تَلْوي رؤوسها وتَقْصدُ نَحوَهم، ثم تَعدِلُ عنهم إلى ما في الدار مِن الخشب والفخّار، فتَلْقُمُها[٨٩] وتأكلها، فيموت أربعة من القوم بعد انصداع مَراراتهم برؤية ذلك، ويَخبُل[٩٠] جمع منهم، ويُغْمَى على الباقين إلى غداة غد، فيُفيقون ويجتمع عليهم سائر اليهود، ولا يُصدِّقونهم في مقالتهم بذلك، حتى تعود الجذوع بمَرْأى منهم أفاعِيَ وثعابين، فتموت منهم جماعة، ويَخبَلُ كثير منهم، ويُغْمَى على سائرهم وبقاياهم؛ ثم علَّمهم النبي (ص) ـ شفقةً عليهم ـ أن يتوسلوا إلى ربهم، عند خشيتهم على أنفسهم من الموت أو الخَبَل، ويستشفعوا إليه تعالى بمحمد (ص) وعلي (ع) وأوليائهما أن يصونهم من كل خطر، فمَن عملَ كذلك سَلِمَ ونجا، ولو أنهم استشفعوا إلى ربهم بمن ذُكِرَ من محمد (ص) وخلفائه لرجوع مَن ماتوا منهم أحياء، لأجابهم الله إلى ذلك، وأحْيَى لهم مَن مات مِن هَول ما رأى، فقام القوم من عند رسول الله (ص) وهم يضحون بمحضره، مستهزئين بكلامه، لا يحتشمونه ولا يهابونه، وهو يقول لهم: «إن كنتم تضحكون الآن، فسوف تبكون»، وتفرق القومُ عنه يتذاكرون بينهم في ما

---

٨٩ ـ تَلقَمُها: تتناولها لُقَماً (جمع لُقْمَة).

٩٠ ـ خَبَلَ (يَخبُلُ): إنهارَ، أو.. فَسَد، أو.. جُنَّ.

أخبرَ عنه، حتى إذا جَنَّهُم الليل واجتمعوا في مجمعهم يستهزئون بالنبي (ص) ومقالته، إذ سمعوا صوتاً من السقف، وأحسوا بحركة في جذوعه، فرفعوا رؤوسهم ينظرون إليها، وإذا هي بأجمعها قد انقلبت أفاعي وقصدت نحوهم، إلى أن عدلت عنهم، والتقمت ما في الدار من الجرار والكراسي والخشب والسلم والأبواب وأمثالها، وأصاب القومَ ما أخبرهم النبي (ص) مِن خَبَلِ جماعةٍ منهم، وإغماءِ فرقةٍ أخرى، وموت أربعة من أكابرهم، فعند ذلك أخذوا يتوسلون بربهم مستشفعين بالنبي (ص) والوصي وآلهما (ع)، وبذلك قويت قلوبهم وزال الخوف عنهم، ثم أخذوا في الدعاء لمن مات منهم كما علمهم رسول الله (ص) ولم يلبثوا أَنْ نُشِر مَن مات منهم ورجعوا أحياء قاموا من مَصارعهم وقد أيقنوا بصدق النبي (ص) ونبوته، وأذعنوا بتأثير ما عَلَّمهم من الدعاء، ثم تشاوروا بينهم واتفقوا على أن يدعوا ربهم، متوسلين بالنبي (ص) وآله أَن يُلين اللهُ قلوبَهم للإيمانِ وقبولِ الإسلام، ويحببَ إليهم النبيَ (ص) وطاعتَهُ وتصديقَه، ويُكَرِهَ إليهم الكُفْرَ، فدَعَوْا ربَهم بذلك، وأجابهم الله إليه، فرجعوا إلى النبي (ص) وأَسلموا، وأَسلم معهم جماعةٌ من اليهود على يديه (ص)، وأقام الباقون منهم على غَيِّهم وكُفْرِهِمْ، ولم يصدّقوا القومَ في مقالتهم وإخبارِهم بأمر الجذوع، وكانت قد رجعت إلى ما كانت عليه من حالة الجذوع المنصوبة في السقف، فلما كان الغد، أقبل أولئك المعاندون إلى المجتمع ينظرون إلى الجذوع وقد عادت ثعابين وأفاعي كالمرة السابقة، وأصاب القومَ ما أصاب أصحابهم الأولين من الحيرة والدهش والإغماء والخَبَل والموت، إلى أن أسلم كثير منهم، وأقام الآخرون على شقائهم الغالب عليهم.

وهَمَّ جماعة بقتله (ص)، فخرجوا من مكة نحو المدينة، فسلَّط الله على مَزاوِدِهم[٩١] ورَواياهم الجرذان فخرقتها ونقبتها حتى سالت مياهها،

٩١ ـ المَزاوِد، جمع مِزْوَد: ما يوضع فيه طعام المسافر.

ولما شعروا بذلك وغلب عليهم العطش، رجعوا قهقرى إلى الحياض التي تزودوا المياه منها، فإذا الجُرْذان قد سبقتهم إليها، ونقبت أصولها وسالت مياهها في البيداء، فازداد بهم العطش حتى هلكوا بأجمعهم، ولم يَنْجُ منهم إلا رجل واحد ظلَّ يقول: «يا ربَّ محمد إني قد تُبتُ من أذاه، ففرج عني بحق محمد وآله عندك»؛ إلى أن قَدِمَ رَكْبٌ، فسَقَوه وحملوه معهم، ثم حملوا أمتعة القوم نحو المدينة، ولما قَدِمُوا بها وبالرجل على النبي (ص)، آمن الرجلُ وأسلَمَ على يديه (ص)، ووهب النبي (ص) له جِمالَ القوم وأموالَهم.

وكذا تبعه (ص) ذات يوم جماعة عند خروجه من البلد وحده، فاتفقت كلمة القوم على الخروج في أثره والسعي في قتله؛ ولما صاروا خارج البلد، وجد أحدهم أن ثيابه قد امتلأت من القمل، فأخذ يحك بدنه، إلى أن أنِفَ من أصحابه، وانسل عنهم؛ وأبصَرَ آخَرُ وآخرُ مثلَ ذلك، حتى وجدوا كلّهم في أبدانهم وثيابهم من القمل ما لا يُحصَى، واشتغلوا بالحك إلى أن جرحوا أبدانهم، ولم يَنْفَعْهم ذلك بشيء، إلى أن رجعوا إلى منازلهم، وهلكوا بأجمعهم، خِلالِ شهرين.

وخرج (ص) في بعض أسفاره، ولما كان في بعض الطريق انعزل عن أصحابه مُتَستِراً، وبَعُدَ عنهم لقضاء حاجته، فأبصره قوم من اليهود، فبادروا نحوه ليقتلوه، ولما انتهوا إليه وجردوا سيوفهم وأحاطوا به، أثار الله تعالى مِن تحت قَدَمي نبيه (ص) مجموعة كبيرة مِن الجراد، وسلَّطها عليهم تلسعهم بأنيابها، وتأكل من جلودهم ولحومهم، ولم يمكنهم دَفْعها عن أنفسهم حتى وَلَّوا هاربين، ثم هلكوا بأجمعهم في مدة يسيرة.. وقد بلغ عددهم مئتي نسمة.

وحدث أن احتجم[٩٢] النبي (ص) ذات يوم، فدفع ما خرج من الدم من

---

٩٢ ـ الاحتجام: المعالجة لإخراج الدم من البدن.

بدنه الشريف إلى أحد أصحابه وأمره بحفظه، فذهب الرجل بالدم ثم شربه، ولما طلبه النبي (ص) منه قال: «شربتُه يا رسول الله»، فقال (ص): «ألم أقل لك غيِّبه؟»، قال الرجل: «قد غيبتُه في وعاءٍ حَريز»؛ فنهاه النبي عن العود إلى مثل ذلك، ثم بَشَّرَهُ بحرمة لحمه ودمه على النار بعد اختلاطهما بدم النبي؛ وبلغ الخبر بذلك إلى جمع من المنافقين فأخذوا يستهزئون بالرجل وبوَعْد النبي له، وعَرَف النبي بذلك، فقال (ص): «أما إن الله يعذبهم بالدم»؛ فلم يكن دون أن لحقهم الرعاف الشديد وسيلان الدم من أضراسهم حتى اختلط طعامهم وشرابهم بدمائهم ولم يزالوا كذلك أربعين صباحاً حتى هلكوا بأجمعهم ونظير ذلك أنه ـ (ص) ـ هرب ذات يوم مِن قريشٍ مكة ومعه أمير المؤمنين (ع)، فلحقهما القومُ بالحجارة يتقدمهم أبو لهب حتى صاروا خارج مكة، فرأى القومُ أحجارَ الأرض قد أقبلت إليهما تسلم عليهما، فدهشوا وفزعوا وهم لا يَرَوْن كلَّ ذلك إلا سحراً عظيماً، وتقدمت الأحجار تقع على هاماتهم وهم يهربون منها، حتى سقط عشرة منهم على الأرض أمواتاً، فتقدم إليهم النبي بعد استجارة القوم به، وخضوعهم له وتوسلهم به في إحيائهم، ودعا لهم حتى قاموا أحياءً يشهدون له بالنبوة، وأسلَم سبعة من القوم، وولى سائرُ القوم أدبارَهم، وانصرفوا عنه يدعونه ساحراً عجيباً.

ثم أتاه ذاتَ يوم جمع من المشركين، فيهم أبو جَهْل، وهم أربعة فُرَقاء، فاقترح عليه فَريق منهم أن يُظْهِر لهم آيَةَ نوحٍ وغَرَقَ مَن غَرِقَ من أمته؛ وسأله الفريق الثاني أن يُظهِر لهم آية إبراهيمَ الخليل (ع) ونارِه، وسأله الفريق الثالث أن يُظهِر لهم آية الكليم موسى (ع)، وارتفاع الجبلِ فوق رؤوسِ أمته حتى انقادوا له صاغرين، وسأله الفريق الرابع إظْهارَ آيَةِ المسيح (ع) لهم، وإخبارِه لقومه بما أكلوا وما ادّخروا في بيوتهم، فأجابهم النبي (ص) إلى كل ذلك بأمر من جبرائيل (ع) وأمرهم بالتفرق إلى حيث شاؤوا كي يَرَوا الآيات، ويتوسلوا (عند خوفِ الهَلاكِ) بابنته فاطمة، أو بَعْلها، أو وَلَدَيْها الحسنين، أو بعمه حمزة:

فانطلق الفريق المقترِحُ لآية نوح وغَرَقِ قومِهِ إلى جبل «أبي قُبَيْس» مستهزئين بالنبي ومقالته، إذ نَبَعَ الماءُ فجأة مِن تحتهم، وسالت السماءُ كأفواهِ القِرَب، وأحاط بهم السَّيْل من كل جانب، ولم ينفعهم الصعود على ذروة الجبل، لأنهم أشرفوا على الغَرَق والهلاك، فالتجأوا إلى الاستشفاع بعلي ووَلَدَيه (ع) ونَجَوا بذلك.

وانطلق الفَريقُ المقترِحُ لنار الخليل (ع) إلى خارج مكة، يضحكون على مقالة النبي ووَعْدِه إذ تناثرت جمر النيران من السماء والتهبت الأرض بمِثلها حتى أحاطت بأطرافهم وأيقنوا بالهلاك والتجأوا إلى الاستشفاع بالصديقة فاطمة (ع) ـ حسب أمر أبيها (ص) ـ فبعدت عنهم النيران ونجوا منها.

وانطلق الفَريق المقترِح لآية الكليم موسى (ع) وارتفاع الجبلِ فوق رؤوس أمته، إلى ظل الكعبة يتذاكرون في أمر النبي (ص) مستهزئين به، فإذْ بالكعبة ترتفع بأبصارهم فوق رؤوسهم، حتى انخلعت بذلك قلوبهم فزعاً، وأشرفوا على الهلاك، والتجأوا إلى الاستشفاع بحمزة (ع)، حتى زالت عنهم واستقرت بموضعها؛ ثم رجع الفرقاء الثلاثة إلى النبي (ص)، يذكر لهم فضائل عمه حمزة، وفضائل ابنته الصديقة، وبَعلها، وولدَيها اللَذَينِ سيولدان لهما، وأن الأمَّة لا تنجو إلا بالاستشفاع بهم يوم القيامة.

وأما الفريقُ الرابع المقترِح لآية المسيح (ع)، وهم أبو جهل ومَن معه، فأمسكهم النبي (ص) عنده إلى أن رجع الفرقاء الثلاثة، وسمع أبو جهل منهم حوادثهم، فلم يكن يصدقهم، ولم يَزْدَدْهُ كلُّ ذلك إلا عُتُواً وعناداً؛ وجعل يسأل النبيَّ أن يخبره بما أكله في يومه، وما ادَّخره في بيته، فأخذ النبي (ص) عليه العهودَ والمواثيقَ المؤكَّدة، أن يؤمنَ به إذا أصدقه الخبَر، وإلا فلَيُصيبَنَّهُ الخِزيُ والفضيحة في الدنيا والآخرة؛ ثم أخبره أنه تناول بيومه دجاجة مُسَمَّنة، وأنه بينما كان مشتغلاً بالأكل، دخل عليه أخوه أبو البختري، فعند أبو ذلك وضع أبو جَهْل الدجاجةَ تحت ذيله، وأرْخَى

ثيابه عليها بُخلاً بها وحَذَراً مِن أن يتناول أخوه منها، حتى انصرف عنه أخوه فأكلها هو بنفسه؛ فأخذ أبو جهل يضحك مستهزئاً، ويكذِّبُ النبيَ في مقالته صريحاً يقول: «كذَبتَ يا محمد، لم يكن كل ذلك لا كثير ولا قليل، ولا أكلتُ دجاجةً ولا ٱدخرتُ شيئاً منها»؛ ثم جعل اللعينُ يسأل النبي عن سائر أفعاله بعد الأكل، فأخذ النبي يخبره عن عشرة آلاف دينار ـ ودائع ـ لأفراد من الناس عنده، قد دفنها في الأرض ليَخون فيها أصحابها ويجحدها عليهم، بدعوى سرقتها منه، ثم هدَّده النبيُ بالفضيحة إن لم يعترف بها، وأخبره أنه ليس له من تلك الدنانير إلا ثلاث مئة، وحذَّره من التكذيب، فإنَّ جبرائيل أخبره عن الله تعالى بكل ذلك؛ فرجع أبو جهل إلى تكذيبه في مقالته، وأنه لم يَصِحَّ ولم يَصْدُقْ حرفٌ مما أخبره النبي، فعند ذلك غضب النبي (ص)، ونادى على جبرائيل بإحضار الدنانير وبقية الدجاجة المأكولِ بعضُها، فلم يُتِمَّ كلامَهُ حتى حضر الكل بين يديه، بِمَرْأى من القوم ومَسمَع منهم، فدهشوا بأجمعهم حيرةً وعجباً من ذلك، ثم مد يده الشريفة على البقايا من الدجاجة المَشويَّة ومسحها بكفه، فعاد لحمها، ورجعت حيةً، قائمةً سَويةً بإذن الله تعالى، وٱستنطقها النبي، فشهدت له بالنبوة والصدق في كل ما أخبر به مِن أكل أبي جهل منها، وبخله بها عن أخيه، وفي كل ذلك يأمر النبي أبا جَهْلٍ بالإيمان والتصديق، ويَعِدُه إن فعلَ ذلك بالستر عليه من الفضيحة والعار في الدنيا، والنجاة من النار والعذاب في الآخرة، مع وعده له بإرجاع الدنانير إليه وإدرارِ الرزق عليه حتى يصير أيسر قريش؛ وهو في كل ذلك لا يَجْبَهُ النبي (ص) إلا بالرد والتكذيب، ونِسْبَتِهِ إلى السِحر والتَمويه، حتى بعث النبي إلى أصحاب الودائع من تلك الدنانير، وأرجعها إليهم إلى تمام العشرة آلاف، ولم يَبقَ عنده إلا الثلاث مئة لأبي جهل نفسه، فكرر النبي عليه الكلام يأمره بالإسلام، كي يأخذَ مالَهُ وصُرَّته، وهو لا يزداد إلا بُعداً وعناداً يقول: «لا أؤمن بك، والدنانيرُ لي أستلمها وآخذها»؛ ثم مد يده نحو صرته ليتناولها، وإذ صرخَ النبيُ على الدجاجة، وأمَرَها بالحيلولة بين الدنانير وأبي جهل، فلم يتم كلامه حتى

طارت الدجاجةُ على رأس أبي جهل، تضربه بمخالبها على عينيه ورأسه حتى طَرَدَته، ودهش الحاضرون بتلك المعجزات والآيات، وأسلم كثير منهم، وانصرف أبو جهل مَخزِياً مُفْتَضَحاً مَخذولاً، قد أشرفَ على الهلاك كَمَداً وغَيظاً وحَسَداً وبُغضاً؛ وأخبر النبيُّ القومَ أن الدجاجة ستكون من طيور الجنة. هذا وإن نظائر تلك الآيات منه (ص)، في إحيائه المَوْتَى، وإخباره بالمغيَّبات مما هو أكثر وأفضل من آيات المسيح (ع)، لَكثيرة يضيق عن حَصْرها نِطاقُ الكلام وضِيقُ المقام، وقد مرَّ شطر منها في طي الكتاب، وستأتي الإشارة إلى شطر آخر منها إن شاء الله تعالى.

ولَئِن كان إدريسُ (ع) رُفِع إلى السماء بعد وفاته، ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾[٩٣] وأطعمه الله من تُحَف الجنة، فقد رفع الله محمداً في حياته إلى السماوات والعرش والكرسي، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾[٩٤] مِن ربه تعالى، كما مرت الإشارة إلى ذلك في قضية معراجه، ثم خاطبه بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾[٩٥]، فقرَنَ اسم رسوله الأكرم (ص) باسمه هو الأعلى، في آيات كثيرة وسَنَّ ذلك على الأمة كما سبقت الإشارة إليه؛ وقد أتاه جبرائيل (ع) ذات يوم بتُحْفة من الجنة في جام[٩٦] يأمره بأكل شيء منها، وإعطاء بقيتها لِوصيِّهِ وسائر أهل بيته، فعمل ما أوصِيَ به، وهلَّلَتْ وسَبَّحتِ التُحفةُ والجام في أيديهم.

وإنه (ص) قد احتمل الأذى من قومه أكثر مما احتمل جميع الأنبياء من أممَهم، حتى قال (ص): «ما أُوذِيَ نَبيٌّ مثلَ ما أوذيتُ»، مع إطاعة الكائنات لأمره، وعرضها أنفسها عليه لنصرته، واستئذانها له في هَلاك

---

٩٣ ـ القرآن الكريم، ج (الجزء) ٢٦، س (السورة) ١٩ مريم: ٥٧.

٩٤ ـ القرآن الكريم، ج ٢٩ س ٥٣ النجم: ٨ و٩.

٩٥ ـ ج ٣٠ س ٩٤ الشرح: في الحاشية رقم ٤.

٩٦ ـ جام: كأس، وعاء، إناء.

قومه، ونزول أفواج الملائكة عليه في ذلك، وهو (ص) لا يأذن لهم ولا يأمرهم إلا بالانصراف إلى محالهم؛ ومع كل ذلك ظهرت على يده آيات بيِّنات كثيرة، خرجت عن حد الإحصاء، وإن قيل إن مجموع ما نُشِر منها في الكتب والتواريخ تِعداده أربعةُ آلاف وأربعُ مئة وأربعون معجزة، فإنه - حتى بعد الغض عن كل ذلك - لو لم يكن له كرامة وآية تشهد له بالنبوة، عَدا القرآن الكريم الباقي إلى يوم القيامة، لَكَفَى به آية ومعجزة ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[97] وهو أعلى شأناً وأرفعُ مقاماً وأجلُّ خَطَراً وأعظم قَدْراً مِن جميع مَعاجزه، وإنه شافِعٌ مُشَفَّعٌ، وماحِلٌ[98] مُصدَّق، ودليل يدل على خيرِ سبيل، وكتاب فيه تفصيل، وبيانٌ وتحصيل؛ وهو فَصْل ليس بالهَزْل، وله ظَهْر وله بَطن، ولبطنه بُطون[99]، ظاهِرُهُ حِلم وباطِنُهُ عِلم، تنزيلُهُ أنيق وتأويلُه عميق، له تُخوم وعلى تخومه تخوم[100]، لا تُحصَى عجائبُه ولا تبلَى غرائِبُه، فيه مصابيح الهُدَى ومَنار الحكمة لأُولِي النُّهَى[101]، مَن جعله أمامَه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفَه ساقه إلى النار؛ فيه القصص والأحكام وأخبار الغيب الماضية والمستقبَلة وهو أحسن القصص بأفصح كلام وأبلغ نظام، أذْعَنَ[102] له الفصحاء وخضع له البلغاء، ترى العقولَ له سكارى وأفهامَ الأدباء لديه صاغرة[103] حَيارَى وقد تحدى به النبيُ (ص) فُصَحاء

---

٩٧ - القرآن الكريم، ج ٢٤ س ٤١ فُصِّلَت: ٤١ و ٤٢.

٩٨ - ماحلٌ مُصدَّق: الشائع عن معنى «ماحِل» أنه «مُجدِب» لا خير فيه، ولعل كاتبها هنا يقصد: حتى أنَّ مَن يَصِفُه بالماحلية لا يُنكِر أنه مصدَّق وله إجلال.

٩٩ - .

١٠٠ - تُخوم: حدود.

١٠١ - لِأُولي النُهَى: لأصحاب العقل، للعقلاء.

١٠٢ - أذْعَنَ: أقَر، اعترف، خضع - أذعن له الفُصَحاء: اعترفوا له بالأفضلية والصواب.

١٠٣ - صاغرة: منحنية، معترفة (للقرآن الكريم) بالرفعة وبالتقدم عليها.

العرب العَرْباء، وقَرَعَ مسامِعَ بُلَغاء البَطحاء[١٠٤]، على كثرتهم عدد رِمال الدَهناء[١٠٥]، وما هم عليه من العصبية الشديدة، وحَمِيَّةِ الجاهلية وتفانيهم على المباهاة والمباراة، وهم رؤساء البلاد وصناديد[١٠٦] الحجاز، وطواغيت قريش وفراعنة العرب، ولهم العُدة والعَدد، والغنى والثروة، والأهل والعشيرة، وهم المفتونون بعزمهم وجاههم، والمغرورون بمكانتهم وشرفهم، لم يخضعوا لِمَلِكٍ ولا سلطان، ولم يَذعنوا بكتاب ولا بيان، فعاشَ فيهم النبي الكريم أربعين سنة وهو أُميّ لم يقرأ ولم يكتب، ولم يخرج من الحجاز لتحصيل علم، ولا هاجر إلى رقي البلاد، ولم يَزَل مُدةَ عمره مشتغلاً بِرعي الأغنام، أو التجارة بأموال الأنام، على ما هو عليه مِن اليُتم مِن الأَبَوَيْن وشدةِ الفقر، فأَدْهَشَهُم بهذا الكتاب الكريم، الحاوي للعلوم الكثيرة، وتعليم الأخلاق الكريمة، وقِصَص الأولين وأسرار الآخِرين، ومُغَيَّباتٍ كثيرة، ومواعظ وإرشادات بليغة دقيقة، في عصرٍ غلبَ فيه إنشاء الخُطَبِ والكلمات الفصيحة البليغة بين أقوامٍ من العرب، وهم أصحُّ افهاماً وأحَدُ أذهاناً من سائرِ فِرَق الأمم الماضية البسيطة، والقرون السالفة البليدة التي سألَتْ نبيَّها أن يجعل لهم إلٰهاً كإله عَبَدَةِ الأصنام، فترى أن هذا النبي الأُميّ، بينما هو مشتغل كغيره بالتجارة في تلك الأقطار الجاهلة، والبلاد البعيدة عن العلوم والمدنية، إذ فاجأهم بهذا الكتاب الكريم، المتناهي على طوله في الفصاحة، والبالغ الغاية في البلاغة، حتى بَهَتَهُم به وأخجلهم ببشاعة ما كانوا أنشأوه وعلقوه في الكعبة معجبين به، كقولهم: «القَتْلُ أَنفَى للقتل» تأسيساً لقانون القصاص، إلى أن نزلَ قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾. [١٠٧] إلخ، حتى أخذوا يخطفون مُعَلَّقاتِهم

---

١٠٤ ـ البطحاء: الأرض المنبسطة المديدة السهلة.

١٠٥ ـ الدَهْناء: الصحراء، الفَلاة.

١٠٦ ـ الصناديد: السادة الشجعان (مفردها: صنديد).

١٠٧ ـ القرآن الكريم، ج ٢، س ٢ البقرة: ١٧٩.

ليلاً، ويُخفون مُنشآتِهِم خجلاً، ثم تحداهم بمعارضة كتابه، مكتفياً بذلك عن المقارعة بالحروب وإهراق الدماء، وأباح لهم أن يستعينوا في ذلك بمن شاؤوا من أهل الخُطَب والكلام؛ ثم أخبر بعجزهم عن ذلك، بقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[108]، ثم تحداهم ثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً، يُناديهم بصريح عباراتِه، ويسألهم المعارَضةَ لِعَشْرِ سُوَرٍ مِن سور كتابه، بقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ﴾[109] أو معارضة قصة واحدة وحديث واحد من أحاديثه بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[110] أو معارضة سورة واحدة صغيرة أو كبيرة يُعارضه بها رجل أُمِيٌّ مثله بقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[111]، أو غير أميًّ، فقال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[112] إلى قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[113] وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾..[114] إلخ، فعَجِزوا عن ذلك، حتى التجأوا حَسَداً إلى المقارعة بدلاً من المعارضة، وبذلوا النَفْسَ والنفيسَ في سبيل الغي والمدافعة، وهم يعادونه أشد العداء، ويتهالكون في إبطال أمره، حتى فارقوا الأوطان والعشائر، وبذلوا النفوس والمهج، وخاضوا البحار واللُجَج، وخاطروا بأنفسهم وأعراضهم في الحروب الدامية والمعارك الهائلة لدحض دعوته، ولم يمكنهم إنشاءُ مثلها، ولا معارضةُ أصغر سورةٍ من كتابه كي يُفْحِموه ويستغنوا بذلك عن مواقع

١٠٨ ـ ج ١٥، س ١٧ الإسراء: ٨٨.

١٠٩ ـ ج ١٢، س ١١ هود: ١٣.

١١٠ ـ ج ٢٧، س ٥٢ الطور: ٣٤.

١١١ ـ ج ١، س ٢ البقرة: ٢٣.

١١٢ ـ ج ١١، س ١٠ يونس: ٣٨.

١١٣ ـ

١١٤ ـ

النِزال التي يَهرَمُ منها الصغير ويَفْنَى فيها الكبير، ولو كانوا عارضوه بقليل أو كثير من الكلام، لَأثْبَتَتْهُ الصُحُفُ ونشرته المزاميرُ والكتبُ شرقاً وغرباً، لِتَوَفُّر الدَوَاعي إلى نقلها، وأكثرية الراغبين في حكايتها ونَشرها في كل أرضٍ وزمان، من غير رادِعٍ عن ذلك ولا مانع، ولو كان يوجد رادع أو مانعٍ لكان ظَهُر. وقد اتفقتْ كلمة أربعة من بُلَغائهم على معارضة القرآن، وتَكفَّلَ كلٌّ منهم بمعارضة رُبْعٍ منه إلى مدة سنة كاملة؛ فلما حالَ الحَوْلُ، واجتمعوا في مقام إبراهيم (ع) على الميعاد، اعتذر أحدهم عن المعارضة، بعد سُماعِ قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾.. [115] إلخ؛ واعتذر الثاني أيضاً بعد سُماعِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾.. [116] إلخ؛ واعتذر ثالثهم عن إنجاز وعده بسُماعِ قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾.. [117] إلخ؛ واعتذر رابعهم عن ذلك بسُماعِ قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ [118]؛ فإنه على اختصاره اشتمل على أمْرَيْنِ ونَهْيَيْن وبِشارَتَين، ولقد أجادَ الحجةُ الطباطبائي الحائري (قده) بقوله:

رَبُّ الوَرَى أرسلَ سيِّدَ الوَرَى ... إلى الوَرَى مُبَشِّراً ومُنْذِراً [119]
مُحمدٌ خيرُ نَبيٍّ مُرسَلِ ... أرسلَهُ معَ الكتابِ المُنْزَلِ [120]
بُرْهانُهُ قُرآنُهُ وهَل تَرَكْ ... لِلمُبتَغِي بُرْهانُهُ مَثارَ شَكّ

---

١١٥ ـ ج ١٢، س ١١ هود: ١٣.
١١٦ ـ ج ١٢، س ١١ هود: ٤٤.
١١٧ ـ ج ١٤، س ١٦ النحل: ٩٠.
١١٨ ـ ج ٢٠، س ٢٨ القصص: ٧.
١١٩ ـ الوَرَى: البَشَر، الخَلْق.
١٢٠ ـ الكتاب المُنْزَل: القرآن الكريم.

فَهْوَ كما أُسْلُوبُهُ بِهِ نَطَق … وَحْيٌ مِن الحق علَى نَبِيٍّ حق
حَوَى مِن البَديعِ والبَيانِ … ما خَرَجَتْ عن طاقةِ الإنسان
يَخْرَسُ مِن إبْداعِ «يا أَرْضُ ٱبْلَعي» … كلُّ خَطيبٍ في البَيانِ مِصْقَعِ[١٢١]
حَوَتْ مِنَ البَديعِ ما قد بَلَغا … نَيْفاً وعشرين فَأَعْيَى البُلَغا
وكم حَوَى مُغَيَّباً مِنَ الخَبَرِ … ما بَينَ واقعٍ وبَينَ مُنْتَظَر
أتى به الأُمِيُّ في أُمِّ القُرَى … وما لِوَفْدِ العِلْمِ فيه مِن قِرَى[١٢٢]
ولم يُسافِرْ غَيرَ مَرَّتينِ في … تِجارةٍ في وَقْتِها المُوَظَّفِ
وقولُه فَأْتُوا بسورةٍ ولا … مُجيبَ كافٍ عند مَن تَأَمَّلا
فما أَتَوا بسورةٍ بل آية … رِوايةٍ آيَتُها الدِرايَة
فآلَ أمْرُهُمْ إلى التَجارُبِ … فقابَلوا الكِتابَ بالكَتائِبِ
وآذَنُوا بالحَرْبِ والكِفاحِ … وعارَضُوا المُصْحَفَ بالصِفاحِ
وآثَروا الطِعانَ بالسِنانِ … عَجْزاً عن البَيان باللِسانِ

وبالجملة ففي قرآنه غِنًى وكفاية عن ذِكر سائر معجزاته، وكذا في تأسيس قوانينه، وتشريع شريعته المقدسة السهلة السمحاء، المنزَّهَة عن

---

١٢١ ـ «يا أَرضُ ٱبْلَعي»: قسم من آية قرآنية كريمة، وردت في السورة ١١ (سورة هود) في الجزء ١٢ خلال عرض حديث النبي نوح مع ابنه يحذره من الطوفان حين بدأ نزوله على الكافرين المنكرين لنبوة أبيه، فلم يصدق الابن دعوة أبيه «فكان من المغرقين» ـ ج ١٢، س ١١ هود ـ الآيات من ٣٦ إلى ٤٧.

١٢٢ ـ الأُمّي: النبي الأُمّي هو رسول الله (ص)، والتفسير الشائع لهذه الصفة (صفة الأُمّي) أنه لم يكن يحسن القراءة، والتفسير الأصح (في معتقد الأوائل الذين أطلقوا هذا النعت عليه صلّى الله عليه وآله) أنه لم يكن من بني إسرائيل الذين يشترط اليهود أن يكون الرسول السماوي منهم (من بني إسرائيل)، بل كان من الأمم (الشعوب الذين يجعلهم اليهود في منزلة أدْنَى من بني إسرائيل) والنسبة إلى الأمم (طبقاً للقاعدة القديمة) تكون إلى مفردها: أمة، أي: أمي (وهذا الحكم يؤمن به اليهود، ويتكتمون به سراً من جملة معتقداتهم السرية) ـ أم القُرى: أحد أسماء مكة ـ قِرَى: ضيافة.

النقص والمبرّأة من العُيوب، والموافِقة للمَشارب المختلفة والأهواء المُتَشَتِّتَة، والملائمة للطباع والأخلاق المتتابعة، والنفوس والآراء المتشعبة، وهي الباقية الدائمة إلى يوم النشور، على اختلاف الأزمنة والدهور، وتَغَيُّرِ حوادث الأمور، قد أتى بها النبيُ الكريم الأُمِيُّ وحده مِن غير مشاورة في ذلك لمخلوق، وإنَّ في كلٍ مِن ذلك لَعبرةً لأولي الأبصار، وحُجةً واضحة لذوي العقول والأفكار، وكفى بذلك برهاناً لِنبوته، ودليلاً واضحاً على رسالته، وقد قال فيه (ص) حفيدُ حفيدِهِ الإمامُ جعفرُ الصادق (ع)، أنه (ص) أَحَبُّ أنبياءِ الله إليه، وأكرمُهم عليه، وأن في حومة العِزّ مَولدَه، وفي دَوْحَةِ الكَرَم مَحْتِدَه، غيرُ مَشوبٍ حَسَبُه، ولا مَمْزوجٍ نَسَبُه، ولا مجهولٍ عند أهل العلم صِفَتُه، بَشَّرَتْ به الأنبياءُ في كتبها، ونَطَقَتْ به العلماءُ بنَعْتِها، وتأمَّلته الحكماءُ بوصفها، مَهَذَّبٌ لا يُدانَى، وهاشميٌ لا يُوازَى، وأَبْطَحِيٌّ لا يُساوَى، شِيمتُه الحيَاء، وطبيعتُه السَخاء، مَجبولٌ على وَقار النبوَّةِ وأخلاقها، مطبوعٌ على أوصاف الرسالةِ وأَحلامِها، إلى آخِر ما ذَكَرهُ هو وسائرُ الخلفاءِ المعصومينَ من نَعْتِه (ص)؛ أضف إلى كل ذلك سائرَ ما بَرَز مِنَ معجزاتهِ عندما كان جنيناً في بَطنِ أمه، وما ظَهَرَ منه حين ولادته، وحين أيام رِضاعِه، على ما أشرنا إليه في ما تقدم، إلى غير ذلك مِمّا لا يُمكنُ حَصرُه واستقصاؤه مِن تأثيره، في الجمادات، والنباتات، والبهَائم، والجنِ، والشياطينِ، وأفلاكِ السماوات، وإخبارِهِ بالمُغيَّبات، وإحيائِهِ الأموات بإذن الله تعالى..

فَمن ذلك، ما صَحَّ وثَبَتَ مِن أنه أتاهُ ستة رجال من أكابر اليهود، هم: مالِكُ بنُ الصيف، وكَعبُ بنُ الأشرف، وحَيُّ بن أخطب، وأَخَواه جَدْيٌ وأبو ياسر، ثم أبو لبابة بن عبد المنذر؛ ولما استقر الجلوسُ بهم عنده، وأطالوا الجِدالَ والمحاججة معه، وأكثروا الكلام، وبالَغوا في العِناد، ولم يقنعوا بما بيَّنَ لهم، اقترحوا عليه أن يَشهدَ له بالنبوة حمارُ كعب، وسَوْطُ أبي لبابة، والبساطُ الذي كان تحتهم، فلم ينصرفوا حتى أنطقَ اللهُ كلاً منها بالشهادة لله بالوحدانية، ولِمحمدٍ (ص) بالعبودية

والرسالة، ولِوَصِيِّهِ بالخلافة ووجوب الطاعة، بحيث بَهَرَ القومَ وأذْهَشَهم، ولم يَزِدْهُم كل ذلك إلا عِناداً وعُتُواً، يقول بعضهم لبعض: «ما هذا إلا سحر مبين»؛ ولما هموا بالقيام والانصراف، ارتفع بهم البساط ونَكَسَهُم على رؤوسهم على الأرض، ثم قاموا وتناول أبو لبابة سَوطه، فانجذب السوط من يده، وارتفع بقدرة الله يضربه على رأسه ووجهه، حتى خَرَّ على الأرض وأظهرَ الإسلامَ مع إبطانِهِ الكفرَ، فأمر النبي حواريَّه الأربعة سلمانَ وأبا ذَرٍ والمقدادَ وعمار بالجلوس على البساط، كي يستقر بعد اضطرابه بالقوم؛ وأن يتناولوا السوط كي يسكُنَ بعد حركته، فقام القوم وقد مُلِئوا غَيظاً وكَمداً، وخرجوا من عند النبي (ص)، وركب كعب حماره، فشَبَّ به الحمار حتى ألقاهُ على الأرض وأوجعه، ثم قام وركبه ثانياً فعاد الحمار إلى اضطرابه ورَمَى به ثانياً على أُمِّ رأسه، ولم يزل يكرر الركوب والحمار يكرر رَمْيَهُ على الأرض سبع مرات حتى كاد أن يختنق بكَمَدِهِ، وأشرف على الهلاك مِن غَيظِه، إلى أن ناداه النبي (ص) وقال: «يا كعبُ، حِمارُكَ خيرٌ منك، وقد أَبَى أن تركبَهُ فلن تركبه أبداً، فبِعْهُ إلى بعض المؤمنين»؛ فقال كعب: «لا حاجةَ لي فيه بعد أن ضُرِبَ بسحرك»؛ ثم باعه إلى ثابت بن قيس بمئة، وبقي عنده هيناً ليناً ذليلاً، ونزل في القوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾.[١٢٣]

وأقبل إليه (ص) ذاتَ يوم شيخٌ كبير بابنه، يشكوه إلى النبي (ص) قائلاً إنه لا يواسي أباه بماله كثيراً ولا قليلاً، رَغمَ ما كان يملكه مِن بِدَر الدراهم والدنانير، وأنابيبِ القمح والشعير، وما بَذَلَ له أبوه في صغره من النَفْس والنَفيس حتى رباه؛ وظَلَّ النبي (ص) يَعِظ الشاب ويأمره بالإحسان إلى أبيه، وهو يكذِّب أباه وينكر أنه يملك شيئاً مما يدَّعيه أبوه فيه من الغِنَى والثروة، إلى أن أمر النبي (ص) «أسامة» بدفع مئة دِرْهَم للشيخ لنفقة شهره، وأمرَ الشابَّ أن يعطي أباه بعد الشهر، وانصرفا من عند النبي

١٢٣ ـ القرآن الكريم، ج ١، س ٢ البقرة: ٦.

(ص)؛ ولما كان بَعدَ الشهر، رجعا إليه يُعيد الشيخُ شكايته من ابنه، ويعيد الشابُ مقالتَهُ وتكذيبَ أبيه ويدعي الفقر، وأخذ النبي (ص) يعيد الوعظ والنصيحة للشاب الإحسان إلى أبيه، ويهدده بالفقر والحاجة إن لم يُواسِهِ بماله، وهو لا يزداد إلا إنكاراً لِدَعْوَى العُدْم والفقر، إلى أن غضب النبيُ (ص) عليه وقال له: «إن لكَ مالاً كثيراً، ولَكنكَ اليومَ تُمسي وأنتَ أفقرُ من أبيك»؛ فانصرف الشاب إلى منزله، وإذا على باب داره جيرانُهُ مجتمعون يصرخون عليه مِن نَتَنِ رائحة أنابيب تَمْرِهِ وزبيبه، ويحكمون عليه بتحويلها عن جوارهم، فلما أَقبَلَ عليها، فوجىءَ بأنها قد فَسَدت جميعها، وأكل السوسُ والديدانُ غِلَّتَه، ولم يبق منها حتى ولا قليل، فاكترى أُجَراءَ لنقلها إلى خارج المدينة وإلقائها على المزابل، ولما أكملوا عملهم وطالبوه بأجرتهم، انصرف الشاب إلى عِلبة دراهمه ودنانيره فلم يَرَها، ثم فوجىءَ بمنظرها وقد طُمِسَتْ[124] وانقلبت حَصَواتٍ كقطع حجرية صغيرة، فانهارَ كثيراً حتى لَجأَ إلى بيع داره، وما فيها من الأثاث وسائرِ ما عندَه، حتى الكسوة والفَرْش، ليؤمن أجرة الحمالين، وسائر مَن يطالبه مِن دائنيه وأصحابِ الودائع عنده، وانتهى يومَه وقد أمسى فقيراً قَتْراً[125] لا يهتدي لقوت ليلته، وشاع خبره وأخذ النبي (ص) يُنْذِرُ الناسَ ويُحذِّرهم من عقوق الأبوين، ويدعوهم إلى الاعتبارِ بأمرِ الشاب وطمسِ أمواله، مضافاً إلى ما أُعِدَّ له في الآخرة مِن دَركاتِ النار، بدلاً عن درجاته في الجنة في حالِ إحسانه إلى أبيه.

وأقبل إلى النبي (ص) ذات يوم رجل طبيب ماهر من بني ثقيف ـ اسمه الحارث بن كلدة ـ يقول: «يا محمد، أتيتُ أُداوِيكَ مِن جُنونك، فقد عالجتُ وداويتُ مجانين كثيرين»؛ فرد عليه النبي (ص) نسبة الجنون وقال

١٢٤ ـ طُمِسَت: تهشمت، زالت، انمحت.

١٢٥ ـ القَتْر: المُضَيّق على عياله في الخَرْج، عَجزاً أو بُخلاً (والفعل منه قَتَر: ضيَّق وتشدد).

له: «تَفعلُ أنتَ أفعال ـ المجانين، وتنسبني أنا إلى الجُنون؟»؛ فسأله الحارث عن القصد من قوله؟ فقال (ص): «نِسبَتُكَ الجنون إليَّ مِن غير امتحان ولا معرفة»، قال: «أو ليس قد عرفتُ كذبك وجنونك بدَعْواك النبوة ولا تقدر لها؟»؛ فاعترض النبي (ص) على افترائه ودعواه ـ فيه من غير طلب حجة ولا برهان، فأشار الحارث إلى شجرة عظيمة هناك، وسأل النبيَ (ص) أن يدعوها إليه حتى تشهد له بالنبوة؛ فأجابه النبي (ص) إلى ذلك، وأشار إلى الشجرة يدعوها إليه، فلم يتم كلامه حتى انقلعت بعروقها وأقبلت إلى النبي (ص) تَخُدُّ[١٢٦] الأرض كالنهر المحفور، حتى وقفت بين يديه يسمع الحاضرون لها دَوِياً، إلى أن ارتفع منها صوت يشهد بليغاً للنبي (ص) بالعبودية لله وبالنبوة، ولوَصِيه بالخلافةِ ووجوبِ الطاعة، ولأوليائه بالجنة، ولأعدائه بالنار، فدهش الحارث وقد غارت من ذلك عيناه في أم رأسه عجباً وحيرة، ثم تاب من مقالته وأسلم على يده (ص)، وحَسُنَ إسلامه.

وأتاه ذات يوم رجل يرعَى الأغنام، فأقبل وقد ارتعدت فرائصه وعلاه العَجَب والوحشة، وأخبر النبيُ (ص) مَن حَضَرَهُ مِن الصحابة أن للرجل شأناً عجيباً؛ ولما انتهى الرجل إليه ووقف بين يديه، سأله النبيُ (ص) عن انزعاجه، فقال: «يا رسول الله، أمري عجيب». . ثم أخذ يحدث أنه عند رَعْيِهِ لغنيماته، أتاه ذِئبٌ خطَفَ منه حَمَلاً، فاعترضه الراعي يرميه بمقذفته، فألقَى الذئبُ ما كان قد حَمَلَه وبَعُد، ثم أتاه ثانيةً وثالثةً، وهكذا يحمل كلَّ مرة حَمَلاً ثم يُطلِقُهُ بِرَمْي الراعي له، إلى أن قال الراعي: «فرأيتُ الذئبَ أَقْعَى[١٢٧] على ذَنَبِهِ، يخاطبني كالآدميين طَلْقاً[١٢٨] فصيحاً يُعاتبني على

---

١٢٦ ـ تَخُدُّ (الأرض): تشق (في الأرض) خطوطاً مستطيلة نتيجة سيرها فيها وحَفرها ترابها.

١٢٧ ـ أَقْعَى (على ذَنَبه): جلس على ذَنَبه.

١٢٨ ـ طَلْقاً: سريعاً واضحاً.

الحيلولة بينه وبين غِذائه، فارتَعَدَت فرائصي عَجَباً وحيرة من ذلك، وجعلتُ أقول متعجباً: ذئبٌ[129] يكلمني؟! فزادني الذئب تعجباً إذ سمِعتُهُ يقول: وأعجب من ذلك تكذيبُ الأمة بمحمد، أُرسِلَ بين الحرتين وهو الشفاء النافع، ثم أمرني بالسعي إليكَ والإيمان بك وبخلفائك، وتكفل لي بمراقبة غنيماتي، فجئتُ إليك منزعجاً دَهِشاً لأخبرك بذلك»؛ فتوجه النبي (ص) إلى مَن حضر عنده، وهو يَتَبَسَّم ابتهاجاً بالمؤمنين منهم وازدياد إيمانهم وتصديقهم، وبما عَلِمَ (ص) من ضمائر المنافقين منهم، وأنهم يُحدِّثون أنفسهم بأن ذلك لم يكن إلا مُواطَأَةً[130] مِن النبي (ص) مع الراعي على اختلاق الحديث؛ ثم أمرهم بالانطلاق معه إلى خارج المدينة، نحو الغَنَم والذِئب، ليَرَوا ذلك ويشاهدوا بأبصارهم، ولما قربوا بأجمعهم من قطيع الغنم، أَمَرَهم أن يحيطوا به من كل جانب، كي لا يراه الذئب، ثم أمر الراعي أن ينادي الذئب ويأمره بتعريف شخص محمد من بين القوم، فأقبل الذئب وخَلْفَه أُنْثاه، حتى توسط القوم وانتهى إلى النبي (ص)، فوضعَ خده على التراب بين يديه يمرغ نفسه على الأرض، ثم رفع صوته طَلْقاً زلقاً[131] يشهد له بالنبوة، ولِوَصِيِّهِ بالخلافة والوزارة ووجوب الطاعة، فرجع القوم وقد أخذتهم الرعدة، وحاروا عجباً ودهشة.

وأتاه ذاتَ يوم قوم من اليهود بعد نزول قوله تعالى خطاباً لهم ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[132]، يُخشِنونَ معه الكلام، ويبالغون في العِتاب عليه والمَلامِ في نسبته القِساوة ثم اقترحوا عليه تبيين ذلك بإِنْطاقِ جَبَلٍ أو حَجَرٍ يشهد له بالنبوة، كي يُظهِرَ كونَهُ أَلْيَنَ من قلوبهم؛ فخرج بهم النبي (ص) إلى جبلٍ خارج المدينة، وتَوجَّهَ إليه

---

١٢٩ ـ أعْجَم: غامض اللغة، غير واضح الكلام.

١٣٠ ـ مُواطَأة: اتفاقية سرية، مؤامرة، مخطط.

١٣١ ـ زلقاً: سريعاً.

١٣٢ ـ القرآن الكريم، ج ١، س ٢ البقرة: ٧٤.

وسأله الشهادة بنبوته، فلم يُتِمَّ كلامه حتى شاهدَ القومُ وسائرُ مَن حضر معهم جميعاً، أنْ قد تَزَلْزَلَ الجبلُ، وفاضَ منه الماء، ثم ارتفعَ منه صوتٌ ودَوِيٌّ يشهدُ له بالرسالة ووجوبِ الطاعة، ففزعوا ودهشوا عجباً وحيرة، ثم رجعوا إلى أباطيلهم، يقولون إن هذا الصوتَ والشهادةَ مِن رجال خَبَّأَهُم محمد تحت أحجار الجبل، لا من الجبل نفسه، فأمر النبي (ص) بعضَهم أن يَرفَعَ حجراً منه يُقرِّبُه إلى سَمْعه ويَسمعُ منه مثلَ ما سمعَ من الجبل، ثم اقترحوا عليه انخلاع الجبل من أصله وتناثره، فلم يلبثوا أن شاهدوا وسمعوا كل ذلك، والتجأوا إلى إظهار الإسلام بألسنتهم وقد أبطنوا الكفر، ثم انصرفوا واختلوا بأصحابهم من اليهود يقولون لهم: إنا معكم، إنما نحن نستهزىء بمحمد وأصحابه؛ فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.. [133] وفي آية كريمة أخرى ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ [134] ثم أتى إلى النبي (ص) كبيرُهم، المنافقُ عبدُ الله بن أُبَيّ - وكان أَعْتاهُمْ، وأَشَدَّهم كفراً ونفاقاً، وأغناهم مالاً، وأعزَّهم جاهاً، وأحْسَدَهُم للنبي (ص) - فأقبل يدعوهُ ووصيَّهُ وحواريَّه[135] إلى ضيافته في عرسِ بنتٍ له، وكان قد دبَّر لهم طعاماً أكثر فيه من السُّم، وشَوَى لهم نَعْجةً صغيرة مسمومة، وأَعَدَّ حفيرةً في مجلسِ دارِهِ بسطَ فَوقَها بساطاً ربط جوانبه من أطرافه حتى غطى الحفيرة به، ليجلس عليه النبي (ص) وخَواصُّه فيقعوا في الحفيرة؛ ونَصَبَ في أسفلها سكاكينَ وأَسِنَّةَ رِماحٍ مسمومة، فأجابه النبي (ص) إلى ضيافته، ومضى المنافق إلى صاحَبينِ له يقال لهما «جد» و«معتب» يدعوهما وجمعاً من اليهود إلى مجلسه، وبَشَّرَهمْ بحيلته لقتل النبي (ص) وأصحابه، فاجتمع

---

١٣٣ - ج ١، س ٢ البقرة: ٧٥.

١٣٤ - ج ١، س ٢ البقرة: ١٤.

١٣٥ - حواريه: أنصاره.

القوم وقد تسلحوا تحت ثيابَهم احتمالاً لأن يحتاجو إلى الأسلحة لرد هجوم المسلمين عليهم بعد موتِ النبي وحواريهِ بالسُم، فدعا النبيُ (ص) سائرَ جموعه من المسلمين إلى ضيافة المنافق؛ فلما اجتمعوا وقد تكاملوا أكثرَ من ألف نسمة، أقبلَ بهم النبي (ص) إلى الضيافة، ووَسِعَتْهُم الدارُ على ضِيقِها بمعجزة النبي (ص)، وأجلسهم كالحلقة، وضَجَّ المنافق من كثرتهم وقلةِ طعامه، فبَشَّره النبيُّ (ص) بالبَرَكة في الطعام حتى ينصرفوا بأجمعهم شِباعاً، وجلس النبيُّ (ص) ووَصِيُّه عليٌّ (ع) بأمر جبرائيل (ع) من الرب الجليل على البساط، فالتأمت الأرض تحته وصارت أرضاً صلبة، وتقدم المنافق إليه بالطعام المسموم ووضعه بين يديه، فمد النبي (ص) يده إلى الطعام ومعه أمير المؤمنين (ع)، وسمَّى «باسم الله الشافي الكافي المعافي، الذي لا يَضُرُّ معه شيء، ولا داءٌ في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم»، وأخذا يأكلان منه، وأمر جُموعَه بالتناول منه ومن النعجة المشوية حتى أكلوا منها بأجمعهم وقاموا شبعانين، بل وبقي من الطعام والنعجة شيء كثير، وكان وَقَفَ المنافقُ ابن أُبَيّ وأصحابه فوق رؤوسهم، يترقبون موتهم بالسم فَفُوجِئوا، لا فقط بأن الطعام المسموم لم يؤثر عليهم، بل بأنهم قد ازدادوا نشاطاً ولم يصبهم شيء، فدهش ابن أبيّ وصحبه وحاروا في أمرهم، وهم لا يرون كل تلك الآيات إلا سحراً عظيماً.

ثم تناول النبي (ص) منديلاً له ونشره على البقايا من النعجة، ودعا بكلمات، ثم قال لأصحابه: «إن صاحِبَكم لَأكرمُ على الله من نبيِّه الذي أحيا له الموتى»[١٣٦]؛ وإذ النعجةُ تقومُ فُجاةً، ووقفَتْ حَيةً سَوِيَّة قد امتلأ ضَرْعُها[١٣٧]، فأخذ يَحلِبُها ويَسقي جُموعَه منه، حتى ارتَوَوا عن آخرهم، وازدادوا بذلك دَهشةً وعَجَباً وإيماناً به وحباً له، ولم يزدد ابن أُبي

١٣٦ ـ يقصد: عيسى المسيح (ع).

١٣٧ ـ الضَرْع: مجمع دَرّ الحليب (للحيوانات)، كالثدي (للمرأة).

وأصحابُهُ اليهود المنافقون إلا كمداً وغيظاً ونِفاقاً وحَسَداً؛ ثم دعا النبي (ص) على النعجة أن ترجع مَشوية قد أُكِلَ بَعْضُها، وهو يقول (ص): «لولا أني أخاف أن تَفْتِنِنَ بها أمتي، كما ٱفتَتَنَ بنو إسرائيل بالعِجل فاتخذوه رباً من دون الله، لَتَرَكْتُها تَسعَى في أرض الله تأكل من حشايشها»؛ ثم قام (ص) بمن معه وانصرفوا سالمين، وتقدمَ أصحابُ المنافق ابن أُبَيٍّ إلى بقايا الطعام، وفيهم العروسُ ابنتُه، وأقبلوا يأكلونها وقد أيقنوا بِخُلُوِّها مِن كل سُم وضارُ، فلم يُتِمُّوا الأكلَ حتى سقطوا على الأرض، ومضى بعضُهم إلى البساط المفروش على الحفيرة، فوقعوا في الحفيرة وماتوا في ساعتهم وهلكوا عن آخرهم، فوقعت الضجة في الدار، وارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج، وابن أُبَي يُحَذِّرُ أهلَه ومَن بقي مِن متمردي أصحابه، أن يُعرِّفوا النبيَ (ص) وأصحابَه بما أَوْجَبَ هلاكَهم مِن أكلهم الطعامَ المسموم؛ إلى أن لَقِيَهُ النبيْ (ص) بعد أيام وسأله عن ذلك، فقال: «أما البنتُ فقد سَقطَتْ مِن السطح، وأمَا القوم فلحقتهم التُخْمَة»؛ فقال النبي (ص) متغافلاً عنه: «الله أَعْلَمُ بما ماتوا!».

ووضع النبيُ (ص) يوماً رأسَه في حُجْر أمير المؤمنين علي (ع)، ونام إل أن غابت الشمس، ولم يكن علي (ع) صلّى العصر حتى فاتته، فأفاق النبي (ص) وعلم ذلك، فدعا ربه بكلمات يقول: «اللَّهمَّ إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك، فَأرْدُدْ عليه الشمس!»، فلم يتم دُعاءَه حتى رجعت الشمس من المغرب، وأدّى عليٌّ (ع) فريضته، ثم سقطت الشمس كالبرق حتى غابت، ورآها كافة الناس، وازداد المؤمنون فَرَحاً بفضل النبي والوَصِي، والمحلُ معروفٌ مشهورٌ حتى اليوم بمسجد «رَدّ الشمس» خارج المدينة.[١٣٨]

١٣٨ ـ مدينة الرسول (ص)، المدينة المنوّرة في الحجاز اليوم، والتي فيها ضريحه (ص).

وشكا إليه أحد أصحابه من يهودي يطالبه بحقه، وقد تواطأ[139] معه أن يغرس المسلم له مجموعة نخيل يربيها له، إلى أن تُرَطِّب ألواناً كثيرة، وقد عجز عن ذلك؛ فتناول النبي (ص) عدداً من النَوَى[140] على عدد الأشجار ووضعها في فَمِهِ، ثم ناولها لأمير المؤمنين علي (ع) وأمره بغَرسها، فلم يتم الغرس حتى نبتت وأينَعَت[141] بأجمعها وترطبت بألوان مختلفة (كما تواطأ عليه اليهودي) ثم ملّكها إياه، فاستلمها اليهودي وقد أخذته الرعدة حيرةً وعجباً.

واستند النبي (ص) يوماً إلى شجرة يابسة، فأورقت وأثْمَرَت مِن حينها، وكان معه الوصي (ع) فسُمِع من النخلة صوتٌ ودَوِيٌّ يبشر النخلات بالنبي والوصي فسميت «الصَيْحانِية» وهي معروفة حتى اليوم في المدينة المنوّرة.

ولقيه في وادي «أضم» رجل كان يرعى الغنم، يقال له «ركانة»، وكان من أَفْتَكِ الناس، فأَخْشَنَ الكلامَ مع النبي يهدده بالقتل، إلى أن سأله المصارعة على أساس أنه إن غلَبَ النبيَ كان ذلك برهاناً على بطلان دعوته، وحلَّ لركانة حينئذٍ قَتْلُه، وإن غَلَبَهُ النبيُّ وألقاهُ في المصارعة، كان ذلك دليلاً على نُبُوَّتِهِ وصِدْقه، فتناوله النبيُ حتى رَفَعَهُ وجَلَدَ به الأرض - (على ما هو عليه من الشجاعة وعِظَم الجثة) - وجَلَس على صدره، فأخذ يلوذ بالنبي حتى قام (ص) عن صدره وتركه، فقال: «لَكَ عَشْرٌ من غُنَيماتي» ثم سأله المصارعة ثانيةً وثالثةً، ولم يزل النبي (ص) يُجيبُه إلى ذلك كل مرة، ويأخذه ويجلد به الأرض ويجلس على صدره، وهو يتوسل بالنبي في خلاصه، ويهب له في كل مرة عَشْراً من أغنامه، ويتركه النبي، إلى أن اعترف على نفسه بالعجز عن مقاومة النبي وقال: «خُذِلَت اللّاتُ والعُزَّى»!

---

١٣٩ - تواطأ: اتفق (سراً).

١٤٠ - النَوَى: جمع نَواة، ومعناها: بذرة، حصاة، (بحصة).

١٤١ - أَيْنَعَت: أثمرت، نَضَجَت.

ثم قال للنبي: «دونَكَ ثلاثين شاة فاخترها»؛ فلم يقبل النبي منه شيئاً، ودعاه إلى الإسلام، فسأله ركانةَ آيةً أخرى غير المصارعة والغلبة فيها، ثم اقترح عليه أن يَدعُوَ شجرة مثمرة كانت بالقرب منهما، أن تَنشَقَّ نصفين، ويأتي إليه نصفٌ منها، ثم يرجع إلى نصفها الآخر في مكانها، فيلتئمان حتى يرجعا شجرة واحدة كما كانت من قبل، فأخذ النبي عليه العهود والمواثيق المؤكدة، أن يُسْلِمَ إذا ظهَرَ له ما اقترحه، ثم تكلم (ص) بكلمات، وتوجه إلى الشجرة وأشار إليها، ففوجىء الرجلُ بأن تحقق وظهر له كلُّ ما اقترحه على النبي، وأقبل نصف الشجرة يَخُطُّ الأرض بعروقها، ثم رجع والتأمَ بما كان بقي منها في محلها، ورجعت كما كانت شجرة واحدة، فدهش الرجل شديداً وقال: «أرَيْتَني شيئاً عظيماً، ولكنني أكرهُ أن تتحدث نساء المدينة أني أجَبْتُكَ وأسلمتُ لرعبٍ دخلٍ منك في قلبي، فاخْتَرْ غنمك»؛ فقال (ص): «لا حاجة إلى غنمك إذا أبيتَ أن تُسْلِم»، وانصرف مُعرضاً عنه، وإن أشباه ذلك كانت كثيرة!

وقَدِم عليه (ص) وجوه من حضرموت يسألونه آية على نُبُوَّته، وهو بين جمع مِن أصحابه، فتَناولَ مِن الأرض كَفّاً من الحَصَى، وأمرها بالشهادة له بالرسالة، فسمع الحاضرون بأجمعهم من الحَصَيات نَشيشاً[١٤٢] ودَوِيّاً وتسبيحاً وشهادةً له بالنبوة، ولوصيِّهِ بالخلافة ووجوب الطاعة، ثم ناولها أميرَ المؤمنين علياً (ع)، وظلَّت تُهَلِّلُ وتُسبِّح، إلى أن ألقاها على الأرض، فلم يُسمَعْ منها شيء؛ وقد تقدم في عَرضِنا لتاريخ غَزْوَة أُحُد، بعضُ ما ظَهَرَ أيضاً مِن معجزاته (ص)، ومنها انقلاب سَعْفَة النَخْل بكرامته سيفاً صارماً بيدِ أبي دجانة، فجعل يقاتل به وأنشأ يقول:

نَصَرْنا النبيَّ بسَعْفِ النخيل　　فصارَ الجريدُ حُساماً صَقيلا[١٤٣]

---

١٤٢ ـ النَشيش: صوت غَلَيان الماء، أو الطعام في القِدر، أثناء الطبخ.

١٤٣ ـ الجَريد: عُودُ النخل، مجرداً من ورقه.

وذا عَجَبٌ مِن أمورِ الإلٰـهِ ومن عَجَبِ اللهِ ثم الرَسولا

وشكا إليه الفقرَ أحدُ فقراء أصحابه، فأمَرَهُ النبيُ (ص) بالصبر وإكثار الصلاة على محمدٍ وآله الطيبين، فخرج الرجل مِن عنده ممتثلاً لأمره، بتكرار الصلاة عليه وعلى أهل بيته، فلَقِيَه منافقان من المتظاهرين بأنهم من الصحابة، وعَرَفا قصتَه مع النبي (ص)، فأخذا يستهزئان به يقولان: «قد زوَّدَك[١٤٤] محمد الجوعَ والعطش والأماني الباطلة، ما سبَّب إكثارَ صلاتِك عليه[١٤٥]، ولم تَحظَ بطائل»، فانصرف الرجل عنهما كئيباً حزيناً، إلى أن كان من الغد وحضر السوق، ووقف جانباً مع النظارة مشتغلاً بما أُمِرَ به من الصلاة، إذ اعترضه المنافقان، يضحكان عليه ويستهزئان به يقولان «ماذا كانت تجارتك اليوم؟»؛ إلى أن قال له أحدهما: «قد ربحتَ الخَيْبَةَ واكتسبتَ الحرمان، وسبق إلى منزلك مائدةُ الجوع، عليها طعامُ مِن المُنَى[١٤٦]، وألوانٌ من أدام العُرْيِ والذِلَّةِ والجوعِ والعطش التي تنزل بها الملائكة على أصحاب محمد»؛ وأخذ المؤمن الفَقير يرد عليهما الكلام، يذكرُ فيه حُسْنَ اعتقاده بصِدق النبيِ (ص) وكلامه، وأنَّ مَن أطاعه مؤمناً مُوقِناً تفضَّلَ اللهُ عليه بما يحب، وبينما هم في الجَدَل، إذ مرَّ بهم رجل معه سمكة قد أَنْتَنَتْ وأَرْيَحَتْ[١٤٧] يريد بيعها، فقال له أحد المنافقَين، ويُدعَى أبو الشرور: «بِعْها إلى صاحبنا»، يعني المؤمن الفقير، فتقدم صاحبُ السمكة إلى المؤمن يسأله الابتياع منه، والمؤمن يقول: «ليس معي شيء من الثمن»، ولم يزل المنافقان يستهزئان به، ويُلِحَّان عليه بالاشتراء وتحويل ثمنها على النبي (ص)، إلى أن اشتراها بدانِقَين[١٤٨]، وحوَّلَهما على

---

١٤٤ ـ زوَّدَك: جعل لك زاداً، أي طعاماً.

١٤٥ ـ ما أكثرَ صلاتَكَ عليه: ما جَعلكَ تُكثِر الصلاة عليه.

١٤٦ ـ المُنَى: جمع مُنْيَة، أي أُمْنِيَة، فالمُنَى: الأماني.

١٤٧ ـ أَرْيَحَتْ: صار لها رائحة (كريهة).

١٤٨ ـ دانِقَيْن: مثنى «دانِق» اسم عملة مالية قديمة جد رخيصة.

النبي (ص)؛ فانطلق البائع إليه، وأمرَ النبيُّ أُسامةَ فدفع المبلغ له، وانصرف الرجل فرِحاً لأن ذلك كان أضعاف قيمة السمكة، وانطلق المؤمن بالسمكة وشَقَّها، وإذ فيها جَوْهَرَتان نفيستان لا يَقِلُّ ثمنُهما عن مِئَتَيْ ألف دِرْهَم؛ ولما علمَ المنافقان ذلك، عَظُم عليهما وغلبهما الحسد والكمد[149]، حتى لحقا صاحب السمكة يحرضانه على انتزاع الجوهرتين من الرجل، إلى أن أتيا به إليه وانتزعوهما منه، وما إن تناولهما البائع منه، حتى صارتا في يديه عقربتين لَدَغَتاه حتى رماهما على الأرض وهو يصرخ متوجعاً، فتناولهما الفقير المؤمن، وما إن فعلَ ذلك حتى عادتا جوهرتين كما كانتا، فدهش البائع والمنافقان، وحاروا من ذلك عجباً يقول أحدهما لصاحبه: «أمَا تَرَى سِحْرَ محمدٍ ومَهارَتَه؟»، فازداد المؤمن فرحاً وسروراً وحباً وإيماناً بالنبي (ص)، وصار يشد عليهما في النكير، ويحذِّرهما من تكذيب النبي (ص) ونِسْبَتِه إلى السحر؛ ثم أخذ الدُرَّتين إلى النبي (ص)، وباعهما النبي له إلى بعض التجار بثمنٍ عالٍ أكثر مِن مئتي ألف دِرهم دفعها للرجل، وأوصاه بمواساة المؤمنين من إخوانه، ليحصل له بذلك في الجنة أضعافُ ما حصل له في الدنيا، من القصور المزينة، والأشجار المثمرة، ومن الذهب والفضة، والزَبَرْجَد والياقوت.[150]

❀ ❀ ❀

وأقبل على النبي ذات يوم أعرابي يُهَرْوِلُ في مِشيَته وعلى عاتقه جِراب[151] قد علقه على قضيبه، وكان عند النبي حينئذٍ عشرة مِن أكابر اليهود أتَوهُ لِيُحاجُّوهُ ويُسائلوه، فوقف الأعرابي على رأسه يطلب منه آية

---

١٤٩ ـ الكَمَد: تَغَيُّر اللون من الفم.

١٥٠ ـ الزَبَرْجَد والياقوت: نوعان من الأحجار الكريمة النفيسة، أولهما (الزبرجد) يشبه الزُمُرُّد، والثاني (الياقوت): صلْبٌ شفاف، توجد منه ألوان متعددة، أشهرها الأخضر.

١٥١ ـ جِراب: كيس، وعاء من جِلد.

لِنُبُوَّته، ويسأله المبادرةَ إلى إجابته مسرعاً قبل محاججته لليهود، وذلك لكونه غريباً مجتازاً مستعجلاً في الرجوع، فدعا النبيُ (ص) أميرَ المؤمنين علياً (ع) وأمره بإجابة الأعرابي في سؤاله، فغضب الأعرابي واعترض على النبي (ص) في ذلك بقوله: «وما أصنعُ بهذا في محاورتي لك؟»؛ فأخذ النبي (ص) يَذْكُرُ شَطراً من فضائل الوصي علي (ع)، وقال: «يا أعرابي، هذا هو البيانُ الشافي، والعِلْمُ الكافي، أنا مدينةُ الحكمة وهذا بابُها، ومَن أرادها فَلْيأتِ الباب»؛ ثم تَوَجَّهَ (ص) إلى كافَّةِ مَن حضر عنده وقال لهم: «مَن أراد أن يَنْظُر إلى آدم في جَلالَتِه، وإلى شيث في حِكمتِهِ، وإلى إدريسَ في نَباهَتِهِ، إلى نوحٍ في شُكره وعبادته، وإلى إبراهيمَ في وفائه وخِلَّته، وإلى موسى في بُغضِهِ لكلِ عدوِ لله ومُنابَذَتِه، وإلى عيسى في حبه للمؤمن ومُعاشَرَتِه، فَليُنظرْ إلى علي بن أبي طالب هذا»؛ فاعترض عليه الأعرابيُ في مَقالته بَعد إظهارِهِ العَجعبَ مِن إطراء النبيِ (ص) في اْبنِ عمه، وقال له: «إن شَرَفَه شَرَفُك، وعِزَّهُ عِزِّك»، ثم اقترح على النبي (ص) شهادةَ الضَبِّ في جِرابِهِ لِنُبُوته، فأجابه النبي إلى ذلك، وأمره بإخراجه من الجِراب، يكرر عليه ذلك وهو يأبى إخراجه خوفاً من هربه بعد التعب الشديد في اصطياده، إلى أن شارطه النبي (ص) بشهادة الحاضرين على التعويض عليه من ضبه بما هو أحسن منه ـ مع كون الهرب منه آية على بطلان دعوى النبوة ـ إلى أن فتح الأعرابي جرابه وأطلق الضَبَّ ورمى به على الأرض، ففوجىء الأعرابي وكافة من حضر بأنه انحنى للنبي (ص) يمرغ خده ورأسه في التراب بين يديه، ثم ناداه النبيُّ (ص) واستنطقه وطلب منه الشهادةَ بوحدانية الله تعالى وبرسالة نفسه المقدسة ((ص))، فأجابه حالاً (وبصورة سريعة مدهشة) بليغاً فصيحاً يشهد الشهادتين، ثم شهد لوصيه بالخلافة ووجوب الطاعة، بما اندهش به الحاضرون، وطارت عقولهم عَجَباً وحيرة، وصاح الأعرابي يقول: «لا أتبعُ أثَراً بعد عَين! والله لقد جئتُكَ يا رسولَ الله ولم يكن على ظهر الأرض أحدٌ أبغضَ إليَّ منك، ولولا خوفي من أن يُسَمِّيَني قومي عجولاً، لكنتُ عجَّلتُ عليك وقتلتُكَ حين قدومي عليك، وإنك الآن

أَحَبُّ إليَّ مِن نفسي ووُلْدي، وأنا أشهد أن لا إلّه إلا الله وأنك رسول الله»؛ ثم أقبل على اليهود وقال لهم: «ويلَكم أيَّ آيةٍ تريدون؟ وأيَّ مُعْجِزةٍ بعد هذه تقترحون؟ وليس إلا أن تؤمنوا أو تَهْلَكوا عن آخِركم أجمعين؟!»؛ فأجابه اليهود الحاضرون وأسلموا بأجمعهم، وقالوا له: «عَظُمَتْ بَرَكَةُ ضَبِّكَ علينا»؛ ثم استشفع النبيُّ (ص) إلى الأعرابي ـ وكان اسمه «سَعْد السلمي» ـ أن يَترِكَ الضبَّ ويُطلِقَ سبيله بعد إيمانه بالله ورسوله، على أن يُعَوِّضَ عليه الضبُّ عن نفسه بكنز للأعرابي كان قد صاده، وهو مدفون تحت حَجَرٍ قُرْبَهم، فأجابه الأعرابي إلى ذلك، وانصرف من عند النبي (ص) والضَبُّ يَسعَى بين يديه، إلى أن دله على مكانِ دَفْنِ الكنز، وكان قد سبقه بعض المنافقين إلى ذلك المكان لاستخراج الكنز، فلَسَعَتْهَم حَيَّةٌ أهلكتهم في مَوضعهم، ورآهم الأعرابي وعرف شأنهم، ثم حفر مكان الكنز وأخرج منه عشرة آلاف دينار من ذهب خُسْرُوانِيَّة[١٥٢]، وثمانمئة ألف درهم بيض، اشترى بها قُرَى وأراضِيَ وبساتين، حتى صار مِن أغنَى أهل المدينة، ثم رجع إلى قومه من بني سليم، وأخبرهم بقصته، فأسلم منهم في حدود ألف نسمة، أقبلوا بأجمعهم نحو المدينة حتى انتهوا إلى النبي (ص)، يُقبِّلون يديه ورجليه ويجددون إسلامهم لديه، فسُرَّ النبي (ص) بإسلامهم، وأَمَّرَ الأعرابي عليهم، وأنشأ بعضُهم يقول:

أَلَا يـا رسـولَ الله إنـكَ صـادقٌ ... فبُورِكْتَ مُهْدِيّاً وبورِكتَ هادِيا
شَرَعْتَ لنا الدينَ الحَنيفِيَّ بَعدما ... عَبَدْنا كأَمْثالِ الحميرِ الطَواغِيا
فيا خَيْرَ مَدْعُوٍ ويا خَيرَ مُرْسَلٍ ... إلى الأنْسِ ثم الجِنُّ لبَيَّكَ داعِيا
أَتَيْـتَ بِـبُرْهـانٍ مِـنَ اللهِ واضِـحٍ ... فَأَصْبَحْتَ فينا صادِقَ القَوْلِ راضِيا
فبُـورِكْـتَ بـالأَقـوامِ حَيـاً ومَيِّـتـاً ... وبُوركتَ مَوْلوداً وبُورِكتَ ناشِيا

ومثل ذلك مِن تَكَلُّم الظَبْيَة وغيرها من البهائم معه بما يطول المقام بذكره.

---

١٥٢ ـ خُسْرُوانية: (منسوبة إلى «خُسْرُوْ» أي بالعربية: «كِسْرَى»، فتكون خسروانية بالعربية «كِسْرَوية»، نسبة إلى «كسرى» لقب ملك الفرس.

أدعية الرسول (ص)
ومعجزات السرعة في استجابتها

وأما معجزاته (ص) في استجابة دعواته وسرعة إجابتها فتكاد لا تُحصَى في كتاب، منها أنه جاءه، يوماً أعرابيٌّ يشكو المَحْلَ[1] في حَيِّهم، وأنشأ يقول:

أَتَيْنـاكَ يـا خيـرَ البَـرِيَّـةِ كُـلِّـهـا ... لِتَرْحَمَنا مِما لَقِينا مِن الأَزْلِ[2]
أتينـاكَ والـعـذراءُ يـدمـي لبـانـهـا ... وقد شُغِلَتْ أمُّ البنينِ عن الطِفلِ
وأَلـقـى بـكـفَـيْـهِ الـفَـتـى إستِكـانـةً ... مِن الجوعِ ضعفاً لا يُمِرُّ ولا يُحْلي
ولا شيء مما يأكل الناس عندنا ... سوى الحَنْظَلِ العامي والعَلْهَزِ الفلُ
ولـيـس لـنـا إلا إلـيـكَ فِـرَارنـا ... وأين فرارُ الناس إلا إلى الرُسْلِ

فقام (ص) يجر رِداءه، حتى صَعَد المنبرَ وحمد الله وأثْنَى عليه، ثم دعا ربه بكلمات يسأل فيها نزول الغَيْث، فلم يُتِمَ دُعاءَه حتى أحدقت الغيوم بالمدينة وحواليها، والتفَّت السماء بأرواقها حتى ضج الناس يقولون: «يا رسولَ الله، الغَرَقُ الغَرَق»، فتبسم (ص) وتوجه إلى السماء، وأشار بكفه وقال: «اللَّهمَّ حَوالَينا ولا علينا»؛ فانجاب السحاب من ساعته، فقال (ص): «لله دَرُّ أبي طالب! لو كان حَيّاً لَقَرَّتْ عيناه! ثم سأل:

---

١ ـ المَحْل: الجدب، اليَباس، فقدان الزرع والخير.

٢ ـ الأزلِ: الضِيق، الشِدّة، الفقر، الحرمان.

«مَن يُنشِدُ أبياتَه؟»، فقام علي (ع) وتلا قول أبيه:

وأبيضُ يُستَسقَى الغَمامُ بِوَجْهِهِ ... رَبيعُ اليَتامَى عِصْمةٌ لِلأرامِلِ
تَلوذُ بِهِ الهُلَّاكُ مِن آلِ هاشمٍ ... فهُمْ عندَهُ في نِعمةٍ وفَواضِلِ

وأنشأ رجل مِن كنانة:

لكَ الحمدُ والحمدُ مِمَّن شَكَرْ ... سُقِينا بِوَجْهِ النَبِيِّ المَطَرْ
دعا اللهَ خالِقَهُ دَعوةً ... وأشخصَ مِنهُ إليهِ البَصَر
فكانَ كما قالَهُ عَمُّهُ ... أبو طالِبٍ ذا رِواءٍ[3] أغَرّ
بِهِ اللهُ يَسْقي صُبوبَ الغَمامِ ... فهذا العِيانُ وذاكَ الخَبَر

وتقدم (عند ذِكْرنا غزوة خيبر) دعاؤه (ص) لأمير المؤمنين (ع) في ذهاب الحَر والبرد عنه، فلم يَرَ مدة حياته حَراً ولا برداً، وكان يعيش شتاءً وصيفاً في قميص واحد..

ودعا (ص) يوماً لكفيف، فبرِيءَ مِن العَمَى، ورجع بصره من ساعته أحسنَ مما كان..

وأقبلت إليه امرأة بابنٍ لها كان في رأسه عاهة تسأله الدعاء له، فمسح النبي (ص) رأسَ الصبي بيده الشريفة ودعا له، فَبَرِيءَ من ساعته وعَلا شعرُ رأسه.. وأقبلت إليه امرأة أخرى بابن لها مجنون، تشكو إليه، فمسح النبي (ص) صدر الصبي ودعا له، فتحرك وخرج من جوفه مثلُ خِرْءٍ[4] الأسد، وبَرِيءَ من ساعته، وانصرف عاقلاً كأنما نَشَط من عِقال.

وأقبلت إليه عجوز عمياء تصرخ بشدة، تشكو إليه موتَ ابنها الشاب، فقام (ص) بمن معه حتى انتهى إلى جنازة الشاب، وجلس عند رأسه ودعا ربه بكلمات ثم كشفَ عن وَجْهِ الشاب، فإذ به رجعَ حياً واستوى جالساً بين

---

٣ ـ ذا رِواء: ذا تفكرٍ وتعمقٍ في النظر والرؤية.

٤ ـ الخِرْء: الرَوْث، الطعام الخارج قذارة من المعدة.

يديه يسلّم عليه، ولم يخرج النبي مِن عنده حتى أكل معه شيئاً من الطعام.

ودعا (ص) يوماً لإِنسٍ أن يكثر وُلْدُه، فعاش حتى دَفَنَ أكثر من مئة من وُلْدِه.

ودعا (ص) لعَمْرِو بن أخطب وعمرو بن حمق الخزاعي حينما سَقَّياه أن يُجمِلَهما اللهُ ويمتعَهما بالشباب، فعاش أولهما ثلاثاً وتسعين سنة، وثانيهما ثمانين سنة، ولم يُرَ لهما شعرة بيضاء.

ودعا (ص) لابن أبي ليلى، أن لا يَفُضَّ الله فاه، فعاش مئةً وثلاثين سنة قد تهدم جسمه وأعضاؤه ما خلا فاهُ (أي فمه) وبقيت أسنانه كورق الأُقْحُوان بياضاً ونقاءً.

ودعاهُ (ص) بعضُ الأنصار إلى ضيافته، وذبح له عَناقاً عِندَه[٥]، وكان للرجل صَبيان صغيران، تناول أحدُهما السكينَ بعد انصراف أبيهما، وقال لأخيه: «هلم أذبحُكَ كالعَناق»؛ فتقدم بين يديه حتى ذبحه، فعرفت أمهما بذلك فصرخَت، وولّى الصبي الذابح هارباً إلى غرفة عالية، فوقع منها ومات في ساعته، فازدادت الأم في النحيب وأشرفت على الهلاك، إلى أن قامت وأَخفَت الجثتين، واشتغلت بتهيئة الطعام إكراماً لقدوم النبي، ولم تُعْلِمْ بذلك زوجها ولا أحداً غيره، إلى أن قَدِمَ النبيُ وطلب إحضار الصبِيَّيْنِ بأمر من الله، فاعتذرت الأم عن ذلك بأنها غائبان، وقدَّمت الطعام، فأَبَى النبي (ص) أن يتناول منه حتى يحضرا، فأخذ الرجل يكرر سؤال زوجته عنهما، حتى أخبرته بقصتهما، فأتى الرجل بالجنازتين ووضعهما بين يدي النبي (ص)، فَدَعا بدعوات، فلم يلبث الصبيان أن قاما حَيَّيْنِ سَوِيَّيْنِ بأمر الله، واشتغلا بالأكل معه، وأشرف أبواهما على الجنون أو الهلاك طرباً وشوقاً وفرحاً وسروراً وإيماناً بالنبي وحباً له.

---

٥ ـ العَناق: عنزة صغيرة لم تُكمل السنة الأولى من عمرها.

ودعا (ص) يوماً لعبد الله بن جعفر الطيار بالبركة في صفقةِ يمينه، فلم يشترِ شيئاً مدة حياته إلا وقد ربح فيه، حتى صار من أغنى أهل المدينة مالاً وأسخاهم كفاً وأكرمهم جوداً وأكثرهم عطاءً.

ودعا النبي (ص) لجعفر الرومي (حينما ناوله السوط في طريقه إلى تبوك) أن يمد الله في عمره، فعاش ثلاث مئة وعشرين سنة.

ولما نزل دار أبي أيوب عند قدومه المدينة، وكان الرجل فقيراً في المال لا يملك غير شاة صغيرة عمرها دون سنة واحدة، ذبحها في ضيافته للنبي، وأمر النبيُ (ص) بالنداء في جموعه أن يأتوا إلى ضيافة أبي أيوب بن زيد، فاجتمعوا وأكلوا بأجمعهم حتى شبعوا، ثم أمر (ص) بجمع عظام الشاة، ودعا ربه في إعادتها حية، وما أن أتم الدعاء، حتى قامت الشاة حيةً سوِيَّة، فضجت الجموع، وارتفعت أصواتُهم بالشهادتين عَجَباً وحَيرة، وجعلوا يَسْتَشْفُونَ بلَبَنها وضَرْعِها[٦]، وسَمَّوها «المبعوثة»؛ وأنشأ فيها عبد الرحمان بنُ عَوف يقول:

ألم يُبصِروا شاةَ ٱبنِ زَيْدٍ وحالَها — وفي أمرها للطالبين مَزيدُ
وقد ذُبِحَتْ ثم ٱسْتُجِرَّ إهابَها — وفَصَّلها فيها هناك يزيد[٧]
وأنْضَجَ منها اللَحْم، والعَظْمَ والكُلَى — وهَلْهَلَها بالنار وَهْيَ هَريد[٨]

---

٦ ـ الضَرْع: مَخْرَج اللبن من البَقَر وشاة الغَنَم (المعادل للثدي عند المرأة).

٧ ـ استَجَرّ: شقَّ ـ إهابها: جِلْدها ـ فَصَّلها: قطَّعها، جَزَّأها، فَصَل بعضها عن بعض.

٨ ـ الكُلَى: جمع الكُلْيَة (من البدن)، والمقصود هنا طبعاً الكُلْيتان ـ هَلْهَلَها بالنار: طبخها بالنار بطريقة غير حسنة ـ هَريد: متهرىء، فاسد، متفسخ ـ ونشير هنا إلى أن الشطر الثاني من هذا البيت جاء في الطبعة الأولى: «وهلهله بالنار وهو هريد»؛ ونرجح (استناداً إلى الضمائر في البيت السابق من الشعر (إهابها، فَصَّلها، فيها) والحالي (منها) أن يكون المسند إليه هنا أيضاً مؤنثاً (هلهلها.. وهي).

فأحيَى له ذو العرشِ واللهُ قادرٌ   فعادَتْ بحال ما يَشاء يعودُ

وأتاه ذات يوم رجل يسمى لبيد بن ربيعة بفَرَسَيْن ونجائب[9] هديةً من رجل مشرك يقال له «أبو براء»، يستشفيه من علة أصابته في بطنه، فلم يقبل النبي (ص) الهدية لِكَوْنها مِن مشرك، ولكنه أخذ حَثْوَة[10] من الأرض وبصق عليها من ريقه، ثم ناولها لَبيد وأمره أن يبلِّلها بماء يسقيه لأبي براء، فتناولها لبيد وهو يرى أن النبي (ص) قد استهزأ به، إلى أن جاء بها للرجل وسقاهُ مِن مائها، فبرِيء من ساعته، وقام كأنه أُنْشِطَ من عقال[11]؛ وأن نظائر ذلك لكثيرة يضيق المقام عن ذكر جميعها، وكذا معجزاته في دَفْعِ كيد الأعداء والحساد من اليهود والمشركين وبعض الكهنة عنه، وقد هموا بقتله مراراً عديدة في مواقع شتى، مضافاً إلى ما مر ذكره، وقد طوينا ذكرها حَذَراً من الملل، وفي ما سطرناه غِنًى وكفاية.

وهكذا معجزاته (ص) في إطاعة الجان له وما سُمع منها ومن أصنام المشركين من الشهادة له بالرسالة، ولا بأس بالإشارة إلى شيء يسير منها مما صحت أحاديثه، وكذا إخباراته بالمغيبات والحوادث التي تَحْدُثُ من بعده (ص).

أما هواتف الجان، فمنها قصة «سَواد بن قارب»، وقد تقدمت الإشارة إليه عند ذكر ولادة النبي، وكان مقيماً باليمن، وكان له صاحب من الجان يأتيه أحياناً فيخبره ببعض الحوادث؛ وقد حدث لما بُعِثَ النبي (ص) بمكة، أن أقبل الجني إلى الرجل ثلاث لَيالٍ مُتَوالية، يرفِسُه[12] برجله ويوقظه من نومه، ويأمره باللحوق بالنبي (ص) في مكة والإيمان به؛ وأنشأ يقول:

---

٩ ـ نجائب: مواد نفيسة غالية.

١٠ ـ حَثْوَة: قبضة (من تراب).

١١ ـ أُنشِطَ مِن عِقال: حُرِّرَ، أُطلِق سَراحه من قيد أو حبس.

١٢ ـ يرفسه: يضربه بقدمه، يلبطه.

عَجِبتُ للجنِّ وإبلاسِها ... ورَكْبِها العيسَ بأحلاسِها[13]
تَهوي إلى مكةَ تَبغي الهُدَى ... ما طاهِرُ الجِنِّ كأنجاسِها
فارْحلْ إلى الصَفوَةِ مِن هاشمٍ ... وَارْمِ بِعَيْنَيكَ إلى راسِها

إلى أن ركب «سوادُ» راحلتَه، وأقبل نحو مكة حتى دخل على النبي (ص) في دار خديجة (ع)، وكشف عن ختم النبوة وانحنى عليه يقبله، وأسلم على يديه، بعد أن حكى له قصته وما جرى له من الجان، وأخذ يخاطب النبي ناظماً:

أتانيَ جِنٌّ بَعدَ هَدْءٍ ورَقْدَةٍ ... ولم يَكُ في ما قد أتانا بِكاذِبِ
ثلاثَ ليالٍ قَولُهُ كلَّ لَيلَةٍ ... أتاكَ رسولٌ مِن لُؤَيِّ بْنِ غالِبِ[14]
فشَمَّرْتُ عن ذَيلي الإزارَ ووَسَّطَتْ ... بِيَ الدَغْلَةُ الوَجْناءُ بينَ السَباسِبِ[15]
فَمُرْنا بما يَأتيكَ يا خَيْرَ قادِرٍ ... وإن كانَ في ما جاءَ شَيْبُ الذوائِبِ[16]
فَأَشْهَدُ أنَّ اللهَ لا رَبَّ غيرُهُ ... وأنَّكَ مَأمونٌ على كلِّ غائِبِ
وأنك أَدْنى المُرْسَلينَ وسيلةً ... إلى اللهِ يا ٱبْنَ الأكْرَمِينَ الأطائِبِ
وكُنْ لي شفيعاً يومَ لا ذو شَفاعَةٍ ... إلى الله يُغْني عنْ سَوادِ بنِ قارِبِ

ثم انصرف وعاش إلى أن ٱستُشْهِدَ بين يَدَيْ أمير المؤمنين (ع) في وقعة صِفِّين، مؤمِناً حَسَنَ الإيمان.

وكان النبي يوم عيد نيروز الفُرْس بالأبطح بين جمع من أصحابه، إذ لمح لهم غُبار مُقْبِل عليه، إلى أن دنا منه وبرز منه شخص ذو شَعرٍ كثير

---

١٣ ـ إبلاسها: منعها للخير ـ العِيس: الإبِل، الجِمال ـ أحلاسها: طوفاتها المتعددة.

١٤ ـ من (عرب بني) لؤي بن غالب.

١٥ ـ وسَّطَتْ بي الدغلة. . . : علتني الدخلة الغليظة وَسْط المغازات، وسط الأراضي البعيدة.

١٦ ـ ذَوائِب: جمع ذُؤابة، خصلة الشعر في مقدم الرأس فوق الوجه ـ أي: أؤمرنا بما يأتيك (من الوحي) فنطيع، حتى وان كان فيه الشيب لذوائبنا.

ورأسٍ طويل، عيناه في طول رأسه، صغير الحَدَقَتين، وله أسنان كأسنان السباع، فوقف بين يديه وسلم عليه ثم قال: «يا رسول الله، أنا عطرفة بن شمراخ، من بني نجاح، قبيلة من الجان، وقد آمَنَّا بكَ بعد استماعنا لقرآنك ومعرفتنا بك وصدَّقنا نُبُوَّتَك، وقد خالفَنا قومٌ آخرون من الجان أقاموا على كفرهم، فوقَعَ الخلافُ بيننا وبينهم، وهم أشدُّ مِنا قوةً وأكثرُ عدداً، فبَغَوا علينا وأضَرُّوا بنا، وإني وافِدُ قومي، وقد استَجَرنا بك فأجِرْنا، وابعثْ معي مَن يحكم بيننا بالحق»؛ فهاب الحاضرون رؤيتَه وخِلْقَتَه، وتوجه النبي إلى ثلاثَةٍ من وجوه أصحابه، واحدٍ فواحدٍ يأمره بالمُضِيِّ مع عطرفة، وهم يتجافون عن ذلك ويقدمون له أعذاراً عن إجابته فَزَعاً وخوفاً، إلى أن تَوَجَّهَ إلى أمير المؤمنين علي (ع) وأمره بذلك، فبادر علي (ع) وتقلد سيفه، ثم انصرف مع عطرفة وغابا عن الأبصار، وجلس النبي (ص) ينتظر رجوعه، إلى أن أدركه الليل وانصرف بمن معه إلى منازلهم؛ فلما أصبح الصباح، صلّى بأصحابه الغداة، ثم مَضَى بهم إلى جبل «الصَفا» ينتظر رجوع أمير المؤمنين علي (ع)، إلى أن ارتفع النهار حتى زالت الشمس، وقام لفريضَتَي الظهر والعصر، ثم رجع إلى «الصفا» كئيباً من إبطاء علي (ع)، وقد هاج المنافقون وماجوا مستبشرين بذلك، يُسِرُّ بعضُهم إلى بعضٍ، أن الجِنيَّ قد احتالَ على محمد، وذهب افتخاره بابن عمه، وقد أراحنا الله من «أبي تراب»؛ وأكثروا الكلام في ذلك وظهرت شانتهم للنبي، إلى أن أشرفت الشمس على المغيب، وأيقنَ القومُ بهلاك أمير المؤمنين (ع) وبالغوا في اليأس من رجوعه، حتى بانَ الانكسارُ والكآبة في وجهِ رسول الله (ص) من أباطيلهم، وإذ يظهر فجأة أمير المؤمنين (ع) مقبلاً وسيفه بيده يقطرُ دماً ومعه عطرفة، فبادر النبي (ص) نحوه مسرعاً يتلقاه، إلى أن تناوله واعتنقه باكياً يُقبِّلُ جبينَهُ ويسأله عن إبطائه في الرجوع، فأجاب بأنه مضى إلى القوم وعَرَضَ عليهم الإسلامَ أو الجِزْيَةَ والصُلحَ مع أقوامهم، وأنهم أبَوْا ذلك كله، فوضع فيهم السيف وقتل منهم أعداداً كبيرة، إلى أن صرخوا يطلبون الأمان والصلح، وأخذ

عطرفةُ يُصدقُهُ في مقالته ويجزيه خيراً، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ إلخ[17].

ونظير ذلك ما وقع له في مسيره (ص) إلى غزوة حُنَين، حين اعترضتهم في الطريق حية عظيمة كالجبل سَدَّت عليهم الطريق، فتقدم إليها النبي (ص) عاتباً عليها ذلك، ثم سمع القومُ منها همهمة وصوتاً يُسلّم على النبي (ص) بعبارات فصيحة ويقول: «أنا الهَيثَمُ بن طاح من الجان، قد آمنتُ بكَ وسرتُ إليكَ في عشرة آلاف مِن قومي، لِنُعينَكَ على الحرب»؛ فأمرها النبي (ص) بالانعزال والرجوع بجنوده إلى مَحالهم، فانصرفت وغابت كأن لم تكن، وسارت الجموع آمنين.

وذبح المشركون في شهر رَجَب، شاةً بين يدي صنم لهم، فسمعوا من جَوفه:

بُعِثَ نبيٌّ مِن مُضَرْ   فَدَعْ نَحيتاً مِن حَجَر[18]
هذا نبي مُرسَلْ   جاء بِخَيرِ مُنْزَلْ

ففزعوا وتفرقوا عنه.

وأقبل إليه ذات يوم جمع مِن بني عُذْرَة ـ وهم قوم من بني هند بن حزام يتقدمهم زَمْلُ بن عَمْرو العُذْري، يخبرونه عن صنم لهم اسمه «حمام»، وخادمه رجل منهم يقال له «طارق» ـ أنهم سمعوا من جَوْفِ الصنم ذات (يوم بينما هم محتفون به ويسجدون له) صَوتَه يخاطبهم فصيحاً ويناديهم بليغاً بقوله:

يا بني هِند بنِ حُزام   ظَهرَ الحقُ وأَوْدَى الحمام
وأنقَمَعَ الشِرْكُ بالإسلام

---

١٧ ـ القرآن الكريم، ج ٢٩ س ٧٢ الجن.

١٨ ـ فَدَع نَحيتاً: فاترك جِسماً (شسناً، تمثالاً، صَنَماً) منحوتاً، مصنوعاً.

فهالهم ذلك وغلب عليهم الفزع، وتفرقوا عنه حتى لم يبق عنده إلا الخادم طارق، فسُمع منه يقول له:

يــا طــارِقُ يــا طــارِقْ بُـعِـثَ الـنـبـيُ الـصـادق
جــاء بــوَحْــيٍ نــاطــق

وانقطع هُنَيهة، ثم عاوَدَ ونادَى:

صَـدَعَ صـادعٌ بـتِـهـامَـة لِـنـاصـريـهِ الـسـلامـة
لِـخـاذِلـيـهِ الـنـدامـة

هـذا الـوداع مـنـي إلـى يـوم الـقـيـامـة

ثم انحَطَّ الصنم حتى وقع على وجهه وتكسر، فدعاهم النبي (ص) إلى الإسلام، وأخبرهم أن ما سمعوه مِن الصنم إنما هو كلامُ بعضِ مؤمني الجانّ، وجعل يقول لهم: «يا معشر العرب، إني رسول الله إلى الأنام كافَّة، أدعوهم إلى عبادة الله وحده، وأني رسوله وعبدُه، وأن تَحِجُّوا البيتَ وتصوموا شهر رمضان، وأنَّ مَن أجابَني فله الجنة نُزُلاً وثَواباً، ومَن عصاني كانت له النار مُنْقَلَباً وعِقاباً»؛ فأجابه القوم بأجمعهم وأسلموا على يده، فكتب لهم كتاباً وعلمهم شرائع الإسلام، ولما هموا بالانصراف، أنشأ زَمْلُ يقول:

إليكَ رسولَ الله أعلمتُ نَصَّها أكَلِّفُها حُزناً وفَوزاً مِن الزَمْلِ
لِأَنْصُرَ خيرَ الناس نَصراً مُؤَزَّراً وأعقِدَ حَبلاً مِن حِبالِكَ في حَبلي
وأَشهَدَ أنَ اللهَ لا شيءَ غَيرَهُ أدينُ له ما أَثْقَلَتْ قَدَمي نَعْلي

وقَدِمَ عليه (ص) ثلاث مئة فارس من بني سُلَيم، يتقدمهم العباس بن مِرْداس، يسألونه شرائعَ الإسلام، إلى أن علَّمهم وأجابوا دعوته وأسلموا بأجمعهم على يده، وسألهم (ص) عن سبب مجيئهم إليه، فأخبروه أنهم حين اجتماعهم بصَنَم لهم يقالُ له: «الضمير»، وبعد مَسحِهِ وتنظيفِه وكَنْسِ ما حوله، سمعوه من جَوْفه يقول:

قُلْ لِلقبائل مِن سُلَيم كُلِّها هَلَكَ «الضميرُ» وفازَ أهلُ المَسْجِدِ
هَلَكَ الضمير وكان يُعْبَدُ مرةً قبلَ الكتابِ إلى النبيِّ محمدِ
إنَّ مَن جاءَ بالنبوة والهُدَى بَعد ٱبنِ مَريمَ مِن قريشٍ مُهتَدِ

فَسُرَّ النبي (ص) وتبسم وصدقهم في مقالتهم، وانصرف القوم من عنده مسرورين مؤمنين.

وسمع قوم مِن «خَثْعَم» مِن جَوْفِ صَنَم لهم (حين اجتماعهم عنده وخضوعهم لديه) صَوْتَهُ يناديهم فصيحاً بقوله:

يا أيُّها الناسُ ذَوِي الأجسامِ ومُسْنِدِي الحُكْم إلى الأصْنام
أكُلُّكُمْ أحْمَقُ كالكَهامِ أما تَرَوْنَ ما أرَى أمامِيَ[19]
مِن ساطعٍ يَجْلُو دُجى الظَلامِ قد لاحَ للناظرِ مِن تِهامِ
وقد بَدا للناظرِ الشئامِ ذاكَ نبيٌّ سَيِّدُ الأنامِ
مِن هاشمٍ في ذِروَةِ السَنامِ مُستَعْلَنٌ بالبَلَدِ الحرامِ[20]
جاء يَهدُّ الكفرَ بالإسلامِ أكْرَمَهُ الرحمانُ مِن إمامِ

فاستوحش القوم من ذلك، وأخذتهم الرعدةُ عَجَباً وحيرة، ولماع كان بَعد ثلاثة أيام، جاءهم خبر ظهور النبي (ص) بمكة.

ولما كان يومُ بَدْرٍ وقُتِلَ فيه مَن قُتِل من المشركين وٱنهزم باقِيَتُهم، سُمِعَ صوتُ هاتفٍ بمكةَ يقول:

أذَلَّ الحنيفيون بَدْراً بِوَقْعَةٍ سَيَنْقَضُّ منها مُلْكُ كِسْرَى وقَيْصَرا
أصابَ رِجالاً مِن لُؤَيٍّ وجُرِّدَتْ حَرائرُ نَضرِ بْنِ الحَرائِرِ حُسَّرا
ألَا وَيْحَ مَن أمْسَى عَدُوَّ محمدٍ لقد ذاقَ خِزياً في الحياةِ وخُسْرا
وأصبحَ في هامِ العجاجة معقرا تَناوَلُهُ الطيرُ الجِياعُ تَنَقُّرا

---

١٩ ـ الكَهام (بفتح الكاف): البطيء: الضعيف، المُسِن + الفقير.

٢٠ ـ ذِروة السَنام: أعلى المقام، مُنتَهى الرِفعة.

وفي الغد بَلَغَهم خبرُ وقعة بَدْر إلى غير ذلك مِن مَواقع هُتاف الجن به (ص) مما يضيق المقام عن ذكره وكذا معجزاته (ص) في إخباره بالمغيبات، ماضيها وحاضِرها ومستقبلِها، فإن استقصاءَها يحتاج إلى كتب كثيرة ضخمة ولكن لا بأس بالإشارة الإجمالية إلى بعضها..

فمنها إخبارُه (ص) بضمائر القلوب في مَواقِعَ شتَّى أحدُها م ا صحَّ من أن جمعاً من اليهود وَفَدوا إليه وقالوا له (ص): «أخبرْنا عما جئنا نسألكَ عنه» فقال (ص): «جئتموني تسألونني عن ذي القرنين»، فاعترف القوم بذلك، ثم قال لهم: «إنه كان غلاماً مِن أهل الروم، ناصحاً لله عزَّ وجلَّ، فأحبه الله، ومَلَكَ الأرضَ فسار حتى بلَغَ مَغرِبَ الشمس، ثم سار إلى مَطْلَعِها، ثم سار إلى جبل يأجوج ومأجوج وبَنَى فيه السد..»، إلى آخر ما ذكره (ص) فصدَّقه القوم، وقالوا نشهد أن هذا كان، وإنه لفي التوراة هكذا».

وقدم عليه (ص) جماعة أخرى مع أمير المؤمنين (ع) ليسألوه، فقال (ص): «إن شئتم أعلمتُكم بما جئتم له، وإن شئتم تسألونني»، قالوا: «بل تخبرنا أنت»؛ فقال (ص): «جئتم تسألونني عن الصنائعِ (أي العَطِيَّة والإحسان لمن يستحق)، وعن جهاد المرأة، وعن الأرزاق»؛ ثم قال (ص): «أما الصنائع فلا ينبغي أن تُصنَع إلا لِذي حَسَبٍ[21] أو دِين، وأما جِهادُ المرأة فحُسْنُ التَبعُّل[22] لزَوجها، وأما الأرزاق فقد أبى الله أن يرزق عبده إلا مِن حيث لا يَعلم وَجْهَ رِزْقِه ليَكثُرَ دعاؤه..»؛ فصدقه القوم في إخباره (ص) بضمائرهم، وأعجَبَهم جوابُه وآمنوا به..

وقَدِم عليه «أبو سفيان»[23] وقال: «أخبِرْني عما جئتُ أسألُكَ عنه»؛

---

٢١ ـ ذو حَسَب: من بيت كريم، من سلاسة محترمة ملتزمة تربيةً وأخلاقاً.

٢٢ ـ البَعْل: الزَوْج؛ حُسنُ التَلَعُّل: البرّ والاخلاص في الزوجية لِرَجُلها.

٢٣ ـ الاسم مكتوب في المتن «أبو سفين» وفقاً للخط في عهده القديم (كمال كلمات كثيرة مثلها) ونرجح أن افظة كان كما أوردناه هنا.

فقال (ص): «جئتَ تسألُني عن مبلغ عمري»؛ قال: «نعم»، قال (ص): «إني أعيش ثلاثاً وستين سنة»؛ قال: «أشهد أنك صادق»، فقال (ص): «بلسانك دون قلبك»؛ ثم ظهَرَ نِفاق الرجل بعد وفاةِ النبي (ص)، وكان عاقِبَةُ أمرِهِ خُسْرا، فقد صار يستهزىء بذكر النبي (ص) عند الأذان على المأذنة، وأعْمَى اللهُ عينيه.

ثم قَدِم عليه (ص) وابصة بن معبد الأسدي، وقال له: «أخبرني عما جئتُ أسألك عنه»؛ فقال (ص): «جئتَ تسألني عن البِر والإثم»؛ قال: «صدقتَ»؛ وأسلم، ثم أجابه النبي (ص) عن سؤاله.

وقَدِم عليه (ص) أيضاً وَفْدٌ من أحبار اليهود، وسأله أعلمُهم وكبيرهم مسائلَ كثيرةً يطول المقام بذكرها، وذكر أجوبتها التي بَهَرَتْهم وأعجبتهم، ثم تَقَدَّمَ إليه (ص) الحَبْر الكبير، وأخرج رَقّاً[٢٤] أبيض، ظهر مكتوباً فيه كلُّ ما أجاب به النبي (ص) حرفاً حرفاً، وقال: «يا رسول الله! والذي بعثك بالحق نبياً، ما ٱستَنْسَختُها إلا من الألواح التي أنزلها الله عزَّ وجلَّ على موسى بن عمران، ولقد قرأتُ في التوراة فَضْلكَ حتى شككت فيه، وكنتُ منذ أربعين سنة أمحو اسمَكَ من التوراة ثم أرجع وأجده مُثبَتاً فيها؛ إن هذه المسائل لا يخرجها غيرك، وإنك في الساعة التي ترد عليك هذه المسائل، يكون جبرائيلُ عن يمينك، وميكائيل عن يسارك، ووصيك بين يديك»، فقال (ص): «نعم هذا جبرائيل عن يميني، وهذا ميكائيل عن يساري، وهذا علي بن أبي طالب وصيي بين يدي»، فأسلم الحَبْرُ وحسُنَ إسلامه.

وكان (ص) يوماً جالساً بين جمع من أصحابه بعد فريضة الغداة يُعلِّمُهم الأحكام والآداب، إلى أن طلعت الشمس وتفرقوا عنه، ما عدا رجلين، أحدُهما أنْصاري والثاني ثَقَفي، فقال (ص) لهما: «قد علمتُ أنكما تريدان أن تسألاني، فإن شئتما أخبرتُكما عما أضمَرْتُماه قبل أن

٢٤ ـ رَقّ (أو: رِقّ): جلد (حيوان) رقيق (كان قديماً) يُكتَب فيه (= كالورق اليوم).

تسألانيه»؛ قالا: «نَعَم، فإن ذلك أجْلَى لِلعمى، وأبعدُ عن الارتياب، وأثبت للإيمان»؛ فقال (ص): «أما أنت يا أخا ثقيف، فجئتَ تسألني عن وُضوئك وصلاتك وما لك في ذلك من الخير، وأما أنت يا أخا الأنصار، فجئت تسألني عن حَجِّك وعُمْرَتك»؛ فاستبشر الرجلان بصدق ما أخبرهما به من ضمائرهما وازدادا إيماناً، ثم أجابهما عن سؤالهما، وذكرَ لهما فَضْلَ الوُضوءِ والصلاةِ والحج وما فيها من الأجْر والثَواب.

وقدم عليه (ص) ذات يومٍ الجارودُ بن عَمْرو، وسلمة بن عباد، وقالا: «إن كنت نَبياً، حدِّثْنا عَمَّا جئنا نسألكَ عنه»؛ فقال (ص): «أما أنتَ يا جارود، فقد جئتَ تسألني عن دماء الجاهلية، وعن حِلف الإسلام، وعن المنيحة»؛ قال: «أصبتَ يا محمد»؛ فقال (ص): «إن دماء الجاهلية موضوع، ولا حِلفَ في الإسلام، ومِن أفضلِ الصدقةِ أن تَمنحَ أخاك ظَهْرَ الدابةِ ولَبَنَ الشاة؛ وأما أنتَ يا سلمة، فجئت تسألني عن عِبادَة الأوثان، وعن يوم السباسب، وعن عقل الهَجين»؛ قال «أشهد بالله أنك صادق، وأن كلَّ ذلك كان في نفسي»؛ فقال (ص): «أما عبادة الأوثان فالله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.. [٢٥] وأما يوم السباسب وهو عيد النصارى، فقد أبدلك الله عنه ليلةَ القَدْر ويومَ العيد، وأما عَقلُ الهجين (بمعنى أنه هل يقتص الشريف للهجين) فإن أهل الإسلام تتكافأ دماؤهم، ويجير أقصاهم على أدناهم، وإن أكرَمَهُم عند الله أتقاهم»؛ فصدقه الرجلان وانصرفا من عنده معجبين به.

وقَدِمَ عليه (ص) عبدة بن مسهر وقال له: «أخبرني عما أتيتُ أسألك، وعما أَخَّرتُ وتركتُه وراء ظهري، وعما أبصرتُ في المَنام»؛ فقال (ص): «أما ما أَخَّرتَ فسيفُكَ الحُسَام، وابنُك الهُمام، وفَرَسُك عِصام، ورأيتَ في المنام، في غَلَس الظلام، أن ابنك يريد الغزال، ولقيه أبو ثغل، على سفح

---

٢٥ ـ القرآن الكريم، ج ١٧ س ٢١ الأنبياء: ٩٨ حَصَبُ جهنم: وَقُودها، حَطَبها.

الجبل، فقتله»؛ فدهِشَ الرجلُ وصدقه في مقالته، وانصرف عنه.

وصلّى (ص) ذات يوم بأصحابه، في غَزْوَة مِن غَزَواته كان قد اسْتُشْهد فيها بعضُ أصحابه، وفيهم رجلٌ من بني النجار، فلما انتهت صلاته توجه إلى مَن خلفَه مِن بقية أصحابه وقال (ص): «أمَا هاهنا أحد من بني النجار، وصاحِبُهم مُحتَبَسٌ على باب الجنة بثلاثة دراهم لفلان اليهودي»؛ وتحققوا الخبر، فإذا هو كما أخبر النبي به من دَينه لليهودي، وأمثال ذلك لكثيرة، يضيق المقام عن تَعدادها وإحصائها.

ومن معجزات إخباره بما يحدث بعد وفاته (ص)، إخبارُهُ بما يجري على كل واحد من أهل بيته من الظلم والإهانة، وشهادةِ أمير المؤمنين علي (ع) بالسيف في محراب عبادته، وسَمِّ سِبْطِه الحسن (ع)، وشهادة سبطِهِ الحسين (ع) في جماعة من أهل بيته بأرض العراق، وما يجري على نسائه من السَبْيِ والضَربِ، وذلك بعد أن مدَّ يده الشريفة من مدينته في الحجاز، وطالت إلى العراق، وتناول بها قبضة من تراب مَصرعِ سبطه الشهيد، وناولها زوجته الكريمة أم سلمة، وأمرها بحفظ التراب، ثم أخبرها بانقلابه يوم شهادته إلى دم.

وكذا إخبارُهُ الصحابيَ أبا ذَرّ الغفاري (رض) بما يجري عليه من الظلم والتشريد بعد وفاته، وقد تحقق ذلك حين أخرجه عثمان بعد وفاة النبي (ص) بما يقرب من عشرين سنة، ونفاه من المدينة إلى بلدة الرَبَذَة (في الحجاز) بالذل والصَغار حتى مات بها؛ وإخباره (ص) لابنته فاطمة (ع) إنها أول أهل بيته لحاقاً به، فكانت أولَ مَن مات من أهل بيته بعد وفاته؛ وقوله (ص) لعَمّار (رض): «تقتلكَ الفئةُ الباغية، وآخِر شَرابك من الدنيا ضياح[٢٦] من لبن»، فقتله أتباع معاوية في وقعة صفين، وسُقِي في آخر رمقه شراباً من لبن، وإخباره (ص) بخروج إحدى زوجاته إلى حرب وَصِيِّهِ كما

٢٦ - ضَياح (من لَبَن): لبن ممزوج بالماء.

خرجت بنتُ النبي شُعَيب زوجةُ الكليم موسى (ع) على وصيه يوشَع، وتحقق ذلك بأن خرجت عائشة إلى حرب أمير المؤمنين (ع) في البصرة، وإخباره لعلي (ع) أنه سيولد له بعد وفاة فاطمة (ع) من زوجته الحنفية ولَدْ ذَكَر، وطلب (ص) منه (ع) أن يُسَمِّيه ويُكَنِّيه باسمه وكُنْيَته (ص)، وصار الأمر كما أخبر (ص)، فقد وُلد لعلي (ع) بعد وفاة الصديقة فاطمة (ع) من زوجته الحنفية ولد سماه محمداً وكنّاه أبا القاسم، وكان ذلك نِحْلَةَ[٢٧] النبي (ص) للغلام؛ ثم إخباره (ص) بأن أجودَ نسائِه وأكرمَهُن أسرعُ لحاقاً به بعد وفاته، وكانت زوجته زينب بنت جحش تحب الكرم والعطاء أكثر من ضرائرها، فماتت بعد النبي (ص) قبل سائر زوجاته.

وإخباره لزيد بن صوحان، أنه يسبقه عضو منه إلى الجنة، فقطعت يده في وقعة نهاوند، وقوله (ص) لعبد الله بن الزبير: «ويلٌ للناس منك، وويل لك من الناس»؛ فعاش إلى أن استولى على جماعة، وقتَلَ كثيراً من المؤمنين، وادَّعى الخلافةَ لنفسه بعد شهادة الحسين (ع)، إلى أن قُتِلَ.

وإخباره (ص) عن بني تميم (وكانوا مغبوطين في الزهد، والتُقى، وإقامة الصلاة، والصيام، ومعروفين يُشارُ إليهم بذلك). . إخباره عنهم أنهم سيرتدون عن الدين بعد وفاته، ويَمْرُقون منه مروق السهم من المَرْمَى، يخرجون إلى قتال وَصِيِّه، يتقدمهم رجل أدعج[٢٨]، ويكون أحد ثَدْيَيْهِ كثَدْي النساء يُقال له ذو الثَدْيَيْن؛ فخرج القوم إلى حرب أمير المؤمنين (ع) بعد وقعة صِفِّين، وهمُ الخوارجُ وعَدَدُهُم يومئذٍ أربعة آلاف مقاتل نَجا منهم تسعة هربوا ـ وكان أحدُهم عبدَ الرحمان بن مُلْجِم المرادي[٢٩] ـ وقُتِلَ الباقون بأجمعهم حتى قائدهم ذو الثين بسيف المسلمين.

---

٢٧ ـ نِحْلة: هِبَة، عطية.

٢٨ ـ أدْعَج: عيناه واسعتان شديدتا السواد.

٢٩ ـ عبد الرحمان بن مُلْجِم هو الخارجي الذي طعنَ أميرَ المؤمنين الإمام علياً (ع) في المسجد طعنته القاتلة.

ثم إخباره (ص) ببناء مدينة بين دجلة ودُجَيل، وبناء مدينةٍ يقال لها البصرة بجنبها نهر، ولم يكن يومئذٍ لها وجود ولا أثر، إلى أن بنيت بغداد والبصرة.

وإخباره بشهادة «أم ورقة الأنصاري» وكان يسميها الشهيدة، إلى أن قتلت بعد وفاته (ص) على يد غلام وجارية لها.

وإخباره للزبير أنه لَيكونَنَّ أولَ العرب نَكثاً لبيعة أمير المؤمنين (ع)، وكان أولَ مَن خرج إلى حرب علي (ع) في البصرة، وهو الذي اتفق مع طلحة وأخرجا عائشة إلى البصرة في ألوف من بني أمية.

وقوله (ص) لعمه العباس: «وَيلٌ لِذُرِّيتي من ذريتك»، فقال العباس: «أفَأختصي يا رسول الله؟»؛ فقال (ص): «لا ينفع الخِصاء، فابنك عبد الله قد وُلِد»؛ وتحقق ما قاله الرسول (ص)، وحفل التاريخ بما أصيب به أئمة المسلمين الأطهار جعفر الصادق (ع) وذراريه إلى الحسن العسكري (ع) على أيدي بني العباس من القتل والحبس والضرب أكثر مما أصيب به آباؤهم من بني أمية.

وإخباره (ص) مسبقاً بقتلى أهل المدينة قائلاً (ص): يُقتَلُ بهذه الحَرَّة[30] خيار أمتي بعد أصحابي»؛ فقتل فيها بعد ثلاث وخمسين سنة من وفاته (ص) ـ (على يد مسلم بن عقبة وجنوده، بأمر يزيد بن معاوية) ـ سبع مئة رجل من حَمَلَة القرآن، فيهم ثلاثة من صحابة النبي (ص) وابنا زينب ربيبته (ص).

وإخباره (ص) بارتداد جماعة من أصحابه من بعده، وقتل بعضهم لبعض، واستشهاد سبعة أنفار من خيار أصحابه، هم حُجْر بن عدي وأصحابه، على يد معاوية بن أبي سفيان، وأن مَثَلَهم مَثَلُ «أصحاب

---

٣٠ ـ الحَرَّة: موقع قرب المدينة المنورة.

الأخدود»، الذين قُتِلوا على يد فرعون، وأن الله وملائكته يغضبون لهم على قاتلهم فقتلهم معاوية بعذراء.

وإخباره (ص) بأنه سيكون في هذه الأمة رجل يقال له الوليد، وهو شر لهذه الأمة من فرعون لأمة موسى (ع)، إلى أن وُلِد بعد وفاته بمدة طويلة الوليد بن يزيد، فعمل فيهم أشد مما عمله فرعون بآلِ موسى وبني إسرائيل.

وإخباره (ص) عن ابن عباس أنه لن يموت حتى يذهب بَصَرُه ويُؤتَى عِلماً كثيراً، فلم يزل يتعلم عند أمير المؤمنين (ع) حتى سُمي «حبر الأمة»، وكُفَّ بصره آخر حياته.

ونظر (ص) ذات يوم إلى ذِراعَي سراقة بن مالك، وكانا دقيقين أشعرين، فقال (ص): «كيف بك يا سراقة إذا أُلبِسْتَ بعدي سِوارَيْ كِسْرَى!؟»؛ وظهر أثر كلامه وصدق خبره (ص) حينما فتحت بلاد فارس في عصر الخليفة الثاني (رض)، فدعاه الخليفة وألبَسَه سِوارَي الملك كسرى.

وقال (ص) لسلمان (رض): «سيوضَع على رأسك تاج كِسْرَى»؛ فوُضع ذلك على رأسه يوم فتح ممالك الفرس.

وأخبر (ص) أصحابه بفتح مصر، وأوصاهم بأرحام جاريته أم إبراهيم القبطية منهم، وكذا أخبرهم بفتح رومية، وأمرهم أن يجعلوا كنيستها الشرقية مسجداً، وأن يرفعوا البلاطة الثامنة (بعد عَدِّ سبعَ منها)، فيجدون تحت الثامنة منها عَصا موسى (ع) وكسوة إيليا؛ ولما فتحها المسلمون في عصر الخليفة، وجدوا العصا والكسوة تحت البلاط، وأتوا بهما إلى الخليفة.

وقال (ص) ذات يوم لطلحة: «إنكَ ستُقاتِلُ علياً وأنتَ ظالم له»؛ إلى أن خرج بعائشة إلى البصرة لحرب أمير المؤمنين (ع) وقُتِل بأيدي المسلمين.

ونظر ذات يوم إلى ثلاثة من أصحابه: سمرة، وأبو محذورة، وأبو هريرة، فقال (ص): «آخركم موتاً في النار»، فكان آخرهم سمرة، وقع في نار واحترق بها؛ وقال (ص) يوماً: «لَيَرْعَفَنَّ[٣١] جَبارٌ من جبابرة بني أمية على مِنْبَري»؛ إلى أن رَعَفَ عمرو بن سعيد بن العاص على منبر النبي (ص) بعد وفاته بسنين متمادية.

وأُتِيَ إليه (ص) ذات يوم بأسارَى مِن محاربين قَتَلَةً، فأمر بقتلهم إلا رجلاً واحداً منهم، فقال الرجل: كيف أطلقتني دونهم؟ فأجابه (ص) قائلاً له: «أخبرني جبرائيل عن الله تعالى، أن فيك خِصالاً خمساً يحبها اللهُ ورسولُه، وهي: الغيرةُ الشديدة على حَرَمك، والسخاء، وحُسْنُ الخُلُق، وصِدْقُ اللسان، والشجاعة»؛ فأسلم الرجل وحسن إسلامه.

وكان الرسول (ص) ذات يوم جالساً بين أصحابه، فأخبرهم أنه سيُقدِمُ عليهم مِن «حضرموت» رجل من بقية أبناء الملوك، يقال له «وائل بن حُجْر»، راغباً في الإسلام، طائعاً لله ورسوله؛ فلما كان اليوم الثالث، وكان النبي جالساً بين جمع من صحابته، إذ دخل عليه الرجل، فقام إليه النبي وأدناه وبسط له رداءَه؛ ثم قال الرجل: «جاءنا خبر ظهورك يا رسولَ الله، وأنا في مُلْكٍ عظيم وطاعة من قومي، فرفضتُ كل ذلك، وآثرتُ اللهَ ورسولَه وأتيت إليك»؛ فصدَّقه النبي ودعا له بقوله: «اللّهمَّ بارِك، في وائل وَوُلْدِهِ وَوُلْدِ وُلْدِهِ».

ونظير ذلك أنه (ص) قال يوماً لأصحابه «سيُقْدِم عليكم أبو الدرداء ويُسْلِم»؛ فلم يتم كلامه (ص) حتى دخل الرجل، وكان مِن عَبَدَةِ الأصنام، فأسلَمَ وحسُنَ إسلامه.

وكذا، قال (ص) لهم يوماً: «سيقدم علينا ليلة كذا أربعة رُهَطٍ من اليمن»، إلى أن كانت ليلة الميعاد، فبينما هو (ص) ساهر كالمُتَرَقِّب

---

٣١ ـ رَعَفَ: بادَرَ، سَبَقَ، تقدم، اعتلى...

قدومَهم، إذ دقوا عليه باب داره، فناداهم مِن داخلها واحداً فواحداً بأسمائهم وأنسابهم، وأذِنَ لهم بالدخول، فدهشَ القوم من ذلك؛ ثم إنه (ص) لما دخلوا عليه ورَحَّب بهم، طالبهم بالكتاب الذي توارثوه مِن وَصِيِّ موسى، وهو يوشع بن نون، فازداد القوم عجباً فدهشة، وقالوا: «واللهِ ما علمَ به أحد قَط منذ وقَعَ عندنا»؛ ثم أسلموا على يده (ص) وحسن إسلامهم، ودفعوا إليه كتاباً من بقية ألواح موسى (ع) مكتوباً بالعبرانية بخط دقيق، ودفعه النبي (ص) إلى أمير المؤمنين علي (ع).

ونظير ذلك ما أخبر به أيضاً بعضَ أصحابه يوماً، وقال (ص) «سيُقدِمُ علينا تسعة أنفار من بعض بلاد اليمن، يُسْلمُ منهم ستة، ويقيم ثلاثة منهم على الكفر». ولما كان الغد، قَدِمَ عليه القوم وهو (ص) بين جمع من الصحابة، وكان الأمر كما قال (ص)، إذ أنه بعد إقامة البراهين عليهم لم يُسْلِمْ منهم إلا ستة، فقال (ص) لأولئك الثلاثة: «أما أنت يا فلان، فستموت بصاعقة تنزل عليك من السماء فتحرقك، وأما أنت يا فلان، فستموت بلَسْع أَفْعَى تضربك في موضع كذا، وأما أنت يا فلان، فستُقتَلُ بأيدي أناس عندما تخرج في طَلَب إِبِلٍ لك»؛ ثم قام القوم وانصرفوا بأجمعهم. ولم يَمضِ إلا أيام قليلة، حتى رجع إليه (ص) أولئك الستة المسلمون، وأخبروه بهلاك الثلاثة كما أخبر (ص) عنهم، ثم قالوا: «وإنا جئناك ـ صلّى الله عليك ـ لِنجدِّدَ إسلامَنا، ونشهدَ أنك رسولُ الله والأمينُ على الأحياء والأموات».

وأنفذَ ـ (ص) ـ ذات يومٍ عمَّاراً ليستقي له في الصحراء، ولما أبطأ عمار في الرجوع، قال النبي (ص) لمن معه: «إن الشيطان ـ بصورة عبد أسود ـ قد حال بينه وبين الماء، ولكن الله أظفر عليه عماراً»؛ ولما رجع عمار، (رض) ذكر سبب إبطائه أن عبداً أسود قد اعترضه ثلاثَ مرات ليحبسه عن الماء، وأنه صارعه حتى صرعه، وتمكّن من الماء.

وقدم عليه (ص) ذات يومٍ «عاصم المحاربي» وقال له: «يا محمد،

أتعلمُ الغيب؟»؛ قال (ص): «لا يعلم الغيبَ إلا الله»؛ قال: «والله لجَمَلي هذا أحبُ إليَّ من إلٰهك!»؛ فقال (ص): «لكنَّ الله أخبرني مِن عِلم غَيْبه أنه يبعث عليك قَرْحَةً في مسبل لحيتك، حتى تصل إلى دماغك، فتموت والله إلى النار»؛ فانصرف اللعين مستهزئاً، ورجع إلى حيه، ولم يكن بأسرع من أن أصيب بذلك فقال: «لله دَرُّ القُرَشي، إن قالَ عَلِم، أو زَجَرَ أصاب».

وإن نظائرَ ما ذُكِر لكثيرة جداً، يضيق المقام عن إحصائها، وكم أخبر (ص) بمغيَّباتٍ لم تهتدِ إليها العقول والأفكار، ولم تنَلْها أوهام أولي الألباب، من نزول الأمطار في غير أوانها، وموتِ بعضٍ وقتل آخرين، في أوقات معينة بأمكنتها وأزمانها، ثم توصيفه (ص) لبعض البلاد النائية، بما فيها من الفواكه والنعم والأثمار، من غير رؤيته لها، ولا مَعْشَرَ منه لأهاليها، ولا إخبارَ أحدٍ له عنها، ومن أراد شرح كل ذلك فعليه بالكتب المطولة كالبحار وغيره.

ثم أضف إلى كل ذلك، ما اتضحَ لدى العموم، من انتشار دعوته (ص) في أقطار الأرض، على قصر أيام حياته، وعلى ما كان عليه في مبدأ أمره من اليُتْم، والفَقر، والوحْدة، وتكاثرِ الأعداءِ، وتهاجُم القبائل عليه، وتحزُّبِ أصحاب الأديان، واتفاقِ كلمةِ سائر الملوك، وفراعنة العرب والعجم والتُرك والدَيْلم وغيرهم من أهلِ العِز والجاه، وأولي الغِنَى والثَروةِ على دَحْضِ كلمتِهِ واندِثارِ شريعتِهِ، وإخمادِ ذِكْره، ورَفْض دينه، وسَعْيِهِم في ذلك بكل جِدّ واجتهاد، وحِرصِهم على قتله وطرده وتشريده، والافتراء عليه بالأباطيل الباهِتَة والخُرافات الكاذبة، من الجنون والسِحْر والكَهانَةِ والشِعْرِ وأمثالها، ومُقارَعَتِهِم له بالحروب الدامية، وبَذْل المُهَج والنفوس الغالية، ولم يزده كل ذلك إلا عزاً وجاهاً، ورِفعةً وعُلُواً، حتى سَخَّرَ جزيرة العرب في أيامه القصيرة لدعوته، وأخضع أهلَها لشريعته، ثم انتشر دينُهُ بعد انتقاله إلى ربه، واتسعت دعوته وعلت كلمته في مقدمة دعوات الأديان والشرائعِ المعاصِرة، براً وبحراً، إلى العصر الحاضر وهو القرن الرابع عشر يُذكَر اسمُه مقروناً بذِكْرِ الرب تعالى برفيع الصوت، على شاهق المآذن ورفيع

المنابر، في شرق الأرض وغربها وجنوبها وشمالها، من الهند والسند إلى الخَزَرِ والصَقَالِبة، والتُرك والدَيالِمَة، يشهد برسالته الخُطباءُ في خُطَبهم، والمصلون في فرائضهم وأذكارهم، ويتباركون باسمه والصلاة عليه في مجالسهم ومحافلهم، كما بشره ربه ومَنَّ عليه بذلك بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾[32] وقال القائل:

وضَمَّ الإلٰهُ ٱسْمَ النَبِّي إلى ٱسْمِهِ إذا قالَ في الخَمْسِ المُؤَذِّنُ: أشهدُ[33]

أَلَا ترى انجذابَ العالَم بعد تلك القرون المتطاولة والدهور المتمادية، إلى اتباع شريعتهِ وإطاعةِ أمره واقتفاءِ سُنَّتِهِ، أمراً غيبياً وبرهاناً ساطعاً على صَدْقِ دَعوتهِ وحقِ نُبُوَّتهِ، فترى في أقصى الأرض وفي أبعد أقطار البلاد، كيف تخرج العَذْراءُ من خِدْرها، والعجوزُ على ضَعفها، فضلاً عن سائر الناس، مِن أوطانهم ومنازل عِزِّهم، في كل عام بعد عام، إلى حَجِّ بيت الله الحرام، والوصول إلى تلك البقاع القاصية والبلاد النائية، فتراهم يحرصون على ذلك ببذل النفس والنفيس، ويستَهْوِنون في سبيله احتمالَ المَكارِهِ العظيمة، والمَشاق الكثيرة، والبُعدَ عن الأقارب والأوطان العزيزة، وترى مَن فاته ذلك أيام حياته، أوصى بأدائه عنه بعد وفاته.. ثم ترى الصائمَ منهم، أيامَ القَيظِ وشِدَّة الحَرِ يتلهب عطشاً، يخوض الماء في حَلْقه ولا يتجرع منه جُرعة، ولا يتجرأ على مخالفة نبيه، وتراهم أيضاً في كل يوم وليلة، يسجدون ويُصَلُّون مِراراً عديدة من غير سَأم ولا مَلَل، إلى غير ذلك من آثاره الخالدة، مَدَى الدهور المتعاقبة، التي خضعت لها الجبابرة، وخَشَعَت لِرَنَّتها قلوبُ القياصرة والأكاسرة، وبَخَعت لها سائر الفراعنة، فأيُّ مَلِكٍ عظيم مُهاب، بقي له من الآثار بعد موته عُشْرَ مِعْشارِ ما بَقِيَ له (ص)، وأيَّ سلطان قوي، شديدالبأس نافذ الحكم، نفذ حكمه في رَعِيته

---

٣٢ ـ القرآن الكريم ج ٣٠، سورة ٩٤ الشرح: ٤.

٣٣ ـ «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» في الأذان والصلاة وسواهما.

بعد انقضاء قرون من وفاته، بمثل ما نَفَذَ حُكْمُ ذاك النبي الأعظم في أمته؟! وأعظمُ مِن ذلك كله، إخبارُهُ أيامَ حياته في مستهل أمره، بكل ذلك سَلَفاً، وتبشيره لقليلِ اتباعه (على ما كان عليه مِن الضَعف وقِلةِ الأنصارِ وكَثرةِ الأعداء) أن مُلْكه يبلغ الخُفَّ والحافر، وسلطانَهُ ينال أقصى البر والبحر، وأن شريعتَهُ تَبقَى مَدَى الدهر، وأن حلالَهُ حلالٌ إلى يوم القيامة، وحرامَهُ حرامٌ إلى يوم القيامة، وأنها لا تَبْلَى ولا تُنْسَخُ ولا تُغَيَّرُ ولا تُبَدَّلُ، ويا لها من آية بينة ودلالة واضحة لنبوته، وبرهان على رسالته وصحة دينه القويم المؤيد من ربه!!.

وبالجملة، فلا شك في ذلك، بل ولا ريبَ في كونه سيدَ الأنبياء وخاتَمَهم، وأفضلَ الرسل وأشرفَهم، أخرجه الله تعالى من أفضل المعادن مَنبِتاً، وأعزِّ الأروماتِ مَغرَساً، مِن الشجرة التي صَدَع منها أنبياءه، وانتجَبَ منها أمناءَه؛ عِتْرَتُهُ خَيرُ العِتَر، وأسرَتُهُ خيرُ الأُسَر، وشَجَرتُهُ خير الشَجَر، نَبَتَت في حَرَم، وبَسَقَت في كَرَم، لها فروعٌ طِوال، وثمرٌ لا يُنال. بَشَّرَتْ به الأنبياء أُمَمَها، وبشرت كلُّ أمةٍ مَن كان بَعدَها، ولم يَزَلْ ينتقلُ مِن لَدُنْ آدمَ (ع) إلى أبيه عبد الله (ع)، مِن الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام المطهرة، في خَيرِ فرقةٍ وأكرَم سِبطٍ وأمنَع رَهْطٍ وأكْلَإِ حَمْلٍ وأَوْدَعِ حِجر، اصطفاهُ اللهُ وَٱرْتَضاهُ وَٱجْتَباه، وآتاهُ من العلم مَفاتيحَه، ومن الحُكْم ينابيعه، ابتعَثَهُ رحمةً للعباد، وربيعاً للبلاد، بشيراً ونذيراً، وهادياً وشهيداً، وأنه (ص) كان خيرَ البرية طفلاً، وأنجبها كهلاً، أطهرَ المطهَّرينَ شِيمةً وأجودَ المستَمْطَرينَ دِيمة! فهو إمامُ مَن اتَّقَى، وبَصيرةُ من اهتدى! سِراجٌ لمعَ ضَوْؤُه، وشِهابٌ سَطَعَ نورُه، وزندٌ بَرَقَ لَمْعُه! سيرتُه القَصْدُ وسُنَّتُهُ الرُشْدُ، وكلامُهُ الفَصْلُ وحكمُه العَدْلُ. مُستَقَرُّه خَيْر مُستَقَر، ومَنْبَتُه أشرفُ مَنْبَت.. كلامُهُ بَيان وصَمْتُهُ لسان. وهو مِشكاةُ الضِياء وذوابَةُ العَلياء وسرة البطحاء، ونَجيب الله وسفيرُ وَحْيِهِ، رسولُ رحمته وسيدُ عِباده. قَضَم الدنيا قضماً ولم يُعِرْها طَرْفاً، عُرِضَت عليه الدنيا عَرْضاً فأَبَى أن يَقْبَلَها.. جعله الله عِلْماً للساعة ومبشراً بالجنة ومُنذِراً بالعقوبة.. خرج من الدنيا خميصاً ووَرَدَ الآخرة

سليماً، لم يَضَعْ حَجَراً على حجر حتى مضى لسبيله وأجاب داعيَ ربه، فما أعظمَ مِنَّةَ الله عندنا حينَ أنعمَ به علينا، سَلَفاً نتبعُه وقائداً نَطأُ عقبَه، وأن فضائله لا تُحصَى ومَناقِبَه لا تحصر ومعاجزه لا تعد.. وأنه سيِّدُ الخلائق أجمعين، وخُلفاءه ساداتُ الخلفاء السابقين، وأُمَّتُهُ أشرفُ الأمم الماضين، وفي ذلك قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس هو اجتباكم هو سماك المسلمين من قبل هو الذي يصلي عليكم وملائكته)، وأن الملائكة لَيستَغْفِرون لهم، وأُشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلخ، و«الملائكةُ يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض»، وإن ثَوابَهم على الطاعة يُضاعَف بأضعافٍ كثيرة دون عقابهم على المعصية، «مَن جاء بالحَسَنة فله عَشْرُ أمثالها ومَن جاء بالسيئة فلا يُجزَى إلا مِثلَها»، وإن الماءَ مُطَهِّر لهم عن كل نَجاسة من غير حاجةٍ إلى قرض محل النجس، وأن معصيةَ المُذنِب منهم مَستورةٌ من غير فضيحة لهم بظهور أثرها في وجوههم أو على أبواب دورهم.. وقد أحَلَّ لهم الزواج ولو على بعض الوجوه بنساءٍ مِن غير أهل مِلَّتِهم مِن أهل الكتاب، ووضَعَ عنهم السَهْوَ والنِسيان والخطأ والطِيرة بمعنى التَطَيُّر بالسوء، وكذا سائر الآصار التي كانت على الأمم السالفة فلا يعاقَبون عليها، كما أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، بَعد دُعاءِ النبي (ص) لهم لأجل ذلك بقوله (ص): «ربنا لا تُؤاخِذنا إن نسِينا أو أخطأنا ربَنا ولا تَحمِل علينا إصْراً كما حملتَهُ على الذين مِن قبلنا».. إلخ، ولم يَكن لُطفُ الله سبحانه كذلك للأمم السابقة، ولم يَمُنَّ عليهم بشيء مِن تلك النِعَم كما منّ به على هذه الأمة المرحومة، كما منَّ عليهم أيضاً بدفع العقوبات الشديدة العاجلة الدُنْيَوية عن أهل الفسق والفجور، كالمَسْخِ والخَسْف والصاعقة وأمثالها، وكل ذلك إكرام للنبي الأعظم الخاتم (ص)، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾، وخفف عنهم الفرائض اليومية، فجعلها خَمْساً بعدما كانت خمسين على غيرهم من الأمم، ثم فَرَضَها عليهم في

أوقات الفراغ والنشاط «طَرَفَي النهار وزُلَفاً من الليل» دون نصف الليل ولا في ساعات النوم والشغل وأوقات الكسل والمل. . . وأباح لهم الصلاة في جميع بقاع الأرض، ولم يفرض عليهم الحضورَ في المعابد، ولم يحكم ببطلانها وفسادها في غير المساجد، كما كان ذلك مفروضاً على غيرهم، أي لم تكن تَصِحُّ صلواتهم في غير معابدهم، ولذلك قال النبي الأعظم (ص): «جُعِلَت لي الأرض مسجداً وطُهوراً». ثم أحل لهم الطيبات كلها، وقد حرم كثيراً منها على اليهود عقاباً في العاجل، مع ما ادَّخر لهم من العقوبة في الآجل، وقال تعالى فيهم: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ ولم يُحَرِّم على هذه الأمة إلا الخبائث المُضِرَّة لهم، وقال تعالى في ذلك: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ. . كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وقال تعالى في وصف نبيه الكريم (ص): ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾؛ كما أباح لهم الاستِمتاعَ بزوجاتهم أيامَ حَيْضِهِنَّ باللَّمس والقُبلة وأمثالهما دون المواقعة، ولم يفرض عليهم الاعتزال عنهن في المأكل والمشرب والملامسة والنظر، كما فُرض على غيرهم. ثم جعلَ توبتَهم عن المعاصي، النَدم والاستغفارَ وعدَمَ الإصرار، وجعلَ ذلك كفارةِ لما سَلَفَ منهم من الذنوب مهما عَظُمت وكَثُرت، دون أن يقتلوا أنفسَهم، وقد كانت توبة اليهود قَتْلَهم نُفوسَهم، كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، ثم أمهلهم في التوبة إلى أخر رَمَق الحياة قبل مُعاينة الموت، وقبل وصول الروح إلى الترقوة، من دون فصل بينها وبين الموت بسنة أو أكثر. . ثم دفع عنهم الموتَ جوعاً، ودفع عنهم الاجتماع على الضلال، ولم يفرض القتل على القاتل، وجعل المشيئَةَ في القصاص أو العفو إلى أولياء المقتول رحمةً للعباد وتخفيفاً كما قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، ثم أبان فضلهم بأن جعلهم شهداء على سائر الأمم وقال تعالى في ذلك: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾. . ثم مَنَّ عليهم بِجَعْلِ

الركوع والسجود والقنوتِ في صَلَواتهم اقتداءً منهم بِحَمَلَة العرش وسائر ملائكته المقربين، في إكثار الخضوع بذلك لربهم، الموجب لزيادة القرب منه تعالى، إلى غير ذلك من الخصائص التي خصَّهُم اللهُ تعالى بها، تفضيلاً لهم على سائر الأمم الماضية في القرون السالفة.

ثم أضف إلى ذلك أيضاً، ما وَهَبَ الله تعالى له (ص) مِن اَرتِعابِ الملوك وصَناديد القبائل منه، على ما هم عليه من الشَوْكة والعَظَمة، وما كانوا يملكون من العُدَّة والعَدَد، وهو (ص) على ما ذكرنا من الضعف، وقلة الأنصار، وكثرة الأعداء من حزبه وقبيلته ومواطنيه، فضلاً عن سائر المذاهب وأصحاب الأديان في أقطار الأرض، حتى هابَهُ أعاظمُ الملوك، (كقَيْصَر) مَلِك الروم (والنَجاشي) ملك الحَبَشة (والحارث الغساني) مَلِك الشامات (والهوذة بن عُلا) ملك اليمن (والمُقَوْقَس) ملك مصر، وأعظمهم (كِسْرَى) ملك الفرس، فخضع كل منهم لمكاتيبه المهدَّدَة لهم، المذكورِ فيها اسمهُ الشريف قبل ذكر أسمائهم، بما يطول المقام بشرحها.. والحمد لله على ظُهورِ دينه وعُلُوْ كلمته ونُصْرَةِ نبيه (ص) ولو كَرِه الكافرون!!.

وليكن هذا آخِرَ ما رُمْنا جمعَه وتأليفَه نخبةً من الكتب الكثيرة الضخمة، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطِناً.. وقد تم طبعه على يدِ مُؤلِفِه الراجي رحمة ربه تعالى، حسن الحسيني اللواساني النجفي، المهاجر العاملي، المنتسب إلى ذلك النبي الأعظم ـ (صلى الله عليه وآله) وعلى خلفائه الطاهرين ـ في آخر شهر شعبان من شهور السنة ١٣٦٧ الهجرية.

المصادر والمراجع

١ ـ الإبانة، لابن بطَّة
٢ ـ الاحتجاج
٣ ـ إرشاد القلوب
٤ ـ إرشاد المفيد
٥ ـ الاستبصار
٦ ـ إعلام الورى
٧ ـ إقبال
٨ ـ إكمال الدين
٩ ـ أمالي الشيخ
١٠ ـ أمالي الصدوق
١١ ـ أمان الأخطار
١٢ ـ بحار الأنوار
١٣ ـ بشارة المصطفى
١٤ ـ بصائر الأخبار
١٥ ـ البلد الأمين
١٦ ـ تاريخ الطبري
١٧ ـ التاريخ الكبير
١٨ ـ تاريخ النسوي
١٩ ـ تاريخ الواقدي
٢٠ ـ تُحف العقول
٢١ ـ تفسير الإمام الحسن العسكري(ع)
٢٢ ـ تفسير البرهان
٢٣ ـ تفسير علي بن إبراهيم
٢٤ ـ تفسير فرات بن إبراهيم
٢٥ ـ تفسير الكشاف
٢٦ ـ التمحيص
٢٧ ـ تنبيه الخواطر
٢٨ ـ التهذيب
٢٩ ـ تفسير العياشي
٣٠ ـ ثواب الأعمال
٣١ ـ جامع الأخبار
٣٢ ـ جمال الأسبوع
٣٣ ـ الجنة
٣٤ ـ الخرايج
٣٥ ـ الخِصال
٣٦ ـ الدروع الواقية
٣٧ ـ دعائم الإسلام
٣٨ ـ ربيع الأبرار للزمخشري

٣٩ ـ روضة الواعظين
٤٠ ـ السرائر
٤١ ـ السِيَر للجويني
٤٢ ـ شرف المصطفى
٤٣ ـ صحيفة الرضا(ع)
٤٤ ـ الصراط المستقيم
٤٥ ـ ضوء الشِهاب
٤٦ ـ طِبُّ الأئمة
٤٧ ـ الطرائف
٤٨ ـ العدة
٤٩ ـ عيون أخبار الرضا(ع)
٥٠ ـ الغارات، لإبراهيم الثقفي
٥١ ـ الغُرَر والدُّرَر
٥٢ ـ غوالي اللآلىء
٥٣ ـ غيبة الشيخ
٥٤ ـ غيبة النعماني
٥٥ ـ فتح الأبواب
٥٦ ـ فرحة الغري
٥٧ ـ الفضائل
٥٨ ـ فقه الرضا(ع)
٥٩ ـ فلاح السائل
٦٠ ـ قبس المصباح
٦١ ـ قرب الإسناد
٦٢ ـ قصص الأنبياء
٦٣ ـ قضاء الحقوق
٦٤ ـ الكافي
٦٥ ـ كامل الزيارة
٦٦ ـ كتاب الاختصاص
٦٧ ـ كتاب الأنوار
٦٨ ـ كتاب الحسين بن سعيد ونوادره
٦٩ ـ كتاب الروضة
٧٠ ـ كتاب الشفاء للقاضي
٧١ ـ كتاب العقيق
٧٢ ـ كتاب النجوم
٧٣ ـ كشف الغمة
٧٤ ـ كشف اليقين
٧٥ ـ كفاية النصوص
٧٦ ـ كنز الفوائد
٧٧ ـ كنز الكراجكي
٧٨ ـ مجالس الصدوق (قده)
٧٩ ـ المحاسن
٨٠ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل
٨١ ـ مصباح الزائر
٨٢ ـ مصباح الشريعة

٨٣ ـ المصباحين
٨٤ ـ معالم العترة لعبد العزيز الحنبلي
٨٥ ـ معاني الأخبار
٨٦ ـ مقتضب الأثر لأحمد بن عياش
٨٧ ـ مكارم الأخلاق
٨٨ ـ المناقب
٨٩ ـ منتخب البصائر
٩٠ ـ المنتقى للكازروني
٩١ ـ من لا يحضره الفقيه
٩٢ ـ المنهاج
٩٣ ـ مهج الدعوات
٩٤ ـ نوادر الراوندي
٩٥ ـ الهداية

فهرس

الجزء الثاني من

تاريخ النبي أحمد(ص)

بدايةً.. غزوات وسرايا صغيرة ٧
غزوة بدر الكبرى ١٣
غزوات وسرايا بين بدر وأُحُد: ٥٥
غزوة «بني سُليم» ٥٥
غزوة «بني قينقاع» ٥٥
غزوة السويق ٥٧
غزوة ذي أَمَر ٥٨
أربع سرايا: ٥٩
سرية القَردة ٦٠
سرية عُمير بن عدي ٦٠
سرية محمد بن مسلمة ٦٠
سرية ابن عَتيك ٦٢
غزوة ذي القَصة ٦٣
غزوة بَحران ٦٤

غزوة أُحُد ٦٥
بين أُحُد والخَنْدق ١٠٠
غزوة حمراء الأسد ١٠٠
واقعتا الرجيع وبئر معونة: ١٠٥
الرجيع ١٠٥
بئر معونة ١٠٦
غزوة بني النضير ١٠٨
غزوة ذات الرقاع ١١٤
غزوة بدر الصغرى ١١٨
غزوة الأحزاب.. أو الخندق ١٢١
خدعة نُعيم بن مسعود ١٣٦
غزوة بني قُريظة ١٥٧
غزوة بني المُصْطَلِق ١٦٨
حديث الإفك ١٧٣
فكاك جويرية من السبي وزواج النبي بها ١٧٤
غزوة الحُديبية ١٧٧
غزوة خيبر ١٩٣
بعد خيبر: ٢١٦
وقائع ومواقف وسرايا: ٢١٦
عودة جعفر بن أبي طالب(ع) من الحبشة ٢١٦
حملة المؤمن «الحجاج بن عِلاط» على مشركي مكة ٢١٨
ابنة أخي «مرحب» تحاول سَمَّ النبي(ص) ٢٢٠
رجوع الشمس لعلي(ع) ٢٢٣
النبي(ص) والمسلمون في مكة، قبل الفتح.. للعمرة ٢٢٣

سَرِيَّة عبدالله بن رواحة ٢٢٦
سرية غالب بن عبدالله.. إلى بني مرة ٢٢٧
سرية عُيَيْنَة بن حصن ٢٢٧
ثلاث سرايا [بعد المتقدمات]: ٢٢٧
سرية غالب بن عبدالله.. إلى بني المُلَوَّح ٢٢٨
سرية العلاء بن الحضرمي ٢٢٩
سرية عمرو بن كعب ٢٢٩
معركة مؤتة ٢٣٠
معركة ذات السلاسل ٢٣٨
فتح مكة المكرمة ٢٥٠
غزوة حُنَين ٢٨٢
غزوة تبوك ٣٠١
قصة المباهلة بين النبي(ص) ووفد «نجران» ٣٣٦
نزول سورة «براءة» ٣٧٣
غدير خُم ٣٨٣
مُدْعِيا نبوة: مسيلمة الكذاب والأسود العَنْسي ٤٠٠
فضائل النبي(ص) وخصائصه ومعجزاته ٤٤٧
المصادر والمراجع ٥١٣